ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

رواية في اربعة مجلدات

المجلد الثالث

دار «رادوغا» موسكو

ترجمة علي الشوك
امجد حسين
غانم حمدون
مراجعة غائب طعمة فرمان

М. Шолохов

ТИХИЙ ДОН

Роман в четырёх книгах

Книга 3

На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية والصور محفوظة لدار «رادوغا» ١٩٩٠

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Ш 4702010201-268 / 031(01)-90 073-90

ISBN 5-05-002868-X
ISBN 5-05-002871-X

ايه ، أبانا الدون الهادئ المجيد
أيها الدون ، يا أبانا ، أيها الدون ، يا حامي حمانا
بورك اسمك
وطاب ذكرك
لقد طالما كنت دفاقاً ، أيها الدون
لقد طالما كنت دفاقاً رائقاً
ولكنك الآن تجرى ، أيها الدون ، طينياً
أنت كدرا كدرا تجرى .
ثم نطق الدون الهادئ المجيد :
«وكيف لي إلا أن أكون طينياً ،
فلقد سبقت نسورى الجريئة بعيداً
نسورى ، قوزاق الدون
وعلى اغترابهم تآكلت شطآني
وأنبتت رمالي الصفر على اغترابهم ضفائر طويلة» .

(أغنية قوزاقية قديمة)

الجزء السادس

١

في نيسان عام ١٩١٨ حدث انشقاق خطير في اقليم الدون . فقد انسحب مع مفارز الحرس الأحمر المتقهقرة قوزاق الجبهة القادمون من المناطق الشمالية — خوبر ، وأوست — ميدفيديتسا ، والدون الأعلى ، في حين شدد عليهم الخناق قوزاق المناطق السفلى وساقوهم نحو حدود الاقليم .

وقد انضم قوزاق منطقة الخوبر برمتهم تقريباً الى الحمر ، وأيدهم في ذلك نصف قوزاق منطقة أوست — ميدفيديتسا ، وعدد قليل من قوزاق الدون الأعلى .

ولم يتخذ هذا الشق الكبير شكله النهائي الا في عام ١٩١٨ ، بيد أن بوادره ترقى الى مئات السنين ، يوم كان قوزاق الشمال الفقراء ، المحرومون من الأراضي الخصبة في سواحل بحر آزوف ومن بساتين الكروم ومناطق القنص وصيد السمك الغنية ، ينفصلون عن تشركاسك ، بين حين وآخر ، فيغيرون على مناطق روسيا الكبرى على هواهم ، وكانوا ملاذاً للمتمردين منذ أيام ستيبان رازين .

وحتى في السنين الأخيرة ، يوم كان الاقليم برمته يموج بالثورة تحت وطأة الأوتوقراطية القيصرية فان قوزاق المناطق العليا هم الذين ثاروا علناً ، بقيادة أتماناتهم فزعزعوا النظام القيصرى من الأساس ، بمقارعة جيوش الأمبراطورية ، وسلب قوافل الجنائب الماخرة في الدون ، فبلغوا بضرباتهم مناطق الفولغا ،

ودفعوا قوزاق زابوروجيه المضطهدين الى الانتفاض .

وفي أواخر نيسان كان الحمر قد تخلوا عن ثلثي اقليم الدون . وبعد ان بات ضرورياً أن تقام حكومة المقاطعة محلية بشكل من الأشكال ، اقترح الضباط القادة من المجموعات الحربية الذين كانوا يحاربون في الجنوب ، عقد مجلس الدون العسكرى . وقد حدد يوم ٢٨ نيسان موعداً لاجتماع أعضاء حكومة الدون المؤقتة ومندوبين من البلدات ومن وحدات الجيش فى نوفوتشيركاسك .

وقد ورد قرية تتارسكي اعلام من أتمان بلدة فيشنسكايا يفيد أن اجتماعاً سيعقد في البلدة يوم الثاني والعشرين من ذلك الشهر لانتخاب المندوبين الى المجلس . وقرأ ميرون كورشونوف الاعلام في اجتماع عقدته القرية ، فتقرر ايفاده والجد بوغاتيريوف وبانتلاى ميليخوف الى فيشنسكايا .

وفي فيشنسكايا ، انتخب ميليخوف مندوباً الى المجلس العسكرى المرتقب ضمن المندوبين الآخرين . فعاد الى قريته في اليوم ذاته ، وقرر السفر الى ميليروفو في الغد بصحبة نسيبه ميرون كورشونوف لكيما يبلغ نوفوتشيركاسك في وقت مناسب . وكان ميرون يود الذهاب الى ميليروفو لابتياع الكيروسين والصابون وحاجيات منزلية أخرى ، وكذلك ليربح بعض المال بشراء الغرابيل ومعدن البابيت لموخوف .

أسريا عند انبلاج الفجر ، وراح جوادا ميرون كورشونوف الأدهمان يجران العربة الخفيفة بيسر . وقد جلس النسيبان جنباً الى جنب في المقعد المصبوغ بألوان زاهية . وحين بلغا قمة التل المطل على القرية شرعا في الحديث . وكان الألمان معسكرين في ميليروفو ، فسأل ميرون بلهفة قائلاً :

— أتظن الألمان لا يتصدّون لنا ؟ انهم معشر شرار ، اللعنة عليهم .

فطمأنه بانتلاى قائلاً :

— كلا ، لقد كان ماتفي كاشولين في ميليروفو قبل أيام ، وقال انهم يخافون القوزاق ولا يجرؤون على التعرض لهم .

— هكذا الأمور اذن . . . — فابتسم ميرون بين ثنايا لحيته الحمراء ، وعبث بسوطه المصنوع من عود الكرز . والظاهر أنه سرّ في دخيلته ، فأدار الحديث الى أمور أخرى ، وسأل : — أى نوع من الحكومة ينبغي أن نقيمها ، في رأيك ؟

— سنقيم لدينا أتماناً ، واحداً من أبناء جلدتنا . قوزاقياً !

— حقق الله الآمال ! اختاروا رجلاً طيباً . تفحصوا أولئك الجنرالات كما يتفحص الغجرى الخيل رجلا لا تشوبه شائبة .

— سوف نفعل ذلك . ما زالت بين قوزاق الدون رؤوس حكيمة .

— قد يكون ذلك ، يا قريبي . . . لكن الحمقى أيضاً لا يزرعهم أحد ومع ذلك يولدون تلقائياً — ثم تغضنت أطراف عيني ميرون ، وادلهم وجهه الأنمش وعلته سيماء الحـــزن ، وأردف : — حسبت أنني جاعل من ولدى ميتكا شيئا ما ، أردته أن يتعلم لكي يصبح ضابطاً ، ولكنه لم يتم دراسته في مدرسة الأبرشية ، فهرب في الشتاء الثاني .

وران عليهما الصمت برهة اذ راحا يفكران بأبنائهما اللذين كانا قد ذهبا فى اثر البلاشفة وراحت العربة الصغيرة تثب وثبات محمومة على الطريق الوعر ، وكان الحصان الأيمن يؤذى أحد حوافره مصلصلاً بحدوة جديدة . وأخذت العربة تتأرجح فيرتطم

الشيخان كالسمك أثناء وضع البيض .

وقال بانتلاى متنهداً :

— أين قوزاقنا الآن ، يا ترى ؟

— ذهبوا بمحاذاة نهر الخوبر . عاد فيدوت كالميك الى القرية قبل أيام ، وقد فقد حصانه . قال انهم ماضون صوب تيشانسكايا .

ثم ران الصمت عليهما مرة ثانية . وهب على ظهريهما نسيم قارس . ومن ورائهما عبر الدون كانت شمس الفجر المتوهجة تضرم النار بصمت وروعة في الغابات ، والمروج ، والبحيرات ، والفرجات بين الأشجار . وقد بدت الربوة الرملية أشبه بقرص عسل أصفر ، واكتست قمم الأمواج التي تشبه أسناح الجمال لوناً برونزياً باهتاً .

حل الربيع وثيداً عامذاك ، وكانت الغابات المكتسية بلون زرقة البحر قد استحالت خضرة ثرة هفهافة . وتفتق السهب بالأزهار ، وانحسر ماء الفيضان ، فخلف وراءه بركاً لا حصر لها تشع في المروج المنخفضة ، على أن الثلج الذى نهشه الذوبان كان لا يزال يشع بسطوع وتحد لصق المنحدرات الطينية المتعرية العالية في الوهاد .

بلغا ميليروفو مساء اليوم التالي وأمضيا الليل عند أوكراني من معارفهما يقطن عند صومعة بنية الحبوب . وفي صباح اليوم التالي بعد الفطور أسرج ميرون جواديه ومضى بالعربة صوب الحوانيت وتخطى معبر السكة الحديد بسلام ، وحينئذ شاهد الألمان لأول مرة في حياته . كان ثلاثة من مشاة الألمان يعبرون الطريق أمامه . وقد لوح أحدهم بيده ليقف ، وكان قصير القامة ، ولحيته الجعدة الكستنائية نمت حتى أذنيه .

سحب ميرون الأعنة لايقاف حصانيه ، وهو يعض على شفتيه قلقاً ، ودنا الألمان منه . فقال بروسي مديد القامة مكتنز ، وهو يبتسم مكشراً عن أسنان لامعة :

— أنظروا ، ها هو قوزاقي حقيقي حي ! انه يرتدى بزة القوزاق أيضاً . أحسب أن أولاده قد حاربوا ضدنا . دعونا نرسله الى برلين حياً . انه لقطة نادرة للعرض .

فقال ذو اللحية الكستنائية الكثة فيما هو يمر أمام الجوادين بحذر ويتقدم نحو العربة الصغيرة دون أن يبتسم :

— نريد جواديه ، وليذهب هو الى الشيطان !

وطاف حول الجوادين واقترب من العربة .

— انزل ، أيها العجوز ! نحن بحاجة الى جواديك لنقل الدقيق من الطاحونة الى المحطة . قلت لك انزل ! بامكانك استعادتهما من القومندان فيما بعد . — وأومأ بعينيه الى الطاحونة ، وبحركة لا تدع شكاً في مقصده ، ثم طلب الى ميرون أن يترجل .

واستدار رفيقاه ، وسارا نحو الطاحونة ، وهما يتلفتان الى الوراء ضاحكين . فاحمر وجه ميرون احمراراً رمادياً أصفر . وقفز من العربة بخفة بعد أن شد الأعنة الى العربة وتقدم الى رأسي الجوادين ليقودهما .

وبرق في ذهنه والرعدة تسرى في بدنه : «من المؤسف أن بانتلاى ليس معي ، سوف يأخذون الجوادين ، بحق الشيطان . ما الذى دعاني ، أن أخرج بمفردى ؟ !» .

وزم الألماني شفتيه ، وأمسك بكمّ ميرون ، وأشار اليه أن يستدير صوب الطاحونة .

فجرّ ميرون نفسه مبتعداً وقد ازداد احمرار وجهه وقال :

— اليك عني ! ارفع يديك النظيفتين عن جواديّ ، لن تحصل عليهما !

وأدرك الألماني فحوى رد ميرون من نبرة صوته . وكشر عن أسنانه البيض المائلة الى الزرقة بوحشية ، واتسعت حدقتاه بتهديد ، وصرخ بصوت غاضب وآمر ، وأسرعت يده الى حمالة البندقية المعلقة عبر كتفه ، الا أن ميرون تذكر في تلك اللحظة أيام شبابه . فسدد بجمع يده الى الرجل لكمة في عظم وجنته . فارتد وجه الرجل الى الخلف وانقطع سير خوذته . وكبا الألماني على الأرض على وجهه وهو يبصق كتلة قانية من الدم الكثيف من فمه . وبينما هو يحاول النهوض ، ضربه ميرون كرة أخرى على قفا رأسه ، وتلفت حواليه ، ثم التقط بندقية الرجل بدفعة . وراح ذهنه يعمل بسرعة وبشكل لا يصدق وضوحه . انه يعرف أن الرجل لم يعد قادراً على اطلاق النار عليه وهو يدير الجوادين ، وكل ما كان يخشاه هو أن يقع عليه بصر الألمانيين الآخرين أو الواقفين وراء السياج أو الحرس عند السكة الحديدية في المحطة .

وجرى الحصانان الأدهمان بسرعة جنونية لا مثيل لها حتى في المسابقات . وراحت عجلات العربة تجلجل بشدة غير معهودة حتى في احتفالات الزفاف وجعل ميرون يتمتم وهو يعمل بسلط السوط على صهوتي حصانيه : «أيها الرب ، نجني ! حمني ، أيها الرب ! باسم الأب ! . .» وكاد ما جبل عليه من جشع أن يدفع به الى التهلكة : فقد أراد أن يذهب بعربته الى الأوكراني لأخذ حاجياته . ولكن الحكمة غلبت ، فاستدار خارجاً من المدينة . وقطع الفرسخات العشرين الى القرية أريخوفايا أسرع (على حد قوله بعد ذلك) من النبي ايليا في عربته النارية . ساق العربة الى فناء بيت أوكراني من معارفه ، وأخبر الرجل

بما جرى له ، وهو أدنى الى الموت من الحياة ، وتوسل اليه أن يخفيه وحصانيه .

— سوف أخفيك ، يا رجل ، لكن اذا ضيقوا علي الخناق باستجوابهم فسأضطر الى اخبارهم . انك تعرف الأمر ، سيضرمون النار بالبيت ويشنقونني ان لم أفعل ذلك .

— اخفني ! سأعطيك كل ما شئت ! أنقذني من الموت فقط واخفني في مكان ما ، سأرسل لك عدداً من غنمي . ولم أبخل عليك بعشر من خيرة غنمي ! — ومضى ميرون يتضرع ويكيل الوعود ، وهو يجر عربته الى داخل المأوى .

كان يخشى المطاردة أكثر من أي شيء آخر . مكث عند الأوكراني الى أن حل الليل ، ثم انطلق بعربته ثانية كالمخبول ، حتى غطى الزبد جواديه وتناثر على جنبيهما ، وقرقعت العربة بسرعة حتى مرقت برامق العجلات كالأقراص . ولم يجر العنان الى أن خلّف ميليروفو وراءه بمسافة كبيرة وقبل أن يبلغ القرية نيجني — يابلونوفسكي ، أخرج البندقية التي غنمها من تحت المقعد ، وتفحص السير وقد كتب في أسفله اسم الألماني بحبر ثابت . ثم تنفس الصعداء مغمغماً :

— ماذا ، هل تمسكوني ، يا ابناء الشيطان ؟ لن تبلغوا ذلك !

لكنه لم يرسل الى الأوكراني الغنم الموعود . وصادف أن ذهب الى القرية في ذلك الخريف ، وحين لاحظ عيني الرجل مسمرتين فيه بترقب ، أخبره قائلاً :

— لقد ماتت أغنامنا كلها . ان وضعنا سيء بالنسبة للأغنام ، ولكنني جلبت لك بعض الكمثرى من بستاني ، اعترافاً بجميلك القديم . — ثم أخرج من العربة كيساً من كمثرى

تلفت اثناء الرحلة ، وقال له مشيحاً عينيه الماكرتين : — ان كمثراتنا جيدة ، جيدة جداً . . . — ثم ودعه على عجل .

وفيما كان ميرون يهذب بعربته الى خارج ميليروفو كان بانتلاى في محطة القطار . وقد حرر له ضابط ألماني شاب جواز مرور ، واستجوبه عن طريق مترجم ، ثم أشعل سيكاراً رخيصاً ، وقال له بأريحية :

— بامكانك أن تمضى فى حال سبيلك ، ولكن تذكر أنكم بحاجة الى حكومة ذكية . انتخبوا رئيس جمهورية ، أو قيصراً ، أو أياً تشاءون ، شريطة أن يكون رجلاً لا يخلو من العقل السياسي ويتبع سياسة موالية لألمانيا .

فحدجه بانتلاى بعينين لا ود فيها ، اذ لم تكن لديه رغبة في حل المحادثة فأخذ جواز مروره ، ومضى لشراء تذكرة .

وحين بلغ نوفوتشيركاسك دهش لكثرة الضباط الشبان في المدينة : كانوا يملأون الشوارع ، ويجلسون في المطاعم ، يتمشون مع الفتيات ويتحلقون حول قصر الأتمان أو بناية المحكمة ، حيث تقرر انعقاد المجلس .

وفي المنزل المعد للمندوبين ، التقى بانتلاى بعدد من قوزاق المناطق الأخرى وبشخص من معارفه ، وكان غالبية المندوبين من القوزاق ، ولم يكن ثمة سوى بضعة ضباط ، مع عدد أكثر بقليل من ممثلي المثقفين المحليين . وكان الحديث يدور بصورة ما حول انتخاب حكومة مؤقتة في الاقليم ، ولكن شيئاً واحداً فحسب بدا واضحاً : فقد كان انتخاب أتمان أمراً محتوماً . وكانت أسماء بضعة جنرالات قوزاق معروفين تدور على الألسن ، فراح المندوبون يتبادلون الرأى في مزايا كل من المرشحين على حدة .

وفي مساء يوم وصوله ، صعد بانتلاى الى غرفته ، بعد

أن احتسى شاى المساء ، لكي ينعم ببعض ما جلبه من طعام البيت . وضع على المائدة شيئاً من سمك الشبوط المجفف ثم قطع الخبز . وما كاد يفعل ذلك حتى انضم اليه قوزاقيان من قرية ميغولينو مع بضعة قوزاق آخرين . وابتدأ الحديث حول الوضع في الجبهة ، ثم عرّج ، رويداً رويداً ، على مسألة انتخاب الحكومة .

فقال قوزاقي من شوميلينو ذو لحية رمادية اللون وهو يتنهد :

— ليس بوسعكم أن تجدوا رجلاً أفضل من المغفور له الجنرال كاليدين رحمه الله وكتب له الراحة .

وأيده قوزاقي آخر من بلدة ايلانسكايا فقال :

— أجل والحق يقال .

وتكلم أحد المشتركين في النقاش ، وهو ضابط برتبة ملازم مندوب عن بلدة بيسرغنيفسكايا فقال بشيء من الحماس :

— ما قصدك من القول ان ليس ثمة رجل لائق ؟ ما رأيك بالجنرال كراسنوف ؟

— أى كراسنوف ؟

— أيها السادة ، ألا تخجلون من هذا السؤال ؟ انه جنرال شهير ، وهو قائد فيلق الفرسان الثالث ، مفرط الذكاء ، ويحمل وسام القديس جورج ، وهو آمر عظيم الموهبة .

فاستفزت كلمات الملازم الحماسي هذه مندوباً يمثل احدى الكتائب العاملة الى القول :

— أقول لكم بأننا نعرف كل شيء عن عبقريته ! انه لجنرال عديم النفع ! نال شهرة في الحرب الألمانية ! ولم يكن بوسعه أن يتخطى رتبة اللواء لولا الثورة .

فردّ عليه الملازم بنبرة باردة كالثلج :

— كيف تجرؤ على هذا القول ؟ وأنت لا تعرف الجنرال كراسنوف ؟ وكيف تجرؤ على أن تتحدث هكذا ! عن جنرال يحترمه الجميع ؟ لعلك نسيت أنك قوزاقي بلا رتبة .

فغلب القوزاقي الارتباك والحيرة ، وغمغم قائلاً :

— كل ما أقوله ، يا صاحب السعادة ، انني خدمت بنفسي تحت قيادته ، وفي الجبهة النمساوية دفع فوجنا الى الهجوم على الأسلاك الشائكة ، ولذلك نعتبره عديم النفع . . . وعلى كل حال فقد أكون مخطئاً . . .

فشن بانتلاى الهجوم على رجل الجبهة وكاد أن يبتلع عظم سمكة الشبوط لفرط غضبه :

— لماذا منحوه صليب القديس جورج اذا ، في رأيك ؟ يا أحمق ! لقد تعودتم على التبرم ، فكل شيء ردىء ، انكم لا تطيقون شيئاً . . . فلو أنكم ، يا اصحاب العقول ، اقتصدتم في الكلام قليلاً ، لما وقعنا في ما نحن فيه الآن من متاعب . يا لكم من عقاعق !

كانت منطقة تشيركاسك والمناطق السفلى تؤيد كراسنوف برمّتها . فالشيوخ يميلون الى جانب الجنرال حامل الوسام ، فقد قاتل معظمهم تحت أمرته في الحرب الروسية — اليابانية . اما الضباط فيملأ سجله قلوبهم غبطة ، اذ كان في الماضي ضابطاً في الحرس ، وهو جم الثقافة ، فقد كان قريباً الى قصر الأمبراطور وخدم في حاشيته . وقد رضي به المثقفون المتحررون لأنه لم يكن جنرالاً فحسب ، بل أديباً أيضاً ، فقد ظهرت له قصص عن حياة الضباط في ملاحق مجلة «نيفا» ، فكانوا يعتبرونه من المثقفين رغم أنه رجل عسكرى .

وكانت بين المندوبين دعاية قوية لكراسنوف ، فبدت أسماء

الجنرالات الآخرين شاحبة لا أهمية لها امام اسمه . وقد أشاع الضباط المؤيدون لكراسنوف أن بوغايفسكي متواطئ مع دينيكين ، واذا تم انتخابه لمنصب الأتمان فان امتيازات القوزاق واستقلالها الذاتي ستزول حالما يتم القضاء على البلاشفة ويدخل الحرس الأبيض موسكو .

وكان لكراسنوف معارضوه أيضاً . فقد سعى عبثاً أحد المندوبين وهو معلم مدرسة ، أن يثير الشكوك حول سمعة الجنرال . فراح يدور على غرف القوزاق وينفث حقده في آذانهم المشعرة :

— كراسنوف ، ها ؟ انه لجنرال تافه ، اكثر تفاهةً كأديب ! يلعب على الحبلين ، ومهرج قصر ! انه يحاول الحصول على شهرة على نطاق الأمة ، كما يقال ، ثم يبقى في الوقت نفسه ديمقراطياً بريئاً . انتبهوا لما أقول ، انه سيبيع الدون لأول مشتر ، بقفله ، وعتاده ، وماسورته ! يا للنكرة ! ليس هو برجل دولة قط . ان أكاييف هو الرجل الذى نريده ، فهو يختلف عنه تماماً .

بيد أن المعلم لم يصب أى نجاح . ففي الأول من أيار ، بعد ثلاثة أيام من انعقاد المجلس ، دبّ الحماس بالمجتمعين حين تعالت الهتافات تنادى بالجنرال كراسنوف .

— لا بد من دعوة الجنرال كراسنوف !

— روعة !

— نجلّه !

— نفتخر به !

— دعه يأتي ويحكى لنا عن الحياة !

واستجاب القوزاق للتصفيق الحاد الذى ضج به الضباط ، فشرعوا يهبدون أكفهم بارتباك . وكانت الأيدى السود ، التي صلبها الكدح تبعث صوتاً جافاً خشناً ، يختلف تماماً عن الموسيقى

الرقيقة التى تنبعث من الأكف الناعمة للسيدات والضباط والطلاب الذين ملأوا الشرفات والممرات .

ولكن ما ان خطا جنرال مديد القامة الى المنصة ، وكأنه يسير في استعراض عسكرى حتى دوت القاعة بعاصفة من التصفيق والهتاف . كان رشيقاً وجميلاً رغم تقدمه في السن ، وقد انتصب وكأنه يقف أمام مصور ، تزين صدره الصلبان والأوسمة ، ويعبر وجهه عن عميق المشاعر ، فبدا لكثير من الحاضرين وكأنه يبعث بمظهره جلال الأمبراطورية السالف . وهو يتأمل متأثراً كراسنوف الواقف على المنصة .

اغرورقت عينا بانتلاى ، فتمخط في منديل أحمر أخرجه من قبعته ، وقال في نفسه : «هذا هو الجنرال ! يوسع المرء أن يرى فوراً أنه رجل حقاً ! يشبه الأمبراطور قليلاً ، بل هو أبهى منه طلعة . ان من السهولة بمكان أن يحسبه المـــرء الكسندر الراحل» .

ومضى المجلس — وقد سمي بمجلس انقاذ الدون — في أعماله بخطى وئيدة . واتخذ ، باقتراح من رئيسه يانوف ، قراراً حول شرائط الكتف وشارات الرتب العسكرية .

ثم ألقى كراسنوف كلمة أعدها خير اعداد . فتحدث بكلمات مؤثرة عن روسيا التي تعاني لعنة البلاشفة ، وعن سالف جبروتها ، وعن مصير الدون . ثم أوجز الوضع الراهن ، مشيراً الى الاحتلال الألماني اشارة عابرة ، وأثار ضجة من الاستحسان حين ختم كلمته منوهاً باحتمال حصول الدون على الاستقلال حين يتم القضاء على البلاشفة .

— سيحكم المجلس العسكرى اقليم الدون . وسوف يستعيد القوزاق ، وقد حررتهم الثورة ، نظام حياتهم القديم الرائع برمته ،

واننا ، كأجدادنا في الأيام الخوالي ، سنهتف بأصوات داوية شديدة : نحن ، قوزاق الدون الكريم ، نرحب بك ، يا قيصر موسكو الحجرية الأبيض !

وتم انتخابه أتماناً مساء في الثالث من ايار بأغلبية مائة وسبعة أصوات مقابل ثلاثين ، وامتناع عشرة عن التصويت . بيد أنه أبى قبول صولجان الأتمان من يد ضابط الجيش حتى وافق المجلس على بعض الشروط . فقد طلب منحه صلاحيات مطلقة بحكم منصبه أتماناً ، والموافقة على بعض القوانين الأساسية . وقال :

— ان بلدنا على شفا الخراب ! فلا يسعني قبول الصولجان الا عند توفر ثقة تامة بالأتمان . ان الظرف يقتضي أن أعمل بثقة تامة ، ووعى بهيج بأن المقاييس الشرعية الثابتة قد حلت محل التسيب والفوضى التي جاء بها البلاشفة .

ولما كانت المقاييس المشار اليها لا تعدو كونها قوانين العهد الأمبراطورى السابق ، وقد أجرى عليها تعديل طفيف لكي تلائم الوضع الجديد في الدون ، فقد وافق المجلس عليها بكل حماس فكيف لا يوافق عليها ؟ وافق بفرح ، فان كل شيء حتى العلم المعدل بشكل غير موفق كان يحمل طابع الأيام السابقة : خطوط طولانية ذات اللون الأزرق ، والأحمر ، والأصفر (معبرة عن القوزاق ، والمستوطنين الأجانب ، والكالميك) ، ولم يدخل تغيير جذرى الا على شعار الدولة المرسوم على الترس ، ارضاء لنفسية القوزاق . فاستعيض عن النسر الكاسر ذى الرأسين والجناحين المشرعين ، والمخالب المسلولة ، بقوزاقي عار يعتمر قبعة من جلد الخراف ، متسلح بسيف ، وبندقية ، وعتاد ، قد امتطى برميل خمر .

وقد وجه أحد المندوبين السذج ، المتزلفين ، سؤالاً ذليلاً :

— ربما يقترح صاحب السعادة تعديلاً أو اعادة النظر في بعض القوانين المطروحة ؟

فابتسم كراسنوف متلطفاً وأجاز لنفسه أن يمزح . فحوّم على المجتمعين بنظرة سريعة وأجاب بصوت من يتمتع باهتمام ورضى الجميع :

— أجل ، بوسعي أن أفعل ذلك . المواد ثماني وأربعون ، وتسع وأربعون ، وخمسون ، الخاصة بالعلم ، وشعار الدولة ، والنشيد الوطني . انا على استعداد للقبول بأى علم ، ما خلا العلم الأحمر ، وبأى شعار ما خلا النجمة السداسية اليهودية أو الشارة الماسونية ، وبأى نشيد ما خلا النشيد الأممي .

فصادق المجلس على هذا الاقتراح وسط ضجة من الضحك ، وظل الناس يتناقلون دعابة الأتمان فترة طويلة .

وارفضّ المجلس في الخامس من أيار بعد أن ألقيت الكلمات الختامية . ووعد آمر الجيش الجنوبي ، العقيد دينيسوف ، وهو ساعد كراسنوف الأيمن ، أن يضع حداً للتخريب البلشفي في المستقبل القريب . وقد توجه المندوبون الى أهلهم هاتفين مغتبطين بنجاحهم في اختيار أتمانهم ، وبآخر الأخبار الواردة من الجبهة .

استقل بانتلاى القطار عائداً من عاصمة اقليم الدون ، وكان متأثراً عميق التأثر ، يكاد البشر يطفح منه ، شاعراً باليقين الراسخ أن صولجان سلطة الأتمان وقع في يد أمينة ، وأن البلاشفة سيقهرون بسرعة ، وأن ولديه سيعودان الى مزرعتهم عما قريب . وبينما هو في القطار وقد ارتفق طاولة العربة كان ما يزال بوسعه

أن يسمع أنغام نشيد الدون ينشد عند الوداع . وقد تغلغلت كلماته المنعشة الى أعماق وعيه ، وبدا له أن «الدون المسيحي الهادئ قد هبّ بالفعل واستيقظ» .

ولكن ما كاد القطار يقطع بضعة فرسخات بعد نوفوتشيركاسك حتى شاهد من النافذة دوريات أمامية من الخيالة البافارية ، وكانت جماعة من الفرسان تمضي بجانب الخط الحديد ميمّمة صوب القطار . كان الفرسان جالسين على سروجهم بيسر ، تلتمع أكفال خيلهم الأسيلة قصيرة الذيل . فمال بانتلاى الى الأمام ، وقد انعقد حاجباه ألماً ، وراح يراقب حوافر الجياد تدق أرض القوزاق بزهو ، وحين مروا به قبع في مقعده وظهره ازاء النافذة ، يجر أنفاسه بمشقة .

٢

تدفقت صفوف طويلة من القطارات ، تحمل من الدون الدقيق الأبيض ، والزبدة ، والبيض ، والماشية الى ألمانيا عبر أوكرانيا . وكان يحرس كل قاطرة جندى ألماني بقمصلة زرقاء رمادية ، وقبعة مستديرة لا رفوف لها ، وحربة مشكوكة . وراح الألمان يدوسون دروب الدون بأحذيتهم ، ذات الكعوب الحديدية ، المصنوعة من الجلد الاصفر الفاخر . وكان الخيالة البافاريون يذهبون بجيادهم لسقايتها من الدون . ولكن شباب القوزاق مجندين لتوهم كانوا منهمكين في قتال كتائب بتلورا على الحدود الفاصلة بين الدون وأوكرانيا . وقد قتل زهاء نصف جنود فوج قوزاق الدون الثاني عشر الذى شكل حديثاً ، قرب ستاروبيلسك بغية الاستيلاء على رقعة جديدة من الأرض الأوكرانية .

وفي الشمال تبادلت الأيدى قصبة أوست — ميدفيديتسكايا مراراً وتكراراً . فقد استولت عليها أول الأمر مفرزة من قوزاق الحرس الأحمر التابعة لميرونوف ، ولم تمض ساعة حتى طردتهم منها مفرزة الأنصار البيض التابعين لألكسييف ، فطرزت دروبها ستر تلامذة المدارس الثانوية وطلاب الكليات الذين يؤلفون العمود الفقرى للمفرزة الاخيرة .

وراح قوزاق الدون الأعلى يتدفقون امواجاً من قصبة الى أخرى . وتقهقرت مفارز ميرونوف صوب حدود محافظة ساراتوف . فقد تركوا وراءهم منطقة الخوبر برمتها ، وما ان حلت نهاية الصيف ، حتى سيطر على الحدود جيش الدون المؤلف من القوزاق القادرين على حمل السلاح من شتى الأعمار .

وبعد أن أعيد تنظيم الجيش ، وعزز بضباط من نوفوتشيركاسك ، بدأ يكتسب مظهر قوة محاربة حقيقية : فقد دمجت المفارز الصغيرة التي أرسلتها مختلف المناطق ، وأعيد بناء الكتائب النظامية من الرجال الذين بقوا على قيد الحياة في الحرب الألمانية ، وتشكلت من مجموعها فرق ، وفي الأركان العامة ، استبدل نواب الضباط بعقداء من المحاربين القدماء ، وقد جرى تغيير القادة الضباط بالتدريج أيضاً .

وحين أوشك الصيف على نهايته كانت الوحدات القتالية التي تم تشكيلها من مئات القوزاق من ميكولينسكايا ومشكوفسكايا وكازانسكايا وشوميلينسكايا بامر من الجنرال الفيوروف قد اجتازت حدود الدون واحتلت دونيتسكويه اولى القرى الأمامية من اقليم فورونيج ، وأحكم الحصار على بلدة بوكوتشار الصغيرة .

• • •

ظلت سرية مؤلفة من قوزاق تتاركي تسير ، طوال أيام أربعة ، نحو الشمال خلال القرى والنواحي ، بقيادة بيوتر ميليخوف. وكان الحرس الأحمر ، في مكان ما الى اليمين ، يتراجع صوب سكة الحديد دون أن يجازف بالقتال . ولم يعثر القوزاق أثناء مسيرتهم ، على أثر للعدو ، كما أنهم لم يقطعوا مسافات طويلة دفعة واحدة . فقد قرر بيوتر ، وسائر القوزاق ، فيما بينهم ، أن ليس ثمة من داع للاسراع الى حتفهم ، فلم يقطعوا أكثر من ثلاثين فرستاً دفعة واحدة .

وفي اليوم الخامس دخلوا قصبة كوميلجينسكايا وعبروا نهر الخوبر عند ضيعة دوندوكوفو . وكانت حشود البرغش تخيم على المرج كستار من الموسلين ، وطنينها الناعم الرجراج لا ينقطع . فكان يدخل آذان وعيون الخيل وفرسانها ، فتزنخر الجياد وتنفض رؤوسها ، ويلوح القوزاق بأيديهم ولا يتوقفون عن تدخين تبغهم المحلي .

ودمدم خريستونيا ، ماسحاً عينه الدامعة بكمه :

— انها رياضة جميلة ، عليها اللعنة !

فقال غريغورى باسماً :

— هل دخلت واحدة في عينك ؟

— لا بد أنها سامة ، انها تخز كالشيطان !

ثم سحب خريستونيا جفنه المحمر ودفع اصبعه الخشنة فوق كرة العين ، مدلّياً شفته السفلى ، وفرك عينيه بعض الوقت بظهر يده .

وكان غريغورى يسير بجانبه . فقد بقيا سوية منذ أول يوم غادروا فيه تتاركسي . ثم انجذب اليهما أنيكوشكا أيضاً ، وقد

ازداد في الأسابيع الأخيرة سمنة ، فبات أشبه بامرأة أكثر من أى وقت مضى .

لم يكن تعداد السرية يبلغ المائة تماماً . وكان مساعد بيوتر هو رئيس العرفاء لاتيشيف الذى صاهر عائلة من تتارسكي . وكان غريغورى آمراً لأحد الرعال . وكان قوزاق رعيله برمتهم تقريباً ، من جنوب القرية : خريستونيا ، أنيكوشكا ، فيدوت بودوفسكوف ، مارتن شامل ، ايفان توميلين ، بورتشيلوف الطويل ، زاخار كورولبوف الشبيه بالدب ، بروخور زيكوف ، ميركولوف ، وهو من دم غجرى ، يبيفان ماكساييف ، يغور سنيلين ، وبضعة عشر قوزاقياً آخر أصغر منهم عمراً .

وكان الرعيل الثاني بقيادة نيكولاى كوشيفوى ، والثالث بقيادة ياكوف كولوفيدين ، والرابع بقيادة ميتكا كورشونوف ، الذى رقي الى رتبة عريف من قبل الجنرال ألفيروف نفسه وذلك اثر اعدام بودتيلكوف .

كانت السرية تبعث في جيادها الدفء بخبب نشاط . ودار بهم الطريق حول غدران فائضة ، ثم ولج أخاديد تغطيها أشجار الصفصاف الفتية والحلفاء ، ثم تعرج بهم الدرب عبر المروج .

وتعالى هدير عميق من ضحكات ياكوف بودكوفا في الصفوف الخلفية ، فردد صداه أندريه كاشولين بضحكاته الرخيمة الرفيعة ، وكان هذا قد نال شرائط عريف لهدره دماء رفاق بودتيلكوف .

وكان بيوتر ميليخوف يمضي الى جانب الرتل على صهوة جواده بصحبة لاتيشيف وهما يتحدثان بهدوء . وراح لاتيشيف يعبث بأنشوطة سيفه الجديدة ، وبيوتر يمسد بيسراه على جواده ويحك رأسه بين الأذنين . وبدت على وجه لاتيشيف المكتئر

ابتسامة ، وظهرت من تحت شاربه الخفيف أعقاب أسنانه التي اصفرت من الدخان .

وسار وراء الجميع قوزاقي يدعو أنتيب افديفييتش ، ابن بريخ يلقبه القوزاق أنتيب بريخوفيتش .

مضى القوزاق يتحادثون فيما بينهم ، وكانوا يخالفون نظام المسيرة ، بين الحين والحين ، ليسير كل خمسة معاً . وكان البعض منهم يمعن النظر في المنطقة التي لم يألفوها من قبل ، والمرج الذى تنتشر فيه البرك كبثوز الجدرى ، والحاجز الأخضر من الصفصاف والحور في المدى . ويحسب الناظر الى عدتهم ، أنهم لا ريب ماضون في حملة طويلة . فخروجهم ملأى بالثياب والتجهيزات ، وقد لفوا معاطفهم بعناية وحزموها خلف سروجهم . وكانت سيور الأعنة قد شمعت جيداً ، وبدا كل شيء مرتباً على ما يرام . كانوا قبل شهر على يقين أن الحرب لن تقع ، وها هم الآن ماضون ، وقد أيقنوا أن اراقة الدماء أمر لا معدى عنه . وكانت هذه الفكرة تشغل بال الجميع : «ان جلدك اليوم عليك ، ولكن الغربان ستدبغه في البرية غداً» .

مر طريقهم بقرية سقوفها من القصب . وأخرج أنيكوشكا من جيب سرواله كعكة من صنع بيته ، وقضم نصفها ، وجعل يمضغ بقوة وفكاه يتحركان كفكي الأرنب .

فألقى خريستونيا اليه نظرة ، وسأله :

— جائع ؟

— لِـمَ لا . . . وقد خبزته زوجتي .

فقال خريستونيا :

— أنت تفرط في الأكل ! لا بد أن لك بطن خنزير ! — ثم التفت الى غريغورى وأردف بلهجة شاكية غضبة : — يا

له من أكول . هذا العفريت القذر ! أين يضع كل ذلك ؟ حين أتطلع اليه هذه الأيام اشعر بالفزع : فهو صغير الجسم ولكنه يبتلع الطعام فى بثر بلا قرار .

— ان ما آكله هو من مالي . أتعشى بلحم الضأن وفى الصباح أشعر بالجوع . نحن نتناول كل ما هو لذيذ ومفيد للمعدة .

فضحك أنيكوشكا وغمز بعينه لغريغورى ، مؤمئاً الى خريستونيا الذى بصق بغضب .

وصاح توميلين :

— أين نقضي الليلة ، يا بيوتر بانتليفتش ؟ فقد تعبت الخيل .

وأيده ميركولوف قائلاً :

— الشمس تغيب . حان وقت المبيت .

فلوّح بيوتر بسوطه قائلاً :

— سنبيت في قرية «كلوتشي» ، أو ربما سنمضي حتى كوميلزينسك .

وابتسم ميركولوف بين ثنايا لحيته السوداء المجعدة وهمس لتوميلين :

— يحاول أن يكون عند حسن ظن ألفيروف ، يا له من ابن كلبة ! مستعجل ! . .

كان أحدهم يشذب لحية ميركولوف فاحتال عليه وقص لحيته المسترسلة بحيث غدت أشبه بأسفين معوج ، فبات مظهره موضع هزء لا ينقطع .

وحتى الآن لم يستطع توميلين أن يكبح رغبته في السخرية ، فقال :

— وحظوة مَنْ تريد أن تكسب ؟

— ماذا تعني ؟

— حين شذبت لحيتك كالجنرال . أحسبك تظن أنهم سيبادرون الى اعطائك فرقة وأنت بلحية كهذه ؟

— انك لأحمق . أليس بوسعك أن تنظر الى الأمور نظرة جدية ؟

دخلوا القرية التالية ، مازحين ضاحكين . وكان أندريه كاشولين قد سبقهم ليدبر لهم المأوى ، فلقيهم عند أول بيت ، وقال :

— رعيلنا ، اتبعوني ! الرعيل الأول الى تلك البيوت الثلاثة هناك ، الرعيل الثاني الى اليسار ، الرعيل الثالث الى هذه الدار حيث ثمة بئر وأربعة أكواخ بعدها ايضاً .

وتقدم بيوتر اليه ، قائلاً :

— هل سمعت شيئاً ؟ هل سألت أحداً ؟

— لا رائحة لهم في هذه الأنحاء ولكن هناك الكثير من العسل ، أيها الفتى . ان لدى احدى العجائز زهاء ثلاثمائة خلية . سنفتح واحدة منها هذه الليلة بكل تأكيد .

— لا تكن أحمق . سأفتح رأسك ان فعلت ذلك !

قال بيوتر ذلك ، ثم تجهم ، ولمس جواده بالسوط .

ذهب القوزاق كل الى مأوى رعيله وربطوا خيلهم فى الاسطبلات . وخيّم الظلام ، فقدم القرويون الى القوزاق العشاء ، ثم خرج الرجال الى الأفنية وجلسوا على أكوام الحطب . وبعد أن تسامروا بعض الوقت دلفوا الى مآويهم لينامو .

وعند الفجر استأنفت السرية مسيرتها صوب كوميلزنسك . ولكن رسولاً أدركهم قبل أن يمضوا شوطاً بعيداً . وفضّ بيوتر الرسالة التي جاء بها الرجل ، ثم جلس على سرجه يترنح وهو

يقرأ الرسالة ، وقد أمسك بطبقة الورق ، وكأنه يجد مشقة في حملها لثقلها ودنا غريغورى منه بجواده وسأله :

— أهو أمر ؟

— ها ها !

— ماذا يقول ؟

— علي أن أسلم السرية . فكل الرجال الذين بدأوا الخدمة في دورتي مدعوون للذهاب لتشكيل الكتيبة الثامنة والعشرين ، المدفعيون وحملة الرشاش كذلك .

— ماذا عن البقية ؟

— هاك ، انها تريد أن تضع نفسها تحت تصرف آمر الكتيبة الثانية والعشرين في أرزينوفسكايا . «على الفور» .

وحين جاء لاتيشيف ، أخذ الأمر ، فقرأه ، وشفتاه الثقيلتان تختلجان ، وقد رفع أحد حاجبيه بحدة .

وصاح بيوتر : — الى الأمام سر !

ومضى القوزاق على خيلهم سيراً وبعضهم ينظر الى بعض ، ويرمقون بيوتر منتظرين أن يقول شيئاً . وحين بلغوا كوميلزنسك أعلن لهم فحوى الأمر . وشرع القوزاق ذوو الخدمة المبكرة يتأهبون لرحلة العودة . وقرروا أن يمضوا الليل في كوميلزنسك ثم يتفرقوا في اليوم التالي كل الى سبيله . وكان بيوتر طوال يومه يتحين الفرصة للتحدث الى أخيه ، فذهب اليه في مأواه ، ودعاه قائلاً :

— تعال الى الساحة .

فتبعه غريغورى صامتاً . وجاء ميتكا كورشونوف وراءهما راكضاً ، بيد أن بيوتر قال له بجفاء :

— اليك عنا ، ميتكا ! أريد أن أكلم أخي .

فابتسم ميتكا عن فهم ، وتخلف وراءهما ، قائلاً :

— لا مانع ابداً .

ونظر غريغورى الى بيوتر بزاوية عينه ، فأدرك في الحال انه يضمر شيئاً جدياً . ولتفادى هذه النيّة المبيتة شرع الكلام بحيوية مصطنعة :

— انه أمر غريب ، أليس كذلك ؟ نحن لم نبتعد عن ديارنا الا مائة فرست ، واذا الناس يختلفون تماماً . انهم لا يتكلمون مثلنا ، وأبنيتهم لا تشبه أبنيتنا . أنظر الى تلك البوابة المسقفة ، ما أشبهها بالمزار . ليس عندنا شيء من هذا القبيل . وانظر ! — ثم أشار الى أحد المنازل ، وأردف : — ان افريز ذلك البيت مسقوف هو الآخر . أظنهم يفعلون ذلك كي لا يتلف الخشب .

فانتهره بيوتر قائلاً :

— أوه ، كفاك ! ليس هذا موضع الحديث ، لنمضِ قرب السياج ، فالناس ينظرون الينا .

وكان القرويون القادمون من الساحة يتطلعون اليهما بفضول . وقد وقف رجل شيخ بقميص أزرق سائب وقبعة قوزاقية ذات حافة توردت من كونها قديمة وقال :

— هل تمضون النهار هنا ؟

— نريد ذلك .

— هل عندكم شيء من الشوفان لخيلكم ؟

فرد بيوتر :

— نعم ، لكنه قليل .

— اذن ، أدخلا الى عندي ، سأعطيكما كيسين منه . . .

— الله يخليك يا جدى !

— الله معكما ! عرّجا عليّ : ها هي داري مسقفة بسفائح خضراء .

قال غريغورى عابساً وقد عيل صبره :

— حسناً ، عمّ تريد أن تتكلم ؟

— عن كل شيء ، — ثم ابتسم بيوتر ابتسامة خجل واجهاد ، وهو يعض ذؤابة شاربه القمحى : — ان الأمور ، يا غريشاتكا ، في حال ربما لا نستطيع معها أن يرى أحدنا الآخر ثانية . . .

وفجأة تلاشى ما كاد يحسه غريغورى من عداء ازاء أخيه ، فقد أُخِذ بالابتسامة البائسة وبندائه اليه باسمه الطفولى القديم «غريشاتكا» . فراح بيوتر ، يتملى وجه أخيه بحنو وقد علت شفتيه ذات الابتسامة الناعسة ، ثم كبت ابتسامته ، وتجهم وجهه اذ قال :

— أنظر كيف زرعوا الفرقة بين الناس ، يا للحثالة ! تماماً كما يشق المحراث حقلاً ، جزء الى هذه الجهة والآخر الى تلك . من الفظاعة أن يعيش المرء في زمن لا يفهم بنو البشر بعضهم بعضاً . فأنت ، مثلاً ، أنت شقيقي اللح ، ولكنني لا أفهمك ، يشهد الله أنني لا أفهمك . فأنا أحس بأنك تنأى عني أكثر فأكثر . هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ أنت تعرف أنه صحيح . اني لأخشى أن تنحاز الى الحمر . فأنت لم تكتشف نفسك بعد ، يا غريشا .

فسأله غريغورى :

— وهل اكتشفت نفسك أنت ؟

وراح يحدق في الشمس الغاربة وراء خيط نهر الخوبر الغير المرئي وراء التل الكلسي ، وسماء المغرب برمتها تشتعل

بما خلّفته الشمس من وهج ، والغيوم تولي الأدبار من الأفق مسرعة ندفاً سوداً كالفحم :

— أجل ، لقد وجدت طريقي . وليس بوسعك أن تحرفني عنه . لن أتعثر مثلك ، يا غريغورى .

— آه .

وافترت شفتا غريغورى عن ابتسامة كدر :

— كلا ، لن أتعثر ! — وفتل بيوتر شاربيه غاضباً ، وطرف بعينه ، وكأن شيئاً قد بهر بصره . وأردف : — ليس بوسعك أن تجرني الى صفوف الحمر ، حتى والحبل في عنقي . فالقوزاق ضدهم ، وكذلك أنا . ولست أرغب في أن أقف ضد القوزاق ، ولن أفعل ذلك ! كيف أعبر عن الأمر . . . ليس في ذلك حكمة ، لهم طريقهم ولى طريقي .

فقال غريغورى وقد تملكه الاعياء : — دعك من هذا القول . — ثم استدار ليذهب الى مأواه . وعند البوابة أوقفه بيوتر ، وسأله :

— قل لي ، أريد أن أعرف . . . قل لي ، يا غريغورى ، هل تنضم اليهم ؟

— لا أظن ذلك . . . لا أدرى .

جاء جواب غريغورى متعثراً متردداً . فتنهد بيوتر ولكنه كف عن استجواب أخيه . فمضى عنه مهموماً وقد غارت وجنتاه . إذ آلمه ، شأن غريغورى ، أن يرى أجمة منيعة من تجارب الحياة تعترض الدرب الذى سلكاه معاً . (انه أشبه بدرب مهدته أظلاف الماعز ، ينحدر على سفح تل ملتوياً ، ولكنه ما ان يبلغ منعطفاً ما ويهبط الى القرار حتى ينتهي فجأة عند منعطف وكأنه تحول غائصاً الى أجمة شجيرات) .

في اليوم التالي قفل بيوتر بنصف السرية راجعاً نحو فيشنسكايا . وسار بقية الفتيان تحت قيادة غريغوري صوب أرزينوفكايا . كانت الشمس منذ الصباح الباكر تستعر دونما رحمة ، وراح السهب يموج بضباب داكن ، ولاحت من خلفهم المعالم الزرق للتلال ، وترامت الكثبان الرملية وكأنها بحر من الزعفران . ومضت الجياد العرقى تتمايل في سير وئيد . وتوردت وجوه القوزاق وغدت بنية اللون بهتت من جراء فعل الشمس وباتت قرابيس سروجهم ، وركائبهم ، وشكائمهم ، يصعب لمسها باليد من شدة الحرارة . ولم يكن القيظ أخف وطأة حتى في الغابة ، حيث كان الهواء حاراً خانقاً تفوح منه رائحة المطر بشدة .

كان غريغوري يمضه حنين بائس ، وظل طوال يومه يفكر بمستقبله تفكيراً لا نسق له ، وهو يهتز على سرجه . كانت كلمات بيوتر ترنّ في أذنيه رنين خرزات المسبحة . وأشاعت مرارة الشيح الجفاف في شفتيه . وبدا الطريق وكأنه يحترق ، وانكفأ السهب الذهبي البني تحت وطأة الشمس ، تجوب فوقه نفثات الهواء اللافح ، محركة بقايا الأعشاب مثيرة الغبار .

وعند الغروب لفع الشمس ضباب رهيف ، وحالت السماء فأمست رمادية اللون . وتجمعت في الغرب سحب أسيانة ، وتعلقت فوق خط الأفق الدقيق وهي لا تكاد تبدى حراكاً . ولكن الرياح ساقتها ، فاندفعت تحمل النذير ، جارت السحب الداكنة على ارتفاع قليل خانق ، بينما اكتست حواشيها لوناً أبيض كالسكر .

عبرت الحضيرة نهيراً ، ومضت تتغلغل في غابة من الحور . وجعلت الريح تعبث بأوراق الشجر فتكشف عن أسفلها الأزرق

الحليبي وترسل حفيفاً هامس النغم . وفي مكان ما ، وراء نهر الخوبر ، تناثر رشيش مطر مائل وبرد من حواشي السحب البيض يطوقها قوس قزح متألق .

وأمضوا الليلة في قرية صغيرة موحشة . وبعد أن عني غريغوري بجواده ، خرج الى حديقة النحل . وقد أخبره مضيفه ، وهو قوزاقي كهل أجعد الشعر ، بنبرة تنم عن القلق :

— أترى تلك الخلية ؟ لقد اشتريت سرب النحل قبل أيام ، وها هي صغارها تموت لسبب ما . أنظر ، ان النحل تجرها الى الخارج .

وتوقفا عند الخلية الخشبية ، فأشار الى الفتحة ، وكانت كبار النحل ترسل طنيناً خافتاً وهي تخرج جثث الصغار وتطير بها مبتعدة .

خاوص صاحب النحل عينيه وزم شفتيه أسفاً .

كان يرتجّ في مشيته ، ويهز ذراعيه بعنف وارتباك ، فبدت غلظته تلك وحركاته اللامجدية نشازاً في حديقة النحل تلك ، حيث يكد المجتمع الهائل من النحل كداً مشتركاً رتيباً في عمله الدؤوب الحكيم . فراح غريغوري يتفرس فيه بشعور أقرب الى النفور . وزادته نفوراً طريقة كلام الرجل السريعة الصارة :

— كان عام خير على العسل . لقد حمل الصعتر زهراً جيداً ، فجمع النحل نتاجاً طيباً . ان الأقفاص خير من الخلايا . سأحصل على المزيد من هذا . . .

جلس غريغوري في المطبخ يشرب الشاى المحلى بعسل كثيف دبق كالغراء ، يعبق بالأعشاب وأزاهير المروج . وتولت تقديم الشاى ابنة رب البيت ، وهي فتاة حسناء فارعة القوام ، متزوجة من أحد الجنود . وكان زوجها قد ذهب مع الحمر

المتراجعين ، الأمر الذى جعل أباها يظهر الود والمسكنة ، فبدا وكأنه ودود مسالم . كان لا يلاحظ النظرات الخاطفة التي تصوبها ابنته الى غريغورى من تحت أهدابها وهي تزم شفتيها الرقيقتين الباهتتين . وحين مدت يدها الى ابريق الشاى ، استطاع غريغورى أن يرى الشعر الأسود الفاحم تحت ابطها . وقد التقت عيناه بعينيها المتوسلتين الفضوليتين ، أكثر من مرة ، وخيل اليه اذ تلاقت أعينهما أن الحمرة خضبت وجهها وأنها ابتسمت ابتسامة دافئة .

وبعيد الشاى قالت له :

— سوف أعد فراشك في الغرفة الأمامية — ثم ذهبت لتجلب وسادة وبساطاً . وحين مرت بجانبه لفحته بنظرة جائعة فاضحة . وبينا هي تسوى الوسادة قالت له على عجل وبصوت خافت ، وكأن الأمر ليس ذا بال : «اني أنام تحت السقيفة . فالهواء خانق في الداخل ، والبرغوث يلسع . . .»

لم يخلع غريغورى سوى جزمته ، وما ان تناهى اليه شخير القوزاقي الشيخ حتى ذهب اليها في السقيفة . فأفسحت له بجانبها ، وغطت نفسها بالفروة ، ورقدت صامتة تلامسه بساقيها . وكانت شفتاها جافتين خشنتين تنبعث منهما رائحة بصل وعذوبة شفافة . فرقد غريغورى بين ذراعيها الرشيقين الأسمرين حتى الفجر ، وراحت طوال الليل تشده اليها بضراوة ، وترضيه بشراهة وتعض شفتيه وهي تتضاحك وتتمازح حتى نز منهما الدم . وقد تركت على عنقه ، وصدره ، وكتفيه آثاراً زرقاً من قبلاتها اللاسعة ومن أسنانها الصغيرة التي تشبه أسنان الحيوان . وحين صدح الديك للمرة الثالثة حاول أن ينهض ويذهب الى الكوخ ، ولكنها حالت دون قيامه .

فجعل يبتسم تحت شاربيه المتهدلين وتوسل اليها ، جاهداً أن يفك أسار نفسه :

— دعيني أذهب ، يا عزيزتي ، دعيني أذهب ، يا توتتي الصغيرة !

— اضطجع قليلاً . . . اضطجع !

— ولكن سيروننا . سينبلج ضياء الصبح عما قريب .

— حسناً دعهم يروننا !

— وماذا عن أبيك ؟

— انه يدرى .

فرفع غريغورى حاجبيه دهشة :

— ماذا تقصدين ؟

— الواقع . . . طلب اليّ البارحة أن أضاجع الضابط ان هو أراد ذلك ، لئلا يأخذوا حصانه بسبب زوجي ، أو يلحقوا به ضرراً أشد . . . فقد ذهب زوجي مع الحمر .

فقال غريغورى بازدراء ، ولكنه شعر بالاهانة في دخيلته :

— هكذا الأمر ، اذا !

وعمدت بنفسها الى تبديد هذا الشعور الذى ساوره ، فراحت تعابث عضلة ذراعه وارتعشت وهي تقول :

— ليس زوجي الغالي مثلك .

فسألها غريغورى ، وعيناه الصاحيتان تحدقان بقبة السماء المتشاحبة : — كيف هو ، اذا ؟

— لا ترجى منه فائدة . . . انه ضعيف — ثم استكانت اليه والتصقت به ، ونمّ صوتها عن دموع جافة ، وأردفت : — عشتُ معه دون أن أذوق معه طعم حلاوة في حياتي . انه لا يفي بحاجة المرأة . — وكالزهرة الريانة بالندى تفتح أوراقها بكل

بساطة ، تفتحت لعين غريغورى روح هذه الفتاة الغريبة الساذجة كالطفل . فأصاب غريغورى الشمل ، وثار فيه الاشفاق . فراح يداعب خصلات شعر صديقته الطارئة ، وأغمض عينيه الكليلتين .

جرى نور القمر الحائل خلال قصب السقف ، وخرّ شهاب واندفع صوب الأفق بعنف ، فخلف وراءه رفلاً تلاشى وهو يتوهج في السماء الرمادية . ونادت بطة في البركة فأرسل الذكر جواباً بصوت أجش ولهان .

ذهب غريغورى الى الكوخ . وكان جسمه الخاوى خفيفاً يغمره تعب لذيذ مخدر . وأخذه النوم وعلى شفتيه طعم شفتيها المالح ، وأودع بكل عناية في أعماق قلبه ذكرى جسد القوزاقية اللهوف ، وعبقه الذى كان مزيجاً من روائح عسل الأعشاب ، والعرق ، والدفء .

أيقظه قوزاق سريته بعد ذلك بساعتين . وأسرج بروخور زيكوف حصانه وقاده خارج البوابة . وودع غريغورى رب البيت ، وهو يتحمل بثبات نظرة الأب اللافحة بالعداء ، ثم أومأ برأسه الى ابنته وهي تمر الى داخل البيت . فأحنت رأسها ، ولاحت في طرفي شفتيها الرقيقتين الشاحبتين ابتسامة وظل مرارة وحسرة .

ومضى غريغوري بجواده في الشارع الفرعي ، وهو يتلفت الى الوراء . وتعرج الطريق ماراً بالدار التي أمضى فيها ليلته ، فشاهد المرأة التي بعث فيها الدفء تحدق صوبه عبر السياج ، وراحتها السمراء تظلل عينيها . فالتفت غريغورى بحنين غير متوقع جاهداً أن يستشف ما ارتسم على محياها من تعبير ، وأن يستوعب صورتها الكاملة . بيد أنه أخفق ، فلم ير الا رأسها يدور فيما كانت عيناها تتعقبانه كما تتعقب زهرة عباد الشمس مسار الشمس الدائرى الوئيد .

* * *

سبق ميخائيل كوشيفوى على قدميه من فيشنسكايا الى الجبهة . وبلغ قصبة فيدوسييف ، بيد أن أتمان المنطقة هناك أبقاه يوماً ، ثم أعاده الى فيشنسكايا مخفوراً .

فسأل ميخائيل الكاتب قائلاً :

— لماذا تعيدونني ؟

فأجابه الرجل بتردد :

— وصلتنا تعليمات من فيشنسكايا .

واتضح أن والدته قد جثت على ركبتيها أمام مجمع القرية وتضرعت الى الشيوخ ، فبعثوا التماساً باسم مجمع القرية طالبين تعيينه راعياً في حقل المنطقة المعد للخيل ولكونه المعيل الوحيد في عائلته . وقد أخذ ميرون كورشونوف الالتماس الى الأتمان بنفسه وأفلح في اقناعه .

وصرخ أتمان المنطقة في وجه ميخائيل ، الواقف امامه باستعداد وأنهى خطابه غاضباً :

— لن نأتمن البلاشفة في الدفاع عن الدون ! بامكانك أن تذهب الى مرعى الجياد ، وسنرى بعد ذلك . فاحذر ، يا ابن الخنزير ! لقد أشفقنا على أمك ، والا كنا . . . أخرج ! . .

سار ميخائيل في الشوارع اللاهبة بدون حرس . يوجع كتفه المعطف العسكري الملفوف ، وأبت قدماه مطاوعته فقد أضنتها الكيلومترات المئة والخمسون التى قطعتها ، ولم يبلغ قريته عند المغرب الا بشق النفس . وفي اليوم التالي مضى على فرسه الى حقل الخيل ، بعد أن عانقته أمه وبكت عليه . وقد انطبعت في ذاكرته صورة وجه أمه الشائخ وبواكير المشيب في شعرها .

الى الجنوب من كاركينسكايا امتدت بقعة من أرض السهوب

البكر ، طولها نيف وثمانية وعشرون فرستاً وعرضها ستة فرستات . وقد أفرزت هذه البقعة من الأرض ، ومساحتها آلاف عديدة من الأكرات ، لرعي جياد المنطقة لذلك راح يسموها «المفروزة» . وفي كل عام ، في عيد القديس يبغور ، يسوق الرعاة قطعان الجياد من اصطبلات الشتاء ويأتون بها الى هذا المرعى . وقد أقيم في المرعى اصطبل ، وأكواخ للرعاة ، وللمشرف ، والطبيب البيطرى ، من المبالغ التي اعتمدها ناظر خزينة المنطقة . فيجلب قوزاق منطقة فيشنسكايا أفراسهم ، فيثبت الطبيب البيطرى والمشرف من أن كل فرس لا يقل ارتفاعها عن أربعة عشر شبراً ، ولا عمرها عن أربع سنين . وكانت الأفراس السليمة توزع على قطعان يضم كل منها أربعين فرساً فيقود كل فحل قطيعه من الأفراس ويرعاها بكل عناية .

ذهب ميخائيل الى الحقل على صهوة الفرس الوحيدة التي تملك عائلته . وقالت أمه وهي تمسح دموعها بصدريتها :

— ربما ستلد مهراً . . . لا تنس العناية بها ، لا تلح عليها بالعدو ، فنحن بأمس الحاجة الى فرس أخرى .

وعند الظهيرة لاح لميخائيل الكوخ وسقف الاسطبل الرمادى الكالح خلل الضباب الذى اكتنف الوادى . حثّ فرسه وصعد قمة تل فشاهد ، بوضوح تام ، الثكنات وغمر العشب الحليبي وراءها . واستطاع أن يرى الى الشرق ، على مبعدة ، ثلة بنية من الخيل تجرى نازلة الى البركة ، وكان يهذب الى جانبها فارس بدا وكأنه دمية صغيرة على ظهر فرس من لعب الأطفال .

ولج ميخائيل فناء الثكنة ، وترجل ، ثم ربط عنان فرسه بعمود سقيفة الباب ، ودخل . والتقى في المجاز العريض براعٍ ربع القامة يكسو وجهه النمش :

فسأله الراعي بنبرة لا ود فيها وهو يتفحصه من أم رأسه الى أخمص قدمه :

— من تريد ؟

— أريد المشرف .

— غير موجد ، خرج . مساعده هنا . الباب الثاني الى اليسار . ولماذا تريده ؟ من أين أنت ؟

— جئت لأشتغل راعياً .

فغمغم الرجل وهو يسير الى الباب :

— ما يحشرون لنا من هبّ ودبّ . . . ! — وكان الحبل ذو الأنشوطة الذى ألقاه عبر منكبه يخط على الأرض في أثره . وحين فتح الباب وقف وظهره الى ميخائيل ، ثم لوّح بسوطه وقال بلهجة أرق : — ان عملنا شاق ، أيها الأخ . اننا نقضي بعض الأحيان أكثر من يومين على السرج دونما راحة .

وحدق ميخائيل بمنكبيه المكورين وساقيه المعوجّتين الى الداخل . وبدت تقاطيع جسمه غير المتناسق بارزة في ضوء الباب . وقد سر ميخائيل لمنظر ساقيه المقوّستين ، وقال في دخيلته وهو يتلمس رتاج الباب : «كأنه أمضى أربعين عاماً وهو راكب برميلاً» .

استقبل مساعد المشرف الراعي الجديد بعدم اكتراث ينم عن تعال . ثم جاء المشرف نفسه بعد فترة وجيزة . وكان قوزاقياً جسيماً ، ورئيس عرفاء سابق في كتيبة الأتمان . وقد أصدر التعليمات بأن يدرج اسم ميخائيل في سجل الأرزاق ، ثم خرج واياه الى سقيفة الباب وسأله :

— هل تستطيع تدريب الخيل ؟ هل سبق لك أن روّضت حصاناً ؟

فاعترف ميخائيل قائلاً بصراحة :

— لا أستطيع أن أقول انني قمت بذلك . — وسرعان ما لاحظ ظلاً من التبرم يمر على وجه المشرف العرقان . وجعل الرجل يحك ظهره ، ثم سمّر نظره بوجه ميخائيل ، وسأله :

— هل تستطيع استعمال الحبل ذى الأنشوطة ؟

— أستطيع ذلك .

— وهل اعتدت معاملة الخيل معاملة لائقة ؟

— أجل .

فأمره قائلاً : «كن رفيقاً بدون أن تلجأ الى السوط ! لانهم كالبشر ولكنهم لا ينطقون» .

وبدا على محياه التفكير لحظة ولكن سرعان ما تلاشى ذلك التعبير ليحل محله قناع صرام من اللامبالاة .

— متزوج ؟

— لا .

فصاح المشرف جذلاً :

— أنت أحمق إذن ! ينبغي أن تتزوج !

ووقف برهة يحدق في صدر السهب الرحب وهو صامت ، ثم تثاءب ودخل الكوخ . ولم يسمع ميخائيل من شفتيه كلمة أخرى طيلة شهر أو يزيد أمضاه في الرعي .

كان في الحقل خمسة وخمسون جواداً ، يتولى كل راع العناية بقطيعين أو ثلاثة ، وقد عهد الى ميخائيل قطيع كبير يتصدره جواد عجوز شديد البأس اسمه باخار ، وقطيع أصغر منه يضم حوالي عشرين فرساً وجواداً يلقب بـ«البسيط» . وأرسل المشرف في طلب أمهر الرعاة وأشجعهم ، رجل اسمه ايليا سولداتوف ، وأخبره قائلاً :

— اليك راعياً جديداً ، ميخائيل كوشيفوى من قرية تاركسي . أره قطيعي باخار و«البسيط» واعطه حبلاً بأنشوطة . سوف يسكن في كوخك ، أره موقعه . اذهبا !

أشعل سولداتوف سيكارة وهو صامت ، ثم أومأ الى ميخائيل :

— تعال معي .

وفي سقيفة الباب أشار الى فرس ميخائيل وهي تقف في الشمس وكأنها نائمة ، وقال :

— هذه بهيمتك ؟ أهي ملقحة ؟

— كلا .

— ضعها مع باخار . انه من حقل كورولیوف لتربية الجياد مهجن بحصان انكليزى . انه عداء سريع ! حسناً ، اركب .

مضيا سوية ، وفرساهما تفجان عشباً يعلو حتى الركب وقد خلفا وراءهما الكوخ والاسطبلات . وامتد السهب أمامهما مهيب الصمت ، متلفعاً بضباب رقيق أزرق . وانهمر ضياء الشمس من سمتها عبر خيط من السحب البيضاء . وفاح من العشب الدافئ عبق مفعم لزق . والى اليمين ، توهج أديم باسم أبيض متلألئ لبركة جيروف في وهدة يكتنفها الضباب . وفي كل اتجاه ، على مرمى البصر ، فضاء أخضر لا حدود له ، ومسارب راعشة من الضباب ، والسهب الجليل يصفده قيظ الظهيرة ، وعند الأفق لاحت أكمة تسبح بطيف لازوردى خلاّب .

كان العشب عند الجذور نضيراً ذا خضرة عميقة بينما أزهرت أواقه بالمن تحت ضوء الشمس فراحت ترسل ألوانا نحاسية . وكان العشب الريشي أشعث تحت ثقل حبوب لما تنضج ، مبقعاً بنبات الايموركا ، وبدا الثيل رافعاً سنابله المحملة بالبذور نحو الشمس بكل لهفة . ولاذت بالأرض هنا وهناك شجيرات

قميئة من القصعين ، ومن جديد انساب عشب السهب غزيرا تزينه ألوان الشوفان البرى ، وعشب السلجم الأصفر ، والفربيون ، وعشب الجينكين القاسي الأناني الذى يطرد الأعشاب الأخرى من حواليه .

ومضى القوزاقيان دونما كلام . وكان ميخائيل يشعر باحساس جديد من الطمأنينة الذى لم يشعر به منذ الزمن البعيد . كان السهب يخيم عليه بصمته ، ومهابته الجليلة . وأغفى صاحبه على السرج ، مائلاً الى الأمام فوق عرف حصانه ، وقد انطوت يداه النمشاوان على قربوس السرج وكأنه على وشك أن يتلقى العشاء الرباني .

وطار حبارى من بين حوافر الخيل ، وحلق فوق واد وخوافيه البيض تسطع بوهج أبيض . وتماوجت الأعشاب بنسيم ربما كان يداعب أمواج بحر آزوف صبيحة ذلك اليوم .

وعثرا بعد نصف ساعة على قطيع يسرح على مقربة من البركة ، فاستيقظ سولداتوف وتمطى في سرجه متكاسلاً :

— هذا هو قطيع لوماكين . ولكنني لا أراه في أى مكان .

فسأله ميخائيل وهو ينظر باعجاب الى الكميت الفاقع ذى السيقان الطويلة :

— ما اسم هذا الجواد ؟

— فرازر . انه ابليس عنيف ! انظر كيف يبحلق فينا ! . . ها هو يمضي !

وابتعد الجواد فهبت الأفراس وراءه .

تسلم ميخائيل القطيعين اللذين أوكلا له ، ووضع متاعه في كوخ الحقل . وقد شاركه الكوخ ثلاثة آخرون يترأسهم سولداتوف ، الذى عرّف ميخائيل بواجباته عن طيب خاطر ، وأخبره بعادات

الجوادين وخصائصهما ، ونصحه وهو يبتسم بمكر :

— ان الأصول تقضي بأن تؤدى عملك على ظهر فرسك ، ولكنك اذا بقيت تمتطيها ، يوماً بعد يوم ، فانك ستنهكها . دعها تنضم الى القطيع ، وأسرج أفراس الآخرين ، ثم بدلها بسرعة .

وأمام عيني ميخائيل ، اختار فرساً من القطيع ، وألقى حول عنقها أنشوطة الحبل بمهارة . ثم أسرجها بسرج ميخائيل وقادها اليه :

— امتط هذه ! أحسب أن أحداً لم يروضها من قبل ، يا للشيطانة . اركبها ! — صرخ بذلك غاضباً ، ويمناه تشد على العنان بقوة ، ويسراه تضغط على خطمها الراعش . «عاملها بلطف ! ربما تصرخ على جواد في الاسطبل فيطاوعك ، ولكن الأمر يختلف هنا في البرية . راقب باخار بعين مفتوحة . اياك أن تدنو منه كثيراً والا سحقك» — أضاف ذلك وهو يمسك بالركاب ، ويربت بحنان على ضرع الفرس الرقيق المتوتر .

٣

استراح ميخائيل أسبوعاً ، يمضي سحابة يومه على ظهر جواده . لقد أذله السهب ، وأرغمه على أن يحيا حياة البرارى البدائية . كان قطيعه يسرح غير بعيد عنه ، فيجلس ميخائيل على سرجه غافياً ، أو يطرح نفسه على العشب ، ويراقب أسراب الغيوم البيض تجوب السماء ، وهو ساهم . وقد استمرأ تلك العزلة عن العالم بادئ الأمر ، فقد بدت الحياة بعيداً عن الناس شيئاً مسراً . ولكنه حين ألف تلك الحالة في أواخر الأسبوع

بدأ خاطر مبهم يقض مضجعه وكان يقول في دخيلته : «هناك يقرر الناس مصائرهم ومصائر غيرهم ، وهنا لا شغل لي سوى الاعتناء بحشود الأفراس . ينبغي أن أرحل ، والا دفعت بي هذه الحياة الى الحضيض !» . بيد أن همسة كسلى أسرت اليه : «دعهم يقتتلون : هناك يحوم الموت ، أما هنا فحرية وعشب وسماء . هناك يستشيط الرجال غضباً ، وهنا يسود السلام . علام أهتم لما يفعله الآخرون ؟» ومع ذلك شرعت أفكاره تخز طمأنينته الطبيعة الأمر الذى دفعه الى التماس صحبة الآخرين . فجرب أكثر من السابق أن ينسجم وسولداتوف ، وحاول أن يوطد رفقته به .

وجلي أن سولداتوف لم تثقل كاهله مثل تلك الوحشة . فنادراً ما كان يمضي الليل في الكوخ ، ولكنه كان على الدوام تقريباً مع قطعانه أو قرب البركة . كان يحيا حياة الحيوانات ، يوفر طعامه من الصيد ، ويفعل ذلك بمهارة فائقة . لكأنه لم يفعل في حياته شيئاً آخر غيره . وذات مرة ألفاه يجدل خيط صنارة من شعر الفرس ، فسأله :

— ماذا ستصيد بهذا ؟

— سمكاً .

— وأين السمك ؟

— في البركة .

— وأى طعم تستخدم ؟ الديدان ؟

— الخبز والديدان .

— هل تسلقه ؟

— أجففه في الشمس . اليك ، كل قطعة ! — قال ذلك اذ أخرج من جيب بنطاله قطعة من سمكة الشبوط وقدمها

الى ميخائيل بحفاوة .

وحدث أيضاً فيما كان ميخائيل يسوق قطيعه أن عثر على حبارى في فخ كان سولداتوف قد نصبه . وكان يقف عن كثب تمثال حبارى متقن الصنع . وكانت الشبكة مخفية في العشب بمهارة . وقد شوى سولداتوف الحبارى مساء ذلك اليوم فى حفرة في الأرض ، ناثراً بعض الفحم فوقها . ثم دعا ميخائيل ليأكل معه .

وفيما كان يتناول اللحم اللذيذ ، قال :

— لا تلمس الفخ ثانية ، ستفسده .

فسأله ميخائيل : — كيف حدث أن جئت الى هنا ؟

— في رقبتي عائلة — ثم صمت سولداتوف لحظة ، وسأل على حين غرة :

— اسمع ! أصحيح ما يقوله الأولاد انك من الحمر ؟

فارتبك ميخائيل اذ لم ينتظر سؤالاً كهذا :

— كلا . . . حسناً ، أجل ، انضممت اليهم . . . ثم ألقي القبض علي .

وسأله سولداتوف وفي عينيه نظرة قاتمة وصار أبطأ في مضغه :

— لماذا انضممت اليهم ؟ ما الذى كنت تبغي ؟

كانا جالسين قرب النار على شفا واد جاف ، وكان وقود الروث يبعث دخاناً كثيفاً ، وراحت لهبة صغيرة تختلج بين الرماد ، والليل من ورائهما يبعث أنفاساً لاهفة ورائحة شيح ذاوٍ . وكانت السماء بلون الحبر تخططها الشهب المتساقطة . فكلما خر شهاب ترك في السماء أثراً أشبه بالحز الذى يتركه السوط على ثفر الحصان .

وتفرس ميخائيل بحذر وجه سولداتوف الذى أضاءته النار ، ثم أجاب :

— أردت أن أناضل من أجل حقوق الشعب .

— أى حقوق ؟ أخبرني .

كان صوت سولداتوف خافتاً متهيباً ، فأحجم ميخائيل برهة ، وظن أن صاحبه وضع قطعة جديدة من الوقود على النار عامداً الى اخفاء الانطباع البادى على وجهه . ثم استجمع شجاعته وقال :

— المساواة للجميع ، ذلك ما أريد ! ينبغي ألا يكون هناك أسياد وخدم . أفهمت ؟ وسوف يتحقق ذلك يوماً ما .

— هل تعتقد أن الكاديت سينتصرون ؟

— كلا ، لا أعتقد .

فقال سولداتوف :

— هذا ما كنت تسعى وراءه إذن ؟ — وجر نفساً عميقا ثم وثب على قدميه : — ابن العاهرة ، أردت أن تغدر بالقوزاق من أجل اليهود ؟ — وكان صوته ينم عن غضب شديد . — أردت أن تقتلعنا كلنا من الجذور ؟ ها ! لكي يستطيع اليهود اقامة معاملهم في كافة أرجاء السهب ؟ لكي يستطيعوا طردنا من أراضينا ؟

ونهض ميخائيل المذهول على مهل . وظن أن سولداتوف يوشك أن يضربه ، فخطا الى الوراء . وحين رأى سولداتوف ميخائيل يتراجع لوّح بجمع يده . بيد أن ميخائيل أمسك ذراعه في منتصف الطريق ، وهصرها عند الرسغ ، ونصحه قائلاً :

— دعك من هذا يا عم ، والا دققت لك عنقك ! علام تصرخ ؟

وقفا في الظلام وجهاً لوجه . وقد انطفأت النار التي دهساها بأقدامهما ، ولم تبق سوى جمرة واحدة أطارتها رفسة من أقدامهما

فظلت تدخن في حواشيها . وأمسك سولداتوف بيسراه ياقة قميص ميخائيل ، ولمها في جمع يده ورفعها الى أعلى ، محاولاً أن يطلق يده اليمنى .

فقال ميخائيل لاهثاً : — أبعد يدك عن قميصي ، — ولوى رقبته القوية ، وأردف : — أطلق قميصي ، قلت لك ! سأسحقك ، أسمعت ؟

فزنخر سولداتوف :

— كلا . . . تسحقني ، ها . . . انتظر !

فحرر ميخائيل نفسه ودفع الآخر الى وراء ، وأصلح وضع قميصه وهو يرتجف ويشعر برغبة فظيعة لضربه ، وركله ، ويطلق الحرية ليديه .

لم يحاول سولداتوف أن يهجم عليه . فصاح وسط سيل من السباب وهو يصر بأسنانه :

— سأخبر . . . سأخبر المشرف حالاً . أيها الثعبان ! أيها الدنيء ! بلشفي ! يجب أن تلقى مصير بودتيلكوف نفسه ! الى المشنقة !

«سوف يخبرهم . . . سوف يختلق شيئا ما . سيضعونني في السجن . لن يرسلوني الى الجبهة . فلا أستطيع الانضمام الى الحمر ، لقد قضي علي !» — ودبت البرودة في أوصاله ، وراحت أفكاره ، وهي تبحث عن مخرج ، تضطرب اضطراب سمكة في بركة صغيرة خلفتها مياه الفيضان المنحسر : «سأقتله ! سأخنقه الآن ! لا مفر من ذلك» . ومنذ تلك اللحظة شرعت أفكاره تبحث عن حجة : «سأقول انه حاول قتلي . فأمسكت بخناقه . . . سأقول انه حادث عارض» .

وخطا نحو سولداتوف مرتجفاً ، ولو حاول هذا أن يهرب

في تلك اللحظة لالتحم الدم والموت فوق رأسيهما . الا أن سولداتوف وقف يزعق شاتماً ، فتوقف ميخائيل ، وساقاه تختضان ، والعرق يتصبب حدر ظهره ، وقال :

ـــ مهلاً ، ألا تسمعني ؟ سولداتوف ، كفاك ! لا تصرخ ! كنت أنت البادئ . . . ـــ كان فكاه يتحركان بعصبية ، وعيناه تجولان على غير هدى ، ثم شرع يتضرع بذلة :

ـــ كان شجاراً بين صديقين ليس الا . لم أضربك في حين أمسكت أنت بتلابيبي . ما الذى قلته لك ؟ اغفر لي . . . أى والله ، حسناً ؟

هدأ سولداتوف تدريجياً ، وبعد برهة قال وهو يلتفت منتزعاً يده من يد ميخائيل الباردة العرقانة :

ـــ انك تهز ذنبك كالأفعى ! حسناً ، لن أخبر أحداً . سأشفق على غبائك . ولكن لا ترني وجهك ثانية ، فلست أطيق مرآك . أيها الخنزير ! لقد بعت نفسك لليهود ، وليس في قلبي رحمة لأولئك الذين يبيعون أنفسهم بالمال !

ابتسم ميخائيل في الظلمة بذلة وأسى ، الا أن سولداتوف لم يستطع رؤية ابتسامته ، كما لم يستطع أن يرى من قبل قبضتي ميخائيل وهو يشدهما بقوة .

وافترقا دون كلمة أخرى . وراح كوشيفوى يلهب جواده بالسوط ويخب باحثاً عن قطيعه . كان البرق يومض جهة الشرق ، وتناهى الى سمعه هدير الرعد .

وفي تلك الليلة مرت عاصفة بالسهب ، فهبت الريح عند منتصف الليل ومضت هائجة فوق الأرض تجر في أذيالها البرد والغبار المر . كانت السماء ملبدة بغيوم جعل البرق يحرث أكداسها التي تشبه التربة السوداء . وخيم سكون طويل ، ثم جاء هدير

الرعد يحمل النذير من بعيد ، وشرعت زخة غزيرة من المطر تنيم العشب الى الأرض ، وعلى وهج البريق التالي رأى كوشيفوى الغيوم سوداء منذرة في السماء ، وخيله قد تجمعت على الأرض كالحزمة . وانفجر الرعد يدوى رهيباً وطفق المطر كالسيل على حين غرة .

همهم السهب همهمة مبهمة ، وانتزعت الريح القبعة المبتلة من على رأس ميخائيل وأطاحتها على قربوس سرجه . وخيم لبرهة صمت رهيب ، ثم مرق البرق ثانية عبر السماء ، مخلفاً وراءه ظلاماً أشد وحشة . وكان هزيم الرعد التالي من القوة ما جعل فرس ميخائيل تقعي على كفلها ، ثم شبّت مزنخرة . وبدأت خيل القطيع تدق الأرض بحوافرها . فصاح ميخائيل وهو يعت اللجام بكل قواه ، جاهداً أن يهون عليها .

ـــ قف ! هيه . . . هيه !

ومن خلال البرق المتعرج ، ذى البياض السكرى ، الذى رف بين الغيوم ، أبصر القطيع يستدير ويعدو صوبه بكل قواه ، ورؤوس الخيل تكاد تلمس الأرض ، ومناخيرها المتسعة تنشد الهواء لاهثة ، وحوافرها الحافية تدق الأرض الندية . وكان باخار في الطليعة ، يجرى بأقصى سرعته . فأدار كوشيفوى فرسه وأفلح بمراوغة القطيع ، فتدفقت الخيل مارة به ، ثم توقفت عن بعد . ولم يدرك ميخائيل أن الخيل ، وقد أهاجها الرعد وأفزعها هرعت اليه جراء صيحته ، فصرخ ثانية بصوت أعلى :

ـــ قف ! هيه . . . هيه !

وكرة ثانية سمع في الظلام هزيم الحوافر الداوى يهرع نحوه . وانتابه الهلع فضرب فرسه بالسوط ما بين عينيها ، ولكن بعد فوات الأوان : فقد ارتطمت احدى الأفراس المهوسة بكفل

فرسه فطار من على سرجه وكأنه قذف بالمقلاع . ولكنه نجا بأعجوبة ، فقد اندفع معظم القطيع يجرى الى يمينه عن بعد قليل ، غير أن فرساً واحدة أصابت ذراعه الأيمن بحافرها ، ثم نهض وابتعد حذراً وبأقصى ما يسعه من هدوء . وسمع القطيع على بعد قليل ينتظر صيحته ، على أهبة الاستعداد ليعدو نحوه ثانية باندفاعه الهائج ، وسمع الزنخرة التي تميز الفحل .

ولم يبلغ كوخه حتى انبثق الفجر .

٤

في ١٥ أيار وصل كراسنوف أتمان جيش الدون الأعظم الى مانيتشكايا ، على ظهر باخرة ، يصحبه كل من اللواء أفريكان بوغايفسكي ، رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ، والعقيد كيسلوف رئيس تموين جيش الدون ، وفيليمونوف ، أتمان الكوبان .

وقف أسياد أراضي الدون والكوبان على ظهر الباخرة يرقبون ارساءها ، وعمال المرفأ المنهمكين ، والأمواج الدكناء تترقرق تحت الرصيف . ثم دلفوا الى الشاطئ تحت أنظار الحشد الذى تجمهر في المرفأ .

كان ثمة ضباب أزرق يلفع السماء ، والأفق ، والنهار ، وحتى الدون اتخذ لوناً أزرق شاحباً لا عهد له به ، فغدا كالمرآة المقعّرة يعكس القمم البيضاء كالثلج التي تعلو الغيوم المنتفخة .

وكانت الريح مضمخة بروائح الشمس ، والسبخات اليابسة ، والعشب الميت . وسرت بين الجمهور همهمة من الكلام . وقد رحب رجال السلطة المحلية بالجنرالات ، ثم مضوا الى الساحة جميعاً .

وبعد ساعة ، عقد مؤتمر بين ممثلي حكومة الدون وجيش المتطوعين في منزل أتمان المنطقة . وكان جيش المتطوعين ممثلاً بالجنرالين دينكين وألكسييف ، والجنرال رومانوفسكي ، رئيس أركانهم ، والعقيدين رياسنيانسكي وايفالد . . .

ساد الفتور جو المؤتمر ، فاحتفظ كراسنوف بهيبته . أما ألكسييف فقد دار على الحاضرين يصافحهم ، ثم جلس الى طاولة ، وأسند خديه المترهلين الى راحتيه البيضاوين اليابستين وأغمض عينيه غير آبه لشيء . فقد سببت له الرحلة بالسيارة شعوراً بالدوار ، وكان الذبول بادياً عليه من ثقل الأحداث وتقدمه في السن ، فتهدلت زاويتا فمه على نحو أسيان ، وكانت أجفانه الزرق المعروقة ثقيلة منتفخة ، وانتشرت على عارضيه مروحة من الغضون . وتغلغلت أصابعه ، الحاطة على خده المترهل ، في شعره الأشيب المصفر . ونشر العقيد رياسنيانسكي على الطاولة خارطة مخشخشة ، يساعده كيسلوف بكل اهتمام . ووقف رومانوفسكي الى جانبهما يضغط على زاوية الخارطة بظفر خنصره . واتكأ بوغايفسكي على حافة النافذة الواطئة وراح يراقب وجه ألكسييف المتعب القانط بعطف شديد ، فقد بدا له لشدة بياضه كقناع من الجبس . فهمس بوغايفسكي لنفسه وعيناه المائعتان ، الشبيهتان ببندقتين ، مسمرتان في وجه ألكسييف : «لكم تقدمت به السن ! ما أفظع ما تبدو عليه الشيخوخة !» ولم يتيسر الوقت لكي يأخذ الآخرون مقاعدهم حول الطاولة اذ خاطب دينيكين كراسنوف بلهجة مفاجئة منفعلة :

— قبل افتتاح المؤتمر لا بد لي أن أبلغك بأننا فوجئنا للغاية حين علمنا أنك أشرت ، في توزيعك القطعات للاستيلاء على باتيسك ، أن فوجاً وبطارية ألمانيين يعملان في طابور

جناحك الأيمن . فينبغي أن أعلن بأن تعاوناً كهذا يبدو لي أكثر من مستغرب . . . هل لي أن أسأل عن الدوافع التي حدت بك الى الدخول في مفاوضات مع هؤلاء الأعداء — هؤلاء الأعداء الغادرين ! — لبلادنا ، وقبولك عونهم ؟ ولا بد أنك قد أبلغت باستعداد الحلفاء لمدنا بالمعونة . ان جيش المتطوعين يعتبر التحالف مع الألمان خيانة لهدف اعادة النظام السابق الى روسيا ، ان أعمال حكومة الدون لقيت ذات الانطباع في أوساط الحلفاء الواسعة . انني أطالبك بتقديم ايضاح حول هذا الأمر .

وانتظر دينيكين الجواب عاقداً حاجبيه بغضب .

ولولا ضبط النفس وحسن المنبت لما استطاع كراسنوف أن يحتفظ برصانته ، ولكن الغضب بدأ يفعل مفعوله فجعل فمه يرتعش بعصبية تحت شاربيه الأشيبين ، فأجاب بهدوء وأدب زائدين :

— حين يكون مصير القضية كلها معلقاً في كفتي القدر ، لا يسع المرء أن يتقزز من قبول العون حتى من الأعداء السابقين . وعلى أية حال ، فان حكومة الدون ، التي تمثل شعباً ذا سيادة تعداده خمسة ملايين ، والتي لا تعترف برعاية أحد ، لتجد من حقها أن تتصرف تصرفاً مستقلاً ، وفق مصالح القوزاق التي يفترض أن ترعاها .

وهنا فتح ألكسييف عينيه وبدا عليه جهد عظيم للانصات بانتباه . ووجه كراسنوف نظرة سريعة الى بوغايفسكي الذى كان يفتل شاربه الرفيع ، واستطرد قائلاً :

— ان الصفة الغالبة على تفكيرك ، يا صاحب السعادة ، تبدو ذات طبيعة أخلاقية ، لقد أوضحت بكلماتك ، التي تتحمل أنت مسؤوليتها ، ما يروق لك أن تدعوه خيانتنا لقضية

روسيا ، وخيانتنا للحلفاء ، وما الى ذلك . ولكني أحسبك على علم بأن جيش المتطوعين قد تلقى من عندنا قنابل باعها لنا الألمان ؟

— هل لك أن تميز ، من فضلك ، بين مسائل تختلف بطبيعتها كل الاختلاف ! لا تهمني طريقة تسلمك الذخيرة من الألمان ، بل تقبل معونة جيوشهم ! . .

ثم هز دينيكين كتفيه غضباً .

وأنهى كراسنوف كلمته مشيراً بعناية وتأكيد الى أنه لم يعد ذلك الفريق الذى عرفه دينيكين في الجبهة النمساوية الألمانية .

وعمد دينيكين الى تشتيت الصمت الذى خيم على أثر خطاب كراسنوف بأن حوّل وجهة النقاش بمهارة الى موضوع توحيد جيشي الدون والمتطوعين وتشكيل قيادة موحدة . الا أن الشجار السابق أدى في حقيقة الامر الى تدهور مستمر في العلاقات بينهما ، التي انقطعت نهائياً اثناء تنحية كراسنوف عن السلطة .

وتحاشى كراسنوف وقتئذ أن يعطي جواباً مباشراً ، بل اقترح القيام بحملة مشتركة على تساريتسين لكيما يتم الاستيلاء على أكبر مركز استراتيجي أولاً ، ولاقامة صلة مع قوزاق الأورال ، ثانياً .

ودار بينهما هذا النقاش الوجيز :

— لا أكاد أجد حاجة لايضاح ما لتساريتسين من أهمية هائلة بالنسبة الينا .

— قد يلتقي جيش المتطوعين مع الألمان . انني أرفض المضي الى تساريتسين حتى أحرر الكويان .

— أجل ، ولكن الاستيلاء على تساريتسين يشكل المهمة الأساسية . لقد خولتني حكومة جيش الدون أن ألتمس مساعدتكم ،

يا صاحب المعالي .

— أكرر ، انني لا أستطيع التخلي عن قوزاق الكوبان . .

— لا يمكن أن يكون توحيد القيادة موضوع بحث الاّ بشرط أن يتمّ الهجوم على تساريتسين — ومضغ ألكسييف شفتيه بغير استحسان .

— ليس ذلك موضوع بحث ! لن يخطو قوزاق الكوبان خطوة واحدة خارج حدودهم حتى ينظف اقليمهم من البلاشفة تماماً . ليس لدى جيش المتطوعين سوى ألفين وخمسمائة حربة ، وان ثلث جنوده خارج الخدمة الفعلية ما بين جريح ومريض .

وكانت الملاحظات المتبادلة أثناء وجبة الطعام المتواضعة ثقيلة لا معنى لها ، فبدا جلياً أن اتفاقاً ما لن يحصل . ثم قص العقيد رياسنيانسكي مغامرة مسلية نادرة لأحد رجال ماركوف ، وبدأ التوتر يخف تدريجياً بتأثير القصة المضحكة ووجبة الطعام . ولكن بعد الطعام ، حين ذهب الضباط للتدخين في قاعة الاستقبال ، ربّت دينيكين على كتف رومانوفسكي وأمال عينيه الحادتين نصف المغمضتين صوب كراسنوف وهمس :

— نابليون قروى . . . رجل يعوزه الذكاء .

فابتسم رومانوفسكي وأجاب بسرعة :

— ان بوده أن يمسك بالصولجان . . . فريق قد أثمله سلطة ملك . انه في رأيي ، ثقيل الظل .

افترقوا والعداء والكراهية تملآنهم ، ومنذ ذلك اليوم ازدادت العلاقة بين جيش المتطوعين وحكومة الدون سوءا ، وقد بلغ هذا التدهور ذروته حين علمت قيادة جيش المتطوعين بمضمون رسالة كراسنوف الى ويلهلم ، أمبراطور ألمانيا . وكان جرحى المتطوعين ، الذين يقضون أيام النقاهة في مستشفى نوفوتشيركاسك ،

يسخرون من رغبة كراسنوف في الاستقلال ، وميله الى بعث التقاليد القوزاقية القديمة . كانوا في أوساطهم يزدرونه ، ويتحدثون عنه بلهجة قاسية ، فيلقبونه بالمعلم ، ويستعملون صفة «قذير» بدلاً من «قدير» الواردة في اللقب الرسمي لجيش الدون . ويرد عليهم طالبو الاستقلال فيلقبون المتطوعين بـ«المغنين المتجولين» و«الحكام الكارتونيين» وقال شخص ذو منصب هام في جيش المتطوعين ساخراً من حكومة الدون انها «مومس تكسب أجرها في سرير ألماني» . وجاء الرد على ذلك من الجنرال دينيسوف نفسه : «لئن كانت حكومة الدون مومساً ، فان جيش المتطوعين هو القط الذى يقتات على فتات مائدتها» .

كان ذلك تلميحاً الى اعتماد جيش المتطوعين على قوزاق الدون ، الذى يقاسمهم التجهيزات العسكرية التي يتلقونها من الألمان .

كانت روستوف ونوفوتشيركاسك ، اللتان تشكلان مؤخرة جيش المتطوعين ، تعجّان بالضباط . وقد اعتاش الألوف منهم على المضاربة ، أو عملوا في العديد من تنظيمات مؤخرة الجيش أو التجأوا الى الأقارب والمعارف ، أو دخلوا المستشفيات بشهادات مزورة تشير الى أنهم مصابون بجراح . لقد مات كل شجعانهم ، اما في سوح القتال أو من جراء التيفوس والجراح ، أما الباقون ، الذين فقدوا في سني الثورة كل معاني الشرف والضمير ، فتواروا في المؤخرة كأبناء آوى ، وباتوا كالزبد العفن يطفو على مياه الزمن العاصفة . كان هؤلاء يشكلون الاحتياطي التافه والعاطل من الضباط الذين صب عليهم تشيرنتسوف ذات مرة العار والتهم ، وأهاب بهم أن يدافعوا عن روسيا . وكانوا بغالبيتهم أحط «المثقفين المفكرين» الذين ارتدوا البزة العسكرية خلال تلك الفترة . كانوا

قد فرّوا من البلاشفة ولكنهم لم يربطوا مصيرهم بالبيض ايضاً ، فعاشوا حياة التخفّي ، يتناقشون حول مصير روسيا ، ويكسبون ما يسعهم لشراء الحليب لأطفالهم ، آملين بكل جوارحهم أن تحل نهاية الحرب .

لم يكن يعنيهم ، من الذى سيحكم البلاد ، كراسنوف ، أم الألمان ، أم البلاشفة . كان كل همهم أن ينتهي كل شيء .

على أن هدير الأحداث استمر يوماً بعد يوم . ففي سيبيريا تمرّد التشيكيين ، وفي أوكرانيا حوار صاخب بلغة المدافع والرشاشات بين ماخنو والألمان . . . روسيا برمتها مطوقة بالنيران . روسيا برمتها تتلوى من عذاب الانقسام الكبير .

في حزيران اجتاحت الدون ، مثل ريح شرقية ، شائعة تقول ان التشيكيين سيحتلون ساراتوف وتساريتسين واستراخان لكي يفتحوا جبهة شرقية على امتداد الفولغا ، تمهيداً لشن هجوم على الألمان . وفي أوكرانيا شرع الألمان يمنعون من مرور الضباط الذين يتسربون خلال خطوطهم بعد أن هربوا من روسيا تحت شارات جيش المتطوعين .

أرسلت القيادة الألمانية ممثليها الى الدون ، فقد اقلقتها شائعات فتح «الجبهة الشرقية» . وفي العاشر من تموز وصل الى نوفوتشيركاسك كل من الرؤساء الأوائل فون غوغنهاوزن ، وفون ستيفاني ، وفون شلاينتس ، وهم من الجيش الألماني .

وقد استقبلهم الأتمان كراسنوف في قصره في اليوم ذاته بحضور الجنرال بوغايفسكي .

وبعد أن ذكّر الرئيس الأول غوغنهاوزن سامعيه بأن جيش الدون العظيم في قتاله ضد البلاشفة ومن أجل استعادة حدوده قد تلقى المعونة من القيادة الألمانية بكل السبل ، بما في ذلك

التدخل المسلح ، استفسر عما ستفعله حكومة الدون اذا ما لجأ التشيكيون الى القيام بعمليات عسكرية ضد الألمان . فأكد له الجنرال كراسنوف أن القوزاق سيلتزمون الحياد التام ، وأنهم ، بطبيعة الحال ، لن يدعوا أرض الدون تصبح مسرحاً للعمليات العسكرية . وقد أبدى الرئيس الأول فون ستيفاني رغبته في أن يؤيد الأتمان كلامه خطياً . وعلى هذا النحو اختتم اللقاء .

في اليوم التالي كتب كراسنوف الرسالة الآتية الى الأمبراطور الألماني :

«صاحب الجلالة الملكية والأمبراطورية ! ان حامل هذه الرسالة ، مبعوث أتمان جيش الدون العظيم الى بلاط جلالتكم الأمبراطورية ، قد خوله وزملاءه ، أن يقدموا تحياتي ، أنا أتمان الدون ، الى جلالتكم الأمبراطورية ، عاهل ألمانيا العظمى الأعلى ، وأن يعلموا جلالتكم بما هو آت : لقد تكلل بالظفر الكفاح الذى خاضه لمدة الشهرين قوزاق الدون الصناديد من أجل حرية أوطانهم ، ذلك الكفاح الذى ما زالوا يخوضون غماره بالشجاعة الفائقة التي أبداها — البوير — بنو عمومة الشعب الألماني ضد الانكليز في الآونة الأخيرة . لقد تم حتى هذا التاريخ ، تحرير تسعة أعشار أراضي جيش الدون العظيم من قبضة عصابات الحمر الوحشية . ولقد توطد النظام في داخل البلاد وأعيدت للقانون سيادته . وبفضل المعونة المادية التي قدمتها قوات جلالتكم ، أعيد الهدوء الى جنوب بلادنا ، وقد أعدت من قبلي قوات من القوزاق للمحافظة على النظام في الداخل ، وصد هجمات العدو من الخارج . وان من الصعوبة لجهاز دولة فتية ، كدولة جيش الدون ، أن يعيش بمفرده ولهذا السبب فقد عقدنا حلفاً متيناً مع قائدى جيشي القوزاق في استراخان والكوبان العقيد الأمير توندوتوف والعقيد فيليمونوف ، هادفين ، بعد تطهير أراضي استراخان من البلاشفة ، الى اقامة نظام وطيد للدولة ، على أساس اتحاد فيدرالي بين جيش الدون العظيم ، وجيش استراخان ، وكالميك مقاطعة ستافروبول ، وجيش الكوبان ، وكذلك شعوب قفقاسيا الشمالية .

وقد تمت موافقة هذه الولايات جميعها ، وقررت الدولة الجديدة ، باتفاق تام مع جيش الدون العظيم ، ألا تدع أراضيها تتحول الى ميدان للقتال الدامي ، وأن تلتزم الحياد التام . ان أتامان المنطقة «زيموفايا» سفيرنا لدى بلاط جلالتكم مخول من قبلي :

«أن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية الاعتراف بحق جيش الدون العظيم في العيش باستقلال ، وحين يتم تحرير بقية أراضي جيوش الكوبان ، واستراخان والتيريك ، وأراضي قفقاسيا الشمالية ، أن تعترفوا بحقوق السيادة للاتحاد برمته تحت اسم اتحاد الدون والقفقاس .

وأن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية أن تعترفوا بحدود جيش الدون العظيم على الأسس الأثنوغرافية والجغرافية السابقة ، وأن تمدوا يد المساعدة لحل الخلاف القائم بين أوكرانيا وجيش الدون حول مقاطعة تاغانروغ ، لصالح جيش الدون الذى ملك مقاطعة تاغانروغ لما يزيد على ٥٠٠ عام ، والذى يعتبر مقاطعة تاغانروغ جزءاً من تموتاراكان التي انبثق جيش اقليم الدون منها في الأصل .

وأن يلتمس من جلالتكم مدّ يد المساعدة في توحيد اقليم الدون ، لاعتبارات ستراتيجية ، مع مدينتي كاميشين وتساريتسين التابعتين لمقاطعة ساراتوف ، وكذلك مدن فورونيج ، وليسكي ، بوفارينو ، وتثبيت حدود اقليم جيش الدون كما هو مبين على الخارطة التي توجد في منطقة «زيموفايا» الآن .

وأن يلتمس من جلالتكم ممارسة الضغط على السلطات السوفياتية في موسكو وارغامها ، بأوامر من لدنكم ، أن تُخلي أراضي جيش الدون العظيم والولايات الأخرى التي تؤلف اتحاد الدون والقفقاس من عصابات قطاع الطريق التابعة للجيش الأحمر ، وأن تهيئ السبل لاعادة العلاقات الطبيعية السلمية بين موسكو وجيش الدون . وعلى روسيا السوفياتية أن تعوض جميع الخسائر التي لحقت سكان الدون ، في تجارتهم وصناعتهم ، بسبب الغزو البلشفي .

وأن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية مساعدة دولتنا الفتية بالأسلحة ، والعتاد ، والمعدات الهندسية ، وان وجدتم في ذلك صالحكم ، أن تقيموا في أراضي جيش الدون معامل لصناعة المدافع والأسلحة الخفيفة والقذائف والذخيرة .

ان جيش الدون العظيم ، وسائر ولايات اتحاد الدون والقفقاس ، لن تنسى المساعدات الودية التي قدمها الشعب الألماني ، الذى قاتل القوزاق معه كتفاً لكتف في حرب الثلاثين سنة ، يوم كانت كتائب القوزاق تعمل في صفوف جيش فالنشتاين وفي سني ١٨٠٧ — ١٨١٣ ، حين قاتل قوزاق الدون ، بقيادة أتمانها الكونت بلاتوف لتحرير ألمانيا ، واليوم ، وفي غمار الحرب الدامية التي دامت ثلاث سنوات ونصفاً ، في حقول بروسيا ، وغاليسيا ، وبوكوفينا ، وبولندا ، تعلّم القوزاق والألمان على حد سواء أن يحترموا شجاعة ووفاء قوات بعضهما ، وهما يقاتلان الآن معا من أجل حرية وطننا الدون ، بعد أن تصافحا حاربين نبيلين .

يتعهد جيش الدون العظيم ، وفاء لمساعدات جلالتكم الأمبراطورية ، ان يلتزم الحياد التام خلال النزاع الدولي بين الأمم ، ولا يسمح بوجود قوات مسلحة معادية للشعب الألماني في أراضيه ، وقد اقترن ذلك بموافقة أتمان اقليم جيش استراخان ، الأمير توندوتوف ، وكذلك حكومة الكوبان ، وستتم موافقة بقية أعضاء اتحاد الدون والقفقاس لدى انضمامهم .

ويمنح جيش الدون العظيم الأمبراطورية الألمانية حق الأفضلية في تصدير المقادير الفائضة عن الحاجة المحلية من منتجات القمح والدقيق ، والبضائع الجلدية والجلد الخام والصوف ومنتجات السمك واللحوم ، والدهونات الحيوانية والزيوت النباتية ومنتجاتها ، والتبغ ومنتجات التبغ ، والخيل والماشية ، والكروم ، والنبيذ وسائر غلال البستنة والزراعة ، وسوف تجهزنا الأمبراطورية الألمانية ، في مقابل ذلك ، بالمكائن الزراعية ، والمنتجات الكيمياوية ، ومواد الدباغة ، ومعدات لانتاج الوثائق الحكومية ، فضلاً عن مواد ومعدات كافية لمعامل نسيج ، وقطن ، ودباغة وكيمياء ، وسكر ، وغيرها من المعامل ، وكذلك الأجهزة الكهربائية .

وفضلاً عن ذلك ، فان حكومة جيش الدون العظيم ستمنح الصناعة الألمانية امتيازات خاصة لتوظيف رؤوس الأموال في مشاريع الدون الصناعية والتجارية ، ولا سيما في بناء واستغلال الطرق المائية الجديدة وفي وسائل المواصلات .

ان تحالفاً وثيقاً يعود بالمنافع على الطرفين وصداقة لحمتها الدماء التي

أراقها العنصران المحاربان الألماني والقوزاقي في ميدان واحد لهما قوة جبارة في مقارعة العدو المشترك .

وبعد فان هذه الرسالة لم تكتبها الى جلالتكم الأمبراطورية يد دبلوماسي ، أو عالم داهية بالقانون الدولي ، بل جندى تعوّد ، خلال المعارك المشرّفة ، أن يحترم قوة السلاح الألماني ، ولذلك ألتمس من جلالتكم أن تصفحوا لصراحة لا تعرف الحيلة والدهاء ، وأن تؤمنوا بصدق مشاعرى الخالصة .

مع مزيد من الاحترام

اللواء بيوتر كراسنوف ، اتمان الدون .

وقد عرضت الرسالة على مجلس مديرى المصالح فى ١٥ تموز ورغم التحفظ الواضح فى موقف المجلس من الرسالة ، والمعارضة الصريحة التي أبداها بوغايفسكي وبضعة آخرون من أعضاء الحكومة ، فان كراسنوف لم يتردد في تسليمها الى دوق ليختنبرغ ، المبعوث القوزاقي الى برلين ، الذى سافر الى كييف في الحال ومن هناك الى ألمانيا بصحبة الجنرال تشرياتشوكين .

وقد استنسخت الرسالة بمعرفة بوغايفسكي في مصلحة الشؤون الخارجية قبل ارسالها ، ووزعت نسخها بشكل واسع على وحدات القوزاق ومناطقهم مرفقة بالايضاحات اللازمة . وتبين أنها سلاح ماض للدعاية . فتعالت الأصوات القائلة بأن كراسنوف باع نفسه للألمان . واستعر التذمر في جبهات القتال .

أما الألمان فقد أثملهم الظفر فذهبوا بالجنرال الروسي تشيرياتشوكين الى مشارف باريس حيث قام وهيئة الأركان الألمانية العامة بمشاهدة العمل الرائع الذى كانت تؤديه مدافع كروب في دكّ معاقل الجيوش الأنكلو فرنسية .

اثناء «الحملة الجليدية» * أصيب يفغيني لستتسكي مرتين بجراح غير بليغة عاد على أثرها الى وحدته . ولكن وعكة ألمت به في أيار ، وجيش المتطوعين ينال قسطاً من الراحة في نوفوتشيركاسك ، فحصل على إجازة لمدة أسبوعين . ورغم رغبته الشديدة في الذهاب الى أهله ، قرر البقاء فى نوفوتشيركاسك ، لكيلا يخسر الوقت برحلتي الذهاب والاياب الطويلتين . وحصل رفيق من فصيله ، هو الرئيس غورتشاكوف على اجازة في الوقت ذاته ، فدعاه للاقامة فى بيته فى نوفوتشيركاسك قائلاً :

— ليس لديَّ أطفال ، وستكون زوجتى سعيدة برؤيتك ، لقد أخبرتها عنك في رسائلي .

وعند الظهر ذهبا بالعربة الى بيت منعزل قائم فى أحد الشوارع القريبة من محطة القطار . فقال غورتشاكوف :

— كان هذا محل اقامتي ، يوماً ما ، — وحث خطاه وعيناه السوداوان الكبيرتان نديتان لفرط سروره ، ثم دلف الى المنزل ، فملأ الغرف برائحة الجنود الحريفة . وهتف بالخادمة التي خرجت من المطبخ باسمة :

— أين أولغا نيكولايفنا ؟ في الحديقة ؟ اتبعني يا لستتسكي .

وفي الحديقة لاح فيء مبقّع تحت أشجار التفاح ، وكان الهواء يعبق برائحة العسل والأرض الملفوحة . والتمعت عوينات لستتسكي المعلقة على أنفه في أشعة الشمس المائلة . وفى مكان ما على خط سكة حديد بعيد ، راحت قاطرة تهدر دونما

* بذلك كان رجال الجنرال كورنيلوف يسمون تقهقرهم من روستوف الى كوبان . **المؤلف** .

كلل ، فقاطع نداء غورتشاكوف هديرها الرتيب ذلك :

— أولغا ! أولغا !

وجاءت امرأة طويلة القامة تسير في ممر الحديقة الجانبي لتستقبلهما وقد توشحت بالأصفر . توقفت لحظة ، وراحتاها تشدان على صدرها بحركة أنثوية أنيقة وكأن الرعب قد استبد بها ، ثم هرعت نحوهما وهي تصرخ ، بذراعيها الممدودتين . كانت تركض مسرعة بحيث لم يستطع لستنتسكي أن يرى سوى ركبتيها تصطفقان بتنورتها ، ورأسي خفيها المدببين ، وطوفان ذهبي من الشعر يتطاير حول رأسها باضطراب . ثم وقفت على رؤوس أصابعها ، وألقت ذراعيها العاريين ، المتوردين في أشعة الشمس ، حول عنق زوجها ، وقبلته على وجنتيه المغبرتين ، وأنفه ، وعينيه ، وشفتيه ، وعنقه الملفوح ، وكان صوت قبلاتها ينبعث كطلقات المدفع الرشاش .

وراح لستنتسكي يمسح عويناته ، ويستنشق فوح أزهار حشيشة الأوجاع . ثم ألفى نفسه يبتسم ابتسامة مصطنعة غبية الى أقصى حد .

ولما خفت ثورة فرحها فك غورتشاكوف أصابعها عن رقبته بعناية ولكن بإصرار ، ثم وضع ذراعه عبر كتفها ، وأدارها بخفة :

— أولغا ، أقدم إليك صديقي لستنتسكي .

فقالت وهي تمر عليه بعينيها الباسمتين ، دون أن تبصر شيئا لفرط سعادتها .

— لستنتسكي ؟ أنا مسرورة جداً بالتعرف إليك . زوجي أخبرني عنك . . .

ثم عادوا إلى المنزل سوية . وكانت يد غورتشاكوف المشعرة ، بأظافرها القذرة ، تطوق خصر زوجته الأهيف . فاسترق لستنتسكي

النظر إلى تلك اليد ، واستنشق عبق حشيشة الأوجاع وجسد تلك المرأة الذى بعثت فيه الشمس دفئاً فانتابه شعور طفولي بالتعاسة ، لكأن أحداً أصابه بجرح عميق دونما حق . ورمق أديم خديها الأسبل ، وفص أذنها الصغيرة الوردى ، تكاد تخفيه خصلة من شعرها الذهبي الحائل . ثم انسلت عيناه كالسحلية ، إلى فتحة ردائها ، فرأى ثدياً نافراً أبيض كالحليب ، وحلمة بنية صغيرة . وكانت تلتفت إليه بين حين وآخر بعينين تشع فيهما زرقة خفيفة ، فتلوح النظرات فيها رقة وودّ . لا يلبث أن يخزه الألم إذ تدير تيكما العينين إلى محيا زوجها الأسمر فتشعان نوراً آخر . . .

واستطاع لستنتسكي أثناء الغداء أن يتملى زوجة صديقه على نحو تام فلاحظ في قوامها الجميل وفي محياها ذلك الحسن الذاوى الذى يتفتح في المرأة إذ تشهد الثلاثين خريفاً . بيد أنها احتفظت بمعين من الشباب لم ينضب في حركاتها وفي عينيها المتضاحكتين والباردتين نوعاً ما . لربما لم يكن في وجهها ما يميزه بملامحه الجميلة وقسماته غير المتناسقة بل الجذابة . على أن ثمة تناقضاً فيها سرعان ما يلفت النظر ، كانت لها شفتا سمراوات الجنوب الحمراوان الرقيقتان اللافحتان إزاء بشرة وردية صافية وحاجبين أشقرين . وكانت تضحك بكثرة ، غير أن الاصطناع كان يبدو واضحاً في بسمتها التي تومض بأسنان صغيرة وكأنها مقصوصة . وكان صوتها الخفيض لا رنة فيه ويفتقر إلى العذوبة والعمق . وبدا جمالها مفرطاً لعيني لستنتسكي اللتين لم تشهدا طيلة شهرين إلا ممرضات الجيش المرهقات . فراح يتملّى رأسها الشموخ وعقصة شعرها الغزير ، ويرد على أسئلتها بأجوبة خرقاء ، ثم ما لبث أن آوى إلى غرفته متذرعاً بالتعب . . .

. . . مرت الأيام طافحة بالحلاوة واللهفة . وحين استعاد لستنتسكي ذكرى تلك الأيام ، بعد ذلك ، شعر إزاءها بإجلال ، ولكنه حينذاك ظل يعذب نفسه كالطفل عذاباً لا مبرر له . وقد تحاشى غورتشاكوف وزوجه لقاءه وهما يهدلان هديل اليمام . ثم عمدا إلى نقله من الغرفة الملاصقة بمخدع نومهما إلى أخرى بعيدة في ركن المنزل بحجة إجراء بعض الترميمات الضرورية فأدرك أن بقاءه يضايقهما ولكنه لم يجد رغبة في الذهاب إلى أى مكان آخر . فأمضى أياماً بطولها مستلقياً تحت شجرة التفاح ، حيث الفيء البرتقالي الأغبش ، يطالع صحفاً طبعت على ورق ردىء بعجالة ، أو يغط في نوم ثقيل لا ينعش النفس . وكان يشاركه السأم كلب صغير وسيم أبلق ، إذ كان يحس بغيرة صامتة من احتكار سيده لسيدته ، فحوّل اهتمامه إلى لستنتسكي ، وراح يرقد بجانبه وينفث الحسرات .

كان لستنتسكي يمسد على ظهر الكلب ويتمتم أبياتاً أثيرة لديه من شعر بونين * . وحين ينتهي من ترديد ما يحفظ لذلك الشاعر من شعر مزوق مضمخ بالعطور ، يستسلم للنوم من جديد . . .

وأدركت أولغا بغريزة المرأة مبعث هذا المزاج . وقد كانت متحفظة في موقفها ازاءه منذ البداية ، فزادها ذلك تحفظاً . وذات مساء عادا سوية من منتزه المدينة (فقد تخلّف غورتشاكوف وراءهما حين صادف بعض معارفه الضباط عند بوابة المنتزه) . فتأبط لستنتسكي ذراعها ، وأقلقها بأن شد مرفقها الى جنبه بقوة .

فسألته باسمة :

---

* كاتب وشاعر روسى كبير (١٨٧٠ — ١٩٥٣) . المعرب .

— علام تحدق فيّ هكذا ؟

تصور أنه وجد في صوتها نبرة خافتة تنّم عن تحد عابث ، فدفعه ذلك الى أن يغامر بورقته . وكان رأسه لبضعة أيام خلت يعج بالشعر ، وبمناحة رجل آخر . فأحنى رأسه وهمس باسماً :

قريب منها مصفد بسحرها
أحاول المستحيل استكناه سرها الملفع بالظلام
لكأنى أرنو الى شاطىء مسحور
يتوارى فى المدى وراء شحوب يأسر الألباب

فحررت يدها منه بهدوء وقالت بنبرة مرحة :

— يفغيني نيكولايفتش . . . أنا . . . لا أستطيع إلّا أن ألاحظ سلوكك تجاهي . ألا تخجل ؟ على مهلك ، على مهلك ! كنتُ أظنك على . . . غير هذه الشاكلة . هذا غير لائق ، أليس كذلك ؟ أنا هدف سيئ لمثل هذه المحاولات . تريد مطارحتي الغرام ؟ طيب ، لا تفسد علاقتنا الودية ، ولا ترتكب حماقة . ولنكن صديقين . مفهوم ؟ هاتِ يدك .

فاصطنع لستنتسكي غضبة رجل شريف ، ولكنه لم يستطع المضي في ذلك فحذا حذوها ، وانفجر ضاحكاً . وحين بلغهما غورتشاكوف ازدادت حيوية ومرحاً ، الا أن يفغيني خلد الى الصمت ، وهو يشعر بالاحتقار القاسي لنفسه طوال الطريق الى المنزل .

وعلى الرغم من ذكائها اللامع ، فقد خيل اليها بكل صدق أنهما سيغدوان بعد هذا صديقين .

وقد حقق لستنتسكي تصوراتها تلك في الظاهر ، ولكنه كاد أن يضمر لها الكراهية في قلبه ، ثم ألفى نفسه بعد بضعة أيام

يعذب نفسه بالبحث عن صفات مكروهة في شخصها وخلقها ، فأدرك أنه على شفا الوقوع في حب صادق عميق .

ونضبت أيام الاجازة ، مخلّفة رواسبها في أعماق وعيه . ثم أخذ جيش المتطوعين يستعد لكيل ضربة ، بعد أن نال الراحة والتعزيز ، فتحرك نحو الكوبان ومعه غورتشاكوف ولستنتسكي .

وجاءت أولغا تودعهما . وقد زادها ثوب أسود من الحرير جمالاً على جمالها الهادئ . كانت تبتسم بعينين دامعتين وقد أسبغت شفتاها الوارمتان على محياها ملامح صبيانية مثيرة . وانطبعت صورتها تلك فى ذاكرة لستنتسكي وظل يحتفظ ، في غمرة دماء الحرب وقذارتها ، بتلك الصورة الواضحة الثابتة ، وقد أحاطها بهالة من القدسية لفرط اخلاصه .

وفي حزيران خاض جيش المتطوعين المعركة . وبقرت بطن غورتشاكوف في الصدام الأول بشظية من قذيفة ، فنقل الى ما وراء خط القتال ، وبعد ساعة خاطب لستنتسكي ، وهو راقد في العربة والبول والدماء تنزف منه :

— لا أظن أنني سأموت . . . سوف يجرون لي عملية على الفور . . . ويقال ان ليس لديهم كلوروفورم . انها لا تسوى الموت ، أليس كذلك ؟ ولكن هب أنني مت . . . يا يفغيني ، اني الآن بكامل حواسي ، وما الى ذلك . . . لا تتخلى عن أولغا فليس لأى منا قريب . انت رجل شريف وطيب لا غبار عليك . تزوجها . . . لعلك لا ترغب في ذلك ؟

ومضى يحدق في يفغيني وفي عينيه ضراعة وحقد ، وارتجف خداه غير المحلوقين . ثم أسند بعناية يديه الداميتين الملطختين بالوحل والدم الى بطنه المبقور ، ولعق العرق الوردى من على شفتيه ، وأردف قائلاً :

— هلا وعدتني ؟ أن لا تتخلى عنها . . . اللهم الا اذا أجرى لك الجنود الروس عملية تجميل كما فعلوا بى ! أتعد بذلك ؟ انها امرأة رائعة . — والتوت تقاسيم وجهه وأضاف : — انها امرأة من بطلات تورغنيف . ليس فى هذه الأيام نساء من شاكلتها . هلا وعدتني ؟ لماذا لا تتكلم ؟

— انني أعدك .

— حسناً ، والآن اذهب الى الشيطان ! وداعاً ! . .

وصافحه بيد مرتعشة ثم جره اليه بحركة ثقيلة يائسة . وارتجف لشدة ما بذل من جهد وهو يرفع رأسه المخضل بالعرق ليضغط شفتيه المسفوعتين على يد لستنتسكي . ثم غطى رأسه بطرف معطفه على عجل وأشاح بوجهه . فلمح يفغيني ، وهو متهيّج ، قساوة صارمة على شفتيه وظلاً رمادياً ندياً على خده .

مات بعد يومين . وفي اليوم التالي بالذات أرسل لستنتسكي الى المؤخرة بعد أن أصيب بجراح خطيرة في ذراعه وفخذه الأيسرين .

كانوا في غمرة قتال عنيد لا نهاية له . وقد شن يفغيني مع كتيبته هجوماً وبعده هجوماً معاكسا ، وأهيب بفوجه للمرة الثالثة أن يتقدّم . وجعل آمر سريتهم يستحثهم للتقدم : «استمروا يا أولاد ، لا تنبطحوا ! الى الأمام من أجل كورنيلوف !» . فدب لستنتسكي يتعثر في القمح الذى لم يحصد بعد ، يحمل بيسراه رفشاً يقي به رأسه ، ويمسك بندقيته بيمناه . وبترت رصاصة معدن الرفش المستدير وهي تئز ، فأحس بوخزة من الفرح : «لم تصب !» وفي اللحظة التالية ارتمت يده جانباً بضربة خاطفة هائلة . فأسقط الرفش واندفع الى الأمام مسافة خمسين ياردة أخرى دون أن يقي رأسه بشيء . وأراد أن يحمل بندقيته

امامه ، ولكنه عجز عن رفع يده . وسرى ألم ممض في كل مفاصل بدنه ، كما ينسكب ذوب الرصاص في القالب . فاستلقى في شق محراث وراح يرسل صراخاً متواصلاً دون أن يستطيع السيطرة على نفسه . ومع أنه كان راقداً الا أن رصاصة أصابت فخذه ، فغاب عن الوعي ببطء وعذاب .

وفي المؤخرة بتروا ذراعه المهشمة وأخرجوا من فخذه كسراً من عظمة . ورقد مدة أسبوعين يمزقه اليأس والألم والحنين . ثم نقل الى نوفوتشيركاسك ، حيث أمضى ثلاثين يوماً آخر مثقلة بالضنى في المستشفى ، ما بين تبديل الضمادات ، ومواجهة الأطباء والممرضات بوجوههم الضجرة ، ورائحة اليود والكاربوليك لا تنقطع . . . وكانت أولغا تزوره أحياناً . لقد علا وجنتيها ظل أصفر مخضوضر . وزاد لباس الحزن في عمق الأسى الحنون البادى في عينيها . فكان لستتسكي يتملى وجهها الذاوى وهو صامت وقد أخفى كمه الخاوى تحت بطانيته بتكتم وخجل . وقد سألته عن تفاصيل مصرع زوجها من غير ما لهفة . وراحت تنصت اليه ، وعيناها تجولان فوق الأسرّة بشرود بيّن . وحين غادر يفغيني المستشفى ذهب لزيارتها ، فاستقبلته على درجات عتبة المنزل ، وأشاحت بوجها حين أحنى رأسه ، ذا الشعر الغزير الأشقر القصير ، ليلثم يدها .

كان قد حلق وجهه بعناية وارتدى قمصلة خاكى أنيقة تقولب قامته كعادته ، بيد أنه أحس بالعذاب من كمه الخاوى وعقب ذراعه المبتور القصير المضمّد يختلج متشنجاً في داخله ، ثم ولجا المنزل ، وقبل أن يجلس شرع في الكلام :

— رجاني بوريس قبل موته . . . جعلني أعده بعدم التخلي عنك .

— أعرف .

— كيف ؟

— أخبرني في آخر رسالة .

— كانت مشيئته أن نعيش سوية . . . وهذا طبعاً منوط بموافقتك وقبولك الزواج من ذى عاهة . أرجو أن تثقي . . . ان القاء خطاب عن مشاعرى سيبدو في مثل هذه الظروف . . . لكنني لا أريد الا اسعادك . . . من صميم قلبي .

فتأثرت بحرجه وعباراته المتقطعة المنفعلة . وقالت :

— فكرت بالأمر ، انا موافقة .

— سوف نذهب الى ضيعة والدى .

— طيب .

— هل يمكننا أن نسوى بقية الترتيبات فيما بعد ؟

— أجل .

فلمس بشفتيه يدها الرخامية باحترام . وحين رفع عينيه المتضرعتين شهد ظل ابتسامة ينزلق من شفتيها .

كان الحب والشهوة العارمة يشدان لستتسكي الى أولغا . فشرع يزورها كل يوم . كان قلبه ، وقد أضنته الحرب ، يحن الى عالم الأساطير . فراح ينظر الى نفسه كبطل في رواية كلاسيكية ، ويبحث مجهداً عن مشاعر سامية لم يحس بها لأحد ولا في أى وقت كان . ولعل مرد ذلك رغبته في التستر على بواعث جسده البدائية والتسامي بها ، بيد أن الأسطورة لم تكن لتخلو من واقع فلم تكن الجاذبية الجنسية وحدها ، بل كان ثمة خيط آخر غير منظور يشده الى هذه المرأة التي ولجت حياته عرضاً . وقد حاول أن يحلل مشاعره الغامضة فاذا به لا يدرك الا أمراً واحداً بجلاء : أنه رغم العجز الذى لحق به لما يزل نهبا لغريزة

بدائية عارمة : «كل شيء مباح لي» . كان يفغيني يهفو اليها ، بشوق مخبول ، ويستعر غيرة من بوريس الراحل مع أن أولغا كانت ما تزال في حدادها تعاني مرارة نكبتها الفاجعة . كانت الحياة من حوله تزبد كدوامة عارمة . فقد أمسى الرجال الذين تنفسوا دخان البارود ، وأعمتهم وصمّت آذانهم الأحداث من حولهم ، لا يعيشون الا لساعتهم . يحيون حياة عاطفية شرهة . ولعل هذا هو الذى حدا بلستنتسكي أن يسارع الى شد حياته بحياة أولغا ، فقد تنبأ بشكل مبهم أن القضية التي واجه الموت من أجلها مقضي عليها بفشل محتوم .

كتب الى والده يخبره بعزمه على الزواج وبقدومه وزوجته الى ياغودنويه . واختتم رسالته بهذه الكلمات الحزينة الساخرة : «لقد أديت نصيبي . وكان بوسعي مع ذلك أن أمضي بيد واحدة في محق الحثالة المتمردة . هذا «الشعب» اللعين الذى تباكى على مصيره المثقفون وسال لعابهم طيلة عقود . ولكن ، الآن ، والحق يقال ، يبدو الأمر لعيني غير ذى معنى بشكل فظيع . فكراسنوف لن يتصالح مع دينيكين وثمة في صميم كل من الطرفين مكائد ، ومؤامرات ، وفضائح ، وفساد . اني أستشعر بالهلع أحياناً . كيف لهذا كله أن ينتهي ؟ اني قادم الى البيت لاعانقك بذراع واحدة ، ولأعيش معك ، وأرقب الصراع من الخارج . لم أعد جندياً ، بل كسيحاً في جسدى وروحي . لقد تعبت . لم أعد أستطيع المضى ولذلك استسلم . وربما كان هذا دافعاً من دوافع زواجي ورغبتي في ضمان — مرس هادئ — لنفسي» .

وقرر مغادرة نوفوتشيركاسك بعد أسبوع . قبل أن يبارحا المدينة بيضعة أيام انتقل يفغيني الى منزل أولغا . وغب ليلة

تواصلهما بدت وكأن خديها يغوران وسحنتها تزداد عتمة . لقد أذعنت لالحاحه ولكنها بدت مهمومة كسيرة الخاطر من الوضع الذى وجدت نفسها فيه . ولم يكن يفغيني يعلم ، وما كان بوده أن يعلم ، أنه قد توجد مقاييس شتى للحب الذى يربط بينهما ، ولكن ثمة مقياساً واحداً للكراهية .

لم تخطر أكسينيا على بال لستنتسكي الا لماماً وعلى مضض . كان يصد عن التفكير بها شأن رجل يذود الشمس عن نفسه براحة يده . ولكن ذكريات عشرته بها ، والتي لم يستطع نسيانها أخذت تقض مضجعه بالحاح متزايد . حتى أنه خيل اليه مرة أن قطع صلته بها أمر غير ضرورى : «انها ستقبل بالأمر الواقع» بيد أن احساس اللياقة تغلب عليه . فقرر أن يتحدث اليها بعد وصوله ، وأن يفصم علاقته بها ان تيسر له ذلك .

بلغا ياغودنويه بعد أربعة أيام من رحيلهما عن نوفوتشيركاسك . وقد استقبلهما رب البيت الشيخ على بعد فرست تقريباً من الضيعة . لاحظ يفغيني بطء والده في خلع قبعته ورفع ساقه عبر المقعد في عربته الخفيفة .

قال الشيخ ، وهو يعانق الكنّة بارتباك ، دافعاً شاربه الأشيب المخضوضر الى وجنتيها :

— جئت أستقبل ضيفيّ العزيزين . دعيني ألقي نظرة عليك . واقترح يفغيني قائلاً :

— اركب معنا ، بابا . امض بنا ، يا حوذى ، آه ، هذا أنت يا جدّ ساشكا ؟ ! مرحباً ! ما زلت على قيد الحياة ؟ اجلس في محلي ، بابا . وسأجلس أنا مع الحوذى .

جلس الشيخ بجانب أولغا ، ومسح شاربه بمنديله ، وراح يتفحص ابنه بعدم اكتراث ملحوظ :

— حسناً ، كيف حالك ؟

— أنا سعيد جداً بلقائك ثانية ، يا بابا .

— اذا فأنت كسيح ، كما تقول ؟

— لا مفر من ذلك .

وحدق أبوه فيه ، جاهداً أن يخفي حنانه بما أضفى على وجهه من قسوة ، مشيحاً عينيه عن كم قمصلته الخضراء الخاوى .

قال يفغيني وهو يهز كتفيه :

— انه ليس شيئاً ذا بال . لقد اعتدته .

فسارع والده بالقول :

— بالطبع ، انك تعتاد عليه ، طالما بقي رأسك سليماً ، لقد عدت عودة مشرفة ثم انك جئت بـ«أسيرة» جميلة .

فسرّ يفغيني بالمجاملة الرقيقة التقليدية التي صدرت عن والده ، فسأل أولغا بعينيه : «ما رأيك فيه ؟» ومن ابتسامتها المشرقة وعينيها الدافئتين أدرك أن الشيخ قد أعجبها .

جر الجوادان الرماديان السريعان العربة الخفيفة فراحت تقعقع بسرعة حدر التل . وبدت للعين المرافق الخارجية ، ولبدة البستان الخضراء المتماوجة ، والمنزل ذو الجدران البيض وأشجار الاسفندان تظلل النوافذ . فهتفت أولغا :

— يا للروعة ! يا لروعة كل شيء هنا !

واندفعت كلاب البرزوى السود خارجة من الفناء وأحاطت بالعربة ففرقع الحوذى ساشكا بسوطه على أحدها حين أراد القفز الى داخل العربة ، وصاح : «ستدهسك العجلات بعد هذا ، أيها الشيطان !»

أدار يفغيني ظهره الى الجوادين ، وحين زنخرا رشت الريح القطرات الصغيرة على عنقه .

وعلت وجهه ابتسامة وهو ينظر الى والده ، الى أولغا ، الى الطريق المزروع بالقمح ، والى الرابية ترتفع وراءها رويداً لتحجب خط الأفق البعيد .

— يا للبقعة النائية ! يا للهدوء . . .

وتطلعت أولغا باسمة الى الغربان تحلق عبر الطريق ، وكتل الشيح والبرسيم تمرق مسرعة .

وضيق أبوه عينيه وقال :

— ها ، قد خرجوا لاستقبالنا .

— مَنْ ؟

— خدمنا .

فنظر يفغيني عبر كتفه ورغم أنه كان ما يزال بعيداً يشق عليه تمييز أحد أحس أن أكسينيا بين النسوة فعلت وجهه حمرة شديدة . وتوقع أن ينم وجهها عن أمارات الانفعال حين مرت العربة خلال البوابة فخفق قلبه لما رنا الى اليمين وشاهدها هادئة باسمة . فأومأ برأسه وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله .

وأشارت أولغا الى اكسينيا بعينين تطفحان اعجاباً وقالت :

— يا للجمال الطاغي ! من هي ؟ انه جمال عنيف ، أليس كذلك ؟

بيد أن يفغيني استعاد رباطة جأشه . فوافقها مؤيداً بفتور :

— أجل ، انها امرأة جميلة . . انها خادمتنا .

. . .

كان لمجيء أولغا أثره على أهل ياغودنويه كلهم . فقد أصدر رب البيت الشيخ ، الذى كان فيما مضى يتجول طوال

يومه بثوب النوم والبنطال الصوفي الدافئ ، أوامره بأن تخرج سترة وبنطال الجنرالية من الصناديق حيث عبثت في أكياس تحفظها من العث . كان في السابق لا يكترث لمظهره ، فاذا به يصرخ في وجه اكسينيا ان وجد في ثيابه أى تغضن ، ويعبس أشد العبوس حين تأتيه بجزمة غير ممسوحة في الصباح . واستعاد نضارته فأثار استغراب يفغيني الممزوج بالفرح بنعومة خديه الحليقين .

جهدت أكسينيا أن ترضي سيدتها الشابة ، وكأنها تتوجس شراً ، فجعلت تتودد اليها بتواضع وتبدى العناية الزائدة فى خدمتها ، وكادت لوكريا أن تجن في حرصها على اعداد وجبات لذيذة ، وتفننها في ابتكار ضروب شهية من المرق والتوابل . ولم ينج من أثر تلك التغيرات التي حصلت في ياغودنويه حتى الحوذى ساشكا الذى بلغ من الشيخوخة والهزال عتيا . فقد صادف أن التقى به سيده الشيخ عند الدرجات ، وتفحصه من الرأس حتى القدم ، فهز سبابته مهدداً :

— ما هذا كله ، يا ابن القحبة ؟ — وأجال لستتسكي الشيخ عينيه بحدة ، وأردف : — بنطالك ، بأى حال ؟ !

فأجاب ساشكا العجوز بوقاحة ، رغم أنه ارتبك قليلاً للتفتيش الدقيق الذى تعرض له ولصوت سيده المرتجف :

— حسناً ، بأى حال ؟

— امرأة شابة في المنزل ، وأنت تحاول أن تدفع بي الى القبر ، يا ابن الكلبة ؟ لماذا لا تزرر سروالك ؟ أيها التيس الهرم العفن ؟ !

فمر ساشكا العجوز بأصابعه القذرة حذر الخط الطويل من الأزرار على سرواله ، وكأنه يعزف على أكورديون . كان على وشك الرد بوقاحة مرة أخرى ، بيد أن سيده خبط قدمه خبطة عنيفة

بحيث انخلع نعل جزمته المدببة قديمة الطراز عند الوجه وزنخر :

— عد الى اسطبلك ! عادة ، سر ! سأخبر لوكريا أن تغسلك بالماء الفائر . أزل عنك هذه القذارة ، أيها الكديش الهرم !

راح يفغيني ينعم بالدعة ويتجول ببندقية لصيد الحجل . كانت مشكلة أكسينيا تقض مضجعه . ولكن والده استدعاه الى غرفته ذات مساء وسأله وهو ينظر صوب الباب بقلق متحاشياً عيني ابنه :

— أنا ، أنت تعلم . . . ينبغي أن تعذرني لتدخلي في شؤونك الخاصة . ولكني أود أن أعرف ما تقترحه بشأن أكسينيا ؟

فقضم يفغيني نفسه بالسرعة التي أولع فيها سيكارة . وكما حدث له يوم وصوله ، فقد احمر وجهه ، وحين أحس بذلك ، ازداد وجهه أحمراراً . فاعترف بصراحة ، قائلاً :

— لست أدرى . . . والله لست أدرى . . .

فقال الشيخ وهو يزن كلماته :

— لكن أنا ادرى ! اذهب وتحدث اليها حالاً . اعرض عليها النقود ، نقود الستر ، — ثم ابتسم تحت طرف شاربه وأردف : — أطلب منها أن تغادرنا . سوف نجد واحدة غيرها .

وبادر يفغيني للذهاب الى جناح الخدم في الحال . فألفى أكسينيا واقفة تعد العجين وظهرها الى الباب . وكان عظما اللوح يعملان في ظهرها المقوس بحيوية ، وكماها مشمرين الى ما فوق المرفقين ورأى العضلات تترقرق في ذراعيها الأسمرين الريانين . وراح يحدق في الجدائل المنفوشة حول عنقها ، وقال :

— أكسينيا ، أود أن أكلمك دقيقة .

والتفتت في الحال ، جاهدة أن تضفي على وجهها تعبيراً

من الأدب والهدوء . بيد أن يفغيني لاحظ أصابع يدها ترتجف وهي ترخي كميها .

وألقت الى الطباخة نظرة وجلة ، ولم تستطع كبت فرحتها ، فتبعت يفغيني بابتسامة سعيدة متسائلة .

وحين بلغا درجات العتبة في الخارج ، قال :

— سنذهب الى البستان . أود أن أكلمك .

فقالت بفرح وتواضع : «حسنا !» فقد حسبت أن هذا يعني استئناف علاقتهما السابقة . وبينما هما سائران سألها بصوت خافت :

— أتدرين لماذا استدعيتك ؟

فابتسمت في العتمة ، وتعلقت بذراعه ، ولكنه انتزعها منها ، فأدركت كل شيء ، وتوقفت قائلة :

— ماذا تريد ، يفغيني نيكولايفتش ؟ لن أتقدم خطوة أخرى .

— طيب ، يمكننا أن نتكلم هنا ! لن يسمعنا أحد . — وراح يفغيني يسرع ويتخبط في شبكة خفية من الكلمات : — يجب أن تفهميني . لا أستطيع أن أكون معك كما كنت في السابق . لا أقدر أن أعيش معك ، هل تفهمينني ؟ أنا الآن متزوج ، ولا أستطيع ، بصفتي رجلاً شريفاً أن آتي أمراً معيباً . ان ضميري لا يسمح بذلك . — قالها وهو يتعذب خجلاً من كلماته الرنانة .

كان الليل قد دب لتوه من جهة الشرق المعتم . وفي الغرب كانت سلخة من السماء ما تزال زرقاء بنور المغرب . وعلى ساحة الدرس كان الرجال يدرسون الحبوب على ضوء الفانوس ، مستغلين صفاء الجو ، وكانت المكائن تنبض بالحياة . وراح

الرجل الذى يغذى ماكينة الدرس دونما كلل يصرخ بصوت أجش فرح : «مزيدا ، مزيدا !» وخيم في البستان صمت عميق ، وفاح عبق القريص ، والقمح ، والندى .

لم تقل أكسينيا شيئاً .

— ما قولك ؟ لماذا أنت صامتة ، يا أكسينيا ؟

— ليس لديّ ما أقوله .

— سوف أعطيك نقوداً . يجب أن ترحلي . وأظن أنك ستقبلين ، سيكون من الصعب عليّ أن أراك دائماً .

— سينتهي الشهر بعد أسبوع ، هل أستطيع أن أبقى حتى نهاية الشهر ؟

— طبعاً ، طبعاً .

صمتت أكسينيا برهة ، ثم زحفت الى جانبه بخجل والتصقت به ، وكأن أحداً يضربها ، وقالت :

— حسناً ، سوف أذهب . ولكن هل لك . . . للمرة الأخيرة فحسب ؟ انها حاجتي التي تحملني أن أفقد الحياء هكذا . لقد أكلت قلبي الوحشة . . . لا تقس في الحكم علي ، يفغيني .

كان صوتها جافاً مرتانا . وعبثاً حاول يفغيني أن يعرف ما اذا كانت جادة أم هازلة في كلماتها تلك .

— ماذا تريدين ؟

ثم تنحنح متضايقاً ، وأحس بغتة أنها تتلمس يده بوجل ، من جديد .

. . . وبعد بضع دقائق ، خرج من وراء شجيرة الزيب الرومي العبقة الندية . وقبل أن يبلغ المنزل توقف ومسح بمنديله ركبتي بنطاله الملطختين بنسغ العشب . والتفت بينا هو يرتقي

الدرج . ومن خلال نافذة في جناح الخدم ، شاهد أكسينيا وقد شمرت ذراعيها خلف رأسها ، وهي تسوى شعرها . وكانت ثمة بسمة تتراقص على شفتيها .

٦

اكتمل نمو العشب الريشي ، فاتشح السهب الذى لا نهاية له بحلة فضية متموجة . وجعلت الريح تغذ خطاها المتواثبة فوق وهي تنشر حفيفها ، وتدفع أمواجاً شهباً ثرة الظلال تارة نحو الجنوب وأخرى نحو الغرب . وحيثما ولت النسائم المنسابة وجهها طأطأ العشب الريشي هامه بخشوع وامتد على أديمه الأشهب مسرب أعمق ظلاً .

ذوت الأعشاب المبرقشة ، وذبل الشيح الواهن الكئيب في أعالي التلال . وكانت الليالي القصار تتلاشى على عجل ، كانت سماؤها تنتشر فيها أنجم لا حصر لها . وغام القمر ، وهو الذى يدعوه القوزاق «الشمس الصغيرة» فدخل محاقه وجعل يرسم وهجاً خابياً . وتداخلت المجرة الفسيحة بغيرها من مسارب الأنجم . وكانت السموم خانقة والريح جافة تحمل رائحة الشيح . وكانت الأرض ، وقد أترعها الشيح الجبار مرارة ، تهفو الى نسمة من البرد . ودب الشحوب في مجرات الأنجم الشم ، التي لم تطأها سنابك الخيل ولا أرجل الانسان ، ثم توارت عن الأنظار . وخمدت أنفاس النجوم المنتشرة كحبات القمح في السماء المعتمة القاحلة التي لم تعط شتلاً ولم تذق طعم الحياة رغم سوادها الذى يحكي سواد الأرض . وبدا القمر أشبه بمستنقع أجاج قاحل . وأذوى العطش أعشاب السهب ، وعلقت في سماء

أصوات فضية الرنين متواصلة لطير السمان ، وصرير معدني الجرس يرسله الجراد . . .

كان السهب في النهار يتسربل بغبش ضبابي خانق ، وكانت تحوم في زرقة سمائه الصافية الشاحبة شمس لا ترحم وقوس جناحي حدأة مشرعين بلون الفولاذ الداكن . ويترامى العشب الريشي ساطعاً عنيداً في غلالة بنية كوبر البعير . وجعلت الحدأة تتمايل وراحت تعوم في السماء ، وظلها الكبير ينساب على العشب بصمت .

وكانت السناجب البرية ترسل نداءات كسلى مبحوحة ، والفئران البرية تغفو على المنحدرات الهشة الصفر . كان السهب يشع حرارة لكنه لا ينبض بالحياة ، فقد ران سكون الموتى في كل مكان . وحتى رابية المقبرة الزرقاء التي لاحت في الأفق كانت تترجرج على نهاية مرمى البصر أشبه ما تكون بالحلم .

ايه أيها الشهب الحبيب ! ان لفح هوائك المر يعابث أعراف الجياد والأفراس . وخطوم الخيل تتشرب ملوحة فتروح تلوك شفاهها الحريرية وهي تتنسم لهاثها المر الأجاج وتصهل اذ تذوق طعم الريح والشمس . يا سهبنا الحبيب ! تنوء أنت تحت سماء الدون الخفيضة . وهاد ملتوية ، وديان يابسة ، ضفاف حمر ، مدى من العشب الريشي تتخلله آثار داكنة من حوافر الخيل ، رواب قائمة بصمت حكيم ، لتحرس مجد القوزاق الدفين . . . اليك أركع بخشوع يا سهب قوزاق الدون ، أنا واحد من بنيك ، ألثم ترابك الذى غسلته دماء لا تجف مدى الزمن .

• • •

كان رأس الجواد صغيراً ، دقيقاً ، أشبه ما يكون برأس الثعبان ، وأذناه منبسطتين مرتتين . وكانت عضلات صدره بديعة التكوين وسيقانه جميلة قوية ، بعواضد مستقيمة ، وحوافر أشبه بحصاء النهر . أما كفلاه فكانا لدنين ماثلين قليلاً ، وذيله غزير الشعر منتصباً . كان من أصائل جياد الدون ، لا تجرى في عروقه قطرة واحدة من دم أجنبي ، وتبدو أصالته في كل سمة من سماته . وكان اسمه مالبروك .

وذات يوم ، اشتبك عند الورود مع جواد أقوى وأكبر سناً منه دفاعاً عن فرسه ، فأصيب برفسة مؤذية في قادمته اليسرى ، رغم أن جياد المراعي لا تحذى قط . فقد شب الجوادان وترافسا بقوادمهما ، وعض كل منهما الآخر فمزق لحمه . . .

لم يكن الراعي حاضراً ، كان مستلقياً في السهب يغط في نومه ، وقد أعطى ظهره الى الشمس ، وباعد بين ساقيه بجزمته المتربة . وطرح الجواد الآخر مالبروك أرضاً ، ثم طارده الى مسافة بعيدة عن قطيعه . ثم تركه سابحاً بدمائه ، واستولى على القطيعين معاً وساقهما بمحاذاة المستنقع .

جيء بالجواد الجريح الى الاسطبلات ، فعالج البيطرى ساقه الجريحة ، وبعد ذلك بستة أيام ، جاء ميخائيل كوشيفوى بتقريره الى الادارة فرأى مالبروك ، وقد استبدت به غريزة الحفاظ على النوع العارمة ، يقضم حبل الرسن ، ويقفز خارجاً من مربطه ، ويلم الأفراس المقيدة حجولها والتي كانت ترعى في فناء الثكنة ، ليسوقها أمامه الى السهب ، خبباً في بداية الأمر ، ثم جعل يستحث على العدو بعض المتوانيات منهن . فهرع الرعاة والمشرف الى خارج الكوخ . ولكن الأوان فاتهم فلم يسعهم سوى أن

ينصتوا الى أصوات الحبال وهي تتصرم فيما راحت الأفراس تحطم قيودها وتجرى بعيداً .

— لم يبق اللعين لنا مطية نركبها !

وراح المشرف يصب لعناته ، وهو يحدق وراء الخيل المبتعدة عنهم ، شاعراً بالرضى في سريرته .

وعند الظهيرة عاد مالبروك بأفراسه لترد . فعزله الرعاة الراجلون عن الأفراس ، وأسرجه ميخائيل ، ثم امتطاه وخرج به الى السهب ، فأطلقه بين قطيعه الأصلي .

عكف ميخائيل خلال الشهرين اللذين أمضاهما في رعي الخيل على دراسة حياتها عن كثب ، فأفعم باحترام عظيم لذكائها ونبلها الذى لا يدانيه نبل البشر . شهد جياداً تشبو أفراساً ، وكان ذلك الفعل الفطرى ، الذى تمارسه في ظروف بدائية ، يبدو من الحكمة والبساطة ما يحمل المرء على مقارنتها بالبشر مقارنة ليست في صالحه . ولكن ميخائيل وجد في علاقات الخيل كثيراً من سيماء العلاقات بين البشر . فقد لاحظ ، مثلاً ، أن الجواد العجوز باخار ، وهو فظ قاس لا يرحم في معاملة أفراسه ، يولي اهتماماً خاصاً لفرس شقراء جميلة ، ملتهبة العينين لها من العمر أربع سنوات ، تزين جبينها غرة كبيرة ، فيبدو في صحبتها عصبي المزاج مرتبكاً منفعلاً ، يتشممها على الدوام بزنخرة خاصة تنم عن تحفظ مشوب بالوله . كان حين تقف الخيل يحب أن يركن رأسه الوحشي على كفل فرسه المحبوبة ويغفو على هذه الحال ساعات طوالاً . وقد راقبه ميخائيل ، فلاحظ عضلاته تتحرك لينة تحت جلده الناعم ، وبدا لعينه أن باخار مغرم بتلك الفرس بما للشيوخ من عاطفة يائسة في عنفوانها وأساها .

كان ميخائيل مجداً في خدمته ، ولا بد أن خبر حماسه للخدمة بلغ أتمان المنطقة ، فقد تسلم المشرف ، في منتصف آب ، تعليمات باعادة كوشيفوى الى فيشنسكايا .

تأهب ميخائيل لفوره ، فسلم عدته ، وتوجه صوب فيشنسكايا بعيد العصر في اليوم ذاته . وجعل يستحث فرسه دونما انقطاع ، فاجتاز كارغين عند الغروب . وعلى التلال الواقعة وراء كارغين أدرك عربة صغيرة تمضي نحو فيشنسكايا . كان الحوذى الأوكراني يستحث حصانيه القويين المتصببين عرقاً ، وقد استكان في مؤخرة العربة ، ذات النوابض الخفيفة ، رجل عريض المنكبين أنيق المظهر يرتدى سترة أهل المدن ، وقبعة رمادية من اللباد وقد انداحت الى مؤخرة رأسه . وسار ميخائيل بعض الوقت ، وراء العربة ، يتفرس في منكبي الرجل وهما يهتزان والعربة ترتج فوق العثرات ، وفي شريط ياقته الأبيض المترب . وكان ثمة حقيبة سفر صفراء وكيس مغطى بمعطف مطوى عند قدمي المسافر . وبلغت رائحة السكائر الغربية أنف ميخائيل ، فحدث نفسه فيما حاذى المسافر بفرسه : «لا بد أنه موظف ذاهب الى فيشنسكايا» . بيد أن فكه تهدل وسرت حدر ظهره قشعريرة من الخوف والدهشة البالغة ، حين حاوص بنظره الى ما تحت حافة القبعة التي يعتمرها الرجل . كان الرجل القابع في العربة ، يمضغ عقب سيكار بنفاد صبر ويخاوص عينيه الحادتين الفاقعتين ، الى ستيبان أستاخوف . واذ لم يستطع ميخائيل الجزم تماماً ألقى نظرة أخرى الى ذلك الوجه المألوف ، وقد طرأ عليه تبدل غريب ، وجه ابن قريته ، فأيقن أنه ستيبان . فتنحنح والعرق ينصب منه لفرط الانفعال :

— عفوك ، يا سيدى ، ولكن ألست أستاخوف ؟

فدفع الرجل الجالس في العربة قبعته الى الوراء ، واستدار رافعاً عينيه الى ميخائيل ، وأجاب :

— بلى ، أنا أستاخوف . هل أنت — مهلا ، ألست كوشيفوى ؟ — فهب ، يكاد يقف في العربة ، ولم تمتد الابتسامة أبعد من شفتيه تحت شاربيه ، أما وجهه الذى كاد ينم عن الشيخوخة ، فقد احتفظ بقسوة منيعة ، ثم مد يده بسرور لا يخلو من بعض ارتباك ، وأردف : — انك كوشيفوى ! ميخائيل ! يسعدني كثيراً . . .

فقال ميخائيل وهو يسقط العنان وينشر يديه دهشة :

— ولكن كيف . . . ؟ كيف وصلت الى هنا ؟ قالوا انك قتلت . ولكني أرى أستاخوف بعينه !

ثم أشرق بابتسامة وراح يتململ على سرجه . لقد أربكه مظهر ستيبان ونبرته المهذبة الخفيضة ، فغير أسلوبه في الحديث ، وتخلى عن كلمات الألفة ، اذ اعتوره احساس غامض بأن ثمة حاجزاً خفياً يفصل بينهما .

طفقا يتحدثان ، وراحت الخيل تمضي وئيدة ، كان الغروب يتورد في الغرب بكل مهابته ، وراحت سحب حمر كالزنابق تعوم عبر السماء اللازوردية شطر الليل . ومن بين الدخن المزروع على جانب الطريق أرسل طائر سلوى نداء نفاذاً ، ولكن صمتاً مغبراً ران على السهب وهو يودع صخب النهار وضجيجه ليستقبل سكون الليل وهدوءه . وعن بعد لاح الصليب الذى يتفرع عنده الطريق بين تتارسكي وفيشنسكايا ، فبدا على صفحة السماء الليلكية كالطيف .

سأل ميخائيل بنبرة ودود :

— من أين جئت ، يا ستيبان أندرييتش ؟

— من ألمانيا . عدت الى وطني ، كما ترى .
— ولكن قوزاقنا ذكروا أنك قتلت أمام أعينهم .
فأجاب ستيبان بتحفظ وتؤدة ، ولكأن الأسئلة تثقل كاهله :
— جرحت في موقعين . أما القوزاق . . . ما شأنهم ؟ لقد تخلوا عني هناك . . . فوقعت في الأسر . . . أشفى الألمان جروحي وأرسلوني للعمل . . .
— ولكننا لم نتلقَ في القرية أية رسالة منك . . .
— لم يكن لديَّ من أكتب له .
ورمى ستيبان عقب سيكاره وما لبث أن أشعل واحداً آخر .
— ولكن ماذا عن زوجتك ، انها حية ترزق .
— لم أكن أعيش واياها ، حسبت أن الكل يعرف هذا .
كان صوته جافاً خالياً من أية نبرة ودية . وبدا أن ذكر زوجته لم يضايقه .
وسأله ميخائيل بفضول متلهف ، وهو يميل الى الأمام حتى كاد يلامس رمانة سرجه :
— ألم تشعر بالحنين الى وطنك في غربتك ؟
— أجل ، في بداية الأمر ، ولكنني ألفتها . لقد عشت حياة ميسورة . — وأضاف بعد برهة : — كدت أبقى في ألمانيا وأحصل على الجنسية الألمانية . بيد أن دافع العودة الى الوطن هو الذى تغلب . . . وهكذا تركت كل شيء وجئت . — ثم ارتخت الغضون القاسية البادية في طرفي عيني ستيبان للمرة الأولى وابتسم .
قال ميخائيل :
— أرأيت ما نحن عليه من فوضى هنا ؟ نقاتل بعضنا البعض .

— أجل ، هذا ما طرق سمعي . . .
— كيف عدت ؟
— عن طريق فرنسا ، بالباخرة من مرسيليا — وهي مدينة في فرنسا — الى نوفوروسيسك .
— هل سيجندونك أيضاً ؟
— ربما . . ما أخبار القرية ؟
— انها أكثر من أن يتسع لي الوقت لاخبارك بها الآن ، لقد حدثت أشياء كثيرة .
— أما زال بيتي قائماً ؟
— انه خال . . .
— ماذا عن الجيران . . ؟ أما زال الاخوان ميليخوف على قيد الحياة ؟
— بلى ، انهما كذلك .
— هل سمعت شيئاً عن زوجتي السابقة ؟
— ما زالت هنا ، في ياغودنويه .
— وغريغوري . . . ألا يزال يعيش معها ؟
— كلا ، ان له زوجته الشرعية ، لقد هجر زوجتك أكسينيا . . .
— هكذا اذا . . . لم أعرف ذلك .
لبثا صامتين برهة . ومضى كوشيفوى يتفحص ستيبان بلهفة ثم قال له بارتياح وبشيء من الاحترام :
— يبدو أن الحظ قد واتاك ، يا ستيبان أندرييتش . ان ثيابك مترفة ، أشبه ما تكون بثياب النبلاء .
— كل الناس يرتدون ملابس لائقة هناك . — قال ستيبان ذلك ، ثم عبس وجهه ، وربت على كتف الحوذى قائلاً :

«أسرع ، يا صاح» .

لوح الحوذى سوطه بفتور ، فراح الحصانان المتعبان يجران العربة على مضض . وأخذت العربة الصغيرة تتواثب على العثرات ، وبلغ الحديث خاتمته حين أدار ستيبان ظهره الى ميشا سائلاً :

ـــ أذاهب أنت الى القرية ؟

ـــ كلا ، أنا ذاهب الى أتمان المنطقة .

وعند مفترق الطريق انحرف ميخائيل نحو اليمين وانتصب في ركابيه قائلاً : ـــ الى اللقاء يا ستيبان أندرييتش !

فلمس ستيبان حافة قبعته بلمة أصابعه الثقيلة ، وأجاب بفتور ، وهو ينطق كل كلمة بوضوح كالأجانب :

ـــ أسعدت نهاراً !

٧

امتدت الجبهة في خط موصول من فيلونوف حتى بوفورينو . كان الحمر يحشدون قواتهم ، تأهباً لانزال ضربة مضادة . وكان القوزاق الذين يعانون نقصاً خطيراً في الذخيرة يواصلون هجومهم بوهن ، دون أن يحاولوا تخطي حدود اقليمهم . وكان الطرفان يتبادلان الانتصارات . وقد طرأ ، في آب ، فتور نسبي على القتال وراح القوزاق الذين عادوا الى أهليهم في اجازة قصيرة يتحدثون عن هدنة تعقد في الخريف .

وفي أثناء ذلك ، كان حصاد القمح يجرى في مؤخرة الجبهة . وقد أحس الجميع بقلة اليد العاملة ، فلم يستطع الشيوخ والنساء تدبير أمر الحصاد ، هذا الى أن تسخير عرباتهم وخيلهم لنقل المؤن والتجهيزات العسكرية الى الجبهة كان يعيق حصادهم على الدوام . فقد كان الجيش يسخّر كل يوم تقريبا

خمس أو ست عربات في تتارسكي ، ويرسلها الى فيشنسكايا لنقل التجهيزات العسكرية ، حيث تتجه من هناك الى قوات القوزاق .

كانت الحياة في القرية نشيطة لكنها كئيبة . فقد اتجهت خواطر الجميع صوب الجبهة البعيدة ، والكل ينتظر أنباء القوزاق بلهفة وألم ، متوجسين الشر منها . غير أن وصول ستيبان أستاخوف كان حدثاً أثار اهتمام الجميع .

كان ذلك موضوع الحديث الوحيد في كل كوخ ، وعلى كل ساحة لدرس الحبوب . لقد عاد قوزاقي الى أهله وقد حسبه الناس قد دفن منذ زمن بعيد ، رجل لم تأت على ذكره الا العجائز ، وان هن فعلن ذلك في الكنيسة ، في أيام التأبين ، يتمتمن قائلات : «رحمة الله على روحه» . أوليست تلك معجزة ؟ . .

نزل ستيبان في بيت زوجة أنيكوشكا وحمل متاعه الى داخل الكوخ . وفيما كانت هي تعد له شيئاً من الطعام ذهب هو الى داره . فسار بخطوات رب البيت الحازمة جيئة وذهاباً في باحة الدار المغمورة بضوء القمر ، ثم مشى الى داخل السقائف المتداعية ، وتفحص الدار ، واختبر الأسيجة . وكان البيض المقلي قد برد على مائدة زوجة أنيكوشكا منذ وقت طويل ، بيد أن ستيبان مضى يتفحص داره الذى تكاثفت عليه الأعشاب ، مفرقعاً أصابعه وهو يتمتم مع نفسه . . .

وجاء القوزاق في ذلك المساء ليروه ويسألوا عن حياته في الأسر . فازدحمت الغرفة الأمامية في دار أنيكوشكا بنساء وصبية وقفوا كالجدار المرصوص ، وراحوا يصغون بأفواه فاغرة الى حكايات ستيبان . كان يتكلم دونما حماس ، ولم يشرق محياه الذى زحفت اليه الشيخوخة بأية ابتسامة . فقد غيرته الحياة أيما تغيير .

وصباح اليوم التالي جاء بانتلاى بروكوفتش ميليخوف وستيبان ما يزال نائماً ، فتنحنح الشيخ في راحته وانتظره في الخارج حتى أفاق . وكانت الغرفة تفوح برائحة الأرض الترابية الرطبة العفنة والتبغ الخانق غير المألوف ، فضلاً عن تلك الرائحة التي تلازم المسافر وقتاً طويلاً .

لقد استيقظ ستيبان الآن ، ذلك أمر واضح ، فثمة صوت لكبريت يضرب لاشعال سيكار .

فسأل بانتلاى : — هل لي أن أدخل ؟ — وجعل بكل عناية يسوى طيات قميصه الجديد الذى أصرت ايلينشنا على أن يرتديه لتلك المناسبة ، وكأنه على وشك أن يقدم نفسه الى ضابط رفيع الرتبة .

— أدخل !

كان ستيبان يرتدى ثيابه وهو يدخن سيكاراً ويخاوص عينيه ليتحاشى الدخان . وتخطى بانتلاى بروكوفتش العتبة بشيء من الارتباك ، ثم توقف ومد راحته السوداء ، وقد أدهشه التبدل الذى طرأ على سيماء ستيبان والابزيم المعدني لحمالة بنطاله الحريرية .

— صباح الخير ، يا جار . يسعدني أن أراك حياً . . .

— صباح الخير .

سحب ستيبان حمالات بنطاله عبر كتفه القوى ، ثم وضع يده بوقار في راحة الشيخ المتقرنة . وتفحص كل صاحبه على عجل . فأومضت عينا ستيبان بشرر من النفور ، ولاح في بؤبؤى ميليخوف ، الجاحظين المائلين ، احترام يخالطه شيء من الدهشة الساخرة .

— أنت كبرت ، يا ستيبان ، كبرت ، يا بني .

— أجل ، كبرت .

وقال الشيخ :

— تلونا صلاة الموتى على روحك ، كما تلوناها على ابني غريشا . . . — ولكنه توقف حانقاً ، فلم يكن ذلك يناسب المقام . فلم يكن من اللائق أن يذكر هذا ! وحاول اصلاح خطأه . — الحمد لله ، أنك عدت حياً ، معافى ! الحمد لله ! لقد تلونا صلاة الموتى على غريشا ابني ، أيضاً ، ولكنه قام يمشي ، كلعازر* . ان لديه طفلين الآن ، وقد تحسنت صحة زوجته ناتاليا ، والحمد لله ، انها امرأة رائعة . . . وكيف حالك ؟

— انني على أحسن ما يرام ، أشكرك .

— هلا أتيت لزيارة جيرانك ؟ تفضل ، شرفنا . سوف نتحدث . . .

ورفض ستيبان ذلك ، الا أن بانتلاى بروكوفتش ألح عليه حتى بدا عليه الاستياء فقبل ستيبان الدعوة . ثم اغتسل ومشط شعره القصير وابتسم حين سأله الشيخ : «ماذا فعلت بخصلتك ، هل أبليتها تمشيطاً ؟» . ثم وضع قبعته على رأسه بكل ثقة وتقدم خارجاً الى الفناء .

وأبدى بانتلاى بروكوفتش من الود واللطف ما جعل ستيبان يقول في سريرته : «انه يحاول التكفير عن الاساءة القديمة . . .» .

ولبت ايلينشنا اشارة زوجها فانهمكت في المطبخ وراحت تستحث ناتاليا ودونيا على العمل ، وأعدت المائدة بنفسها .

---

* يروى الانجيل أن لعازر أخ مارى ومارتا بعثه المسيح من الموت . المترجمون .

وجعلت المرأتان تلقيان نظرات فضولية بين حين وآخر الى ستيبان الذى جلس تحت الأيقونات فراحت أعينهما تتفرس سترته ، وياقته ، وسلسلة ساعته الفضية ، وتسريحته ثم رحن يتبادلن ابتسامات الدهشة خلسة .

ودخلت داريا من الفناء بوجه متورد ، تبتسم بارتباك ، وتمسح خط شفتيها الجميل بطرف شالها . ثم خاوصت عينيها وهتفت :

— ماذا ، يا جارنا ، لم أعرفك . . أنت لم تعد تشبه القوزاق .

ولكي لا يذهب الوقت سدى وضع بانتلاى بروكوفتش على المائدة قنينة من الفودكا المنزلية ، ثم انتزع الخرقة التي تسدها ، وتشمم شذاها الحاد ، وأطرى حسناتها .

— ذقها ! انها من صنع يدى . ما ان تقرب الكبريت منها حتى تشتعل بلهب أزرق !

وكانا يتجاذبان أطراف الحديث البطىء . لم يكن ستيبان راغباً في الشراب ، ولكن سرعان ما بدا عليه الثمل بعد أن شرب قدحاً ، فغدا ألطف معشرا . فقال بانتلاى بروكوفتش :

— ينبغي لك أن تتزوج الآن ، يا جار .

— وماذا أفعل بزوجتي القديمة ؟

— صارت عجوزاً ؟ وهل تتصور أن الزوجة القديمة لا تذبل ؟ الزوجة كالفرس : بوسعك أن تركبها طالما بقيت في فمها أسنان . سوف نعثر لك على فتاة شابة .

فأجاب ستيبان ، وقد بارحه أسلوب الأجانب في كلام اذ اشتد به الثمل :

— حياتنا كانت مشربكة . لا وقتَ للزواج . . . عندي

اجازة لعشرة أيام ، وعلي بعد ذلك أن أعود الى فيشنسكايا ، ومن ثم الى الجبهة ، كما أحسب .

غادرهم بعد برهة وجيزة ، ترافقه نظرة الاعجاب من عيني داريا ، مخلفاً وراءه نقاشاً وجدالاً .

— لكم هذب نفسه ، ابن العاهرة ! يا لطريقته في الكلام ! ما أشبهه بمأمور الضرائب أو بأحد النبلاء . حين دخلت اليه ألفيته يسحب شرائط حريرية ذات أبزيم عبر كتفه . يشهد الله ، كان ظهره وصدره مشدودين كما يشد الحصان الى العربة . لماذا كل ذلك ؟ انه الآن يشبه رجلاً مثقفاً كل الشبه ! — قال بانتلاى بروكوفتش ذلك باعجاب ، وواضح أنه سر بقبول ستيبان لكرمه وتغاضيه عن الاساءة القديمة .

واستنتجوا ، بعد تقليب الأمر على أوجهه ، أن ستيبان سيعود الى القرية ويشيد بيته وحقله من جديد بعد أن ينهي خدمته العسكرية . وقد ذكر عرضاً أن لديه ثروة ، فأثار هذا في نفس بانتلاى بروكوفتش حدساً جاداً واحتراماً لا ارادياً . فقال حين غادرهم ستيبان :

— عنده فلوس ، بالتأكيد ! غيره من القوزاق يعودون من الأسر بجلودهم ، أما هو فقد عاد يرفل بالحرير . لا بد أنه قتل شخصاً ما أو سرق مالاً .

أمضى ستيبان الأيام الأولى من عودته في كوخ زوجة أنيكوشكا بهدوء ، وكان نادراً ما يخرج الى الشارع . فراح الجيران يترصدونه ، ويحصون سكناته ، حتى أنهم حاولوا استجواب زوجة أنيكوشكا عما ينتوى عمله . ولكنها أطبقت شفتيها بقوة وتذرعت بالجهل . وسرعان ما سرت شائعات قوية في أرجاء القرية حين اكترت زوجة أنيكوشكا عربة صغيرة وفرساً من آل

ميليخوف ومضت بها في صبيحة يوم السبت الى مكان لا يعرفه أحد ، ولم يحدس القصد من وراء ذلك سوى بانتلاى بروكوفتش ، فغمز لايلينشنا وهو يشد الفرس الحجلاء الى العربة الصغيرة وقال : «انها ذاهبة لتعود بأكسينيا» . ولم يخطئ ظنه . فقد طلب ستيبان الى المرأة أن تذهب الى ياغودنويه تسأل أكسينيا ما اذا كانت راغبة في العودة الى زوجها ، واسدال ستار النسيان على كل الهفوات السابقة .

ويومذاك فقد ستيبان زمام نفسه ورصانته . فراح يجوب القرية حتى المساء ، جالساً لفترة طويلة على عتبة دار موخوف ، قاصاً عليه الحكايات عن حياته في ألمانيا وعودته من طريق فرنسا عبر البحر . وكان لا ينفك ينظر الى ساعته طوال حديثه الى موخوف واستماعه الى شكواه .

عادت زوجة أنيكوشكا من ياغودنويه عشاء . فيما كانت تعد الطعام في المطبخ الصيفي حكت له كيف فوجئت أكسينيا بالخبر المباغت ، وكم من الأسئلة وجهت ، وكيف أنها رفضت العودة رفضاً قاطعاً ، وأخبرته زوجة أنيكوشكا وهي تبتلع حسرات الغيرة : — لا حاجة بها للعودة ، فهي تعيش كابنة أكابر . لقد غدت ناعمة وابيض وجهها . انها لا تعرف العمل الشاق ، وماذا تريد أكثر من هذا ؟ لن تصدقني ان وصفت لك ثيابها ! كان يوم عمل ولكني ألفيتها ترتدي تنورة كالثلج ، ويديها نظيفتين كل النظافة .

فعلت الحمرة وجنتي ستيبان ، وجعل شرر الحنين الغضوب يتفادح في عينيه المنكستين ثم يخبو . فغرف ملعقة لبن من اناثه بيد جهد أن يحول دون ارتجافها . وغدا استجوابه بطيئاً متمعناً .

— تقولين انها امتدحت معيشتها ؟

— ولم لا ؟ لا أظن أن أحداً يرفض حياة كتلك .

— ولكن هل سألتك عني ؟

— بالطبع ! أقول لك ان وجهها أبيضت تماماً لما أخبرتها بعودتك .

وبعد أن أتم ستيبان تناول طعام العشاء خرج الى الفناء الذى غطاه العشب . كانت ليالي آب القصيرة تتلاشى بسرعة . وقد ضايقته في برودة تلك الأمسية الرطبة الأصوات الفضية وجلبة المباذر . واستمرت زحمة الحصاد على ضوء القمر الأصفر الأبقع . كانوا يغربلون أكوام القمح الذى يدرسونه في النهار ومن ثم ينقلونه الى المخازن . وأكتنف القرية غبار التبن والرائحة الحريفة اللافحة ، المنبعثة من القمح الذى درس لتوه . وفي مكان ما قرب الساحة ، كانت ثمة دارسة ميكانيكية تبربر وكلاب تنبح . وتناهى صوت غناء من ساحة لدرس الحبوب نائية . وهبت من الدون رطوبة منعشة .

مال ستيبان على السياج وراح يحدق في مجرى الدون المنساب وراء الشارع ، وفي الشريط الوهاج المتماوج الذى خطه البدر على النهر . ومضت رقرقات جعد تدوم حدر النهر . وفي الجانب الآخر استكانت أشجار الحور الى راحة وخدر وسنان . وأخذ الحنين يدب في ستيبان رويداً رويداً ، فلم يستطع له صدّا .

• • •

تساقط المطر عند الفجر ، ولكن السماء ما لبثت أن صحت بعد شروق الشمس ، وما ان مرت زهاء ساعتين حتى

لم يبق من أثر للطقس الماطر سوى كتل من الطين لما تجف علقت بعجلات العربة . وفي الصباح ذهب ستيبان الى ياغودنويه . وربط حصانه عند البوابة وهو يحس بشيء من الارتباك ، ثم سار مسرعاً الى جناح الخدم . كان الحوش الفسيح الذى تكاثف عليه العشب الجاف قفراً . وكان الدجاج يبحث في الروث عند الاسطبل ، وديك أسود كالزاغ ينقل خطاه بحذر قرب السياج المتهدم . وفيما كان ينادى الدجاجات تظاهر بنقر دعاسيق حمر فوق السياج الذى سقط على الأرض . وكانت كلاب البورزوى الملساء جاثمة في الفيء قرب مأوى العربة . وقد طرحت ستة جراء بلقاء أمها أرضاً وراحت تترافس بنشاط فيما كانت ترضع منها . وكان الندى يتلألأ على الجانب الظليل من السقف الحديدى للبيت .

راح ستيبان يجيل النظر فيما حوله ، ثم دلف الى جناح الخدم ، وسأل الطباخة البدينة :

— هل أستطيع أن أرى أكسينيا ؟

فسألته لوكريا ، وهي تمسح وجهها النمش العرقان بصدريتها .

— ومن أنت ؟

— هذا ليس من شأنك . أين أكسينيا ؟

— في حضرة السيد . انتظر !

جلس ستيبان ، واضعاً قبعته على ركبتيه بحركة تنم عن كلال فظيع . وانهمكت الطباخة في المطبخ دون أن تعيره أى انتباه . وكانت رائحة الجبن والتخمر الحامضة تملأ الغرفة . وانتشر ذباب أسود على الموقد ، والجدران والمائدة التي يعلوها الدقيق . انتظر ستيبان ، يصغي متوتر الأعصاب ، واذ تناهى اليه صوت مشية أكسينيا المألوف هب من مصطبته فسقطت

القبعة من على ركبتيه .

دخلت أكسينيا تحمل كومة من الصحون . واذ رأت ستيبان علا وجهها شحوب الموتى ، وجعلت زاويتا شفتيها ترتعشان . توقفت وهي تشد الصحون الى صدرها بوهن ، وتسمرت عيناها الفزعتان على وجه ستيبان . ثم انتزعت نفسها على نحو ما وسارت من مكانها الى الطاولة بسرعة ووضعت الصحون . ثم قالت :

— صباح الخير . . .

وراح ستيبان يتنفس بتؤدة وعمق ، لكأنه مستغرق فى النوم ، وأرغمت ابتسامة متوترة شفتيه على الانفراج ، ثم مال الى الأمام بصمت ومد يده الى أكسينيا . فأشارت تدعوه قائلة :

— تعال الى غرفتي .

فرفع ستيبان قبعته وكأنها حمل ثقيل ، واندفع الدم الى رأسه وغشي عينيه . وحين دخلا غرفتها وجلسا على جانبين متقابلين من الطاولة ، لعقت أكسينيا شفتيها الجافتين ، وسألته وهي تئن :

— من أين جئت ؟

فلوح ستيبان يده على نحو غامض ثمل في محاولة مفتعلة لخلق جو من المرح . وكانت ابتسامة الفرح والألم ما تزال عالقة بشفتيه .

— من الأسر في ألمانيا . . . جئت كي أراك ، يا أكسينيا . . .

تململ بارتباك ، ثم هب واقفاً ، وأخرج من جيبه صرة صغيرة فمزق الخرقة على عجل بأصابع مرتجفة ، وأخرج ساعة نسائية من الفضة ، وخاتماً محلى بحجر أزرق رخيص . وقدمهما اليها في راحة يده العرقة ، بيد أن عينيها بقيتا مسمرتين على وجه الغريب الذى لم تألف فيه الابتسامة الذليلة الشوهاء من قبل .

— خذيها ، احتفظت بها لك . . . لقد عشنا سوية . . .

فهمست خلال شفتيها الخدرتين :

— ما حاجتي اليها ؟ انتظر !

— خذيها . . . لا تزدري بي . علينا أن ندع حماقاتنا القديمة جانباً . . .

قامت وهي ترفع يدها وكأنها تتقى شيئاً ومضت الى الموقد :

— قالوا انك قتلت . . .

— وهل سيسرك ذلك ؟

لم تجب ، بل راحت تتفحص زوجها من الرأس الى القدم بمزيد من الهدوء ، فيما جعلت تسوى لغير ما داع طيات تنورتها المكوية بكل عناية . وقالت وذراعاها وراء ظهرها :

— هل أرسلت زوجة أنيكوشكا اليّ ؟ قالت انك تريدني أن أعود اليك . . . للعيش سوية .

فقاطعها ستيبان قائلاً :

— وهل ستأتين ؟

فأجابته بصوت جاف :

— كلا ! كلا ، لن آتي .

— لِمَ لا ؟

— لم أعد آلف ذلك . . . والأوان متأخر جداً . أجل ، متأخر .

— ولكني أريد أن أحيي حقلي . فكرت بالأمر طوال الطريق وأنا عائد من ألمانيا ، فكرت في ذلك أيضا وأنا مقيم هناك . ماذا أنت فاعلة ، يا أكسينيا ؟ لقد هجرك غريغوري . . . أم تراك وجدت رجلاً آخر ؟ سمعت بعض الحكايات عنك وعن ابن السيد هنا . . . أصحيح ذلك ؟

فالتهبت وجنتاها ، وتدفقت دموع الاثم من تحت أهدابها المسبلة .

— هذا صحيح تماماً . أعاشره .

فانتاب ستيبان الفزع وقال :

— لا تحسبي أنني ألومك . كنت على وشك القول انك ربما لم تقرري مستقبل حياتك بعد . انه لن يظل راغباً فيك زمناً طويلاً ، انه يعبث بك ليس الا . الغضون ظهرت تحت عينيك . . . سوف يطردك حالما يشبع منك . وآنذاك الى أين ستولين وجهك ؟ ألم تسأمي حياة العبودية ؟ فكري بالأمر جيداً . . . ها قد عدت ببعض المال ، وحين تنتهي الحرب سنعيش بيسر . حسبت أن شملنا سيلتئم . . . أريد أن أنسى الماضي .

فسألته خلل دموعها بمرح ورعشة يسيرة تسرى في أوصالها :

— لماذا لم تفكر في الأمر قبل اليوم ، يا صاحبي العزيز ؟ — ثم انتزعت نفسها من جانب الموقد وجاءت الى الطاولة ، قائلة : — بماذا فكرت حين سحقت شبابي في التراب ؟ لماذا دفعتني الى أحضان غريشا دفعاً ، أيبست قلبي . أتذكر ما فعلت بي ؟

فقال ستيبان وهو يحدق في ذراعيه الممتدتين على الطاولة :

— لم آت الى هنا للعتاب . أنت . . . كيف لك أن تعرفي كم فكرت وعانيت ؟ — وراح يتحدث على مهل وكأنه يجتث الكلمات من فمه : — كنت أفكر فيك على الدوام . الدم تخثر في قلبي . . . لم تبارحي فكرى لا في الليل ولا في النهار . . . كنت أعيش مع أرملة ، مع ألمانية . . . عشت حياة ميسورة ، ولكني تركتها . . . أردت العودة الى الوطن . . .

فسألته أكسينيا ومنخراها يرتعشان انفعالاً :

— والآن ترغب أن تحيا حياة هادئة ؟ تريد أن تستأنف زراعتك . اظنك تريد أطفالاً وزوجة . . . زوجة تغسل ملابسك وتعد لك الطعام ؟ — ثم ابتسمت ابتسامة خبيثة ، وأردفت : — كلا ، لا أريد ذلك ، لا سمح الله ! شختُ أنا . . . بوسعك أن ترى الغضون في وجهي . ثم اني قد نسيت كيف أحمل الأطفال . أنا محظية ، ينبغي على المحظيات ألا يحبلن . أتريد امرأة كهذه ؟

— صرتِ سليطة . . .

— هذا حالي ، وسأبقى عليها .

— اذا فأنت تقولين لا .

— أقول لا ، لن أذهب ! كلا !

— حسناً ، مع السلامة — وقام ستيبان ، وقلب الساعة في يده بتردد ، ثم وضعها على الطاولة ثانية ، وأضاف : إذا غيرت رأيك ، فاخبريني .

رافقته أكسينيا الى البوابة . ثم وقفت تحدق وراءه وقد أثارت عجلات العربة غباراً اكتنف منكبيه العريضين .

وراحت تغالب عبراتها الحانقة ، وتنشج نشيجاً متقطعاً فيما كانت تفكر على نحو مبهم في آمالها التي لم يكتب لها أن تتحقق ، وتبكي حياتها التي أضحت في مهب الريح من جديد . فبعد أن علمت أن يفغيني لم يعد بحاجة اليها ، وحين سمعت بعودة زوجها ، عقدت العزم على العودة اليه ، لتلم أشتات السعادة التي لم تكن ملك يديها . فانتظرت ستيبان يحدوها ذلك الأمل . ولكن حين رأته ذليلاً حقيراً استبد بها التعالي وثارت فيها الكبرياء بكل عنفوانه ، تلك الكبرياء التي ما كان

لها أن تدعها تبقى في ياغودنويه بعد أن عافها لستتسكي ، ولا بد أن واعزاً شريراً هو الذي وسوس لها بتلك الكلمات ودفعها الى ذلك السلوك . تذكرت عارها القديم ، تذكرت كل ما عانته من هذا الرجل ، من يديه الحديدتين الضخمتين . واستبد بها الذعر لما تفوه به ، وهو مغاير لما تريده ، حين لهثت بهذه الكلمات اللاسعة : «لا ، لن أذهب ! كلا !»

ومرة ثانية سرحت الطرف في اثر العربة المبتعدة .

ولوح ستيبان سوطه ، وتوارى خلف ليلك الشيح الواطئ على جانب الطريق .

• • •

وفي اليوم التالي ، تسلمت أكسينيا أجورها ، ثم جمعت حاجياتها ، وحين ودعت يفغيني انفجرت باكية :

— لا تذكرني بالسوء ، يا يفغيني نيكولايفتش .

فأجابها بصوت ينم عن مرح مفتعل ، جاهداً أن يخفي حرجه :

— لماذا ، طبعاً لا ، يا عزيزتي . . . أشكرك على كل شيء .

ثم رحلت . وبلغت تتارسكي عند المساء الباكر . وقابلها ستيبان عند البوابة ، وسألها باسماً :

— هل قد عدت إذاً ؟ الى الأبد ؟ هل لي أن آمل بأنك لن ترحلي مرة أخرى ؟

— لن أرحل بعد الآن .

قالت ذلك ببساطة ، وقد اعتصرها قلبها اذ أجالت البصر بالكوخ الذي أوشك أن يتداعى والفناء الذي تكاثف عليه الدغل والنجيل .

٨

وأخيراً اشتبكت كتيبة فيشنسكايا بالحرس الأحمر المتقهقر بعد أن ظلت تتقدم عدة أيام . ففي ظهيرة أحد الأيام احتلت السرية التي يقودها غريغوري ميليخوف قرية صغيرة تعشش في بساتين وافرة الخضرة . فأمر غريغوري قوزاقه بالترجل في فيء صفصاف ينمو قرب جدول كان قد شق له مجرى ضحلا خلال القرية . وكانت الينابيع تبقبق من ثنايا التربة الرخوة السوداء في مكان ليس بالبعيد . كان الماء بارداً كالثلج ، فعب القوزاق منه بنهم ، مغترفين بقبعاتهم التي صفقوها بعدئذ على رؤوسهم المخصلة بالعرق وهم يطلقون جئيراً ينم عن ارتياح . وكانت الشمس ترسل أشعة عمودية على القرية التي أترعت بالحر . وكانت الأرض تضطرم تحت وطأة الظهيرة الوخمة . وتدلت الأعشاب وأوراق الصفصاف واهنة ، وقد رشقتها الأشعة الكاوية بلفحها ، على أن شيئاً من البرودة كان في فيء الصفصاف الى جانب الجدول . كان نبات الأرقطيون نضراً بخضرته . وراح دغل البطة يومض ببسمة عذرية في الجداول الصغيرة ، وطفق البط عند حنوة الجدول يرشق الماء ويصفق أجنحته فيه ، وزنخرت الخيل واشرأبت صوب الماء وهي تعض على شكائمها وتشد على أعنتها ، وراحت شفاهها تتلمس الماء الصافي فيما كانت أرجلها تثير الوحل . وكان النسيم الوغر ينثر قطرات كبيرة متوهجة كحبات الماس من شفاهها . وتصاعدت رائحة كبريتية من الماء الخابط ورائحة ذكية حادة من جذور الصفصاف المتعفنة التي يغسلها ماء الجدول . . .

وما ان استلقى القوزاق بين الأرقطيون ليدخنوا ويتجاذبوا أطراف الحديث حتى عادت دوريتهم الأمامية . وحال سماع

كلمة «الحمر» هب الرجال على أقدامهم ، فشدوا أحزمة السروج وذهبوا الى الجدول ثانية ليشربوا منه ويملأوا زمزمياتهم ، وكل منهم يقول في دخيلته : «ربما كانت هذه آخر مرة أشرب فيها ماء كهذا صافياً مثل دموع الأطفال» .

اتجه بهم الطريق عبر الجدول ، وتوقفوا في الجانب الآخر . وعلى مبعدة من القرية لمحوا على بعد فرسخ منهم دورية تضم ثمانية من خيالة العدو تتحرك بحذر على ربوة رملية ، تعلوها الأحراش ، ميممين صوب القرية . فاقترح ميتكا كورشونوف على غريغوري قائلاً :

— سوف نطبق عليهم ، ها ؟

ثم ذهب بنصف رعيل الى خارج القرية ليطوق الدورية بيد أن رجال الحرس الأحمر اكتشفوا أمر القوزاق في الوقت المناسب فعادوا أدراجهم .

وحين وصلت بعد ذلك بساعة السريتان الأخريان اللتان تؤلفان كتيبة فيشنسكايا استأنفوا تقدمهم من جديد . وعادت الدوريات بمعلومات تفيد أن الحمر ، وهم يناهزون الألف عدداً ، قادمون للاشتباك بهم . كانت سرايا كتيبة فيشنسكايا قد فقدت الصلة عن يمينها مع كتيبة بوكانوفسكي الثالثة والثلاثين ، ومع ذلك فقد تقرر الاشتباك بالعدو . فتقدموا الى قمة الربوة وترجلوا ، واقتيدت الخيل الى منخفض فسيح ينحدر صوب القرية . وفي مكان ما الى اليمين كانت الدوريات قد بدأت القتال ، فتناهت الى سمعهم لعلعة خفيفة من المدافع الرشاشة .

وبعد قليل لاح خط رفيع من الحمر . فوضع غريغوري رجال سريته على قمة التل واستلقى القوزاق على امتداد القمة التي تعلوها الأحراش فيما راح غريغوري يتطلع بمنظاره ، من

تحت شجرة تفاح قميئة ، الى صفوف العدو النائية . وقد استطاع أن يرى بوضوح الصفين الأولين ، ومن خلفهما طابوراً آخر من الجنود انتشروا في صف خلال أكداس من القمح المحصود الذى لم يجمع بعد .

فدهش ، وسائر القوزاق لرؤية فارس ، لا بد أنه القائد ، يمتطي حصاناً أبيض كبيراً في مقدمة الصف الأول . وكان ثمة آخران في مقدمة الصف الثاني . وكان الصف الثالث كذلك يتقدمه قائد ترفرف بجانبه راية بدت إزاء صفرة الحقل المغبر أشبه ما تكون بقطرة صغيرة من الدم القاني .

قال ميتكا كورشونوف ضاحكاً باعجاب :

— قوميساروهم في المقدمة : انها بطولة منهم !

— هؤلاء هم الحمر الآن ! أنظروا اليهم ! يا فتيان !

فرفع جميع القوزاق تقريباً أنفسهم من على الأرض لينظروا ، وعلت الأيدى لتظلل العيون ، وتلاشى الحديث فخيم على السهب والوادى صمت مهيب كئيب ، نذير الموت ، وكأنه ظل سحابة ينساب بهدوء ورفق .

والتفت غريغورى فرأى الغبار يتصاعد خلف جزيرة الصفصاف الرمادية الداكنة ازاء القرية : انها السرية الثانية ماضية لتطويق العدو . وقد أخفت حركاتها بعض الوقت في أحد الأخاديد ، ولكنها بعد أربعة فراسخ تقريباً أخذت ترتقي مرتفعاً وفق نظام الانتشار فقدّر غريغورى في ذهنه المكان والزمان الذى ستحاذى فيه السرية جناح العدو .

أعاد منظاره الى حافظته ، والتفت بسرعة ليأمر رجاله بالبقاء على وضع الامتداد .

وعاد الى صفه ، فالتفتت اليه وجوه القوزاق قاتمة متلامعة

بفعل الغبار والحر . وانبطح الرجال يتبادلون النظرات . وحين صدر الأمر : «تأهب !» تعالت من الترباسات جلبة صخابة . وكان بوسع غريغورى أن يرى من وقفته سيقاناً ممتدة ، ورؤوس قبعات ، وظهورا تغطيها قمصان معفرة ، ومعالم عظام اللوح ندية بالعرق . وجعل القوزاق يزحفون هنا وهناك بحثاً عما يتقون به النار أو عن نقاط أفضل للرمي . وحاول البعض أن يحفروا بسيوفهم حفراً .

وفي أثناء ذلك ، حملت الريح الى سفح الربوة ، أنغام نشيد غير واضح المعاني . . . وتعرجت صفوف الحرس الأحمر دونما نسق ، وتناهت أصواتهم خافتة ضائعة في أرجاء السهب الفسيح الراكد الهواء . وأحس غريغورى بضربات قلبه العنيفة المتشنجة ، فقد سمع من قبل لازمة ذلك النشيد المتأوه ! سمع البحارة ينشدونه ، حين كان مع بودتيلكوف في غلوبوكايا ، كانوا يرفعون قبعاتهم خاشعين ، وعيونهم تشع حماساً . وتنامى في دخيلته قلق غامض فجائي أقرب الى الخوف .

فسأل أحد القوزاق الكهول ملتفتاً بوجه قلق :

— بماذا يجأرون ؟

فأجابه الرجل الراقد الى يمينه :

— بصلاة الأبالسة .

— صلاة الى ابليس ، — قال أندريه كاشولين ذلك باسماً ، ثم صوّب الى غريغورى نظرة وقحة وسأله : — وأنت ، يا غريغورى ، كنت في السابق معهم . أنت تعرف ماذا ينشدون ، أليس كذلك ؟ لا بد أنك أنشدت ذلك النشيد معهم ، ها ؟ . .

— «. . . امتلكوا الأرض . . .» جاءت الكلمتان في تلك اللحظة واضحتين عبر المدى الفاصل بين الفريقين ، ثم ران

السكون على السهب من جديد . وسرت بين القوزاق موجة من المرح المرير وانفجر رجل في وسط الصف ضاحكاً . فشتمهم ميتكا كورشونوف شتماً مقذعاً وسخر منهم قائلاً :

ـــ هل تسمعون ذلك ؟ انهم يريدون أن يمتلكوا الأرض ! غريغورى بانتلايفتش ، هل لي أن أصرع ذلك الخيال من على فرسه ؟ سأطلق النار مرة واحدة لا أكثر . ممكن ؟

وأطلق النار دون أن ينتظر الايعاز . ويبدو أن الطلقة أربكت الفارس ، فترجل وسلم حصانه الى أحد الجنود ، ثم سار في طليعة رجاله ، وسيفه المسلل يلتمع .

وشرع القوزاق يطلقون النار فانبطح الحمر . وأمر غريغورى حملة الرشاشات أن يفتحوا النار . وبعد بضع رشقات هب الصف الأمامي من الحمر وتقدم راكضاً نحو ثلاثين ياردة ثم انبطحوا ثانية . واستطاع غريغورى أن يراهم ، خلل منظاره العسكرى ، يعملون بأدوات الحفر لاعداد الخنادق ، فتعلقت فوقهم سحابة غبار مائل الى الزرقة ، وتنامت أمام الصف تلال صغيرة أشبه ما تكون بتلال حيوان الخلد . وأخذت تصلهم من تلال الخلد تلك رشقات من الرصاص ، وبدا أن المعركة ستطول . وفي أقل من ساعة بدأت الاصابات تحل في القوزاق : فقد قتل رجل من الرعيل الأول ، وزحف ثلاثة جرحى متقهقرين صوب المنخفض حيث الجياد . ثم ظهرت السرية الثانية على جناح العدو وأغار قوزاقها على الحمر هذباً ، غير أنهم صدوا بنيران الرشاشات فهذبوا ناكصين وقد تملكهم الرعب وتناثروا كراريس صغيرة . ثم لمت السرية شعثها ، وتقدمت ثانية بصمت . وللمرة الثانية صدتهم زوبعة من نيران الرشاشات فتراجعوا كالأوراق في مهب الريح .

بيد أن الهجوم قد نال من معنوية الحرس الأحمر . فارتبك الصفان الأماميان وشرعا في التقهقر .

فأمر غريغورى سريته بالنهوض دون أن يوقفوا اطلاق النار . وتلاشى الاحجام الذى اعتورهم بادئ الأمر ، وشجعهم أن رأوا بطارية المدفعية تهرع الى مراكزها . وجر المدفع الأول الى مركزه وفتح النار . وأرسل غريغورى رجلاً يأمر القوزاق في المنخفض بجلب الخيل . فقد أعد العدة للهجوم . وجر مدفع ثالث الى مركزه قرب شجرة التفاح حيث وقف غريغورى يرقب بداية المعركة . وكان ضابط مديد القامة يرتدى سروال خيالة ضيقاً يضرب جزمته بالسوط ويصب اللعنات الداوية على رؤوس رجال المدفعية البطيئين .

ـــ أنصبوه ، ها ؟ تخطفكم الشيطان !

كان ثمة مراقب وضابط متقدم يقفان على بعد نصف فرسخ من البطارية يحدقان بمنظاريهما نحو صفوف الحمر المتقهقرة . وكان جنود المخابرة يركضون بسلك لربط البطارية بمركز المراقبة . وكان آمر البطارية الرئيس الكهل ، يعدل منظاره بأصابع عصبية معقدة ـــ فى أحدها خاتم زواج يلتمع . كان يتخبط قرب المدفع الأول ، منحنياً برأسه على صوت الطلقات ، ومع كل حركة فجائية كانت محفظة ميدان بالية تضرب على جنبه .

وبعد ان انطلق هدير داو مدمر انتظر غريغورى سقوط القذيفة فغطى منثار أول قذيفة سافات القمح الذى لم يجمع بعد ، فعلقت كتلة من دخان أبيض كالقطن فى اطار خلفى أزرق . وراحت المدافع الأربعة ترسل قذائفها على سافات القمح المحصود ، ولكن ، على غير ما توقع غريغورى ، لم تحدث نار المدافع ارتباكاً ملموساً فى صفوف الحمر المتقهقرين . فقد استمروا فى

تراجعهم البطىء المنتظم ثم تواروا فى أحد المنخفضات . فأدرك غريغورى خطل فكرة الهجوم ، ولكنه قرر مع ذلك بحث الموضوع مع آمر البطارية . فذهب الى الضابط ، وابتسم له ابتسامة ود وهو يلمس بيسراه طرف شاربه المتجعد الذى حال لونه من الشمس . وقال :

— أنا أفكر بقيادة رجالى للهجوم .

— كيف يسعك أن تهاجم ؟ — وهز الرئيس رأسه بعنف ، وهو يمسح من صدغه سيلاً من قطرات العرق بظهـــر يده . وأردف : — يمكنك أن ترى كيف تراجعوا بانتظام ، هؤلاء الخنازير ! انهم لن يذعنوا . ومن السخف أن ننتظر منهم الاذعان : ان تلك الوحدات يقودها ضباط نظاميون ، رجال ارتقوا من بين الجنود . ان لى بينهم رفيقاً قديماً ، اسمه سيروف .

فسأله غريغورى مرتاباً :

— كيف عرفت ذلك ؟

— عن طريق الفارين . — ثم أصدر الامر الى رجاله : — أوقفوا النار ، — ثم أوضح الأمر لغريغورى ، وكأنه يبرر له ما فعل : — ان نارنا لم تحقق أى غرض ، ثم ان القذائف تنقصنا . أنت ميليخوف ، أليس كذلك ؟ اسمى بولتافتسيف — ثم دفع يده الضخمة العرقى فى يد غريغورى ، وأخرج من محفظته بعض السكائر بسرعة ، ودعا غريغورى قائلاً : — أتريد سيكارة ؟

وانبعثت قعقعة مكتومة وهرع السواق يجرون عربات المدافع من المنخفض . وامتطى غريغورى حصانه وقاد سريته يتعقب الحمر المتقهقرين . واحتل العدو القرية التالية ، ولكنه تخلى عنها دون مقاومة . وانتشرت البطارية وسرايا كتيبة فيشنكايا الثلاث فى أرجاء القرية . ولم يشأ القرويون المرتعبون اخراج رؤوسهم

من أكواخهم . فراح القوزاق يهومون فى أقنية الأكواخ بحثاً عن الطعام . وترجل غريغورى خارج كوخ منعزل بعض الشىء ، ثم ربط حصانه عند سقيفة الباب ، فألفى رب البيت ، وهو قوزاقى كهل طويل القامة ، راقداً فى فراشه ، يئن ويقلب رأسه الصغير الذى يشبه رأس الطير على الوسادة القذرة . فابتسم غريغورى للرجل قائلاً :

— أمريض أنت ؟

— مر . . . يض . . .

بيد أن الرجل كان يتظاهر بالمرض فحسب ، وكانت عيناه الزائغتان القلقتان تدلان على أنه لم يتوقع أن يصدقه غريغورى . فسأله غريغورى قائلاً :

— هلا أعطيت رجالى بعض الطعام ؟

وظهرت ربة البيت من وراء الموقد سائلة :

— كم عددهم ؟

— خمسة .

— حسناً ، أدخلهم . سنعطيهم مما قسم الله .

وبعد أن تناول غريغورى الطعام مع رجاله خرج الى الشارع . كانت البطارية عند البئر على أهبة تامة للقتال . وكانت الخيل تأكل شعيراً من المخالى ، والسواق ورجال المدفعية يتفيأون فى ظل صناديق العتاد ، فى حين جلس بعضهم أو رقد حول المدافع . وكان أحد المدفعيين مستلقياً يغط فى نوم عميق وساقاه متقاطعتان ، وكفاه تختلجان . ربما كان قد استلقى فى الفىء ، بيد أن الشمس بلغته فصارت تلفح رأسه الأجعد الحاسر الذى خالطه بعض القش .

وبدت أدم الخيل براقة صفراء من العرق الذى كان يتصبب

من تحت أحزمة العدة العريضة .

وكانت خيل الضباط تقف مربوطة الى أحد الأسيجة وقد تهدلت ذيولها بكلال ، أما القوزاق فقد خلدوا الى الراحة ، لائذين بالصمت ، مثقلين بالغبار والعرق ، فى حين جلس الضباط وآمر البطارية على الأرض يدخنون وظهورهم ازاء جدار البئر . وفى مكان ليس بعيداً عنهم ، تحلق ستة قوزاق ، على هيئة نجمة سداسية فوق الدغل المحروق ، وراحوا يشربون اللبن الرائب من جرة ، وبين آونة وأخرى يبصقون شعيراً كان قد وجد سبيله الى اللبن .

راحت الشمس تصب لهيبها . وبدت شوارع القرية الممتدة على التل وكأنها مقفرة . كان القوزاق نائمين بجانب مخازن الحبوب ، أو تحت السقائف أو عند الأسيجة فى الظل الأصفر لنبات الارقطيون . وكانت الخيل التى وقفت مسرجة عند الأسيجة قد تملكها الاعياء وران عليها النعاس من شدة الحر الخانق . ومر قوزاقى على حصانه وكان لفرط كسله لا يكاد يقوى على رفع سوطه عن ظهر حصانه ، ثم ما عتمت القرية أن هجعت كدرب فى السهب أتى عليه النسيان ، وبدت المدافع الخضراء والجند المنهكون النيام أشياء زائدة لا لزوم لها .

كان غريغورى يوشك أن يأوى الى الكوخ ، وقد استبد به الضجر من ضياع الوقت دونما عمل . الا أنه صادف فى هذا الحين أن ظهر فى الشارع ثلاثة خيالة قوزاق من سرية أخرى يسوقون أمامهم ثلة صغيرة من أسرى الحرس الأحمر . فتململ رجال المدفعية وجلسوا من رقدتهم ، نافضين الغبار عن سترهم وسراويلهم ونهض الضباط على أقدامهم .

ومن الفناء المجاور ، نبت صيحة جذلة :

— هيه ، يا أولاد ، ها هم قادمون ببعض الأسرى . . . يشهد الله أنهم لكذلك .

وجاء قوزاق بدا عليهم النعاس يتراكضون من الأفنية القريبة . وأقبل الأسرى ، وكانوا فتياناً ثمانية يعلوهم الغبار والعرق . فحف بهم حشد حاشد .

وسأل آمر البطارية وهو يعاين الاسرى بفضول وكراهية :

— أين أمسكتم بهم ؟

فأجابه أحد مرافقى الأسرى وفى صوته نبرة من التباهى :

— محاربون ! . . عثرنا عليهم بين عباد الشمس فى ضواحى القرية مختبئين كما تختبئ من الحدأة طيور السلوى . رأيناهم من على ظهور خيلنا ، فجمعناهم وقتلنا واحداً . . .

وتلاصق جنود الحرس الأحمر فزعين ، مترقبين أن يعدموا جميعاً ، وراحت أعينهم تتنقل بين وجوه القوزاق على نحو بائس ، الا أسيراً ، أسمر الوجه من لفح الشمس ، يرتدى قمصلة متسخة ولفاف أرجل خلقاً ، ويبدو أكبر سناً من الآخرين فقد ظل ينظر عبر رؤوس القوزاق بازدراء بعينيه السوداوين والحولاوين بعض الشىء وقد أطبق شفتيه المتشققتين . كان مكتنز الجسم عريض المنكبين ، تعلو شعره الأسود الذى يحاكى بخشونته عرف الفرس ، قبعة بالية لا بد أنه احتفظ بها من أيام الحرب الألمانية . كان واقفاً فى وضع الاستراحة وأصابعه السوداء الغليظة ، التى يكسو أظافرها دم متيبس ، تعبث بياقة قميصه المفتوح وجوزة عنقه المشعرة . كان بادى الهدوء تماماً ، سوى أن احدى ساقيه ، التى تخلفت عن الأخرى بعض الشىء ، كانت ترتعش ، وقد بدت هائلة الحجم بلفافها الذى يبلغ الركبة . أما الآخرون فقد علاهم الشحوب ، ولم يكن فى سيمائهم ما يتميزون به . وكان

وحده يستلفت النظر باتساع منكبيه القويين ، وبوجهه التترى المتسم بالحيوية . ولعل ذلك جعل آمر البطارية يتوجه اليه بالسؤال :

— من أنت ؟

فلاح ضوء فى عينى الرجل ، الشبيهتين بقطعتين من فحم الأنثرسيت ، ثم انتصب فى وقفته على نحو رشيق لا يكاد يحس به أحد :

— جندى من الحرس الأحمر . روسى .

— أين ولدت ؟

— في اقليم بينزا .

— أمتطوع أنت ، ياثعبان ؟

— كلا . كنت نائب ضابط أقدم فى الجيش السابق ، ثم وجدت نفسى فى الحرس الأحمر عام ١٩١٧ ، وبقيت معهم منذ ذلك الحين . . .

وتدخل أحد الحراس المرافقين للأسرى فأخبر الضابط قائلاً :

— هذا الخنزير أطلق علينا النار !

— أطلق النار ؟ — وتجهم وجه الرئيس غاضباً ، وحين التقت عيناه بنظرة غريغورى الواقف تجاهه ، أشار الى الأسير بعينيه ، وأردف : — يا لله ! . . أطلقت النار على القوزاق ، أليس كذلك ؟ ألم يخطر ببالك أنك قد تقع فى الأسر ؟ لنفرض أننا سوينا الحساب معك هنا فى الحال ؟

فارتعشت شفتا الرجل المتشققتان بابتسامة استرحام وهو يقول :

— أردت أن ادافع عن نفسى . . .

— يا لك من نموذج رائع ! ولماذا لم تفعل ذلك ؟

— استنفدت كل طلقاتى . . .

— آها !

أصبحت عينا الرئيس باردتين ، ولكنه راح يحدق فى الجندى بارتياح جلى . ثم أجال عينيه بالآخرين وسألهم بنبرة مغايرة تماماً :

— وأنتم ، يا أولاد العاهرات ، من أين أنتم !

فأعول شاب طويل العنق ، وراحت عيناه تطرفان وهو يحك شعره الذى يشبه اللهب ويقول :

— جندونا ، يا صاحب السعادة . . . نحن من ساراتوف ، من بالاشوف .

تفحص غريغورى بفضول وألم أولئك الفتيان بسحناتهم الريفية الساذجة ومظهرهم الذى يدل بوضوح على أنهم مشاة مكلفون ، ولم يثر شعور العداء فيه سوى الرجل ذى الشعر الأسود . فخاطبه بازدراء وغضب ، قائلاً :

— بِمَ اعترفت ؟ أحسبك كنت تقود سرية من الحمر ، أليس كذلك ؟ آمر ؟ وشيوعى ؟ تقول انك استنفدت كل رصاصك ؟ حسناً ، لنفرض أننا قطعناك بالسيوف فى الحال ؟ ما قولك فى هذا ؟

فاختلج منخرا أنفه المتشقق بالزناد وأجاب بجسارة مصاعفة :

— لم أقل ذلك شيطنة منى . علام أخفى الأمر ؟ فلو أنى أطلقت النار عليهم لوجب علىَّ الاعتراف بذلك . أليس كذلك ؟ أما عن بقية . . . قطعوني بالسيوف ، اذا شئتم . أنا لا أتوقع رحمة منكم . — ثم ابتسم ثانية ، وأردف : — تلك هى مهمة القوزاق .

فعلت ابتسامات الرضى وجوه من حوله . أما غريغورى فقد أشاح عنه بوجهه شاعراً بالرضى من نبرة الجندى المتئدة ،

وشاهد الأسرى يذهبون الى البئر لشرب الماء . وفى تلك الأثناء جاءت سرية من القوزاق المناوشين من وراء العطفة وقد انتظموا أرتالاً .

٩

وبعد هذه الفترة صار غريغورى يلتقى بالعدو على الدوام اذ كانت كتيبته تخوض غمار قتال مستديم وقد التحمت جبهة القتال فى خط موصول بعد أن كانت أشبه بستار مهلهل . وعند التماس المباشر بالعدو ، كان يتملكه ذلك الشعور الحاد بالفضول الهائل الذى لا يشفى غليله ازاء جنود الحرس الأحمر ، ازاء أولئك الروس الذين بات عليه أن يقاتلهم ، ولكن لا يعلم الا الله لماذا . لكأنه ما يزال نهباً لذلك الشعور الصبيانى الساذج الذى تملكه فى مطلع الحرب الالمانية يوم التقى بالقوات النمساوية الهنغارية للمرة الأولى . «ترى أى ضرب من الرجال هم ؟» لكأن حياته لم تشهد فترة قاتل فيها جنباً لجنب مع الحمر ضد مفرزة تشيرنتسوف فى غلوبوكايا . بيد أنه كان وقتئذ يعرف سيماء الأعداء معرفة تامة : فجلهم قوزاق من ضباط الدون . أما الآن فهو يواجه مشكلة الجنود الروس ، رجال يختلفون عن أولئك كل الاختلاف ، انهم حشد حاشد من الرجال الذين يؤيدون الحكم السوفييتى ، ويحاربون ، حسب ظنه ، من أجل الاستيلاء على أراضى القوزاق وممتلكاتهم .

وذات مرة ، فى غمرة المعارك كاد أن يلتقى ثانية بالحرس الأحمر وجهاً لوجه ، ففيما كان فى دورية مع رعيل خيالة بجر فى باطن أحد الوديان سمع على حين غرة شتائم بالروسية ووقع أقدام . ثم جاء بضعة من رجال الحرس الأحمر ، وبينهم صبى، يتراكضون الى شفا الوادى فصعقوا لمرأى القوزاق . ووقفوا لبرهة مشدوهين .

فصرخ أحدهم بصوت مرعوب : «قوزاق !» ثم ألقى بنفسه على الأرض . وأطلق الصبى رصاصة ، ثم صاح الجندى المنبطح وهو يتأتئ بصوت حاد ناشج :

— يا رفاق ! أجلبوا وشاش المكسيم ! انهم قوزاق !

فأردى ميتكا كورشونوف الصبى أرضاً بطلقة من مسدسه ، ثم استدار بحصانه وكان أول الهاذبين على امتداد الوادى ، وما لبث الآخرون أن هبوا وراءه ، وكل يحاول استباق الآخر . ودوت خلفهم لعلعة الرشاش العميقة ، فراح الرصاص يثز خلال أوراق العليق والزعرور البرى النابت على جانبى الوادى ، ويهرش قاعه الصخرية .

والتقى بالحمر وجهاً لوجه فى مناسبات أخرى وشاهد رصاص القوزاق يمزق الأرض تحت أقدامهم ، ورآهم يتساقطون لينزفوا آخر قطرة من دمائهم على هذه التربة المعطاء الغريبة عنهم .

. . . ورويداً رويداً راحت الكراهية للبلاشفة تملأ قلب غريغورى . لقد ولجوا حياته كأعداء ، وانتزعوه من الأرض انتزاعاً ! ولاحظ أن القوزاق الآخرين يتملكهم الشعور ذاته . فقد خيل اليهم جميعاً أنه لو لم يغز البلاشفة اقليم الدون لما نشبت هذه الحرب على الاطلاق . وكلما رأى رجل منهم حزم القمح التى لم تجمع ، والحبوب غير المحصودة يدوسها حصانه بحوافره ، وساحات درس الحبوب الخالية ، تعود به الذاكرة الى أرضه هو حيث تكدح نسوة بيته كدحاً لا قبل لهن به ، فيشتد قلبه قسوة وضراوة . وكان غريغورى يعتقد أحياناً أن قلوب أعدائه ، فلاحى تامبوف وريازان وساراتوف ، لا بد أن تنبض بهذا الحب الموهوب للأرض ،

فيقول فى دخيلته : «ها نحن نتنازع عليها وكأنها امرأة حسناء» .

تناقص عدد الأسرى . وتكاثرت حالات الاعدام الجماعى الذى كان ينفذ فى الحال . وطغت على الجبهة موجة من السلب والنهب . فراح القوزاق يسلبون عوائل الحرس الأحمر ومن يشتبه فيهم العطف على البلشفية ، وكان الأسرى يعرون من ملابسهم .

راحوا ينهبون كل شىء ، من الخيل والعربات ، الى الحاجيات المنزلية الثقيلة التى لا يرجى منها خير يذكر ، ولم يكن الضباط ليختلفوا عن القوزاق الجنود فى ذلك ، فكلهم فى النهب سواء . وحملت قوافل الشحن بالغنائم : بالثياب ، والسماورات ، ومكائن الخياطة ، وعدد الخيل ، وبكل شىء ذى فائدة تذكر . وراحت الحاجيات تتدفق من قوافل الشحن الى أهاليهم فى سيل لا ينقطع . وكان الأقرباء يأتون الى الجبهة ، يجلبون العتاد والمؤونة عن طيب خاطر ، ثم يحملون عرباتهم بالأسلاب . وكانت كتائب الخيالة ، وهى أكثرية الجيش ، تبز غيرها ولا يردعها فى ذلك رادع . فلم يكن عند المشاة ما يحملون عليه الأسلاب ، أما الخيالة فبوسعهم أن يعبئوا خروج جيادهم ، ويحملوا الأسلاب على سروجهم ، فيشدوا خلفهم من الصرر ما يجعل خيلهم تبدو أشبه منظراً ببغال التحميل منها بجياد القتال . لقد أطلق القوزاق لأنفسهم كل العنان . كان السلب فى الحروب جانباً أساسياً فى سلوكهم . وكان غريغورى على بينة تامة من ذلك ، سواء من أقاصيص الحروب السابقة ، أو من تجاربه هو . فحتى فى الحرب الألمانية ، يوم كانت كتيبته تجوب بروسيا ، فقد أشار آمر اللواء ، وكان جنرالاً شريفاً محترماً ، بسوطه الى بلدة صغيرة تقع فى سفح التلال ، وقال للكتيبة :

— اذا استوليتم على البلدة فانها ستكون تحت تصرفكم مدة ساعتين ، ولكن من يقبض عليه متلبساً بالنهب بعد انقضاء الساعتين يعدم رمياً بالرصاص !

على أن غريغورى لم يعتد السلوك على هذا النحو أبداً . كان لا يأخذ الا الطعام لنفسه ولحصانه ويرفض أن يلمس أى شىء آخر ، فكانت نفسه تعاف النهب ، ويزداد نفوره حين يعمد قوزاقه الى النهب . فشدد النكير على سريته . فلو حدث أن عمد أى من رجاله الى السلب فلم يكن ذلك يحدث الا خفية وفى أحوال نادرة . كان لا يأمر بتجريد الأسرى من ثيابهم ولا بالاجهاز عليهم . وقد أثارت رقة قلبه غير المألوفة السخط لدى القوزاق ولدى قيادة الكتيبة ، فاستدعى الى رئاسة أركان الفرقة ليقدم ايضاحاً عن سلوكه . وصرخ ضابط من ضباط الأركان فيه بفظاظة :

— أيها نائب الضابط ، علام تفسد سريتك ؟ ما هذا التساهل من عندك ؟ أتراك تعد لنفسك فراشاً وثيراً فى حالة انقلاب الأحوال ؟ أتلعب على الحبلين بسبب ماضى أيامك ؟ صه ، لا تجادل ! ألا تعرف أصول الضبط ؟ ماذا ؟ نستبدلك ؟ سوف نفعل ذلك ! سوف أصدر الأمر اليك بتسليم سريتك هذا اليوم بالذات ، واياك أن تتذمر ، يا فتى !

وفى نهاية الشهر احتلت كتيبة غريغورى ، وسرية من كتيبة بلانسكايا الثالثة والثلاثين قرية غريماتشى لوغ .

كان الوادى يعج بأشجار الصفصاف والدردار والحور ، وعلى المنحدر القريب كان ثمة عشرون أو ثلاثون كوخاً بيض الجدران متباعدة تحف بها أسيجة واطئة من الحجر المصقول . وتقوم على قمة التل المطل على القرية طاحونة هوائية قديمة تعبث فيها

الرياح كلما هبت . وبدت أذرعها المقيدة أشبه بصليب معوج داكن ازاء غيمة بيضاء منفوشة كانت تلامس ذروة التل . كان النهار ماطراً يكتنفه الضباب ، وقد علا حفيف أوراق الشجر وهى تتساقط فى الأخدود مثل رذاذ من الثلج الأصفر . وراح الصفصاف الأزغب يرسل وهجاً قانياً . وعلت ساحات درس الحبوب أكداس عالية من القش المتلامع . لقد نشر الشتاء المقبل لحافه الوثير على الأرض العطرة .

ونزل غريغورى فى البيت المخصص له ولقوزاقه ، وكان يومذاك آمر رعيل . وتبين لهم أن رب البيت قد تراجع مع الحمر ، فراحت الأم الكهلة وابنتها التى لم تبلغ العشرين تقومان على خدمتهم وهما صاغرتان . ودخل غريغورى غرفة الاستقبال وأجال فيها عينيه ، فبدا له جلياً أن أهل البيت كانوا يحيون فى بحبوحة من العيش ، فأرضية الغرفة مطلية بالدهان ، ولديهم كراس من الخشب المثنى على الطراز النمساوى ، وثمة مرآة ، والتصاوير المألوفة على الجدار ، وشهادة مدرسية باطار أسود . وعلق غريغورى مشمعه الندى عند الموقد لكى يجف ثم لف له سيكارة . ودخل بروخور زيكوف ، ووضع بندقيته ازاء السرير ، ثم قال له بدون اكتراث :

— جاءت عربات من تتارسكى ، وأبوك معها ، غريغورى بانتلاييفتش !

— هل من أكاذيب أخرى كهذه ؟

— انها الحقيقة ، هناك ست عربات من قريتنا ، اذهب واستقبلهم .

فارتدى غريغورى معطفه وخرج ، فرأى أباه يقود حصانه خلل بوابة الفناء ، وقد جلست داريا فى العربة ماسكة بالأعنة ،

متدثرة بمعطف من نسيج محلى . ولاحت لغريغورى ابتسامة ندية وعينان ضاحكتان من تحت قلنسوة معطفها المبتلة .

فصاح غريغورى وهو يبتسم لوالده :

— ما الذى جاء بكما الى هنا ؟

— آه ، يا ولدى ، جميل أن نراك حياً . جئنا لزيارتك ضيفين متطفلين . . .

عانق غريغورى منكبى والده العريضين وشرع فى حل أحزمة العربة .

— اظن اننا جئنا على غير انتظار ، أليس كذلك ؟

— بالطبع ! . .

وفيما كانا يحلان الحصانين تبادلا حديثاً متقطعاً . قال له أبوه :

— جلبنا لكم الذخيرة لكى تواصلوا القتال بها .

أما داريا فقد أخرجت من العربة طعاماً وشيئاً من الشوفان للحصانين .

فسألها غريغورى :

— وعلام جئت أنت أيضاً ؟

— رافقت أبى . لم تكن صحته على ما يرام . وقد خشيت أمى أن يحدث له شىء وهو وحيد فى ديار غريبة .

ورمى بانتلاى بروكوفتش حزمة من القش الأخضر الى الحصانين ، ثم دنا من غريغورى وسأله فى همس أبح ، وقد اتسعت بقلق عيناه السوداوان ببياضهما المرضى المحمر :

— حسناً ، وكيف تسير الأمور ؟

— آه ، على ما يرام . ما زلنا نقاتل .

— سمعت حكاية تفيد أن القوزاق لا يريدون تخطى حدود

الاقليم . . . أصحيح هذا ؟

فأجابه غريغورى مراوغاً :

ـــ ليست هذه الا أقاويل . . .

فقال الشيخ بنبرة قلقة فيها شيء من الارتباك :

ـــ ماذا تعنى بذلك ، يا ولدى ؟ ليس بوسعكم أن تستمروا على هذا المنوال . . . فنحن معشر الشيوخ نأمل . . . من سواكم يذود عن أبينا الدون ؟ اذا لم ترغبوا فى القتال ، لا سمح الله . . . أخبرنى رجالك . . . أنهم يبثون الشائعات ، أبناء العاهرات ! . . .

ودلفا الى البيت ، فالتم القوزاق لسماع أخبار القرية ، ثم فتحت داريا كيساً من الطعام وشرعت تعد العشاء بعد أن عقدت مع ربة البيت مشاورات هامسة .

وسأل بانتلاى بروكوفتش وهو يسرّح لحيته الشعثاء بمشط عظمى :

ـــ بلغنى أن رتبتك أنزلت من آمر سرية ؟

فأغاظ غريغورى أباه الشيخ اذ أجابه بلا مبالاة :

ـــ أنا الآن آمر رعيل .

فلاحت الغضون فوق حاجبى بانتلاى بروكوفتش ، ومشى يظلع الى المائدة ثم غمغم بالصلاة على عجل ، ومسح ملعقته بذيل معطفه ، ثم سأله بنبرة تنم عن مهانة :

ـــ ولأى سبب كان ذلك ؟ ألم ترض رؤساءك ؟

فلم يجد غريغورى رغبة فى خوض الموضوع بحضور القوزاق ، فهز كتفيه امتعاضاً ، وقال :

ـــ أرسلوا الينا آمراً جديداً . . . متعلماً . . .

ـــ مع ذلك ، أخدمهم ، يا بنى ! سيقدرونك حق

قدرك عما قريب . تباً لهم ولتعليمهم ! لقد حصلت أنت على تعليم حقيقي أثناء الحرب الألمانية ، تعلم يفوق ما لدى ضباطهم ذوى العوينات .

والواضح أن الشيخ كان ساخطاً ، بيد أن غريغورى عبس ونظر الى القوزاق بزاوية عينه ليرى ما اذا كانوا يبتسمون .

لم يشعر غريغورى بأى استياء من تنزيل رتبته . لقد سلم سريته الى خلفه عن طيب خاطر ، مدركاً أنه لم يعد يتحمل مسؤولية عن حياة رجال قريته . ومع ذلك فقد جرحت كرامته وسببت له كلمات أبيه كدراً لم يستطع كبحه .

دخلت ربة البيت الى المطبخ ، فعاد بانتلاى بروكوفتش الى الموضوع الذى كان يقض مضجعه ، مستشفاً أمارات الرضى فى وجه ابن قريته بوغاتيريف ، الذى جاء مع القافلة أيضاً . فوجه كلامه الى جميع القوزاق الموجودين فى الغرفة :

ـــ اذا ، صحيح أنكم لا تريدون المضى أبعد من الحدود ؟

وراح بروخور زيكوف يطرف بعينيه الوادعتين الشبيهتين بعينى العجل ويبتسم بهدوء . اما ميتكا كورشونوف الذى كان مقرفصاً عند الموقد فقد جر آخر نفس من سيكارته حارقاً اطراف اصابعه ، وكان ثلاثة قوزاق آخرين بين جلوس ومتمددين على المصاطب ، بيد ان احداً لم يجب على السؤال . فلوح بوغاتيريوف يده بمرارة ، وقال بصوت جهير عميق :

ـــ لا يبدو عليهم اى اكتراث لأمور كهذه .

فسأل ايليين بتكاسل ، وكان رجلاً هادئ الطبع قليلاً :

ـــ ولماذا ينبغى ان نتخطى الحدود ؟ لماذا ينبغى ذلك ؟ لقد ماتت زوجتى وخلفت لى اطفالاً يتامى ، أفينبغى ان افقد حياتى بدون داع ؟

وأيده قوزاقى آخر فقال بعزم :

ـــ سنطردهم من اراضى القوزاق ، ثم نعود الى اهلينا !

وابتسم ميتكا كورشونوف بعينيه الخضراوين فقط وفتل شاربه النحيف واعلن :

ـــ بوسعى ان امضى فى القتال خمسة اعوام أخرى ! فاننى احبه .

وفى تلك اللحظة علت صيحة فى الفناء :

ـــ اخرجوا ! الى الخيل !

وقال ايليين بنبرة يائسة :

ـــ ها ، هذا شاهد على ما قلت ! ها نحن اولاء لم تجف ملابسنا من المطر بعد ، وهم يصيحون : «الى الخيل !» هذا يعنى الذهاب الى مواقعنا ثانية ، وانت تتحدث عن الحدود . اى حدود ؟ ينبغى لنا ان نعود الى اهلينا . يجب ان نسعى الى احلال السلام ، وانت تتحدث . . .

وظهر ان الانذار لم يكن له داع . فقاد غريغورى حصانه عائداً الى الفناء ، وراح يركل الحصان على كفله لغير ما سبب ، ويزمجر :

ـــ سر باستقامة ، ايها الشيطان !

وحين كان القوزاق يدخلون سألهم بانتلاى بروكوفتش وهو واقف يدخن عند الباب :

ـــ ما سبب الانذار ؟

ـــ انذار ! . . حسبوا قطيعاً من البقر جنوداً حمراً !

وخلع غريغورى معطفه وجلس الى المائدة ، ورمى القوزاق الآخرون سيوفهم ، وبنادقهم ، واكياس رصاصهم ، على المصاطب وهم يتنحنحون . وحين استلقى الآخرون ليناموا استدعى بانتلاى

بروكوفتش غريغورى الى الفناء . وجلسا على الدرجات . فربت الشيخ على ركبة غريغورى وهمس قائلاً :

ـــ اريد ان اتحدث اليك . ذهبت لزيارة بيوتر قبل اسبوع . وكان سعيي هناك مشكوراً ، يا بنى ، فبيوتر لا يغفل عن البيت ابداً ، اعطانى شوالاً من الملابس ، وحصاناً ، وسكراً . . . حصاناً رائعاً .

فقاطعه غريغورى بحدة وقد احتدم غيظه اذ ادرك ما تهدف اليه كلمات الشيخ :

ـــ مهلاً ! أتراك جئت هنا لهذا الغرض ؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ ما قصدك بلم لا ؟

ـــ الآخرون يأخذون الحاجيات ، يا غريغورى . . .

فكرر غريغورى كلمات ابيه بغضب شديد ، وقد اعياه الكلام :

ـــ الآخرون ! يأخذون الحاجيات ! أليس يكفيهم ما عندهم ؟ انكم شرذمة من الخنازير ! كان الجنود يعدمون رمياً بالرصاص فى الحرب الالمانية لعمل كهذا . . .

فقاطعه ابوه بجفاء :

ـــ كفى ! أنا لا أسألك شيئاً . فلست بحاجة الى شىء . فأنا اليوم على قيد الحياة ولكننى غداً سأرقد فى القبر . قل لي من فضلك : أى غني أنت . . . ليس لديك سوى عربة صغيرة فى الحقل ولكنك . . . لِـمَ لا تأخذ الحاجيات من اولئك الذين انقضوا الى الحمر ؟ انها لخطيئة الا تفعل ذلك . ان كل قطعة وكل عصا تنفعنا فى البيت . . .

فقال غريغورى وهو يرتجف ويلهث :

— لا تحدثني بذلك ، والا فسأطردك فى الحال ! لقد سلخت جلود بعض القوزاق لعمل كهذا ، والآن جاء أبي ليسلب الناس !

فسخر منه والده قائلاً :

— ولهذا انزلوا رتبتك من آمر سرية .

— اجل ، وسوف اتخلى عن الرعيل ايضاً .

— لم لا ؟ أنت شديد الذكاء . . .

ثم ران عليهما الصمت برهة . واذ أشعل غريغورى سيكارته لمح على ضوء الكبريت وجه ابيه وقد بدا عليه الغيظ والحرج . واذ ذاك فقط ادرك غريغورى سبب مجيء والده ، فقال فى نفسه : «ولهذا السبب جلب داريا معه ، يا للشيطان العجوز ! لتهتم بالاسلاب !»

ثم قال بانتلاى بروكوفتش بلا اكتراث :

— ستيبان استاخوف عاد . هل بلغك ذلك ؟

فسقطت السيكارة من يد غريغورى وهو يقول :

— ماذا ؟

— الظاهر انه وقع فى الاسر ولم يقتل رغم ما قيل ، وقد جاء محملاً بالمال والثياب ، صدق ذلك او لا تصدقه ! لقد جلب من ذلك عربتين محملتين . — كان الشيخ يكذب ويتباهى وكأن ستيبان قريب له ، واردف : — اعاد اكسينيا من ياغودنويه ، ثم رحل الى الجيش . اوكلوا اليه عملاً مرموقاً ، فهو الآن قومندان منطقة فى كازانسكايا ، او غيرها .

وادار غريغورى دفة الحديث الى وجهة أخرى ، فقال :

— كيف كانت حصيلة درس الحبوب ؟

— اربعمائة بوشل .

— كيف صحة حفيديك ؟

— أوهو ، انهما رائعان ، يا بنى ! ينبغى ان ترسل لهما هدية .

فتنهد غريغورى اذ قال :

— ارسل لهما هدايا من جبهة القتال ! — اما افكاره فقد شغلت باكسينيا وستيبان .

— اليس عندك بندقية زائدة ؟

— ما حاجتك بها ؟

— للبيت . لنطرد بها السوائم المتطفلين . فقد تدعونا الحاجة اليها . وعندى من الخراطيش صندوق بأكمله اخذته فيما كنت احمل العتاد فى عربتى .

فندت عن غريغورى ابتسامة غائمة وقال :

— خذ بندقية من العربة . لدينا الكثير من هدايا كهذه . حسناً ، اذهب الآن ونم . علىّ ان اتفقد المواقع .

وفى صبيحة اليوم التالى نقل من القرية جزء من الكتيبة ومن ضمنه سرية غريغورى . فرحل وهو على ثقة من انه قد اشعر اباه بالخزى ، وان الشيخ سيرجع خاوى الوفاض . على ان بانتلاى بروكوفتش حين فرغ من وداع القوزاق دخل المخزن وكأنه فى بيته ، فانزل اطواقاً وعدة خيل من مشاجبها ثم حملها الى عربته . فلحقته ربة البيت وهى تتشبث بكتفيه وتصيح باكية :

— يا سيدى العزيز ، الا تخشى ارتكاب خطيئة كهذه ؟ لم تسيء الى ايتام ؟ اعد الىّ الاطواق . اعطنى اياها كرامة لحب الله .

فدفعها بانتلاى بروكوفتش عنه ، قائلاً :

— مهلاً ، مهلاً ، اتركي الله جانباً . أظن أن أزواجكن

أيضاً سيأخذون الحاجيات من عندنا» . فأنا أعرف قوميساريكم ! ان أموالك هى أموالى فاخرسى ولا تشتكي .

ثم كسر أقفال الصناديق ، والآخرون يراقبونه باستحسان صامت ، وانتقى سراويل ومعاطف جديدة ، ورفعها الى الضوء ، وتلمسها بيديه السوداوين الخشنتين ، ثم شدها على هيئة صرة . . .

وعند الظهر تأهب وداريا لرحلة الاياب . فجلست داريا مطبقة شفتيها الرقيقتين فوق الصرر التى تكدست فى العربة ، وقد علا خلفها مرجل انتزعه بانتلاى بروكوفتش من موضعه فى الحمام ، وحمله بشق النفس الى العربة ، وحين لامته داريا قائلة : «أنت لن تترك حتى غائطك ، يا أبتى !» رد عليها غاضباً : «أيتها المتعجرفة ! أترك لهم هذا المرجل ؟ ما أشبهك ، ربة بيت حريصة ، بغريغورى ، يا فاجرة ! هذا المرجل يعجبنى ، فلا تفتحي فمك» .

وحين كانت ربة البيت الباكية تغلق البوابة وراءهما ، قال لها بأريحية :

— وداعاً ، أيتها المرأة . لا تغضبى . سوف تحصلين على غيرها عما قريب .

١٠

توالت الأيام سلسلة مترابطة الحلقات ، بين مسيرة ، وقتال ، واستراحة ، تنوء تحت وطأة الحر والمطر ، مفعمة برائحة عرق الخيل وجلد السروج الحامية . . . وغدا الدم فى العروق كزئبق حار من فرط ارهاق لا ينقطع . وبات الرأس من فرط السهاد ، أثقل من قذيفة من عيار ست بوصات . واستبدت بغريغورى

اللهفة الى الراحة ، والى الرقاد ، ومن ثم الى السير على شقوق الأرض الهشة غب مرور سكة المحراث عليها ، يستحث الثيران بالصفير ، ويتسمع نداء الكراكى الرخيم ، ويمسح عن خديه ريق الشمس المتطاير فى الهواء ، ويرشف عبير التربة المحروثة المشمل .

ولكن عينه لم تقع الا على قمح تمزقه مسالك أشبه بحد السكين ، تعج بحشود من أسرى عراة باتوا من وعثاء الطريق أشبه بالجثث السود . وكانت السرايا تهرس الدروب ، وتدرس القمح بسنابك خيلها المنعلة بالحديد . أما فى القرى فالهواة يفتشون بيوت المنسحبين مع الحمر ويجلدون نساءهم وأمهاتهم بالسياط . . .

ومضت الأيام غاصة بالسأم تجرجر خطاها ، ثم ما لبثت أن تلاشت من الذاكرة ، ولم تترك أحداثها ، حتى الهامة منها ، أى أثر وراءها . وبدت أيام هذه الحرب أشد كآبة منها فى الحرب الألمانية ، ولعل مرد ذلك أنهم كانوا يعرفون كل شىء مسبقاً . كان جميع المشتركين فى الحرب السابقة ينظرون باستخفاف الى هذه الحرب : اذ بدت لعينهم ضيقة الأفق بمداها وقواها وخسائرها مقارنة بالحرب الألمانية ، لكن الموت وحده أبى أن ينزل من عليائه المهيبة ، شأنه فى حقول بروسيا ، فراح يبث الرعب فى نفوسهم ، ويفرض عليهم تشبثاً حيوانياً بالحياة .

كان رجال خط الجبهة يقولون :

— أهذه حرب ؟ بل تمثيل . ففى الحرب الالمانية كانت الكتائب تباد عن بكرة أبيها تحت نيران المدافع الألمانية ، وها نحن أولاء نتحدث عن الخسائر كلما جرح رجلان فى احدى السرايا .

ولكن حتى هذا اللعب بالحرب كان يثير فى نفوسهم الغيظ . وتفاقم فيهم السخط والكلال والغيظ ، فكان القوزاق فى سرية غريغورى يقولون بلجاجة متزايدة :

— سنطرد الحمر من اقليمنا ، وكفى . لن نذهب أبعد من ذلك . دع بروسيا تدبر شؤونها بنفسها ، وسوف ندبر نحن شؤوننا . ولن نفرض عليهم نظامنا .

ودارت طوال الخريف حرب متثاقلة كسول . اذ كانت تسارتسين أهم مركز استراتيجى ، فقد قذف كل من الحمر والبيض خيرة قواتهما فى اتجاهها . وبنتيجة ذلك لم يكن لأى من الطرفين الباع الأطول فى الجبهة الشمالية . فراح كل منهما يحشد قواته تمهيداً للقيام بهجوم حاسم . وكان لدى القوزاق قوات كثيرة من الفرسان ، وقد استفادوا من تفوقهم فى هذا المضمار ، فعمدوا الى القيام بعمليات حربية موحدة ، وبحركات التفاف ، وهجمات على مؤخرة العدو . ولكن الغلبة لم تكن بجانب القوزاق الا حين تجابههم فرق مضعضعة الهمم قوامها جنود حمر مستجدّون من أهل المناطق الواقعة وراء الجبهة مباشرة . فكان رجال ساراتوف وتامبوف يستسلمون بالآلاف ، ولكن ما ان تدفع القيادة الحمراء بكتيبة من العمال أو بقوة من البحارة الى المعركة حتى يتغير الوضع ، فلا يحتفظ أى من الطرفين بزمام المبادرة فى يده ، ولا يحرز سوى انتصارات ذات أهمية موضعية .

وكان غريغورى يراقب مجرى القتال بغير اكتراث رغم اشتراكه فيه . وكان واثقاً أن الأمر سينتهى حين يحل الشتاء ، وهو على علم بجنوح القوزاق الى السلم ، وبأن التفكير بقتال طويل الأمد عبث لا طائل تحته . وكانت الصحف تصل الكتيبة بين آن

وآخر ، وحين تصل واحدة يلتقط غريغورى بشعور من الكراهية الصحيفة المطبوعة على ورق التغليف الأصفر ، ويصر بأسنانه وهو يلقى نظرة سريعة على البلاغات الحربية . وكان القوزاق من حوله يقهقهون طرباً اذ يقرأ عليهم الكلمات الطنانة الزاخرة بتفاؤل كاذب :

٢٧ أيلول : يدور القتال على قطاع فيلونوف بنجاح متفاوت . ففى ليلة ٢٦ طردت كتيبة فيشنسكايا البارعة العدو من بودغورنايا ، وتابعت هذا النصر فدخلت لوغانوفسك . وقد استولت على غنائم كثيرة وأسرت عددا هائلا من الأسرى . وتتراجع مفارز الحمر بدون نظام ويتمتع القوزاق بمعنويات رائعة . ان رجال الدون مقبلون على انتصارات جديدة .

راح ميتكا يهتز من الضحك ، وهو يضغط راحتى يديه الطويلتين على جنبيه ، وقد فغر فاه عن أسنان بيض .

— كم أسرنا ؟ أعداداً هائلة ؟ ها . . . ها ! يا لأبناء العواهر ! أسرنا اثنين وثلاثين رجلاً بالضبط . وهم يقولون . . .

ولم يصدق القوزاق الأخبار التى وردتهم عن انتصارات الكاديت فى سيبيريا والكوبان . كانت الصحف تكذب دونما رادع أو حياء . وقد قرأ قوزاقى فارع القامة ذو يدين كبيرتين من رعيل غريغورى مقالة عن التمرد التشيكوسلوفاكى فأعلن على مسمع من غريغورى :

— سيقضى الحمر على التشيكيين ، ثم ينقلبون علينا بجيشهم كله ، فيهصروننا حتى نغدو هلاماً ، — ثم اختتم قوله بنبرة كئيبة : — انها روسيا ! وليس فى الأمر مزاح !

فقال بروخور زيكوف :

— لا تحاول بث الرعب فينا ! ان أقوالك المخبولة تثير فى الغثيان .

ولكن غريغورى قال فى سريرته ، بهدوء ومرارة ، فيما كان يلف لنفسه سيكارة : «انه على حق !»

ومساء ذلك اليوم لبث وقتاً طويلاً ، جالساً الى الطاولة ، مهموماً محدودباً ، وياقة قميصه الحائل اللون مفتوحة الأزرار . وكان ثمة تعبير قاس على محياه الملفوح ، واكتست وجنتاه امتلاء لا ينم عن صحة ومعافاة . وراح يشرئب بعنقه الأسمر العضل ، ويفتل ذؤابة شاربه التى حال لونها من الشمس ، مستغرقاً فى التفكير ، مسمراً فى الجدار عينيه اللتين أمستا باهتتين قاسيتين فى الأيام الأخيرة . كان يفكر بامعان ، وبمشقة لا عهد له بها ، وفيما كان يستلقى للنوم ، قال وكأنه يجيب على سؤال يشغل بال الجميع :

— ليس هناك مفر .

ولم يذق طعم النوم طوال تلك الليلة . وقد خرج مراراً وتكراراً ليلقى على الخيل نظرة ، وليقف على درجات العتبة طويلاً ، مصغياً الى همس السكون الرائق .

• • •

يبدو انه كان نجم غريغورى ما يزال يشع وميضاً هادئاً راعشاً . فلا بد أن الأوان لم يحن بعد لكى يحطم هذا النجم قيوده ويطير عبر السماء فيلفحها بوهجه البارد الآفل . فقد قتل خلال ذلك الخريف ثلاثة جياد من تحت غريغورى . وثقب معطفه فى خمسة مواضع . ويبدو أن المنية كانت تعابثه وترفرف فوق رأسه بجناحها الأسود . وذات يوم نفذت رصاصات فى مقبض سيفه النحاسى وسقطت عقدة السيف عند أقدام جواده وكأن أحداً قد قضمها .

فقال له ميتكا كورشونوف : — لا بد أن هناك من يصلى من أجلك بلا انقطاع يا غريغورى . — ودهش اذ رأى غريغورى يبتسم ابتسامة كالحة .

تعدّت الجبهة خط السكة الحديد . وكانت عربات الشحن تأتى كل يوم ببكرات ضخمة من الأسلاك الشائكة . وفى كل يوم تحمل أسلاك التلغراف هذه الكلمات على امتداد الجبهة :

«بات وصول جيوش الحلفاء وشيكا . فلا بد أن تعزز المواقع على حدود الاقليم ريثما تصل الامدادات ، فينبغى أن نقاوم ضغط الحمر مهما كلف الثمن» .

كان أهالى المنطقة ، الذين جندوا للعمل يضربون الأرض المتجمدة بالمعاول فيحفرون الخنادق ويحصنونها بشباك من الأسلاك الشائكة . ولكن ما ان يحل الليل ، ويترك القوزاق خنادقهم ليلوذوا بالقرى طلباً للدفء حتى تزحف جماعات من طلائع الحرس الأحمر الى خنادق القوزاق فتحطم تحصيناتها وتعلق نداءات مطبوعة على أعمدة الأسلاك الشائكة الصدئة . فيقرأها القوزاق بنهم وكأنها رسائل من أهليهم . وبدا جليا أن مواصلة القتال فى ظروف مثل هذه أمر لا طائل تحته . ثم حل موسم الصقيع ، تتخلله فترات من ذوبان الثلج وتهاطله بمقادير هائلة . فامتلأت الخنادق بالثلج ، وبات من المتعذر أن يرقد المرء فيها ساعة واحدة . وتجمدت أوصال القوزاق ، وأصابت أقدامهم وأيديهم لسعة الجليد . وأمسى الكثير من جند المشاة ومفارز المناوشات القوزاقية دونما جزمات ، وكان آخرون قد خرجوا الى الجبهة بصنادل وسراويل صيفية فقط وكأنهم خارجون الى أفنية حقولهم . ولم يكن الحلفاء موضع ثقتهم ، وذات يوم

قال آندريى كاشولين بمرارة : «لا بد أنهم قادمون الى هنا على ظهور الخنافس» .

وحين كان القوزاق يحتكون بدوريات الحمر كانوا يسمعونهم يصيحون :

— يا من هنا ، أنتم يا عبدة المسيح ! ألم تحصلوا على دباباتكم بعد ؟ سنأتيكم على الزحافات ، فاستعدوا للهرب !

وفى أواسط تشرين الثانى بدأ الحمر هجومهم ، فواصلوا الضغط بعناد وحملوا فرق القوزاق على التقهقر الى خط السكة الحديد غير ان التغير الجذرى فى القتال جرى فيما بعد . وفى ١٦ كانون الأول أحاقت الخيالة الحمراء بكتيبة القوزاق الثالثة والثلاثين بعد قتال طويل ، أما فى القطاع الذى كانت كتيبة فيشنسكايا تذود عنه فقد جوبه الحمر بمقاومة مستميتة ، فراحت رشاشات الكتيبة تستقبل مشاة العدو من وراء أسيجة الأفنية التى يعلوها الثلج ، بسيل جارف من الرصاص . واذ كان المدفع الرشاش يمطر من الميمنة وابلاً من الموت ، أرسلت من الميسرة سريتان للقيام بحركة التفاف .

ووشيك المساء استبدلت قوات الجيش الأحمر التى كانت تزحف زحفاً واهناً بقوة من البحارة وصلت الجبهة حديثاً . فتدفق سيلهم فى هجوم صامت على المدافع الرشاشة ، دون أن ينبطحوا أو يهتفوا .

وراح غريغورى يطلق النار دون توقف ، حتى غدت ماسورة بندقيته حارة كالجمر . فاكتوت يداه . ثم برّد البندقية ، ودفع الخراطيش فيها كرة ثانية ، وصوبها بعينين مخاوصتين الى الهياكل السود الصغيرة البادية عن بعد .

واقتحم البحارة تحصينات القوزاق . فهرعت السرايا الى

الخيل ولاذت بالفرار هذباً عبر القرية الى الربوة التى وراءها . واذ التفت غريغورى الى الوراء سقط من يده العنان دون ارادته ، فمن على سفح التل استطاع أن يرى السهب الحزين وقد جلله الثلج ، وانتشرت فى أرجائه رواب صغيرة لشجيرات تكللها الثلوج ، وترامت على مدى وهاده ظلال المساء الليلكية . وكانت جثث البحارة الذين حصدتهم نيران الرشاشات ترقد على امتداد فرسخ بأكمله ، فبدوا بسترات البحرية والقمصلات الجلدية أشبه بالزيغان وقد حطت على الحقل . . .

وفى المساء توقفت السرايا المشتتة ، وقد فقدت صلتها بالكتائب على الجانبين ، لتمضى الليل فى قريتين تقعان على جدول من روافد نهر بوزولوك .

وفيما كان غريغورى عائداً عند الغسق من الموقع حيث طلب اليه آمر سريته أن يضع الحرس ، صادف آمر الكتيبة ومرافقه . فسأله الآمر وهو يكبح حصانه :

— أين السرية الثالثة ؟

فأجاب غريغورى على سؤاله ومضى الضابطان فى طريقهما . وحين ابتعد بعض المسافة التفت المرافق وسأله : — هل كانت الخسائر فادحة فى السرية ؟ — واذ لم يسمع جواب غريغورى أعاد سؤاله .

الا أن غريغورى مضى فى طريقه غير آبه .

وطوال الليل راحت عربات الشحن تسير متثاقلة خلال القرية حيث آوت سرية غريغورى . وتوقفت بطارية مدفعية فى الشارع وقتاً طويلاً ، فحل فى كوخ غريغورى مدفعيون ومراسلو أركان ينشدون الدفء ، ولا يعلم الا الله كيف ظهروا فى هذه القرية . وفى منتصف الليل اندفع ثلاثة مدفعيين الى داخل

الكوخ ، فأيقظوا أهل البيت والقوزاق . كان مدفعهم قد غرز فى الجدول القريب من القرية ، فقرروا تركه هناك ريثما ينقضى الليل فيخرجونه بواسطة الثيران عند الصبح . استيقظ غريغورى وراح يحدق فى المدفعيين وهم ينظفون جزمهم من الوحل اللزج ، ويخلعون ملابسهم ، وينشرون جواربهم لتجف . وبعد ذلك بقليل جاء ضابط مدفعية ملطخ برشاش الوحل حتى أذنيه . فسأل ما اذا كان بوسعه أن يمضى الليل هنالك ، ثم خلع معطفه ، ووقف ينشر بقع الوحل على وجهه بكم قمصلته وقتاً طويلاً دون أن يبدو عليه أى اكتراث .

قال ، وهو يمعن النظر في غريغورى بعينين ذليلتين كعينى حصان كليل :

— خسرنا مدفعاً . فقد توصلوا الى تحديد موقعنا بعد أن أطلقنا مرتين . وما ان بدأ قصف مدفع العدو حتى أصيب محور مدفعنا ، وكان منصوباً فى ساحة لدرس الحبوب ، ولم يكن بالوسع اخفاؤه فى موضع أفضل من ذلك . . . — كان يذيل كل عبارة بشتيمة معيبة دون أن يشعر بذلك تمامـــاً . وأردف : — هل أنت من كتيبة فيشنسكايا ؟ هل تريد شيئاً من الشاى ؟ يا امرأة ، ما رأيك باعداد سماور لنا ، هاه ؟

وتبين أن الضابط جليس ثرثار يبعث فى النفس الملل . وراح يشرب الشاى دونما كلل ، وفى غضون نصف ساعة علم غريغورى أنه من مواليد منطقة بلاتوفسكى وخريج المدرسة الثانوية ، وأنه شارك فى الحرب الألمانية ، وأنه تزوج مرتين زواجاً فاشلاً . قال وهو يلعق العرق من موضع شاربه الحليق بلسان أحمر طويل :

— هذه نهاية المطاف بالنسبة لجيش الدون ! فالحرب قاربت نهايتها . غدا تتفكك الجبهة ، وما هما الا أسبوعان

ونعود الى نوفوتشيركاسك . أرادوا اجتياح روسيا بقوزاق حفاة ! أليسوا مخابيل ؟ ثم ان ضباط القيادة كلهم أوغاد . أنت قوزاقى ، أليس كذلك ؟ هاه ؟ لقد أرادوا منك أن تخرج لهم البلوط من النار . أما فى المؤخرة فهم ماضون فى نهب برغل وغار فى المخازن .

وراح يطرف بعينيه الباهتتين ، وقد مال بجرمه الثقيل على الطاولة ، وتهدلت زاويتا شفتيه بقنوط ، أما وجهه فهو ما يزال يحتفظ بسيماء حصان ذليل منهك .

— فى سالف الأيام كانت ثمة متعة فى الحرب ، حتى أيام نابليون . يشتبك الجيشان ، فيتضاربان بعض الوقت ثم يفترقان . فلا جبهات ولا قبوع فى الخنادق . ولكن حاول أن تفهم ما يجرى هذا اليوم . . ان الشيطان ذاته عاجز عن ذلك ! ربما كذب المؤرخون فى ما كتبوا عن الحروب الأخرى ، ولكن ما كتبوه ليس شيئاً يذكر قياساً بما سيكتبونه عن هذه الحرب . انها ليست حربا بل الضجر بعينه ، لا لون لها ! لا شىء غير الخوض في الوحل . جنون عموماً . أتدرى ما يودى أن أقول للمتربعين فى القمة ؟ سأقول : «هاك ، أيها السيد لينين ، اليك رئيس عرفاء دعه يعلمك كيف تستعمل البندقية . وأنت أيها السيد كراسنوف لا بد أنك تجيد ذلك» . ثم خلهما يقتتلان على الحكم كما اقتتل داود مع الغول * ، ثم ليتسلم الحكم من ينتصر منهما . فالشعب لا يهمه من الذى يتولى حكمه . ما رأيك يا نائب الضابط ؟

---

* يروى الانجيل ان داود تصارع مع الغول فقتله بصخرة رماها بمقلاع . **المترجمون** .

لم يجبه غريغورى ، بل راح يراقب ، والنعاس قد تملكه ، الحركات الثقيلة لمنكبى الرجل اللحيمين ، وذراعيه ، ولسانه الذى كان يخرجه من فمه باستمرار . كان يتوق الى النوم ، فراح يضطرم فى دخيلته غيظاً من هذا الضابط المتطفل الابله ، الذى اثار فى نفسه الغثيان من نتانة قدميه العرقتين .

استيقظ غريغورى فى الصباح يمضه شعور بأنه ترك أمراً لم يسوه . فرغم انه كان يتوقع تلك التطورات منذ الخريف فانها افزعته بحدوثها الفجائى . فقد فاته ان يرى السخط من الحرب الذى يتسرب فى اول الامر الى صفوف السرايا والكتائب مثل مسارب صغيرة ، ما لبث ان التم بشكل خفى فتدفق معاً فى طوفان جبار . ولم يعد الآن بوسعه ان يرى سوى ذلك الطوفان الذى طفق يكتسح الجبهة اكتساحاً عارماً نهماً .

ومثل خيّال يسير عبر السهب فى الربيع الباكر ، يرى الشمس مشرقة ، وعلى مدى العين يترامى الثلج البنفسجى الذى لم تطأه قدم . اما تحت الثلج فثمة عمل ازلى خارق يجرى دون ان تلحظه اعين البشر : فقد جعلت الاصفاد تتحطم عن الارض . فتأكل الشمس الثلوج ، تقضمها رويداً رويداً ، فتغمرها بالبلل من اسفلها . ثم يرخى الليل سدوله متلفعاً بضباب رجراج ، وما ان يحل الصباح الا وقشرة الثلج آخذة بالهبوط فيتعالى هسيسها وهديرها ، ولا يلبث الماء الاخضر المنحدر من سفوح التلال ان يتدفق الى الدروب والمسالك ، واذا بكتل ندية من الثلج تتطاير من تحت حوافر الجواد فى كل اتجاه . ها قد حل الدفء وانجاب الثلج عن الروابى ، وشاعت رائحة بكر من التربة الطينية والعشب المتعفن وما ان ينتصف النهار حتى تهدر الوديان بالمياه ، وتعلو خشخشة الجليد المتزلق على الجروف المائلة ،

وينبعث عن البقع الجرد من ارض الحقول السوداء المخملية بخار عبق . وما ان يهبط المساء حتى يقضم نهير السهب جليده ، وهو يئن ، ثم يدفع به حدر تياره الدافق مترعاً مليئاً كثدى ام شابة . ويقف الرجل على الضفة الرملية وقد اذهله رحيل الشتاء المباغت ، باحثاً عن موضع ضحل ، ضارباً بالسوط جواده المرتبك العرق . وفى هذه الاثناء يومض الثلج فيما حوله بزرقة بريئة خادعة ، ثم لا يلبث الشتاء الناعس ان يبسط سلطانه من جديد . . . .

وراحت الكتيبة تتقهقر طوال اليوم التالى ، فكانت عربات الشحن تجرى على امتداد الطريق . وتناهى الى الاسماع هدير قصف المدافع من موضع ما الى اليمين وراء الغيوم الرمادية التى تغشى الأفق . ومضت السرايا تخبط فى الطريق التى ذاب عنها الثلج المختلط بالروث ، والخيل تنثر الثلج الندى وهو يبقبق تحت حوافرها ، فيما كان المراسلون يهذبون على جانب الطريق . وكانت الزيغان الصامتة ، وقد ارتدت حلة زاهية من ريش مائل للزرقة ، سمينة وخرقاء ، تنقل خطاها الثقيلة على مقربة من الطريق ، وكأنها فرسان راجلة ، تنظر بمهابة الى الصفوف المتقهقرة من سرايا القوزاق ، والمناوشين ، وسيل العربات ، فبدت وكأنها تشهد عرضاً عسكرياً .

ادرك غريغورى ان احداً لن يستطيع ان يضع حداً للتراجع الذى كان اشبه بنابض منطلق . وفى تلك الليلة فر من كتيبته بلا اذن وقد افعم بهجة لقراره ذلك .

واذ كان ميتكا كورشونوف يراقب غريغورى وهو يرتدى وقاء المطر فوق معطفه ويشد حزام السيف وقراب المسدس ، سأله باسماً :

— الى أين ذاهب ، ياغريغورى ؟
— ولماذا تريد ان تعرف ؟
— من الفضول ، ليس غير .
فاختلج محيا غريغورى ، ولكنه اجاب بغمزة مرحة من عينيه :
— الى ارض اسمها «لا تدس انفك فى شؤون الآخرين» ، أفهمت ؟
ثم خرج .
كان حصانه واقفاً وهو مسرج ، فمضى يهذب فوق مسالك الحقول المتجمدة حتى مطلع الشمس . «سأبقى فى البيت ، وحين يبلغنى انهم يمرون بديارنا سيكون بوسعى الالتحاق بالكتيبة من جديد» . هذا ما عنّ له بشأن اولئك الذين كان بالامس فقط يقاتل الى جانبهم . وما ان هبط مساء اليوم التالى حتى دخل غريغورى حوش ابيه يقود جواده الذى انهكته وهدت قواه رحلة المائتى فرسخ .

١١

فى نهاية تشرين الثانى ، شاع فى نوفوتشيركاسك خبر وصول بعثة عسكرية من حلف (الانتينت) * وسرت فى المدينة شائعات متواترة مفادها ان سرية قوية من البحرية البريطانية قد رست فى ميناء نوفوروسيسك وان قوات حليفة ضخمة منقولة من سالونيكا تنزل الى البر ، وان فيلقاً من المغاربة التابعين للجيش الفرنسى قد نزل الى البر بالفعل وانه سينضم الى جيش المتطوعين لشن هجوم عام عما قريب . وراحت الشائعات تكبر شأن كرة

* حلف بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية فى الحرب العالمية الأولى .

من الثلج المتدحرج .
اصدر كراسنوف أوامره ان يستقبل البعثة حرس شرف من الحرس الاتمانى الخاص ، وسرعان ما تزينت سريتان من الحرس الشباب بالجزم العالية وبمحافظ الرصاص البيض عبر صدورهم ، ثم اوفدوا بسرعة البرق الى تاغانروغ تصحبهم سرية من عازفى البوق .
كانت البعثتان العسكريتان البريطانية والفرنسية فى جنوب روسيا قد قررتا ايفاد بضعة ضباط الى نوفوتشيركاسك للاستطلاع السياسى ، وليأخذوا على عاتقهم التعرف على الوضع فى الدون وما هنالك من امكانات لمواصلة القتال ضد البلاشفة . كانت بريطانيا ممثلة بالرائد بوند والملازمين بلومفيلد وموترو ، أما فرنسا فكان يمثلها الرائد أوشين والملازمان دوبريه وفور .
وقد حدثت هرجلة فى القصر الأتمانى بوصول هؤلاء المندوبين ذوى الرتب الواطئة نوعاً ما ، والذين رفعتهم نزوات القدر الى «سفراء» دون سابق انذار .
وزف «هؤلاء السفراء» الى نوفوتشيركاسك فى بهرج عظيم . ولفرط ما لقى أولئك الضباط الصغار من خنوع وذلة دارت رؤوسهم ، واذ شعروا بعظمتهم «الحقيقية» على حين غرة ، راحوا ينظرون بتعال الى مشاهير جنرالات القوزاق والى شخصيات تلك الجمهورية الكارتونية العظمى .
ودبت فى أحاديث الملازمين الفرنسيين الشابين الى جنرالات القوزاق نبرة من الغطرسة والتعالى على الرغم من كياستهم الظاهرة ودماثتهم الفرنسية التى تتسم بالطلاوة المخنثة .
وفى المساء أقيم احتفال فى القصر ، وأضفت جوقة عسكرية على القاعة أوشحة حريرية من الأغانى القوزاقية تطرزها الأصوات

الصادحة المنفردة بألوان ثرة وراحت جوقة من الآلات النحاسية تدوى بالنشيدين الوطنيين للدولتين الحليفتين وتناول «السفراء» الطعام بتكبر شديد وعلى نحو يناسب المقام ، واذ أحس ضيوف الأتمان بالأهمية التاريخية لتلك المناسبة راحوا يتطلعون الى السفراء بفضول خفى واحترام .

وشرع كراسنوف يلقى خطابه :

— سادتى ، انكم تجلسون فى قاعة تاريخية ، يطل عليكم من جدرانها أبطال حرب وطنية سابقة ، حرب ١٨١٢ ، بشهادة صامتة . ان بلاتوف ، وايلوفايسكى ، ودنيسوف ليذكروننا بتلك الأيام المقدسة ، يوم رحب سكان باريس بمحرريهم ، قوزاق الدون ، يوم انتشل الأمبراطور ألكساندر الأول فرنسا الجميلة من الخراب . . .

كانت عيون مبعوثى «فرنسا الجميلة» ، قد أخذت تشع وميضاً مرحاً ، لفرط ما كرعوا من الشمبانيا الوفيرة ، ولكنهم راحوا ينصتون الى خطاب كراسنوف بانتباه .

وبعد أن أطنب كراسنوف فى وصف المحن التى كان الشعب الروسى يعانيها تحت «نير البلاشفة الوحوش» اختتم كلامه بنبرة تنم عن شجن عميق :

— . . . ان خيرة ممثلى الشعب الروسى يموتون الآن فى السجون البلشفية . ان أنظارهم تشخص اليكم ، انهم ينتظرون عونكم ، فعليكم أن تساعدوهم ، هم ، لا الدون . اننا بوسعنا أن نقول بكل اعتزاز اننا أحرار . غير أن كل أفكارنا ، وغاية كفاحنا هى روسيا العظمى ، روسيا المخلصة لحلفائها ، روسيا التى دافعت عن مصالحهم ، وضحت بنفسها على مذبحهم ، روسيا التى تتعطش الى مساعدتهم بظمأ مريع . وقبل مائة وأربع

سنين ، فى شهر آذار رحب الشعب الفرنسى بالأمبراطور ألكساندر الأول وحرسه الروسى . ومنذ ذلك اليوم ، حل فى فرنسا عهد جديد ، عهد ارتقى بها الى طليعة أمم العالم . وقبل مائة وأربع سنين زار أتماننا ، الكونت بلاتوف لندن . اننا فى انتظار وصولكم الى موسكو ! اننا ننتظركم كى ندخل واياكم قصر الكرملين ، على أنغام نشيدنا الوطنى الشجى لكى تشاركونا كل حلاوة السلم والحرية ! روسيا العظمى ! فى هاتين الكلمتين نضع أحلامنا وآمالنا !

وحين اختتم كراسنوف كلمته نهض الرائد بوند على قدميه . وقد خيم صمت الموتى على القاعة عند سماع اللغة الانكليزية ، وراح المترجم يؤدى مهمته بكل حماس فقال :

— ان الرائد بوند ، أصالة عن نفسه ونيابة عن الرائد أوشين ، مخول أن يخبر أتمان الدون ، أنه وزملاءه الضباط قد انتدبوا رسمياً مبعوثين عن حلف (الانتينت) لكى يقفوا على ما يجرى فى الدون . ان الرئيس بوند يؤكد أن دول حلف (الأنتينت) ستقدم المساعدة الى الدون والى جيش المتطوعين فى قتالهم الباسل ضد البلاشفة ، بكل ما يتيسر لديها من سبل ، دون ان تستثني القوات أيضاً .

وقبل أن يستطيع المترجم النطق بالجملة الختامية ، اهتزت جدران قاعة الاحتفال بثلاثة هتافات داوية . ونودى بالأنخاب على أنغام الموسيقى ، فشرب الحضور نخب ازدهار «فرنسا الجميلة» و«بريطانيا العظمى» والنصر على البلاشفة وعلا زيد الشمبانيا ووهجها فى الكؤوس ، وفاح شراب «كاهورز» المعتق بنكهته الرقيقة الحلوة . وبات منتظراً أن يقول ممثلو بعثتى الحلفاء كلمتهم ، فلم يخيب الرائد بوند آمال مضيفيه :

— أقترح أن نشرب نخب روسيا العظيمة ، ويطيب لى أن أسمع فى هذه القاعة نشيدكم الوطنى السابق . ليس ما يهمنا فيه الكلمات ، انما أريد سماع اللحن وحسب . . .

ونقل المترجم هذا الالتماس .

فالتفت كراسنوف الى ضيوفه ، وقد شحب وجهه انفعالاً ، وصاح بصوت متكسر :

— لتعش روسيا عظيمة موحدة لا تتجزأ ، هوراه !

وعزفت الفرقة الموسيقية اللحن المهيب : «حفظ الله القيصر» . وهنا نهض الجميع فأفرغوا كؤوسهم . وانهمرت الأدمع على خدى رئيس أساقفة أشيب الرأس . وهتف الرائد بوند وقد أصابه ثمل طفيف : «ما أجمل ذلك» وغلبت العاطفة أحد الضيوف البارزين فأجهش باكياً ، لسذاجة روحه ، فدس لحيته فى منديل سفرة ملطخ ببقع كبيرة من الكافيار . . .

* * *

اعولت فى المدينة ليلتذاك ريح صرصر آتية من بحر آزوف . وراحت قبة الكاتدرائية تومض بلون موات فى حومة ندف الثلج التى طفقت تدوم فى أول عاصفة ثلجية .

وفى تلك الليلة تم اعدام عمال سكة حديد شاختينسك البلاشفة ، فى مقلب النفايات تحت جرف طينى ، وذلك بأمر من المحكمة العسكرية . فاقتيدوا الى شفا الجرف أزواجاً وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ثم أطلقت عليهم النار بالبنادق والمسدسات من مسافة قصيرة ، فضاع دوى الرصاص فى خضم الريح الزمهرير كما يتلاشى الشرر من السيكارة . . .

ولبث حرس الشرف واقفاً عند مدخل القصر الأتمانى لا يبدى حراكاً فى ريح الشتاء القر ، فاسودت أيدي القوزاق وهى تمسك بنصب السيوف المسلولة وسالت دموعهم من شدة البرد ، ودب الخدر فى أقدامهم . . . ومضى القصر يصخب حتى مطلع الفجر بصيحات العربدة ، وضجيج الجوقة النحاسى ، والجرس النائح تشدو به الأصوات الصادحة فى الجوقة العسكرية . . .

* * *

وبعد اسبوع حدث أفظع ما فى الحسبان : فقد اخذت الجبهة تنهار . وكان اول من فتح الجبهة على مصراعيها الكتيبة الثامنة والعشرون التى يخدم بيوتر ميليخوف فيها . فبعد ان اجرى القوزاق مفاوضات سرية مع قيادة العدو المواجهة لهم ، قر رأيهم على الانسحاب وافساح المجال لمرور الجيش الاحمر خلال منطقة الدون الاعلى دونما عائق . وتولى قيادة هذه الكتيبة العاصية ياكوف فومين ، وهو قوزاقى ضيق الافق محدود الذكاء ، اما فى واقع الحال فلم يكن فومين سوى دمية تحركها اصابع جماعة من القوزاق الميالين الى البلشفية ، وشرعت الكتيبة بالتراجع غب اجتماع عاصف الح فيه الضباط دونما حماس على ضرورة مواصلة القتال ، فقد كانوا يتوجسون ان يطلق على ظهورهم الرصاص ، فى حين راح القوزاق يصرخون بعنف ولجاجة وفوضى ، يرددون نفس الكلمات القديمة التى ضجر منها الجميع ، الكلمات المنادية بعدم ضرورة الحرب ، وبعقد الصلح مع البلاشفة . وفى نهاية اليوم الاول من المسيرة تخلى عن الكتيبة آمرها وجل ضباطها ، فالتحقوا بلواء الكونت موليير الذى كان يتراجع بعد ان عانى هزائم جسيمة .

حذت الكتيبة السادسة والثلاثون حذو الكتيبة الثامنة والعشرين ، فتخلت عن مواقعها ، ووصلت الى كازانسكايا بكامل تعدادها ، بما فى ذلك الضباط . وكان آمرها القميء ذو العينين الماكرتين قد افلح فى الاحتفاظ بمنصبه بالتذلل للقوزاق ، فتقدم ، يحف به الخيالة ، الى الدار التى ينزل فيها قومندان المنطقة ، وترجل ، ثم دخل المنزل متغطرساً وهو يعبث بسوطه ، وصاح :

— من القومندان هنا ؟

فنهض ستيبان استاخوف وقال بكبرياء :

— انا مساعده ، اغلق الباب يا حضرة الضابط .

— انا آمر الكتيبة السادسة والثلاثين العقيد نعوموف . . . لى الشرف . . . ينبغى ان اجهز رجالى بثياب وجزمات جديدة . انهم حفاة يرتدون الاسمال . أتسمعنى ؟

— القومندان غير موجود ، ولا يسعنى بدون تخويل منه ان اسلم من المخازن زوجاً واحدا من الجزمات اللبادية .

— ماذا ؟

— هذا ما اقوله !

— انت ، مع من تتكلم ؟ سوف اعتقلك ، يا لعين ! خذوه ، يا فتيان ! اين مفتاح المخازن ، يا جرذ المؤخرة ؟ — قال الضابط ذلك ، وهوى على الطاولة بسوطه ، ثم اعاد قبعته المصنوعة من جلد الخراف الى رأسه ، وقد شحب وجهه غضباً ، واضاف : — اعطنى المفتاح ، دون مناقشة !

وما هى الا نصف ساعة حتى شرعت تتطاير من باب المخازن على الثلج جزم من الفراء والجزمات اللبادية والجلدية ، وراحت اكياس السكر تنتقل من يد الى يد . فشاعت فى الساحة جلبة من الاصوات المرحة .

وفى هذه الاثناء كانت الكتيبة الثامنة والعشرون تتراجع الى منطقة فيشنسكايا بقيادة آمرها الجديد رئيس العرفاء فومين . وكانت وحدات من الفرقة الخامسة عشرة الحمراء تتقدم وراءهم على بعد ثلاثين فرسخاً تقريباً ، وقد شرعت دورياتها تستطلع قرية دوبروفكا .

وكان قائد الجبهة الشمالية اللواء ايفانوف ورئيس اركان حربه الجنرال زامبريجيتسكى قد اجليا قبل ذلك بأربعة ايام الى كارغينسكايا على عجل . وقد انغرزت سيارتهما فى الثلج فراحت زوجة رئيس الاركان تعض على شفتيها حتى ادمتهما وجعل اطفالها يتحبون .

وبقيت فيشنسكايا فى حالة من الفوضى بضعة ايام . ودارت شائعات تفيد ان قوات يجرى تحشيدها فى كارغينسكايا للهجوم على الكتيبة الثامنة والعشرين المتمردة . ولكن فى الثانى والعشرين من كانون الاول وصل مرافق ايفانوف قادماً من كارغينسكايا ، وجعل ، وهو يضحك مع نفسه ، يلم الحاجيات التى تركها الامر وراءه : قبعة جنرال صيفية ذات شارة جديدة ، وفرشاة شعر وملابس داخلية واشياء أخرى من سقط المتاع .

وراحت وحدات من الجيش الآمر الثامن تتدفق خلال فجوة المائة فرسخ التى حدثت فى الجبهة الشمالية . وقد تراجع الجنرال سافاتييف الى الدون دونما ان يشتبك بقتال ، وانسحبت كتائب الجنرال فيتسخالاوف على عجل . وقد ساد الشمال سكون غريب طيلة اسبوع . فكفت الرشاشات عن لعلعتها ، وخلدت المدافع الى الصمت . وراح قوزاق الدون الاسفل ، الذين كانوا يحاربون فى الشمال ، يتراجعون دون ان يخوضوا اية معركة ، فقد ثبطت عزائمهم من خيانة قوزاق الدون الاعلى . اما الحمر

فجعلوا يتقدمون ببطء وحذر ، فيستطلعون كل قرية بعناية .

ولكن حادثاً بهيجا طرأ على حكومة الدون وقع الكارثة التى حلت فى الجبهة الشمالية . ففى ٢٦ كانون الاول وصلت نوفوتشيركاسك بعثة الحلفاء التى كانت تضم الجنرال بول رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى القفقاس ، ورئيس اركان حربه العقيد الركن كيس ، والمبعوثين العسكريين الفرنسيين الجنرال فرانشى دى سبير والرئيس فوكيه .

واصطحب كراسنوف ضباط الحلفاء الى جبهة القتال . ففى صبيحة يوم بارد من ايام كانون الاول ، اصطف حرس شرف على الرصيف فى محطة تشير . وبدا الجنرال مامونتوف بشاربيه المتهدلين ووجهه الثمل المألوف ، انيق الهندام حليق الذقن فى هذه المرة على غير عادته ، فيما كان يقطع الرصيف جيئة وذهاباً وقد احاط ضباطه به . وكانوا فى انتظار القطار .

وظل عازفو الجوقة العسكرية عند مدخل المحطة يراوحون على اقدامهم وينفخون فى اصابعهم المتجمدة ، وقد اخذ وضع الاستعداد حرس شرف بهى من قوزاق المناطق السفلى للدون ، وكانوا من شتى الاعمار والهيئات ، فقد وقف الشيوخ بلحاهم البيض الى جانب فتيان لم تنبت شواربهم بعد ، وجنود خط الجبهة وقد تدلت خصلات شعرهم . وكانت معاطف الشيوخ تزهو بالاوسمة الذهبية والفضية التى نالوها فى لوفتشا وبليفنا ، وازدان القوزاق الذين هم اصغر سناً بالأوسمة التى فازوا بها خلال هجماتهم الجسورة فى غيوك تيبيه وصانديب وفى معارك بيرميشل ووارشو ولفوف اثناء الحرب الالمانية . اما الفتيان فلم يكن لديهم ما يزهون به ، غير انهم وقفوا بقامات مشدودة كأوتار الكمنجة ، وسعوا لمحاكاة كبارهم فى كل شىء .

هدر قطار الى داخل المحطة تكتنفه سحابة من بخار ابيض كالحليب ، وقبل ان يتسنى فتح ابواب العربة الفخمة لوح قائد الجوقة الموسيقية بعصاه بهزة عنيفة فدوت الجوقة بالنشيد الوطنى البريطانى . وهرع مامونتوف الى العربة ، واحدى يديه تشد على سيفه . وسار كراسنوف رب البيت الكريم بضيوفه الى بناية المحطة عبر صفوف القوزاق الذين وقفوا ثابتين كالحجارة .

وتحدث بلغة فرنسية فصحى ، فقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة ويومئ متلطفاً الى القوزاق الذين اصطفوا وقد جحظت عيونهم واحتبست انفاسهم :

— القوزاق هبوا عن بكرة ابيهم ليصدوا عن ارضهم عصابات الحرس الاحمر المتوحشة . فبوسعكم ها هنا ان تشهدوا ممثلى ثلاثة اجيال . لقد حارب هؤلاء الرجال فى البلقان ، واليابان ، وفى النمسا والمجر او فى بروسيا ، وهم اليوم يحاربون من اجل حرية وطنهم .

كان مامونتوف قد بذل قصارى جهده لتنفيذ الأوامر التى تلقاها من رؤسائه بشأن اختيار حرس الشرف . وقد ادى عرض سلعته تلك خير مفعول . فقال الجنرال بول لكراسنوف قبل رحيله :

— انى راض كل الرضى عن مظهر قواتك الرائع ، وضبطها ، ومعنوياتها الحربية ، وسأقوم باصدار التعليمات لكى ترسل اليكم الدفعة الاولى من رجالنا القادمين من سالونيكا . والتمسك ، ايها الجنرال ، ان تهيئ ثلاثة آلاف معطف شتوى من الفرو وحزمة دافئة . وانى آمل ان تستطيع ، بمساعدة من عندنا ، محق البلاشفة محقاً تاماً .

وصنعت المعاطف القصيرة من جلد الخراف على عجل وحزمات الشتاء من اللباد . ولكن القوات الحليفة لم تظهر فى

نوفوتشيركاسك لسبب ما . ثم رحل بول الى لندن واستبدل بريكر ذى الطبع البارد الفظ الذى جاء بتعليمات جديدة من لندن . فصرح بأسلوب الجنرالات المباشر الجاف ، قائلاً :

— ان حكومة جلالته ستقدم لجيش المتطوعين فى الدون مساعدات مادية واسعة ولكنها لن تقدم جندياً واحداً .

ولم يكن ثمة لزوم للتعقيب على هذا التصريح . . .

١٢

فى ايام التحلل تلك بلغ العداء بين القوزاق والضباط حداً لم يسبق له مثيل ، ذلك العداء الذى كان منذ الحرب الاستعمارية يفصل الضباط عن قوزاقهم مثل شق محراث غير منظور . لقد كانت حوادث اغتيال الضباط والغدر بهم نادرة الوقوع فى اواخر عام ١٩١٧ ، يوم كانت كتائب القوزاق تندفق ببطء فى طريق عودتها الى الدون ، ولكن ما ان مر عام حتى غدت امثال هذه الحوادث عادية تقريباً . فراح القوزاق يحملون ضباطهم على السير فى الطليعة اثناء الزحف كما يفعل قادة الجيش الاحمر ، ومن ثم يطلقون النار عليهم من الخلف بهدوء . الا ان المعنويات كانت ما تزال عالية فى عدد من الوحدات ، مثل كتيبة القديس غيورغى التابعة لغوندروفسكى ، بيد ان امثال هذه الوحدة كانت نادرة فى جيش الدون .

وقبل ذلك الحين بوقت طويل كان بيوتر ميليخوف ، وهو بطىء الذهن دقيق التفكير معاً ، قد ادرك ان التشديد على القوزاق يعرضه للهلاك ، فعمل بعناية منذ اول ايام التمرد على ازالة الحواجز التى تفصله عن مراتب الجنود بحكم منصبه كضابط ، فكان فى بعض المناسبات الملائمة يتحدث مثلهم عن عدم

جدوى الحرب . وكان يجد مشقة فى حديثه الذى لا يأتى عن ايمان ، ولكن احداً لم يفطن اليه . كما شرع يضفى على نفسه صبغة بلشفية ، وما ان وجد ياكوف فومين مقبلاً على تسلم قيادة الكتيبة حتى شرع يتودد اليه بمهارة . وحذا بيوتر حذو الآخرين فلم يتوان فى النهب او فى شتم الضباط والابقاء على حياة الاسرى ، رغم ان قلبه كان مفعماً بمقتهم ، ويديه ترتعشان من رغبته فى ضربهم والاجهاز عليهم . اما فى قضايا الخدمة العسكرية فقد كان ليناً كريماً ، فبدا اشبه بفص من الشمع منه بضابط ! وعلى هذا النحو افلح فى كسب ثقة القوزاق والتمويه على حقيقته دون ان يشعروا .

وحين سار آمر الكتيبة بضباطه ورحل ، آثر بيوتر البقاء ، فكان هادئاً مسالماً ، لا يبرز نفسه قط ، متحفظاً فى كل تصرفاته . وهكذا وصل مع كتيبته الى فيشنسكايا ، ولكنه بعد ان امضى يومين فيها لم يعد يطيق صبراً ففر الى اهله دون ان يستأذن فومين او رئاسة الاركان فى ذلك .

ويومذاك كان ثمة اجتماع قد انعقد منذ الصباح الباكر فى ساحة التدريب ، عند الكنيسة القديمة . كانوا ينتظرون مندوبى الفرقة الخامسة عشرة . فراح القوزاق يجوبون الساحة اسراباً ، وقد ارتدوا معاطف ، وستراً مبطنة بالفراء ، او سترا قصيرة قصت من المعاطف ، او ستراً محشوة بالصوف . كان من المستحيل ان يصدق المرء ان هذا اللملم العجيب كان فى يوم من الايام يشكل الكتيبة الثامنة والعشرين .

وجعل بيوتر يتنقل من جماعة الى أخرى ويتأمل القوزاق وقد اعتراه القنوط . ولم يكن طراز ملبسهم قد اثار استغرابه فى جبهة القتال ، ولعل مرد ذلك الى انه لم ير آنذاك الكتيبة برمتها متجمهرة

فى حشد حاشد . فجعل يعض ذؤابتى شاربيه الطويلتين البيضاوين بحقد وهو يحدق فى رؤوسهم التى كانت تعتمر تشكيلة غريبة من القبعات الاعتيادية ، والقبعات المصنوعة من جلد الخراف والقلنسوات ، ثم خفض عينيه فوقع نظره على تشكيلة ثرة من الجزم اللبادية البالية ، والجزم الجلدية ، ولفافات تعلو جزماً قصيرة غنمها اصحابها من الحرس الاحمر . فجعل يتمتم لنفسه وقد تملكه الغيظ واليأس :

— يا للصعاليك ! يا للفلاحين الملاعين ! يا للمتفسخين !

كانت اوامر فومين معلقة على الاسيجة ، ولم يكن بالوسع ان يشاهد المرء فى فيشنسكايا احداً من سكانها . فقد توارى كل اهالى المدينة عن الانظار ولبثوا يترقبون . وكان صدر الدون الابيض الذى اجتاحته الثلوج يلوح خلل فجوات الشوارع الفرعية ، وبدت الغابة من ورائه سوداء وكأنها خضبت بالحبر الصينى . ومن حول كومة الاحجار الرمادية لبناء الكنيسة تجمهرت النسوة القادمات من القرى لزيارة ازواجهن مثل قطيع من الشياه .

واحس بيوتر بنظرات جانبية شزر قد سمرت فيه وهو يرتدى سترة مبطنة بالفرو يعلو صدرها جيب واسع ، ويعتمر قبعة الضباط الاستراخانية اللعينة التى كانت محط اعتزازه الشديد فى يوم ليس ببعيد . وضاعفت تلك النظرات مما كان قد انتابه من قلق وحيرة . فوقف بعض الوقت يصغى الى جندى قصير الجرم من الجيش الاحمر يرتدى معطفاً فاخراً وقبعة جديدة من جلد الحمل قد اعتلى برميلاً فارغاً فى وسط الساحة . فسوى الرجل وشاحاً من فراء الارنب الرمادى حول عنقه بيد يغطيها قفاز من الوبر ، ثم نظر فيما حوله .

وراح صوته الخفيض المبحوح ينفذ الى اذنى بيوتر : «ايها الرفاق القوزاق ! . .»

وجال بيوتر بنظره فيما حوله ، فالفى القوزاق ينظرون الى بعضهم ويغمزون بأعينهم ترقباً ، اذ ان كلمة «رفاق» التى لم يألفوها قد اشاعت فيهم الارتباك . واسهب الجندى الاحمر فى الحديث عن الحكم السوفييتى والجيش الاحمر ، والعلاقات مع القوزاق ، وعلقت فى ذاكرة بيوتر تلك الصيحات التى كانت تقاطع حديث الجندى باستمرار :

— ايها الرفيق ، ماذا تعنى بكلمة «كومنة» ؟

— هل سيقبلوننا ؟

— ما هو الحزب الشيوعى ؟

فشد الرجل يده على صدره وراح يشرح بأناة :

— ايها الرفاق ! ان الحزب الشيوعى مسألة اختيارية . والناس ينضمون الى الحزب بمحض ارادتهم لأنهم يريدون النضال فى سبيل الهدف العظيم لتحرير العمال والفلاحين من اضطهاد الرأسماليين ومالكى الاراضى .

وفى ذات اللحظة تقريباً نبت صيحة من شخص آخر :

— وضح لنا موضوع الشيوعيين والقوميسارية !

وما كاد الرجل يفرغ من شرحه حتى ارتفعت صيحة اخرى :

— اننا لا نفهم ما تقول . نحن اناس جهلة . تحدث بكلمات ابسط .

وحين فرغ الجندى الاحمر من كلمته ، القى ياكوف فومين كلمة طويلة مملة ، محاولاً ان يتباهى بكلمات لا يكاد يستطيع النطق بها . وكان صبى يرتدى قبعة الطلاب ومعطفاً انيق الصنع يتوثب الى جانبه . واذ راح بيوتر يصغى الى تخبط فومين عادت به الذاكرة الى اول لقاء له مع فومين فى الجيش ، يوم تقدمت داريا لزيارته فى المحطة على طريق بتروغراد فى شباط عام ١٩١٧

وتراءت له صورة ذلك الهارب من كتيبة الاتمان بعينيه القاسيتين ترسلان وميضاً نادياً ، وبمعطفه وقد علا كتفيه الرقم ٥٢ الذى حال لونه ، وبمشيته التى تحكى مشية الدب . وعادت كلماته الى ذاكرة بيوتر : «لم اعد استطيع الاحتمال اكثر من ذلك ، ياأخى» . فقال بيوتر فى دخيلة نفسه وعيناه تشعان مرارة : «هارب احمق مثل خريستونيا ، وها قد اصبح آمرا للكتيبة ، اما انا فلا ازال صفر اليدين» .

واحتل مكان فومين قوزاقى يتمنطق عبر صدره بأحزمة من عتاد الرشاشات ، فصاح بصوت ابح وهو ينشر ذراعيه :

— اسمعوا ، يا اخوان ! انا نفسى كنت فى مفرزة بودتيلكوف ، ويلوح لى اننا سنحارب الكاديت معاً ، بعون الله !

فدار بيوتر على عقبيه ومضى الى مأواه على عجل . واسرج حصانه وراح ينصت الى القوزاق فيما كانوا يبارحون فيشنسكايا على ظهور خيلهم ويطلقون النار من بنادقهم ايذاناً بعودة الجند الى قراهم جرياً على العرف الذى ما فتىء الجميع يحترمونه منذ القدم .

١٣

كانت الايام القصيرة ساكنة الى حد الرعب تبدو طويلة مثل ايام موسم الحصاد . وقد انبسطت القرى كالسهب البكر الذى تطأه الاقدام . لكأن المناطق المحاذية للدون فقدت الحياة ، وكأن وباء قد حل بالمنطقة فأمست قراها يباباً . ولكأن سحابة هائلة راحت تحوم بجناحها الاسود الاصم فى سماء اقليم الدون ، فتنتشر انتشاراً صامتاً مريعاً ، حتى يعن للريح ان تهب فتثنى اشجار الحور الى الارض فتنقض بلعلعة من الرعد الحاد العاتى لتمزق الغابة البيضاء

القائمة عبر الدون ، وترسل الاحجار التى تجللها الطحالب متواثبة من على التلال الكلسية ، وتظل تزمجر بصخب العواصف الرعدية المدمر . . .

كان الضباب قد اكتنف تتارسكى والسهب منذ الصباح . وتجاوبت التلال بهدير ينذر بالزمهرير . ونبعت الشمس عند الظهيرة خلل الضباب الذى علق بها ، غير انها لم تزد الدنيا نوراً . وراح الضباب يضرب على غير هدى فوق اعالى التلال المحاذية للدون ، وينحدر فى الوهاد والأخاديد ، حيث يتلاشى ، فيحط غباراً نادياً على السفوح الكلسية التى تغطيها الطحالب ، وعلى القمم الجرد التى يجللها الثلج .

وفى المساء بزغ ترس القمر المحمر من وراء رماح الغابة الجرداء . وطفق يبعث فوق القرى الصامتة وجهاً خافتاً بلون الدم من لهيب الحرب والنيران . وتحت نوره الازلى الذى لا يرحم تولدت فى افئدة الرجال نذر خوف مبهم . وراحت البهائم تتململ بقلق ، والخيل والثيران تجوب الافنية فلا يقر لها قرار حتى مطلع الفجر . وجعلت الكلاب ترسل عواء اسياناً ، والديكة تتنادى قبل انتصاف الليل بوقت طويل . وكان الصقيع يكسو غصون الاشجار الجرد عند الغسق بقشرة من الجمد ، تهزها الرياح فتجلجل مثل ركائب الخيل الفولاذية . لكأن جيشاً من فرسان لا تراهم العين ، مضوا يزحفون على ضفة الدون اليسرى خلال الغابة المعتمة والضباب الداكن ، فيسمع الناس قعقعة اسلحتهم وجلجلة ركائبهم .

كان قوزاق تتارسكى ، الذين حاربوا فى الجبهة الشمالية ، قد عادوا الى القرية ، كلهم تقريباً ، تاركين كتائبهم على هواهم وهى تتقهقر صوب الدون ببطء . كان لا يمر يوم دون أن يعود الى القرية فارس طال اليه الانتظار . كان البعض يعودون ليجردوا مطايا

الحرب من سروجها ويلبثوا اياماً عديدة فى انتظار مجيء الحمر ، فيدسون عدتهم العسكرية فى كوم من القش او تحت افريز سقيفة . وثمة آخرون قادوا خيلهم الى افنية بيوتهم ، وباتوا ليلتهم مع زوجاتهم ، وفى صباح اليوم التالى تزودوا بالمؤن ومضوا ثانية على دروب السهب ، بعد ان القوا من قمة التلال نظرة اخيرة على مجرة الدون البيضاء الهامدة ، وعلى قرية اهليهم ، وقد خلفوها وراءهم ربما للأبد .

ترى من بوسعه ان ينبأ فى اى مكان سيلقى مصرعه ؟ من بوسعه ان يعرف نهاية مطاف الانسان ؟ لكم شق على الخيل ان تجهد مبتعدة عن القرية ! لكم شق على القوزاق ان يزيحوا عن قلوبهم الواهنة شعور الفجيعة في اعزائهم !

وفيما مضى القوزاق فى تلك الطريق عادت الذاكرة بالكثير منهم الى الاهل ، فراحوا يقلبون العديد من الخواطر فى اذهانهم . وقد تنساب دموعهم مالحة كالدماء الى السرج وتتصبب حدر الركاب الى الدرب الذى تآكلته سنابك الخيل ، فلا يقيض حتى لوردة الفراق الصفراء المحمرة ان تنبت هناك فى الربيع !

* * *

وفى بيت ميليخوف انعقد مجلس عائلى فى الليلة التى اعقبت مجيء بيوتر من فيشنسكايا . فقد سأل بانتلاى بروكوفتش ابنه بيوتر حالما اجتاز عتبة الباب :

— حسناً ، ما هذا ؟ هل سئمت الحرب ؟ عدت وانت لا تحمل شارة الضباط على كتفك ؟ حسناً ، اذهب ، سلم على اخيك ، وابعث الفرحة فى قلب امك . زوجتك توشك على الهلاك من الشوق اليك . عظيم ، يا بيوتر ! غريغورى ! لماذا انت راقد

فوق الموقد كفأر الجبل ؟ انزل .

فدلّى غريغورى ساقيه العاريتين ، وجعل يحك صدره ذا الشعر الاسود ، وهو يبتسم ويراقب اخاه فيما كان يحل نطاق سيفه بأصابع خدرة ، وتعمل يده المتجمدة فى عقد شرائط قلنسوته . وكانت داريا تبتسم فى عينى زوجها دونما كلام وهى تفك ازرار سفرته المصنوعة من جلد الخراف متحاشية جنبه الايمن باحتراس حيث كانت قنبلة يدوية مثبتة فى الحزام على مقربة من قراب المسدس .

وقد مسحت دونيا شاربى اخيها بقبلة وهرعت الى الخارج لتعنى بحصانه . اما ايلينشنا فقد مسحت شفتيها بصدريتها وتهيأت لتقبيل ابنها «البكر» ، فى حين انهمكت ناتاليا فى اعداد الموقد وطفلاها يتشبثان بأذيالها . وبقى الجميع ينتظرون كلام بيوتر ، الا انه اكتفى بأن القى بـ«كيف الصحة ؟» من العتبة بصوت مبحوح ، وراح يخلع ملابس الطريق بصمت ، وقد امضى وقتا طويلا فى مسح جزمته بمكنسة من قش الدخن . ثم اعتدل وارتجفت شفتاه بغتة ، ومال على حافة السرير شارد الفكر ، ورأى الجميع الدموع تشرق على خده الاسمر الذى لفحه الزمهرير .

فتساءل ابوه مازحاً وهو يحاول اخفاء قلقه ودموعه هو الآخر :

— ما هذا ، ايها الجندى ، ماذا جرى ؟

فالتوى فم بيوتر ، وارتعش حاجباه الحائلان ، ثم اخفى عينيه وهو يتمخط فى منديله القذر الملطخ بالتبغ ويقول :

— لقد انتهى أمرنا ، يا ابتى !

وكل غريغورى القطة التى كانت تتمسح به ، وقفز هابطاً من على الموقد وهو ينحنح . وانفجرت الأم ناشجة ، وراحت تلثم رأس بيوتر الذى يعج بالقمل ، ولكنها سرعان ما ابتعدت عنه قائلة :

— يا حبيبى ! ياولدى المسكين ، هل ترغب بشىء من اللبن الرائب ؟ اذهب واجلس ، لقد برد حساؤك ، لا بد انك جائع . . .

وحين جلس بيوتر الى المائدة ، واضعاً ابن اخيه على ركبتيه ، بدا عليه الانشراح . واذ استعاد رباطة جأشه ، راح يحكى لهم قصة انسحاب الكتيبة الثامنة والعشرين من الجبهة ، وهرب الضباط ، وفومين والاجتماع الأخير الذى شهده فى فيشنسكايا .

فقال غريغورى ويده ذات العروق الداكنة على رأس ابنته :

— حسناً ، ما رأيك فى كل هذا ؟

— لست ارى شيئاً . سأمضى نهار الغد هنا ، ثم ابارح عند حلول الليل . — ثم التفت الى أمه قائلاً : — اعدى لى شيئاً من الطعام ، يا اماه .

فقال بانتلاى بروكوفتش وهو يدس اصابعه فى كيس تبغه :

— اذا ، فستتراجع ؟ — ثم لبث ينتظر جواب بيوتر وقبضة التبغ بين اصابعه .

فنهض بيوتر ورسم على صدره اشارة الصليب امام الايقونات العتيقة الداكنة ، ثم حدق فى والده بمرارة وقسوة وقال :

— نجنى ايها المسيح ، لقد نلت ما فيه الكفاية . قلت اتراجع ! ماذا عساى افعل غير هذا ؟ لماذا أبقى ؟ أمن اجل ان يقطع الحمر رأسى ؟ ربما فكرت انت فى البقاء ، اما انا فلا ! انهم لن يرحموا الضباط .

— وماذا عن البيت ؟ يعني تتخلى عنه ؟

فلم يقل بيوتر شيئاً بل اكتفى بهز كتفيه ، ولكن سرعان ما انطلق لسان داريا :

— انت ترحل ، وعلينا نحن ان نبقى ؟ لطيف حقاً ! انبقى

هنا لحراسة امواللك ؟ وقد نفقد حياتنا بسببها ! لتحل عليها اللعنة ! لن ابقى أنا !

وحتى ناتاليا تدخلت فى النقاش ، فرفعت صوتها فوق صوت داريا الداوى الرنان ، وهتفت قائلة :

— اذا رحلت القرية برمتها ، فلن نبقى نحن . سنذهب على اقدامنا !

فارعد بانتلاى بروكوفتش حانقاً وهو يجيل عينيه باحثاً عن عصاه دون ارادته :

— يا للحمقاوتين ! يا للقحبتين البلهاوين ! اخرسا ، ايتها اللعينتان ! هذه شؤون الرجال ، وانتما تدسان انفيكما فيها . حسناً ، لنفرض اننا تركنا كل شىء لنذهب الى حيث تحملنا اقدامنا ، فما سنفعل بالماشية ؟ انضعها فى جيوبنا ، والبيت ايضاً ؟

فأيدت ايلينشنا زوجها بحمية وقالت :

— لقد مسكما الجنون ، يا ابنتىّ ! لم تتحملا جهد انشاء الحقل ، فلا اسهل عليكما من تركه . اما انا والرجل الشيخ فقد كدحنا فيه ليل نهار ، فلن نبارحه ! — ثم زمت شفتيها وتنهدت : — اذهبوا انتم ، اما انا فلن اتحرك من هنا . خير للمرء ان يقتل على عتبة بيته من ان يموت تحت جدار الغرباء .

وسوى بانتلاى بروكوفيتش فتيلة المصباح ، وهو يجر انفاسا ثقيلة وينفث الحسرات . وخيم على الجميع الصمت لحظة . ثم رفعت دونيا التى كانت منهمكة فى الحياكة رأسها وهمست :

— بوسعنا ان نسوق الماشية معنا . . . ولا داعى لبقائنا بسبب الماشية .

وثار الشيخ من جديد ، وجعل يضرب الارض بقدميه كجواد طال بقاؤه فى الاسطبل ، وكاد ان يقع حين عثر بجدى نائم عند

الموقد . ثم توقف امام دونيا وارعد :

— نسوقها ! . . والبقرة العجوز على وشك ان تلد ؟ ماذا نفعل بها ؟ الى اية مسافة نستطيع ان نسوقها ؟ ليتك تغصين بآثامك ! ايتها السفيهة التافهة ! الفطرة السامة ! بيضة القملة ! بعد كل ما بذلنا من جهد لنبنى لهم بيتاً صرنا نصغى لمثل هذه الاقوال ! ماذا نفعل بالغنم ؟ ماذا ستفعلين بالحملان ؟ يا ابنة العاهرة ! خير لك ان تمسكى لسانك !

ونظر غريغورى الى بيوتر بزاوية عينه ، وكعهده وجد فى عينى اخيه ابتسامة ماكرة متهكمة تنم فى الوقت ذاته عن الاحترام ، ولاحظ الارتعاش المألوف على شاربه القمحى . ورفت عينا بيوتر بسرعة ، واختض جسده بقهقهة حبيسة . واحس غريغورى هو الآخر برغبته فى الضحك الذى كاد ان ينساه فى السنوات الاخيرة فأرسلها ضحكة جهورية داوية دونما تصنع .

فقال الشيخ :

— عال ، عال ! الحمد لله ! . . هكذا ، اذن ، كنا نتحادث اليوم . . . — ثم حدجه بنظرة غاضبة واشاح بنظره صوب النافذة التى غشاها الجمد .

ولم يتوصلوا الى اتفاق الا فى منتصف الليل ، فارتأوا ان يبارح القوزاق الثلاثة تتارسكى ، فى حين تبقى النسوة للمحافظة على البيت والحقل .

اوقدت ايلينشنا الموقد قبل بزوغ الشمس بوقت طويل ، وما ان حل الصبح حتى كانت قد خبزت الخبز وجففت كيسين منه . وتناول الشيخ افطاره على ضوء المصباح ، وخرج عند الفجر ليعنى بالماشية ويعد الزحافة للرحيل . وقد اطال الوقوف فى مخزن الحبوب فغرز يده فى خابية القمح وترك حبات القمح تتقاطر من بين اصابعه .

وخرج كمن يبارح جثة هامدة ، رافعاً قبعته وهو يغلق الباب الاصفر بهدوء . . .

كان ما يزال متلكئاً حول الزحافة تحت السقيفة حين ظهر انيكوشكا فى الشارع وهو يسوق بقرته ليوردها . فتبادل الرجلان التحية . وسأل بانتلاى بروكوفتش :

— هل تتهيأ للرحيل ، يا انيكوشكا ؟

— انا اتهيأ ؟ العريان لا يحتاج الى حزام ! لست املك الا احشائى ، وبوسعى ان أتدبر أمرى من فتات الآخرين .

— هل من اخبار ؟

— كثير منها ، يا بروكوفتش !

فتملك بانتلاى بروكوفتش القلق فدسّ فأسه فى جنب الزحافة .

— ماذا ؟

— سيكون الحمر هنا عما قريب . انهم يقتربون من فيشنسكايا . رآهم رجل من بولشوى كروموك وقال انهم يقتلون الناس اثناء تقدمهم . ثمة يهود وصينيون معهم . ليتنا قضينا عليهم جميعاً ، لعنة الله على الشياطين الحول !

— يقتلون الناس ؟

— ماذا كنت تنتظر غير هذا ؟ — ثم صب انيكوشكا اللعنات ، ومضى يتحدث وهو سائر : — النسوة فى القرى يصنعن القودكا ويقدمنها اليهم دفعاً لأذاهم ، فيأخذهم السكر ويمضون قدماً لاحتلال القرية التالية فيعيثون فيها فساداً .

وراح الشيخ يجيل عينيه فى ارجاء السقيفة ، ممعناً النظر فى الاعمدة والعيدان التى اقامتها يداه . ثم أخذ شوالاً فذهب الى ساحة درس الحبوب ليتزود بشىء من القش لرحلته . وانزل كلاباً حديدياً ، واذ غاب عنه ان الرحيل أمر لا مفر منه ، شرع فى

انتقاء اردأ القش (كان دوما يدخر القش الجيد لكى يستعمله اثناء الحراثة فى الربيع) . ولكنه عدل عن رأيه ، فتحول الى كدس آخر من القش ، وهو حانق على نفسه . فلم يخطر بباله انه فى غضون دقائق سيبارح الفناء والقرية ، ويمضى الى مكان ما فى الجنوب ، وربما لا يعود أبداً . وانزل بعض القش ، ثم استدار ليعيد ما انتثر منه الى الكدس بحكم العادة كذلك . ولكنه جر يده وكأن المذراة حامية .

ثم مسح حاجبه العرقان وقال بصوت مسموع :

— علام اعنى الآن به ؟ ما جدوى ذلك ، سيلقون به تحت اقدام خيلهم ، وسيتلفونه او يحرقونه .

ثم كسر المذراة على ركبته ، وصر بأسنانه وحمل شوال القش ، ثم سار متثاقلاً نحو المنزل ، وهو بادى الانحناء والشيخوخة .

ولم يدخل المنزل ، بل صاح خلال الباب المفتوح :

— تهيأوا ! فسأشد الخيل فى الحال . يحسن بنا الا نتأخر فى الرحيل .

وضع العدة على الخيل ، ورمى بكيس من الشوفان فى مؤخرة الزحافة ، واستبدت به الدهشة لأن ولديه لم يخرجا بعد لشدّ السرج على حصانيهما فدلف الى الكوخ .

وطالع عينيه فى المطبخ مشهد غريب : كان بيوتر يحل غاضباً الصرر التى اعدت لرحلتهم فيرمى البنطالات ، والقمصلات ، وثياب الاعياد الخاصة بالنساء على الارض .

فسأل الشيخ وهو يخلع قبعته من فرط الذهول :

— ما كل هذا ؟

فأشار بيوتر بابهامه عبر كتفه الى النساء وقال :

— هن ! انهن يعولن ! لذا فلن نذهب الى اى مكان !

ينبغى ان نرحل جميعاً والا فلا ! كيف نستطيع الرحيل لانقاذ اموالنا والحمر قد يغتصبونهن فى غيابنا ؟ فلئن قتلونا ها هنا ، حسبنا ان نموت تحت انظارهن !

وقال غريغورى باسماً ، وهو يخلع معطفه وسيفه :

— اخلع ثيابك ، يا ابنى .

فأمسكت ناتاليا الباكية يده وقبلت ظهرها ، وراحت دونيا تصفق ابتهاجا ، وقد احمر وجهها فبات مثل شقائق النعمان .

ارتدى الشيخ قبعته ، ولكنه خلعها ثانياً فى الحال ، وخطا عبر الغرفة الى الايقونات فرسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة . ثم انحنى ثلاثاً ، ونهض من ركوعه وأجال حوله النظر :

— حسناً ، لئن كان الامر كذلك فنحن باقون ! يا ملكة السماء ، استرى علينا واحمينا ! سأذهب واخلع عن الخيل عدتها .

وجاءهم انيكوشكا صدفة فدهش اذ رأى آل ميليخوف كلهم بوجوه ضاحكة مستبشرة . فسألهم : — ما الخبر ؟

فأجابت داريا عن الجميع :

— لن يرحل رجالنا .

— غريب ! هل غيرتم فكركم ؟ . .

فكشر غريغورى عن اسنانه القوية المائلة الى الزرقة بابتسامة مقتضبة ، وغمز بعينه وقال :

— أجل ، غيرنا رأينا ! لا داعي للسعى وراء الموت ، فانه سيجدنا فى انتظاره هنا .

فهتف انيكوشكا :

— حسناً ، لئن قرر الضباط عدم الرحيل ، فلا ريب انّا باقون كذلك .

وخرج من الكوخ يخبط الأرض كأن فى قدميه نعلى فرس .

١٤

ظلت بيانات فومين ترفرف على اسيجة الدور فى فيشنسكايا ، فقد بات وصول الجيش الاحمر متوقعاً بين ساعة وأخرى . وفى اثناء ذلك ، عمدت هيئة اركان الجبهة الشمالية الى اتخاذ مقر عام لها فى كارغينسكايا على بعد خمسة وثلاثين فرسخاً . وفى مساء الرابع من كانون الثانى وصلت الى مدينة كارغينسكايا مفرزة التشيتشينيين التأديبية التى يقودها العقيد رومان لازاريف وما لبثت ان غادرتها على جناح السرعة لمعالجة امر كتيبة فومين المتمردة .

وكان المفروض ان تهاجم تلك المفرزة فيشنسكايا فى الخامس من كانون الثانى . فقد اتمت الدوريات استطلاع القرى المحيطة بالمدينة . على ان الهجوم لم يتم حين اخبر جندى فار من كتيبة فومين بأن قوات غير قليلة من الجيش الاحمر قد توقفت لتبات ليلتها فى غوروخوفكا ، وان وصولها الى فيشنسكايا بات منتظراً فى اليوم التالى . حاول كراسنوف ، الذى كان منشغلاً مع ممثلى الحلفاء فى نوفوتشيركاسك ان يستميل فومين . وقد استدعى فومين الى دائرة التلغراف فى فيشنسكايا بعد ان ظل جهاز التلغراف يئز لوقت طويل ، فتسلم رسالة مقتضبة :

فيشنسكايا فومين نقطة العريف فومين فاصلة آمرك بالرجوع الى صوابك وضع رجال كتيبتك فى مراكزهم حالاً نقطة ارسلت مفرزة تأديبية نقطة عصيان الاوامر عقوبته الموت نقطة كراسنوف .

وقف فومين مفتوح السترة يراقب على ضوء مصباح البرافين شريط الورق المخرم ينسل كالثعبان من تحت اصابع عامل التلغراف ، ثم نفث على رقبة الرجل انفاساً من حرقة الفودكا والهواء البارد وقال :

— ماذا يهرف ؟ ارجع الى صوابى ؟ هل انتهى من ثرثرته ؟ حسناً ، اكتب له الآن . . . ماذا ؟ ممنوع ذلك ؟ اطع أوامرى ، والا انتزعت احشاءك !

ومرة ثانية شرع مفتاح التلغراف يعمل :

نوفوتشيركاسك الاتمان كراسنوف نقطة اذهب الى جهنم وبئس المصير نقطة فومين .

بات الوضع فى الجبهة الشمالية من التعقيد ما حدا بكراسنوف ان يقرر الذهاب الى كارغينسكايا بنفسه ليسدد من هناك «ضربة انتقام» الى فومين ، والأهم من ذلك ليستنهض همم القوزاق الذين ثبطت عزائمهم ، وكان هذا الهدف نصب عينيه حين دعا الحلفاء للقيام بجولة تفتيشية فى الجبهة .

وفى بوتورلينوفكا استعرضوا كتيبة القديس غيورغى من غوندروفسكى التى قد سحبت لتوها من المعركة . وبعد ان تفقد كراسنوف رعائل الكتيبة اتخذ مكانة عند رايتها ، واتى التفاتة رشيقة الى اليمين وصاح بصوت رنان :

— كل من خدم تحت امرتى فى الكتيبة العاشرة . . . خطوة الى الامام تقدم !

فتقدم زهاء نصف رجال الكتيبة تقريباً الى الامام . فخلع كراسنوف قبعته الجنرالية وعانق رئيس العرفاء ، الذى كان ما يزال رشيقاً رغم كهولته والذى كان اقرب الجميع اليه ، ثم قبله ثلاث مرات . فمسح رئيس العرفاء شاربيه القصيرين بكم معطفه ووقف يحملق بعينين جاحظتين . قبل كراسنوف كافة رجال كتيبته السابقة . فجعل ضباط الحلفاء يهمسون الى بعضهم دهشين على ان دهشتهم تلاشت وحلت محلها الابتسامات والرضا المتحفظ حين تقدم كراسنوف نحوهم وشرح لهم الأمر :

— هؤلاء هم الابطال الذين بهم سحقت الالمان فى تيزفيزكايا والنمساويين فى بلزيتس وكوماروف لأجل انتصارنا المشترك على العدو .

. . . وعلى جانبى الشمس كان عمودان تلغرافيان محزمان بجمد أبيض ويلفعهما سكون الموتى ماثلين اشبه بجنديين يقفان على حراسة خزينة الكتيبة . وجعلت ريح شمالية غربية باردة تعزف خلل الغابات كالبوق ، وتجتاح السهب وتثنى الادغال الشائكة وتسحقها سحقاً . وفى مساء السادس من كانون الثانى ، حين كانت ظلال الغسق تلفع نهر التشير وصل كراسنوف كارغينسكايا يرافقه ضابطا جلالته البريطانية ادوردز والكوت ، والضابطان الفرنسيان الرئيس بارتيلو والملازم ارليخ ، فهبط ضباط الحلفاء من السيارة تحف بهم رائحة دخان السيكار وعطور الكولونيا ، وقد تدثروا بمعاطف من الفرو وقبعات وثيرة من جلد الأرانب . وكانوا يتضاحكون وهم يرتجفون ويدقون الارض بأقدامهم . وبعد ان تدفأوا واحتسوا الشاى فى بيت التاجر الثرى ليفوجكين ، توجهوا بصحبة كراسنوف وقائد الجبهة الشمالية أمير اللواء ايفانوف الى المدرسة المحلية حيث اعدت العدة لعقد اجتماع .

والقى كراسنوف كلمة مسهبة فى حشد من القوزاق المتلهفين . فاصغوا اليه بانتباه وطيب خاطر . ولكنه حين شرع فى مجرى كلمته يصور لهم «فظائع البلاشفة» التى اقترفوها فى المناطق المحتله ، نب من وراء حجاب الدخان الازرق صوت يقول : «هذا غير صحيح» ! مما افسد الاثر الذى تركته الكلمة .

وفى صبيحة اليوم التالى رحل كراسنوف والحلفاء صوب ميليروفو على عجل .

وبعجالة مماثلة تم الجلاء عن مقر قيادة الجبهة الشمالية .

وراح التشيتشينيون يطوفون الناحية حتى المساء بحثاً عن القوزاق الذين حاولوا التخلف عن الجيش . وفى ذلك المساء اضرمت النيران فى مستودع العتاد ، وظلت خراطيش البنادق تلعلع ، حتى منتصف الليل ، مثل كوم هائل من دغل تلتهمه النيران ، اما القذائف فقد راحت تدوى دوى الجليد المنهار . وفى اليوم التالى ، وفيما كانت الصلاة تقام قبل التراجع ، ارتفع صوت مدفع رشاش من على تل كارغينسكايا فجعلت الطلقات تضرب سقف الكنيسة مثل برد الربيع ، فهرعت القطعات الى السهب كغوغاء شاع فيه الاضطراب . وحاول لازاريف ومفرزته ان يحمى الجنود المنسحبين تساعده فى ذلك بضع من وحدات القوزاق . فاتخذ بعض المشاة مواقع لهم وراء الطاحونة الهوائية ، وقامت بطارية كارغينسكايا السادسة والثلاثون ، التى يقودها الرئيس فيودور بوبوف ، وهو من اهالى كارغينسكايا ، بصب حمم من قذائفها على الصفوف الهاجمة من قطعات الحمر .

ولكن البطارية ما لبثت ان شدت رحالها ، فقد ضرب الخيالة الحمر الطوق حول المشاة المدافعين بعد ان طلعوا عليهم من قرية مجاورة عن طريق الوديان ، وفتكوا بزهاء العشرين شيخاً من اهالى كارغينسكايا الذين اطلق البعض عليهم اسم «القوميين الأوكرانيين» .

١٥

تجدد ايمان بانتلاى بروكوفتش بما للاشياء من قوة وأهمية ، بعد ان عقدوا العزم على البقاء فى تتارسكى مهما كلفهم ذلك . ففى المساء خرج ليعنى بالماشية ولم يتردد فى انتقاء القش من اردأ الكدوس . ولبث فى الفناء الذى بدأ يخيم عليه الظلام يتفحص البقرة من جميع جوانبها بكل عناية ، وقال فى سريرته بشعور من

الرضى : «انها تزداد سمنة . فهل انعم الله عليها بتوأمين يا ترى ؟»
لقد عاوده الشعور بأن كل شيء يخصه ، وعاد لكل شيء ما كان يرى فيه من قيمة واهمية . وقبل ان يحل المغرب وجد متسعاً من الوقت ليزجر دونيا لأنها بعثرت شيئاً من العصافة ولأنها لم تكسر الجليد الذى علا جابية الماء ، وكذلك ليصلح ثغرة احدثها خنزير ستيبان استاخوف فى السياج . وفيما كان يفعل ذلك خرجت اكسينيا لتسد نوافذ كوخها الخارجية . فسألها ما اذا كان ستيبان ينوى الرحيل . فلفت اكسينيا رأسها بعصابتها واجابت بصوت ملول :

— كلا ، كلا ، اين تراه يذهب ؟ انه راقد فوق الموقد وقد المت به حمى . ان رأسه يضطرم كالنار . انه مريض فليس بوسعه ان يرحل .

— ونحن لسنا راحلين كذلك . ان الشيطان وحده يعلم ما اذا كانت الأمور ستتحسن او تسوء . . .

هبط الليل ، وراح نجم الشمال يتوهج فى اعماق السماء المخضوضرة ، عبر الدون ، وراء خليج الغابة الرمادية . وفى الشرق تلفعت السماء بالأرجوان وكان الغروب يضطرم فى الغرب . وتهادى سنام القمر بين قرون اشجار الحور المنتشرة . واختلطت على اكوام الثلج المعتمة ظلال مبهجة . كان السكون من العمق بحيث استطاع بانتلاى بروكوفتش سماع شخص يكسر الجليد فى حفرة على الدون ، ولعله كان انيكوشكا . وكانت فتات الجليد ترن وتدندن بينما فى الحوش كانت الثيران تمضغ الحشيش اليابس بتؤدة وشهية .

وانير المصباح فى الدار . ومرقت ناتاليا ما بين النافذة والمصباح . وقد جذب الدفء بانتلاى بروكوفتش ، فألفى العائلة مجتمعة فى الداخل . كانت دونيا قد عادت لتوها من زيارة لزوجة خريستونيا . فأفرغت كوباً من المشروب البيتى ناقلة لهم آخر الاخبار

على عجل ، خشية ان يقاطعها احد .

وفى غرفة الاستقبال دهن غريغورى بندقيته ، ومسدسه وسيفه ، ثم لف منظاره العسكرى بقطعة من الجنفاص ، ونادى بيوتر قائلاً :

— أهيأت بندقيتك ؟ يحسن بنا ان نختبئها .

— ولكن ماذا لو اردنا الدفاع عن انفسنا ؟

فضحك غريغورى قائلاً :

— دعك من هذا ! لئن عثروا عليها فسيشنقوننا .

ثم خرجا الى الحوش . ولسبب ما اخفيا اسلحتهما كل على انفراد . ولكن غريغورى كان قد دس مسدسه الاسود الجديد تحت وسادته .

وما كادوا يفرغون من عشائهم ، وفيما كانوا يتهيأون للمنام ، شرع الكلب المربوط فى الفناء يرسل نباحاً مبحوحاً وهو يشد قيده خانقاً نفسه بالطوق . وخرج العجوز ليستجلى الامر وعاد برجل قد امال قلنسوته الى عينيه . وحين دخل الرجل الذى كان يرتدى بزة عسكرية كاملة رسم اشارة الصليب على نفسه وتصاعدت من شاربيه المتجمدين سحابة من البخار وسأل :

— الا تعرفوننى ؟

فهتفت داريا :

— انه قريبنا ماكار !

وحينذاك فقط عرف بيوتر والآخرون قريبهم البعيد ماكار نوغايتسيف ، وهو قوزاقى من قرية سينغين ، ذاع صيته فى انحاء المنطقة لصوته الجميل وافراطه فى الشراب . فابتسم بيوتر ، دون ان يتحرك من مجلسه ، وقال :

— ما الذى جاء بك الى هنا ؟

وانتزع نوغايتسيف من شاربيه بلورة من الجليد ، والقى بها

قرب الباب ، وضرب الأرض بقدميه فى جزمته اللبادية الكبيرة . ثم شرع يخلع ثياب السفر على مهل .

— ليس الرحيل بمفردى امراً سارّاً ، ففكرت بالمجيء اليكم لنذهب معاً . فقد بلغنى ان كلا الأخوين فى البيت ، فقلت لزوجتى اننى ذاهب لاصطحب آل ميليخوف ، وحينذاك تغدو جماعتنا اكثر مرحاً .

ثم انزل بندقيته عن كتفه ووضعها عند الموقد بجانب الملاقط ، فأثار بذلك ضحك النساء . ثم دس صرته تحت الفرن ، ولكنه وضع سيفه وسوطه على السرير بعناية . وكان زفيره يفوح كعهده برائحة الفودكا المنزلية . وبدا الثمل واضحاً فى عينيه ولاح من ثنيات لحيته الندية صف جميل من اسنان بيضاء ماثلة للزرقة تشبه الصدف النهرى .

فسأله غريغورى وهو يقدم اليه كيس تبغه المزركش :

— هل سيرحل جميع القوزاق عن سينغين ؟

فدفع الضيف عنه يد غريغورى قائلاً :

— اشكرك ، لا ادخن . . . القوزاق ؟ رحل بعضهم ، ويبحث الآخرون عن مكان يختفون فيه . هل انتم راحلون ؟

فقالت ايلينشنا بفزع :

— لن يرحل قوزاقنا . اياك ان تزين لهم ذلك .

— لا احسبكم باقين هنا ؟ لا استطيع ان اصدق ذلك ، أصحيح هذا ، ياقريبى غريغورى ؟ انكم تسعون الى المتاعب ، يا اولاد .

فقال بيوتر :

— لا حول ولا . . . — وتنهد واحمر وجهه على حين غرة ، واردف : — غريغورى ، ما رأيك ؟ الم تغير رأيك ؟ هل نرحل ؟

— ابداً .

واكتنف غريغورى اكليل من الدخان فتعلق على خصلات شعره الكثة . فسأل بيوتر ماكار مغيراً وجهة الحديث :

— هل خرج والدى ليعنى بحصانك ؟

وران عليهم صمت طويل لم يقطعه سوى طنين دولاب مغزل دوليا يثير النعاس . وظل نوغايتسيف ساهراً حتى الفجر يحاول اقناع الآخوين للذهاب معه عبر الدونيتس . واثناء الليل انسل بيوتر الى الخارج مرتين ليسرج حصانه ، ولكنه عاد فى كلتا المرتين ليجرد الحصان من سرجه راضخاً لعينى داريا المنذرتين بالوعيد .

طلع الصبح ، فتهيأ الضيف للرحيل . وحين ارتدى كل ملابسه وقف ويده على سقاطة الباب ، واتى نحنحة ذات مغزى ، وقال بصوت ينم عن الوعيد :

— قد يكون طريقكم افضل ، ولكنكم قد تأسفون فيما بعد . فاذا ما قيض لنا ان نعود ، فستتذكر اولئك الذين فتحوا للحمر ابواب الدون ومكثوا ليقوموا على خدمتهم . . .

كان الثلج يتساقط بكثرة منذ الصباح . وحين خرج غريغورى الى الفناء شاهد حشداً اسود من الرجال يتحرك نحو المعبر فى الجانب الآخر من الدون . كانت الخيل تجر شيئاً ما ، وقد شدت كل ثمانية منها معاً ، وكان بوسعه ان يسمع الكلام ، والصهيل ، والشتائم . وبدت اشكال الرجال والخيل داكنة خلل دوامة الثلج وكأنها وسط لجة من الضباب . ومن طريقة شد الخيل خمن غريغورى انها بطارية مدفعية : «اتراهم حمراً ؟» واشتد وجيب قلبه ازاء هذا الاحتمال ، ولكنه اطمأن بعد ان فكر بالأمر ثانية .

واقترب الحشد المبعثر من القرية . وقام بالتفاف واسع المدى تحاشياً لحفرة سوداء فاغرة فى الجليد . ولكنهم حين اقتربوا من

حافة النهر انكسر الثلج تحت عجلة المدفع الاول . وحملت الريح الى اذنى غريغورى صيحات السواق وخشخشة الثلج المتهشم ، وضربات حوافر الخيل السريعة المتزلقة . ودخل الى حظيرة الماشية القائمة وراء البيت وجعل يسترق النظر بحذر . واستطاع ان يعرف من كتافياتهم التى غطاها الثلج قليلاً انهم قوزاق . وبعد بضع دقائق اجتاز بوابة دار ميليخوف مدفعى كهل على صهوة حصان طويل القامة عريض الظهر . فترجل عند درجات العتبة وربط العنان الى عمود السياج ودخل الدار . وقال بعد ان حيا من فى الدار :

— من هو رب البيت هنا ؟

فأجاب بانتلاى بروكوفتش : «انا . . .» — وانتظر بقلق ان يوجه اليه مثل هذا السؤال : «لماذا بقى رجالك فى الدار ؟» بيد ان المدفعى نفض الثلج عن عذاريه الطويلين المجعدين وتوسل قائلاً :

— بحب المسيح ، ساعدونا على اخراج مدفعنا . لقد غاص فى النهر حتى المحور قرب الشاطئ تماماً . ألديكم شىء من الحبال؟ ما اسم هذه القرية ؟ لقد تهنا بسبب الثلج . ثم ان الحمر يتعقبوننا عن كثب .

فقال الشيخ متردداً :

— لا ادرى ، والله . . .

— ما الذى لا تدريه ؟ لعمرى انكم قوزاق طيبون ! نحن فى حاجة الى رجال لمساعدتنا . فقال بانتلاى بروكوفتش كاذباً :

— ان صحتى ليست على ما يرام .

فجال المدفعى عينيه بينهم كالذئب ، دون ان يدير رقبته ، وبدت نبرة صوته اكثر قوة وعنفواناً :

— ألستم قوزاقاً ؟ هل بوسعكم ان تدعوا المعدات الحربية

تذهب هباء ؟ لم يعد ثمة من يقود البطارية سواى ، فقد هرب الضباط جميعاً . ومضى علي اكثر من اسبوع وانا لا اكاد ابارح السرج ، لقد تجمدت اوصالى ، وفقدت اصابع احدى قدمى بسبب لسعة الجليد ، ولكنى لن اتخلى عن بطاريتى ، وانتم . . . لئن ابيتم تقديم المساعدة لنا فانى سأستدعى قوزاقى وسوف . . . —

وصاح بصوت غاضب متهدج : — سوف نرغمكم على ذلك يا ابناء العواهر ! يا بلاشفة ! سوف نشد عدة الخيل عليك ايها العجوز ، ان شئت ذلك . اذهب واستدع مزيداً من الرجال واذا لم تعد بهم ، فاننا ، والله ، سنمحو قريتكم من الوجود . . .

كان يتكلم كمن لا يثق بقوله كل الثقة . فأسف غريغورى لحاله . وامسك بقبعته وقال بخشونة ، دون ان ينظر الى المدفعى الهائج :

— كفى زعيقاً ! سنساعدك ثم امضِ الى شأنك بسلام .

وسرعان ما عثر على جمع كبير من القوزاق الراغبين فى تقديم المساعدة . وبالتعاون مع رجال البطارية قام انيكوشكا وتوميلين وخريستونيا وآل ميليخوف وزهاء عشر نساء ، بوضع العصى تحت العجلات ثم رفعوا مدفع الميدان وصناديق الذخيرة واعانوا الخيل على مواصلة السير . ولم تدر العجلات ، انما راحت تنزلق على الثلج انزلاقاً . وقد وجدت الخيل المنهكة كل المشقة فى ارتقاء اوطأ المرتفعات . ولم يبق من رجال البطارية الا نصفهم راح يمشى على الاقدام . وخلع المدفعى قبعته وانحنى شاكراً اولئك الذين مدوا اليه يد المعونة ، واستدار على سرجه فأمر البطارية بهدوء ان تتبعه .

وسرح غريغورى النظر وراءه بشعور من الاحترام تخالطه الريبة والدهشة وتقدم بيوتر وهو يلوك شاربيه ، وكأنه يعقب على ما دار فى خلد غريغورى :

— الا ليتهم جميعاً مثل هذا ! هكذا يكون الدفاع عن الدون الهادئ !

فسألهما خريستونيا وهو متسخ من رأسه الى أخمص قدميه :

— أتتحدثان عن ذلك المدفعى ؟ يبدو انه سيوصل مدافعه حيث يشاء مهما كلفه الامر ! ارأيتم كيف هز السوط امام وجهى ، ذلك النغل ! لا بد ان اليأس قد تملكه . لم اكن راغباً فى المساعدة ، ولكن الذعر تملكنى فجئت رغم اننى لا املك جزمة ارتديها . ولكن ما جدوى تلك المدافع لهذا الاحمق ؟ انه اشبه بختزير خطر مربوط الى جلمودة من الخشب . انها لا تجديه فتيلاً ، بيد انه يمضى قدماً فى جرها .

فابتسم القوزاق ومضوا كل الى حال سبيله .

١٦

تصرّم الظهر ، ومن وراء الدون تأتأ مدفع رشاش ببضع صليات ، ثم خلد الى الصمت .

وبعد نصف ساعة خطا غريغورى ، الذى امضى سحابة يومه عند نافذة غرفة الاستقبال ، الى الوراء وقد استحال وجهه ازرق كالرماد ، وقال :

— ها قد جاءوا !

فصاحت ايلينشنا واندفعت صوب النافذة . كان فى الطريق ثمانية فرسان يهذبون على خيلهم . واذ بلغوا فناء ميليخوف على خبب ، توقفوا ، ونظروا الى المعبر على الدون والدرب الاسود الممتد بين النهر والجبل ، ثم عادوا ادراجهم . كانت خيلهم الشبعى تلوح بذيولها المهلوبة ، وتثير كتل الثلج بحوافرها . وراحت الدورية تستطلع

القرية ثم توارت عن الانظار .

وما هى الا ساعة حتى ضجت تتارسكى بخبط أقدام وكلام غريب ، ونباح كلاب . فقد عبرت الدون كتيبة مشاة وجعلت تتدفق الى القرية ومعها رشاشات محملة على الزحافات ، وعربات شحن ومطبخ ميدان .

رغم ما فى تلك اللحظة الاولى لوصول قوات العدو من فظاعة ، لم تستطع دونيا ان تكبح هأهأتها . فحين عادت الدورية ادراجها ، زنخرت فى صدريتها وهرولت الى المطبخ ، فلقيتها ناتاليا بنظرة وجلة ، وسألتها :

— ما الأمر ؟

— اوه ، ناتاليا ، يا عزيزتى ، ليتك رأيت كيف يركبون خيلهم ! كان رجل منهم يهتز فى سرجه الى الأمام والى الوراء ، الى الأمام والى الوراء . . . وكان ذراعاه ومرفقاه يصفقان جنبيه ، وكأنهم جميعاً مصنوعون من قماش !

لقد اجادت محاكاة الجنود الحمر الذين كانوا يتأرجحون على سروجهم مما جعل ناتاليا تهرع الى الفراش ، وهى تكتم ضحكتها ، وتنكب على الوسادة لتتحاشى غضب حميها منها .

كان بانتلاى بروكوفتش ، الذى اعترت اوصاله الرجفة ، جالساً على المصطبة يعبث على غير هدى بخيط السكافة والابر وعلبة المسامير الخشبية ، وظل يتطلع الى خارج النافذة ، وفى عينيه نظرة حيوان وقع فى الفخ .

اما فى المطبخ فقد تعالت قهقهات النسوة على نحو يثير حفيظة الآخرين . كانت دونيا ، وقد احمر وجهها فغدا بلون الارجوان ، واخضلت عيناها بالدموع فراحتا تشعان كحبات الزيتون الاسود المندى ، تمثّل لداريا كيف جلس الجنود الحمر على سروجهم

وتضفى على حركاتها المنتظمة مسحة من التهتك دون ان تشعر بها .

فراح حاجبا داريا المزججان يرتعشان وهى تغصّ بضحكاتها العصبية وتشهق شهيقاً أبح .

— اخشى ان يثقبوا سراويلهم . ويسمون انفسهم خيالة . . !

وحتى بيوتر ، الذى دخل المطبخ مهموماً سرى اليه مرحهن لحظة فقال :

— انه لمشهد غريب ان يراهم المرء راكبين على هذه الشاكلة. ولكن ذلك لا يضيرهم ، فان هم قصموا ظهر جواد حصلوا على واحد آخر ! يا للفلاحين ! لعلهم لم يروا الخيل فى حياتهم الا مرة واحدة ! كان اباؤهم يخافون من صرير عجلات العربات ، اما هؤلاء فيمتطون صهوات الجياد . . . غريب امرهم ! . .

ثم لوح بيده بحركة تنم عن ازدراء لا يوصف .

وراح جنود الجيش الاحمر يتدفقون من الشوارع ، وتوزعوا جماعات دخلت الافنية . وقد عرج ثلاثة منهم الى بوابة انيكوشكا ، ونزل خمسة آخرون فى كوخ استاخوف ، كان احدهم يمتطى جواداً ، وتوجه الخمسة الباقون الى بيت ميليخوف بمحاذاة السياج . دخلوا البوابة يتقدمهم كهل مكتنز الجسم حليق الوجه ذو انف افطس واسع المنخرين ، بادى اليقظة والنشاط ، والظاهر انه كان محارباً قديماً . وتوقف عند الدرجات برهة يراقب الكلب الذى طفق ينبح ، وهو يكاد يختنق بقيده ، ثم انزل بندقيته من على كتفه . فانهال على دوى الاطلاقة ضباب ابيض من الثلج الذى تساقط من سقف المنزل . وكان غريغورى يشهد ذلك من الشباك فجعل يجر ياقة قميصه الضيقة وهو يرى الكلب يتلوى على الثلج الملطخ بالدماء ويعض جنبه الجريح وقيده الحديدى وهو يعانى سكرات الموت ، واذ التفت وقع نظره على وجوه النسوة وقد ابيضت من الشحوب ،

وعلى عينى امه الفزعتين . فخطا شطر الباب دون ان يرتدى قبعته . فصاح ابوه وراءه بصوت غريب :

— قف !

واذ فتح غريغورى الباب الامامى ، سقطت على العتبة خروطوشة فارغة فاحدثت رنيناً معدنياً . ودخل الجنود الحمر الآخرون من خلال البوابة ، فسأل غريغورى من على العتبة :

— علام اطلقت النار على الكلب ؟ هل كان يؤذيك ؟

كان منخرا الجندى الاحمر الواسعان يجران انفاساً ثقيلة ، وقد تهدلت زاويتا شفتيه الرقيقتين ، فالتفت وجعل بندقيته فى وضع التهيؤ لاطلاق النار . وقال :

— ما شأنك فى ذلك ؟ آآسف انت ؟ سأضع فيك رصاصة دون ان آسف لذلك . اتود ان افعل ذلك ؟ قف ازاء السياج !

فتقدم رجل من الحرس الاحمر طويل القامة ، احمر الشعر وقال ضاحكاً :

— كفى ، كفى ! دعك من هذا ، يا الكساندر . اسعدت عصراً ، ايها السيد ! هل رأيت حمراً من قبل ؟ اننا نريد مأوى . هل رمى كلبك بالرصاص ؟ لم يكن هناك داع لذلك ابداً ! ايها الرفاق ، ادخلوا !

كان غريغورى آخر من دخل الدار ، فألفى رجال الجيش الاحمر يحيون اهل البيت بانشراح ، وينزلون حقائبهم وينزعون احزمة العتاد الجلدية اليابانية ، ويلقون معاطفهم ، وسترهم المحشوة بالقطن ، وقبعاتهم على السرير . فامتلأ المطبخ للحال برائحة الجنود الكحولية الحامضة والعرق ، والتبغ ، والصابون الرخيص ، وشحم البنادق ، ووعثاء السفر .

جلس الرجل المدعو الكساندر عند المائدة ، واشعل سيكارة ،

ثم سأل غريغورى ، وكأنه يستأنف حديثه :

— هل كنت مع البيض ؟

— اجل . . .

— هكذا . . . بوسعى ان اميز اليوم فى الحال من طيرانها ، اما انت فمن مخاط انفك . ابيض ! وأحسبك ضابطاً كذلك ؟ ضابط بشارات كتف ذهبية ؟

وارسل الدخان خلل منخريه على هيئة عمودين ، والتفت بعينيه العدائيتين العابستين الى غريغورى الذى كان واقفاً عند الباب ، ثم نفض سيكارته بظفر مقوس ملطخ بالتبغ واردف :

— كنت ضابطاً ، أليس كذلك ؟ هيا اعترف ! بوسعى ان اعرف ذلك من الطريقة التى تشد بها قامتك . لقد كنت فى الحرب الألمانية ، أنا ايضاً .

فحمل غريغورى نفسه على الابتسام واجاب : «اجل ، كنت ضابطاً» . واذ التقت عيناه بعينى ناتاليا الهلعتين المتوسلتين وقد سمرتهما عليه ، وعبس وارتعش حاجباه ، وهو يشعر بالغيظ من ابتسامته تلك .

— اسفاً ! اذاً لم يكن الكلب هو الذى ينبغى ان أرميه بالرصاص ! . .

ومن جديد احس غريغورى بشفتيه تلتويان ، بالرغم عنه ، فى ابتسامة مستغفرة مسترحمة ، فاحمر وجهه خزياً من بوادر تخاذله الذى لم يقو على كبحه . وجعلت هذه الفكرة تلهب أفكاره : «ما اشبهنى بكلب مذنب امام سيده !» وتمثل لعينيه برهة الكلب المقتول يوم كان يدنو منه ، وهو سيده ، فتلتوى شفتاه ويهتز ذيله الزنجيلى الكث فيما ينبطح على ظهره .

وبالنبرة الغريبة نفسها سأل بانتلاى بروكوفتش ضيوفه ما اذا

كانوا يريدون بعض العشاء ، قائلاً انه سيأمر ربة البيت ان . . .

ومضت ايلينشنا صوب الموقد دون ان تنتظر الجواب . وقد ارتجف السفود فى يدها ، وهى لا تكاد تستطيع ان ترفع به قدر حساء الكرنب المخلل من الفرن . واعدت داريا المائدة منكسة العينين ، فجلس الجنود الحمر دون ان يرسموا اشارة الصليب على انفسهم . فراح الشيخ يراقبهم بوجل ونفور خفى . واخيراً لم يعد يستطيع كبح جماح نفسه ، فرأى من واجبه ان يسألهم :

— اذاً فأنتم لا تصلون لله ؟

فلاح على شفتى الكساندر ظل ابتسامة طفيف ، واجاب وسط عاصفة من قهقهات زملائه :

— لا انصحك بالصلاة ، أنت ايضاً ، ايها الشيخ ! لقد طردنا آلهتنا منذ زمن بعيد الى . . . — ثم تلعثم واردف : — ليس ثمة آلهة ، ولكن الحمقى لا يصدقون ذلك فيمضون فى صلاتهم لهذه القطع من الخشب .

فأسرع بانتلاى بروكوفتش يؤيده بخوف :

— اجل ، اجل . . . ان للمثقفين بطيعة الحال . . .

وكانت داريا قد وضعت لكل رجل ملعقة ، بيد ان الكساندر دفع ملعقته جانباً وقال :

— أليست عندكم ملاعق أخرى غير خشبية ، لسنا نريد ان نصاب بالمرض . اتسمون هذه ملعقة ؟ انها قطعة خشب لا غير . . .

فغضبت داريا وصاحت :

— عليك ان تحمل ملعقتك معك ان كانت ملاعقنا لا تروق لك .

— اسكتي يا شابة ! أليس لديكم غيرها ؟ اذن اعطينى منشفة نظيفة امسح بها هذه الملعقة .

وجاءت ايلينشنا بالحساء الى المائدة فى اناء كبير ، فطلب اليها قائلاً :

— ذوقيه أنت اولاً ، يا أم .

فسألته العجوز فزعة :

— لماذا اذوقه ؟ اتظنه مالحاً اكثر من اللازم ؟

— ذوقيه كما امرتك ، ذوقيه . ربما وضعت فيه لضيوفك مسحوقاً ما . . .

فأمرها بانتلاى بروكوفتش بصرامة : «تناولى منه ملعقة ، هيا !» وما عتم ان اطبق شفتيه . ثم جاء بآلات اسكاف وقرمة لشجرة حور كان يستعمله مقعداً حين يرقع الاحذية ، فدفعه الى النافذة وجلس يحتضن جزمة عتيقة . ولم يعد يسهم فى الحديث .

اما بيوتر فقد لبث فى غرفة الاستقبال . وقد ذهبت ناتاليا هناك هى الأخرى فجلست مع الطفلين . ولبثت دونيا جالسة تنسج جورباً وقد اتكأت على الموقد ، ولكنها غادرت المكان حين خاطبها احد الجنود الحمر بـ«سيدتى الشابة» ودعاها للعشاء معهم . ثم تلاشى الحديث . وبعد ان تناول الضيوف طعامهم اشعلوا السكائر ، وقال ذو الشعر الأحمر :

— هل التدخين مسموح عندكم ؟

فوافقت ايلينشنا على مضض :

— يوجد هنا الكفاية من المدخنين .

ورفض غريغورى السيكارة التى قدموها اليه . كان داخله كله يرتجف ، وقد اعتصر قلبه مرأى الرجل الذى قتل الكلب ، وراح يبدى ازاءه ذلك الموقف المتحدى الوقح . ولا ريب ان الرجل كان يبحث عن المتاعب ، فراح يحاول طوال الوقت ان يجر غريغورى الى الحديث . فسأله :

— فى اى كتيبة خدمت ، يا صاحب السعادة ؟

— فى العديد منها .

— كم من زملائنا قتلت ؟

— ليس ثمة حساب فى الحروب . لا حاجة بك الى الظن بأننى ولدت ضابطاً ، يارفيق . حصلت على الرتبة اثناء الحرب الالمانية . منحوها لى لقاء خدماتى . . .

— لست رفيقاً للضباط . اننا نوقف امثالك ازاء الحائط ونرميهم . انا نفسى صوبت بندقيتى الى اكثر من واحد .

— ما اود قوله ، يارفيق هو : لا يحسن ان تسلك هذا السلوك ، تتصرف وكأنكم استوليتم على القرية عنوة . لقد تركنا الجبهة بأنفسنا ، وافسحنا لكم الطريق ، ولكنكم جئتم الى هنا كمن يدخل بلداً مدحوراً . بوسع اى انسان ان يرمى كلباً بالرصاص ، وليس فخراً ان تقتلوا أناساً عزلاً او توجهوا الاهانات اليهم . . .

— لا تثر علي بما يجب ان افعله ! اننا نعرفكم جيداً . . . «تركنا الجبهة» ! لو لم ندحركم لما تركتموها . وبوسعى ان اكلمك كما يحلو لى .

فأمره الرجل ذو الشعر الاحمر قائلاً :

— اخرس ، يا الكساندر ! سمعنا من صوتك ما فيه الكفاية !

الا ان الكساندر تقدم من غريغورى ، وقد اتسع منخراه وتلاحقت انفاسه :

— خير لك الا تثيرنى ، ايها الضابط ، والا فالويل لك !

— أنا لا اثيرك .

— اجل ، أنت تثيرنى !

ففتحت ناتاليا باب الغرفة الامامية ونادته بصوت مرتعش . فدار حول الرجل الواقف امامه ، وترنح فى مدخل الغرفة كالسكران ،

فاستقبله بيوتر بهمس عدائى متوجع :

— ما هذا العبث ؟ الشيطان وحده يعلم لماذا رددت عليه ! ستجلب الويل على نفسك وعلينا ! اجلس !

فدفع غريغورى الى احد الصناديق واجلسه عنوة ثم ذهب الى المطبخ . وجلس غريغورى يلهث بشهقات كبيرة وتلاشى الاحمرار الشديد من خديه ، والتمعت عيناه بوهن .

فتوسلت ناتاليا اليه وهى ترتجف واضعة ثديها على فمي الطفلين اللذين اوشكا ان يصرخا :

— غريغورى ! ياروح قلبى ! دعهم وشأنهم !

فقال غريغورى ، وهو ينظر الى ناتاليا بقنوط :

— لِمَ لم ارحل ؟ لا داعى للقلق ، لن افعل ذلك . ولكن اسكتي ! لا استطيع احتمال المزيد .

وبعدها جاء ثلاثة جنود آخرون من الجيش الاحمر . وقال احدهم ، وكان يرتدى قبعة عالية من الفرو الاسود ، والظاهر انه الآمر :

— ما عدد النازلين هنا ؟

فأجابه الرجل ذو الشعر الاحمر عن الجميع ، وهو يعالج العزف على اوكورديونه :

— سبعة رجال .

— سنضع نقطة رشاشات هنا . عليكم ان تفسحوا لهم المجال .

وخرج الرجال الثلاثة . ثم ما لبثت البوابة ان صرت ودخلت الفناء عربتان . وسحب رشاش الى سقيفة البـــاب . وأشعل احدهم عود ثقاب وشتم فى الظلمة بحنق . وراح رجال المدفع الرشاش يدخنون تحت سقف المخزن ، ثم انزلوا بعض القش ،

واوقدوا فى ساحة درس الحبوب ناراً . ولكن احداً لم يخرج اليهم من اصحاب البيت .

وهمست ايلينشنا وهى تمر قرب بانتلاى بروكوفتش : «ينبغى ان نذهب للعناية بالخيل» . ولكنه اكتفى بهز كتفيه دون ان تبدر منه محاولة للقيام . وظلت الابواب تصطفق طوال الليل . وعلق تحت السقف بخار ابيض وتقطر على الجدران كالندى . وقد افترش رجال الجيش الاحمر قاع الغرفة الامامية . وجاء غريغورى ببعض البسط وفتحها لهم ثم وضع فروته ليتوسدوها .

— كنت فى الجيش كذلك ، فأنا اعرف الحالة ، — قال غريغورى ذلك وهو يبتسم ابتسامة صلح للرجل الذى اعتبره عدواً . الا ان منخرى الكساندر العريضين اتسعا وراحت عيناه ترقبان غريغورى دون رغبة فى المصالحة .

رقد غريغورى وناتاليا فى الغرفة نفسها . ووضع رجال الجيش الاحمر بنادقهم عند رؤوسهم واحتشدوا على البسط . وكانت ناتاليا على وشك ان تطفئ المصباح ، ولكن سؤالاً زاجراً ما لبث ان حال دون ذلك :

— من طلب اليك ان تطفئي المصباح ؟ اياك ان تطفئي الضوء ! اخفضى الفتيلة ، ودعيها تشتعل طوال الليل .

وارقدت ناتاليا الطفلين عند قدميها ، وتمددت ازاء الجدار دون ان تخلع ملابسها . وتمدد غريغورى بجانبها بصمت ويداه تحت رأسه .

وراح يقول فى سره ، وهو يصر بأسنانه :

— لو كنت قد رحلت ، لو كنت قد ذهبت لافترشوا ناتاليا على هذا السرير وقضوا معها وطرهم ، كما فعل الرجال بفرانيا فى بولندا .

وشرع احد رجال الحرس الأحمر يروى قصة ، لكن صوتاً مألوفاً انطلق فى العتمة يقاطعه بتحد :

— آه ، ما اشقى الحياة بلا نساء ؟ الا ان رب البيت ضابط ! ولن يتنازل عن زوجته لنا معشر الجنود البسطاء ذوى الأنوف القذرة . . . اتسمع ايها السيد ؟ . .

كان احد الرجال يشخر ، واطلق آخر ضحكة ناعسة . ولكن الرجل ذا الشعر الأحمر قطع عليه الكلام بصوته المتوعد :

— كفى ، يا الكساندر ، لقد نصحتك ما فيه الكفاية ، ففى كل مأوى يحدث الشىء ذاته ، تثير المتاعب ، وتسلك سلوك الشقاة . فتجلب العار الى اسم مقاتل الجيش الاحمر . لم اعد احتمل ! انى ذاهب الى القوميسار او الى آمر السرية فى الحال . وسيكون لديه ما يقوله لك !

فخيم عليهم صمت كصمت المقابر لا يقطعه الا صوت الرجل ذى الشعر الاحمر وهو يقبع غضباً فيما كان يرتدى جزمته . وبعد قليل غادر الغرفة صافقاً الباب وراءه .

ولم تقو ناتاليا على ضبط نفسها اكثر من ذلك فانفجرت تنشج بصوت مسموع . فراح غريغورى يمسد بيد راجفة رأسها ، وجبينها الندى ، ووجهها المخضل بالدموع فيما كانت يده الأخرى تفك ازرار قميصه وتشدها من جديد بحركة لا ارادية .

وهمس لها بصوت لا يكاد يسمع : «اهدأى ، اهدأى !» كان فى تلك اللحظة يعلم علم اليقين انه على استعداد لتقبل اية محنة او مذلة لينقذ حياته وحياة اعزائه .

واشعل احدهم عود ثقاب فكشف الضوء عن الكساندر وفمه وانفه الافطس ، وهو جالس يجر نفساً من سيكارة . ودمدم بصوت خافت وشرع يرتدى ملابسه . فأجهد غريغورى اذنيه ، وقد تملكه امتنان

لا حد له للرجل ذى الشعر الاحمر ، واعترته رعشة البهجة حين سمع وقع خطوات تحت النافذة وصوتاً ساخطاً يقول :

— وهو طوال الوقت يحاول اثارة المشاكل . . . ايها الرفيق القوميسار .

وتعالى وقع الخطوات فى السقيفة وصر الباب ثم فتح ، واصدر احدهم امراً بنبرة فتية :

— الكساندر تورنيكوف ، ارتدِ ملابسك واخرج على الفور . ستمضى الليل فى كوخى ، وفى الصباح سنحاكمك لسلوكك الذى لا يليق بجندى من الجيش الأحمر .

والتقت عينا غريغورى بنظرة ثاقبة طيبة تنبعث من عينى رجل يرتدى سترة قصيرة سوداء من الجلد واقف بجانب الرجل ذى الشعر الاحمر . كان بادى الفتوة والعنفوان وقد انطبقت شفتاه بصرامة اكثر قليلاً مما ينبغى . فقال غريغورى وهو يبتسم ابتسامة طفيفة :

— اذا ، فقد كان عندك ضيف مشاكس ، ايها الرفيق ؟

— حسناً ، يمكنكم الآن ان تناموا وسوف نلقنه درساً غداً . طاب مساؤكم ، هيا ، ياتورنيكوف !

ثم خرجوا ، فتنفس غريغورى الصعداء . وفى الصباح ، حين سدد الرجل ذو الشعر الاحمر اجرة مبيت الليلة والمؤونة تخلف عن الآخرين عامداً وقال :

— حسناً ، يا سادة ، لا تغضبوا منا . ان الكساندر ، صاحبنا ذاك ، كأنه مصاب فى عقله بعض الشىء . ففى العام الماضى قام بعض الضباط البيض فى لوغانسك (وهى مدينته) باعدام امه واخته بالرصاص امام عينيه . وهذا سبب حالته هذه . حسناً ، شكراً لكم . وداعاً ، اوه ، كدت انسى الطفلين ! . .

واخرج من حقيبته قطعتين رماديتين متسختين من السكر دسهما

فى يديهما ، فسر الطفلان ايما سرور .

وحدق بانتلاى بروكوفتش بحفيديه ، ثم هتف وقد تأثر تأثراً عميقاً :

— يا لها من هدية ! لم نرَ سكراً طيلة ثمانية عشر شهراً او يزيد . الله معك ، ايها الرفيق . انحنيا للرجل ايها الطفلان ! اشكريه يابوليا ! وأنتِ ياميلوشكا ، فيم وقوفك كالبكماء ، يا حبيبتى ؟

ثم خرج الجندى الأحمر ، فالتفت الشيخ صوب ناتاليا غاضباً :

— الا تعرفين حسن التصرف ؟ كان عليك ان تعطيه كعكة لرحلته . علينا ان نردّ معروف الرجل الطيب بمعروف .

وأمرها غريغورى قائلاً :

— اركضي وراءه !

فألقت ناتاليا شالها على رأسها وجرت فأدركته عند البوابة الصغيرة ودست الكعكة فى جيب معطفه الواسع وقد احمر وجهها ارتباكاً . .

١٧

عند الظهيرة مرت بالقرية كتيبة فرسان حمر مسرعة ، فأخذت معها الخيل العسكرية العائدة لبعض القوزاق . وكان دوى المدافع يتناهى الى الاسماع من وراء التل .

فاستنتج بانتلاى بروكوفتش قائلاً :

— لا بد ان هناك قتالاً على نهر التشير .

وفى المساء ، خرج بيوتر وغريغورى الى الفناء اكثر من مرة . كان بوسعهما ان يسمعا هدير مدافع الميدان ، وحين كانا يضعان

اذنيهما على الارض المتجمدة كانت تبلغ اسماعهما ثرثرة رشاشات خافتة تكاد لا تميز ، من موضع ما بعيد عن الدون .

فقال بيوتر ، وهو ينهض نافضاً الثلج عن ركبتيه وقبعته :

— انهم يخوضون معركة حامية !

ثم اضاف دونما مناسبة :

— سيأخذون حصانينا ، ان حصانك جيد ، ياغريغورى ، سيأخذونه حتماً .

وحين ذهب غريغورى عند حلول المساء الى الاسطبل ليخرج بالحصانين الى النهر ليوردهما ، وجد انهما يظلعان على قادمتيهما . فذهب يستدعى اخاه ، وقال له :

— اصيب جوادانا بأذى ، جوادك فى قادمته اليمنى وجوادى فى اليسرى . ولكن ليس هناك اثر للجروح .

كان الحصانان واقفين دون حراك على الثلج ذى الظلال الارجوانية ، تحت انجم المساء الخابية . فأشعل بيوتر فانوساً ، غير ان اباه خرج من ساحة درس الحبوب واستوقفه :

— ما حاجتك بالفانوس ؟

— الجوادان يظلعان ، يا ابتي .

— وهل فى هذا ما يدعو للأسف ؟ ام انك تريد ان يأتى فلاح فيسرجهما ، ويمضى بهما ؟

— هذا صحيح ، ولكن . . .

— انا الذى فعلت ذلك . قل لغريشا اننى اخذت مطرقة وادخلت مساراً فى ساقيهما تحت الغضروف ، وسيظلان يظلعان حتى يذهب الحمر .

فهز بيوتر رأسه وراح يعض على شاربيه ، لكن علاج العجوز انقذ الحصانين . ففى تلك الليلة ضجت القرية بالجند ثانية ،

فراح الفرسان يذهبون فى الشوارع ، وسيقت البطاريات لتصف فى الساحة . فقد باتت كتيبة الخيالة الثالثة عشرة ليلتها فى القرية . وجاء خريستونيا الى بيت ميليخوف ، فجلس القرفصاء وأشعل سيكارة وسأل :

— الم ينزل فى بيتكم اى من الشياطين ؟

فدمدمت ايلينشنا برمة :

— لقد نجانا الله حتى الآن . كان البعض منهم عندنا ، فامتلأ الكوخ بجيفتهم الفلاحية .

فانخفض صوت خريستونيا حتى غدا همساً وقال : «لقد جاءوا لزيارتى» . ثم مسح براحته الضخمة دمعة صغيرة من عينيه . بيد انه هز رأسه الكبير ، وتأوه ، وبدا عليه الخجل من دموعه .

ولأول مرة فى حياة بيوتر رأى خريستونيا يبكى فسأله ضاحكاً :

— ماذا ، يا خريستونيا ، ما بالك ؟

— اخذوا حصانى . . . لقد خضت الحرب الالمانية على ظهره . وقاسينا المحن سوية . . . كان اشبه بالانسان وله من العقل ما يفوق البشر . لقد قال لى الرجل : «اسرجه انت فلست اقدر عليه» . فقلت له : «آه ، الا تستطيع ؟ هل ينبغى ان اسرجه لك طوال حياتى ؟ اسرجه انت اذا اردت ان تأخذه . وقد فعل ، ذلك النغل الصغير . كان قزماً صغيراً لا يكاد يبلغ خاصرتى . وحين قاد الحصان الى البوابة جعلت ابكى كالأطفال . وقلت لزوجتى : «كم اعتنيت بذلك الحصان واطعمته وسقيته ، وها هو . . .» واستحالت كلمات خريستونيا همسات متلاحقة كالصفير فيما كان ينهى حديثه : «بت اتوجس خيفة من النظر الى الاسطبل الخاوى والفناء الذى يعمه صمت المقابر . . .»

ارهف غريغورى اذنيه ، فاستطاع ان يسمع خارج النافذة

خشخشة الثلج ، وقعقعة السيوف ، وصوت رجل يصيح : هوه ! . .

فجعل بانتلاى بروكوفتش يحرك يديه ، دون ان يعرف ماذا يفعل بهما ، وقال : «انهم قادمون الى هنا . لعل احداً أخبرهم ان . . .

وجاء صوت يصيح :

— يا رب البيت ! يا هذا ، اخرج الى هنا !

فألقى بيوتر فروته على كتفيه وخرج . فأمره رجل يتقدم فارسين آخرين قائلاً :

— اين خيلكم ؟ اخرجها !

— لا مانع لدى ، ولكنها تظلع ، ايها الرفاق .

— اين تظلع ؟ ما عليك الا ان تخرجها ! لا تخف ، لن نأخذها دون مقابل . ستترك لكم خيلنا نحن .

فقاد بيوتر الحصانين واحداً بعد الآخر . فقال احد الرجال وهو يدير الفانوس الى داخل الاسطبل :

— هناك فرس أخرى فى الداخل . لِمَ لم تخرجها ؟

— انها فرس حامل . وهى هرمة ، عمرها مائة عام .

وصرخ الرجل الذى بيده الفانوس غاضباً :

— هيه ، انت ، هات السروج . مهلاً ، لقد صدقت انهما يظلعان ؟ بحق المسيح ، الى اين تقود هذين الجوادين الكسيحين ؟ اعدهما !

فجر بيوتر الرسن ، واشاح بوجهه عن الضوء لكى يخفى شفتيه المتغضنتين .

— أين هى السروج ؟

— أخذها الرفاق صباح هذا اليوم .

— كذبت ، أيها القوزاقى ! من أخذها ؟

— بحق الله . . . لعنة الله على الكاذب ، لقد أخذوها .

مرت بالقرية كتيبة خيالة فأخذوها : السرجين وطوقين معهما .

مضى الخيالة الثلاثة وهم يشتمون . ودخل بيوتر الدار تنبعث منه رائحة عرق الخيل وبولها . وكانت شفتاه الصارمتان ترتعشان وهو يضرب على كتف خريستونيا ويقول مباهياً :

— هكذا تُدبر الأمور . قلنا لهم ان جوادينا يظلعان ، وانهم أخذوا السروج . . . آه ، يا لك من أبله !

وأطفأت ايلينشنا المصباح ومضت فى العتمة لتعد الأفرشة . وقالت :

— سنجلس فى الظلمة ، والا قد يزورنا بعض الثقلاء .

* * *

وفى تلك الليلة أقام أنيكوشكا حفلة أنس فى داره . فقد طلب اليه رجال الحرس الأحمر الذين نزلوا عنده أن يدعو اليها جيرانه القوزاق للشراب . فجاء أنيكوشكا ليدعو آل ميليخوف ، وراح يجادلهم :

— تقولون انهم حمر ؟ حسناً ، وماذا لو أنهم حمر ؟ لقد تعمدوا فى الكنيسة ، أليس كذلك ؟ انهم روس مثلنا ، انى والله أرثى لحالهم ، سواء صدقتم قولى أم لا . هناك يهودى بينهم ، ولكنه انسان كذلك . لقد ذبحنا من اليهود فى بولندا عدداً كبيرا ، ولكن هذا قدم الىّ كأسا من الفودكا . أنا أحب اليهود . هيا ، يا غريغورى . وأنت يا بيوتر ! لا تنظر الىّ شزراً . . .

فرفض غريغورى ، بادئ الأمر ، أن يذهب ، ولكن أباه نصحه قائلاً :

— اذهب ، والا حسبوا أننا نعتبرهم أقل شأنا منا . لا تضمر حقداً لهم .

وخرج بيوتر وغريغورى بصحبة أنيكوشكا الى الحوش . وكان الليل الدافئ يبشر بجو حسن . كانت فى الهواء رائحة رماد وجل محترق . وتوقف القوزاق الثلاثة صامتين برهة ، ثم مضوا . وعند البوابة أدركتهم داريا ، وكان حاجباها المقوسان المزججان يلتمعان فى ضوء القمر الخابى كالمخمل الأسود .

وغمغم أنيكوشكا قائلاً :

— انهم يسكرون زوجتى ، ولكنهم لن يحصلوا على ما يبتغون ، فلديّ عينان . . . — وكان ثملاً من شرب الفودكا المنزلية . فمضى يترنح صوب السياج ، وتعثر فحاد عن الطريق وغاص فى كومة من الثلج .

كان الثلج الأزرق المحبب يخشخش تحت أقدامهم . وراح الثلج ينهمر مزناً من صفحة السماء الرمادية ، والريح تطير الشرر من سكائرهم وتعفرهم بنثار الثلج ، ثم انقضّت على غيمة متهدلة تحت نجوم السماء العالية كما ينقض الصقر على البجع ، فتطاير منها ثلج كالريش الأبيض وانثال على الأرض المستكينة ، فغطى القرية والسهب ومسالك الانسان والبهائم .

لم يكن فى بيت أنيكوشكا متنفس من هواء . وكانت السنة حادة من السخام تتصاعد من المصباح ، ولم يكن فى وسع المرء أن يرى شيئاً خلل دخان السكائر وكان عازف أوكورديون من الجيش الأحمر قد مد ساقيه الطويلتين أمامه وراح يعمل منفاخ آلته بحمية . وجلس جنود حمر على المصاطب بصحبة نسوة من جيران أنيكوشكا . وكان يداعب زوجة أنيكوشكا رجل ضخم الجرم يرتدى سروالاً محشواً من الخاكى ، وجزمة قصيرة تنوء بمهمازين كبيرين كأنه جاء بهما

من المتحف . وقد دفع قبعته المصنوعة من فرو الحمل الناعم الى مؤخرة رأسه ، والعرق يتصبب من وجهه الأسمر . وراحت يده العرقة تلهب ظهر المرأة . وكانت الخمرة قد لعبت برأسها فلم تقو على الابتعاد عنه رغم أنها كانت ترغب فى ذلك . أدركت ما تعنيه نظرة زوجها وابتسامات النسوة الأخريات . بيد أنها لم تعد تقوى على ابعاد الذراع القوية عن ظهرها ، فلبثت تضحك ضحكات ثملة واهنة .

كانت الاباريق مفتوحة على المائدة ، فملأت رائحة الخمر الكوخ وأمسى غطاء المائدة خرقة قذرة .

وقد توسط الغرفة آمر رعيل خيالة يرتدى سروال فرسان ضيقاً وجزمة بلون صبغة الكروم الصفراء وراح يرقص ويتلوى كشيطان أخضر. وتفرس غريغورى فى السروال والجزمة من عتبة الغرفة وقال فى دخيلته : «لا بد أنه سلبها من أحد الضباط !» ثم رفع عينيه الى وجه الرجل : كان أسمر داكن السحنة ، يتصبب عرقاً ، وقد برزت أذناه الكبيرتان المستديرتان ، وبدت شفتاه الغليظتان متهدلتين . فقال غريغورى فى نفسه : «انه يهودى ، ولكنه رشيق الحركات» . ثم صبوا له ولبيوتر شيئاً من الفودكا المنزلية . فراح غريغورى يشرب بحذر ، بيد أن الخمرة سرعان ما لعبت برأس بيوتر . وما ان انقضت ساعة حتى راح يرقص رقصة قوزاقية على الأرض الترابية ، مثيراً بكعبيه الغبار ، صارخاً بصوت مبحوح الى عازف الأوكورديون أن يسرع فى العزف . وجلس غريغورى عند المائدة ، يقشر بذور القرع . وكان يجلس الى جانبه حامل رشاشة من أهالى سيبيريا . فقال لغريغورى :

— لقد سحقنا كولتشاك ، وسنعالج الآن أمر صاحبكم كراسنوف بما يستحق ، وسيكون فى هذا خاتمة المطاف ! وعند

ذلك تستطيعون أن تعودوا الى زراعتكم ، لتحرثوا الأرض ، وتبذروها ، وتجعلوها تلد . فالأرض كالمرأة ، انها لا تستجيب لك من تلقاء نفسها ، بل عليك ان تنتزع منها ما يروق لك . واقتل كل من يعترض سبيلك ! نحن لا نريد شيئاً مما تملكون . غاية مرادنا أن نساوى بين الجميع . . .

فوافقه غريغورى الرأى ، بيد أنه كان طوال الوقت يتأمل الجنود الحمر خلسة . ولم يلمح فى الجو ما يدعوه للقلق . كان الجميع ينظرون الى بيوتر ، ويبتسمون استحساناً للمهارة التى يبديها فى رقصه .

وهتف رجل بنبرة صاحية جذلى : «انظروا الى هذا الشيطان ! أحسنت !» ولكن غريغورى لاحظ بالصدفة أن عينى جندى أحمر أجعد الشعر قد سمرتا فيه باهتمام ، فلزم الحذر وكف عن الشراب .

وشرع عازف الاوكورديون يعزف ألحان رقصة البولكا ، فدعا الجنود الحمر نساء القوزاق للرقص . وطلب أحدهم ، وهو يترنح ثملاً ، من زوجة شابة ، من جيران خريستونيا ، أن تراقصه ، ولكنها رفضت ، ثم التقطت تنورتها وجرت عبر الغرفة الى غريغورى . وقالت له :

— تعال ارقص معى .

— لا أريد .

— هيا ، يا غريغورى ، يا زهرتى الذهبية !

— دعينى وشأنى ! لا أريد !

فجرته من كمه ، وهى تتصنع الضحك . فعبس ومانع ، بيد أنه أذعن اذ لمح غمزتها اليه . وبعد بضع دورات استغلت وقفة فى الرقص فوضعت رأسها على كتف غريغورى وهمست اليه بصوت لا يكاد يسمع :

— انهم يعدون العدة لقتلك . . . فقد أخبرهم أحد الناس

أنك ضابط . . . أخرج من هنا . . .»

ثم أضافت بصوت مرتفع :

— أوه ، ان رأسى يدور .

فخطا غريغورى عبر الغرفة الى المائدة بمرح مفاجئ وشرب قدحاً من الفودكا . ثم استدار يسأل داريا :

— هل بيوتر سكران ؟

— تقريباً .

— خذيه الى البيت !

فقادت داريا بيوتر الى خارج الغرفة وهى تقاوم دفعاته وعثراته بقوة كقوة الرجال . فتبعهما غريغورى .

فهرع أنيكوشكا وراء غريغورى قائلاً : «هيه ، الى أين أنتم ذاهبون ؟ كلا ، لا تذهبوا !» بيد أن غريغورى حدجه بنظرة جعلت أنيكوشكا ينشر ذراعيه ويمضى مترنحاً .

وحين بلغ غريغورى عتبة الباب لوح بقبعته وغمغم قائلاً :

— شكراً لدعوتك !

فسوى جندى الحرس الأحمر ذو الشعر الاجعد وضع حزامه ولحق غريغورى . وعند درجات العتبة همس الرجل وهو ينفث أنفاسه فى وجه غريغورى وعيناه الجريئتان تتقادحان :

— الى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه غريغورى دون أن يتوقف : «الى البيت» وجعل يجر الرجل وراءه . وقال فى سريرته وقد أخذته لجة من الحبور : «لن تظفر بى حياً» .

فراح جندى الحرس الاحمر يتنفس بشدة ، ثم أمسك غريغورى بيسراه برفق ، وسار الى جانبه . وتوقفا عند البوابة . ثم سمع غريغورى الباب يصر من ورائهما . وفى تلك اللحظة أحس بيد الجندى الاحمر

تتلمس خاصرته وسمع اظافر يده تخمش قراب مسدسه . ولمح غريغورى عينى الرجل الفولاذيتين مسمرتين فى وجهه . فاستدار وأمسك باليد التى كانت تجر غطاء القراب ، فأمسك بها من المعصم ، ونل ذراع الرجل عبر كتفه بقوة مريعة ، ثم انحنى وألقى جسد الرجل الثقيل على ظهره وجر اليد الى أسفل بكل ما عهد فيه من مهارة ، فسمع صوت طقطقة المرفق . فهوى الرأس الأشقر الأجعد الى أسفل وغاص فى كومة من الثلج .

وجرى غريغورى فى طريق جانبى نحو الدون منحنياً وراء الأسيجة وراح يعدو قفزاً ، ميمماً شطر النقطة التى يهبط عندها الطريق الى الضفة . وظلت هذه الفكرة تساوره : «لئن لم تصادفنى نقطة أمامية هناك فسوف . . .» ثم توقف برهة . كان فناء بيت أنيكوشكا ينبسط من ورائه . وسمع طلقة . فمرقت الرصاصة تصفر بقربه بشراسة . ثم تتابعت الطلقات ، فقرر فى نفسه : «تحت التل ، عبر الدون» وحين بلغ منتصف النهر أزت بقربه رصاصة ثم دفنت نفسها فى الجليد ، مثيرة الشظايا البلورية وهى تلذع عنق غريغورى . وحين بلغ الجهة الثانية من النهر التفت وراءه . كانت الطلقات ما تزال تفرقع مثل سوط راعى الخيل . ولكن النجاة لم تبعث فى نفسه حرارة الفرح ، بل كان يقبضه شعور بعدم الاكتراث لما مر به من أحداث . واذ توقف ثانية قال فى سريرته دونما اهتمام : «كأنهم كانوا يطاردون حيواناً . . . لن يفتشوا عنى ، سيخافون دخول الغابة . لقد أصبت ذراعه بشىء يتذكرنى به . يا للوغد ، يظن أن بوسعه النيل من قوزاقى بلا سلاح» .

واتخذ طريقه الى أكداس القش الشتوية ولكنه تحول عنها فخلفت قدماه آثاراً متعرجة متشابكة كآثار الأرنب . وعقد العزم على أن يبيت ليلته فى كدس مهجور من البردى اليابس ، فشرع يحفر

فى قمة الكدس ، فانسل نمس من بين قدميه . واحتفر غاراً ودفن نفسه حتى الرأس فى البردى العفن ، فاستكان وهو يرتجف . كان ذهنه خلواً من أية خطة أو فكرة . على أن شيئاً أشبه بالخاطرة مر بذهنه : «هل أسرج الحصان غداً وأجتاز جبهة القتال نحو جماعتى ؟» بيد أنه لم يستطع أن يجد جواباً فرقد بهدوء .

وقبيل الفجر اعترته رجفة باردة ، فأطل بعينيه : كان ضوء الصباح الباكر يترجرج من فوقه على نحو بهيج ، وخيل لعينه لحظة أنه يرى قعر هوة السماء السوداء الزرقاء ، شأن ضفاف الدون الضحلة ، وكان لازورد الصبح الباكر المضبب بادياً فى سمت الأوج يحف به نثار من أنجم خابية .

١٨

ابتعدت جبهة القتال عن قرية تتارسكى ، وتلاشى ضجيج الحرب . وفى اليوم السابق لرحيل الجند من القرية نصب حملة الرشاشات من احدى كتائب الخيالة جهاز الغرامفون العائد لموخوف على زحافة عريضة راحوا يهذبون بها خيلهم فى الشوارع جيئة وذهاباً . وجعل الغرامفون يثز ويسعل فيما كانت حوافر الخيل تقذف الثلج فى بوقه الوسيع . وقد تولى أحد حملة الرشاشات وهو يرتدى قبعة سيبيرية ذات غطائين طويلين للاذنين ، تنظيف البوق بهدوء ، وراح يدير ذراع الفونوغراف المنقوشة بكل ثقة وكأنه يعالج مدفعه الرشاش . وتراكض وراءهم صبية القرية كسرب رمادى من العصافير ، وراحوا يتشبثون بالزحافة وهم يصرخون : «ياعمّ ، شغل ذلك الشئ الذى يصفر ! مرة أخرى ، يا عمّ !» وقد جلس صبيان محظوظان جداً على ركبتى حامل الرشاش ، واذ كان يفرغ من ادارة ذراع

الغرامفون ، راح يمسح بأناة وصبر أنف الصبى الاصفر الذى كان مخاطه يتصبب من شدة الصقيع وفرحه .

وبعد ذلك ، حين تلاشت ضوضاء القتال ، ظلت عربات الشحن تتهادى ببطء خلل تتارسكى لتزود الجيش الأحمر فى الجبهة الجنوبية بالمؤن والعتاد .

وفى اليوم الثالث دار رسل من بيت الى بيت ، داعين القوزاق لحضور مجمع القرية . وقال أحد القوزاق لبانتلاى بروكوفتش مازحاً :

— سوف ننتخب أتماناً أحمر !

فتساءل بانتلاى بروكوفتش قائلاً :

— هل سيسمحون لنا بانتخاب أتمان ، أم أنهم سيعينونه بأنفسهم ؟

— سوف نرى ! . .

وذهب غريغورى وبيوتر الى المجمع . وقد حضر القوزاق الشباب برمتهم ، أما الشيوخ فقد تخلفوا عن الحضور ، الا أفديبتش الكذوب الذى لمّ حوله حلقة صغيرة من القوزاق ومضى يقص عليهم كيف أن قوميساراً أحمر قد بات عنده ليلة وطلب اليه قبول منصب هام .

— قال لى : «لم أدر أنك كنت عريفاً فى الجيش السابق ، فمن دواعى سرورى والحالة هذه أن تتبوأ هذا المنصب» .

فنب ميخائيل كوشيفوى ساخراً :

— أى منصب ؟ لا يوجدُ غير منصب واحد يليق بك ، وأنت أدرى به .

فانطلقت أصوات عديدة تؤيده :

— سيوكلون اليك أمر فرس القوميسار ، لتمسح دبرها !

— استمر !

— كاه ، كاه !

— أنت لا تدرى أى منصب« يخبئون لك . . . شغله ذلك القوميسار بالكلام فيما نعم مراسله بدغدغة زوجة أفديبتش العجوز . وانشغل أفديفتش بالانصات حتى نسى أن يمسح المخاط من أنفه . . .

فابتلع أفديبتش ريقه ، وسأل ، وهو يجيل النظر بعينين جاحظتين :

— من قال ذلك ؟

فجاء صوت جرىء من الوراء :

— أنا قلت ذلك !

فقال أفديبتش : «حسنا ، هل رأيتم فى حياتكم ابن عاهرة كهذا !» ثم أجال بصره فيما حوله بحثاً عن التأييد ، فجاءه سيل منه :

— انه ثعبان قذر ، هذا هو رأيى فيه دائماً .

— عائلته برمتها على هذه الشاكلة .

فقال أفديبتش : «لو أننى كنت أصغر سناً . . .» ثم توهجت وجنتاه توهج الاجاص ، وأضاف : «لو كنت أصغر سناً للقنتك درساً أو درسين . ماذا ، انت تتكلم كلام أوكرانى قذر . أنت يا وعاء الشحم ! . .»

— لماذا لا تنقض عليه ، يا أفديبتش ؟ انه مجرد فروج بالنسبة لك .

— أفديبتش عاجز هذه الايام . . .

— يخشى تمزّق سرّته من شدة الضغط .

وانسحب أفديبتش بمهابة وسط رعيد من الأصوات .

وتحلق القوزاق جماعات صغيرة فى ساحة القرية . ولم يكن غريغورى قد رأى صديقه القديم ميشا كوشيفوى منذ التعبئة العامة

فى الربيع ، وحين لمحه ، تقدم منه ، وشد على يده ، وسأله وهو يبتسم وينظر فى عينيه الزرقاوين :

— مرحباً ، يا ميشا ، أين اختفيت ؟ تحت راية من كنت تقاتل ؟

فأجاب ميشا : «أوهوه ! أول الامر كنت أشتغل راعياً للخيل ، ثم جندونى فى سرية تأديبية فى جبهة الكالاش فهربت وعدت الى ديارى لانضم الى الحمر فى الجبهة ، ولكنهم وضعوا على رقابة أشد من رقابة أم لابنتها الجاهلة .. ثم جاءنى قبل أيام ايفان البكسيفتش مرتدياً بزة كاملة وقال : «أعد بندقيتك وهلم !» وكنت قد عدت الى أهلى تواً فسألته : «لعلك لا تقصد الرحيل ؟» فهز كتفيه وقال : «الأتامان أرسل فى طلبى . كنت فى سابق الايام أعمل تحت خدمتهم فى الطاحونة» . ثم ودعنى ومضى . وحسبت أنه رحل بالفعل . ولكن كتيبة حمراء دخلت القرية فى اليوم التالى فاذا به مع رجالها . ثم صاح بصوته عبر الساحة : «هاه ، هوذا ! يا ايفان اليكسيفتش !»

وتقدم ايفان بصحبة دافيد العامل الأجير فى الطاحونة يضحك دافيد واسنانه تلمع مثل اللؤلؤ . فاعتصر وايفان يد غريغورى بأصابعه الصلبة التى تفوح منها رائحة الدهان ، ثم طق لسانه قائلاً :

— كيف حدث أن تخلّفت ، يا غريغورى ؟

— وماذا عنك ؟

— حسناً ، الأمر يختلف بالنسبة لى .

فقال غريغورى :

— أتعنى رتبتى ؟ لقد جازفت بها وبقيت هنا . كدت أن أقتل البارحة ، اذ طاردنى الحمر وشرعوا يطلقون النار علىّ ، وقد تملكنى الأسف لأننى لم أرحل . أما الآن فلست آسفاً لذلك .

— ماذا كان السبب ؟ هل هم من الكتيبة الثالثة عشرة ؟

— نعم . كنت فى بيت أنيكوشكا ، وأخبرهم البعض أننى كنت ضابطاً . ولكنهم لم يمسوا بيوتر بسوء . . . وقد أفلت من قبضتهم بعبور الدون . ولكنى أتلفت يد أحدهم قليلاً . . . ومقابل ذلك ، ذهبوا الى بيتنا وأخذوا كل شىء : السراويل ، والستر ، وكل شىء . ولم يبق لى الا ما علىّ من ملبس .

فقال ايفان اليكسييفتش :

— كان علينا أن ننضم الى الحمر فى أول فرصة . ولو فعلنا ذلك لما بدا علينا هذا السخف .

ثم ابتسم ايفان بمرارة ، وشرع يدخن .

ابتدأ الاجتماع ، فافتتحه الضابط لابتشنكوف من فيشنسكايا ، وكان من رجال فومين :

— أيها الرفاق القوزاق ! لقد رسخت جذور الحكم السوفييتى فى منطقتنا . والآن ينبغى أن نقيم ادارة ، وننتخب لجنة تنفيذية ، ورئيساً ، ونائب رئيس . تلك هى المسألة الأولى . ثم اننى جئت بأمر من سوفييت الاقليم يقضى بتسليم كافة الأسلحة النارية والأسلحة الأخرى .

فقال رجل فى المؤخرة بصوت ملؤه الحقد : «شىء جميل !» ثم خيم صمت طويل .

— لا داعى لتعليق كهذا ، أيها الرفاق . — ثم اعتدل الضابط فى وقفته ووضع قبعته الفرو على المنضدة . وأردف : «من الطبيعى أن الأسلحة يجب أن تسلم ، لأنكم لا تحتاجون اليها فى حياتكم المنزلية اليومية . فاذا شاء أحدكم أن يسهم فى الدفاع عن الحكم السوفييتى فانه سيزود بالسلاح . ينبغى تسليم كافة البنادق خلال ثلاثة ايام . والآن سيجرى الانتخاب . سوف أكلف الرئيس بأخبار

الجميع بهذا الأمر ، ويجب عليه ان يأخذ الختم من الاتامان وكذلك المال .

— هل هم الذين أعطونا أسلحتنا هذه ليتصوروا أن بوسعهم الاستيلاء عليها ؟

ولم ينته القائل من كلامه حتى التفتت اليه كل العيون ، فاذا به زاخار كورولیوف . فقال خريستونيا ببساطة :

— ولماذا تريد الاحتفاظ بها ؟

— لست أريدها . ولكننا حين سمحنا للجيش الاحمر بدخول مقاطعتنا ، لم يكن ثمة اتفاق على أن يقوموا بتجريدنا من السلاح .

— هذا صحيح !

— قال فومين ذلك فى الاجتماع .

— وقد اشترينا سيوفنا بفلوسنا ! . .

— لقد عدت ببندقيتى من الحرب الالمانية ، فهل ينبغى علىّ أن أتخلى عنها ؟

— انهم يريدون سلبنا . ماذا بوسعنا أن نفعل بدون أسلحتنا ؟ اننى بدونها كالمرأة من غير تنورة . . . صأصبح عارياً .

ثم طلب ميشا كوشيفوى أن يصغوا الى صوته ، فقال بوقار :

— دعونى أتكلم ، يا رفاق ! أنا أعجب أن أسمعكم تتكلمون على هذه الشاكلة ! هل هناك حالة حرب فى المنطقة أم لا ؟ فان كانت هناك حرب ، فلا طائل من النقاش حول الأمر . سلموها ! ألم نجعل الأوكرانيين يقومون بالشىء ذاته حين احتللنا قراهم ؟

ومر لابتشنكوف بيده على قبعته الفرو وقال مؤكداً :

— ان كل من لا يسلم أسلحته خلال ثلاثة أيام سيقدم الى محكمة ثورية ويعدم رمياً بالرصاص باعتباره معادياً للثورة .

وبعد برهة من الصمت تنحنح تومیلین ونادی :

— دعونا نشرع بالانتخاب .

فرشحوا نیفاً وعشرة أسماء . وصاح أحد الفتیان : «أفدییتش» ولكن المزحة خابت . وكان اسم ایفان الیكسییفتش أول المرشحین ، فانتخب بالاجماع .

فاقترح بیوتر میلیخوف :

— ان هذا یحسم الأمر ، فلا لزوم لتصویت آخر .

فوافقه القوزاق الرأی فعین میشا كوشیفوی نائباً للرئیس دونما تصویت .

وفیما كان الأخوان میلیخوف وخریستونیا عائدین الی بیوتهم اثر الاجتماع صادفوا أنیكوشكا فی الطریق . وكان یحمل تحت ابطه بندقیته والعتاد ملفوفاً بصدریة زوجته . وقد بدا علیه الحرج حین رأی القوزاق فاختفی فی منعطف جانبی . فنظر بیوتر الی غریغوری ، ونظر غریغوری الی خریستونیا ، وضحك الجمیع سویة .

١٩

هبت علی السهب ریح شرقیة عاتیة ، وكان الثلج قد ملأ الحفر والوهاد . ولم تعد الطرق والمسالك بادیة للعیان . فحیثما جالت العین طالعها السهل الأجرد الأبیض تجتاحه الریاح . وبدا السهب هامداً همود الموتی الا من غراب هرم یعمر السهب یحلق عالیاً بین الفینة والفینة فوق الثلج ویرسل نداءه ، فتحمل الریح صرخته عبر السهب ، فاذا بها تبدو طویلة حزینة ، شأن وتر عمیق النغمة جرته بالصدفة ید فی سكون اللیل .

أما تحت الثلج فكان السهب یمور بالحیاة . فحیث تمتد الأرض المحروثة تحت لجج من الثلج الفضی ، وحیث ازدادت الأرض المحروثة انتفاخاً منذ الخریف ، هناك یرقد جویدار الشتاء تحت الجمد تتشبث جذوره الحیة الشرهة بالتربة ، ویمضی الجویدار ذو الخضرة الحریریة یسبح بدموع من الندی المتجمد ، ویشد علی التربة الهشة السوداء ، یتغذی من دمها الأسود الطافح بالحیاة ، ویرتقب حلول الربیع ، حلول الشمس ، لیستوی فیقتحم القشرة الثلجیة الرقیقة المرصعة بالماس ، ویشب فی أیار أخضر یانعاً . ولا بد أنه سیشب فی أوانه ، فتتقاتل طیور السلوی بین سیقانه ، وتشدو قبرة نیسان فی سمائه . وستغمره الشمس وتهدهده الریاح ، حتی تتساقط سنابله التی داعبتها الأمطار الكاسحة والریاح القاسیة تحت ضربات منجل صاحبه فتلقی حباتها الثقیلة الغضة علی ساحة الدرس بكل تواضع .

كان اقلیم الدون برمته یحیا حیاة منغلقة منسحقة . كانت أیامه كالحة ، ولاح فی الافق شیء ما . وراحت شائعة قاتمة تزحف من أعالی الدون ، من روافده ، من التشیر ، من الخوبر ، ومن الیلانكا ، من الانهر الكبیرة والصغیرة التی تتناثر حولها قری القوزاق . فقد أفاد بعض الرجال أن الجبهة لم تعد مصدر الخوف ، فقد انحدرت تمضی فی سبیلها وتوقفت عند نهر الدونیتس ، انما مصدر الخوف تلك اللجان الاستثنائیة والمحاكم العسكریة . قیل ان هذه اللجان والمحاكم ستصل مناطق القوزاق فی یوم قریب ، وانها قد ظهرت بالفعل فی میغولینسكایا وكازانسكایا وراحت تعقد محاكمات مقتضبة غیر شرعیة للقوزاق الذین قاتلوا الی جانب البیض . والظاهر أن قوزاق الدون الأعلی لم یشفع لهم انسحابهم الاختیاری من جبهة القتال ، وان اجراءات المحاكمة بسیطة الی حد مرعب : اتهام ، وبضعة أسئلة ، وصدور الحكم . ومن ثم الموت بالمدفع

الرشاش . وقبل ان ثمة فى كازانسكايا وشومبلينسكايا عديداً من جثث القوزاق ملقاة بين الأدغال باهمال . ولكن رجال الجبهة ضحكوا من هذه الشائعات : «أكاذيب ! حكايات ضباط ! كم حاول الكاديت بث الرعب فينا بأكاذيب مثل هذه» .

وكان الناس بين الشك واليقين ازاء تلك الشائعات ، التى كان العديد منها يدور فى القرى على الدوام . والشائعات هى التى حملت ضعاف الهمم على الفرار ولكن حين ابتعدت جبهة القتال ، كان ثمة كثيرون لاينامون الليالى ، يتقلبون على فرشهم ويتصورون فتعجز ملاطفات زوجاتهم عن تهدئة أنفسهم . وقد ندم البعض لعدم فرارهم عبر الدونيتس . ولكن ما فات فات ، فعبثاً تراق الدموع .

وكان قوزاق تتارسكى يجتمعون فى الازقة الجانبية عند المساء ، فيتبادلون الأنباء ، ثم يتنقلون من بيت الى بيت يشربون الفودكا المنزلية . كانت القرية تحيا حياة هادئة مريرة . وحين حل عيد المرافع لم تجلجل أجراس الزحافات الا بزفاف واحد : فقد زوّج ميشا كوشيفوى أخته ، فراح الجيران يتحدثون عن هذا الزفاف بسخرية وحقد :

— وجدوا وقتاً مناسباً للزواج ! لا بد انه زواج اضطرارى !

وفى غداة الانتخابات سلم كل بيت ما لديه من سلاح . فتكومت الأسلحة فى سقائف ومجازات بيت موخوف الدافئ ، الذى صار مقراً للجنة الثورية وقد سلم بيوتر ميليخوف بندقيته وبندقية غريغورى ، ومسدسين ، وسيفاً ، بيد أنه لم يسلم الا تلك الأسلحة التى عادا بها من الحرب الألمانية ، واحتفظا بمسدسيهما اللذين كانا يحملانهما وهما ضابطان .

وعاد بيوتر الى البيت مرتاح البال فألقى غريغـــورى فى سقيفة الباب ، مشمراً عن ساعديه ، يفكك أجزاء صدئة لترباس

بندقيتين وينظفهما بالكيروسين . وكانت البندقيتان مسندتين الى الموقد .

فتهدل شاربا بيوتر دهشة وقال :

— من أين حصلت عليهما ، بحق الشيطان ؟

— جاء بهما أبى من فيلونوفو يوم أتى لزيارتى .

والتمعت عينا غريغورى ، وهدر ضاحكاً ، وهو يضرب جنبيه بيديه الملطختين بالكيروسين . وكما ضحك فجأة تلاشت ضحكاته فجأة أيضاً ، وكشّر عن أسنانه التى تشبه أسنان الذئب ، وقال :

— البندقيتان ؟ ليس ذلك شيئاً يذكر . أتدرى ؟ — ثم خفض صوته وجعل يهمس ، رغم أن أحداً غريباً لم يكن فى الدار : — أتدرى ، أبي أخبرنى اليوم أن لديه رشاشاً . — وراحت شفتاه تقاومان ابتسامة .

— تكذب ! أين حصل عليه ؟ وما فائدته ؟

— يقول ان بعض القوزاق المكلفين بالنقل أعطوه الرشاش لقاء بعض اللبن ، ولكنى أعتقد بأنه يكذب ، ذلك الشيطان العجوز ! لقد سرقه ، على ما أظن . انه كالخنفساء يجر كل ما يستطيع ولا يستطيع حمله . لقد همس لى قائلاً : — لديّ مدفع رشاش مدفون فى ساحة الدرس . ان نابضه الرئيسى يصلح لعمل كلاليب رائعة ، بيد أننى لم ألمسه . — فسألته قائلاً : — ما حاجتك بالرشاش ؟ — فأجابنى : — أعجبنى النابض . خيل الىّ أنه يفيد لعمل شىء ما . انه شىء نفيس ، ومصنوع من الحديد . . .

فتميز بيوتر غضباً وهمّ بالذهاب الى والده والتحدث اليه حول الموضوع ، بيد أن غريغورى ثناه عن ذلك قائلاً :

— انتظر قليلاً ! ساعدنى فى تنظيف هذين وتركيبهما . وما حيلتنا فى هذا وهو عجوز . . .

فزنخر بيوتر وهو ينظف الترباسين ، ولكنه بعد برهة قال مفكراً :

— ربما كان على حق . . . قد نجد فيه فائدة . ليظل مدفوناً هناك .

وزارهم ذلك اليوم ايفان توميلين لينقل اليهم شائعة تفيد أن الرمى بالرصاص قائم على قدم وساق فى كازانسكايا ، فجلسوا يدخنون ويتحدثون حول الموقد . ولبث بيوتر ، أثناء الحديث ، مقطب الحاجبين مستغرقاً فى التفكير حتى تصبب جبينه عرقاً . وحين ذهب توميلين قال :

— سأذهب الى روبيجين وأقابل ياكوف فومين . بلغنى انه عاد الى قريته . ويقال انه يقوم برئاسة اللجنة الثورية الاقليمية . سأذهب وأطلب اليه التدخل اذا ما حدث شىء ما .

وفيما كان بانتلاى بروكوفتش يشد الفرس الى الزحافة ، لفت داريا نفسها بفروة جديدة وتشاورت مع حماتها بعض الوقت بهمس . ثم دخلتا معا الى مخزن الحبوب وجاءتا بصرة ، فسألهما العجوز :

— ما تلك ؟

فلبث بيوتر صامتاً ، ولكن ايلينشنا همست على عجل :

— «لديَّ بعض السمن وفرته هنا ، احتفظت به لوقت الحاجة . ولكن ليس هذا وقت التفكير بالسمن ، فأعطيته الى داريا تقدمه هدية الى زوجة فومين ، فلعله يصغى الى بيوتر .— ثم أجهشت بالبكاء ، وأردفت : — ولداى شقّا طريقهما الى رتبة الضباط بعرق الجبين ، والآن قد تؤدى بهما هذه الرتبة الى . . .

فقال بانتلاى بروكوفتش :

— كفاك نحيباً !

ثم ألقى السوط فى داخل الزحافة غاضباً وتقدم الى بيوتر وقال :

— خذ بعض القمح له أيضاً .

فانفجر بيوتر صائحاً :

— ماذا عساه فاعلاً بالقمح بحق الشيطان ! من الافضل لو ذهبت الى أنيكوشكا وجلبت له بعض الفودكا المنزلية ، قمح ! . .

وذهب بانتلاى بروكوفتش فى الحال ليعود بعد بضع دقائق بقارورة فودكا تحت معطفه . وحين وضع القارورة على الأرض قال باستحسان :

— انها فودكا جيدة والله ، انها بجودة الفودكا التى كنا نشربها أيام القيصر .

فصاحت ايلينشنا به : «لقد شرب منها ، يا له من كلب عجوز !» وتظاهر الشيخ انه لم يسمع قولها ، فظلع الى داخل البيت بفتوة وهو يمسح شفتيه الخدرتين ، ويخاوص عينيه راضى النفس .

وانطلق بيوتر تاركاً بوابة بيته مفتوحة وكأنه ضيف .

وأخذ معه فضلاً عن الفودكا قطعة من جوخ من صنع ما قبل الحرب ، وجزمة ، ورطلاً من الشاى الشذىّ الفاخر هدية لزميله السابق فى الجندية الذى أصبح يومذاك عظيم السلطان .

وكانت هذه الأشياء كلها ، والكثير غيرها ، نصيبه من الأسلاب حين استولت الكتيبة الثامنة والعشرون على محطة السكة الحديد فى ليسكى وقامت بنهب الشاحنات والمخازن . وكان قد استولى على رزمة كبيرة من الألبسة النسائية الداخلية فأرسلها بصحبة ولده يوم قام الشيخ بزيارة الجبهة . ويوم عود بانتلاى بروكوفتش الى القرية أثارت داريا حسد ناتاليا ودونيا حين تزينت بملابس داخلية لم تشهد القرية لها مثيلاً . كانت مصنوعة من أجود قماش أجنبى ، فهى أنصع من الثلج بياضاً ، وقد طرز كل قطعة منها الشعار والأحرف الأولى ، وكان دانتيل سروالها أرهف من زبد الدون . . .

وكانت داريا فى الليلة الأولى لعودة بيوتر من فيشنسكايا قد آوت الى الفراش بسروالها الطويل . فابتسم لها مداعباً قبل أن يطفئ المصباح وقال :

— اذاً فقد حصلت على سروال رجل لترتديه ؟

فأجابت داريا بنبرة حالمة :

— انه أكثر دفئاً وجمالاً . ما الذى يجعلك تظنه للرجال ؟ لو صح ذلك لوجب أن يكون أكثر طولاً ، ثم ما حاجة الرجال بالدانتيل ؟

فأجابها بيوتر وهو يحك جسمه ، وقد استبد به النعاس :

— أحسب أن النبلاء يضعون الدانتيل فى سراويلهم . ولكن لست أبالى ، بوسعك أن ترتديه ان شئت .

ولكنه حين اضطجع فى الليلة التالية الى جانب زوجته أبعد نفسه عنها فزعاً وهو ينظر الى الدانتيل نظرة وجلة وارتباك لم يستطع كتمانها ، ويخشى أن يلمسه شاعراً وكأن داريا غريبة عنه . وفى الليلة الثالثة انتابه الغضب فأمرها بلهجة لا تقبل الرفض :

— اخلعى سروالك وألقى به الى الشيطان ! انه لا يليق بالمرأة أن ترتديه ، وهو ليس سروال نساء على أية حال . ترقدين هنا كالسيدات ! أنت تصبحين امرأة أخرى حين ترتدينه .

ونهض صباح اليوم التالى قبل داريا وراح يجرب ارتداء السروال وهو يتنحنح عابساً . وظل وقتاً طويلاً ينظر الى المشدات الحريرية ، والى الدانتيل ، والى ساقيه المشعرتين العاريتين فيما تحت ركبتيه . وصادف أن استدار فلمح نفسه فى المرآة ، بسرواله المتغضن عند المؤخرة فى ثنيات أنيقة ، فبصق وجعل يصب اللعنات وهو يخرج نفسه من السروال كالدب . فعلق اصبعه الكبير بالدانتيل فكاد أن يسقط على الصندوق ، فانتابه غيظ حقيقى فقطع المشدات واستعاد

حريته . وقد سألته داريا بنبرة نعسانة : «ماذا تفعل ؟» الا أن بيوتر خلد الى صمت جريح ، وراح يزنخر ويبصق دون أن يجيب . وصباح ذلك اليوم حملت داريا السروال فأودعته الصندوق وهى تتحسر . وكانت قد أودعته كثيراً من حاجيات لا تجد النساء فيها أيما فائدة ، بيد أنها استفادت من التنورات الداخلية خير استفادة ، فرغم أن التنورات الداخلية كانت قصيرة جداً ، إلا ان داريا الذكية كانت ترتديها بحيث تتدلى من تحت تنورتها الاعتيادية . فيبرز الدانتيل مقدار بوصة . ثم تخرج للتباهى أمام الآخرين ، فتكنس الأرض الترابية بدانتيلها الهولندى .

وبدت داريا فى أبهى وأزهى حلة حين ذهبت بصحبة زوجها لزيارة فومين . كان الدانتيل بادياً من تحت معطفها الفرو ، وكانت سترتها الصوفية جديدة جميلة ، كل ذلك لتدرك زوجة فومين التى صعدت من الثرى الى الثريا أن داريا ، رغم كل شىء ليست فوزاقية من العامة ، بل زوجة ضابط .

لوّح بيوتر بسوطه وطق شفتيه . فانطلقت الفرس الهرمة البطينة تخب فى الطريق المحاذى للدون . وبلغا روبيجين فى ساعة الغداء ووجدا فومين فى بيته كما أملا . فرحب ببيوتر ، وأجلسه الى المائدة ، وراح يبتسم بين ثنيات عذاريه الأحمرين حين أخرج أبوه جرة الفودكا المخلوطة بالقش من الزحافة المفضضة بالثلج . . .

وقال فومين بصوت وئيد جهورى لطيف : حسناً ، يا صاحبى ، لماذا لم نرك قبل هذا ؟ — وكان يلقى الى داريا النظرات من زاويتى عينيه الزرقاوين الواسعتين المغازلتين ويفتل شاربه بوقار .

— حسناً ، أنت تدرى ، يا ياكوف يفيموفتش ، لقد تقهقرت الكتائب ، انه لوقت عصيب .

— وهو كذلك ! أنت على حق . — ثم نادى على زوجته : —

هيه ، يا امرأة ! ايتينا بشيء من الخيار المخلل والكرنب ، أو بعض السمك المجفف . . .

كان البيت الصغير مدفأ الى درجة الاختناق . وكان ثمة طفلان جاثمان فوق الموقد : صبى له عينان وسيعتان زرقاوان كعينى أبيه ، وبنت صغيرة . وبعد أن شرب بيوتر قليلاً عرج على مهمته قائلاً :

— يدور فى القرى كلام كثير عن وصول التشيكا * وقيامهم بالقاء القبض على القوزاق .

— لقد وصلت الى فيشنسكايا محكمة عسكرية تابعة للجيش الأحمر . ولكن ماذا فى ذلك ؟ وماذا يضيرك منها ؟

— أنت تدرى ، يا ياكوف يفيموفتش ، أننى أعتبر ضابطاً . ولكن أى ضابط أنا ؟ أنا ضابط فى المظهر وحسب .

— حسناً ، ماذا فى ذلك ؟

وشعر فومين بأنه سيد الموقف . وقد بعثت فيه نشوة الخمر الطفيفة الغرور والاعتداد بالنفس ، فراح يمسد شاربه ويشخص الى بيوتر بنظرة متسلطة لا تريم .

وجعل بيوتر يتملقه ، فغدا متواضعاً ذليلاً فى موقفه ، رغم أنه اتخذ لهجة أقل تكلفاً :

— لقد خدمنا أنا وأنت سوية . وليس بوسعك أن تقول فيَّ كلمة رديئة . هل كنت يوماً ضدك ؟ أبداً ! لعنة الله على الكاذب ، ولكنى كنت دوما الى جانب القوزاق !

---

* التشيكا : اللجنة الاستثنائية — كان هدفها النضال ضد اعداء السلطة السوفييتية والتشرّد والمضاربة فى الاعوام الأولى من الحكم السوفيتى . **المترجمون** .

— نحن ندرى ، لا تخف يا بيوتر بانتلايفتش ! نحن نعرفك كل المعرفة . لن يمسك أحد بشيء . ولكن ثمة أناساً سوف يمسهم شيء ! لقد تخلف العديد من الثعابين ممن يخبئون سلاحهم . . . هل سلمت سلاحك ؟ ها ؟

وكان انتقال فومين من حديثه البطيء الى أسئلته اللجوج من السرعة ما أفقد بيوتر اتزانه ، فاندفع الدم الى وجهه . . .

ألح فومين متسائلاً ، وهو يميل فوق المائدة :

— سلمت أسلحتك ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ماذا تنتظر ؟

— سلمتها بالطبع ، يا ياكوف يفيموفتش . لا تظن . . . اننى أتحدث بنية صافية . . .

فغمز فومين غمزة ثملة وقال :

— بنية صافية ! نحن نعرف نياتكم الصافية ! أنا ابن المنطقة ، كما تعلم . صافح القوزاقى الميسور بيد وأمسك السكين باليد الأخرى . . . يا للكلاب ! لا وجود لنيات صافية هنا . لقد خبرت الكثير من الناس فى حياتى . يا للخونة ! ولكن لا تخف . لن يصيبوك بأذى . ان كلمتى من ذهب !

وأكلت داريا شيئاً من اللحم البارد . وقد اصطنعت الأدب فلم تأكل من الخبز الا قليلاً ، رغم أن زوجة فومين كانت لا تنى تلحف عليها بالطعام .

وانطلق بيوتر فى المساء الباكر ليعود الى أهله يساوره التفاؤل والأمل المتجدد .

* * *

بعد أن ودع بانتلاى بروكوفتش بيوتر ذهب لزيارة كورشونوف العجوز وكان قد زاره قبيل مجيء الحمر ، ولكنه وجد لوكينشنا منهمكة

فى اعداد العدة لهرب ميتكا وكان المنزل فى حالة الفوضى الشاملة . واذ شعر بانتلاى بروكوفتش بأن زيارته كانت تعيقهم عاد الى بيته . ولكنه أحس آنذاك برغبة فى الذهاب ليرى ان كانت الأمور عندهم على ما يرام ، وليجلس ويتجاذب أطراف الحديث عن الفترة التى تحياها القرية .

وأمضى وقتا طويلاً وهو يظلع فى مشيته الى الطرف الآخر من القرية . وفى الحوش التقى بغريشاكا العجوز وقد فقد العديد من أسنانه ودب الوهن فى قواه . كان اليوم أحداً والشيخ ذاهباً الى صلاة المغرب . فبهت بانتلاى بروكوفتش اذ رآه ، فقد كانت الأوسمة والمداليات التى نالها أثناء الحرب التركية بادية متوهجة من تحت فروته ، وكانت شرائط صغيرة حمر تتلامع بتحد على الياقة المتصلبة لقمصلته قديمة الطراز ، وكان سرواله المقلم العتيق قد دس فى جوربيه الأبيضين بعناية ، وعلى رأسه قبعة عسكرية تحمل شعاراً وقد انداحت الى أذنيه الكبيرتين اللتين تشبهان الشمع .

— ماذا ، أيها الجد ! هل أنت بكامل عقلك ؟ علام ترتدى الشعار والأوسمة فى أيام كهذه ؟

فوضع الشيخ يده على أذنه قائلاً :

— هاه ؟

— أقول لك : انزع هذا الشعار . انزع هذه الأوسمة . سيلقون القبض عليك ان خرجت بهذه الحالة . ليس بوسعك التجوال على هذه الحالة فى ظل الحكم السوفييتى ، فقوانينهم لا تجيز ذلك .

— لقد خدمت قيصرى الأبيض بصدق وايمان ، يا بنى . وليست هذه حكومة ترضى الله . لست أعترف بها حكومة . لقد أقسمت يمين الولاء للقيصر ألكساندر وليس للفلاحين ! — ثم مضغ العجوز شفتيه الشاحبتين وأشار الى المنزل بعصاه وقال : «أتريد

ميرون ؟ انه فى البيت . أما ميتكا فقد كان عليه أن يهرب ، يا ملكة السماء ، أحرسيه ! لقد تخلف ولداك ، أليس كذلك ؟ ها هما قوزاقيان زماننا هذا ! . . أقسما اليمين ، وها ان الجيش بحاجة الى الرجال وهما باقيان عند زوجتيهما . هل ناتاليا بصحة جيدة ؟

— أجل ، ولكن انزع أوسمتك ، يا الهى ، لقد ركبك الجنون ، أيها الجد !

— امضِ فى طريقك ! أنت أصغر من أن تعلمنى !

وخطا الشيخ نحو بانتلاى بروكوفتش مباشرة ، فهز ميليخوف رأسه يائساً وتنحى نازلاً الى الثلج ليفسح الطريق لمروره .

ونهض ميرون غريغوريفتش ، الذى بدت الشيخوخة واضحة عليه فى الأيام القلائل الأخيرة ، يستقبل بانتلاى بروكوفتش ، وقال :

— هل رأيت محاربنا الشيخ ؟ انه مصيبة على رؤوسنا ! ومع ذلك لم يأخذ الرب روحه بعد . انها أفضل طريقة لجلب البلايا على رؤوسنا ! علق أوسمته ، وارتدى قبعته ، ثم خرج بكل بساطة ! لقد أضحى طفلاً تماماً ، انه لا يفقه أى شىء .

فقالت لوكينشنا :

— دعه يعزى نفسه كما يحلو له ، فلم يبق أمامه عمر طويل .

ثم جلست مع القوزاقيين وراحت تتشكى بمرارة :

— حسناً ، كيف أنتم جميعاً ؟ سمعنا أن أعداء المسيح قد طاردوا غريشا . لقد أخذوا أربعة من خيلنا ولم يتركوا لنا سوى فرس ومهر حولى . لقد سلبونا كل شىء ! . .

فضيق ميرون عينيه وكأنه يسدد الهدف الى شخص ما وشرع يتكلم بنبرة جديدة يفعمها الحقد . فقال :

— ما سبب الدمار الذى يحل فى حياتنا ؟ من فعل هذا ؟

انه من فعل هذه الحكومة الشيطانية ! أية حكمة هناك فى محاولة المساواة بين الجميع ؟ بوسعك أن تزهق الروح منى ، ولكنى لن أرتضى هذه المساواة . لقد تعين علىَّ أن أشتغل طيلة حياتى بجهد ، واذا بهم يريدون مساواتى برجل لم يرفع فى حياته اصبعاً لينتشل نفسه من الفاقة . كلا ، سننتظر قليلاً ! ان هذه الحكومة ستقطع شرايين المزارع المجدّ ! ولهذا السبب لا نستطيع الانصراف الى العمل ! فما جدوى العمل ، ولأجل من نشتغل ؟ لئن كسبت شيئاً فانهم سيأتونك لينتزعوه منك . . . انتبه الآن لما أقول . وكما قلت لصديق لى من مريخين ، ان الجبهة تمتد الآن على نهر الدونيتس . ولكن أتراها باقية هناك أبداً ؟ اننى أقول لن أركن اليهم ، أن علينا مدّ يد العون الى قوزاقنا الذين يعملون وراء الدونيتس . . .

فسأله يانتلاى بروكوفتش بحذر ، وقد خفض صوته لسبب ما فغدا هامساً :

— كيف يكون ذلك برأيك ؟

— كيف ؟ بأن نركل هذه الحكومة ونطردها ! أجل ، نركلها ركلة شديدة تعيدها الى اقليم تامبوف . فليتقاسموا مساواتهم مع الفلاحين هناك . اننى على استعداد لأن أقدم كل ما أملك حتى آخر خيط من أجل القضاء على هؤلاء الأعداء . هذا أوان العمل ، والا فسيغلبنا الوقت . بلغنى من القرى الأخرى أن القوزاق متذمرون هناك . علينا أن نعمل سوية ! — وانخفض صوته الى همس لاهث : — لقد انسحبت كتائبهم ، ولم يبق منهم الآن سوى قلائل ! لم يبق سوى رئيس لكل قرية . . . لن تستغرق تسوية الحساب معهم سوى لحظة . أما فيشنسكايا . . . فاذا هجمنا كلنا معاً سنمزقهم إرباً إرباً ! لن يتخلى رجالنا عنا . انه لأمر أكيد.

فنهض يانتلاى بروكوفتش على قدميه . ثم نصح ميرون بقلق وهو يزن كلماته بعناية :

— حذار من الانزلاق ! والا فستجنى لنفسك المتاعب . صحيح أن القوزاق مترددون ، ولكن الشيطان وحده يعلم الى أية وجهة سيتجهون فى النهاية . ليس بوسعك هذه الايام أن تتحدث فى هذه الأمور الى كل الناس . . . أنا لا أستطيع فهم القوزاق الشباب أبداً ، يبدو كأنهم يعيشون بعيون مغمضة . رحل البعض منهم ، وتخلف الباقون . انها حياة شاقة . هذه ليست حياة ، بل ظلام فى ظلام . . .

فابتسم ميرون ملاطفاً وقال :

— لا تدع الشك يساورك ! أنا لا ألقى الكلام جزافاً . فالناس كالأغنام : حينما يسير الكبش ، يتبعه القطيع برمته . ولذا ينبغى أن ندلهم على الطريق . علينا أن نفتح أعينهم على هذه الحكومة . فحيث لا تجد الغيوم لا تسمع الرعد . انى أقول للقوزاق بصراحة : عليهم أن يهبوا للتمرد . لقد سمعت أنهم أصدروا الأوامر بشنق كافة القوزاق . كيف نقبل بهذا ؟

واحمر وجه ميرون غريغوريتش تحت نمشه ، وأردف :

— ماذا سيحل بنا ، يا بروكوفيتش ؟ بلغنى أنهم شرعوا باعدام الناس رمياً بالرصاص . . . أتسمى هذه حياة ؟ أنظر كيف حل الخراب والدمار بكل شىء خلال هذه الأعوام ! فليس هناك كيروسين ولا ثقاب . ولم يكن لدى موخوف ما يبيعه الا الحلوى قبل أن يغلق حانوته نهائياً ! وماذا بشأن البذار ؟ قارن ما زرعنا الآن بما كنا نزرع سابقاً . لقد استولوا على خيلنا . انهم يحسنون الاستيلاء على كل شىء ، ولكن من ذا الذى سيعوض عن هذه الأشياء كلها ؟ كنا نملك فى صباى ستاً وثمانين حصاناً ، أنت تذكر هذا ،

أليس كذلك ؟ كانت أسرع من الطير وبوسعها أن تلحق حتى بجواد عربى أصيل ! . . وكان أحدها كستنائياً ، ذا غرة على ناصيته . كنت أذهب به لقنص الأرانب البرية . أخرج به الى السهب وأفزع أرنباً من بين العشب الطويل فأطارده ثلاثمائة ياردة أو يزيد ثم أدهسه بحصانى . ما زلت أتذكر ذلك حتى الآن . . .

ثم علت وجه ميرون ابتسامة منفعلة ، وأضاف :

— كنت ذات يوم على صهوة هذا الحصان فى طريقى الى الطاحونة فانطلق أرنب فى الطريق ، أمامى مباشرة . فاستدرت لأطارده ، فاذا به يجرى حذر التل ويمضى عبر الدون . كان ذلك عشية عيد المرافع وقد جرفت الرياح الثلج من على الجليد ، ولشد ما كان هذا زلقاً ، فهوى الحصان ولم ينهض أبداً . كاد الخوف يعصف بى . انتزعت السرج وعدت أجرى الى البيت . قلت : «أبتاه ، أهلكت حصانى فى طراد أرنب !» فاذا به يقول : «ولكن هل اقتنصت الأرنب ؟» ، «لا يا أبي» ، «حسناً ، أسرج الأدهم واذهب فاقتنصه ، يا ابن العاهرة !» هكذا كانت الحياة ! كان القوزاق يومذاك يحيون حياة ممتعة . لم يكن ليضيرهم أن يقتل المرء حصاناً ما دام قد اقتنص أرنباً . كان الحصان يساوى المائة والأرنب قرشاً . . . آه ، ولكن ما جدوى الكلام ! . .

* * *

عاد بانتلاى بروكوفتش الى البيت وقد اشتدت به الحيرة اكثر من ذى قبل ، وعصف به القلق والحنين . وكان يشعر الآن شعورا يقينياً بأن عناصر غريبة معادية شرعت تتولى زمام الحياة . كان فى سابق الأيام يدبر أمور حقله وحياته كما لو كان على صهوة جواد حسن التدريب فى سباق الطراد ، ولكن ها هو الجواد وقد استبد به الهياج

فاذا هو مرتم على ظهره المتمايل وهو يبذل جهداً يائساً ليجنب نفسه السقوط .

توارى المستقبل فى ثنايا الضباب . فها هو ذا ميرون كورشونوف الذى كان ذات يوم أغنى قوزاقى فى المنطقة برمتها ، وها هى الأعوام الثلاثة الماضية قد هدّت حيله : ذهب عماله جميعاً ، وصار لا يزرع الا النزر اليسير ، وكان عليه أن يبيع ثيرانه وخيله لقاء أثمان مضحكة وبعملة تتناقص قيمتها على الدوام . ما أشبه اليوم بحلم ، بضباب ينضح من الدون . لم يبق سوى المنزل بشرفته ذات النقوش ، وأفاريزه الخشبية المتقشرة يروى قصة أمجاده الغابرة . ولقد حالت لحية ميرون التى يحاكى لونها حمرة الثعالب ، حالت قبل أوانها بوقت طويل ، ودب الشيب بقعاً صغيرة فى بادئ الأمر ، أشبه بشجيرات على الرمال ، حتى اجتاح كل صدغيه ببياضه الأملح ، ثم جعل جز يزحف الى ناصيته شعرة تلو شعرة . وكان ثمة عاملان يتنازعان السلطة فى نفس ميرون . فقد كان دمه الفوار يحدوه للعمل ، ويحمله على زرع أرضه ، وبناء سقائفه ، واصلاح معدات حقله ، وزيادة ثروته . ولكن ما فتئت تجثم على صدره : ما جدوى ثروته ؟ انها ستنهار برمتها . فاذا بالاهمال يلقى ظلاله المميتة على كل شىء . فلم تعد يداه اللتان ترك عليهما الكدح آثاره تمسكان بالمطرقة أو المنشار كعهدهما فى سالف الأيام بل تحطان على ركبتيه بكسل . لقد حلّت الشيخوخة فيه قبل أوانها ، وحتى الآن غدت تثير فيه النفور : فقد أتاها فى الربيع كما تؤتى زوجة غير محبوبة بحكم من العادة ، وشعور بالواجب . وصار يضاعف أملاكه دونما سرور ويخسرها دون أن يخامره أسفه المرير السابق . فحين أخذ الحمر أحصنته لم يرف له جفن ، ولكنه قبل عامين كاد أن يبقر زوجته بالمذراة حين وطأت الثيران شيئاً لا يؤبه له من القش . كان جيرانه يدمدمون

قائلين : لقد اكتنز من المال حتى التخمة .

ظلع بانتلاى بروكوفتش الى بيته واستلقى على فراشه . وأحس في نقرة في أسفل الصدر ألماً ممضاً ، وتصاعد الى بلعومه غثيان بطيء . وبعد العشاء طلب الى زوجته أن تأتيه بشيء من البطيخ المملح ثم اعترته نوبة من القشعريرة فأخذ طريقه الى الموقد عبر الغرفة بشق النفس ، وقبيل الصبح انهد فاقد الوعى تلهبه حمى التيفوس . وتشققت شفتاه ، واصفر وجهه وقتم بياض عينيه بظل أزرق . وقد جاءت دروزديخا العجوز ففصدت دمه ، وسحبت من أوردته ملء صحنين من السائل الأسود كالقطران الا أنه لم يستعد وعيه : اشتد وجهه بياضاً وفغر فاه وهو يلهث ناشداً الهواء .

٢٠

فى أواخر كانون الثانى ، استدعى ايفان اليكسيفتش الى فيشنسكايا لمقابلة رئيس اللجنة الثورية للمنطقة . وكان المفروض أن يعود الى تتارسكى مساء اليوم ذاته ، فجلس ميشا كوشيفوى فى انتظاره فى منزل موخوف الخاوى ، وراء منضدة الكتابة الكبيرة العائدة لرب البيت السابق . وكان يجلس على حافة الشباك رجل ميليشيا من فيشنسكايا يدعى أولشانوف (فلم يكن ثمة الا كرسى واحد فى الغرفة) ، وكان أولشانوف يدخن بصمت ويبصق عبر الغرفة بمهارة فائقة . وكانت سماء الغروب عبر النافذة قد استحالت ليلاً مرصعاً بالكواكب وخيم على القرية سكون الصقيع المرنّ . وكان ميشا يحرر أمراً بتحرى منزل ستيبان أستاخوف ، ويشخص بين آونة وأخرى الى النافذة ، الى أغصان أشجار القيقب المفضضة .

اجتاز أحدهم الشرفة ، ودخل سقيفة الباب ، وجزمته اللبادية

تخشخش بهدوء . فقال ميشا :

— ها هو ذا !

ثم نهض ، ولكنه سمع فى المجاز وقع خطوات غير مألوفة ، ونحنحة غريبة ، ثم دخل غريغورى ميليخوف ، وقد استحال وجهه أحمر داكناً من الزمهرير ، وكانت بلورات ثلجية عالقة بحاجبيه وعذاريه ، ومعطفه مزرراً حتى الرقبة ، قال :

— رأيت فى النافذة ضوءا ، فعنّ لى أن أدخل . كيف حالك ؟

فحياه ميشا ، قائلاً :

— مرحباً ، هل من شكاية ؟

— لا شكاية . جئت لتبادل الحديث ولأطلب منكم عدم ارسالنا فى مهمة النقل . ان خيلنا تظلع .

فنظر اليه ميشا بزاوية عينه ، وقال :

— ولكن ماذا عن الثيران ؟

— ليس بوسعك استخدام الثيران للمواصلات ! فالطريق زلقة .

وتناهى اليهم وقع أقدام تجرجر على الألواح ، التى تجمدت من الصقيع ، حين ارتقى أحدهم الدرج ، وفى اللحظة التالية ولج الغرفة ايفان اليكسيفتش ودخل الغرفة معه الهواء المنعش القارس ورائحة الحشيش اليابس والدخان وقد تلفع بعباءة كالمرأة ، فصاح :

— أنا متجمد . متجمد ، يا أولاد ! مرحباً غريغورى ! فيم تجوالك ليلاً ؟ هذه العباءات من عمل الشيطان ، الريح تنفذ خلالها كما تنفذ خلال الغربال .

وفيما خلع عباءته مضى يتحدث بلهفة وعيناه تومضان :

— حسناً ، لقد قابلت الرئيس . دخلت مكتبه فصافحنى وقال : «اجلس ، أيها الرفيق !» لا تنسوا أنه رئيس منطقة ! وكيف كانت الأمور فى العهد السابق ؟ لا بد أن يكون مكانه أمير لواء ، فيحتم على المرء أن يقف أمامه وكأنه فى عرض عسكرى . هكذا هى حكومتنا اليوم . . . الكل سواسية .

فلم يستطع غريغورى أن يفهم سبب حديث ايفان الجذل والسعادة والحيوية المرتسمتين على وجهه ، فسأله قائلاً :

— فيم اغتباطك ، يا ايفان اليكسييفتش ؟

فرفع ذقنه ، وقال :

— فيم اغتباطى ؟ لقد عاملنى معاملة الرجال ، فلماذا لا أغتبط ، مدّ لى يده كالند للند ، وطلب اليَّ الجلوس . . .

فمسّد غريغورى عذاريه ، وقال :

— حتى الجنرالات يخرجون هذه الأيام بقمصان من الجنفاص . لقد رأيت أيام التراجع ضابطاً تعلو كتفه شارات مرسومة بقلم لا يمحى حبره . وكانوا يمدون أيديهم الى القوزاق كذلك . . .

— الجنرالات يفعلون ذلك مكرهين ، أما هؤلاء فهو طبعهم ، ألا ترى الفرق ؟

فهز غريغورى رأسه قائلاً :

— لا فرقَ .

— وهل تعتقد أن هذه الحكومة تشبه سابقتها ؟ لماذا قاتلت؟ أمن أجل الجنرالات ؟ تقول لا فرق بين الحكومتين !

— قاتلت من أجل نفسى ، وليس من أجل الجنرالات . لو توخيت الصدق ، لقلت اننى لا أميل الى أى من الحكومتين .

— الى من تميل اذاً ؟

— لا أميل الى أحد .

فبصق أولشانوف ، رجل الميليشيا ، عبر الغرفة مباشرة ، ثم ابتسم مؤيداً . فلا ريب أنه هو الآخر لم يجد فى أى من الحكومتين ما يرضيه .

فقال ميشا متعمداً جرح شعور غريغورى :

— لا أظنك كنت تحمل آراء كهذه فى السابق .

ولكن غريغورى لم يظهر أنه قد تأثر ، فاجاب :

— أنت ، وأنا ، والجميع ، كنا نحمل أفكاراً مختلفة . . .

كان ايفان اليكسييفتش متلهفاً للتخلص من غريغورى كى يروى لميشا أخبار رحلته وحديثه مع رئيس المنطقة ، ولكن الحديث بدأ يثير قلقه ، فنزل الى حومة النقاش ، متأثراً بما شاهد وسمع من فيشنسكايا . فقال :

— أتيت هنا لتضللنا ! أنت ، يا غريغورى ، لا تعرف ما تريد .

— صدقت ، لا أعرف .

— لماذا تعادى هذه الحكومة ؟

— وعلام تساندها أنت ؟ متى أصبحت أحمر هكذا ؟

— سوف لا نتحدث عن ذلك . سوف نتحدث عما يجرى الآن . ولا تكثر القول عن هذه الحكومة ، فأنا رئيس مجلس قرية ، وليس من الحكمة أن أجادلك فى هذا المكان .

— دعنا من هذا الحديث اذاً . حان وقت ذهابى ، على أية حال . جئت بشأن سخرة النقل ، أما عن حكومتك هذه ، فقل ما تشاء ، ولكنها حكومة عفنة . قل لى شيئاً واحداً بصراحة ، فندع الأمر عند ذلك الحد : ما نفع هذه الحكومة للقوزاق ؟

— أى قوزاق ؟ هناك قوزاق من شتى الفئات .

— لكل الفئات . . .

— الحرية ، والمساواة . . . مهلاً . . . هناك شيء لا تعرفه . . .

فقاطعه غريغورى قائلاً :

— هذا ما قالوه عام ١٩١٧ ، ولكن ينبغى لهم الآن أن يفكروا بشيء أفضل . هل يعطوننا الأرض ؟ أم الحرية ؟ هل يساوون بين الجميع ؟ ان لدينا الآن من الأرض ما يكفى لاتخامنا . ولسنا نريد مزيداً من الحرية فيقتل بعضنا البعض فى الشوارع . كنا فيما مضى نتخب اتماناتنا بأنفسنا ، ولكنهم الآن يفرضونهم علينا فرضاً . ان هذه الحكومة لا تجلب للقوزاق سوى الخراب . انها حكومة فلاحين ، وان الفلاحين هم الذين بحاجة اليها . ولسنا بحاجة الى الجنرالات كذلك . سيان بين الشيوعيين والجنرالات : انهم جميعاً نير في أعناقنا .

— أثرياء القوزاق ليسوا بحاجة اليها ، ولكن ماذا عن الآخرين ؟ أيها الأحمق ! هناك ثلاثة قوزاق أثرياء فى القرية ، وكم عدد الفقراء ؟ وماذا عساك فاعلاً بالشغيلة ؟ كلا ، ليس بوسعنا أن نقبل رأيك فيها . ليتنازل أثرياء القوزاق عن بعض أموالهم وليعطوها الى الفقراء . وان هم امتنعوا عن ذلك ، فسننتزعها مع جلودهم أيضاً ! لقد سئمنا من تحكمهم برقابنا ! لقد سرقوا الأرض منا . . .

— لم يسرقوها ، بل استولوا عليها عن طريق الفتح . لقد سكب أجدادنا الدم فى سبيلها ، وربما كان ذلك مرجع خصبها . . .

— هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، عليهم أن يتقاسموها مع أولئك الذين يحتاجون اليها . أما أنت . . . فأشبه بديك الطقس على السطح . فأنت تدور مع الرياح . ان رجالاً على شاكلتك يثيرون المتاعب .

— لا داعى لشتمي ! لقد أتيت بدافع صداقتى القديمة لكى أقول لكم ما يغلى فى دخيلتى . أنت تتحدث عن «المساواة» . هكذا كسب البلاشفة الجهلة الى جانبهم . انهم يستخدمون كثيراً من الكلمات المعسولة طعماً ، فيدلف أناس كثيرون فى شباكهم كالأسماك . وأين هى «مساواتك» هذه ؟ أنظر الى الجيش الأحمر . لقد مروا بالقرية ، وكان ضباط الرعيل يرتدون جزماً من الجلد بلون الكروم ، أما ايفان * وصحبه فلا يرتدون الا الاسمال . لقد شاهدت قوميسارات يرتدون الجلد من أعلى الرأس الى أسفل القدم : البنطال والسترة وكل شيء . ولم يكن لدى الآخرين جلد يكفى لصنع حذاء . لم يكد يمضى على الحكم السوفييتى سوى عام واحد ، فما عسى أن يحل بمساواتهم حين ترسخ جذور هذا الحكم تماماً ؟ كنا فى جبهة القتال نقول اننا سنغدو جميعاً سواسية ، فيتلقى الضباط والجنود رواتب واحدة . ولكن لا ! لم يكن ذلك الا طعماً ! فمهما بلغ السيد من السوء فان الصعلوك الذى يغدو سيداً أسوأ منه بعشر مرات . كان الضباط القدامى سيئين ، ولكن حين يصير القوزاقى ضابطاً فما عليك الا أن ترقد وتموت ، فليس فى الكون أسوأ منه . نال من الثقافة قدر ما نال أى قوزاقى آخر ، فتعلم ثنى أذيال الثيران ، ولكن أنظر اليه الآن ! علا نجمه وأثملته السطوة ، وهو مستعد لسلخ جلد أى انسان آخر لكيما يحتفظ بكرسيه .

فرد ايفان اليكسييفتش على غريغورى ببرود دون أن يرفع عينيه الى وجهه :

— ان كلامك يعبر عن عداء للثورة . انت لن تستطيع أن تجرنى

---

* يراد بذلك سواد الناس ، اذ ان ايفان أكثر الأسماء فى روسيا شيوعا . المترجمون .

الى طريقك ولست أريد أن أحطمك ؛ لقد مضى زمن طويل مذ رأيتك آخر مرة ، ولا بد من القول بأنك قد تغيرت . انك الآن من أعداء الحكومة السوفييتية .

— لم أنتظر منك مثل هذا الكلام ! أ لأننى أبديت رأيى فى نوع الحكم الذى ينبغى أن يقوم عندنا ، أصبح معادياً للثورة ، هل أنا واحد من الكاديت ؟

فاستعار ايفان من أولشانوف كيس تبغه ، ثم قال بنبرة أخف حدة :

— كيف أوضح لك الأمر ؟ فالناس يتخذون هذا الموقف أو ذاك بالاحتكام الى عقولهم وقلوبهم . ليس بوسعى أن أعبر عن الأمر بالكلمات ، وذلك لجهلى وقلة ثقافتى . أنا نفسى يتعين علىَّ أن أتلمس طريقى الى أشياء كثيرة .

فصاح ميشا مغتاظاً :

— كفانى ما سمعت من هذا الكلام !

ثم غادروا المنزل سوية . وظل غريغورى صامتاً . وحين افتراقهم ، قال له ايفان اليكسييفتش :

— أفضل لك أن تكتم مثل هذه الأفكار فى نفسك ، والا فلن أعدم وسيلة لاسكاتك ، رغم أنك من أقاربى . لن أدعك تشيع البلبلة بين القوزاق ، حسبهم ما عندهم من بلبلة . واياك أن تعترض سبيلنا ، والا فسوف نسحقك . . . الى اللقاء !

فمضى غريغورى فى طريقه شاعراً أنه قطع على نفسه خط الرجعة . لقد اتضحت الأمور التى كان يغشاها الشك ، فكل ما فعله هو أن أفصح عن الأفكار التى كانت تدور فى خلده منذ مدة طويلة . كان يقف فى مفترق الطرق ، يتنازعه عاملان ، فيصد عن كليهما مما خلق فى نفسه شعوراً عميقاً بالغيظ لا يخمد أواره .

ومضى ايفان وميشا سوية . فشرع ايفان يحكى له عن اجتماعه برئيس المنطقة . ولكنه حين أخذ يتكلم لم يعد يجد فى الأمر ما كان قد استشعره من مسرة ومتعة . وحاول أن يستعيد مزاجه المرح ، غير أنه لم يفلح : كان شىء يعترض سبيله ويحول دون تمتعه بهجة الحياة وملء صدره بالهواء المنعش القارس ولم تكن العقبة سوى غريغورى وكلامه . واذ تذكر النقاش الذى دار بينهما قال بصوت يتم عن الحقد :

— ليس غريغورى وأمثاله سوى عثرات فى الطريق ، الحثالة ! انه لا يبلغ ضفة النهر أبداً ، بل يظل يطفو فيه كروث البقر اليابس : ان جاء ثانية فسألقنه درساً ! وان شرع باثارة الناس ، فسنجد له مكاناً صغيراً هادئاً . . . حسناً ، وأنت ، يا ميشا ؟ كيف تسير أمورك ؟

فنفس ميشا عن أفكاره بأن أرسل لعنة .

ومضيا يسيران فى الشارع ، فالتفت كوشيفوى الى ايفان والابتسامة تلوح على شفتيه المكتنزتين اللتين تحكيان شفتى فتاة . وقال :

— أى شىء عفن هى السياسة ، بحق الشيطان ! بوسع المرء أن يتحدث فى أى موضوع آخر يشاء ، دون أن ينتابه غم كهذا . هوذا غريغورى : كنا صديقين مذ كنا فى المدرسة سوية . وكنا نلاحق الفتيات سوية ، وكان أشبه بأخ لى ، وها نحن أولاء نشرع فى الكلام فيستبد بى الجنون حتى يوشك قلبى أن ينفطر كما تنفطر البطيخة . كنت أختض من رأسى الى أخمص قدمى . فكأنه انتزع منى شيئاً عزيزاً أو سلبه منى . ان كلاماً مثل هذا قد يدفع المرء الى القتل . ان هذه الحرب لا تعرف أخوّة أو قرابة . فليس أمامك الا أن تسير فى الطريق الذى رسمته لنفسك .

ثم ارتعش صوت ميشا لما كان يستبد به من شعور جارح وأردف :

— لم يبلغ غضبى منه على فتاة انتزعها منى يوماً ما بلغه الآن على ما قاله . ان ذلك يريك كم ابتعدت الشقة بيننا !

٢١

جعل الثلج يذوب وهو يتساقط . وعند الظهر انهالت أكوام الثلج من على الصخور الناتئة محدثة هديراً ثقيلاً أصمّ . ودبت الحركة فى الغابة الواقعة فى الجانب الآخر من الدون وسرى حفيفها . وتعرت جذوع البلوط ، وراحت قطرات صغيرة تتساقط من أغصانها فتنفذ خلل الثلج الى الأرض التى كانت تنعم بالدفء تحت غطاء من أوراق الخريف المتعفنة . وكانت رائحة الربيع الحارة المسكرة تفوح ، وعبق البستان بشذى الكرز . وظهرت الحفر على صفحة الدون الجليدية ، وراح الجليد ينحسر عن الضفاف ، وطفا على حوافى الحفر ماء رائق أخضر .

كانت احدى قوافل النقل التى تحمل العتاد الى جبهة الدون قد توقفت فى تتارسكى لتبديل الزحافات . وقد برهن الجنود الحمر المرافقون للقافلة أنهم فتيان نشطون . وظل آمرهم يراقب ايفان اليكسييفتش قائلاً له : «سأبقى عندك ، والا فانك ستختفى عن الأنظار فلا نعرف أين أنت» . وذهب الآخرون ليجمعوا الزحافات وكانوا بحاجة الى سبع وأربعين زحافة ذات حصانين .

وذهب يميليان ، حوذى موخوف السابق ، الى بيت ميليخوف فوجد بيوتر وقال له :

— شد حصانيكم لحمل العتاد الى بوكوفسكايا .

فزنخر بيوتر وقال دون أن يتحرك قيد شعرة :

— الحصانان يظلعان ، ثم اننى نقلت البارحة بعض الجرحى الى فيشنسكايا بواسطة الفرس .

فلم يقل يميليان كلمة أخرى ، بل استدار ذاهباً الى الاسطبل . فجرى بيوتر وراءه ، حاسر الرأس ، وهو يصيح :

— هيه ! انتظر دقيقة . . . لا تذهب هناك .

فحدّق يميليان فى بيوتر بصرامة وقال : «لا تعبث اذا ! أريد أن أرى حصانيكم . . . أحسبكم جعلتموهما يظلعان بالمطرقة . ليس بوسعكم ذر الرماد فى عينى . لقد رأيت فى عمرى من الخيل قدر ما رأيتم من الجل . شد أى شىء ، حصانين أو ثورين سيان عندى !

وذهب غريغورى برفقة القافلة . وقبل أن يرحل هرع الى المطبخ ، فقبل طفليه ، وقال لهما على عجل :

— سأعود اليكما بهدايا لطيفة ، ولكن عليكما أن تحسنا السلوك وتصغيا الى قول أمكما . — لكنه قال لبيوتر : — لا يأخذنك القلق علىّ . لن أذهب بعيداً . اذا أرادوا الذهاب أبعد من بوكوفسكايا فسأترك الثورين وأرجع . ولكننى قد لا أعود الى القرية . سأمكث فى بيت خالتنا فى سينغين . تعال لزيارتى ، يا بيوتر ، لست أحب البقاء هنا . — ثم ابتسم بمرارة ، وقال : — حسناً ، مع السلامة . لا تتأسى على فراقى كثيراً يا ناتاليا .

ثم حملت الزحافة بالقذائف عند حانوت موخوف ، الذى جعلوا منه مخزناً للطعام وانطلقوا فى رحلتهم .

وفيما كان غريغورى راقداً فى الزحافة متدثراً بمعطفه ، والثوران يسيران أمامه بثبات ، قال فى دخيلة أفكاره : «الحمر يقاتلون فى سبيل حياة أفضل لهم ، ولكننا قاتلنا أيضاً من أجل

حياة أفضل لنا . فلا وجود للحقيقة فى هذه الحياة . فالغالب يأكل المغلوب . وقد كنت ابحث عن الحقيقة التى لا وجود لها ، فأضنيت قلبى من أجلها ، وانتقلت من جانب الى آخـــر . يقال ان التتار حاولوا ، فى سابق الأيام ، أن يستولوا على أراضى الدون ويجعلوا منا عبيداً . وها قد جاء الآن دور روسيا . لا ، لا سلام معهم ! انهم غرباء عنى وعن القوزاق جميعاً . سيدرك القوزاق الآن ذلك . لقد فررنا من الجبهة ، وها هم الجميع مثـــلى يندمون . . . ولكن فات الأوان» .

كان كتف الطريق مطرزاً بحاشية متماوجة من السهب الذى كان يتلاشى بين آونة وأخرى فى أخدود يعج بالاحراش ، وكانت الحقول الثلجية مترامية على مدى العين لا تكاد ترتفع عن مستوى الزحافة أبداً . وامتد الطريق لا تحده نهاية ، يبعث فى النفس شعوراً بانقباض خدر .

وراح غريغورى يستحث الثورين ، بين آونة وأخرى بوسن ، ثم أغفا متكئاً على صناديق الذخيرة . فبعد أن دخن سيكارة ، دفن رأسه فى القش . وكان يعبق برائحة البرسيم اليابس وأنسام تموز . ثم أخذه النوم . فحلم أنه يسير وأكسينيا خلل ذرة طويلة وهى تحمل بين ذراعيها طفلة بكل حنان ، وعيناها القادحتان مسمرتان فى غريغورى بترقب ، وكان بوسع غريغورى أن يسمع وجيب قلبه ، وحفيف الذرة الغريد ، ويشاهد زركش العشب الألق يفصل بين الحقول ، وزرقة السماء الصافية . لقد عاوده غرام أكسينيا بكل جوارحه ، وفى كل ضربة من ضربات قلبه . ولكنه فى الوقت نفسه كان يدرك أن ما ترى عيناه ليس حقيقة بل ظلاً آفلاً من عالم الرؤى . على أنه استمرأ حلمه ذاك واعتبره واقعاً . كانت أكسينيا كما عهدها قبل خمسة أعوام سوى أنها غدت أكثر تحفظاً وفتوراً .

ورأى غريغورى خصلات شعرها المخملى تعابثها الريح من حول جيدها كما لم يرها من قبل ، ورأى أطراف عصابة رأسها البيضاء . . .

لكن رجة من الزحافة أيقظته ، فعادت به جلبة الأصوات الى دنيا الواقع . وحين رفع عينيه رأى أنهم يمرون بصف طويل من زحافات النقل تتحرك فى اتجاه معاكس .

وكان بودوفسكوف يسوق زحافته أمام غريغورى ، فسألهم بصوت مبحوح :

— ما حملكم ، يا أصدقاء ؟

وراحت مزالق الزحافات تصر ، وأظلاف الثيران المتشققة تخشخش على الثلج . ومرت فترة طويلة من الصمت قبل أن يجيبه أحد على السؤال فقال أخيراً أحد السواق :

— جثث . ماتوا بالتيفوس . . .

فرفع غريغورى نظره فرأى جثثاً مغطاة بالمشمع ممددة على الزحافات المارة به وارتطمت سكة زحافته بيد ظاهرة من تحت المشمع فانبعث من لحمها رنين معدنى خاب . . . فأشاح غريغورى بنظره غير آبه .

وجعلت رائحة البرسيم الثقيلة المخدرة تبعث فيه النعاس من جديد ، وتستدرج الى ذاكرته أحداث الماضى التى كاد يطويها النسيان ، وتحدو به أن يفتح قلبه لمشاعر الماضى التى كانت أشبه بالسيف البتار . وتناهبه ألم ممض ولذيذ معاً وهو يرتمى فى الزحافة ثانية ، فيلامس خده سيقان البرسيم الصفر . وراح قلبه ينزف ويعلو وجيبه تحت سياط الذكريات ، ولم يعاوده النوم الا بعد وقت طويل .

تجمع حول لجنة تنارسكى الثورية بعض الأشخاص ، هم دافيد العامل ، وتيموفى ، ويميليان حوذى موخوف السابق ، والاسكافى فيلكا ذو الوجه المجدور . وكان على ايفان اليكسيفتش أن يركن الى هذه الجماعة لاستناده فى نشاطه اليومى فقد أدرك أن بينه وبين أهل القرية الآخرين جداراً ما ينفك يرتفع . كان القوزاق يحجمون عن حضور الاجتماعات ، فلا يأتون الا بعد أن يدور دافيد والآخرون على البيوت مرات عديدة ، وحينذاك يوافقون على كل المقترحات بصمت . وكان القوزاق الشباب يشكلون أغلبية الذين يحضرون هذه الاجتماعات . ولم يكن هناك مؤيدون حتى بين هؤلاء . فلم تكن عينا ايفان لتقع أثناء الاجتماعات الا على وجوه جامدة ، ونظرات مرتابة وأعين مسبلة . فكان الفتور يسرى الى قلبه ، وتلوح فى عينيه نظرة توسل ، ويغدو صوته واهناً تعوزه الثقة . وذات يوم شكا له فيلكا قائلاً :

— انقطعنا عن القرية ، أيها الرفيق كوتلياروف . فقد ركب الشيطان رؤوسهم . ذهبت البارحة لأحصل على زحافات لنقل جرحى الجيش الاحمر الى فيشنسكايا ، لكن أحداً لم يقبل بالذهاب . اننا لن نتقدم كثيراً على هذه الشاكلة . . .

وهتف يميليان وهو يدك الغليون بابهامه :

— وما أشد ما يسرفون فى الشراب هذه الأيام ! القودكا تُقطَّر الآن فى كل منزل .

وعبس ميشا كوشيفوى وكتم خواطره ، ولكنهم حين هموا بالذهاب الى بيوتهم مساء طلب من ايفان اليكسيفتش قائلاً :

— دعنى آخذ بندقية .

— لماذا ؟

— لست أميل الى التجوال خاوى اليدين . أم تراك لم تلاحظ شيئاً ؟ أحسب أن علينا اعتقال البعض . . . ينبغى أن نعتقل غريغورى ميليخوف ، وبولديريف العجوز ، وماتفى كاشولين ، وميرون كورشونوف . ان هؤلاء الأشخاص يقرأون فى آذان القوزاق . . . انهم فى انتظار عودة رجالهم من الدونيتس .

فقطب ايفان اليكسيفتش وجهه وأتى حركة قانطة :

— ان نحن شرعنا فى اقتلاع الدغل ، فان علينا اجتثاث الكثيرين من مثل هؤلاء . لقد بدأ الناس يتذبذبون . . . بعضهم يؤيدنا ، ولكنهم يهابون كورشونوف . انهم يخشون عودة ابنه مينكا من الدونيتس فيزهق أرواحهم .

وتغيرت الحياة تغيراً عنيفاً ومفاجئاً . . . فجاء رسول عاجل من فيشنسكايا فى اليوم التالى ، حاملاً تعليمات تقضى بفرض اتاوة على أغنى العوائل . فكان لزاماً أن يجبى من القرية مبلغ أربعين ألف روبل فحددت اللجنة الثورية مقدار ما ينبغى لكل عائلة أن تسهم به . وحين حل اليوم التالى كان قد جمع قرابة ثمانية عشر ألف روبل ، وضعت فى كيسين . وكتب ايفان اليكسيفتش رسالة الى لجنة المنطقة . ثم جاء منها ثلاثة رجال من الميليشيا يحملون هذا الامر : «يجب أن يعتقل أولئك الذين رفضوا تأدية اتاواتهم وأن يرسلوا الى فيشنسكايا مخفورين» فألقى القبض فوراً على أربعة شيوخ أودعوا مؤقتاً قبو موخوف ، حيث كان يختزن تفاحه الشتائى فى السابق .

وضجت القرية مثل خلية نحل مستثار . كان كورشونوف قد رفض ، رفضاً باتاً ، أن يدفع أى شىء مما يكتنزه من العملة التى ما انفكت قيمتها تهبط . على أن الوقت قد حان ليقدم حسابه عن أيامه

المترفة الغابرة . فوصل القرية محقق ، وهو قوزاقى شاب من فيشنسكايا كان قد خدم فى الكتيبة الثامنة والعشرين وبصحبته رجل يرتدى فروة فوق صدرية جلدية . وعرضوا على ايفان أمر المحكمة الثورية . ثم اختلوا به فى مكتبه . وكان رفيق المحقق رجلاً كهلاً ، حليق الوجه ، فقال بجد :

— لقد بدأت القلاقل فى المنطقة . فمن بقى من رجال الحرس الأبيض أخذوا يرفعون رؤوسهم ويحرضون القوزاق الكادحين . علينا أن نزيح جميع المعادين لنا : الضباط والقسس ، والأتمانات والدرك ، والأغنياء وكل أولئك الذين قاتلوا ضدنا بحمية . أعد قائمة بأسمائهم ، وقدّم للمحقق كل عون . مع العلم أن له معلومات سابقة عن البعض منهم .

وحدق ايفان فى وجه الرجل الحليق ، واستعرض الاسماء عائلة بعد عائلة ومر على ذكر بيوتر ميليخوف ايضاً ، بيد ان المحقق هز رأسه قائلاً :

— انه واحد منا . كما ان فومين طلب الا نتعرض له . انه صديق للبلاشفة ، لقد خدمت معه فى الكتيبة الثامنة والعشرين .

وكتب كوشيفوى القائمة بخط يده على ورقة مسطرة مقطوعة من كراسة ووضعها على المنضدة .

وبعد ذلك ببضع ساعات جلس القوزاق المعتقلون فى حوش موخوف الفسيح يحرسهم رجال الميليشيا ، ينتظرون أن ترسل لهم عوائلهم المؤونة والملابس والحاجيات الضرورية الأخرى . وكان ميرون كورشونوف يرتدى ملابس جديدة تماماً وهى معطف فرو وحذاء وجوارب بيضاء ، وكأنه يعد العدة لمواجهة منيته ، وكان يجلس فى الأخير الى جانب بوغاتيريوف العجوز وماتفى كاشولين . وراح أفديبتش الكذوب يجوب الحوش ويلقى نظرات ساهمة على البئر أو يلتقط

عوداً من الأرض ثم يعود من سقيفة الباب الى بوابة الصفصاف ، وهو يمسح وجهه الأرجوانى العرق بكمه . أما الآخرون فقد جلسوا صامتين ، منكسى الرؤوس ، يخطون على الثلج بعصيهم . وجرت نساؤهم الى الحوش دامعات العيون ، يحملن أكياساً وصرراً وهنّ يتهامسن . وبكت لوكينشنا وهى تزرر سترة الفرو على رجلها العجوز وتشد ياقته بمنديل نسائى كبير أبيض . وفيما كانت تحدق فى عينيه الذاويتين قالت :

— لا تحزن ، يا ميرون ! فلعل نهايتنا خير . يا الهى ! — واستطال فمها وهى تخنق عبراتها ، ولكنها ما لبثت أن زمت شفتيها وهمست : — سآتى لزيارتك وأجلب معى أغريبينا ، فانك تحبها كثيرا . . .

وصاح رجل من رجال الميليشيا عند البوابة :

— وصلت الزحافات . ضعوا عليها حوائجكم وهلموا ! يا نساء ، كفى هذا البكاء والنحيب !

فلثمت لوكينيشنا يد ميرون المشعرة ، لأول مرة فى حياتها ، ثم جرت نفسها عنه . ودبّت زحافات الثيران عبر الحوش وئيدة صوب الدون . وتبعها المعتقلون السبعة ورجلان من رجال الميليشيا مشياً على الأقدام . وقد تخلف أفديبتش عنهم ليربط حذاءه ثم جرى كالشباب ليلحق بهم . وسار ماتفى كاشولين الى جانب ابنه . وراح ميدانيكوف وكورولیوف يدخنان . أما ميرون فقد تشبث بالزحافة ، وسار خلفهم جميعاً بوغاتيريوف الشيخ بخطى ثقيلة مهيبة . كانت الريح تدفع لحيته الكهنوتية البيضاء الى وراء ، وكان اللفاح الملقى على كتفه يخفق فيما يشبه تلويحة الوداع .

فى ذلك اليوم الغائم من شباط وقع فى تتارسكى حادث خارق آخر . كان أهل القرية قد ألفوا فى الآونة الاخيرة مجيء الموظفين

من مركز المنطقة . ولذا فان أحداً لم يلق بالاً الى المركبة الزحافة تجتاز ساحة القرية ، يجرها حصانان ويجلس الى جانب سائقها أحد الرجال وهو منكمش من البرد . وتوقفت المركبة عند منزل موخوف ونزل الرجل ، فاذا به كهل متئد الحركة . فسوى معطف الخيالة الطويل الذى يرتديه ، ثم رفع غطائى الأذن لقبعة الخيالة الحمراء الفرو من على أذنيه ، ثم أمسك بالقراب الخشبى لمسدسه الموزر ، وارتقى الدرجات على مهل .

كان ايفان اليكسييفتش فى غرفة اللجنة الثورية بصحبة اثنين من رجال الميليشيا . ودخل القادم الجديد دون أن يطرق الباب ، ثم مسد لحيته القصيرة الشهباء ، وقال مستفهماً بصوت عميق :

— أريد الرئيس .

فأدار ايفان الى المتكلم عينيه الجاحظتين وحاول أن يهب على قدميه . ولكنه لم يستطع الا أن يحرك فمه كالسمكة ، وينقر على ذراعى كرسيه الباليتين بأصابع يده . فقد كان شتوكمان يحدق فيه من تحت قبعة الخيالة القوزاقية . وظل لحظة يشخص الى ايفان بعينين ضيقتين دون أن يبدو عليه أنه عرفه ، ثم أشرقت عيناه وانساب خط من الغضون الصغيرة من زاويتيهما حتى الصدغين ، وخطا عبر الغرفة نحو ايفان الذى لبث جالساً ، فعانقه بدون تردد وقبله ، ماسحاً وجهه بلحيته المبتلة ، وهتف :

— لقد عرفت ذلك ! قلت فى نفسى ، اذا كان ايفان ما يزال حياً فسأجده رئيساً فى تتارسكى !

— أوسيب دافيدوفيتش ، اقرصنى ! اقرصنى ، أنا الخنزير ! فلا أستطيع أن أصدق عينى ! . .

وكاد ايفان أن يجهش بالبكاء ، فرد عليه شتوكمان وهو يفك يده برفق :

— انها الحقيقة تماماً ! حسناً ، أليس لديك ما نجلس عليه ؟

— هاك ، خذ هذا الكرسى . ولكن من أين نبعت ؟ قل لى .

— أنا الآن أعمل فى الشعبة السياسية للجيش الأحمر . أراك ما تزال غير مصدق بأننى ماثل أمامك حقيقة ! أيها الحجر ! — قال شتوكمان باسماً وهو يضرب على ركبة ايفان برفق . — ولكن الأمر فى غاية البساطة ، يا صاحبى القديم . فبعد أن أخذونى من هنا أرسلونى الى المنفى وهناك استقبلت الثورة . وقد قمنا ، أنا ورفيق آخر بتنظيم مفرزة من الحرس الأحمر وأسهمنا فى قتال دوتوف وكولتشاك . لقد كان وقتاً بهيجاً ، يا ولدى ! ثم طردناه الى ما وراء الأورال ، هل تعرف ؟ وها أنذا الآن فى جبهتكم ، فقد أرسلتنى الشعبة السياسية فى الجيش الثامن الى هنا لأعمل فى منطقتكم لأننى سبق أن عشت فيها وخبرت الاوضاع ، كما يقال . وحين وصلت فيشنسكايا ، تحدثت الى جماعة اللجنة الثورية ، ثم قررت المجىء الى تتارسكى قبل كل شىء فكرت بالمجىء الى هنا والبقاء لأعمل وأساعدكم على تنظيم الأمور ، ومن ثم أذهب الى مكان ثان . أنا ، كما ترى ، لم أنس صداقتنا القديمة . ولكن بوسعنا أن نعود الى ذلك فيما بعد ، دعنا الآن نتحدث عنك ، عن الوضع هنا . أخبرنى بكل ما تعلم عن الجميع من يعمل الآن معكم ؟ من بقى على قيد الحياة ؟ — ثم التفت الى رجلى الميليشيا وأردف : — أيها الرفيقان ، أتركانى والرئيس وحدنا ساعة أو بعض ساعة . أف يا للشيطان ! حين كنت أجتاز القرية شممت رائحة الايام الخوالى . . . أجل ، لقد كانت الحياة راكدة يومئذ ، أما الآن . . . حسناً ، هات ما عندك !

وبعد زهاء ثلاث ساعات أوصل ميشا كوشيفوى وايفان شتوكمان الى مأواه القديم عند لوكيريا الحولاء . سارا على ممشى الطريق بنى اللون ، وميشا متشبث بكم شتوكمان وكأنه يخشى أن يتلاشى كشبح .

وقدمت لوكيريا لنزيلها القديم صحناً من الحساء ولم تبخل حتى بقطعة مهروشة من السكر نبشتها من مذخرها الخفـــى . وبعد أن تناولوا شاياً من خلاصة أوراق الكرز تمدد شتوكمان على رف الموقد ، ولبث ينصت الى حكايات لا رابط بينها ، يرويها ميشا وايفان ، ويطرح أسئلة ، ويعض على مبسم سيكارته . وقبيل الفجر استسلم الى الرقاد فسقطت سيكارته على قميصه الفانيلة الوسخ . ومضى ايفان فى حديثه نحو عشر دقائق أخرى ، ولكنه حين سمع شتوكمان يجيب على سؤاله بالشخير ، بارح الغرفة على أطراف أصابعه بهدوء ، وقد احمر وجهه من الجهد الذى بذله لكبت سعاله .

وفيما كانا يهبطان الدرج سأله ميشا وهو يضحك بهدوء :

— هل تشعر بتحسن ؟

* * *

عند منتصف الليل عاد أولشانوف الذى كان قد رافق المعتقلين الى فيشنسكايا . فطرق مراراً على نافذة الغرفة الصغيرة حيث ينام ايفان اليكسيفتش ، وأيقظه فى نهاية الأمر .

فسأله ايفان وقد انتفخ وجهه من النوم :

— ماذا تريد ؟ هل عدت برسائل ، أم ماذا ؟

فجعل أولشانوف يعبث بسوطه وقال :

— رموا القوزاق بالرصاص .

— أنت تكذب ، أيها الخنزير !

— حققوا معهم حال وصولهم ثم ذهبوا بهم الى غابة صنوبر قبل حلول الظلام . . . شهدت الأمر بنفسى ! . .

فشرع ايفان يتخبط بجزمته اللباد ، وارتدى ملابسه على عجل ، ثم جرى الى شتوكمان ، وهتف قائلاً :

— أرسلنا بعض المعتقلين الى فيشنسكايا اليوم فأعدموهم رمياً بالرصاص ! ظننت أنهم سيودعونهم السجن وحسب ، ولكن هذا شىء آخر . لن يسعنا والحالة هذه أن نحرز أى تقدم . سيعرض الناس عنا يا أوسيب دافيدوفتش ، علام قتلوهم ؟ ماذا سيحدث الآن ؟

كان يتوقع أن يعترى شتوكمان ما يشعر به من هياج وسخط على ما جرى ، ولكن شتوكمان قال فيما كان يرتدى قميصه على مهل :

— والآن ، دعك من الصياح ! فانك ستوقظ لوكيريا ! — ثم ارتدى ملابسه ، وأشعل سيكارته ، وسأله مرة أخرى عن الأسباب التى أدت الى اعتقالهم ثم قال بفتور : — ينبغى أن تدخل فى رأسك شيئاً ، وتبقيه هناك ! ان الجبهة على بعد مائة وعشرين فرسخاً من هنا . وان غالبية القوزاق يناصبوننا العداء . وسبب ذلك هـــو أن الكولاك من القوزاق ، وأتماناتكم ، والرؤساء الآخرين ، ما زالوا يتمتعون بنفوذ كبير بين القوزاق الكادحين . ما علة ذلك ؟ حسناً ، ينبغى أن يكون فى وسعك الاجابة عن ذلك . ان القوزاق طائفة عسكرية خاصة . لقد ربت القيصرية فيهم حبهم هذا للسلطات وللقادة الآباء» . هؤلاء «القادة الآباء» أنفسهم هم الذين كانوا يأمرون القوزاق بسحق اضرابات العمال . لقد لعبوا برؤوس القوزاق طيلة ثلاثمائة عام . حسناً ! ثمة فرق كبير بين كولاكى من اقليم

ريزان وكولاكى من قوزاق الدون . فقد كان كولاكى ريزان عرضة للاستغلال ، انه أفعى سامة خطرة . فهو لا يكتفى بتلفيق الأكاذيب ضدنا ، كما فعل كورشونوف والآخرون ، حسب قولك أنت ، بل سيحاول أن يهاجمنا هجوماً مكشوفاً . انه سيفعل ذلك حتماً ! انه سيحمل بندقية ويطلق النار علينا . سيقتلك . وسيحاول أن يجعل القوزاق الآخرين يتبعونه ، ولا سيما غير المعسرين منهم ، لا بل وفقراءهم أيضا وسيقتلنا بأيديهم ! حسناً ، ما تهمة هؤلاء ؟ هل اتهموا بنشاطهم المعادى لنا ؟ حسناً ، قل كلمة أو اثنتين . وادفع بهم الى الحائط ! ولا داعى لذرف المخاط عليهم . . . «كان رجلاً طيباً» وما الى ذلك . . .

فحرك ايفان اليكسيفتش يده وقال :

— لست آسفاً ، لا تسىء فهمى . ان ما أخشاه هو أن نثير عداء الآخرين لنا .

كان شتوكمان حتى تلك اللحظة قد ربت على صدره المشعر وهو يتظاهر بشىء من الهدوء . ولكنه انفجر ، فجأة وأمسك ايفان من ياقة قميصه بعنف ، وجره اليه ، وقال بصوت مخنوق :

— لن نثير عداءهم ان أدخلنا فى أذهانهم حقيقة واقعنا الطبقى ، فليس لدى القوزاق الكادح من رفاق سوانا ، لا الكولاك . آه ، يا الهى ، أنت . . . الكولاك يعيشون من كدح هؤلاء ويسمنون عليه ، أليس كذلك ؟ أيها المغفل العجوز ! لقد فقدت حماسك ! آه ، أرانى بحاجة الى معالجة أمرك ! عامل مثلك ، وها أنت ترول كالمثقفين . . . كأنك عضو حقير فى الحزب الثورى الاشتراكى القذر ! آه ، يا ايفان ! — ثم خلى عن ياقة ايفان وابتسم بوهن ، وهز رأسه ، ثم جعل يجر أنفاساً عميقة من سيكارته واختتم كلامه بنبرة أخف وطأة :

— اذا لم نلق القبض على أنشط الأعداء فى المنطقة فستحدث انتفاضة . أما اذا عزلناهم فى الوقت المناسب فقد لا تحدث تلك الانتفاضة . ليس ضرورياً أن نعدمهم جميعاً ، ينبغى القضاء على القادة فقط ، أما الآخرون فقد نرسلهم الى قلب روسيا . ولكن ليس بوسعك أن تبدى المجاملات لأعدائك . ليس بوسعك أن «تصنع ثورة وأنت مرتد قفازين» كما يقول لينين . هل كان من الضرورى اعدام هؤلاء الرجال والحالة هذه ؟ أحسب أنه كذلك ، ربما ليس جميعهم ، ولكن كورشونوف بالتأكيد . هذا أمر واضح . وثمة غريغورى ميليخوف : لقد نجا الى حين . كان ينبغى أن نعالج أمره . انه أخطر من الآخرين جميعاً . وتذكر هذا أيضاً . ان ذلك الحديث الذى تحدث به اليكم هو حديث رجل سيصبح فى الغد عدواً . اننا لا نعانى هنا شيئاً يذكر . أما فى جبهة القتال فيموت الآن خيرة أبناء الطبقة العاملة ، يموتون بالألوف . ينبغى أن تحزن عليهم هم ، لا على أولئك الذين يقومون بقتلهم أو يتحينون الفرصة لتسديد الطعنة الى ظهورنا . فإما نحن وإما هم ! ليس ثمة حل وسط . هذا هو الحال ، يا ايفان ، يا صاحبى القديم !

٢٣

كان بيوتر قد دخل المطبخ لتوه بعد أن أطعم الماشية ، وعلى أثره فى الحال طق مزلاج الباب الخارجى ، وتخطت لوكينشنا العتبة وهى متلفعة بشال تركى أسود . وهرولت صوب ناتاليا واقفة عند المصطبة بخطى صغيرة ، دونما تحية وهوت على ركبتيها أمامها . فصرخت ناتاليا بصوت غريب فيما حاولت رفع جسد أمها الثقيل :

— ماما ! عزيزتى ! ماذا جرى ؟

وبدل أن تجيب راحت تضرب رأسها على الأرض الترابية وتنوح بصوت مكبوت منكسر وتبكى كمن يبكى على الموتى :

— يا حبيبى ! لم ذهبت عنى وخلفتنى ؟

وانفجرت المرأتان تنتحبان نحيباً زاده حزناً على حزن زعيق الطفلين الباكيين ، فما كان من بيوتر الا أن أخذ كيس تبغه من على حافة الموقد وهرع الى سقيفة الباب . وقد خمن فى الحال ما حدث ، ووقف يدخن على الدرجات . ثم تلاشت الأصوات الناحبة ، فعاد الى المطبخ وهو يحس بقشعريرة مزعجة تسرى فى ظهره . كانت لوكينشنا قد دفنت وجهها فى منديلها الندى ، وهى تندب :

— لقد قتلوا عزيزنا ميرون غريغوريفتش ! فغاب نسرى عن الحياة . . . تركنا أيتاما . . . ليس لنا الآن من يرعانا . . .

ثم علا صوتها فاستحال عويلاً : «انغلقت عيناه العزيزتان . انغلقتا الى الأبد !»

ورشت داريا الماء على وجه ناتاليا التى أغمى عليها . ثم مسحت ايلينشنا خديها بصدريتها وجاءهم من الغرفة الأمامية ، حيث يرقد بانتلاى بروكوفتش عليلاً ، صوت سعال وأنين موجع .

وأمسكت لوكينشنا بيد بيوتر وشدتها الى صدرها بجنون :

— بحب المسيح ! بحب الله ! اذهب الى فيشنكايا وعد به رغم أنه ميت . عد به . أواه ، يا ملكة السماء الرحيمة ! أواه ، لا أريده أن يجيف هناك من دون تشييع لائق ! . .

فخطا بيوتر مبتعداً عنها وكأن فيها طاعوناً ، وقال :

— ماذا بحق ! . . . بماذا تفكرين ؟ انها لمهمة رائعة أن أبحث عنه ! حياتى أغلى عندى من أن أفعل ذلك . كيف يسعنى

أن أعثر عليه هناك ؟

— لا ترفض طلبى ، يا عزيزى بيوتر ! بحب المسيح . . . بحب ربنا . . .

وراح بيوتر يلوك شاربه ، ثم وافق فى نهاية الأمر . فقرر الذهاب الى قوزاقى من معارف أبيه فى فيشنسكايا ، ليستعين به فى محاولة للحصول على جثة ميرون . وانطلق بعربته ليلاً ، ومنازل القرية تفيض بالضياء ، والناس يناقشون حادث الاعدام فى كل مطبخ . ثم توقف قرب الكنيسة الجديدة ، فى بيت رفيق قديم لوالده فى الجندية ، والتمس مساعدته . فوافق القوزاقى عن طيب خاطر ، وقال معلقاً :

— أعرف أين دفنوهم . لا يحفرون الأرض عميقاً . ولكن من الصعب أن نعثر عليه فليس هو الوحيد . لقد أعدموا البارحة اثنى عشر رجلاً من الذين اعدموا القوزاق فى ايام سلطة الكاديت . لدىَّ شرط واحد : عليك أن تبتاع لى ربع غالون من الفودكا . هل اتفقنا ؟

وتزودا بمحفة ومجارف ، واجتازا المقبرة عند منتصف الليل متجهين بمحاذاة القرية نحو الصنوبر حيث نفذت أحكام الاعدام . كان ثلج ناعم يتساقط ونبات السرخس المتجمد يخشخش تحت أقدامهما فأرهف بيوتر أذنيه لكل نأمة وهو يلعن فى سره هذه المهمة ، ولوكينشنا ، وحتى ميرون المتوفى . ثم توقف القوزاقى عند ربوة رملية ، وقال :

— ينبغى أن يكونوا فى مكان قريب من هنا .

ثم مضيا مائة ياردة أخرى ، فولت الأدبار ثلة من الكلاب وهى تنبح وتزمجر . فرمى بيوتر المحفة وهمس بصوت مبحوح :

— انى عائد ! ليذهب الى الشيطان ! كيف يتسنى لنا العثور

عليه بين الآخرين ؟ أوه ، تورطت ، توسلت تلك الروح الشريرة العجوز ! . .

فضحك القوزاقى منه وقال :

— علام خوفك ؟ تعال !

مضيا فبلغا بقعة عند شجرة صفصاف عجوز حيث كان الثلج مداساً بشدة ومختلطاً بالرمل . وكانت تخرج منه كالأشعة آثار خطوات الناس العريضة وخطوات الكلاب الصغيرة . وشرعا يحفران .

. . . وعرف بيوتر ميرون بلحيته الحمراء . فرفع الجثة من الحزام ، ورماها على المحفة . وراح القوزاقى يسعل وهو يردم القبر ، ثم رفع مقبضى المحفة ، وهو يتبرم :

— كان ينبغى أن نأتى بالزحافة الى أشجار الصنوبر . نحن أحمقان ! فهو يزن أكثر من ثمانين كيلوغراماً . وليس من السهل أن نمشى على الثلج .

وباعد بيوتر ما بين ساقى الرجل الميت كيما يستطيع أن يمسك بمقبضى المحفة .

وفى كوخ القوزاقى ، جلسا يشربان حتى مطلع الفجر . وكان ميرون كورشونوف ملفوفاً ببساط ينتظر فى الزحافة خارج المنزل ، وبسبب ثمله قد ترك بيوتر الحصان مشدوداً الى الزحافة ، فوقف الحيوان طوال الوقت يشد على رسنه ، ويزنخر وينصب أذنيه . لقد شم رائحة الجثة فلم يقترب من القش الموضوع فى الزحافة .

كان الفجر ينبلج حين وصل بيوتر الى تتارسكى ، قادماً عن طريق المرج يسوق الحصان دونما توقف . وكان رأس ميرون من ورائه يضرب على قاع الزحافة ، فتوقف بيوتر مرتين ليدس تحته شيئاً من قش المروج الندى . وذهب بالجثة الى أهلها مباشرة ، ففتحت البوابة أغريبينا ابنة ميرون الأثيرة لدى أبيها الميت ، ثم تولت عن

الزحافة الى أكوام الثلج فى الحوش . فرفع بيوتر الجثة على كتفه كما يرفع كيساً من الدقيق ، ثم حملها الى المطبخ الواسع ، وأنزلها بعناية فوق المنضدة التى نشر عليها خوان أبيض . فزحفت لوكينشنا ، حاسرة الرأس وقد بحّ صوتها من البكاء ، فدنت من قدمى زوجها وعليهما جوربا جناز أبيضان نظيفان . ثم همست قائلة :

— كنت أحسب أنك تعود الى بيتك على قدميك ، يا سيدى العزيز . ولكن كتب لك أن تأتى محمولاً على الأيدى . — كان همسها ونشيجها خافتين لا يكاد المرء يسمعهما ، يشبهان قهقهة الضحكات الى حد غريب . ثم قاد بيوتر غريشاكا العجوز الى داخل الغرفة من ذراعه . كان الشيخ يختض بكل جسده . ولكنه سار الى الطاولة بنشاط فوقف عند الرأس .

— حسناً ، يا ميرون ! هكذا اذا نلتقى ثانية ، يا ولدى ! — ثم رسم اشارة الصليب على نفسه وقبل الجبين المتجمد الملطخ بالطين الأصغر : — ميرون . . . وأنا لن أتأخر كذلك . . . — ثم ارتفع صوت الشيخ الى عويل متوجع . ورفع اليد الهامدة ، بحركة فتية نشطة ، الى شفتيه ، كأنه يخاف من افشاء سرّ ، ثم جثا عند الطاولة .

أخذت نوبة من الحزن بخناق بيوتر ، فخرج الى الفناء ، بهدوء حيث كان حصانه مربوطاً عند بيت الدجاج .

٢٤

يتهافت الدون من بطونه العميقة الهادئة على الضفتين ، فيخلف بركاً واسعة ضحلة . وتدوم المياه فيما ينساب الدون دؤوباً رقيقاً ، تسرح على قعره الرملى الصلد أسراب سمك أسود البطن ، وفى الليل

يرتفع صغار السمك بحثاً عن الطعام ، ويتجول الشبوط فى الأماكن الخضر الموحلة التى يرتادها قرب الضفة ، ويبحث سمك الكراكى وسمك الشط عن صغار السمك ، وينبش سمك القرموط بين القواقع ، فيرمى بعض الأحيان برشة من الماء الأخضر حين يظهر للعيان هنيهة فيهف بزعنفته الذهبية فى ضوء القمر الغامر ، ثم يغوص ثانية لينقب بين القواقع برأسه المنتفخ ذى العذار حتى مطلع الصبح ، حين يرقد خدراً فى أمان تحت نتوء أسود متهرئ .

ولكن حيث تضيق الفسحة بين الضفتين يشق الدون الحبيس لنفسه مجرى عميقاً ويمضى على صهوة أمواجه المزبدة يرسل هديراً مكتوماً فتظهر الدوامات حول الرؤوس والنتوءات ، وتروح المياه تتسابق بسرعة مريعة فتعجز العين عن تتبعها .

وانسابت الحياة فى رحابة أيامها الوادعة الى مجرى يضيق بها . كانت مناطق الدون الأعلى تمور . وقد ارتطم تياران فانقسم القوزاق على أنفسهم وراحت الدوامة تحوم بكل عنفوانها . كان الشباب والفقراء من القوزاق ما يزالون قابعين مترددين ، يأملون أن يأتيهم السلام من الحكم السوفييتى ، ولكن الرجال المسنين بدأوا الهجوم وكانوا يقولون صراحة ان الحمر عازمون على ابادة القوزاق عن بكرة أبيهم .

وفى الرابع من آذار دعا ايفان اليكسييفتش أهل تتارسكى الى عقد اجتماع ، فحضر الاجتماع حشد كبير على غير العادة ، ولعل مرد ذلك أن شتوكمان كان قد اقترح أن تدعو اللجنة الثورية الى عقد اجتماع لتوزيع أملاك التجار الذين هربوا الى صفوف البيض على القوزاق المعوزين . وقد سبق الاجتماع لقاء عاصف بين شتوكمان وموظف محلى قدم من فيشنسكايا يحمل تخويلاً باستلام بعض الملابس المصادرة فأوضح شتوكمان له أن اللجنة الثورية لا تستطيع

تسليم الملابس فى الوقت الراهن اذ أنها أعطيت فى اليوم السابق الى قافلة تحمل جرحى ومرضى من الجيش الأحمر .

فاغتاظ الموظف الشاب ، وجعل يصرخ بحدة فى وجه شتوكمان :

— من أعطاك اذناً لتسليم الملابس المصادرة ؟

— لم نطلب اذناً من أحد .

— فبأى حق اختلست أموال الدولة ؟

— لا تصرخ ، أيها الرفيق ، ولا تهذر . لم يختلس أحد شيئاً . لقد سلمنا الفروات الى السواق وفق تعهد خطى يقضى باعادة الملابس بعد أن ينقلوا جرحاهم الى نقطة معينة . كان الجنود شبه عراة ، فلو أننا سمحنا بذهابهم على تلك الحال لكنا مرسليهم الى حتوفهم . ما كان بوسعى أن أفعل غير ذلك ؟ لا سيما والملابس كانت مهملة فى القبو .

كان شتوكمان يتحدث بهدوء ، كابحاً جماح غيظه ، فكان يمكن أن ينتهى الحديث بسلام . ولكن الشاب مضى يقول بصوت صارم النبرات :

— من أنت ؟ رئيس اللجنة الثورية ؟ سأعتقلك ! سلم عملك الى مساعدك . سأرسلك الى فيشنسكايا على الفور . أحسب أنك سرقت نصف الأموال هنا ، ولكن . . .

فسأله شتوكمان وقد علا وجهه شحوب الموتى :

— هل أنت شيوعى ؟

— ليس هذا من شأنك ! يا رجل الميليشيا ! خذ هذا الرجل فوراً وسلمه فى فيشنسكايا . ضعه تحت يد ميليشيا المنطقة وخذ به ايصالاً .

ثم تفحّص شتوكمان بنظرة خاطفة ، وأضاف :

— سوف نتحدث واياك هناك «! سأجعلك ترقص ، أيها المتسلط .

— يا رفيق ، هل جننت ؟ ألا تعرف . . .

— بلا كلام ! أسكت !

كان ايفان اليكسييفتش يصغى الى ذلك الحوار دون أن يستطيع التدخل بكلمة ، فرأى شتوكمان يمد يده الى مسدسه الموزر المعلق على الحائط بحركة بطيئة فظيعة ، فتراقص الهلع فى عينى الشاب . وبسرعة مدهشة فتح الباب دفعاً بظهره ، فهوى على درجات العتبة وظهره يرتطم بكل درجة . وحبا على قدميه ثم ألقى بنفسه فى زحافته وراح يستحث سائقه ، يهمزه فى ظهره وهو يجتاز ساحة القرية ، ناظراً الى وراء باستمرار ، ليرى ما اذا كان أحد يتعقبه .

فهز هدير الضحك نوافذ مقر اللجنة الثورية . وتكوم دافيد الضحوك على المنضدة متشنجاً . ولكن أجفان شتوكمان كانت تطرف بعصبية وهو يلف سيكارة بأصابع راجفة ، ويدمدم :

— يا له من خنزير ! يا للخنزير البائس !

وذهب الى الاجتماع بصحبة ميشا وايفان . كانت الساحة ملأى ، فخفق قلب ايفان بجزع وهو يقول فى دخلية أفكاره : ثمة شىء فى الهواء ، لقد حضرت القرية برمتها» . على أن مخاوفه تبددت عندما خلع قبعته وسار الى وسط الحلقة . فقد أفسح له القوزاق الطريق عن طيب خاطر . وكانت وجوههم تنم عن الاحترام ، وبدت عيون البعض باسمة . فاجال شتوكمان النظر فى حلقة القوزاق ، وكان يريد ازالة ذلك الجو المتوتر ، وجر القوزاق الى الحديث . وحذا حذو ايفان فخلع قبعته الفرو وهتف :

— أيها الرفاق القوزاق ! ها قد مضت ستة أسابيع منذ أن أقيم عندكم الحكم السوفييتى . ولكننا ، معشر أعضاء اللجنة

الثورية ، ما نزال نلاحظ أنكم لا تطمئنون الينا ، بل وتناصبوننا العداء . انكم لا تحضرون الاجتماعات ، وتدور بينكم الشائعات ، والحكايات السخيفة عن الاعدام بالجملة وعن الظلم الذى يزعم أن الحكومة السوفييتية فرضته عليكم . لقد حان الوقت لأن نتحدث بصراحة أكثر ونزيل الحواجز بيننا . لقد اخترتم بأنفسكم لجنتكم الثورية ، فايفان كوتلياروف وكوشيفوى قوزاقيان منكم ، فلا ينبغى أن تكتموا عنا الأمور . وقبل كل شىء ، أعلن الآن على رؤوس الأشهاد أن ما يروج الأعداء من الحكايات حول الاعدام الجماعى ان هى الا افتراءات لا أكثر ولا أقل . ان هدفهم من نشر هذه الافتراءات لواضح : انهم يودون بذر الشقاق بين القوزاق والحكومة السوفييتية ، ودفعكم الى أحضان البيض من جديد .

فصاح أحدهم فى مؤخرة الحشد :

— أنت تقول ان ليس هناك اعدام بالرصاص ؟ فأين ذهب رجالنا السبعة ، اذا ؟

— لم أقل ، أيها الرفيق ، ان ليس هناك اعدام بالرصاص البتة . لقد أعدمنا ، وسنظل نعدم ، أعداء الحكومة السوفييتية وكل من يفكر بتكبيلنا بنظام مالكى الأراضى . اننا لم نطح بالقيصر ، ونضع نهاية للحرب مع ألمانيا ، ونحرر الشعب ، لأجل ذلك . ماذا أصابكم من الحرب الألمانية ؟ آلاف من القوزاق الموتى ، واليتامى ، والأرامل ، والدماء . . .

— هذا صحيح !

واستطرد شتوكمان قائلاً :

— ونحن نريد انهاء الحروب جميعاً . اننا ندعو للأخوة ما بين الشعوب . أما تحت النظام القيصرى فكنتم تستخدمون لفتح الأرض من أجل أصحاب الأرض والرأسماليين . وفى سبيل اثراء

أولئك الملاكين والصناعيين . خذوا لستنتسكى الذى كان يعيش على مقربة من قريتكم مثلاً . لقد تسلم جده عشرة آلاف أكر من الأرض لقاء خدماته فى حرب ١٨١٢ * . ولكن ماذا تسلم أجدادكم ؟ خسروا رؤوسهم على أرض ألمانية . أراقوا دماءهم عليها .

فسرت فى بداية الأمر همهمة ثم ارتفع هدير الجمع مؤيداً . فمسح شتوكمان العرق من جبينه الذى دبّ فيه الصلع ، وهتف :

— سنحطم كل من يرفع يداً ضد حكومة العمال والفلاحين . لقد كان قوزاقكم الذين أعدموا بأمر المحكمة الثورية أعداءنا . انكم جميعاً تعلمون ذلك . ولكننا سنمضى معكم ، مع الكادحين ، مع الذين يؤيدوننا ، يداً بيد ، أو منكباً لمنكب شأن ثيران الحراثة . سنشق الأرض سوية لأجل حياة جديدة ، ونمشطها لنزيل الأدغال القديمة منها ، لنزيل أعداءنا ، من التربة ، لكى لا يرسلوا فى الأرض جذورهم مرة أخرى ، فيخنقوا نماء الحياة الجديدة .

وأدرك شتوكمان من همهمة القوزاق الخفيضة ووجوههم المشرقة بأن كلماته أصابت مرماها فى قلوب القوزاق ، ولم يخطئ حدسه ، فقد شرعوا يفصحون عما يدور فى أفكارهم وأرواحهم .

— أوسيب دافيدوفتش ! اننا نعرفك خير معرفة ، لقد عشت معنا ذات مرة ، فأنت مثل واحد منا . أوضح لنا الأمر ، لا تخش شيئاً . حكومتك هذه ، ماذا تريد منا ؟ نحن بطبيعة الحال نؤيدها ، وقد فرّ أبناؤنا من الجبهة ، ولكننا قوم جهلة ، لا نفهم جلية الأمر .

هكذا استرسل غريازنوف العجوز فى حديث طويل ، لا يكاد يفهم الا بعضه ، فقد كان يدور حول الموضوع ، وواضح أنه خشى

---

* حرب روسيا ضد نابليون . **المعرب** .

أن يفرط فى الكلام . بيد أن اليكسى شامل ذا الذراع الواحدة لم يطق صبراً فصاح :

— هل يوسعى أن أتكلم ؟

فأجاب ايفان ، وقد بعث فيه النقاش حماساً :

— هيا ، اذا .

— يا رفيق شتوكمان ، قبل كل شىء أجبنى عن هذا : هل يوسعى أن أقول ما أشاء ؟

— أجل .

— ولن تعتقلنى ؟

فابتسم شتوكمان وأجاب بالنفى بحركة من يده .

— ولكن لا تغضب . أنا رجل ساذج ، وسأنطق بما يدور فى ذهني .

فجره أخوه مارتن من كمه الخاوى من الخلف وهمس قلقاً :

— دعك من هذا ، يا أحمق ! دعك من هذا والا فانهم يضعون اسمك فى القائمة ! سيضعونك فى القائمة ، يا أليكسى ! . .

ولكن أليكسى جر نفسه مبتعداً ، واستدار ليواجه المجتمعين وخده ما انفك يرمع ، ثم قال :

— أيها القوزاق ! سوف أتكلم ، واحكموا أنتم ان كان كلامى صحيحاً أم لا . — ثم استدار الى الوراء على عقبيه كما يفعل الجند ونظر الى شتوكمان بمكر : — هكذا أرى الأمر . ان كنا سنقول الحقيقة ، فلنفعل ذلك بلا تحفظ ! والآن سأفصح لك عما يجول فى خواطر القوزاق جميعاً . وسأذكر سبب شعورنا بسوء معاملة الشيوعيين لنا . قلت انكم لستم ضد القوزاق الشغيلة ، أولئك الذين لا يحاربونكم . وانكم ضد الأغنياء ، وان المفروض فيكم أنكم اخوان الفقراء . حسناً ، أجبنى عن هذا ، هل كانوا على

حق فى اعدام قوزاق قريتنا أم لا ؟ لن أقول شيئاً عن كورشونوف : لقد كان أتماناً ، وظل يركب ظهور القوزاق طوال حياته . ولكن لماذا أعدم أفديبتش الكذوب ؟ وماتفى كاشولين ؟ وبوغاتيريوف ، وميدانيكوف وكورولیوف ؟ لقد كانوا مثلنا تماماً جهلة اختلطت عليهم الأمور . لقد تعلموا كيف يمسكون بمقابض المحاريث لا الكتب . ولو صح أنهم تفوهوا بسوء ، فهل كان هناك داع لصفهم عند الحائط بسبب ذلك ؟ — ثم جر نفساً عميقاً ، وخطا الى أمام ، فخفق كمه الخاوى على صدره ورمع فمه : — أنتم اعتقلتم أولئك الذين تكلموا كالحمقى ، وعاقبتموهم ، ولكنكم لا تلمسون التجار بشيء . التجار افتدوا حياتهم بمالهم . ولكن ليس لدينا نحن ما نفتدى به حياتنا ، اننا ننفق حياتنا فى عزق الأرض ، ولكن الحظ يصد عنا . ربما أعدمتم البعض منهم ، ولكن كان من الممكن أن يسوقوا آخر ثيرانهم اليكم من بيوتهم لينجوا بجلودهم . ومع ذلك فانكم لم تفرضوا عليهم فدية ، بل أعدمتموهم وحسب ، واننا جميعاً نعرف ما يجرى فى فيشنسكايا . فالتجار والقسس هناك أحياء سالمون . وفى كارغينسكايا أيضاً . اننا نسمع بما يحدث من حولنا : الذكر الطيب لا ينتشر ، أما الذكر السيء فيطوف في العالم كالطير .

فصاح صوت منفرد فى مؤخرة الحشد :

— هذا صحيح !

وغطت دمدمة القوزاق على كلمات أليكسى . ولكنه تريث حتى تلاشت الجلبة ، ثم مضى يصيح غير أبه بيد شتوكمان المرفوعة :

— ونحن ندرك أن الحكومة السوفييتية ربما كانت حكومة خيرة . ولكن الشيوعيين الذين تولوا المهام يحاولون اغراقنا بملعقة

من الماء انهم يعاقبوننا بسبب ما حدث عام ١٩٠٥ ، وقد سمعنا الجنود الحمر يقولون ذلك . فنحن نقول لبعضنا بأن الشيوعيين يريدون هلاكنا ومحو أثرنا . انهم يريدون نفى القوزاق من الدون الى الأبد ! هذا كل ما عندى من قول . انى أشبه برجل سكران : أتفوه بأول شيء يخطر ببالى . ونحن جميعاً سكارى بهذه الحياة الطيبة ، وربما نحمل لكم من ضغائن ، أيها الشيوعيون !

وشق أليكسى طريقه متراجعاً خلال حشد القوزاق فخيم صمت طويل . ثم شرع شتوكمان يتحدث ، ولكنه قوطع بصيحات من المؤخرة :

— انه على حق ! فالقوزاق مغتاظون . أتعرف أى أغان تغنيها القرى الآن ؟ ليس الكل مستعدين للافصاح عن دخيلتهم ، ولكنهم يعبرون عنها بالغناء . ليس بوسع أحد أن يؤاخذ الناس على أغنية ! حتى أن هناك أغنية يتظلم فيها القوزاق الى الكاديت حين يعودون اليهم . فلا ريب اذن أن هناك أساساً لشكواهم !

فضحك أحدهم فى غير مناسبة ، وتململ الحشد ، وسرت فيه الهمهمات .

فلبس شتوكمان قبعته بعنف ، ثم أخرج من جيبه القائمة التى كان كوشيفوى قد كتبها وصاح :

— كلا ، ليس هذا صحيحاً ! ان أنصار الثورة لا يشكون من شيء . لقد أعدم رجال قريتكم أعداء النظام السوفييتى ، لهذه الأسباب . انصتوا ! — وشرع يقرأ بصوت مرتفع وببطء ووضوح :

قائمة

بأسماء أعداء النظام السوفييتى الذين اعتقلوا
وسلموا الى اللجنة التحقيقية التابعة

للمحكمة الثورية للفرقة الخامسة عشرة :

كورشونوف ميرون غريغوريفتش : أتمان سابق ، وثرى نتيجة استغلال جهد الآخرين .

سنبلين ايفان أفديبتش : يروج الشائعات للاطاحة بالحكومة السوفييتية .

كاشولين ماتفى ايفانوفتش : للسبب نفسه .

ميدانيكوف سيميون غافريلوفتش : يحمل شارات الضباط على كتفه ويهتف فى الشوارع ضد الحكومة السوفييتية .

ميليخوف بانتلاى بروكوفتش : كان عضواً فى المجلس العسكرى .

ميليخوف غريغورى بانتلاييفتش : كان ضابطاً رئيساً معادياً للحكومة السوفييتية ، وهو من الخطرين .

كاشولين أندريه ماتفييتش : اشترك فى اعدام قوزاق بودتيلكوف الحمر .

بودوفسكوف فيدوت نيكيفوروفتش : ارتكب الشىء نفسه .

بوغاتيريوف أرخيب ماتفييتش : كان قيم الكنيسة ومعادياً للحكومة ويحرض الناس ضد الثورة .

كورولبوف زاخار لبونتييفتش : رفض تسليم أسلحته ، وهو لا يوثق به .

وكانت ازاء أسماء ميليخوف وابنيه وبودوفسكوف ملاحظات لم يقرأها شتوكمان بصوت مرتفع ، تقول : «ان أعداء الحكم السوفييتى هؤلاء لا يمكن اعتقالهم لغياب اثنين منهم كلفا بمهمة النقل ، ثم ان بانتلاى بروكوفتش ميليخوف مريض بالتيفوس . وسيعتقل الرجلان الغائبان ويرسلان الى فيشنسكايا فور عودتهما ، أما الثالث فحين يستطيع الوقوف على قدميه» .

خيم الصمت على الاجتماع برهة ، ثم نبت صيحة :

— ليس هذا صحيحاً !

— لا تكذب ! لقد تكلموا ضد السوفييتات !

— لمثل هذه الأمور يجب ان يعتقلوا الرجال !

— لفق أحدهم هذه الأشياء كلها ضدهم .

وتكلم شتوكمان ثانية . وبدا أنهم يصغون اليه باهتمام ، حتى انطلقت بعض الصيحات استحساناً . ولكنه حين طرح فى نهاية الأمر مسألة توزيع ممتلكات أولئك الذين فروا الى صفوف البيض ، خيم الصمت .

فتساءل ايفان اليكسييفتش حانقاً :

— ماذا دهاكم جميعاً ؟

وبدأ الاجتماع يرفض مثل قذيفة عنقودية متناثرة . وتقدم واحد من أفقر القرويين متردداً ، ولكنه أحجم وعاد الى مكانه .

— سيعود أصحاب الممتلكات ، وحينذاك ماذا سيـ . . ؟

وحاول شتوكمان أن يقنعهم بالبقاء ، الا أن كوشيفوى ، وكان وجهه مبيضاً كالدقيق ، همس فى أذن ايفان اليكسييفتش :

— قلت لك انهم لن يلمسوها . الأفضل أن نحرقها بدل أن نسلمها لهم الآن . . .

٢٥

سار كوشيفوى الى درجات منزل موخوف بتؤدة وهو منكس الرأس يضرب بالسوط ساق بنطاله مفكراً . كانت فى المجاز بعض السروج ملقاة على الأرض . وكان من الواضح أن أحداً قد وصل لتوه : كانت كتلة من الثلج بلون الروث ما تزال عالقة فى أحد الركائب ، وعليها أثر جزمة ، أخذت تتكون تحتها بركة صغيرة من الماء . ورفع كوشيفوى عينيه من السروج ومن أرض الشرفة القذرة الى سورها المنقوش والى الطبقة الهشة من الثلج البنفسجى قرب الحائط ،

ثم ألقى نظرة الى النوافذ التى يغشاها البخار ، ولكن ما رآه لم يخلف فى ذهنه أيما انطباع . لقد كان قلب ميشا الطيب يغلى رثاء وحقداً على غريغورى ميليخوف .

كانت الغرفة الأمامية لمقر اللجنة الثورية تفوح برائحة خانقة من الدخان وعدة الخيل والثلج الذائب ، وكانت تشعل الموقد خادمة خلفها آل موخوف بعد فرارهم الى ما وراء الدونيتس . وفى الغرفة التالية راح رجال الميليشيا يتضاحكون بصخب ، فقال ميشا فى دخيلة فكره ساخطاً فيما مر بغرفتهم : «يا لهم من سخفاء ! علام يضحكون ؟» ثم ولج غرفة اللجنة ، وهو يخبط ساق جزمته بالسوط للمرة الأخيرة .

كان ايفان اليكسييفتش جالساً الى منضدة الكتابة ، وقد فتح سترته السميكة ، وأمال قبعته الفرو على نحو يوحى بالتهتك ، وقد بدا التعب على وجهه العرق المتغضن . وكان شتوكمان جالساً الى جانبه على دكة النافذة وهو ما يزال يرتدى معطف الخيالة الطويل ، فابتسم لميشا مرحباً ، ثم دعاه للجلوس بقربه . وأثار صوت شتوكمان الهادئ الطمأنينة فى نفس كوشيفوى فجلس ماداً قدميه ، وقال :

— سمعت البارحة من مصدر موثوق أن غريغورى ميليخوف عاد الى أهله . ولكنى لم أذهب اليه بعد .

فقال شتوكمان وهو يلف لنفسه سيكارة :

— ماذا تقترح أن نفعل بصدده ؟ — ثم نظر الى ايفان اليكسييفتش مترقباً .

فتساءل ايفان ، وعيناه تطرفان بسرعة :

— أنودعه القبو ، أم ماذا ؟

— أنت رئيس اللجنة الثورية . فالقرار موكول لك ! — ثم ابتسم شتوكمان وهز كتفيه تملصاً . كان فى مقدوره دائماً أن يبتسم

ابتسامة ساخرة تفوق لفحة السوط حرقة . فتفصد العرق على ذقن ايفان وهو يقول بحدة :

— بصفتى رئيساً فانى على استعداد لاعتقال غريغورى وأخيه أيضاً ، وأرسلهما الى فيشنسكايا .

فردّ عليه شتوكمان قائلاً :

— لا جدوى من اعتقال أخيه . ففومين الى جانبه ، وأنت تدرى كم يطنب فى مدح بيوتر . . . ولكن ينبغى اعتقال غريغورى اليوم ، وفى الحال ! وسنرسله الى فيشنسكايا غداً ، ثم نرسل الأدلة ضده الى رئيس المحكمة الثورية هذا اليوم بيد خيال من الميليشيا .

فاقترح ايفان قائلاً :

— الأفضل أن نعتقل غريغورى مساء ، ألا ترى ذلك ، يا أوسيب دافيدوفتش ؟

فانتابت شتوكمان نوبة حادة من السعال . ثم مسح لحيته وسأل :

— ولماذا فى المساء ؟

— كى لا يكون ذلك مثار لغط كثير .

فأجاب شتوكمان :

— ان هذا اعتراض سخيف .

فالتفت ايفان الى كوشيفوى وقال له :

— ميخائيل ، خذ رجلين واذهب لاعتقاله فى الحال . ضعه فى موقف انفرادى . فهمت ؟

فانسل كوشيفوى من على دكة النافذة وذهب الى رجال الميليشيا ، وشرع شتوكمان يتخطى فى الغرفة جيئة وذهاباً وحذاؤه اللبادى المهترئ يخفق اثناء السير . وبعد برهة توقف عند المنضدة وسأل :

— هل بعثت آخر دفعة من الأسلحة التى جمعت ؟

— كلا ، سنرسلها هذا اليوم .

فعبس شتوكمان ، ورفع حاجبيه وسأل بسرعة :

— ماذا سلم آل ميليخوف ؟

فعقد ايفان اليكسييفتش حاجبيه جاهداً أن يتذكر ، ثم قال آخر الأمر وهو يبتسم :

— سلموا بندقيتين ومسدسين . أتظن أن هذا كل ما عندهم ؟

— ألا تظن ذلك ؟

— أوهو ! لا تحسبهم أشد حماقة منك !

فقال شتوكمان وهو يزم شفتيه :

— بالضبط ! لو كنت مكانك لقمت بتفتيش بيتهم تفتيشاً دقيقاً بعد الاعتقال . أصدر الأوامر الى القومندان لينفذ ذلك . فوضع الخطة شيء وتنفيذها شيء آخر .

وبعد نصف ساعة عاد كوشيفوى ، فاندفع عبر الشرفة ، وفتح الباب بعنف ثم توقف عند العتبة ليستعيد أنفاسه ، وصاح :

— اللعنة على الشياطين أجمعين !

فأسرع شتوكمان اليه عبر الغرفة ، وقد اتسعت عيناه على نحو مرعب ورفرفت أطراف معطفه وضربت على جزمتيه اللباديتين ، وقال :

— ما الأمر ؟

فاستبد بكوشيفوى الغضب إما بسبب نبرة شتوكمان الهادئة أو لشيء آخر ، فهدر قائلاً :

— كفاك تقليب عينيك هكذا ! — ثم أطلق لعنة وأردف : — يقولون ان غريغورى ذهب الى خالته فى سينغين . ما علاقتي بذلك؟ ولكن أين كنتم ؟ تصطادون الذباب ؟ من الذى فتح له الباب ؟ لقد يسرتم له الافلات من بين أصابعكم . لا حاجة للصراخ فى

وجهى ، ليس هذا من شأنى . . . ولكن بم كنتم أنتم تفكرون ؟ — وجعل يتقهقر الى الموقد فيما كان شتوكمان يتقدم نحوه ، ثم ضحك وقال : — لا تقترب ، يا أوسيب دافيدوفيتش ، لا تقترب ، والا سأضربك والله !

فتوقف شتوكمان أمامه مباشرة وفرقع أصابعه . ثم حدق فى أسنان ميشا البيضاوين وعينيه الوقيتين الباسمتين ، وقال من بين أسنانه :

— أتعرف الطريق الى سينغين ؟

— أجل .

— اذا لمَ عدت الى هنا ؟ وأنت تقول انك حاربت الألمان ! . . يا لك من مغفل ! — ثم عبس وهو يتصنع الازدراء .

• • •

كان السهب راقدا تحت ضباب يحكى الدخان زرقة ، والقمر الأرجوانى يبزغ من وراء التلال المحاذية للدون ، فيرسل نوراً خابياً لم يحجب ألق النجوم .

ومضى ستة خيالة يهذبون فى الطريق الى سينغين . وكان شتوكمان على حصانه يسير الى جانب ميشا ، وقد استبد القلق بحصانه طويل القوائم فظل يحاول عض ركبة فارسه . وراح شتوكمان يقص على ميشا حادثاً مضحكاً دون أن توحى نبرته بانشغال باله ، فجعل ميشا ينكب على قربوس سرجه ويرسل قهقهات صبيانية ويشهق فيما كان يحاول أن ينفذ بنظرته الى وجه شتوكمان الصارم تحت القبعة .

. . . وفى سينغين لم ينجم البحث الدقيق عن أية نتيجة .

أجبروا غريغورى على مغادرة بوغوفسكايا الى تشيرنيشفسكايا وعاد بعد عشرة أيام . وقبل يومين من عودته الى تتارسكى ألقي القبض على أبيه . كان بانتلاى بروكوفتش العجوز قد غادر لتوه فراش المرض ، وقد اشتد به الهزال والشيب . كان شعره يتدلى فوق ناصيته وكأن العثة قرضته . وبدت لحيته خفيفة يحف بها المشيب .

وذهب رجال الميليشيا به بعد أن أمهلوه عشر دقائق ليجمع حاجياته ، فاودع قبو موخوف ، تفوح منه رائحة التفاح الشذى ، حتى يتسنى ارساله الى فيشنسكايا . وكان معه رهن الاعتقال تسعة شيوخ آخرين وقاض فخرى واحد .

وأبلغ بيوتر الخبر الى غريغورى قبل أن يدخل بحصانه الفناء ، ثم نصحه قائلاً :

— أدر حصانك وعد من حيث أتيت ، يا أخى ! لقد سألوا عن موعد رجوعك الى البيت . اذهب وتدفأ والق نظرة الى طفليك ، ثم ارحل الى قرية ريبنى ، حيث يسعك أن تختفى وتنتظر هناك ، ولئن سألونى عنك فسأخبرهم بأنك ذهبت الى بيت خالتك فى سينغين . لقد أعدموا سبعة من رجالنا رمياً بالرصاص ، ألم يبلغك ذلك ؟ اسأل الله ألا يكون مصير أبينا مثل هذا ! أمـــا بخصوصك . . .

وجلس غريغورى فى المطبخ نصف ساعة ، ثم أسرج حصانه وانطلق يهذب طوال الليل الى ريبنى . فأخفاه قوزاقى أمين من أقاربه البعيدين بين الجل فى المخزن ، فلبث هناك يومين لا يخرج الا عند هبوط الليل .

فى العاشر من آذار توجه ميشا كوشيفوى الى فيشنسكايا ، بعد يومين من عودته من سينغين ، ليعرف موعد اجتماع منظمة الشيوعيين . فكان قد قرر ، هو وايفان اليكسييفتش ، ودافيد ، ويميليان ، وفيلكا أن ينضموا جميعاً الى الحزب . وحمل معه آخر دفعة من الأسلحة التى سلمها القوزاق ، ومدفعاً رشاشاً عثر عليه فى ساحة المدرسة ، ورسالة من شتوكمان الى رئيس اللجنة الثورية المنطقية .

واستثاروا فى طريقهم الى فيشنسكايا العديد من الأرانب الكامنة فى الغياض ، كانت قد تدفقت أثناء الحرب الى المنطقة وجعلت تتوالد دونما عائق فصار المرء يجدها لدى كل خطوة تطل فى كل مكان شأن دغل مستنقع أصفر . كان صرير الزحافة يفزعها فتتواثب على الثلج الذى لم تطأه قدم ، فتكشف عن بطونها البيضاء وأذنابها المتصلبة المسودة . فكان يميليان الذى يسوق الزحافة يلقى الأعنة ويصيح بأعلى صوته :

— هيا ! ارمه !

فيثب ميشا من زحافته ، ويثنى على ركبتيه ، ثم يفرغ بندقيته على الكرة الشهباء المتواثبة عن بعد ، ثم يراقب بخيبة أمل الطلقات تثير فتات الثلج والكرة تتواثب أسرع فأسرع حتى تتوارى بين الأدغال .

ألفى لجنة المنطقة فى حالة من الفوضى والارتباك . وكان الرجال يتراكضون هنا وهناك قلقين ، وكان الرسل الخيالة فى جيئة وذهاب ، والشوارع تكاد تقفر من السابلة . فانتاب ميشا العجب دون أن يدرك سبب تلك الجلبة . ودس نائب رئيس اللجنة رسالة شتوكمان فى جيبه وهو شارد اللب ، وحين سأله ميشا ما اذا كان

ثمة جواب ، زنخر بشدة :

— اذهب الى الشيطان ! ليس لديَّ وقت لك الآن !

كان بعض الجنود الحمر التابعين لأحد مراكز الحراسة يتحركون في أرجاء الساحة . ومر مطبخ ميدان يتصاعد الدخان منه مخلفاً رائحة لحم البقر وورق الغار في الهواء .

ودخل ميشا المحكمة الثورية ليدخن سيكارة مع بعض معارفه وسألهم قائلاً :

— فيم هذه الجلبة ؟

فأجاب محقق المحكمة المحلية غروموف على مضض :

— هناك اضطرابات في كازانسكايا . لقد اقتحمها البيض ، أو أن القوزاق قد ثاروا ، أو أن شيئاً ما قد حدث . لا بد أن قتالاً قد نشب هناك البارحة ، وقطعت أسلاك التلفون .

— يجب أن تبعثوا رسولاً .

— فعلنا ذلك ، ولكنه لم يعد . واليوم أرسلنا سرية الى يلانسكايا ، ثمة قلاقل هناك أيضاً .

جلسوا عند النافذة يدخنون ، وكان ثلج كالدقيق ينهال عبر زجاج النوافذ في بيت التاجر حيث مقر المحكمة الثورية .

وعلى حين غرة دوت طلقات في مكان ما خارج القرية قرب أكمة الصنوبر . فشحب وجه ميشا وسقطت سيكارته . وهرع الكل الى الحوش . ثم تعالى صوت الرصاص واشتد وقعه ، ثم دوت صلية من الطلقات فأخذت الرصاصات تنهش السقائف والأبواب بشراسة . وجرح جندي أحمر كان يقف في الفناء . وانطلق غروموف . راكضاً الى الميدان وهو يدسّ أوراقه في جيوبه . فصفت فلول السرية العسكرية على عجل أمام اللجنة الثورية وقادهم الآمر ركضاً نحو المنحدر المؤدي الى الدون . وشاع الفزع المهلك ، فراح

الناس يتراكضون جيئة وذهاباً في الساحة . وعدا عبر الساحة حصان من غير فارسه .

ولم يتذكر ميشا في خضم رعبه كيف جاء الى الساحة . فشاهد فومين في جلباب اسود يندفع من وراء الكنيسة كالزوبعة ، وقد شد الى حصانه عربة مدفع رشاش . وعجزت العجلات عن استيعاب الاستدارة ، فانقلب المدفع وراح ينجر ، وهو يتأرجح من جهة الى أخرى على صهوة حصانه وتوارى فومين عند سفح التل ، وهو منكب على سرجه ، مخلفاً وراءه مثاراً من الثلج الفضي .

وكانت أول فكرة خطرت لميشا : «الى الخيل» . فجرى في الأزقة الجانبية حانياً ظهره ، دون أن يتوقف مرة للتنفس . فألفى يميليان يشد الحصانين ، ويعمل يده في الأسارين وقد انتابه الرعب ، فتساءل بصوت متقطع وأسنانه تصطك :

— ماذا يجري يا ميخائيل ؟ ماذا حصل ؟

ولاستعجاله لم يستطع العثور على الأعنة . وحين عثر عليها انحل سير الطوقين . وكان الحوش الذي نزلا فيه يطل على السهب ، فشخص ميشا نحو أشجار الصنوبر ، ولكن لم يظهر أي صف من المشاة في ذلك الاتجاه ، ولم ير أي أثر للخيالة المغيرين أيضاً . كان اطلاق النار مستمراً في مكان بعيد ، وبدت الشوارع مقفرة وانتشح المكان مظهره الكئيب المألوف . ولكن شيئاً فظيعاً كان يجري : لقد اندلع التمرد بكل ما في الكلمة من معنى .

لم يحوّل ميشا نظرته عن السهب طوال انشغال يميليان بالخيل ، فشاهد رجلاً عليه معطف أسود يعدو من وراء المصلّى الصغيرة بجانب المكان حيث أضرمت النار في كانون الأول الماضي بمحطة اللاسلكي . كان الرجل يعدو بكل سرعته ، وقد انحنى الى أمام وذراعاه تشدان على صدره . ومن معطفه عرف ميشا أنه محقق

المحكمة غروموف . ثم برز فارس يعدو من وراء سياج ، فعرفه كذلك : كان قوزاقياً من فيشنسكايا يدعى تشيرنيتشكين ، وكان هذا الشاب حرسا أبيض بكل معنى الكلمة . وكانت المسافة بينهما حوالى مئة متر . وفيما كان غروموف يعدو نظر الى الخلف مرة ، ثم أخرى ، وأخرج مسدسه من جيبه . ودوى صوت اطلاقة ، ثم أخرى . وجرى غروموف الى قمة ربوة رملية ثم أطلق النار . وقفز تشيرنيتشكين من سرجه والحصان ما يزال يعدو ، ثم أنزل بندقيته من على كتفه ، وانبطح وراء كومة من الثلج وهو ما يزال ممسكاً بالأعنة . وعلى أثر طلقته الأولى ، تعثر غروموف ، وراح يتشبث بالدغل بيده اليسرى . ودار حول الربوة ثم كبا على الثلج . «قتل !» ودب البرد فى أوصال ميشا . كان تشيرنيتشكين هدافا سديد الرماية ، يستطيع بغدارته النمساوية التى عاد بها من الحرب الألمانية أن يصيب أى هدف مهما كان بعيداً . وفيما كان جالساً فى زحافته وهى تعدو خارجة من الباب رأى تشيرنيتشكين يركض الى الجثة ويعمل سيفه فى المعطف الأسود المتكوم على الثلج .

كان من الخطر ان يحاولا عبور الدون عند المعبر الاعتيادى ، لأن الخيل والرجال تكون هدفاً واضحاً على صفحة النهر البيضاء . وكان جنديان أحمران من سرية المقر العام مطروحين هنا وقد طوح بهما الرصاص . فاستدار يميليان عبر البحيرة الى داخل الغابة . وفيما كانا يعبران البحيرة ، خلفت حوافر الخيل بركاً صغيرة من الماء على الثلج الذى يوشك على الذوبان ، واحدث المزلاقان شقين عميقين وانطلقا يهذبان بجنون عائدين الى تنارسكى . ولكنهما حين بلغا المعبر القائم عند اعتاب القرية جر يميليان اعنة الخيل وادار وجهه الذى احمر من لفح الريح الى ميشا : — ماذا يحسن بنا ان نفعل ؟ هب ان اضطراباً مماثلاً يجرى فى قريتنا ؟

فبدت التعاسة على وجه ميشا وشخص بنظره الى القرية . كان ثمة فارسان يهذبان فى الشارع القريب من النهر ، وحسب انه ميز فيهما رجلين من رجال الميليشيا .

فأجاب ميشا بعزم :

— سق الخيل الى القرية . ليس هناك مكان آخر يمكن ان نذهب اليه !

فجعل يميليان يسيط الخيل على مضض . وعبرا النهر وارتقيا المنحدر القائم فى الجهة الأخرى . فجاء أنتيب ، ابن افديتش الكذوب يركض نحوهما بصحبة رجلين آخرين من سكان الطرف الأعلى من القرية يكبرانه سناً .

فقال يميليان : «أوه ، ميشا !» واذ رأى البندقية فى يد أنتيب جر الأعنة فأدار الحصانين .

وجاءهما الأمر :

— قف !

ودوت اطلاقة ، فسقط يميليان ، ويده ما تزال تمسك بالأعنة . واقتحم الحصانان سياجاً ، فقفز ميشا من الزحافة . فهرع انتيب نحوه وقدماه تنزلقان ثم ترنح ، والقى البندقية على كتفه . وحين هوى ميشا على السياج لمح الرؤوس اللماعة لمذراة ذات ثلاث شوكات تمسك بها يد احد الشيوخ .

— اضربه !

واحس بألم محرق فى كتفه وخر دون ان تبدر منه صيحة ، وغطى وجهه بيديه . وانحنى فوقه رجل يلهث بشدة وراح ينخسه بالمذراة ويقول :

— انهض ، عليك اللعنة !

ولم يتذكر ميشا بقية ما حدث الا كما يتذكر المرء الاحلام .

لقد ألقى انتيب نفسه عليه واعمل اظافره فى صدره ، وهو ينتحب :

— لقد ارسل أبي الى حتفه . دعونى اظفر به ، ايها الناس الطيبون ! دعونى آخذ ثأرى منه !

ثم جروه عنه . وتجمع حشد صغير . وسمع ميشا صوت رجل ابح يحاججهم :

— دعوا الفتى وشأنه ! هل انتم مسيحيون ، ام لا ؟ دعه ، يا انتيب ! لن تعيد اباك الى الحياة ، بل ستكون سبباً لهلاك رجل ! اذهبوا الى بيوتكم ، يا اخوان ! انهم يتقاسمون السكر فى المخزن ، اذهبوا وخذوا حصتكم . . .

وحين أفاق ميشا فى المساء ألفى نفسه راقداً تحت السياج نفسه . كان جنبه حيث طعنته المذراة يلتهب ألماً . ولكن اسنان المذراة لم تكن قد توغلت فى اللحم عميقاً بعد ان اخترقت الفروة والقميص . فتحامل على قدميه وارهف السمع ، فلا بد ان المتمردين قد عينوا دوريات لحراسة القرية . وكان ينبعث بين آونة وأخرى صوت اطلاقة تثير نباح الكلاب . وكانت الاصوات المنطلقة من بعيد تقترب منه . فسلك مسار الماشية بمحاذاة الدون ، ثم بلغ قمة الجرف ، وزحف حذاء الاسيجة ، ويداه تتخبطان على الثلج فيما كان يدب ويسقط من جديد . ولم يدر اين هو فظل يزحف على غير هدى . كان جسده يهتز من شدة البرد ، ويداه متجمدتين . ثم دفع البرد به الى داخل بوابة ما . وفتح البوابة التى يعلوها العوسج ودخل الحوش الخلفى ، ورأى سقيفة الى يسار فاتجه صوبها . ولكنه سرعان ما سمع وقع خطوات وسعلة . ثم دخل السقيفة شخص وجزمته اللبادية تخشخش ، ففكر ميشا فى نفسه دونما اكتراث ، وكأنه يتحدث عن شخص آخر : «سيجهزون عليَّ فى الحال» . وقف الرجل فى المدخل الذى ينفذ منه ضياء باهت .

— من هناك ؟

كان الصوت ضعيفاً ينم عن الخوف . فمضى ميشا قرب الجدار الفاصل .

فسأل الرجل بنبرة أعلى واشد قلقاً : — من هذا ؟

فعرف ميشا صوت ستيبان استاخوف فصرخ :

— ستيبان ، هو أنا ! كوشيفوى ! انقذنى ، لحب الله ! لا احسبك تخبر عنى ، أليس كذلك ؟ ساعدنى !

فقال ستيبان بصوت واهن :

— اذن ، هو انت ! — وكان قد نهض لتوه من الفراش اثر اصابته بالتيفوس . واتسع فمه الممطوط وندت شفتاه عن ابتسامة مترددة : — حسناً ، امض الليلة هنا ، ولكن يجب ان ترحل فى الصباح . ثم كيف أتيت الى هنا ؟

فالتمس ميشا يده وشد عليها ، ثم دس نفسه فى كومة من التبن . وما ان حل الغسق مساء اليوم التالى حتى توجه الى بيته بحذر ، بعد ان عقد العزم على قرار يائس ، ثم نقر على الشباك . ففتحت امه الباب ، وتفجرت دموعها اذ رأته . وتشابكت يداها على رقبته وراحت تخمشها ، وطفق رأسها يدق على صدره .

— ارحل ، لحب المسيح ، ارحل ياميشا . جاء القوزاق الى هنا هذا الصباح . وفتشوا الفناء كله بحثاً عنك . وضربنى انتيب افديتش بسوطه قائلاً : اخفيت ابنك . يؤسفنى اننى لم اقتله على الفور !

لم يكن ميشا يعلم اين يعثر على اصحابه . وقد فهم من حديث أمه المقتضب ان قرى الدون كافة قد تمردت ، وان شتوكمان ، وايفان اليكسييفتش ، ودافيد ورجال الميليشيا قد فروا ، وان فيلكا وتيموفى قتلا فى الساحة ظهر اليوم السابق .

وجعلت أمه تبكى ولكن الحزم بدا فى نبرتها اذ قالت له :

— والآن ارحل . سيعثرون عليك هنا .

وللمرة الأولى منذ اعوام عديدة اجهش ميشا بالبكاء . وجعل ينشج كالأطفال ويبقبق بشفتيه . ثم اخذ الفرس العجوز التى كان يمتطيها وهو راع وقادها الى الحوش ، فلحق بها مهرها . واعانته أمه على اعتلاء السرج ، ثم رسمت عليه اشارة الصليب . فسارت الفرس على مضض وهى تصهل لمهرها . وكان قلب ميشا يثب هلعاً كلما نادت الفرس مهرها .

ولكنه نجا من القرية بسلام ومضى يخب على امتداد طريق هيتمان نحو الشمال الشرقى .

كانت الليلة المدلهمة تستقبل الشاردين بترحاب ، وفرسه لا تكف عن الصهيل خشية ان تفقد مهرها ، فيصر ميشا بأسنانه ويلفح اذنيها بالعنان ، ويتوقف المرة تلو المرة فينصت ليعرف ما اذا كانت سنابك الخيل الثقيلة تدق الارض من امامه او من ورائه . ولكن صمتاً سحرياً كان يخيم من حوله فلا يصل سمعه سوى صوت المهر الذى ينتهز فرصة توقف أمه ليرضع منها ، وقد انغرزت ساقاه الخلفيتان فى الثلج .

٢٨

كانت السقيفة تعج بتتن القش المتعفن ، والجل اليابس وحزم التبن . وفى النهار كان ضوء باهت يتسلل خلل السقف ، وتطل الشمس بعض الاحيان خلل الباب المضفور من الأغصان وكأنها تطل خلل الغربال ، اما فى الليل فلم يكن ثمة الا صفير الفئران والصمت . . .

كانت ربة البيت تأتى غريغورى بالطعام خلسة مرة كل يوم . وكان هناك ابريق من الماء مدفون فى الجل . ولم يكن يشعر بتعاسة حياته تلك ، لولا انه استنفد كل تبغه ، فراح يتعذب من حالته تلك خلال اليوم الأول ، فلم يقو على البقاء من دون شىء يدخنه ، فزحف صباحاً على القاع الترابية وجمع شيئاً من روث الخيل الجاف فى يديه . ثم فركه براحتيه ولف منه سكائر . وفى المساء بعث اليه رب البيت بأوراق بالية من نسخة انجيل ، وعلبة ثقاب ، وحفنة من البرسيم والجذور اليابسة من التبغ المتزلى . فاستبد الفرح بغريغورى وطفق يدخن حتى اوشك ان يصاب بالغثيان ، ثم استغرق فى اول نوم عميق على الجل ، وهو يغطى رأسه بذيل معطفه مثلما يخفى طير رأسه تحت جناحه .

وفى صباح اليوم التالى ايقظه مضيّفه وهو يركض الى السقيفة صارخاً بأعلى صوته :

— انت نائم ؟ انهض ! الدون كسر جليده !

ثم طفق يضحك من كل قلبه .

فقفز غريغورى الى الأرض ، فتساقط قطعات الجل المربعة الثقيلة وراءه هادرة ، وسأله :

— ماذا حصل ؟

— ثار قوزاق يلانسكايا وفيشنسكايا فى الجانب الآخر . وهرب فومين وكل رجال الحكومة فى فيشنسكايا ، الى توكين . يقولون ان قوزاق كازانسكايا ، وشوميلين ، وميكولينسكايا ثاروا ايضاً . هل فهمت الى أى حد بلغت الحال ؟

فانتفخت حزم الأوعية على ناصية غريغورى ورقبته ، وراحت عيناه تبعثان شرارات صغيرة خضراً . ولم يستطع كتمان ابتهاجه فجعلت اصابعه السود تعبث بعرى معطفه ثم قال بصوت راعش :

— وهنا . . . فى قريتكم ؟ هل حصل شىء هنا ؟

— لم اسمع شيئاً . التفت بالرئيس لتوى وقد ضحك قائلاً : «سيان عندى أى رب نعبده ، طالما ان هناك رباً» . ولكن يمكن ان تخرج من جحرك .

فذهبا الى المنزل . فسار غريغورى بخطى واسعة ، وهرع القوزاقى الى جانبه ، يحكى له الانباء :

— فى منطقة يلانسكايا كانت كراسنويارسكى اولى القرى الثائرة . فقبل يومين ذهب عشرون من شيوعيى يلانسكايا لاعتقال بعض القوزاق . فسمع رجال كراسنويارسكى بذلك فقر رأيهم وقالوا : «الى متى نتحمل هذا ؟ انهم يأخذون الآن آباءنا ، وسيأتى دورنا بعد ذلك . لنسرج خيلنا ونذهب لاطلاق سراح المعتقلين» . اجتمع حوالى خمسة عشر فتى غيوراً . ولم يكن لديهم سوى بندقيتين او ثلاث ، وبعض السيوف والحراب . ووجدوا الشيوعيين يستريحون فى حوش ملنيكوف ، فأغاروا عليهم بالخيل ، ولكن الحوش كان مسوراً بجدار حجرى ، فصد هجومهم . وقد قتل الشيوعيون واحداً منهم ، تغمده الله برحمته . ولكن منذ تلك اللحظة حانت نهاية الحكم السوفييتى ، عليه اللعنة ! . .

التهم غريغورى بقية فطوره بنهم ثم خرج مع صاحبه الى الشارع . كان القوزاق قد تحلقوا جماعات صغيرة عند المنعطفات وكأنهم فى عيد . وحين تقدما من احدى الجماعات ، رفعا ايديهما الى قبعتيهما تحية ، فردوا عليهما بتحفظ ، متطلعين بفضول وترقب الى ملامح غريغورى غير المألوفة . فقال رب البيت متفاخراً :

— انه واحد منا . لا تخافوا . أسمعتم بآل ميليخوف من تتارسكى ؟ هذا غريغورى بن بانتلاى بروكوفتش . التجأ الىَّ لينجو بنفسه من الاعدام .

فشرعوا يتحدثون ، ولكن ما ان بدأ احد القوزاق يحكى لهم كيف طرد الحمر من فيشنسكايا حتى لاح فارسان فى اقصى الشارع ، كانا يهذبان ويتوقفان عند كل جماعة من القوزاق ، فيديران فرسيهما ويصرخان بشىء ما ملوحين بأذرعهما . فانتظر غريغورى دنوهما بفارغ الصبر . وقال احد القوزاق وهو يشخص بعينيه نحوهما :

— ليس هذان من رجالنا . . . انهما رسولان من مكان ما .

وتقدم الفارسان من الجماعة . كان احدهما عجوزاً مشرع الفروة ، وقد احمر وجهه العرق ، وتهدل شعره الاشيب على جبينه . فكبح فرسه كما يفعل الفتيان ثم شرع يده اليمنى ، وهتف :

— ايها القوزاق ، علام تثرثرون عند منعطفات الشوارع كالنساء ؟ — وهدجت الدموع صوته ، واختلج خداه المزرقان انفعالاً .

وراحت فرسه تتوثب من تحته ، وكانت كميتاً بيضاء المنخرين جميلة لها من العمر اربع سنوات ، ذيلها كث طويل وسيقانها كالفولاذ المسقى . وجعلت تزنخر وتعض على شكيمتها ثم جمحت وشدت على اللجام ، طالبة ان يخلى رأسها لتستطيع المضى فى عدوها الراقص مستوية الأذنين ، تعابث الريح عرفها وترنّ الأرض المتجمدة تحت حوافرها المقعرة النظيفة . وكانت كل عضلة فى رقبتها وسيقانها تختلج وتترقرق تحت اديمها الرقيق ، وخطمها ذو اللون الوردى الرائق يرتعش وعيناها الجاحظتان ، بلونها الابيض والياقوتى ، تصليان فارسها بنظرات آمرة حادة .

صاح العجوز ثانية ، وهو يجيل نظرته من غريغورى الى القوزاق الآخرين :

— علام وقوفكم هنا ، يا ابناء الدون الهادئ ؟ انهم يعدمون آباءكم واجدادكم . انهم يستولون على اموالكم . القوميسارية اليهود

يسخرون من ديننا ، وانتم تلوكون بذور عباد الشمس وتلاحقون النساء . انكم تنتظرون الى ان يضعوا الانشوطة حول رقابنا . انسوا النساء بعض الوقت ! ثارت منطقة يلانسكايا برمتها ، شيباً وشباناً . طردوا الحمر من فيشنسكايا ، وانتم . . . هل يجرى كفاس * الفلاحين فى عروقكم بدل الدم القوزاقى ؟ هبوا ! احملوا اسلحتكم ! ارسلتنا قرية كريفسكوى لنستنفر قريتكم . الى الخيل ، ياقوزاق ، قبل ان يفوت الاوان . — ثم سمر عينيه الهائجتين فى وجه كهل من معارفه وصاح بسخرية لاذعة : — علام وقوفك هنا ، ياسيمون كريستوفورفيتش ؟ الحمر ذبحوا ابنك فى فيلوتوفو ، وأنت مختبئ على موقد دارك !

ولم يتمهل غريغورى ليسمع مزيداً ، فهرع نحو الفناء وشرع ينبش بأظافره حتى ادماها ليخرج سرجه من تحت الجل ، فأسرج حصانه ، وأخرجه من سقيفة التبن ، وطار خلل الباب وكأن به مساً من الجنون .

واستطاع ان يوصل صوته الى صاحب البيت المقترب من البوابة : «انا ذاهب ! فى امان الله !» — ثم مال على قربوس سرجه حتى لامس عنق حصانه ، وراح يلفح الحيوان بسوطه فجعل يهذب ، ومثار الثلج يحط وراءه ، وتحتك ساقاه بالسرج ، ويجلجل الركابان السائبان على جزمته . وطفقت سنابك الجواد تتسابق من تحته . واحس بفرحة طاغية عارمة ، ودفق من القوة والعزم فانفجرت فى حنجرته صيحة راعدة ، وانطلقت مشاعره الخفية الحبيسة . ها قد بدا طريقه اخيراً واضح المعالم ، وضوح مسار القمر عبر السهوب .

فكر بكل شىء ملياً وحسب له حسابه خلال الأيام المرهقة ،

---

* مشروب شعبي روسي . **المترجمون** .

حين كان مختبئاً بين الجل كالحيوان يجفل لكل صوت ونأمة فى الخارج . لكأن ايام البحث عن الحقيقة ، والتأرجح ، والتقلب ، والصراع الداخلى المؤلم لم تكن قط . لقد مرت كما يمر السحاب ، وها هو سعيه ذاك صار يبدو جزافاً لا طائل تحته . ما الذى كان يشغل افكاره ؟ علام تقلبت روحه كالذئب الطريد ، بحثاً عن سبيل للخلاص ، عن حل للتناقضات ؟ لقد بدت الحياة حكيمة وسخيفة معا فى بساطتها . وغدا يعتقد بأن ليس هناك حقيقة واحدة يستطيع الكل ان يستظلوا تحت جناحها ، وبات يعتقد بأن لكل امرئ حقيقته الخاصة به وسبيله الخاص . فمن اجل كسرة خبز ، او رقعة ارض ، او من اجل الحق فى الحياة ، كان الناس يحتربون منذ الأبد ، ولسوف يقتتلون ابد الدهر ما دامت الشمس تسطع فوق رؤوسهم ، وما بقى الدم يجرى حاراً فى عروقهم . ينبغى ان يحارب اولئك الذين يريدون حرمانه من حياته ، من حقه فى الحياة ، ان يحاربهم بثبات لا يعرف الكلل ، بسلاح الكراهية البارد . ينبغى الا يكبح مشاعره ، بل يطلق لها كل العنان .

لقد اعترض مسار القوزاق درب فلاحى روسيا الذين لا يملكون ارضاً ودرب عمال المصانع . فلتحاربهم حتى الرمق الأخير ! انتزع منهم ارض الدون الخصيبة التى غسلتها دماء القوزاق . اطردهم كما طرد التتار ذات يوم الى خارج الاقليم . اضرب موسكو ، وافرض عليهم سلاماً لا يشرفهم ! فالمعبر لا يتسع لاثنين : ينبغى لأحد الطرفين ان ينحى جانباً . لقد ذاقوا طعم التجربة : سمحوا لكتائب الحمر ان تدخل اراضى القوزاق وعرفوا معنى ذلك . فالآن — الى السيوف !

تضرم غريغورى حقداً اعمى ، فجعل يهذب حتى حمله حصانه عبر بساط الدون ذى العرف الابيض . ثم انقض عليه الشك

لحظة : «انها حرب الفقراء على الاغنياء ، وليست حرب القوزاق على الروس . . . ميشا كوشيفوى وايفان اليكسيفتش قوزاقيان ايضاً ، ولكنهما احمران حتى العظم» — ولكنه نفض عنه هذه الفكرة مغضباً .

ولاحت تتارسكى من بعيد ، فجرّ العنان . فأخذ حصانه المزبد يمضى فى خبب يسير . ثم لزّه ثانية عند بوابة بيته فدفعها الحصان بصدره ودخل هاذباً .

٢٩

عند الفجر دخل كوشيفوى قرية فى منطقة اوست خوبرسكايا منهك القوى . فأوقفه مركز حراسة لكتيبة حمراء ، وقاده اثنان من الحرس الاحمر الى مقر هيئة الاركان . ثم استجوبه ضابط من الاركان استجواباً طويلاً ينطوى على التشكك ، جاهداً ان يجعله يناقض نفسه . وقد سئم ميشا الاجابة على اسئلة خرقاء كهذه : «من كان رئيساً للجنتكم الثورية ؟» و«لِمَ لا تحمل هوية ؟»

فاحتج قائلاً :

— لا تحاول اعاقتى ، ايها الرفيق ، القوزاق جربوا كل شىء معي ولكنهم لم ينالوا شيئاً .

ثم رفع قميصه كاشفاً عن جنبه وبطنه المطعونين بالمذراة . وكان على وشك ان يصب اللعنات على الضابط فاذا بشتوكمان يدخل فى تلك اللحظة .

وارتعش صوت شتوكمان الهادر وهو يطوق ظهر ميشا بذراعه قائلاً :

— ايها السفيه ! ايها الشيطان الصغير ! علام تستجوبه يا رفيق ؟ — ثم التفت الى الضابط — انه واحد من فتياننا . لماذا

ثم تستدعنى او تستدعى كوتلياروف ، لما كانت هناك حاجة للاسئلة . هم ، ياميخائيل . ولكن كيف نجوت ؟ أخبرنى ، كيف نجوت ؟ شطبناك من قائمة الاحياء . حسبناك مت ميتة الأبطال .

فتذكر ميشا كيف اسر ، وكيف عجز عن الدفاع عن نفسه ، تاركاً بندقيته فى الزحافة ، فاحمر وجهه ألماً .

٣٠

يوم بلغ غريغورى تتارسكى كانت القرية قد افلحت فى جمع سريتين من القوزاق . وكان مجمع القرية قد اتخذ قراراً بتعبئة كافة الرجال القادرين على حمل السلاح ، من السادسة عشرة حتى السبعين . على ان العديد منهم كان يائساً من الوضع : ففى الشمال كان اقليم فورونيج تحت سيطرة البلاشفة ، فضلاً عن منطقة خوبر التى تميل اليهم ؛ اما فى الجنوب فهناك الجبهة التى قد تتراجع فتسحق المتمردين فى زحفها . وكان بعض القوزاق الحذريين لا يريدون حمل السلاح ، ولكنهم ارغموا على ذلك . فقد رفض شيبان استاخوف رفضاً باتاً ان يذهب للقتال . فأعلن لغريغورى وخريستونيا وانيكوشكا ، حين ذهبوا لمقابلته صباحاً قائلاً :

— لست ذاهباً ، خذوا حصانى ، افعلوا بي ما شئتم ، ولكنى لا اريد حمل بندقية .

فسأله غريغورى ، ومنخراه يرتعشان :

— ماذا تعني بقولك لا أريد ؟

— لا اريد ، وهذا كل ما فى الأمر .

— واذا استولى الحمر على القرية ، فماذا ستفعل ؟ أترحل ام تبقى ؟

فحول ستيبان نظرته الثابتة النفاذة من غريغورى الى اكسينيا ، وأجاب بعد برهة :

— سوف نرى . . .

— فى هذه الحالة ، تعال الى الخارج ! خذه ، يا خريستونيا ! سوف نعدمه رمياً بالرصاص فى الحال !

ثم امسك غريغورى بكم ستيبان ، جاهداً ان يتحاشى النظر الى اكسينيا المنكفئة ازاء الموقد ، وقال : — هيا !

فشحب وجه ستيبان وجعل يقاوم بوهن قائلاً :

— غريغورى ، لا تكن احمق ! خل عنى !

فأحاط خريستونيا العابس بخصره من الوراء وهو يدمدم :

— اذا كان موقفك على هذا النحو ، فهلم !

— يا اخوان ! . .

— لسنا اخوانك ! قلت لك هيا !

— خل عنى ، سانضم الى السرية . انى معتل الصحة من اثر التيفوس .

فابتسم غريغورى ابتسامة لاذعة ، وخلى عن كم ستيبان ، قائلاً :

— هيا اذهب واجلب بندقيتك . كان ينبغى ان تفعل ذلك منذ زمن .

ثم زرر معطفه وخرج دون كلمة وداع ، ولكن حتى بعد كل الذى حصل ، لم يخجل خريستونيا من طلب بعض التبغ من ستيبان وجلسا يتحادثان طويلا وكأن شيئا لم يحدث بينهما .

وعند المساء جيء من فيشنسكايا بزحافتين محملتين بسلاح قوامه اربع وثمانون بندقية ونيف ومائة سيف . واخرج كثير من القوزاق اسلحتهم المخبأة ، فجندت القرية مائتين واحد عشر قوزاقياً ،

مائة وخمسون منهم فرسان ، فيما سار البقية على الاقدام .

كان المتمردون ما يزالون بدون قيادة موحدة ، فكانت القرى تعمل دونما تنسيق ، كل قرية تشكل السرايا من تلقاء نفسها ، فتنتخب القادة من بين اشد القوزاق ضبطاً ، آخذة الخدمة بعين الاعتبار وليس المرتبة . ولم يقوموا بعمليات هجوم ، فكل ما فعلوه هو انهم اقاموا الصلة مع القرى المجاورة ، وارسلوا دوريات الخيالة .

وقبيل وصول غريغورى كان أخوه بيوتر قد اختير آمراً لسرية الخيالة فى تتارسكى ، كما كان فى عام ١٩١٨ ، فى حين تولى لاتشيف قيادة المشاة . وكان المدفعيون ، وعلى رأسهم ايفان تومبلين ، قد ذهبوا الى قرية مجاورة حيث ترك الحمر مدفع ميدان معطوباً ، فعملوا على اصلاحه . ووزعت مائة وثمانى بنادق ومائة واربعون سيفاً واربع عشرة بندقية صيد جيء بها من فيشنسكايا على مائتين واحد عشر قوزاقياً . واخرج بانتلاى بروكوفتش مدفعه الرشاش من مخبئه فى الارض وكان قد اخلى سبيله مع الآخرين من قبو موخوف . على ان احزمة العتاد كانت تعوزهم فرفضت السرية ان يكون الرشاش جزءا من سلاحها .

وجاءت الأخبار مساء اليوم التالى تفيد ان مفرزة تأديبية من الجنود الحمر برئاسة ليخانتشوف ، تعدادها نحو ثلاثمائة ، مجهزين بسبعة مدافع ميدان واثنى عشر رشاشاً ، كانت تتقدم من كارغينسكايا لاخماد التمرد . فعزم بيوتر على ارسال دورية وكذلك انبأ فيشنسكايا بالأمر . فبارحت الدورية المؤلفة من اثنتين وثلاثين رجلاً بقيادة غريغورى القرية عند الغسق . فانطلقوا من القرية يهذبون حتى كادوا ان يبلغوا توكين دون ان يخففوا من سرعتهم . وعلى مبعدة حوالى الفرسخين من الجانب الادنى للقرية ، أمر غريغورى قوزاقه بالترجل عند اخدود غير عميق ، ثم وزعهم فى أماكن مختلفة من

الاخدود ، واقتيدت الخيل الى باطن وهدة مشجرة ، حيث كان الثلج كثيفاً ، فغاصت حتى بطونها فى الثلج . وكان احد الجياد ينبض الربيع فى دمه ، فراح يثير المتاعب ، فافرد له رجل ليعنى به عناية خاصة .

وارسل غريغورى الى القرية ثلاثة قوزاق : انيكوشكا ومارتن شامل وبروخور زيكوف . فمضوا على خيلهم سيراً . كانت بساتين توكين تتعرج نحو الجنوب الشرقى خلال زرقة المنحدرات الداكنة . وكان الليل قد حل ، وراحت غيوم واطئة تتدحرج فوق السهب . ولبث القوزاق فى الأخدود صامتين ، وظل غريغورى يراقب خيال الفرسان الثلاثة حتى هبطوا التل فتداخل خيالهم فى معالم الطريق المعتمة . ثم اختفت خيلهم عن ناظريه ولم يعد يرى سوى رؤوسهم فحسب . ثم تلاشوا تماماً . وبعد برهة شرع رشاش يثرثر فى الجانب الاقصى من التل ، ثم لعلع رشاش آخر بنبرة اعلى ، وكان جلياً انه مدفع رشاش خفيف . ثم لاذ الرشاش الخفيف بالصمت ، وبعد برهة وجيزة انهى الأول شريطاً آخر بسرعة . فتطاير وابل من الرصاص فى الغسق فوق الأخدود يثر ازيزاً مفعماً بالحيوية والمرح . وجاء القوزاق الثلاثة عائدين يهذبون بأقصى سرعتهم .

وصاح بروخور زيكوف وهو ما يزال على مبعدة ، فضاع صوته بين هدير حوافر الخيل :

— اصطدمنا بنقطة امامية .

فأمر غريغورى بأن تكون الخيل على اهبة الاستعداد ، ثم قفز خارجاً من الاخدود ، وذهب يلقى القوزاق ، غير آبه للرصاص الذى كان ينغرز فى الثلج وهو يثر . وسألهم :

— هل رأيتم شيئاً ؟

فأجابه انيكوشكا لاهثاً شاتماً فيما عالج باليد جزمته التى

علقت بالركاب بعد ان وثب من الحصان :

— كان بوسعنا ان نسمعهم يتحركون . لا بد أنهم كثرة . استنتجنا ذلك من أصواتهم .

وبينما كان غريغورى يستجوبهم هرع ثمانية قوزاق من الأخدود الى حيث وضعت الخيل ، فركبوا خيلهم ، وانطلقوا يهذبون فى اتجاه القرية .

فقال غريغورى بهدوء وهو ينصت الى صوت الحوافر المبتعدة :

— سنعدمهم غداً .

أما القوزاق الذين بقوا تحت أمرته فلبثوا ساعة أخرى ، محافظين على الصمت التام وهم يصيخون سمعهم ، وأخيراً سمع أحدهم صوت حوافر الخيل . فأعلن قائلاً :

— انهم آتون من جهة توكين .

— هى دورية !

وراحوا يتهامسون مع بعضهم ، ويشرئبون برؤوسهم خارج الأخدود ، ويحاولون عبثاً أن يميزوا شيئاً فى الظلمة الحالكة . وكانت عينا فيدوت بودوفسكوف الكالميكيتان الحادتان أول من لمحتا الفرسان المتقدمين فقال واثقاً ، وهو ينزل بندقيته عن كتفه :

— ها هم قادمون .

كان يحمل بندقيته على نحو غريب ، جاعلاً السير حول رقبته مثل خيط الصليب ، والبندقية مدلاة عبر صدره . كان يحملها على هذا النحو سواء كان راجلاً أم راكباً ، فيضع احدى يديه على ماسورتها والأخرى على عقبها ، شأن امرأة توازن حمالة دلوين على كتفيها .

كان نحو عشرة فرسان يتقدمون بهدوء على الطريق دونما نظام . وكان شخص مهيب وثير الملبس يتقدمهم قليلاً ، وحصانه

ذو القوائم الطويلة والذنب المهلوب يسير سيراً حثيثا واثقاً . وفيما كان غريغورى يصعد فيهم نظراته ، ومن خلفهم رقعة السماء الرمادية ، استطاع أن يرى معالم أجسام الخيل ، ومعالم فرسانها ، وحتى قبعة الفرو المسطحة التى يعتمرها قائدهم . ولم يبق بينهم وبين القوزاق سوى ثلاثين ياردة ، وبدا وكأنهم يستطيعون سماع أنفاس القوزاق الثقيلة ووجيب قلوبهم العميق .

كان غريغورى قد أصدر أوامره مسبقاً بالامساك عن الرمى حتى يصدر لهم الايعاز . ومثل الصياد في مكمنه كان ينتظر اللحظة المناسبة وهو واثق من تقديراته : سوف يدعو الفرسان ، ثم يفتح النار حين يكبحون خيلهم ويلتمون بارتباك .

كانت خشخشة الثلج تنبعث من الطريق بهدوء . طارت شرارة صغيرة صفراء من تحت أحد الحوافر : ربما انزلقت الحدوة على صخرة جرداء .

— من هناك ؟

ثم وثب غريغورى الى حافة الأخدود وثبة هر وانتصب واقفاً . فاندفع قوزاقه وراءه بخفيف خفيف . ولكن غريغورى لم يكن متهيئاً لما تلا ذلك .

فسأله قائد الفرسان قائلاً : «من تريد ؟» وكان صوته الأبح لا ينم عن أمارة خوف أو مباغتة . وأدار الرجل حصانه صوب غريغورى .

فصاح غريغورى بحدة ، دون أن يتململ من مكانه وقد رفع مسدسه خلسة «من أنت ؟» فأجاب الرجل بصوت مرتفع غاضب :

— من هذا الذى يتجرأ على الصياح هكذا ؟ أنا آمر الحملة التأديبية وأنا مخول من هيئة أركان الجيش الأحمر الثامن باخماد التمرد . من هو آمركم ؟ دعه يأتى الى هنا .

— انا الآمر .

— انت ؟ آه . . .

ورأى غريغورى شيئاً أسود فى يد الفارس المرفوعة ، فارتمى الى الارض وهو يصرخ قبل ان يطلق الفارس رصاصته :

— نار !

واعولت من فوق رأسه رصاصة فطساء من مسدس الرجل من نوع البراونينك . وانطلق من الجانبين دوى الطلقات يصم الآذان . ثم جرى بودوفسكوف وامسك بعنان حصان القائد الأحمر . ومال غريغورى جانباً ثم ضرب رأس الرجل بنصل سيفه فاهوى به من على سرجه . وانتهى كل شىء فى بضع دقائق . فهذب ثلاثة جنود حمر هاربين ، وقتل اثنان ، وجرد البقية من سلاحهم .

واستجوب غريغورى القائد الاحمر بصرامة ، داساً ماسورة مسدسه فى فم الرجل المهشم :

— ما اسمك ، ايها الخنزير ؟

— ليخاتشوف .

— ماذا كنت تأمل ان تفعل ، لا يحرسك سوى تسعة رجال ؟ احسبت ان القوزاق سيركعون أمامك ويرجون المغفرة ؟

— اقتلنى !

فواساه غريغورى قائلاً :

— سيكون ذلك فى الوقت المناسب ! أين أوراقك ؟

— فى حقيبتى . خذها ، ياقاطع طريق . . . يا خنزير !

ولم يلتفت غريغورى الى شتائم ليخاتشوف ففتشه بنفسه ، واخرج من جيب سترته الفرو مسدساً آخر من نوع البراونينك ، ثم انزاح مسدسه الموزر وحقيبة الميدان . وعثر فى جيب جانبى على علبة سكائر ودفتر جلدى صغير مع الأوراق .

ولم ينقطع سباب ليخاتشوف وتأوهاته من الألم . فقد شجت ضربة سيف غريغورى رأسه كما ان رصاصة قد استقرت فى كتفه الأيمن . كان مديد القامة ، اطول من غريغورى ، متين البنية بادى القوة ، وكان حاجباه الاسودان القصيران الكثان ينعقدان فوق انفه على نحو يوحى بالقوة ، وكان ذا وجه اسمر حليق وفم كبير وفك مربع . كان يرتدى معطفاً قصيراً ضيقاً عند الخصر ، تغطى رأسه قبعة كوبانية سوداء دعكتها ضربة غريغورى بالسيف ، ويرتدى تحت معطفه سروال خيالة واسعاً وقمصلة عسكرية تناسبه تماماً . بيد ان قدميه كانتا صغيرتين رشيقتين تغطيهما جزمة انيقة ذات ساق جلدى لامع .

وأمر غريغورى قائلاً :

— اخلع معطفك ، ايها القوميسار ! انت منعّم ، لقد سمنت على خبز القوزاق ، ولا اظنك ستتجمد .

وقيدت أيدى الاسرى الى ظهورهم بالسيور والاعنة ، ثم اجلسوا على خيلهم . وأمر غريغورى وهو يعدل على جنبه وضع مسدس ليخاتشوف :

— اتبعونى ! . .

وباتت الجماعة ليلتها فى بازكى وهى لا تبعد كثيراً عن فيشنسكايا . وراح ليخاتشوف يتقلب على الارض عند الموقد ، يئن ويصر بأسنانه . وغسل غريغورى كتفه وضمده على ضوء مصباح الكيروسين ، وقرر الا يمضى فى استجواب الرجل . فجلس الى المنضدة وقتاً طويلا يتفحص الأوراق التى استولى عليها ، وقوائم القوزاق المعادين للثورة فى فيشنسكايا ، التى كانت المحكمة الثورية الهاربة قد اعدتها ، ودفتر الملاحظات والرسائل ، والعلامات المرسومة على الخارطة . وكان بين آونة وأخرى يحدق فى ليخاتشوف ، مبادلاً اياه

نظرات اشبه بسيوف متقاطعة . وسهر القوزاق طيلة الليل ، وكانوا يخرجون الى خيلهم بين حين وآخر ، او يستلقون متسامرين او يدخنون داخل السقيفة .

وقبيل الفجر غفا غريغورى ، ولكنه ما لبث ان أفاق ورفع رأسه المستثقل من على المنضدة فرأى ليخاتشوف جالساً على القش يفك ضماداته بأسنانه ويمزقها . كان مكشراً عن أسنانه الماً ، ورفع الى غريغورى عينين قاسيتين محمرتين تنمان عن شوق قتال . ازاح النعاس عن غريغورى مثل يد خفية . فسأله :

— ماذا تفعل ؟

فأرعد ليخاتشوف والشحوب ينتابه وهو يلقى رأسه على القش من جديد : «ما شأنك فى ذلك ، بحق الجحيم ؟ اريد ان اموت» . كان قد شرب اثناء الليل نصف دلو من الماء ، ولم يغمض له جفن . وفى الصباح ارسله غريغورى الى فيشنسكايا على زحافة مع الوثائق التى استولى عليها وتقرير مقتضب .

٣١

رافق الزحافة قوزاقيان فارسان فمضت تقرقع حتى بلغت بناية الآجر الأحمر التى كانت مقر اللجنة التنفيذية فى فيشنسكايا . كان ليخاتشوف بين جالس وراقد فى مؤخرة الزحافة ، فنهض ماسكاً الضمادة المشربة دماً باحدى يديه ثم ترجل القوزاقيان وقاداه الى داخل المنزل .

كان حوالى الخمسين قوزاقياً متجمهرين فى الغرفة التى يشغلها سوياروف الآمر المؤقت للقوات المتمردة . واتجه ليخاتشوف ، وهو يصون يده المصابة ، الى المنضدة حيث جلس سوياروف ، وهو

قوزاقى قمىء ليس فيه ما يميزه سوى شقي عينيه الصفراوين اللذين ينمان عن مزاجه الصفراوى . فنظر الى ليخاتشوف وسأله :

— اذن ، أنت ليخاتشوف ، ياولدى ؟

— نعم ، هناك أوراقى . — القى القائد الاحمر دفتر الملاحظات على المنضدة وجعل يحدق بسوياروف بعناد وصرامة : — يؤسفنى اننى لم افلح فى تنفيذ التعليمات التى تلقيتها ليسحقكم كما تسحق الأفاعى . بيد ان روسيا السوفييتية ستعاملكم كما تستحقون . اعدمونى رمياً بالرصاص فى الحال رجاء ! — وحرك يده الجريحة ثم حاجبه الكث .

فرد عليه سوياروف برفق وعيناه تلتمعان بعض الشىء :

— كلا ، ايها الرفيق ليخاتشوف . نحن انفسنا ثرنا ضد احكام الاعدام . لسنا من شاكلتكم ، نحن لا نعدم الناس . سنداوى جرحك ، وقد نفيد من خدمتك لنا . — ثم التفت الى الحشد ، واردف : — الى خارج ، كلكم ! اسرعوا !

فلم يبق فى الغرفة سوى آمرى السرايا الخمس ، فجلسوا الى المنضدة ، ودفع احدهم بقدمه مقعداً الى ليخاتشوف ، الا انه ابى الجلوس ، فاتكأ على الجدار شاخصاً بنظره عبر رؤوسهم الى خارج النافذة .

وبدأ سوياروف الكلام ، بعد ان تبادل النظرات مع آمرى السرايا :

— حسناً الآن ، يا ليخاتشوف ، اخبرنا كم عدد افراد مفرزتك ؟

— لن افعل ذلك .

— لن تفعل ؟ حسناً ، لا حاجة . سنحصل على ذلك من أوراقك ومن استجواب حرسك الأحمر . شىء آخر نطلبه منك :

اكتب لمفرزتك كى تأتى الى فيشنسكايا . ليس لدينا ما نقاتلكم عليه . لسنا ضد الحكومة السوفييتية ، بل ضد الشيوعيين واليهود . سنجرد رجالك من السلاح ونرسلهم الى اهليهم . وسنطلق سراحك . وصفة القول ، اكتبْ لهم بأننا كادحون ايضاً ولا داعى لخوفهم منا ، فلسنا ضد السوفييت . . .

فبصق ليخاتشوف على لحية سوياروف الشهباء الصغيرة مباشرة ، فمسح سوياروف لحيته بكمه واحمر وجهه . فابتسم واحد من الأمراء ، ولكن احداً منهم لم ينهض للدفاع عن شرف قائدهم .

وقال سوياروف بتصنع واضح :

— اذن فأنت تريد اهانتنا ايها الرفيق ليخاتشوف ! كان الاتمانات والضباط يوجهون الاهانات الينا ، ويبصقون علينا ، وها انت الشيوعى تبصق علينا ايضاً ! ومع ذلك تقولون انكم الى جانب الشعب . . . حسناً ، ايه ، اسمعوا ! من من الخفراء هناك ؟ قودوا القوميسار ! سنرسلك الى كازانسكايا غداً .

وسأله أحد امراء السرايا بصرامة :

— الا تعيد النظر فى القضية ؟

فسوى ليخاتشوف قمصلته على كتفه والتفت الى الحارس الواقف على الباب .

ولم يعدموه مع ذلك . لقد كان المتمردون يقاتلون ضد «الاعدام والنهب» . . .

وفى اليوم التالى سيق الى كازانسكايا . فسار امام حارسه الخيال ، يخطو على الثلج بخفة وهو معقود الحاجبين . ولكنه حين مر ، خلال الغابة ، بشجرة بتولا يجللها بياض تبسم فى الحال ، وتوقف ، ثم مد ذراعه السليمة وانتزع غصناً . وكانت

عليه براعم صغيرة بدأت تنتفخ بعصير آذار الحلو يفوح منها عبق الحياة الربيعي . فدس ليخاتشوف البراعم في فمه ولاكها ، شاخصاً بعينين مضببتين الى الشجرة وقد ازدانت بنضارة الربيع الفضي ، وعلت الابتسامة طرفي شفتيه .

مات وعلى شفتيه تويجات البراعم السود . فعلى مبعدة سبع فراسخ من فيشنسكايا ، وبين الكثبان الرملية الكثيفة ، مزقه الحرس بعنف ووحشية . وقد غرزوا في عينيه رؤوس سيوفهم وهو ما يزال على قيد الحياة ، وبتروا ذراعيه ، وجدعوا انفه وصلموا اذنيه وشقوا وجهه بسيوفهم . ثم حلوا سرواله ومثلوا بجسده الرجولي الوسيم الكبير . ثم هتكوا جذعه الدامي ، ووطأ احدهم صدره الراعش ودحرج رأسه بعيداً عن جسده بضربة من سيفه .

٣٢

جاءت الأنباء من وراء الدون ، ومن أعاليه ، ومن كل المناطق تشير الى اتساع مدى التمرد . لقد انتفضت سبع مناطق وجمعت سرايا الخيالة على عجل ، وكانت ثلاث مناطق أخرى على استعداد للانضمام الى التمرد . وبات خطر التمرد يهدد بالاتساع شمالاً . وأصبحت فيشنسكايا مركزاً للعصيان . وبعد نقاش وجدال طويلين تقرر الابقاء على الشكل السابق للحكم . فانتخب لعضوية اللجنة التنفيذية الاقليمية قوزاق يتمتعون بأوفر قسط من الاحترام ، وكان أغلبهم من الذين لم يتقدم بهم العمر . فانتخب دانيلوف ، وهو ضابط مدفعية سابق ، رئيساً وشكلت مجالس السوفييت في المناطق والقرى ، ومن الغريب ، أن كلمة «رفيق» بقيت دارجة في الحياة اليومية بعد أن كانت

مستهجنة ، ورفع شعار مضلل يقول : «من أجل الحكم السوفييتي ، ولكن ضد نظام الكومونات ، والاعدام ، والنهب» . وبدلاً من الشارة أو الشريط الأبيض على القبعة ، ارتدى المتمردون شريطاً أبيض وأحمر متقاطعين .

وحل محل سوياروف في قيادة القوات المتمردة الموحدة نائب ضابط شاب بافل كودينوف له من العمر ثمانية وعشرون ، يحمل وسام القديس غيورغي بدرجاته الأربع ، وهو رجل ذكي ذلق اللسان . وكانت نقيصته تكمن في ضعف شخصيته ، ثم انه لم يكن الرجل اللائق لقيادة منطقة ثائرة في وقت يعج بالمشاكل كذلك ، بيد أن القوزاق انجذبوا اليه لسجيته البسيطة المفضلة . والمهم أن لكودينوف طبائع قوزاقية ذات جذور عميقة فكان خلواً من العجرفة وغطرسة الضباط اللتين يظهرهما حديثو النعمة في العادة . كان بسيط الملبس دائماً ، طويل الشعر ، يسير مطأطئ الهامة بعض الشيء ، وهو سريع الكلام . ولم يتميز وجهه الذي يحمل شيئاً من سيماء الفلاحين بشيء سوى أنف طويل أقنى .

وانتخب القوزاق لرئاسة أركانهم رئيساً يدعى ايليا سافونوف . وقع عليه اختيارهم ، رغم أنه كان جباناً بعض الشيء ، لا لشيء الا لأنه يحسن استعمال قلمه ولكونه متعلماً . وكان أحدهم قد قال أثناء الاجتماع :

— ابقوا سافونوف في المقر . انه لا يصلح في خط القتال . فلن يفعل سوى التفريط بحياة القوزاق . ان جدارته للعمل في خط القتال لا تختلف عن جدارة الغجري بأن يكون قسيساً .

فابتسم لهذا القول سافونوف وراء ثنيات عذاريه الأشقرين المائلين للبياض ، وكان قصير القامة مكتنزاً ، ثم وافق بسرور

على تولى رئاسة الأركان .

ولكن كودينوف وسافونوف لم يفعلا شيئاً أكثر من أن يضفيا الطابع الرسمى على الأعمال التى قامت بها السرايا من تلقاء نفسها . ومن حيث التنظيم والقيادة كانا مقيدى الايدى ، وما كانت لديهما القوة اللازمة لتوجيه دفة منظمة مرتبكة كتلك أو لمتابعة الحركة السريعة للأحداث .

أرسلت كتيبة حمراء من الخيالة لمواجهة التمرد ، وقد لمت فى مسيرتها بلاشفة أوست–خوبرسكايا ، ويلانسكايا وبعض مناطق فيشنسكايا ، ثم شقت طريقها قتالاً من قرية الى قرية ، متحركة على السهب غرباً بمحاذاة الدون . وفى الخامس من آذار هذب قوزاقى الى تتارسكى يحمل استغاثة مستعجلة لارسال المساعدة الى متمردى يلانسكايا ، الذين كانوا قد تراجعوا دون أن يبدوا مقاومة تذكر ، اذ كانت تعوزهم البنادق والذخيرة . كان الحمر يحصدونهم برصاص الرشاشات ، وراحت بطاريتان تقذفانهما بحممهما . وفى ظروف كهذه بات انتظار التعليمات من مركز المنطقة أمراً ميؤوساً . ومن ثم فقد عقد بيوتر ميليخوف العزم على التقدم لمواجهة الحمر بسريته .

وتولى قيادة السرايا الأربع الأخرى التى جمعتها القرى المجاورة ، وخرج بقوزاقه من تتارسكى صباحاً . وبدأت المناوشات المألوفة بين الدوريات . أما القتال الحقيقى فقد تأخر قليلاً .

ترجل الخيالة فى ذلك اليوم الشتائى القارس على مبعدة ستة فراسخ من القرية فى البقعة التى كان غريغورى وزوجته ناتاليا قد حرثاها وحيث اعترف لها غريغورى بأنه لم يكن يحبها . ثم انتشر القوزاق فى صف على الثلج قرب وديان ضيقة عميقة ، واقتيدت الخيل الى مخبأ . وكان بوسعهم أن يروا الحمر يسيرون

فى ثلاثة صفوف خارجين من واد فسيح . وكان العدو ما يزال على بعد فرسخين تقريباً ، فراح القوزاق يتهيأون للمعركة على مهل .

وذهب بيوتر بحصانه العرق المعتنى به الى حيث يتولى غريغورى قيادة نصف سريته . وكان بيوتر فرحاً نشيطاً :

— أيها الاخوان ، لا تضيعوا رصاصكم . أطلقوا النار حين آمركم . يا غريغورى ، خذ نصف سريتك مسافة خمسين يارداً الى اليسار . أسرع ! ولا تجمع الخيل كلها معاً ! — ثم أصدر بضعة أوامر ختامية أخرى ، ورفع ناظر الميدان الى عينيه ، وهتف : — ماذا ، هل ينصبون بطارية فوق ربوة ماتفييف ؟ . .

فقال غريغورى :

— رأيت ذلك منذ وقت ، لا حاجة بك لناظور كى تراهم . — ثم تناول الناظور من يد أخيه وحدق فيه . واستطاع أن يرى فوق الربوة التى تعبث بها الرياح عربات وأشباحاً صغيرة لرجال منهمكين حولها .

وعلى الرغم من الأوامر القاضية بعدم التجمع ، التم مشاة تتارسكى أو «الزاحفون» كما كانوا الخيالة يسمونهم هزلاً ، فى شراذم يدخنون ويتقاسمون الرصاص ويتناولون الخراطيش ويتمازحون . وبدا خريستونيا بقبعته الفرو العالية اطول بمقدار رأس من القوزاق الاصغر منه بعض الشىء (وكان خريستونيا بين المشاة لفقدانه حصانه) وبدت قبعة بانتلاى بروكوفتش بغطاء الاذنين حمراء متميزة بين غيرها . كان المشاة جلهم من الشيوخ والفتيان . وكان رجال يلانسكايا الى الجانب الأيمن من عباد الشمس الذى لم يحصد بعد . وكان تعداد المشاة فى السرايا الأربع ستمائة ، لكن حوالى المائتين ، اى ثلث مجموع القوات ، التجأوا الى الوديان ليعتنوا بالخيل .

وجاءت الصيحات من المشاة :

— بيوتر بانتلايتش ، لا تتخلوا عنا ، نحن المشاة ، حين يبدأ القتال ، نرجوك !

فابتسم بيوتر قائلاً :

— لا تخافوا ، لن نترككم . — وفيما نظر الى صفوف الحمر تتقدم صوب التل ، شرع يعبث بسوطه وهو بادى العصبية .

وناداه غريغورى ، وهو يبتعد قليلاً عن صف الرجال :

— بيوتر ، تعال الى هنا . — فتبعه بيوتر . فقال غريغورى وكان عبوسه ينم عن برم جلى :

— انى لا ارتاح الى هذا الموقع . علينا ان نبتعد عن هذه الوديان . فربما هاجمونا من احد الجناحين . فماذا يحل بنا ؟ ما رأيك ؟

فلوح بيوتر يده غاضباً وقال :

— ما هذا منك ؟ كيف يسعهم ان يهاجمونا من الجناح ؟ لقد ابقيت سرية احتياطاً ، اذا ما ساءت الأمور فان الوديان ستكون نافعة لنا . انها ليست مبعث خطر علينا .

فحذره غريغورى ، وهو يلقى نظرة خاطفة أخرى حول الموقع ، ويتفحص المكان بعينيه :

— اذا ، خذ الحذر .

ثم قفل راجعاً الى رجاله وكان العديد منهم قد الهبهم الانفعال فخلعوا قفازاتهم الاعتيادية ، وراح بعضهم يصلحون وضع سيوفهم ويشدون أحزمتهم بعصبية .

وقال احد القوزاق مبتسماً وهو يشير الى حيث يسير بيوتر على امتداد الصفوف بخطوات ثقيلة :

— آمرنا قرر ان يترجل عن حصانه .

وزعق أليكسى شامل ذو الذراع الواحدة الذى كان السيف كل سلاحه :

— هيه ، انت يا جنرال ! اؤمر أن يقدم لكل قوزاقي كوزاً من الفودكا !

— اخرس ، انت يا سكير ! سيبتر الحمر ذراعك الأخرى ، وكيف ستشرب حينذاك ؟ سيكون لزاماً عليك ان تلعق الشراب من الحوض .

— كفاكما .

وقال ستيبان استاخوف متنهداً ، وهو يرفع يده عن مقبض سيفه ليفتل عذاريه الماثلين الى الحمرة :

— انى مستعد لبذل الكثير من اجل قطرة شراب الآن .

وما ان شرعت بطارية الميدان تطلق نارها من خلف الرابية حتى تلاشى الحديث الذى لا يتصل بالموقف الحالى الا من بعيد . وانطلق الصوت الداوى الثقيل من فوهة المدفع وعلق فوق السهب . وكانت القذيفة الاولى غير محكمة التسديد فسقطت امام خطوط القوزاق بنحو نصف فرسخ . فانتشر الدخان الأسود المنبعث من الانفجار ثم علق بالشجيرات . وشرعت مدافع الرشاش تطلق النار من صفوف الحمر ، محدثة صوتاً كصوت المدقة الخشبية . فانبطح القوزاق على الثلج ، وراء الشجيرات ، وبين سيقان عباد الشمس الكثة التى لا رؤوس لها .

وصاح بروخور زيكوف منادياً غريغورى :

— ذلك الدخان شديد السواد . يبدو وكأنهم يستعملون قذائف ألمانية .

وساد السرية الثانية هرج . وحملت الريح صرخة :

— ميتروفان قُتل !

وجاء آمر سرية احمر اللحية من قرية روبجنى الى بيوتر راكضاً ، وقال :

— لديَّ فكرة ، يارفيق ميليخوف . ابعث سرية تهبط الى الدون ، فتمر حذاء النهر الى القرية ثم تضرب الحمر فى المؤخرة . لا بد انهم تركوا زحافات متاعهم دونما حراسة . فان تم ذلك شاع الهلع فى صفوفهم .

واستحسن بيوتر «الفكرة» وبعد ان امر سريته باطلاق النار سار الى غريغورى وشرح له الاقتراح ، وأمره باقتضاب :

— اسحب نصف سريتك واضرب مؤخرتهم !

فسحب غريغورى قوزاقه ، وأمرهم بركوب خيلهم فى أحد الوديان ، وسار بهم فى خبب سريع صوب القرية .

واطلق القوزاق من مراكزهم رشقتين من الرصاص ثم لزموا الصمت . وانبطح صف الحمر ، وبقيت رشاشاتهم تطلق النار . واصابت حصان مارتن شامل رصاصة ، فانتزع نفسه من يد القوزاقى الذى يقوم على حراسته ، وجرى هائجاً خلال صف قوزاق روبجنى ، ومضى مسرعاً صوب الحمر . فتطاير عبره فيض من رصاص الرشاشات ، فوثبت ساقا الحيوان الخلفيتان عالياً فى الهواء قبل ان يهوى على الثلج .

واصدر بيوتر الأوامر بتصويب النار الى حملة الرشاشات . ولم يطلق النار سوى خيرة الهدافين فأوقعوا بهم ضرراً جسيماً . وقد اصاب قوزاقى قمىء عرف باحكام رميه ثلاثة من حملة الرشاش ، فسكت رشاش المكسيم والماء يغلى فى مبردته . بيد ان حملة رشاش احتياط اسرعوا يحلون محلهم ، وسرعان ما اخذ المدفع يزرع بذور الموت من جديد . وجاءت الصليات متلاحقة فجعل القوزاق يدفنون انفسهم اعمق فأعمق فى الثلج .

وحفر انيكوشكا حتى بلغ الارض الجرداء وهو يمزح طوال الوقت . وكان قد نفدت خراطيشه (اذ لم يكن لديه سوى خمس منها فى مشط صدرى) واخذ يرفع رأسه من حجره بين آونة واخرى ، محدثاً بشفتيه صئياً يحكى صئى فأر جبلى فزع .

وكان ستيبان استاخوف على يمينه يبكى من فرط الضحك ، فيما كان انتيب الكذوب على يساره يلعن غاضباً :

— صه ، ياحشرة ! أهذا وقت مناسب للعبث !

فيزعق انيكوشكا : «اهيو !» جاحظاً عينيه صوبه مصطنعاً الذعر .

والواضح ان بطاريات الحمر كان ينقصها العتاد ، اذ كفت عن اطلاق النار بعد نحو ثلاثين قذيفة . فالتفت بيوتر الى قمة التل بنفاد صبر ، كان قد بعث برسولين الى القرية يحملان أوامر تقضى بخروج كافة السكان البالغين متسلحين بالمذارى والمناجل والفؤوس . كان يأمل ان يترك ظهورهم على التل اثره فى الحمر فيكونون انطباعاً خاطئاً عن قوة القوزاق .

واستجابة للأمر ظهر حشد الناس على حنوة التل وتدفقوا حدره . وقد استقبلهم القوزاق بالتنكيت :

— انظروا الى تلك الحجارة السوداء تتدحرج !

— خرجت القرية ، النساء وكل الآخرين !

وراح القوزاق يصيحون الى بعضهم ويبتسمون . كانوا قد اوقفوا اطلاق النار كلياً . ولم يبق سوى رشاشين يطلقان النار على صفوف الحمر ، وكانت الصليات تلعلع من حين الى آخر .

وقال اليكسى ذو الذراع الواحدة :

— آسف ان تتوقف بطاريات الحمر عن اطلاق النار . فلو انهم رموا قذيفة واحدة بين هذا الحشد لرأيتهن يهرولن عائدات

الى القرية بتنورات مبتلة . — يبدو انه كان آسفاً بالفعل لأن الحمر لم يطلقوا اى قذيفة على النساء .

اصطف الحشد صفين طويلين غير متسقين ثم توقف . وامرهم بيوتر ان يلبثوا بعيدين وراء خطوط القوزاق . ولكن يبدو ان ظهورهم بحد ذاته قد ترك اثره فى الحمر ، فشرعوا يتقهقرون وانحدروا الى قعر الوادى . وبعد ان عقد بيوتر مشاورات قصيرة مع امراء سراياه عمد الى كشف ميمنة قواته حين امر صفين من رجال يلانسكايا بالانسحاب والذهاب شمالاً على خيلهم لاسناد الهجوم الذى اعتزمه غريغورى . واصطفت السرايا على مرأى من الحمر ثم انحدرت شطر الدون .

استأنف القوزاق اطلاق نيرانهم على العدو المتقهقر . وفى اثناء ذلك ، توغل فى صفوف المحاربة «جنود الاحتياط» وهم عدد من اشد النسوة طيشاً وحشد من الصبيان . وكانت داريا فى عدادهم ، فدنت من بيوتر قائلة :

— بيوتر ، دعنى اطلق رصاصة على الحمر . انى اعرف كيف استعمل البندقية . — ثم أخذت غدارة بيوتر وركعت على ركبتيها فاسندت عقبها على صدرها بثقة رجال واطلقت طلقتين .

وجعل «جنود الاحتياط» الماثلون على سفح التل يراوحون بأرجلهم ويتواثبون التماساً للدفء ، فراح الصفان يرتجان وكأن الريح تهزهما . وصارت خدود النسوة وشفاههن زرقاء ، وتسلل الزمهرير تحت اذيال تنوراتهن الفضفاضة . وتجمد الشيوخ الهرمون تجمداً تاماً ، وكان يجب ان يُعان الكثيرون منهم ليصعدوا التل ، بما فيهم غريشاكا العجوز ولكن ما ان بلغ الشيوخ قمة التل التى تعبث بها الرياح حتى بعث الرمى البعيد والبرد فيهم الحماس . وانهمكوا فى حديث حام يروون مآثر الحروب والمعارك السالفة

وبؤس الحرب الراهنة ، حيث يقاتل الاخ اخاه ، والوالد ولده ، وحيث تطلق المدافع من بعد شاسع تعجز العين المجردة عن رؤيتها . . .

٣٣

اغار غريغورى بنصف سريته على زحافات الامتعة ، فصرع ثمانية من الحرس الأحمر ، واستولى على اربع زحافات محملة بالذخيرة وعلى حصانين للركوب . وقد خسر حصاناً واحداً ، واصيب احد القوزاق بخدش طفيف .

ولكن حين قفل غريغورى راجعاً على محاذاة الدون بما غنم من زحافات ، قرير البال منتشياً بانتصاره ، كان القتال قد بلغ نهايته فوق التل المشرف على تنارسكى . فقبل ان تبدأ المعركة شرعت سرية من فرسان الحمر فى مسيرة عشرة فراسخ لتطويق القوزاق ، وظهرت وراء التل بغتة واغاروا على الرجال المكلفين برعاية الخيل واختلط الحابل بالنابل . فسرى الذعر فى القوزاق وهربوا بالخيل من الوهدة . وقد افلح بعضهم فى قيادة المطايا الى صفوف القوزاق . ولكن غالبيتهم سقطوا صرعى سيوف الخيالة الحمر . والكثيرون من القوزاق المجردين من اسلحتهم اطلقوا سراح الجياد التى كانوا يكلفون برعايتها ولاذوا بالفرار شذر مذر . ولم يستطع المشاة اطلاق النار خشية ان يصيبوا رجالهم . وتدفقوا الى باطن الاخدود يخبطون خبط عشواء كما تتدفق حبات الفاصوليا من كيس . اما فرسان القوزاق الذين افلحوا فى بلوغ الخيل ، وهم الغالبية ، فقد راحوا يتزاحمون فى سباق سريع عائدين شطر القرية .

وحالما سمع بيوتر الصيحة ورأى جحافل الحمر المتدفقين الى القوزاق ، اصدر أمره :

— الى الخيل ! لاتيشيف ! خذ المشاة عبر الاخدود ! . .

بيد انه لم يفلح فى الوصول الى حصانه . فقد جاء الصبى الذى كان حصانه فى عهدته يهذب هذباً ، يقود حصانه وحصان فيدوت بودوفسكوف . بيد ان رجلاً من الجيش الأحمر اغار عليه من الخلف واهوى بالسيف على كتفه . ومن حسن حظ الصبى ان بندقية كانت معلقة على ظهره ، فلم يقطع السيف عنقه المعصومة بالوشاح الأبيض ، بل انزلق على ماسورة البندقية مصراً فطار من يد الرجل . غير ان حصان الصبى استدار وهذب مبتعداً ، فتبعه حصانا بيوتر وفيدوت . فندت عن بيوتر انة ولبث واقفاً لبرهة ، شاحب الوجه ، والعرق يتصبب حدر خديه . ثم التفت فرأى ما ينوف على عشرة قوزاق يعدون شطره . وصاح بودوفسكوف وقد شوه الرعب وجهه :

— هلكنا !

فأمرهم بيوتر قائلاً :

— اهبطوا الى الاخدود ، ياقوزاق ! ياإخوان ، الى الأخدود !

واستعاد رباطة جأشه فقادهم جرياً الى حافة الأخدود ، وتدحرج حدر المنخفض كيفما اتفق . وعلق بمعطفه الفرو القصير شىء ما فتمزق من جيب صدره حتى درز الحاشية . وحين بلغ القعر وثب ونفض نفسه كما يفعل كلب . فتدحرج القوزاق من فوق التل وهم يتقلبون اثناء طيرانهم .

كان الرصاص ما يزال يلعلع من عل ، وكان بوسعهم ان يسمعوا الصيحات ووقع الحوافر . وراح القوزاق فى باطن الاخدود ينفضون الثلج والرمل عن قبعاتهم بحركات آلية او يدلكون كدماتهم .

وانهمك مارتن شامل فى تنظيف ماسورة بندقيته من الثلج . اما الفتى مانيتسكوف ، ابن الاتمان السابق ، فقد كان يرتعد خوفاً والدموع تنهمر على خديه . وقال باكياً :

— ماذا نفعل ؟ قل لنا ، يا بيوتر ! الموت يحيق بنا ! أين نذهب ؟ سيقتلوننا ! . .

واستدار فيدوت بودوفسكوف ، واسنانه تصطك ، وجرى على امتداد القعر شطر الدون ، فتبعه الآخرون كالاغنام . كاد بيوتر ان يوقفهم :

— قف ! ستتدبر الأمر . . . لا تهربوا ! سيحصدونكم بالرصاص !

ثم قادهم الى ما تحت جرف ناتئ واقترح عليهم وهو يتلعثم ، جاهداً ان يحتفظ بشىء من مظاهر الهدوء :

— ليس بوسعكم الخروج من الأخدود . فهم الآن يطاردون رجالنا دونما ريب . علينا ان نختفى هنا . وينبغى لبعضنا ان يذهب الى الجانب الآخر . . . يجب ان نطلق النار وندافع عن هذه النقطة . وبوسعنا ان نقاوم الحصار هنا !

وانفجر مانيتسكوف الصغير الأبيض الشعر يبكى ويعول :

— انتهى أمرنا ! يا آبائى ! يا اخوانى ! دعونى اخرج من هذا المكان ! لا اريد ان . . . لا اريد ان اموت !

فالتمعت عينا بودوفسكوف الكالميكيتان ، وانزل جمع يده على وجه الصبى ، فأسال الدم من انفه وانخرط ظهره على جدار الجرف . فكاد الصبى يسقط لكنه كف عن العويل .

سأل مارتن شامل وهو يمسك بيوتر من ذراعه :

— كيف نستطيع اطلاق النار عليهم ؟ ليس لدينا اى رصاص.

— سيمحقوننا بالقنابل اليدوية ! يا ويل ! . .

— حسناً ، ماذا علينا ان نفعل غير هذا ؟ — واستحال وجه بيوتر ازرق ، على حين غرة ، ولاح الزبد على شفتيه :

— انبطحوا ! . . ألست القائد ام لا ؟ سأقتل ! — وهز مسدسه فوق رؤوسهم بالفعل .

ولكأن همسه الصافر قد بعث فيهم حياة جديدة . فجرى بودوفسكوف ومارتن شامل وقوزاقيان آخران الى الجانب المقابل من الأخدود وانبطحوا تحت الجرف ، أما الآخرون ، فقد ظلوا مع بيوتر .

فى فصل الربيع تدفع مياه التلول الفائضة العكرة الاحجار وتجرف قعر الاخدود ، فتنخر طبقات الطين الأحمر وتحدث الحفر والشقوق فى جدران الجرف . وقد اختبأ القوزاق فى تلك الحفر .

وربض انتيب الكذوب محدوداً بجانب بيوتر وقد هيأ بندقيته ، وراح يتمتم بكلام غير واضح :

— امسك ستيبان استاخوف بحصانه من الذيل ، وافلح فى النجاة ، اما انا فلم استطع . . . لقد خاننا رجال المشاة . . . انتهى امرنا ، يا اخوان . . . يعلم الله ، انتهينا ! . .

وسمعوا من فوقهم صوت اقدام تتراكض ، وتساقط فى الاخدود نثار من الثلج والرمل .

فهمس بيوتر :

— ها هم قادمون ! — ثم امسك بكم انتيب ، لكنه انتزع يده بعنف ونظر الى فوق واصبعه على الزناد .

لم يدن احد من حافة الجرف ، ولكن القوزاق سمعوا جلبة اصوات ورجلاً يصرخ بحصانه .

فقال بيوتر فى دخيلته : — انهم يتشاورون فى طريقة الاجهاز

علينا . — وعاد العرق يتصبب حدر ظهره وعلى صدره ووجهه . . .

ثم علت صيحة من فوقهم :

— يا هؤلاء ، اخرجوا ! سنقتلكم على اية حال !

وانثال فى الاخدود سيل من الثلج ابيض كالحليب ، فلا بد ان احدهم اقترب من حافة الجرف .

وعقب صوت آخر بكل ثقة :

— قفزوا هناك ، هذه آثار اقدامهم . وقد رأيتهم بنفسى .

— بيوتر ميليخوف ، اخرج من هناك !

فانتابت بيوتر برهة فرحة تعمى الابصار . وقال فى سريرته : «من الذى يعرفنى من بين الحمر ؟ لا بد ان هؤلاء من قوزاقنا ، لقد هزموهم» . ولكن الصوت ذاته ما لبث ان بعث فيه الرعدة بعد لحظة .

— انا ميخائيل كوشيفوى ، اننا ندعوكم للاستسلام . لن تفلتوا على اية حال .

فمسح بيوتر حاجبه الندى ، فعلقت خيوط من عرق يخالطه الدم فى راحة يده . ودب فيه شعور غريب من اللامبالاة ، اشبه بالغيبوبة . وبدت صيحة انتيب وكأنها آتية من بعيد :

— سنخرج ان اخليتم سبيلنا ، والا فسنطلق النار !

وجاء الرد من عل ، بعد صمت وجيز :

— سوف نخلى سبيلكم .

وبذل بيوتر جهداً هائلاً كى ينفض عنه شعور الخدر . وظن انه شم رائحة السخرية فى كلمتى «نخلى سبيلكم» . فصاح بصوت مبحوح : «ارجع !» بيد ان احداً لم يلتفت اليه . فقد تسلل كل القوزاق الى خارج الأخدود ما خلا انتيب الذى اختبأ فى حفرة .

كان بيوتر آخر من غادر مخبأه . كانت الحياة تنتفض فى اعماقه انتفاض الجنين فى احشاء الأم .

وقد حدت به غريزة البقاء ان يفرغ مخزن بندقيته من الطلقات قبل ان يتسلق المنحدر المائل . كانت عيناه لا تبصران ، وكأن الطين اعماهما ، وقلبه يملأ صدره . وخالجه شعور الاختناق كطفل يغط فى نوم عميق ، فحرر عنقه من ياقته . كان العرق يملأ عينيه ، وراحت يداه تنزلقان على منحدر الجرف البارد . وتسلق لاهثاً الى حيث كانوا يقفون ، فألقى بندقيته عند قدميه ، ورفع يديه فوق رأسه . وكان القوزاق الذين سبقوه قد حشروا سوية . فخطا ميخائيل كوشيفوى من بين جمع الجنود المشاة والخيالة ، وتقدم نحوهم . ودنا من بيوتر ، فوقف ازاءه مباشرة ، ثم سأله بهدوء وقد تسمرت عيناه فى الأرض :

— هل شبعت من القتال ؟ — ولبث برهة ينتظر الجواب ، ثم سأله بالنبرة ذاتها ، وهو ما يزال يحدق فى قدمى بيوتر : — كنت تتولى قيادتهم ، أليس كذلك ؟

فاختلجت شفتا بيوتر . وبحركة تنم عن وهن فظيع ومشقة بالغة رفع يده الى جبينه المبتل . وخفقت اهداب ميخائيل الطويلة ، وانثنت شفته العليا المتورمة . واختض جسده برعشة عنيفة فبدا وكأنه لن يستطيع الثبات على قدميه . ولكنه سرعان ما رفع عينيه الى عينى بيوتر ، وراح يحدق فى بؤبؤيه مباشرة ، نافذاً خلالهما بنظرة غريبة كل الغرابة ، ثم غمغم بسرعة :

— اخلع ملابسك !

فنزع بيوتر سترته الفرو على عجل ، ثم لفها بعناية ، ووضعها على الثلج . ثم خلع قبعته ، ونطاقه ، وقميصه الخاكى ، وجلس على طرف سترته ، وشرع يخلع جزمته ، فيما كان شحوبه يزداد

لحظة اثر لحظة .

وترجل ايفان اليكسييفتش ، ثم خطا نحوهما ، يصر بأسنانه خشية ان يجهش بالبكاء .

وهمس ميخائيل : «لا تخلع قميصك . — ثم اعترته الرجفة ، وصرخ على حين غرة :

— اسرع ، يا . . .

فدس بيوتر جوربيه الصوفيين فى ساقى جزمته على عجل ، وانتصب واقفاً ، ثم نحى قدميه الحافيتين عن سترته ، وكانتا على صفحة الثلج اشبه بالزعفران صفرة .

ثم نادى بيوتر على ايفان اليكسييفتش ، وهو لا يكاد يحرك شفتيه : — يا عرّاب ! — ولكن ايفان لبث واقفاً ينظر بصمت الى الثلج يذوب تحت قدمى بيوتر العاريتين . وراح بيوتر يتضرع : — ايفان ، كنت عراب ابنتى فى العماد . . . يا عراب ، لا تقتلونى . — وحين رأى ان ميخائيل قد رفع مسدسه الى مستوى صدره ، جحظت عيناه ، كمن يتوقع ومضة تبهر الابصار ، ثم خفض رأسه بين كتفيه .

لم يسمع الطلقة ، وهوى على قفاه ، وكأن احداً كال له ضربة عنيفة .

خيل اليه ان يد كوشيفوى المبسوطة قد امسكت قلبه ، واعتصرت الدم منه . وبذل بيوتر آخر ما فيه من جهد ففتح ياقة قميصه وكشف عن ثقب الرصاصة تحت ثديه الأيسر . وجعل الدم ينز من الجرح أول الأمر ، ثم تفجر وراح يتدفق سيلاً كثيفاً داكناً .

عند الغسق عادت ثلة استطلاعية ارسلت من تنارسكى بأنباء تفيد انهم لم يعثروا على اثر للحمر . ولكنهم وجدوا بيوتر ميليخوف وعشرة قوزاق آخرين راقدين فى السهب وقد مزقتهم السيوف .

فأمر غريغورى بارسال زحافات لجلب الجثث ، ثم ذهب ليقضى الليلة عند خريستونيا ، هارباً من بيته الذى كان يضج بعويل النسوة على بيوتر القتيل وبكاء داريا الهيستيرى . ولبث جالساً حتى الفجر عند الموقد فى كوخ خريستونيا ، يدخن سيكارة اثر سيكارة ، مواصلاً حديثاً لا طائل تحته مع خريستونيا النعسان ، ومن جديد يختطف كيس تبغه بعصبية ويستنشق رائحته الحادة بنهم ، وكأنه يخشى الانفراد وجهاً لوجه مع افكاره ، ومع كربته على أخيه .

انبلج النهار . وشرع الجليد فى الذوبان منذ الصباح الباكر . وما ان حلت الساعة العاشرة حتى ظهرت البرك على الطريق الذى تبعثر عليه الروث . وجعل الماء يقطر من السطوح . وصاح ديك وكأنه فى عز الربيع ، وقاقت دجاجة وكأنها فى ظهيرة راكدة الهواء .

وتجمعت الماشية فى الجانب المشمس من الأفنية وجعلت تحتك بالأسيجة . فحملت الريح شعرها المتساقط من على ظهورها البنية . وفاح الثلج الذائب بالرطوبة والعفونة . وراح طائر قرقف صغير الحجم ، اصفر الصدر ، يتأرجح ويغرد فوق غصن اجرد لشجرة تفاح تقوم عند بوابة خريستونيا .

واذ وقف غريغورى عند البوابة ينتظر وصول الزحافات ،

ألفى نفسه يترجم زقزقة القرقف الى لغة طفولته . كان القرقف ينادى بانشراح فى ذلك الصباح الدافئ : اشحذ محراثك ، اشحذ محراثك !» ولو اصبح الطقس زمهريراً لتغير صوت القرقف ، ولتعجل بالنصح : «البس جزمتك ! البس جزمتك !»

حول عينيه من الطريق الى القرقف المتأرجح ، الذى مضى يغرد نشوان : «اشحذ محراثك ! اشحذ محراثك !» وفيما انصت غريغورى ، عادت به الذاكرة الى ايام الطفولة ، يوم كان وبيوتر يسوق الديكة الرومية لرعيها فى السهب ، وكيف ان بيوتر بشعره الأشقر وانفه الأفطس المقشّر دائماً فى الصيف يقلد صياح فرخ الديك الرومى الحزين بكل مهارة ويترجمه الى لغة الاطفال : «لكل القوم احذية ما عداى ! لكل القوم احذية ما عداى !» وراح يقلب عينيه ويخفق بيديه وقد الصق مرفقيه بجنبيه ، يتهادى فى مشيته مغمغماً مدمدماً وكأنه ديك رومى عجوز : «غور ! غور ! غور ! سنشترى لك حذاء فى السوق ، يا صعلوك !» ويومذاك ضحك غريغورى من كل قلبه ، فطلب الى أخيه ان يقلد ثانية لغة الديك الرومى وفراخه المغمغمة وقد عثرت فى العشب على قطعة حديد او قماش وهو شىء غير مألوف لديها . . .

ظهرت فى نهاية الشارع زحافة يسير قوزاقى الى جانبها . ثم بدت للعين أخرى وثالثة . فمسح غريغورى دمعة وازال معها ابتسامته الهادئة التى اثارتها تلك الذكريات اللجوج . ثم ذهب نحو بوابة داره على عجل . كانت أمه شبه مخبولة من شدة الويل ، فأراد فى تلك اللحظة الرهيبة الاولى ان يحول بينها والزحافة التى تحمل جثمان بيوتر . كان اليكسى شامل يسير حاسر الرأس الى جانب الزحافة الأولى ، يشد قبعته الى صدره بجذمة ذراعه اليسرى ويمسك الأعنة بيده اليمنى . فنظر غريغورى الى

الزحافة : كان مارتن شامل راقداً على ظهره فوق القش ، وقد لطخ الدم المتخثر وجهه وقمصلته الخضراء . وكان مانيتسكوف فى الزحافة الثانية وقد انغرز وجهه المشخن بالجروح فى القش ، وتكوم رأسه على كتفيه ، وقد طوحت بجمجمته ضربة ماهرة حاذقة ، وكانت عظام القحف مؤطرة ببلورات من الثلج قاتمة بخالطها الشعر . ونظر غريغورى الى الزحافة الثالثة ، فلم يستطع معرفة الجثة الهامدة ، بيد ان اليد المتدلية من جانب الزحافة استرعت انتباهه ، بأصابعها الشمعية المصطبغة بدخان التبغ وقد التمت لرسم اشارة الصليب . وامسك لجام الحصان الرابع وقاده الى داخل الحوش ، فتراكض من ورائها الجيران والنسوة والاطفال . واجتمع الحشد حول درجات الباب .

قال أحدهم بصوت هادئ :

— هوذا راقد عزيزنا بيوتر بانتلايتش ! لقد انتهت حياته على هذه الأرض !

وجاء ستيبان استاخوف خلال الباب حاسر الرأس ، ووصل غريشاكا وثلاثة شيوخ آخرين من مكان ما . واجال غريغورى حوله نظرة شاردة ، ورجاهم قائلاً :

— اعينونى فى حمله الى داخل الدار . . .

واذ هم السائق بحمل بيوتر افسح الحشد الطريق لايليتشنا بصمت واحترام وهى تهبط الدرجات .

راحت تحدق فى الزحافة ، ورف على جبينها شريط من شحوب الموت . وأمسك بانتلاى بركوفتش ذراعها وهو يرتجف . وكانت دونيا اولى النائحات فرددت نواحها عشر دور أخرى فى القرية . ثم جاءت داريا منفوشة الشعر ، متورمة الوجه من البكاء ، وعدت تهبط الدرجات والقت بنفسها على الزحافة .

— بيوتر ، ايها العزيز ، يا عزيزى بيوتر ، انهض ! انهض ! واسودت الدنيا فى عينى غريغورى . فصرخ بوحشية عارمة :

— ابتعدى ، يا داريا !

ثم دفعها بعنف صدفة فسقطت فى كومة من الثلج . وأسرع غريغورى يرفع بيوتر من ابطيه وأمسك السائق بقدميه الحافيتين . ولكن داريا زحفت على يديها وركبتيها صاعدة الدرجات وراءهما ، فتشبثت بيدى زوجها المتخشبتين المتجمدتين وراحت تقبلها . وأحس غريغورى انه يوشك ان يفقد زمام نفسه تماماً ، فدفعها بقدمه . وفكت دونيا يدى داريا عنوة ثم شدت الى صدرها رأس داريا الذى غشيته الغيبوبة .

* * *

خيم على المطبخ صمت موحش . ورقد بيوتر على الارض ضئيل الجرم الى حد فظيع ، وكأن بدنه قد تيبس . وقد ضاق أنفه ، وغام لون عذاريه الكتانى ، بيد ان تقاسيم وجهه كانت قد توترت فزادته وسامة . كانت ساقاه العاريتان المشعرتان بارزتين من سرواله . وأخذ الثلج يذوب عن الجثة ببطء ، فتكونت تحتها بركة صغيرة من ماء وردى . وكلما ازداد ذوبان الثلج عن الجثة اشتدت رائحة الدم الملحية ، ورائحة التفسخ المقرفة .

كان بانتلاى بروكوفتش فى السقيفة منهمكاً يصنع تابوتاً ، والنسوة ما زلن منشغلات بداريا التى لم تثب الى وعيها بعد . ومن حين لآخر تنبعث من الغرفة صرخة هستيرية نفاذة تعقبها صرخات اوطأ نبرة من فم الخالة فاسيليسا ، التى هرعت «تشاطر» آل ميليخوف اتراحهم . وجلس غريغورى على المصطبة يحدق فى وجه أخيه الذى تزايدت صفرته ، وفى يده ذات الاظافر

المستديرة الزرقاء . وانتابه شعور بالاغتراب عن بيوتر ، فسرت فيه رعدة باردة : لم يعد أخاً بل ضيفاً طارئاً ينبغى له ان يرحل الآن . كان راقداً وخده على الأرض الطينية دونما اكتراث وقد تجمدت تحت شاربه ابتسامة خفيفة رائقة غامضة . وغدا ستعده امه وزوجته لرحلته الأخيرة .

فى الليل تقوم أمه بتسخين ثلاث جرات من الماء له ، وتهيئ زوجته حراماً نظيفاً ، وافضل سراويله ، وقمصلته الرسمية . ويغسل غريغورى وبانتلاى بروكوفتش ذلك الجسد الذى لم يعد ملك بيوتر ، والذى لم يعد يشعر بالحياء من عريه . ثم يلبسونه احسن الحلة ويسجونه على المائدة ، وتأتى داريا فتمسك يديه العريضتين المتثلجتين ، اللتين كانتا حتى امس تعانقانها ، وتضع الشمعة التى انارت لهما حين سارا معاً وراء الكاهن يطوف بهما حول منبر الكنيسة يوم زفافهما . واذ ذاك يكون القوزاقى بيوتر ميليخوف متأهباً لتشييعه الى ذلك المكان حيث لا عودة منه الى دفء البيت فى ايما اجازة .

وصار غريغورى يلوم أخاه في ذهنه : — كان خيراً لك ان تموت فى مكان ما فى بروسيا بدلاً من ان تموت هنا أمام عينى أمك . — وحين نظر الى الجثة اعتراه الشحوب فجأة . كان ثمة دمعة تلتمع على خد بيوتر ، فقفز غريغورى نحوه ، ولكنه حين أمعن النظر ، تنفس الصعداء ، فلم تكن تلك دمعة ميت بل قطرة ذابت من بين شعر بيوتر الذى تهدل على ناصيته وراحت تسير على خده ببطء .

بأمر من قائد القوات الثائرة المتحدة ، عُين غريغورى ميليخوف آمرا لكتيبة فيشنسكايا المؤلفة من عشر سرايا قوزاقية . وقد اوعزت له الأركان من فيشنسكايا أن يسير باتجاه منطقة كارغينسكايا لكى يقضى على مفرزة ليخاتشوف مهما كلف ذلك من ثمن ، ويطردها الى خارج حدود الاقليم ، فيصبح بالمستطاع اشعال العصيان فى القرى الواقعة على ضفاف نهر تشير .

وفى السابع من آذار قام باستعراض قوزاقه وهم خارجون من فيشنسكايا . جلس على سرجه محنى الظهر ، وقد شد عنان جواده الواقف فوق ربوة على جانب الطريق ، يوشك ثلجها ان يذوب ، وراحت تمر امامه السرايا طوابير ، وقد جند رجالها من قرى الدون : بازكى بيلوغوركى ، اولشانسكى ، ميركولوف ، غرومكوفسكى ، سيميونوفسكى ، زيبينسكى ، فوديانسكى ، ليباجى ويريك . كان يمسد شاربه بيده المقفزة ، ويجعد انفه الشبيه بمنقار الصقر ، وهو يتفحص كل سرية بعين صارمة يقظة . وكان معارفه من القوزاق يبتسمون اذ يمرون به على ظهور خيلهم . وجعلت سحب من دخان التبغ تنساب وتتلاشى فوق الصفوف ، وراح البخار يتصاعد من الخيل .

وحين بلغت الكتيبة مكاناً يبعد عن فيشنسكايا زهاء ثلاثة فراسخ ، عادت احدى الدوريات بخبر يفيد ان الحمر يتقهقرون صوب تشوكارين . ولم تشتبك مفرزة ليخاتشوف معهم ، فأرسل غريغورى ثلاث سرايا لتطويق مفرزة العدو ، ومضى بالبقية يتعقب خطاها بسرعة جعلت الحمر يشرعون فى التخلى عن عربات الشحن وصناديق العتاد . وفيما كانت بطارية ليخاتشوف تترك

تشوكارين فقدت بعض مدافعها فى نهر صغير قرب الكنيسة المهترئة ، فقطع السواقون السيور ولاذوا بالفرار . وتعدى القوزاق تشوكارين بمسافة خمسة عشر فرسخاً باتجاه كارغينسكايا دون ان يصادفوا مقاومة تذكر ، فبدأ القوزاق يمزحون : اها ، سنصل الى نوفوتشيركاسك ، ان شاء الله !»

وقد سر غريغورى بالبطارية التى استولوا عليها ، وقال في نفسه باحتقار : «انهم لم يتريثوا حتى لاتلاف المدافع» . وقام القوزاق بجر المدافع من النهير مستعينين بالثيران ، وسرعان ما تجمع المدفعيون من شتى السرايا ، وشدت الجياد ، ستة ازواج الى كل مدفع ، وافردت نصف سرية لحراستها .

استولى القوزاق على كارغينسكايا عند الغسق . وقد اسروا جزءا من مفرزة ليخاتشوف مع مدافع الميدان الثلاثة الباقية ، وتسعة رشاشات . أما بقية الجنود واللجنة الثورية معهم فقد افلحوا فى الهرب شمالاً .

ظل المطر يهطل طوال الليل ، فراحت الوديان والشعاب تهدر صباح اليوم التالى بالمياه ، وأضحى المرور على الطريق شاقاً ، فغاصت الخيل فى الثلج الذائب والوحل ، وتهادى الرجال اعياء . ارسلت لمطاردة العدو المتقهقر سريتان بقيادة الضابط يرماكوف فأسرتا فى الصباح زهاء ثلاثين من الحمر وعادتا بهم الى كارغينسكايا .

كان غريغورى قد اتخذ مقراً له فى بيت كبير يعود الى احد تجار المدينة . فسيق الاسرى الى داخل الفناء . وجاء يرماكوف ، آمر السريتين ، يقدم تقريره الى غريغورى :

— أسرنا سبعة وعشرين من الحمر ، ومراسلك جاء بحصانك . هل انت ذاهب الآن ؟

فشد غريغورى الحزام فوق معطفه ، ثم مشط خصلته المتلبدة امام المرآة ، وحينذاك التفت الى يرماكوف :

— لنذهب ، سوف نعقد اجتماعاً فى الميدان ، ثم نغادر .

فابتسم يرماكوف وهز كتفيه قائلاً :

— وهل نحن بحاجة الى اجتماع ؟ الرجال على خيولهم فعلاً ، بلا اى اجتماع . انظر ، ها قد أتى رجال فيشنسكايا ، أليس كذلك ؟

فأرسل غريغورى نظرة خارج النافذة . كانت سرايا قد اصطف رجالها اربعاً تمر بنسق رائع . وبدا القوزاق وخيولهم فى مظهر بهي .

فغمغم غريغورى بسرور وهو يتمنطق بسيفه ويهرع خارجاً من البيت :

— من أين جاءوا بحق الجحيم ؟

أدركه يرماكوف عند البوابة . كان ثمة آمر سرية امامية ماثلاً امام غريغورى ويده مرفوعة بالتحية ، اذ لم يكن ليجرؤ على مصافحته :

— الرفيق ميليخوف ؟

— نعم . من اين انتم ؟

— اقبلوا انضمامنا الى كتيبتكم . سريتنا تشكلت ليلة امس ، فى ليخوفيدوف . اما السريتان الأخريان فقد جاءتا من غراتشوف ، وارخيبوفكا ، وفاسيليفكا .

— خذ القوزاق الى الميدان . سنعقد اجتماعاً فى الحال .

وقاد مراسل غريغورى (وهو بروخور زيكوف) حصان يرماكوف ، بل وساعده في الامساك بالركاب . والقى يرماكوف جسده الرشيق

الحديدى على السرج بحركة سريعة وانيقة ، وسوى طيات معطفه ، ثم تقدم من غريغورى ، وسأله :

— ماذا سنفعل بالأسرى ؟

فأمسكه غريغورى من زر معطفه الأعلى ومال الى اذنه ، وأومضت فى عينيه شرارات صغيرة ، وتحت شاربيه انفجرت شفتاه بابتسامة تحكى ابتسامة الذئب :

— ارسلهم الى فيشنسكايا مخفورين . أتفهم ؟ ولكن ينبغى الا يصلوا الى ابعد من الجانب الآخر لذلك المرتفع . — ثم لوح بسوطه فى اتجاه مرتفع رملى يشرف على كارغينسكايا .

وقال فى سريرته : «تلك هى الخطوة الأولى للأخذ بثأر بيوتر» — ثم ارسل حصانه خبباً ، ودونما سبب واضح ، اهوى بسوطه على الحصان فبدت على ساقيه الخلفيتين لفحة بيضاء .

٣٦

خرج غريغورى من كارغينسكايا على رأس ثلاثة الاف وخمسمائة مقاتل . وأرسلت هيئة اركان فيشنسكايا واللجنة التنفيذية وراءه بأوامر وتعليمات عاجلة وبعث له احد اعضاء اللجنة خطاباً مزوقاً :

«الرفيق ميليخوف الموقر ، تصل أسماعنا شائعات سود مفادها انك تعدم أسرى الجيش الأحمر بلا رحمة . ويبدو أن الثلاثين جندياً من الجيش الأحمر الذين أسرهم يرماكوف قد أجهز عليهم بأوامر من عندك . وقد بلغنا انه كان فى عدادهم قوميسار كان بوسعنا الافادة منه لمعرفة قوة العدو . ايها الرفيق العزيز ، الغ اوامرك القاضية بقتل الأسرى فهى تعود علينا بضرر جسيم . لقد شاع التذمر بين القوزاق من هذه القسوة وهم يخشون ان

يعمد الحمر بدورهم الى قتل اسراهم وتدمير قرانا . هذا وارسل لنا القادة احياء ، وسنتخلص نحن منهم بهدوء فى فيشنسكايا او فى كازانسكايا . غير انك سائر بما عندك من سرايا مثل تاراس بولبا فى رواية بوشكين التاريخية * ، تعمل السيف والنار فى كل شىء ، فتثير بذلك القلق فى نفوس القوزاق . اكبح جماح نفسك ، من فضلك ، ولا تحكم على الأسرى بالموت ، بل ارسلهم الينا . ففى ذلك قوة لنا . مع تمنياتنا الطيبة لك بالصحة نبعث اليك بالتحيات الحارة ، ونحن بانتظار انباء المزيد من انتصاراتك» .

مزق غريغورى الرسالة دون ان يبلغ نهايتها . ثم ألقى بها تحت حوافر جواده ، وجواباً على الأمر الذى تلقاه غريغورى من كودينوف بالتقدم نحو الجنوب والاتصال بالكاديت وتحاشياً لتطويق العدو له ، كتب غريغورى من على سرجه يقول : «اننى أتعقب العدو باتجاه بوكوفسكايا . أرفض الذهاب جنوباً وأعتبر أمركم سخيفاً . فليس هناك من شىء سوى الرياح والفلاحين الأوكرانيين» .

بهذا انتهت مراسلاته «الرسمية» مع مقر المتمردين . وجمع السرايا فى كتيبتين ومضى فى زحفه صوب بوكوفسكايا .

حالف النجاح غريغورى طيلة أيام ثلاثة ، فاستولى على بوكوفسكايا بهجوم عاصف ثم سار على رأس قواته نحو كراسنوكوتسكايا ، وأجهز على مفرزة صغيرة كانت تعترض سبيلهم ، بيد أنه لم يصدر الأوامر بقتل الأسرى ، بل أرسلهم الى فيشنسكايا .

وفي التاسع من آذار كان غريغوري يسير بكتيبته الى تشيستياكوفكا .

وفزعت القيادة الحمراء فى جبهة نهر الدونيتس من الخطر

* يخطئ كاتب الرسالة : فان الكاتب الروسى البارز نيقولاى غوغول هو مؤلف هذه الرواية . **المعرب** .

المباغت الذى تعرضت له المؤخرة ، فبعثت ببضع كتائب وبطاريات لمعالجة أمر الانتفاضة . وقد اشتبكت تعزيزات الحمر بكتيبتى غريغورى على مقربة من تشيستياكوفكا . واستمر القتال ساعات ثلاث ، ثم سحب غريغورى قواته فى اتجاه كراسنوكوتسكايا ، خشية تعرضها للتطويق . غير أن كتيبتيه تعرضتا فى صبيحة اليوم التالى الى هجوم شنته قوة القوزاق الحمر من خوبرسكايا ، فجعل قوزاق الدون يعملون السيوف فى بعضهم البعض كرة ثانية . وفقد غريغورى حصانه وأصيب بجرح فى خده . فسحب كتيبتيه من المعركة وتقهقر الى بوكوفسكايا .

وفى مساء ذلك اليوم ، أراد الحصول على مزيد من المعلومات عن العدو ، فاستجوب أحد الأسرى ، وكان هذا قوزاقياً من منطقة خوبر ، رجلاً ضامر الصدر أشقر الشعر ، تجاوز سن الشباب ، يحمل على طية معطفه قطعة من شريط أحمر فأجاب الرجل على أسئلته طوعاً ولكن بابتسامة مصطنعة شوهاء :

— أى كتائب شاركت فى القتال البارحة ؟

— كتيبتنا ، وكتيبة باسم ستينكا رازين الثالثة . انهم جميعاً قوزاق من منطقة خوبر . وكتيبة زآمورسكى الخامسة ، وكتيبة الخيالة الثانية عشرة ، وكتيبة متسينسكى السادسة .

— من هو القائد ، كيكفيدزا ، كما يقال ؟

— كلا ، الرفيق دومنيتش كان يقود قطعاتنا .

— والعتاد لديكم كثير ؟

— لا يُعد ولا يُحصى !

— والمدافع ؟

— ثمانية على ما يبدو .

— أين كنتم معسكرين ؟

— فى قرى كامنسكايا .

— هل أعلموهم الى اين يرسلون بهم ؟

تردد القوزاقى ولكنه اجاب على السوءال فى نهاية الأمر . وعلى حين غرة استبدت الرغبة فى غريغورى لمعرفة موقف القوزاق الحمر .

— ماذا قال القوزاق حين جندوهم ؟

— لم يرغبوا فى ذلك . . .

— هل علمتم لماذا انتفضنا ؟

— كيف يمكن ان نعلم ؟

— لماذا اذا لم ترغبوا فى الجندية ؟

— حسناً ، ألستم قوزاقاً مثلنا ؟ الم نشبع من الحرب ؟ لم نكف عن القتال منذ انضمامنا الى صفوف الحمر .

— اتود الخدمة فى صفوفنا ؟

وأجاب القوزاقى هازاً كتفيه : — كما تريد . ولكنى لا اود فى . . .

— طيب ، اخرج . سنعيدك الى زوجتك . أنت مشتاق اليها ، أليس كذلك ؟

وجعل غريغورى يحدق بعينين مخاوصتين وراء الرجل فيما اقتاده الى خارج الغرفة ، ثم استدعى مراسله ، بروخور زيكوف ، مستغرقاً فى تفكير صامت طويل ، مدخناً . وسار عبر الغرفة الى النافذة ، فوقف وظهره الى بروخور ، وأمره بهدوء :

— هل للأولاد ان يأخذوا ذلك الرجل الذى كنت استجوبه ويقتادوه الى البستان بهدوء . لا اريد ان ابقى على اسرى من القوزاق الحمر ! — ثم استدار على عقبى جزمته الواطئتين ، وسرح النظر خارج النافذة ، وقال : — اجهز عليه فى الحال ! هيا ! . .

خرج بروخور . ووقف غريغورى بضع دقائق يتلهى بتكسير اغصان الجيرانيوم الرقيقة المزروعة على النافذة . ثم استدار واسرع يخرج الى درجات العتبة ، فرأى بروخور زيكوف يتحدث بصوت منخفض الى جماعة من القوزاق الجالسين فى الشمس تحت جدار مخزن الحبوب .

فنادى على بروخور دون ان ينظر الى القوزاق :

— دع الأسير يذهب ! حرر له جواز مرور !

ثم عاد الى الغرفة وتوقف امام مرآة عتيقة ، ونشر ذراعيه بدهشة ، عاجزاً عن معرفة سبب خروجه واصدار الأمر بالافراج عن الأسير . لقد احس بنوع من الرضى حين قال بسخرية : «سنعيدك الى زوجتك . اخرج» . وهو على علم بأنه سيصدر لفوره امراً الى بروخور للاجهاز على الرجل فى البستان .

كان مغتاظاً من نفسه بعض الشىء لشعوره المفاجئ بالرثاء ، او ليس الرثاء الأعمى هو الذى اقتحم ذهنه وحدا به الى أن يفك اسار عدو من الاعداء ؟ ومع ذلك فقد احس بالارتياح . ومما زاد الامر غرابة انه كان فى اليوم السابق بالذات قد خاطب القوزاق قائلاً : «الفلاح عدونا ، ولكن القوزاقى الذى يساعد الحمر عدو لدود فينبغى ان ينال القوزاقى قصاص الجاسوس : فيوضع ازاء جدار ويرفع الى ابواب السماء !»

غادر غريغورى غرفته وذهنه لا يزال نهب ذلك التناقض المستعصى ، وقلبه مفعم بشعور عات من جور القضية التى يقاتل من اجلها . فتقدم اليه آمر كتيبة التشير ، وهو رجل من الحرس مديد القامة له وجه مألوف بعض الشىء ، وكان بصحبته آمر فصيل ، فقال آمر الكتيبة :

— تعزيزات جديدة ! ثلاثة آلاف من الخيالة ، وسريتان

من المشاة . ماذا سنفعل والحالة هذه ، يا بانتلايتش ؟

ثبت غريغورى مسدسه والمحفظة الانيقة التى غنمها من ليخاتشوف ثم خرج الى الفناء . كانت الشمس تشع دافئة ، والسماء بعيدة زرقاء ، شأنها فى اواسط الصيف ، تنساب على صفحتها غمائم صغيرة بيض ميممة نحو الجنوب . وجمع غريغورى امراء السرايا فى ركن من الفناء لتبادل الآراء . التم نحو من ثلاثين رجلاً اقتعدوا سياجاً متهدماً ، ودار كيس تبغ احدهم من يد الى يد . وافتتح غريغورى المجلس قائلاً :

— أي خطط سنضع ؟ كيف يجب ان نتدبر امر الكتائب التى اعادتنا على اعقابنا ، وأى سبيل ينبغى ان نسلك ؟ — ثم اخبرهم بالأمر الصادر عن كودينوف .

فسأل احد امراء السرايا بعد فترة من الصمت :

— ما عدد الذين يقاتلوننا ؟ هل عرفت شيئاً من الأسير ؟

عدّد غريغورى الكتائب . وخمن على عجل ما يتوقع ان يكون عدد أفرادها . فلبث الضباط جالسين بصمت ، اذ لم تكن بأحدهم رغبة للكلام دون تفكير وتمحيص . وافصح احدهم عن ذلك اذ قال لغريغورى :

— رويدك قليلاً ، يا ميليخوف ! دعنا نفكر . ينبغى الا نرتكب خطأ الآن .

وكان ذلك الرجل اول من تقدم باقتراح . وأصغى غريغورى اليهم جميعاً باهتمام ، وأبدى غالبية الضباط معارضتهم للمضى ابعد مما بلغوا ، حتى وان كان النجاح حليفهم ، فقد كانوا يريدون ان يقتصر نشاطهم على حرب دفاعية محض . ولكن احدهم ، وهو من قوزاق التشير ، اعلن تأييده الحار للأمر الصادر عن هيئة اركان حرب فيشنسكايا بالسير قدماً ، اذ قال :

— لا جدوى من اضاعة الوقت ها هنا . ليسر بنا ميليخوف الى الدونيتس . اننا حفنة ليس غير ، أما هم فروسيا برمتها من ورائهم . كيف يسعنا أن نصمد ؟ سيسحقوننا ، فينتهى أمرنا . علينا اقتحام الجبهة . ليس لدينا عتاد كثير ، ولكنا سنغنم المزيد منه . علينا أن نشن غارة .

— ولكن ماذا عن أهلنا ؟ النساء والشيوخ ، والأطفال ؟

— دعهم يبقون وراءنا !

— عقلك ذكي ، ولكن نصيبه أن يكون في رأس أحمق !

كان الضباط حتى ذلك الحين لا يتحدثون الا همساً بما ساورهم من قلق بشأن حراثة الربيع ، وما قد يصيب حقولهم اذا ما اقتحموا الجبهة ، أما الآن ، وقد تحدث رجل التشير ، فانهم شرعوا جميعاً يزعقون بأعلى أصواتهم ، وأخذ المجلس يضج وكأنه مجمع قرية . وبزّ قوزاقى كهل الآخرين فى الصياح :

— لن نتخلى عن بيوتنا ! سأكون أول العائدين بسريتى الى القرية . ان كان لا بد لنا من القتال ، فليكن ذلك حول بيوتنا لا من أجل انقاذ حياة الآخرين .

— لا تكمّ فمى ! ولا تدعني أبدي رأيـي ، بينما أنت تزعق ! . .

— لا فائدة فى الكلام ! . .

— ليتقدم كودينوف نفسه الى الدونيتس !

فتريث غريغورى حتى خيم الصمت ، ثم أدلى برأيه الحاسم :

— سوف ندافع عن الجبهة هنا . وان انضم الينا قوزاق كراسنوكوتسكايا ، فسندافع عنهم أيضاً ، ليس ثمة مكان نذهب اليه . انتهى المجلس . فاذهبوا الى سراياكم ! سنخرج الى

مواقعنا فى الحال .

وبعد نصف ساعة وفيما كان غريغورى يراقب صفوف الخيالة المتراصة تتدفق على امتداد الشوارع ، بسيل لا نهاية له ، اعتراه شعور حاد من الفرح والخيلاء . ولكن قلقاً ومرارة كاوية كانت تغلى فى دخيلة نفسه الى جانب فرحه وغروره . أيوسعه أن يقودهم كما ينبغى ؟ هل سيتهيأ له الذكاء اللازم لتوجيه فعاليات آلاف القوزاق ! فتحت أمرته فرقة بأكملها ، لا سرية واحدة فحسب . أينبغى له ، وهو ذلك القوزاقى ذو الثقافة الضحلة ، أن يتحكم بآلاف الأنفس ويتحمل المسؤولية المقدسة عنهم جميعاً ؟ وفكر فى نفسه : «المهمّ ضد مَنْ أقودهم ؟ ضد الشعب . . . ولكن من هو المحق ؟»

وراح يصر بأسنانه ، وهو ماض على حصانه الى جانب صفوف السرايا المتراصة . لقد خبت نشوة الجبروت والسلطة من عينيه فخلّفت وراءها القلق والمرارة ، وأحنت كاهليه بكلكلها الذى لا يحتمل .

٣٧

فجّر الربيع أوردة الأنهار . وصارت الأيام أكثر صحواً ، وازدادت سيول التلال الخضر تصخاباً . واشتد وهج الشمس احمراراً ، فتلاشت ظلالها الصفر الكليلة ، وغدت أشعتها المترامية مخملية لافحة . وكانت الأرض المحروثة تنفث البخار عند الظهيرة ، وغدا الثلج الأجرد المنخور وهاجاً لا تحتمله العين . وأضحى الهواء ، وقد تشبع رطوبة ، ثقيلاً فواحاً .

أشاعت الشمس الدفء فى ظهور القوزاق ، وغدت مقاعد

السروج دافئة مريحة . وجعلت شفاه الريح الندية ترطب خدود القوزاق السمر ، وتحمل بين حين وآخر أنفاساً باردة من الروابى التى تجللها الثلوج . غير أن الدفء أجهز على الشتاء ، فجعلت الخيل تتراقص وتتواثب فى حومة الربيع ، فيتناثر شعرها المتساقط ، واشتد وخز العرق فى مناخيرها . وكان القوزاق قد ربطوا ذيول خيولهم الكثة . وعلّق الفرسان قلنسواتهم الوبرية على ظهورهم بعد أن انتفت حاجتهم اليها ، وتندت جباههم عرقاً تحت قبعاتهم الفرو ، وصاروا يشعرون بالحر فى سترهم الفرو ومعاطفهم الملبدة بالقطن .

سار غريغورى بكتيبته فى الطريق الصيفية . ولاحت لهم فصائل الحمر عن بعد تصطف فى تشكيلات القتال من وراء احدى الطواحين . ثم نشب القتال بالقرب من قرية سفيريدوف .

لم يصبح غريغورى بعد قادراً على ادارة معركة من خارج صفوف المحاربين ، كما ينبغى لقائد الفرقة ان يفعل . فتولى بنفسه قيادة قوزاق فيشنسكايا الى المعركة ، فرمى بهم فى اشد المواضع خطورة . وسارت المعركة دونما قيادة موحدة . فكانت كل كتيبة تتجاهل ما توصلت اليه من اتفاق مع الكتيبة الأخرى ، وتتصرف بما تملى عليها ظروفها .

لم يكن ثمة جبهة بالمعنى المألوف للكلمة ، وهكذا غدا بالامكان ان يلجأوا الى مناورات واسعة . وأفاد غريغورى من كثرة اعداد الخيالة عنده ، حيث كانوا غالبية جنود فرقته ، فعقد العزم على استغلال هذا التفوق الى أقصى حد ، وشن الحرب بالأساليب «القوزاقية» : هجمات على الاجنحة ، تسلل الى مؤخرة العدو ، اعتراض قوافل الشحن ، وشن غارات ليلية تشيع القلق والتحلل فى صفوف الحمر .

ولكنه بدل خطته عند قرية سفيريدوف . فقادهم الى الهجوم بنفسه فى خبب سريع ، تاركاً احدى السرايا مترجلة تنصب كميناً فى بستان يقع عند طرف القرية ، وأرقل بالسريتين الأخريين الى قمة التل فاستدرج العدو الى القتال على مسافة نصف الفرسخ من الطاحونة . وكان امامه اكثر من سريتين من الخيالة الحمر . ولم يكن اولئك من قوزاق الخوبر ، اذ كان بوسعه ان يرى خلال منظاره الحربى خيولهم وقد قصت ذيولها ، فليس من عادة قوزاق الدون قط ان يفسدوا جمال خيولهم بقص ذيولها . فإما ان تكون هذه الكتيبة كتيبة الفرسان الثالثة عشرة او غيرها من الوحدات التى وصلت لتوها .

تفحص الموضع من قمة التل خلال منظاره . وكانت الارض تبدو لعينيه من على السرج اشد اتساعاً ، وتزداد ثقته بالنفس طالما احس بمقدمتى جزمته تستقران على الركابين .

وشاهد طابوراً طويلاً يميل لونه الى البنى قوامه ثلاثة آلاف وخمسمائة قوزاقى يزحفون الى المرتفع فى الجانب الآخر من نهر الشير ، ميممين شطر الشمال للقاء العدو الزاحف من أوست-ميدفيديتسا ولمساعدة قوزاق بلانسكايا الذين تعرضوا لضغط شديد .

كان على بعد فرسخ ونصف من جحافل العدو الذى راح يتأهب لشن الهجوم . فأسرع يصف سراياه على النمط القديم ، واضعاً حملة الرماح من الذين كانت عندهم رماح فى طليعة الصفوف ثم هذب الى مقدمة الجند وادار حصانه جانباً ، واستل سيفه :

— خبباً بطيئاً ، الى الامام سر !

وخلال الدقيقة الاولى من الزحف علقت قدم الحصان فى جحر فأر برى يعلوه الثلج فعثر من تحته . فشحب وجه غريغورى

غضباً وأهوى عليه بضربة عنيفة من نصل سيفه . كان حصانه جواداً كريماً من خيل الجيش العنيفة كان قد استعاره من احد قوزاق فيشنسكايا ، ولكنه لم يكن ليطمئن اليه . فهو يعلم ان بضعة ايام لا تكفى الحصان كى يعتاد عليه . كما ان الوقت لم يتسن له للالمام بطبائعه وحيله . كان يخشى الا يفهم مركوبه الجديد قصده بلمسة هينة من العنان شأن حصانه الذى قتل فى تشيستياكوفكا . لقد اهاجت الضربة الحيوان فانطلق يهذب غير آبه للعنان . فسرى البرد فى اوصال غريغورى وفارقه شىء من رباطة جأشه اذ حسب انه لا يستطيع الركون الى حصانه . ولكنه ازداد ثقة بنفسه وعاودته الطمأنينة حين تباطأ الحصان ، وجعل يحضر متمايلاً ، ويذعن اكثر فأكثر الى يديه توجهانه بحركات لا تكاد العين تحس بها . وخفض عينيه المشرئبتين الى صفوف العدو الزاحفة فنظر برهة الى عنق جواده . كانت اذناه الحمراوان الداكنتان منطبقتين على رأسه بقوة وعنقه المشرئب وكأنه على النطع يختلج بانتظام . واستوى غريغورى على سرجه وعب من الهواء بنهم ، ودفع جزمته فى الركاب مسافة أكثر . ثم القى نظرة الى الخلف . كم من مرة شهد وراءه هذا السيل العرمرم من الخيل والفرسان ! لطالما انتاب الخوف قلبه من الصدام المحيق ، واعتراه هياج وحشى لا يوصف . فبين لحظة انطلاق حصانه ولحظة دنوه من العدو لحظة خاطفة يحدث خلالها تغير داخلى فيه . ففى تلك اللحظة الرهيبة يفارقه الرشد والروية والبصيرة ، وتمتلك زمام ارادته غريزة بهيمية مستبدة . الا ان الناظر اليه فى لحظة الهجوم يخال ان حركاته طوع ذهن رائق لا تعصف به العواطف ذلك لأنه يبدو واثقاً من نفسه ، مسيطراً عليها ، حاسباً للأمور حسابها .

راحت المسافة الفاصلة بين القوتين تتناقص بسرعة تريح القلب . وبدت الجياد والفرسان أكبر حجماً . وأتت حوافر الخيل على الرقعة التى تناثر عليها الثلج من الأرض المشاع بين الطرفين . فانتقى غريغورى فارساً يتقدم سربته بثلاثة أذرع . كان حصانه الضخم الكميت الداكن يجرى كالذئب بخطوات قصيرة . وكان الرجل يلوح فوق رأسه بسيف من سيوف الضباط ، وقرابه الفضى يتأرجح فيدق على ركابه ويتوهج فى ضوء الشمس توهجاً قوياً . وبعد لحظة استطاع غريغورى أن يعرف في شخص الرجل شيوعياً من كارغينسكايا بيوتر سميغلازوف ، كان فى طليعة من عاد فى سنة ١٩١٧ من الحرب الألمانية ، وكان يومئذ فى الرابعة والعشرين ربيعاً ، يلف ساقيه بلفاف غريب لم ير مثيله أحد من قبل . وقد عاد معه بعقائد بلشفية وحيوية وعزم تمخضت عنهما حياته فى الجبهة وقد ظل بلشفياً ، وخدم فى الجيش الأحمر ، وقبيل قيام التمرد ، عاد من كتيبته لاقامة النظام السوفييتى فى منطقته . وها هو يهذب باتجاه غريغورى تماماً ، واثقاً من زمام جواده ، يلوح سيفه على نحو خلاب ، ذلك السيف الذى استولى عليه عند قيامه بتفتيش منزل لأحد الضباط ، والذى لا يرجى منه خير الا فى ميدان الاستعراض .

فكشر غريغورى عن أسنانه ورفع العنان ، فطاوعه الحصان وضاعف سرعته .

كان غريغورى يلجأ فى العادة الى خدعة فى الهجوم . فقد كان فى طفولته أعسر اليد ، يمسك الملعقة بيسراه وبها أيضاً يرسم اشارة الصليب على نفسه ، وقد نال على يد والده ضرباً موجعاً مراراً وتكراراً ، بغية حمله على الاقلاع عن تلك العادة ، كما أن أصحابه لقبوه «غريشا اليسراوى» ولا بد أن

الضرب وقارس الكلام قد أثرا فيه ، فما ان بلغ العاشرة من عمره حتى فارقه لقبه «اليسراوى» وعادة استعمال اليد اليسرى وحدها . على أنه ظل محتفظاً بمهارتها ، وكان بوسعه أن يفعل بها ما يريد شأن يده اليمنى اضافة الى ان يسراه كانت أقوى من يمناه . وجعل يفيد دائماً من مهارة يده اليسرى فى حالات الهجوم فيلقى نجاحا أكيدا . فهو يمضى بحصانه نحو الفارس المعين من جهة اليسار كما هى العادة وذلك لكى يضرب باليد اليمنى ، أما العدو فانه يفعل الشىء ذاته . وحين تكون المسافة بينهما نحواً من عشرين خطوة ، ويكون الفارس قد مال ميلاً طفيفاً الى الجانب وهيأ السيف ليضرب به ، حينذاك يدير غريغورى حصانه بقوة نحو اليمين ، وفى ذات الوقت يحوّل سيفه الى اليد اليسرى . فيجد العدو نفسه فى موقف ضعيف حيث يضطر الى ضرب غريغورى عبر رأس حصانه هو ، فينتابه الاضطراب اذ يحس بأنفاس الموت فى وجهه . وحينذاك ينزل غريغورى سيفه على الرجل المسكين بقوة مريعة .

لقد سالت مياه كثيرة تحت الجسور منذ تعلم غريغورى ضربة «باكلانوف» على يد تشوباتى . فالطعان بالسيف لا يتقن بالسير وراء المحراث . لقد «تمرست يد غريغورى» فى مجرى حربين ، فغدا أستاذاً خبيراً فى الطعان بالسيف .

لم يكن قط ليدخل معصمه فى عقدة السيف وذلك لكى يسهل عليه تحويله من يد الى أخرى بطرفة عين . وكان يدرك أن انحراف ضربة شديدة قد ينتزع السيف من يده وربما خلع رسغ يده . وكان يعرف حيلة لا يحسنها الا القلائل ، فهو يجيد الاطاحة بسلاح الخصم من يده وشل ذراعه بلمسة خفيفة من سيفه . لقد أتقن غريغورى الكثير من فن ذبح البشر بالفولاذ البارد .

سقط سميغلازوف الوسيم من على ظهر حصانه الجامح ، وانزلق من على سرجه بهدوء ويده تشد على صدره المثخن بالجراح القاتلة ، تماماً كما تسقط عصا التمارين من عمودها بضربة مائلة جانبية ، فتقع دونما ارتعاش ، ودون أن يتغير وضعها ، فتنغرز فى الرمل بشكل عمودى قرب العمود الذى منه اقتطفها القوزاقى بسيفه . واستوى غريغورى للحال فى سرجه انتصب واقفاً فى ركابيه . وجاءه رجل آخر لا يلوى على شىء ولا يستطيع كبح جماح حصانه . وكان خطم الحيوان المزبد يحجب فارسه ، ولكن غريغورى استطاع أن يرى حد سيفه المقوس . فشد على العنان بكل ما أوتى من قوة ، وتلقى الضربة ورد عليها ، ثم لمّ العنان بيمناه وأهوى بضربة قاصمة على الرقبة القرمزية الحليقة .

كان أول من شق طريقه وابتعد بحصانه عن حشد القوزاق والحمر المختلط . وحين التفت رأى كتلة موارة من الخيالة وأحس بالحكة فى راحة يده جراء توتر أعصابه . فأعاد سيفه الى غمده ، واستل مسدسه ، وقفل يهذب حصانه بأقصى سرعة . فتدفق القوزاق وراءه صفاً متناثراً . وكان بوسعه أن يرى هنا وهناك قبعات وخوذا ذوات شرائط بيض وقد مالت على أعناق الخيل . وكان يهذب الى جانبه العريف المعروف يرتدى قبعة من جلد الثعالب وسترة خاكى من فرو الخراف ، وقد سلخ خد الرجل وأذنه حتى أسفل حنكه ، وبدا وكأن سلة من الكرز الناضج قد تكسرت على صدره . وكان يكشر عن أسنان مدماة .

ورغم أن عزائم رجال الجيش الأحمر كانت قد تضعضعت وأوشكوا على الفرار ، فانهم تشجعوا وأداروا خيلهم لمطاردة القوزاق المتقهقرين . وقد طار قوزاقى متلكئ عن حصانه ، وكأن الريح ذرته ، فداسته حوافر الخيل فى الثلج . صار القوزاق على مرأى

من القرية ، وأجمة البساتين السوداء ، ومصلى على منحدر التل ، والشارع الفسيح . ولم تبق بينهم وبين السياج الذى نصب القوزاق وراءه الكمين سوى مائتى خطوة . وكان العرق والدم يتصبب من ظهور الخيل . وفيما كان غريغورى يهذب بأقصى سرعته حاول أن يطلق النار من مسدسه بكل ما أوتى من قوة ولكن الرصاصة حشرت ، فدس المسدس العاطل فى قرابه الخشبى وصرخ منذرا :

— افتح الصف !

فانشق تيار سرايا القوزاق المرصوص الى شطرين كتيار نهر تعترضه صخرة عاتية ، وانكشف صف خيالة الجيش الاحمر المطاردين ، فلعلعت رشقة من رصاص السرية الكامنة وراء السياج ولعلعت ثانية ، وثالثة . وانطلقت صرخة . وتهاوى حصان وفارسه الأحمر ، وجثا آخر ودفن رأسه فى الثلج . وطاح ثلاثة أو أربعة حمر من على سروجهم . وحين أفلح الخيالة الحمر فى كبح جماح خيلهم وداروا على أعقابهم كان القوزاق قد أفرغوا رصاص بنادقهم وخيم عليهم الصمت . وما كاد غريغورى يصرخ : «سرايا . . .» حتى دارت آلاف الحوافر على الأعقاب فى الثلج وانطلق القوزاق يطاردون الخصم . لكنهم تعقبوا الحمر دونما حماس ، فقد هدّ التعب خيلهم . وبعد أن قطعوا مسافة فرست ونصف فرست عادوا أدراجهم . فنزعوا الملابس عن قتلى الجيش الأحمر وجردوا خيلهم الميتة من سروجها . وفتك اليكسى شامل ذو الذراع البتراء بثلاثة من الجرحى الحمر ، حيث أوقفهم ازاء السياج ومزقهم بسيفه واحدا بعد الآخر . وحين فرغ من ذلك تجمع القوزاق حول جثثهم والسكاكر فى أفواههم ونظروا اليها مدة طويلة . وكانت الجثث الثلاث تحمل ذات الأثر : فقد شطرت الهامات من

عظم الترقوة الى الخصر .

وقال اليكسى مباهيا ، وعينه وخده يرمعان :

— جعلت من الثلاثة ستة .

فقدم له القوزاق الآخرون التبغ متملقين ، وراحوا يتطلعون باحترام واضح الى قبضة يده ، التى كانت رغم صغرها صلبة كالقرع الجاف ، والى عضلات صدره المفتولة البادية من تحت قمصلته .

وقفت الجياد العرقى ترتجف عند السياج وقد جللت بالمعاطف . وشد القوزاق أحزمة السروج وتناوبوا على البئر فى طلب الماء . وقد اضطر الكثيرون الى جر الخيل المنهكة من أعنتها .

سار غريغورى وبروخور وخمسة قوزاق آخرون فى الطليعة ، وشعر وكأن عصابة قد سقطت من عينيه . وعاد من جديد يرى ، كما فعل قبل المعركة ، الى الشمس مشرقة على الأرض والى الجليد الذائب جنب أكداس القش ، وتناهت الى سمعه تغاريد العصافير الجذلى فى القرية ، واستاف أذكى روائح الربيع الماثل على أعتاب السنة . وعادت الحياة اليه بكل وهجها ، ولم تبلها الدماء التى أهرقت لتوها ، بل جعلت تغريه أكثر من ذى قبل بأفراحها الشحيحة الخداعة . فرب بقعة من الثلج تخلفت على الأرض السوداء بعد الذوبان تتخايل للعين أنصع بياضا وأشد بريقا من حقيقتها . . .

٣٨

ماج التمرد وانتشر ، كمياه الفيضان ، وطغى على مناطق الدون جمعاء والسهب الممتد الى شرقى الدون فى رقعة قطرها

أربعمائة فرست . فاعتلى خمسة وعشرون ألف قوزاقى صهوات الجياد ، وأسهمت القرى الواقعة فى اقليم الدون الأعلى بعشرة آلاف من المشاة .

جرت الحرب فى ظروف لم يسبق لها مثيل . كان جيش الدون الأبيض يدافع عن جبهة الدونيتس ، ويحمى نوفوتشيركاسك ويعد العدة لخوض معركة فاصلة . وقد نشب تمرد فى مؤخرة الجيشين الثامن والتاسع الأحمرين فيما كانا يخوضان القتال ضد قطعات البيض ، الأمر الذى زاد مهمة السيطرة على الدون صعوبة وتعقيدا .

وفى نيسان أصبح المجلس الثورى العسكرى أمام خطر اتصال المتمردين بالجيش الأبيض . فكان لزاما أن يخمد التمرد مهما كلف الثمن قبل أن يفلح المتمردون بتفتيت جبهة الحمر من المؤخرة والاندماج بجيش الدون الأبيض . فارسلت قوات ممتازة للاسهام فى اخماد التمرد : قوات من بحارة أسطولى بحر البلطيق والبحر الأسود ، وكتائب مجّربة يركن اليها ، وقوات من حرس القطارات المسلحة ، ووحدات من أشد الخيالة بسالة . ونقلت من جبهة الدونيتس خمس كتائب تابعة لفرقة بوغوتشارسكايا قوامها نحو ثمانية آلاف حربة ، وبضع بطاريات وخمسمائة مدفع رشاش . وما ان حل شهر نيسان حتى كان متتسبو المدارس الحزبية فى ريازان وتامبوف يقاتلون المتمردين بشجاعة وحمية فى قطاع قازان من جبهة المتمردين ، وقد انضم اليهم بعدئذ طلبة كلية موسكو الحربية ، وكانت قوات المشاة الخفيفة اللاتفية تقاتل العصاة فى شوميلينسكايا .

أما القوزاق المتمردون فكانوا يعانون من نقصان المعدات الحربية . كانت البنادق تنقصهم بادئ الأمر ، ثم أعوزهم الرصاص .

وبات لزاما أن يغنموا البنادق عن طريق شن الهجمات والغارات الليلية بدمائهم . وقد غنموها . فاكتمل سلاح المتمردين من البنادق فى نيسان عام ١٩١٩ وأصبح لديهم ست بطاريات ومئة وخمسون مدفعا رشاشا .

كان ثمة فى بداية التمرد خمسة ملايين خرطوشة فارغة فى مستودعات فيشنسكايا . فعبأ لها مجلس سوفيات الاقليم * خيرة الحدادين وصانعى الأقفال وصانعى الأسلحة ، فأنشئت ورشة لسبك الرصاص ولكن لم يكن هناك رصاص تصنع منه الطلقات . وتلبية لنداء مجلس سوفيات الاقليم شرعت كافة القرى بجمع ما لديها من الرصاص والنحاس . وصودرت كافة الاجزاء الرصاصية فى الطواحين البخارية ، وحمل رسل خيالة نداء مقتضبا الى القرى ، هذا نصه :

ليس لدى أزواجكن ، واخوانكن ، وأبنائكن ما يطلقونه من بنادقهم .

انهم لا يجدون من ذخيرة لسلاحهم سوى ما يستطيعون أن يغنموه من العدو اللعين .

سلمن كل ما يصلح عندكن لصنع الطلقات .

انزعن الغرابيل الرصاصية من مكائن التذرية .

وفى غضون أسبوع لم تبق ماكينة تذرية بغربالها فى طول الاقليم وعرضه . فقد حملت النسوة الى مجالس السوفيات فى

* وهو مجلس معاد للثورة البلشفية ، رغم هذه التسمية . **المترجمون** .

القرى كل ما ينفع ولا ينفع ، وعمد الصبية فى القرى التى دارت فيها المعارك الى اقتلاع الرصاص من الجدران ونبش الأرض بحثا عن شظايا القنابل . ولكن حتى فى غمرة ذلك النشاط لم تجمعهم وحدة الكلمة : فقد ألقى القبض على بعض النساء المعوزات وأرسلن الى مركز المنطقة بتهمة «العطف على الحمر» وذلك لأنهن لم يشأن حرمان أنفسهن من آخر أوانيهن المنزلية . وفى تتارسكى ضرب أغنياء القوزاق الشيوخ قوزاقيا شابا عاد لتوه من كتيبته حتى سالت دماؤه ، لأنه فاه بصوت مسموع بعبارة يعوزها الحذر : «ليعطل الأثرياء انفسهم ما يملكون من مكائن التذرية . فقد تكون لديهم أسباب للخوف من الحمر أشد من خوفهم من الافلاس» .

كان الرصاص يصهر فى ورشات فيشنسكايا ، ولكن الرصاصات المصنوعة كان ينقصها غلاف النيكل . الأمر الذى جعلها تذوب أيضا . فحين تطلق البنادق يطير الرصاص كرة صغيرة ذائبة من الماسورة تصحبها فرقعة عالية ولكنه لا يصيب ابعد من مئة او مئة وعشرين خطوة . بيد أنه كان يحدث جروحا فظيعة . وكان جنود الجيش الاحمر بعد ان عرفوا كيف يصنع الرصاص يصرخون احيانا فى القوزاق اثناء الاشتباكات : «رصاصكم ليس صالحا . . . استسلموا ، الاستقصى عليكم جميعا» .

وزع الخمسة والثلاثون ألف متمرد فى خمس فرق ولواء سادس خاص . وتولى غريغورى ميليخوف قيادة الفرقة الأولى ، التى كانت تعسكر على امتداد نهر التشير . وقد تحمّل قطاع الجبهة الموكل اليه وطأة هجوم القطعات الحمر التى جىء بها من خط الدونيتس الجنوبى ، ولكنه لم يفلح فى صد ضغط العدو فحسب ، بل فى مساعدة الفرقة الثانية التى لا يطمئن اليها كالأولى وذلك بمدها بتعزيزات من الخيالة والمشاة .

لم يفلح التمرد بالانتشار شمالا فى مناطق الخوبر وأوست-ميدفيديتسا رغم اضطرابها . وقد وفد من هذه المناطق رسل يطلبون ارسال القوات صوب البوزولوك والأصقاع العليا من الخوبر لاثارة القوزاق هناك . ولم تجرأ قيادة القوزاق أن تجازف بالتقدم الى ما وراء حدود اقليم الدون الأعلى ، لعلمها أن الكثرة الكاثرة من قوزاق الخوبر تؤيد النظام السوفييتى ولا تريد الانتفاض المسلح عليه . كما أن الرسل لم يبعثوا الثقة فيهم لأنهم اضطروا الى الاقرار بأن القوزاق المتذمرين من الحمر ليسوا بالكثيرين ، وأن الضباط الذين بقوا فى الزوايا النائية تواروا عن الأنظار ، وليس فى وسعهم ان يجمعوا القوات الكافية لأن جنود الجبهة بين مستكين فى بيته وملتحق بالقوات الحمر ، وأما الشيوخ فلم تعد لديهم السطوة ولا الاعتبار السابقان فى تلك المناطق .

والى الجنوب ، فى المناطق الأوكرانية ، قام الحمر بتجنيد الشباب ، الذين راحوا يقاتلون المتمردين بكل حماس . وهكذا انحصر التمرد داخل حدود اقليم الدون الأعلى . وازداد الأمر وضوحا ، يوما بعد يوم ، فأيقن المساهمون فى التمرد ، قادة وجنودا ، أنهم لن يستطيعوا الدفاع عن الأهل والديار طويلا . وسيكر الحمر عليهم من جبهة الدونيتس ، عاجلا أو آجلا ، فيسحقونهم سحقا .

فى ١٨ آذار استدعى غريغورى ميليخوف الى فيشنسكايا للتشاور مع القيادة العليا . فأوكل قيادة فرقته الى مساعده ريابتشيكوف ورحل مع مراسله فى الصباح الباكر . فوصل مقر هيئة الأركان فى اللحظة التى كان فيها القائد كودينوف يستجوب رسولا من قرية اليكسييفكا . كان كودينوف يجلس متكورا وراء مكتبه ، يلوى طرف حزامه القفقاسى بين يديه ، لا يرفع عينيه الوارمتين

الملتهبتين بسهاد ليال متعددة .

سأل الرسول الجالس قبالته قائلا :

— وانتم ما رأيكم ؟ ماذا تفكرون ؟

— ماذا أقول ؟ وأنت تعرف حالة الناس . انهم خائفون ، يريدون الانتفاض ، ولكنهم خائفون .

فصرخ كودينوف غاضبا : «يريدون ، ولكنهم خائفون !» وشحب وجهه وراح يتململ على كرسيه وكأن المقعد يلفحه من تحت . «انكم كالبنات ! يشتهين ويستحين ، وأمهاتهن يمنعهن ! حسنا ، عد الى قريتك واخبر شيوخكم أننا لن نرسل رعيلا واحدا الى هناك حتى تبادروا أنتم . وليشنقكم الحمر واحدا تلو الآخر !» .

فدفع القوزاقى الضخم قبعته المصنوعة من فرو الثعالب الى مؤخرة رأسه بيده الأرجوانية المرتبكة . وراح العرق يتصبب على تجاعيد جبينه كما يتدفق ماء الفيضان فى المسارب ، وطرفت أهدابه القصيرة بلون الكتان مسرعة ، وكانت نظرة عينيه بسامة وكأنها تكفر عن شىء .

— الطاعون يضطركم الى المجىء الينا ، انى أعرف ذلك . ولكن المسألة هى الشروع . فالشروع هو الأمر المهم . . .

وقف غريغورى يصغى الى الحديث بانتباه ، ثم تنحى جانبا حين فتح الباب على حين غرة ودخل الغرفة رجل قصير القامة قليلا ، دون أن يطرق الباب ، وكان أسود العذارين يرتدى سترة من الفرو . وحيّا كودينوف بايماءة من رأسه وجلس الى المنضدة ، مسندا خده الى راحة يده . كان غريغورى يعرف رجال الأركان بوجوههم الا أنه لم يستطع معرفة ذلك الرجل ، فراح يحدق فيه . كانت قسمات وجهه الجميلة ، وسحنته السمراء رغم أن الشمس لم تلفحها ، وبياض يديه الناعمتين وسلوكه

المهذب ، كل ذلك يدل على انه ليس من اهل المنطقة .

وقال كودينوف لغريغورى وهو يشير الى القادم الجديد بعينيه :

— ميليخوف ، هذا هو الرفيق غيورغيدزا . انه — ثم توقف ولوى أبزيم حزامه القفقاسى الفضى ، ونهض ، والتفت الى الرسول قائلا :

— حسنا ، يمكنك أن تذهب . لدينا ما يشغلنا . عد الى أهلك واخبر من أرسلوك بما قلته لك .

فنهض القوزاقى من على كرسيه ، فكادت قبعته تلمس السقف بفرو الثعلب الوردى الداكن المتوهج . وقد حجب منكباه العريضان الضوء فبدت الغرفة صغيرة مزدحمة .

فسأله غريغورى وهو ما يزال يحس بالنفور من مصافحة القفقاسى :

— جئت تطلب المساعدة ؟

فالتفت القوزاقى الى غريغورى فرحا ، وعيناه تشعان بالرجاء .

— أى ، هو ذاك ! المساعدة . ها انت ترى كيف هى الأمور . . .

وكان عرقه يتصبب بغزارة فبدت لحيته وشاربه الأحمر المتهدل وكأن قطرات صغيرة قد انتثرت عليهما . وكان وجهه احمر مثل فراء قبعته وبدا مرتبكا الى اقصى حد فاستمر غريغورى بأسئلته ، متظاهرا بأنه لا يلاحظ حركات كودينوف التى تنم عن نفاد الصبر :

— اذا فأنتم أيضا لا يعجبكم الحكم السوفييتى ؟

فقال القوزاقى فى حكمة بصوت عميق :

— لا يبدو أنه ردئ ، أيها الأخ ، الا أننا نخشى أن يزداد سوءا .

— هل حصلت اعدامات عندكم ؟

— لا سمح الله . لا شيء من هذا القبيل . استولوا على الخيل والقمح ، وبالطبع ألقوا القبض على الناس الذين جاهروا بالعداء لهم . وهم فى الواقع ينبحون أكثر مما ينهشون .

— لو كنا أرسلنا لكم القطعات ، فهل كنتم ستثورون ؟ جميعكم ؟

فضاقت عينا القوزاقى الصغيرتان العسجديتين بفعل الشمس ، وزاغتا بمكر عن عينى غريغورى ، وانحدرت قبعته على جبينه المتغضّن :

— لا أعرف عن الجميع . . . أما المزارعون الميسورون فانهم سيثورون بطبيعة الحال .

— وماذا عن الفقراء ؟

وأفلح غريغورى أخيرا باقتناص نظرته ، وكانت لحظة ذاك طافحة بدهشة طفولية مخلصة .

— تقصد الصعاليك ، لماذا يثورون بحق الشيطان ، هذه هى الحكومة التى يريدونها ، انهم فى عيد سعيد .

فهدر كودينوف بغضب لم يستطع كتمانه :

— اذاً ، ماذا كنت تقول طوال الوقت ، يا أبله ؟ علام جئت هنا ؟ أين هى ثورتكم ؟ أم تراكم أثرياء جميعا ؟ ان اثنين او ثلاثة مزارعين أثرياء لا يمكن أن يقوموا بثورة . أخرج من هنا ! ان أردافكم لم تشبع ضربا بعد ، ولكن حين تنالون كفايتكم من الضرب ستشبون كالخيل دون مساعدتنا . لقد اعتدتم على القاء المهام الدونية على كواهل غيركم ، وتعيشون أنتم بسلام ، يا خنازير . أخرج ، ان مرآك يثير فيّ الغثيان !

فعبس غريغورى وأشاح بوجهه . وغدت البقع الحمر على

وجه كودينوف داكنة . وراح غيورغيدزا يفتل شاربه ، ومنخرا أنفه الكبير المعقوف يرمعان .

فقال القوزاقى وهو يخلع قبعته :

— يؤسفنى أن يكون الأمر كذلك . ولكن لا داعى لصياحك فيّ ، يا صاحب السعادة . جئتك برسالة شيوخنا وسأبلغهم بجوابك . ولكن لا داعى لصياحك . كان البيض يصيحون فينا ، ثم أعقبهم الحمر ، وها قد بدأتم أنتم ، آه ، ما أشق حياتنا حياة الفلاحين هذه الأيام .

وأعاد قبعته الفرائية الى رأسه بغضب شديد ، ثم دفع نفسه الى المجاز ، وأغلق الباب وراءه بهدوء . ولكن ما ان أصبح خارج الغرفة حتى استبد به الحنق فصفق الباب الخارجى بشدة جعلت الطلاء يتساقط من السقف .

وحين غادرهم الرجل قال كودينوف باسما وقد استعاد هدوءه بسرعة وما يزال يلوى طرف حزامه بين يديه :

— عجيب أمر الناس هذه الأيام ! كنت فى ربيع عام ١٩١٧ ذاهبا الى القطار فى عربة ، وكان ذلك موسم الحراثة ، حوالى عيد الفصح . كان أولادنا القوزاق الأحرار منهمكين فى الحراثة ، وقد أفقدتهم حريتهم الصواب فراحوا يحرثون حتى الطريق وكأن أرضهم لا تكفيهم . ناديت قوزاقيا كان يحرث الطريق ، فجاء الىّ . سألته : «أنت ، يا هذا ، علام تحرث الطريق ؟» فانتابه الفزع ، وأجاب : «لن أفعل ذلك ثانية ، سأمهد الطريق من جديد» . وقد أرعبت اثنين أو ثلاثة على هذا النحو . ولكنى وجدت الطريق محروثا من جديد على مبعدة من هناك فرأيت الرجل الذى فعل ذلك بمحراثه . ناديته : «أنت ، تعال هنا !» وجاء الىّ ، فصحت : «من الذى أعطاك الحق

فى حراثة الطريق بحق الشيطان ؟» فجعل يحدق فىّ (وكان قوزاقيا ضخما له عينان فاتحتان) ثم استدار دونما كلمة وركض الى ثوريه ، فالتقط قضيبا من الحديد وجرى عائدا ، فأمسك بجانب الرفرف ووضع قدمه على المرقاة ، وصاح : «من أنت ؟ والى متى تستمرون على امتصاص دمائنا ؟ انى مستعد لأن أقلع رأسك فى الحال» . ثم رفع القضيب ، فقلت له : «هون عليك يا ايفان ، كنت أمزح فقط» . فأجاب : «لم أعد الآن ايفان بل ايفان أوسيبوفتش * ، وان لم تستطع مخاطبتى حسب الأصول فسأحطم وجهك !» وتملصت منه بجهد . وكذلك هو الحال مع هذا القوزاقى الآن : انه يتذلل ويتمخط ، وفى نهاية الأمر يكشف لك عن حقيقة خلقه . لقد استعاد الناس كبرياءهم .

وقال الضابط القوزاقى بهدوء تام :

— لقد طغت عليهم سفاهتهم ، لا الكبرياء . لقد باتت ، السفاهة خلقا مشروعا .

ولم يتريث كيما ينسى لاحد معارضته ، فأغلق الموضوع بقوله :

— لنبدأ المؤتمر من فضلكم . أريد أن أعود الى كتيبتى هذا اليوم .

فنقر كودينوف على الحائط ونادى سافونوف ، ثم التفت الى غريغورى قائلا :

— ابق هنا ، ستتشاور كلنا . أنت تعرف المثل القائل : «رأسان خير من رأس واحد» . انه لمن حسن حظنا أن الرفيق

---

* ومعناه ايفان بن أوسيب وهى طريقة للمخاطبة يراد بها الاحترام . **المترجمون** .

غيورغيدزا قد تخلّف فى منطقة فيشنسكايا ، وسيكون بوسعه أن يساعدنا . انه مقدم وقد درس فى أكاديمية عسكرية .

فسأل غريغورى غيورغيدزا ، وقد اعتراه شعور خفى بالنفور والحذر لسبب ما :

— كيف دبرت بقاءك فى فيشنسكايا ؟

— أصبت بالتيفوس ، فتركونى فى احدى القرى حين بدأ التقهقر فى الجبهة الشمالية .

— فى أى كتيبة كنت ؟

— لم أكن فى خط الجبهة ، كنت ملحقا بأركان مجموعة خاصة .

— اى مجموعة ؟ تحت قيادة الجنرال سيتنيكوف ؟

— لا . . .

وكان بود غريغورى أن يمضى فى استجوابه ، غير أن التوتر الذى بدا على وجه القفقاسى دفعه الى الحذر من مواصلة الاستجواب فتوقف قبل أن يتم جملته .

وبعد دقيقة أو اثنتين دخل رئيس الأركان سافونوف ، وقائدا الفرقة القوزاقية الرابعة واللواء السادس الخاص ، فابتدأ المؤتمر . وأوجز لهم كودينوف الوضع فى الجبهة . وكان القفقاسى أول المتحدثين . فنشر خارطة على المنضدة متمهلا وراح يتحدث بلباقة واعتداد تشوب كلامه رطانة خفيفة :

— قبل كل شىء ، أرى من الضرورة المطلقة أن نرمى بعضا من احتياطيى الفرقتين الثالثة والرابعة فى القطاع الذى تحتله فرقة ميليخوف واللواء الخاص . وعلى ضوء المعلومات المتوفرة لدينا ، واستنادا الى افادات الأسرى ، يبدو واضحا كل الوضوح أن القيادة الحمراء تعد العدة لشن هجوم كبير على هذا القطاع

بالذات . كما علمنا أنهم سيرسلون كتيبتين من الخيالة ، وخمس مفارز خاصة مع ثلاث بطاريات ومفارز رشاشات ملحقة بها . وهذا يضيف الى قواتهم نحواً من خمسة آلاف وخمسمائة رجل على وجه التقريب . وفى تلك الحالة سيتوفر لديهم التفوق العددى ناهيك عن التفوق فى السلاح .

كانت أشعة الشمس الصفراء تتدفق الى الغرفة من الجنوب . وتحت السقف سحابة زرقاء هامدة من دخان التبغ . ورائحة التبغ المحلى تختلط بنتانة الأحذية الرطبة . وراحت ذبابة تطن يائسة فى موضع ما تحت السقف ، وقد اختنقت بالدخان . سرّح غريغورى نظره خارج النافذة بكلال وقد اشتدت به الحاجة للنوم اثر ليلتين من السهر ، وسرى الخدر الى عزيمته ووعيه تحت وطأة الحرارة الزائدة فى الغرفة وبفعل ما يشعر به من كلال . كانت نسائم الربيع الخفيضة تتراقص خارج النافذة ، وبقايا الثلوج تتألق بوميض وردى على سفوح التلال ، وأشجار الحور تتمايل وراء الدون وتهتز فى مهب الريح حتى خيل اليه وهو يراقبها أنه يسمع حفيفها العميق الذى لا ينقطع .

أثار صوت القفقاسى الواضح اللجوج انتباهه ، فحمل نفسه على الاصغاء وتلاشى نعاسه دون أن يشعر بذلك .

— ان نشاط العدو الذى عراه الضعف فى الجبهة التى تدافع عنها الفرقة الأولى وجهوده الحازمة للتقدم على خـــط ميكولينسك — ميشكوف يحملان النذير ويستوجبان الاحتراس من جانبنا . يلوح لي . . . — وهنا تلعثم اذ قال : «أيها الرفاق» ، وشرع يلوح بعنف يديه الشبيهتين بأيدى النساء ، ورفع صوته : — يلوح لي أن كودينوف وسافونوف يرتكبان خطأ جسيما فى الحكم على مناورات الحمر من مظهرها ، وفى اقتراحهما بوجوب اضعاف

القطاع الذى يسيطر عليه ميليخوف . فمن أبجدية علم الستراتيجيا ايها السادة أن تستدرج قوات عدوك الى موضع ما بغية قذف قواتك فى هجوم على القطاع الذى حل فيه الضعف . . .

فقاطعه كودينوف قائلا :

— ولكن ميليخوف ليس بحاجة الى الكتائب الاحتياطية .

— على العكس ! ينبغى تهيئة قوات احتياطية بغية سد أية ثغرة يمكن للعدو أن يفتحها .

فقال غريغورى وقد تفاقم غضبه :

— يبدو لي أن كودينوف لا ينوى استشارتى حول رغبتى فى تسليم الاحتياطى الذى لدىّ أم لا . ولكنى لن أتخلى عن احتياطى التابع لي ، ولا سرية منه !

فشرع سافونوف يتكلم ، وهو يبتسم ويمسد عذاريه الأصفرين :

— ماذا ، أيها الأخ ، ان ذلك . . .

— لا دخل للأخوة فى هذا . لن أسلمها ، وهذا كل ما عندى من قول .

— من وجهة النظر الستراتيجية . . .

فانتهره غريغورى :

— دعك من وجهة النظر الستراتيجية هذه . أنا المسؤول عن قطاعى وعن رجالى .

وأنهى غورغيدزا الخلاف الذى نشأ فجأة على هذه الصورة . فحدد على الخارطة بقلمه الأحمر القطاع المعرض للخطر من الجبهة . وحين مالت الرؤوس على الخارطة سوية بدا واضحا لهم جميعا أن أى هجوم تعده القيادة الحمراء لا يمكن أن يأتى الا فى القطاع الجنوبى ، وذلك لقربه من الدونيتس ولأفضليته من ناحية المواصلات .

وانتهى المؤتمر فى غضون ساعة . وفى آخر الأمر تلفت كوندرات ميدفيديف حوله بتجهم وهو قائد الفرقة الرابعة الكئيب شبه الأمى الذى لزم الصمت طوال النقاش ، ثم قال :

— بوسعنا ارسال الاحتياطى لاسناد ميليخوف ، فلدينا وفرة من الرجال . ولكن شيئا واحدا لعينا ما فتئ يضايقنى . لنفرض أنهم هاجمونا على كافة القطاعات فى وقت واحد ، فماذا نفعل آنذاك ؟ سيكموننا واحدا فوق الآخر ونقع فى ورطة ، مثل أفاع حصرت فى جزيرة .

فقال بوغاتيريف قائد اللواء السادس الخاص ضاحكا :

— بوسع الأفاعى أن تسبح ، أما نحن فليس لدينا مكان نسبح اليه .

فقال كودينوف مفكرا :

— أخذنا هذا أيضا فى الحسبان . ولكن اذا ما طرأت هذه الحالة فيجب أن نترك وراءنا كافة العاجزين عن حمل السلاح ، ونترك عوائلنا كذلك ، ونشق طريقنا الى الدونيتس بالسلاح . فلسنا قوة صغيرة ، ثلاثون ألفا .

— ولكن هل سيقبلنا الكاديت ؟ ان لديهم حسابات قديمة يريدون تصفيتها مع قوزاق الدون الأعلى !

فقال غريغورى : — لا تحص دجاجك . . . لا فائدة من الحديث على هذا النحو !

ثم ارتدى قبعته وخرج . وفيما كان يغلق الباب سمع جواب غورغيدزا وهو يلف الخارطة :

— سيكفر قوزاق فيشنسكايا وكافة قوات الثوار عما ارتكبوا بحق الدون وروسيا من ذنوب اذا ما استمروا على قتال البلاشفة برجولة . . .

فقال غريغورى فى دخيلة نفسه : «هذا ما يقوله ، ولكنه يُبيت أمرا ، يا له من ثعبان !» وعاوده ما انتابه لحظة تعرفه على هذا الضابط من شعور بالقلق الخفى والغيظ الذى لا يجد له سببا .

وعند البوابة ادركه كودينوف ، فسارا دقيقة او اثنتين دون ان يتبادلا كلمة واحدة . وكانت الريح تعبث بالبرك فى الساحة المتسخة بالروث . وكان الغروب وشيك الحلول ، واقبلت سحب صيفية شهب ، منتفخة ثقيلة ، تعوم من الجنوب كالبجع . وكانت الارض التى ذاب عنها الجليد تعبق بالطيب والحياة . واطل الحشيش اخضر تحت الاسيجة ، واذا بغريغورى يستطيع ان يسمع الخفيف المثير . ترسله اشجار الحور من وراء الدون تنحنح كودينوف وقال :

— سيتكسر الجليد عما قريب .

— اجل .

— اللعنة . . . سنموت دون ان ننعم بالدخان . ان حفنة من التبغ البرى يكلف الآن اربعين روبلا من روبلات كيرنسكى .

فسأله غريغورى بحدة :

— اسمع ! هذا الضابط الجركسى ماذا يفعل هنا ؟

— اتعنى غورغيدزا ؟ انه رئيس دائرة الحركات . شيطان كبير الدماغ ! وهو الذى يرسم كل الخطط . وهو يتفوق علينا فى فن الستراتيجيا جميعا .

— اهو مقيم فى فيشنسكايا دائما ؟

— كلا . نسبناه الى قافلة الشحن التابعة لكتيبة تشيرنوفسكى .

— كيف يسعه اذا ان يبقى على صلة بالاحداث ؟

— انه يأتى الى فيشنسكايا دائما . كل يوم تقريبا .

فسأل غريغورى جاهدا ان يتوصل الى جوهر القضية :

— لماذا لا تبقيه هنا ؟

فتنحنح كودينوف وغطى فمه بيده . ثم اجاب على مضض :

— لا يستحسن ذلك امام القوزاق . انت ادرى بحالهم . انهم سيقولون : «ها قد اعتلى الضباط السرج وراحوا يسوقوننا امامهم . الشارات الذهبية عادت الى الاكتاف ثانية !» .

— اهناك غيره فى قواتنا ؟

— هناك اثنان او ثلاثة فى كتيبة كازانسكايا . ولكن لا تدقق كثيرا . انا اعرف ما يدور فى افكارك . ولكن ليس لنا ملاذ سوى الكاديت ، يا ولدى . اليس كذلك ؟ ام تراك تفكر بانشاء جمهورية صغيرة من مقاطعاتك العشر ؟ كلا ، سيكون لزاما علينا ان نذهب الى كراسنوف برؤوس مطأطأة ، وعلينا ان نقول له : لا تُدنّا ، يا بيوتر نيكولايفتش ، لقد ضللنا الطريق قليلا حين تركنا الجبهة .

فقاطعه غريغورى قائلا :

— ضللنا الطريق ؟

فأجابه كودينوف بدهشة صادقة ، وهو يتحاشى بركة بكل عناية :

— حسنا ، الم نضل الطريق ؟

— فهمت القصد . . . — وتورد وجه غريغورى ، وابتسم مكرها ، واردف : — اظن اننا ضللنا الطريق يوم بدأنا التمرد . اما سمعت ما قاله قوزاقى الخوير ذاك ؟

فلزم كودينوف الصمت ومضى يحدق فى وجه غريغورى بفضول .

وافترقا عند مفرق طرق وراء الساحة ، فذهب كودينوف

الى مسكنه وعاد غريغورى الى مقر الأركان وامر مراسله ان يأتى بالحصانين . وحين مضى فى طريقه ، يرخى العنان رويدا رويدا ظل يحاول ادراك السبب الذى بعث فى نفسه شعور العداء والحذر ازاء القفقاسى . وعلى حين غرة صفا ذهنه وتساءل فى دخيلة نفسه برعب : «ماذا لو ان الكاديت تركوا هؤلاء الضباط المثقفين معنا عن قصد ليثيروا التمرد فى مؤخرة الحمر ويجرونا وراءهم ؟» وسرعان ما قدمت ذاكرته الدليل لدعم ما توصل اليه من نتائج : «لم يشأ ان يقول لى من اية كتيبة كان . قال انه ملحق بالاركان ، ولكن لم تمر اية هيئة اركان فى هذه الانحاء . واى شيطان ذهب به الى دودوريفسكى ، تلك القرية الصغيرة القصية ؟ آه ، واضح اننا اوقعنا انفسنا فى ورطة رائعة ! شد علينا المثقفون العنان ! اوقعنا السادة فى شباكهم ، قيدوا حياتنا وراحوا يستخدمونها لتنفيذ مآربهم . ليس بوسع المرء ان يطمئن الى احد ابدا . . .» .

وما ان عبر الدون حتى ارسل جواده فى حضر سريع ، وهب مراسله من ورائه فراح السرج يصر من تحته ، وكان هذا جنديا طيبا وقوزاقيا شجاعا . اصطفى غريغورى رجالا على هذه الشاكلة للسير وراءه لاقتحام الصعاب ، فاحاط نفسه برجال كهؤلاء عركوا الحرب الالمانية . ولزم المراسل ، وهو كشاف سابق ، الصمت طوال الطريق ، وكان يشعل السكائر وهو منطلق على جواده . وحين دخلا احدى القرى نصح غريغورى قائلا :

— اذا لم يكن هناك من داع للعجلة ، فلنتوقف ونقضى الليلة فى مكان ما . فالجوادان منهكان وستريحهما هذه الوقفة .

امضيا ليلتهما فى احدى القرى . وبدا الكوخ المتداعي ذو الحجرتين حنونا مريحا دافئا غب زمهرير السهب . كانت ارضه الترابية تبعث صنانا مالحا من بول العجول والماعز ، والموقد

يفوح برائحة الخبز الندى المحترق الذى يخبز على اوراق اللهانة .
وراح غريغورى يجيب مكرها على استفسارات العجوز القوزاقية .
كانت قد ودعت ابناءها الثلاثة وزوجها الذين انضموا الى المتمردين .
وكان لها صوت رجولى عميق ، وابتعدت تخاطب غريغورى بخشونة :

— قد تكون ضابطا وقائدا للحمقى القوزاق ، ولكن لا سلطان لك علي ، انا العجوز التى فى عمر امك . كلمنى ، ارجوك . ها انت ذا جالس تتثاءب وتتثاءب ، احسب انك لا تريد التحدث الى امرأة ! انا ارسلت الى حربكم الاثيمة اولادى الثلاثة ، ورجلى الشيخ كذلك . انت تقود ابنائى ، ولكنى انا التى ولدتهم ، وارضعتهم ، وربيتهم ، وحملتهم الى الحقول فى اعطاف تنورتى . ولم يكن ذلك بالامر الهين . فلا تشمخ بأنفك ، وقل لي : هل سيحل السلام عما قريب ؟

— عما قريب . . . الآن كان يجب ان تكونى فى فراشك ، ايتها العجوز .

— عما قريب ! ولكن متى سيكون هذا القريب ؟ اياك ان تحاول دفعى الى الفراش ، انا السيدة هنا ، لا انت . يجب علي ان اخرج لأعنى بالماعز والحملان . نحن ندخلها هنا فى الليل ، فهى ما تزال فتية . هل سيحل السلام قبل عيد الفصح ؟

— حين نطرد الحمر سيحل السلام .

فقالت العجوز : «لا يا هذا !» ثم القت على ركبتيها العجفاوين يديها وقد تورم معصماهما وتقوست اصابعهما من الكدح والروماتزم ، ولاكت شفتيها الذاويتين الداكنتين بمرارة واضافت :

— لاى شىء فعل بكم الحمر ، بحق السماء ؟ علام تحاربونهم ؟ الناس جنوا تماما . اتحسبونها لعبة اذ تطلقون النار من بنادقكم . وتختالون على صهوات جيادكم ، ولكن ماذا عنا ، معشر الامهات ، انهم اولادنا الذين يقتلون ، اليس كذلك ؟ ابتدعوا حروبا .

فهدر مراسل غريغورى غاضبا ، وقد اثار اعصابه كلام العجوز :

— اولسنا ابناء لأمهاتنا ؟ من نحن . . . ابناء قحاب ؟ انهم يقتلوننا ، وانت تقولين «نتخطر على صهوات جيادنا» . وهل امر الابناء اهون من امر الامهات ؟ لقد عشت حتى المشيب ، ولكن ها انت تثرثرين ولا تدعين احدا ينام .

فانتهرته العجوز قائلة :

— نم ، نم ، ايها الاحمق اللعين ! علام انفجرت ؟ لاذ هناك بصمت الجب ، ثم تنفجر هكذا بغتة ! حتى بح صوتك !

فتوجع المراسل يائسا : «لن نذوق نوما مع هذا اللسان ، يا غريغورى بانتلايفتش» . ثم اشعل سيكارة ضاربا الزناد بشدة اطارت منه رشاشا من الشرر .

— انت مضجرة كالزنبور ، ايتها المرأة . احسب ان رجلك الشيخ ستغمره السعادة ان اصابته طلقة . سيقول لنفسه : الحمد لله ، تخصلت من امرأتى العجوز .

— سد فمك يا لعين !

— نامى يا عجوز ! سهرنا ثلاث ليال . نامى بحق الرب !

ثم ارغمهما غريغورى على التفاهم . وحين استسلم للرقاد على الارض ، راقه الدفء الحامض المنبعث من فروته . وسمع

الباب يصفق — فاحست ساقاه بتيار من الهواء البارد . وثغا خروف عند اذنه بصوت عال . وراحت اظلاف الجداء الصغيرة تخبط الارض ، واستاف منخراه رائحة بهيجة تنبعث من القش الغض ، وحليب الضأن الجديد ، والثلج ، تلك الرائحة التى تتميز بها زريبة الماشية . . .

استيقظ عند منتصف الليل ولبث راقدا مفتوح العينين . كان الفحم يرسل بصيصا خابيا من تحت رماده اللبنى من الموقد . ورقدت الخراف متزاحمة حول الموقد ، ومن خلال السكون اللطيف الذى خيّم فى منتصف الليل ، استطاع أن يسمع الخراف تجتر وهى نعسى وتزنخر وتعطس بين آونة وأخرى . وأطل بدر تمام خلل النافذة من بعيد ، وفى مربع ضوئه الأصفر راح جدى نشط أسود يتواثب ويرفس فيثير غبارا لألاء . وبدا الكوخ فى ضوئه الأزرق المصفر وكأنه فى وضح النهار . وكانت كسرة من مرآة تتلألأ على طنف الموقد ، واطار أيقونة فضى يرسل وميضا معتما فى احدى الزوايا . وعادت أفكار غريغورى الى مؤتمر فيشنسكايا من جديد ، الى الرسول القادم من منطقة الخوبر والى المقدم القفقاسى . وحين تذكر المقدم بمظهره وأسلوب حديثه المهذبين غشيه قلق ممض . ومشى الجدى على فروته ثم على بطنه وتلفت فيما حوله ببلادة مدة طويلة ، وهز اذنيه ، ثم تجرأ وقفز مرة او مرتين وباعد بين ساقيه فجأة فانصب سيل رفيع على الراحة الممدودة لمراسله النائم بجانبه . فأنّ الرجل وأفاق وراح يمسح يده على سرواله : — بللنى ! لعنة الله عليه ! ابتعد عنى . — ثم نقفه بالاصبع على جبينه فى متعة ، فقفز من على فروته ، وهو يرسل ثغاء حادا ، ثم تقدم الى غريغورى وجعل يلحس يده بلسانه الخشن الصغير الدافئ .

التحق شتوكمان وكوشيفوى ، وايفان اليكسيفتش ، وبضعة قوزاق آخرون (ممن عمل فى الميليشيا) بكتيبة زامورسكى الحمراء الرابعة بعد فرارهم من تتارسكى . كانت هذه الكتيبة قد انضمت فى مطلع عام ١٩١٨ الى احدى وحدات الجيش الأحمر وهى فى طريق عودتها من الجبهة الألمانية ، وكانت ما تزال محافظة على قواها الأساسية بعد ثمانية عشر شهرا من القتال الذى خاضته فى جبهات الحرب الأهلية . وكانت الكتيبة مجهزة أفضل تجهيز ، خيلها مطواعة حسنة التدريب ، وقد ذاع صيتها لكفاءتها الحربية ومعنوياتها العالية وبسالتها .

وحين اندلع العصيان استطاعت كتيبة زامورسكى أن تحول دون زحف المتمردين نحو أوست–ميدفديتسا لا تساندها فى ذلك الا كتيبة موسكو الأولى للمشاة ، ثم وصلت التعزيزات فاحتلت الكتيبة على نحو منظم قطاع أوست–خوبرسكايا على امتداد نهر كريفايا .

وفى أواخر آذار اضطر المتمردون على وحدات الجيش الأحمر على الانسحاب من يلانسكايا ، بعد أن استولوا على عدد من القرى الواقعة فى منطقة أوست–خوبرسكايا . وقد تغير ميزان القوى اثر ذلك فبقيت الجبهة على حالها زهاء الشهرين . وقام فوج من كتيبة موسكو باحتلال قرية كروتوفسكى الواقعة على الدون بمساندة احدى البطاريات ، بعد أن طوقا الجناح الغربى لاوست–خوبرسكايا . ومن المرتفع الممتد على الضفة اليمنى من كرتوفسكى راحت البطارية الحمراء تساند مشاتها فتقصف ، من مكمنها فى ساحة لدرس الحبوب ، قطعات المتمردين التى

احتشدت على التلال الواقعة على الضفة اليمنى ، كل يوم من الصباح حتى المساء ، وتحوّل نيرانها ، بين الحين والحين صوب بلانسكايا على الجانب الآخر من الدون . وجعلت نفثات صغيرة من الدخان تتفجر عالية وواطئة فوق الكتل المتراصة من الأفنية والبيوت . وكانت القذائف تسقط على القرية أحيانا فتجعل الناس والماشية يهرعون فى الشوارع وقد استبد بهم رعب مخبول ، وكانت القذائف تنفجر أحيانا على الكثبان الرملية المهجورة الواقعة وراء المقبرة ، فتتطاير عاليا كتل من التربة التى ما زالت متجمدة .

فى ١٥ آذار حين بلغ شتوكمان وايفان وميشا أن سرية تتألف من الشيوعيين وأعضاء مجالس السوفييت الذين فروا أمام المتمردين ، يجرى تشكيلها فى أوست–خوبرسكايا ، ذهبوا للانضمام اليها . وقد اكتروا زحافة ساقها بهم قوزاقى من شيعة المؤمنين القدامى له وجه طفولى متورد نظيف مما جعل شفتى شتوكمان تختلجان بابتسامة وهو ينظر اليه . ورغم أن القوزاقى لم يتخط شبابه فقد كانت له لحية هائلة شقراء مجعدة ، وبدا فمه المتورد غضا كشريحة من البطيخ الأحمر ، ونبت على وجنتيه زغب ذهبى اللون ، وكانت عيناه تومضان بزرقة شفافة غريبة يصعب على المرء أن يتبين ما اذا تأتت عن انعكاس ألوان لحيته الكثة أو بشرته الوردية .

مضى ميشا يترنم طوال الطريق بأغنية مع نفسه ، أما ايفان اليكسيفتش فكان جالسا فى مؤخرة الزحافة وبندقيته على ركبته ، يتململ بكآبة ، فيما راح شتوكمان يحادث السائق ، فتساءل :

— لعلك لا تشكو من صحتك ، أيها الرفيق ؟

فافتر المؤمن القديم الذى يطفح قوة وعافية عن ابتسامة

دافئة ، وقال :

— كلا ، والحمد لله ! علام أشكو ؟ لم يسبق لفرد من شيعتنا أن دخن سيكارة قط . اننا نشرب الفودكا الصرف ونأكل خبز القمح الجيد طوال عمرنا . فمن أين يأتينا المرض ؟

— وهل كنت فى الجيش ؟

— فترة قصيرة . جندنى الكاديت .

— لم لا تذهب معهم الى الدونيتس ؟

— انت تسأل أسئلة غريبة ، أيها الرفيق — ثم ألقى الأعنة المجدولة من شعر الخيل ، وخلع قفازه ليمسح فمه ، مقطبا حاجبيه وكأنه أحس باساءة وجهت اليه ، وأردف : — لماذا ينبغى أن أذهب الى هناك ؟ كنت سأرفض الخدمة فى صفوفهم لولا أنهم أرغمونى على ذلك . ان حكومتكم عادلة سوى انكم اخطأتم قليلا .

— كيف ؟

ولف شتوكمان سيكارة وأشعلها ، ولبث مع ذلك ينتظر الجواب .

فقال القوزاقى مشيحا بوجهه عن السيكارة :

— علام تحرق هذه الخضرة ؟ أنظر ، ما أنقى هواء الربيع من حولنا ، وها أنت تتلف رئتيك بدخانك الكريه . سأقول لك اى خطأ ارتكبتم . أثقلتم على القوزاق وارتكبتم أخطاء عديدة ، ولولا ذلك لبقيت حكومتكم راسخة الى الابد . ان فى صفوفكم كثيرا من الحمقى ، ولهذا السبب تواجهون هذا التمرد .

— ما وجه أخطائنا ؟

— انك تعرفها كما أعرفها أنا . . . أعدمتم الناس . فاليوم

تدور الدائرة على هذا وغدا على ذلك . فمن يرتضـــى أن ينتظر حلول دوره مكتوف اليدين ؟ حتى الثور يهز رأسه اذا ما هممت بذبحه . خذ قرية بوكانوفسكايا تلك مثلا . أترى الكنيسة حيث أشير بسوطى ؟ حسنا ، كان فيها قوميسار ، اسمه مالكين . هل عامل الناس بالعدل ؟ دعنى أخبرك . لقد ساق الشيوخ الى خارج القرية ، وذهب بهم الى أجمة ، ثم انتزع أرواحهم من أبدانهم ، ورفض السماح لاهليهم أن يدفنوهم . وكل جريرتهم أنهم انتخبوا فى يوم من الأيام قضاة فخريين . وهل تدرى أية قضاة كانوا ؟ ان الواحد منهم لا يستطيع أن يكتب غير اسمه ، أما الثانى فيغمس اصبعه فى الدواة ، وكل ما يفعله الثالث هو أن يرسم شارة الصليب . ان أفضل ما فيهم لحاهم الطويلة ، سوى أنهم كانوا يغفلون عن تزرير فتحات سراويلهم ، لكبر سنهم . كانوا أشبه بالأطفال . أما مالكين ذاك فقد كان يتحكم فى أرواح الناس وكأنه الرب . . . وذات يوم كان شيخ مارا عبر الساحة يحمل مقودا ليربط فرسه ، فنادى وراءه الصبيان مازحين : «اسمع ، القوميسار يناديك» . فرسم الشيخ على نفسه اشارة الصليب الهرطقية (فكل الناس هناك من شيعة المذهب الجديد) وخلع قبعته وهو ما يزال على مبعدة من الباب . ثم دخل وأوصاله كلها ترتعد ، وتساءل : «هل أرسلتم فى طلبى ؟» فاذا بالقوميسار يجيبه ضاحكا : «كلا ، لم يطلبك أحد ، ولكن ما دمت قد أتيت فينبغى أن تنال ما ناله غيرك . خذوه الى الخارج ، أيها الرفاق !» حسنا ، أخذوه بالطبع ووضعوه ازاء الحائط . وظلت امرأته العجوز تنتظر ، ولكنه لم يرجع اليها قط . فقد رحل الى ملكوت السماء . وقد يقع بصر مالكين هذا فى الشارع على شيخ آخر من قرية أخرى فيناديه قائلا : «من أين أنت ؟

ما اسمك ؟» ثم يزنخر قائلا : «ان لك لحية تشبه ذيل الثعلب . انك أشبه بالقديس نيقولاى . سنصنع منك صابونا» ثم يأمر رجاله قائلا : «خذوه !» فيعدمونه لا لشىء الا لأن لحيته طويلة ولأن القوميسار صادف أن رآه فى لحظة نحس . أوليس ذلك انتهاكا لحرمة الناس ؟

كان ميشا قد توقف عن الترنّم بأغنيته حالما بدأ الرجل قصته ، وعندما انتهى قال له بغضب :

— أكاذيبك غير محبوكة ، يا رجل !

— لا بد أن أكاذيبك أحسن ! تحقق من الأمر قبل أن تصفها بالأكاذيب . وحينذاك يمكنك أن تتكلم !

— وأنت على ثقة من صحة كل ما قلت ؟

— كل الناس يتحدثون فى ذلك .

— الناس ! قد يقول الناس ان بوسعك أن تحلب الدجاج ، ولكن ليس للدجاج ضروع كما تعلم . لقد أصغيت الى الاكاذيب ، وها هو لسانك لا يكف عن الحركة كأنه لسان امرأة .

— كان الشيوخ مسالمين .

فهزأ ميشا به قائلا :

— مسالمين ! أغلب الظن أن شيوخك المسالمين أولاء قد ساعدوا على اثارة التمرد ، وربما دفن قضاتك الرشاشات فى أفنية دورهم ، ثم تقول انهم أعدموا بسبب لحاهم أو على سبيل المزاح . لماذا لم يعدموك أنت ؟ ان لحيتك بطول لحية تيس هرم .

فدمدم المؤمن القديم قائلا بارتباك : «لم أقل الا ما طرق سمعى . من يدرى ربما كان الناس كاذبين ، ربما ارتكب الشيوخ الأذى بحق الحكومة الجديدة» ثم وثب من سلة الزحافة

وجعل يسير على جانب الطريق ، وقدماه تنزلقان وتخشخشان على الثلج الهش المائل الى الزرقة . وكانت الشمس تغدق على السهب فيضا من أشعتها ، والسماء اللازوردية الأسيلة تحتضن فى طوقها الهائل التلال والوديان النائية المتداخلة . وكان خفيف النسيم يحمل أثرا من أنفاس الربيع الوشيك المعطرة . والى الشرق ، من وراء السلسلة المتعرجة لتلال الدون ، ارتفعت ذروة التل المطل على أوست-ميدفيديتسكايا فى كنف من ضباب ليلكى . وكانت تحف بالافق سحب بيض منفوشة ترامت فوق الأرض مثل لحاف هائل وثير .

وثب السائق الى داخل العربة والتفت الى شتوكمان وعلى محياه تعبير أشد صرامة ، واستأنف الحديث قائلا :

— لى جد ما يزال حيا ، له من العمر مائة وثمانية أعوام كما يقولون ، أخبره جده أنه فى أثناء حياته ، أى حياة جد جدى ، أرسل القيصر بطرس أميرا الى دوننا الأعلى (وكان اسمه لينوروكوف أو دولكوروكوف) فانطلق هذا الأمير بجنده من فورنيج وأعمل النهب فى قرى القوزاق لأنهم رفضوا تقبل المذهب اللعين الذى جاء به البطريق نيكون ولأنهم رفضوا خدمة القيصر . وراحوا يمسكون بالقوزاق ويشرّحون أنوفهم ، ويشنقون بعضهم ، ثم يرسلونهم حدر الدون على طوافات عائمة .

فسأله ميشا عابسا :

— علام تقص علينا كل هذا ؟

— أحسب أن القيصر لم يخوله تلك الصلاحيات رغم أنه أمير ، والشىء ذاته ينطبق على قوميسار بوكانوفسكايا أيضا . كان يصيح فى مجمع قرية بوكانوفسكايا : «سأسحق فيكم روح القوزاق وسألقنكم درسا لا تنسوه ، أيها الخنازير» ولكن هل

أعطته الحكومة السوفييتية حقا كهذا ؟ تلك هى المسألة . انه لم يتلق أى أمر لاتيان أشياء كهذه ، ولمعاملة كافة القوزاق بجريرة المذنبين ، فهنالك قوزاق من شتى الأصناف .

فتغضنت وجنتا شتوكمان وقال :

— لقد أصغيت اليك ، والآن أنصت أنت الى .

فغمغم الرجل قائلا :

— ربما قلت شيئا غير صحيح بسبب من جهلى . فان كان الامر كذلك ينبغى أن تغفر لى .

— مهلا ، مهلا ! ان ما ذكرته عن القوميسار لا يوحى بالصدق أبدا . ولكنى سأتقصى الأمر . فان صح ذلك ، أى أنه عامل القوزاق هذه المعاملة ، فاننا لن ندعه يمضى بسلام !

— من يدرى !

— لا داعى للشك ، انها الحقيقة . حين امتدت جبهة القتال الى قريتكم أو لم يعدم الجنود الحمر رفيقا من كتيبتهم لأنه سرق شيئا من امرأة قوزاقية ؟ ذلك ما قالوه لى فى قريتك .

— هذا صحيح . سلب المرأة كل ما فى صندوقها . انها الحقيقة . هذا ما حصل . كان العقاب صارما ، والحق يقال . أعدموه بالرصاص خلف ساحة درس الحبوب وقد احتدم بيننا النقاش حول المكان الذى ينبغى أن يدفن فيه ، فاقترح البعض المقبرة ، ولكن الآخرين قالوا انه سيدنس المكان ، وهكذا دفناه قرب ساحة درس الحبوب حيث أطلقت عليه النار ، ذلك الشيطان المسكين .

فلف شتوكمان سيكارة على عجل وقال :

— اذا فقد حصلت حالة كهذه !

فأيده الرجل دونما تردد :

— أجل ، أجل ، انا لا أنكر ذلك .

— اذا لماذا لا تصدق أننا سنعاقب القوميسار اذا ما وجدناه اقترف ما ذكرت ؟

— ولكن ، يا رفيقى العزيز ! قد لا يكون مرؤوسا لاحد . فقد كان ذلك جنديا ، أما أن يكون المذنب قوميسارا . . .

— محاسبته ستكون أشد صرامة ! أتفهم ؟ الحكومة السوفييتية لا تستخدم العنف الا مع أعدائها .، وسنعاقب دونما رحمة أى ممثل لحكومتنا يضطهد الكادحين ظلما .

وبدد دوى مدفع مفاجئ الصمت الذى خيم على السهب عند الظهيرة ، ذلك الصمت الذى لم يعكره الا الصرير المنبعث من مزلاقى الزحافة ووقع حوافر الخيل . كانت البطارية الموجودة فى قرية كوتوفسكى قد استأنفت قصف ضفة الدون اليسرى .

تلاشى الحديث فى الزحافة ، فقد مزق قصف المدافع النشاز روعة السهب الشاحب وهو يغفو فى خدر الربيع المبكر . وحتى الخيل جعلت تغذ السير وتنصب آذانها بحذر .

عرج بهم الدرب الى طريق هيتمان ، فلاحت لهم السهول المترامية وراء الدون ، وقد انتشرت فى أرجائها بقع الثلج الذائب على الرمال الصفر ، وأجمات رمادية زرق من الصفصاف و الحـور .

وحين بلغوا أوست–خوبرسكايا أوقف السائق حصانيه خارج منزل اللجنة الثورية المجاور للمقر العام لكتيبة موسكو . وجعل شتوكمان ينقب فى جيبه ثم أخرج ورقة نقدية من فئة الأربعين روبلا من روبلات كيرنسكى وناولها الى السائق . فأشرق الرجل فى ابتسامة كشفت عن أسنانه الصفر من تحت عذاريه الندبين ، وتردد فى قبولها محرجا :

— ماذا ، أيها الرفيق ، بحق المسيح ! ذلك لا يستحق نقودا .

— خذها لقاء تعب حصانيك . ولا تدع الشكوك تساورك فى أمر الحكومة . تذكر أننا ننادى بسلطة العمال والفلاحين . فأعداؤنا هم الذين دفعوا بكم الى العصيان . انهم الكولاك ، والأتمانات والضباط . وعليهم تقع المسؤولية الرئيسية لنشوب العصيان . واذا ما ثبت أن أيا من رجالنا قد أساء الى قوزاقى كادح يميل الينا ويقدم العون للثورة فاننا سنجد السبيل لتصفية الحسابات مع هذا الرجل .

— أنت تعرف ، المثل القائل ايها الرفيق : الله أعلى من أن يطار له والقيصر أبعد من أن يسار اليه فالدرب بعيد الى قيصركم هو الآخر ، والمثل يقول : لا تخاصم الأقوياء ولا تقاض الأثرياء . وأنتم أقوياء وأثرياء فى آن واحد .

ثم ابتسم بمكر وأضاف :

— كيف تبدد روبلاتك الأربعين هكذا ! ان خمسة منها كافية . ولكنى أشكرك على أى حال .

فابتسم ميشا كوشيفوى قافزا من الزحافة وقال وهو ينفض ساقى بنطاله :

— انه أعطاك هذا لقاء حديثك . ومن أجل لحيتك الجميلة هذه ، أتدرى من الذى نقلته فى زحافتك ، أيها الحمار؟ انه جنرال أحمر !

— أوه !

— أجل بوسعك أن تقول : أوه ! شأنك شأن الآخرين ، عليكم اللعنة ! فان أعطاك المرء القليل تذهب وتتباكى فى أرجاء المنطقة فتقول : «لقد حملت بعض الرفاق فلم يعطونى سوى خمسة روبلات !» ستظل متكدرا طيلة الشتاء . وان نحن زدنا لك العطاء ، ترفع عقيرتك الى السماء بالصياح : «ما أغناهم !

انهم يبددون أربعين روبلا ! لم يتسن لهم عد نقودهم لكثرة ما لديهم منها !» لو أن الامر متروك لى لما أعطيتك أى شىء . انكم لا تشبعون من شىء ، على أى حال . حسنا ، مع السلامة ، يا طويل اللحية !

وحتى ايفان اليكسيفتش تبسم حين أنهى ميشا كلامه النارى .

خرج جندى من الحرس الأحمر يهذب على جواده من ساحة البيت الذى نزلت فيه هيئة أركان كتيبة موسكو . فصاح وهو يكبح حصانه : «من أين جاءت هذه الزحافة ؟»

فسأله شتوكمان : «لماذا تريد أن تعرف ؟»

— نريد شحن العتاد الى كرتوفسكى .

— ليس بوسعك أن تأخذ هذه الزحافة ، أيها الرفيق .

فتقدم الفارس الأحمر من شتوكمان ، وكان فتى وسيما ، وقال :

— ومن أنت ؟

— نحن من كتيبة زامورسكى . لا تأخذ هذه الزحافة .

— حسنا ، بوسعه أن يذهب ، أمض بعربتك ، أيها الشيخ !

٤٠

علم شتوكمان ، بعد أن قام ببعض الاستفسارات ، أن سرية يجرى تشكيلها فى بوكانوفسكايا ، لا فى أوست–خوبرسكايا . وكان يجمع أفرادها القوميسار مالكين الذى تحدث عنه السائق أثناء الرحلة . وقد التأم شمل الشيوعيين والعاملين فى مجالس

السوفييت فى يلانسكايا وبوكانوفسكايا وغيرهما من المناطق ، وضم اليهم عدد من جنود الجيش الأحمر فتكونت وحدة حربية ذات شأن تعدادها مائتا حربة وبضع عشرات من السيوف ، تؤلف دورية خيالة . وقد عسكرت السرية فى بوكانوفسكايا بصورة وقتية ، وكانت تصد ، بمساعدة سرية من كتيبة موسكو ، محاولات المتمردين فى التقدم من المناطق العليا لنهرى يلانكا وزيموفنايا .

وبعد أن تداول شتوكمان مع رئيس أركان كتيبة موسكو ، وهو ضابط نكد مكتئب النفس من ضباط الجيش النظامى السابق ، ومع القوميسار السياسى ، وهو عامل من موسكو ، وطد شتوكمان عزمه على البقاء فى أوست–خوبرسكايا ، والانخراط فى الفوج الثانى التابع للكتيبة . وقد أجرى حديثا طويلا مع القوميسار السياسى فى حجرة صغيرة نظيفة تكومت فيها البكرات وأسلاك التلفون وغيرهما من التجهيزات العسكرية .

تحدث القوميسار القصير القامة ذو الوجه الأصفر ، الذى كان يقاسى نوبة حادة من التهاب الزائدة الدودية ، فقال على مهل :

— كما ترى أيها الرفيق ، فان الوضع هنا معقد نوعا ما . فأغلب جنودى رجال من موسكو وريازان ، وقليل من أهل نزنى–نوفوكورد . انهم رجال أشداء ، اغلبهم من العمال . انما كانت عندنا سرية من الكتيبة الرابعة عشرة لا يرجى من أفرادها خير ، فاضطررنا الى اعادتها الى أوست–ميدفيديتسا . ابق معنا ، فثمة عمل كثير ينتظرك هنا . علينا أن نعمل بين السكان ونثقفهم . أنت ملم بأحوال القوزاق ، فينبغى أن تلتزم جانب اليقظة .

فأجاب شتوكمان وهو يبتسم لنبرة الرجل الأبوية :

— لا داعى لأن تقول ذلك لى !

ثم نظر الى البياض المصفر لعينى الرجل المعذبتين وسأله :

— ولكن قل لى ، من هو القوميسار فى بوكانوفسكايا ؟

فمسد الرجل شاربيه الأشيبين القصيرين ، ثم رفع جفنيه الرقيقين المائلين الى الزرقة وقال ببطء :

— اتسمت أعماله بالتطرف فترة من الوقت . انه فتى طيب ، ولكنه لا يفهم الوضع السياسى الفهم اللازم . ليس بوسع المرء أن يقطع الخشب دون أن يتطاير النثار . . . انه عاكف على ترحيل ذكور المنطقة كلهم الى أواسط روسيا . . . اذهب لمقابلة مأمور المخزن ، وسيقوم بتدوين اسماءكم فى قائمتنا .

ثم عبس القوميسار متألما ووضع راحة يده على سرواله المبطن الذى يعلوه الدهن .

وفى صباح اليوم التالى دعى الفوج الثانى لحمل السلاح ، وبعد ساعة من الوقت سار أرتالا نحو قرية كرتوفسكى ، وسار مع رجاله كل من شتوكمان وكوشيفوى وايفان اليكسييفتش . وأرسلت دورية خيالة من كرتوفسكى عبر الدون ، وتبعها الفوج على طريق مبتل تتناثر عليه بقع من الروث وكان الجليد الذى يعلو النهر منقّرا مثل اسفنجة زرقاء . وراحت البطارية المائلة وراءهم على التل تطلق نيرانها على أجمات الحور البادية وراء قرية يلانسكايا . وكان الفوج قد تلقى الأوامر بتخطى قرية يلانسكايا التى أجلى عنها القوزاق والمضى قدما خلال المنطقة ، لتوحيد قواه مع الفوج الأول الزاحف من بوكانوفسكايا . وكان طريق الفوج الثانى يمتد باتجاه بيزبورودوف . ولكن دورية استطلاع من الخيالة سرعان ما عادت بأخبار تفيد بأن بيزبورودوف خالية من قوات العدو وأن تبادل النار بالبنادق يجرى الى يمين القرية .

وراحت القذائف تزعق فوق رؤوس الجنود ، وانفجار القنابل اليدوية يهز الأرض فى موضع ليس بالبعيد . وكان الجليد يتصدع

من وراء الفوج ويتهشم . وكان ايفان اليكسييفتش سائرا بجانب شتوكمان وميشا ، فالتفت وراءه ، وقال :

— يبدو أن الماء سينزل .

فزنخر ميشا الذى لم يستطع التعوّد على السير مع المشاة وقال بحدة :

— من السخف أن نعبر الدون فى وقت كهذا . أنظر ان الجليد آخذ فى التكسر .

راح شتوكمان يحدق فى ظهور الرجال السائرين امامه ، والى التمايل الرتيب لماسورات بنادقهم بحرباتها الزرق المضببة . ثم أجال النظر فيما حوله فلاحظ أمارات الجلد مرتسمة على محيا الجنود الذين يختلفون عن بعضهم كثير الاختلاف ويتشابهون كل الشبه فى آن واحد ، كما لاحظ حركة القبعات الرمادية وهى تتمايل بنجومها الخماسية والمعاطف الرمادية المصفرة من فرط القدم . وراح ينصت الى الوطء الثقيل تحدثه الأقدام العديدة ، والى همهمة الكلام والسعال ، وارتفعت الى أنفه رائحة الأحذية المبتلة والتبغ والسيور الجلدية . فأغمض عينيه نصف اغماضة وأحس بفيض دافق من الحنان لهؤلاء الشبان الذين لم يمض على تعرفه بهم أكثر من يوم . ثم ساءل نفسه «جميل أن يحس المرء ذلك ، ولكن لماذا بدأت أحبهم فجأة الى هذا الحد ؟ هناك مبدأ مشترك يشدنا الى بعضنا ، بطبيعة الحال ، ولكن فى الامر شيئا أبعد من ذلك . هناك المهمة المشتركة وربما كان دنو الخطر والموت هو السبب . ما أعزهم الى قلبى . . .»

ثم لاحت فى عينيه بسمة : «أترانى هرمت ؟»

وراح يتفرس بشعور يكاد يبلغ تحنان الأبوة فى الظهر العريض القوى للرجل السائر أمامه ، وجزء الرقبة النظيفة الفتية الحمراء وقد

برز من بين الياقة والقبعة ، ثم أدار عينيه الى جاره ، وكان الرجل حليقا ذا خدين أسمرين متوردين وفم جميل صارم . وكان يضيق عينيه كأنه يشعر بألم وشبكة من الغضون تحيط بعينيه . وشعر شتوكمان بالرغبة فى محادثته ، فسأله :

— هل مضى عليك فى الجيش زمن طويل ، أيها الرفيق ؟

فمرت عينا الرجل الشهلاوان على شتوكمان بفتور وتساؤل ، وأجاب من خلال أسنانه :

— منذ ١٩١٨ .

ولم يؤد ذلك الجواب المتحفظ الى فتور الحماس فى نفس شتوكمان فسأله «من أى بلد أنت ؟»

— أتراك تبحث عن شخص من ديارك ، يا أبتاه ؟

— سيسعدنى أن أعثر على شخص من هناك .

— أنا من موسكو .

— عامل ؟

— أى !

فنظر شتوكمان الى يدى الرجل ولاحظ آثارا تنم عن كونه من عمال التعدين .

— أعامل تعدين ؟

ومرت العينان الشهلاوان على وجه شتوكمان ثانية ، وأجاب : «أنا خراط معادن . هل كنت من عمال التعدين أيضا ؟» ولاح فى العينين الصارمتين بصيص من الدفء .

— كنت صانع أقفال . ولكن لماذا تضيق عينيك على الدوام ؟

— جزمتى تؤلمنى فقد يبست بعد ان تبللت ليلة أمس ، حين كنت فى مهمة نصب الكمين .

فابتسم شتوكمان قائلا :

— أليس ذلك بسبب خوفك ؟

— خوفى من أى شىء ؟

— نحن ماضون الى المعركة . . .

— أنا شيوعى .

فشاركهم ميشا الحديث قائلا :

— ألا يخاف الشيوعيون الموت ؟ أليسوا اناسا مثل الاخرين ؟

فأجاب الرجل بعد أن فكر لحظة وعدل من وضع بندقيته على كتفه :

— أنت ما زلت مستجدا فى هذه الأمور ، كما هو واضح ، أيها الأخ . ينبغى علىّ ألا أخاف ، فقد أصدرت الى نفسى الأوامر . أفهمت ؟ فلا تحاول أن تنبش ما فى أعماقى من أفكار الا اذا كانت يداك نظيفتين . انى أعرف لماذا نقاتل ومن الذى نقاتله ، كما أعرف أننا سننتصر . وهذا هو المهم . — ثم ابتسم لخاطرة عنّت له ، والتفت الى شتوكمان ، وشرع يقص عليهما :

— كنت فى السنة الماضية فى مفرزة فى أوكرانيا . وكنا نتعرض لضغط شديد من جانب العدو طوال الوقت . فخسرنا العديد من رجالنا . وبلغ بنا الأمر أن اضطررنا الى ترك جرحانا وراءنا . ثم قام العدو بتطويقنا . وتلقينا أوامر تقضى بأن يقوم أحدنا باختراق صفوف العدو ليلا ويذهب الى مؤخرتهم لينسف جسرا على أحد الأنهر ، للحيلولة دون عبور قطار مسلح . وقد طُلب المتطوعون لهذه المهمة ، ولكن أحدا لم يتقدم . فاقترح شيوعيو وحدتنا — وكانوا بضعة رجال لا غير — أن نقذف قطعة نقدية فى الهواء لتقرر من يذهب منا . ولكننى فكرت فى الأمر

مليا وقررت التطوع . أخذت الألغام ، والفتيلة البطيئة الاحتراق والثقاب ، ثم ودعت رفاقى ومضيت : كان الظلام والضباب مخيمين فى تلك الليلة . وبعد أن قطعت مائتى خطوة شرعت بالزحف خلال ذرة غير محصودة ومن ثم على امتداد أحد الأخاديد . وفيما كنت زاحفا الى خارج الأخدود هب طير يرف بجناحيه من تحت أنفى مباشرة . وزحفت عبر نقطة للحراسة على بعد عشرين خطوة تقريبا ثم بلغت الجسر . وكانت مفرزة رشاشات تتولى حمايته . فقبعت هناك ساعتين من الزمن فى انتظار اللحظة المناسبة ، ثم زرعت اللغم وشرعت أقدح الثقاب تحت ذيل معطفى ، الا أن العيدان كانت مبتلة من الندى فلم تشتعل ، فقد كانت فى جيب صدرى حين اضطررت الى الزحف على بطنى . وحينذاك خفت فعلا . فالفجر أوشك على الانبلاج ، فجعلت يدى ترتجف وتصبب العرق الى داخل عينى ، وقلت فى سريرتى : قضى الأمر . لئن فشلت فى نسفه فسأقتل نفسى . وحاولت مرارا وتكرارا فأفلحت آخر الأمر فى اشعال الثقاب وأشعلت الفتيل . ثم أخفيت نفسى وراء السد على الشاطئ . وحين حصل الانفجار قام هرج ومرج رائعان : فأخذ رشاشان يلعلعان ، وهذب فرسان من جانبى مباشرة ولكن مهمتهم فى العثور علىّ ليلا لم تكن يسيرة . فابتعدت عن الوقاء وتسللت الى الذرة . وفى تلك اللحظة بالذات — أتدرى — انهارت قوة يدى وساقى ، ولم أستطع حراكا ، فرقدت . وحين كنت أشق طريقى الى الجسر خالجنى شعور بالجسارة أما العودة ، فذاك أمر آخر ، لبثت راقدا هناك وانتابنى الغثيان كالكلب . . . وبطبيعة الحال استطعت العودة آخر الأمر . — ولمعت عيناه لمعانا دافئا — وكنت أقص على الأولاد سوء طالعى فى أمر الثقاب ، صباح اليوم التالى ،

فسألنى أحدهم : ولكن ما بال ولاعة السكائر التى عندك ؟ هل فقدتها ؟ وجسست جيبى ، فاذا بها مستقرة هناك طوال الوقت أخرجتها فاشتعلت من أول ضربة !

كان ثمة غرابان يطيران مسرعين على ارتفاع شاهق منطلقين على أجنحة الرياح من أجمة حور بعيدة . وبدت الريح وكأنها تقذف الغرابين الى أمام بشدة . كانا على مسافة غير بعيدة من الطابور حين دوت المدافع المنصوبة على تل كروتوفسكى من جديد غب ساعة من الصمت فمرقت من فوقهم قذيفة محدثة هديرا زاعقا . وحين لاح أن صرختها أوشكت أن تبلغ الانفجار أخذ أحد الغرابين يتلوى كقشة فى دوامة ثم اخذ يهوى الى الارض مدوما كورقة كبيرة سوداء ناشرا جناحيه على نحو شائه محاولا أن ينقذ نفسه . فهتف جندى أحمر يسير وراء شتوكمان باعجاب :

«طار الى حتفه ! أرأيتم كيف قذفت به !»

وعدا آمر السرية على صهوة جواد كميت طويل مثيرا الثلج الذائب .

— اصطفاف ! . .

وجرت قربهم ثلاث زحافات تحمل الرشاشات فنثرت الثلج على ايفان اليكسيفتش وهو يسير فى الصف الخارجى صامتا . وقد سقط أحد المدفعيين من الزحافة الاخيرة ، فدوى الضحك من رجال الجيش الأحمر الى أن أرسل السائق اللعنات وأدار حصانيه لكى يصعد المدفعى الى الزحافة ثانية .

٤١

اتخذت الفرقة الأولى التابعة لقوات المتمردين كاركينسكايا مركزا لمقاومة الحمر . وقد أدرك غريغورى ميليخوف ما لموقع

كاركينسكايا من أهمية استراتيجية فعقد العزم على ألا يتخلى عنها بأى حال من الأحوال . فقد كانت التلال تمتد على الضفة اليسرى لنهر تشير الأمر الذى جعل بمقدور القوزاق ان يحموا خطوطهم من على قممها بشكل رائع . وكانت كاركينسكايا فى سفح التلال على الجانب الآخر من نهر التشير ، ومن ورائها يترامى السهب فرسخات عديدة نحو الجنوب ، تعترضه الشعاب والوديان هنا وهناك . وقد اختار غريغورى بنفسه لبطاريته التى تضم ثلاثة مدافع موقعا غير بعيد عن ربوة تغطيها أشجار البلوط تشرف على المنطقة وتشكل نقطة مراقبة ممتازة .

كان القتال يدور كل يوم حول كاركينسكايا . فيشن الحمر الهجوم من جبهتين عادة : من السهب جنوبا ، وبمحاذاة التشير شرقا . وكانت صفوف القوزاق تنتشر على مسافة غير بعيدة من وراء القرية ، فيطلقون نيرانهم بين آونة وأخرى . وكانت نيران الحمر تحمل القوزاق فى كل مرة تقريبا على التراجع خلال كاركينسكايا ثم يتخذون طريقهم فى بطون شعاب ضيقة شديدة الانحدار تؤدى بهم الى التلول . غير أن الحمر لم تبلغ بهم القوة لدفعهم الى أبعد من ذلك ، فقد كان تقدمهم يتعثر كثيرا بسبب ما يعانون من نقص فى الخيالة الذين كان بوسعهم حمل القوزاق على التراجع مسافة أبعد ، وحينذاك تنطلق يد المشاة ، الذين كانوا يضيعون الوقت خارج القرية حائرين ، فيقومون بحركات جديدة . ولم يكن بالوسع أن يستخدم المشاة لمناورات كهذه ، اذ كان بمقدور القوزاق أن يغيروا فى أية لحظة على الجنود السائرين فيشتتوا شملهم .

وقد امتاز المتمردون ، فضلا عن ذلك ، بمعرفتهم التامة للمنطقة ، فلم يفوتوا سانحة فى ارسال خيالة يستترون فى بطون

الوديان ليغيروا على جناح العدو ومؤخرته ، ويهددون الحمر على الدوام ويشلّون أى حركة جديدة يقومون بها .

ولم يمض وقت طويل ، حتى رسم غريغورى خطة للقضاء على العدو : يعمد القوزاق الى تضليل العدو فيتراجعون ليستدرجوا الحمر الى داخل كاركينسكايا ، فيما تقوم كتيبة من الخيالة بحركة التفاف خلال الوديان لتطويق العدو من الشرق والغرب والقضاء عليه . وقد أعدت الخطة بأدق تفاصيلها . وتسلم أمراء المفارز تعليمات دقيقة أثناء اجتماع عقد فى مساء اليوم السابق . وتقرر أن تبدأ حركة الالتفاف عند الفجر ، حين يسهل التستر . وبدا كل شىء بسيطا بساطة الألف باء . وبعد أن فرغ غريغورى من دراسة كافة الاحتمالات بعناية ، وكل ما من شأنه أن يعيق تنفيذ الخطة على غير انتظار ، كرع قدحين من الفودكا المحلية ، ودون أن ينزع ملابسه ، ألقى بنفسه على الفراش ، وغطى رأسه بمعطفه الرطب وغط فى النوم كالأموات .

احتل الحمر كاركينسكايا فى صباح اليوم التالى . فهرب جانب من مشاة القوزاق خلال الشوارع الى التلال بغية جر الحمر وراءهم . وجعل رشاشان محملان على زحافتين يحصدانهم بالرصاص . وراح الجنود الحمر ينتشرون فى القرية رويدا رويدا .

وقف غريغورى على رابية قريبة من احدى البطاريات يراقب مشاة الحمر وهم يحتلون كاركينسكايا ويتجمعون قرب نهر التشير . وكان الاتفاق قد تم على أن تبدأ سريتان من القوزاق رابضتان فى بساتين عند سفح التل بالهجوم لدى أول قذيفة تطلقها البطارية ، فى حين تقوم كتيبة الالتفاف بمهاجمة المؤخرة . وكان آمر البطارية يريد توجيه أول قذيفة على زحافة مدفع رشاش كانت تجرى الى داخل كاركينسكايا ، ولكن الراصد أفاد لحظتئذ

أن قوة من الحمر تتقدم من جهة الشرق ببطارية عبر جسر يبعد زهاء ثلاثة فرسخات .

فأشار غريغورى عليه وما يزال يراقب الموقع بالمنظار العسكرى :

— أطلق النار عليهم بمدفع المورتر .

وفى الحال سدد المدفعى مدفعه ، فدوى المورتر بهدير ثقيل ، وشق الأرض التى وراءه حينما ارتد الى الخلف . فأصابت القذيفة الأولى طرف الجسر لحظة وصول المدفع الثانى لبطارية حمراء اليه فأطاحت القذيفة بالخيل ، وعلموا بعدئذ أن حصانا واحدا لا غير بقى سالما من بين ست خيول تجر المدفع . وأطاحت شظية قذيفة برأس السائق . واستطاع غريغورى أن يرى خلال منظاره عمودا من الدخان الرمادى والأصفر يرتفع أمام المدفع ، وجفلت الخيل والدخان يكتنفها ، ووقع الجنود ولاذوا بالفرار . وكان أحد الجنود على ظهر حصانه أمام المدفع فأطاحت القذيفة به وحصانه من على الجسر الى الجليد .

ولم يكن فى حسبان المدفعيين أن يحرزوا نجاحا كهذا بالقذيفة الأولى ، فحام الصمت برهة من حول مدفع القوزاق المورتر ، ولكن الراصد الذى كان يقف على رابية قريبة صاح بشىء ولوح ذراعيه .

وفى تلك اللحظة نب هتاف «هورا» من خلال الأجمة الكثيفة لبساتين الكرز والمزارع التى تحتها وعلت لعلعة نيران البنادق . فضرب غريغورى بالحيطة صفحا وهرع الى الرابية . كان رجال الجيش الأحمر يلوذون بالفرار خلال الشوارع ، وسمع هديرا مختلطا من الأصوات ، وصرخات حادة توعز بالاوامر ، ولعلعة الرصاص . وشرعت احدى زحافات الرشاشات تجرى صعد مرتفع ، ولكنها سرعان ما استدارت بحدة ، على مسافة قصيرة من المقبرة ،

وفتحت النار من فوق رؤوس رجال الجيش الأحمر على القوزاق الذين تدفقوا من البساتين .

وعبثا راح غريغورى يستجلى الأفق بحثا عن أثر لخيالة القوزاق ، وكان رجال الجيش الأحمر فى الجناح الأيسر يتراكضون شطر الجسر الذى يربط كاركينسكايا بقرية أرخيبوفكا الملاصقة ، فى حين ما يزال جناحه الأيمن يتدفق الى كاركينسكايا ، فينبطح الرجال تحت نيران القوزاق الذين كانوا مسيطرين على الشارعين القريبين من نهر التشير .

وأخيرا ظهرت السرية الاولى لخيالة القوزاق من وراء التلال ، ثم جاءت الثانية والثالثة والرابعة وانتشروا فى خط واستداروا نحو اليسار بحدة لقطع الطريق على حشود الجيش الأحمر الهاربة . فدعك غريغورى قفازيه بيده وهو يتتبع سير القتال بنفاد صبر دون ان يرفع المنظار العسكرى . دنت خيالة القوزاق من الطريق الرئيسية بسرعة فانقلب رجال الجيش الأحمر على أعقابهم وهربوا عائدين صوب قرية أرخيبوفكا زرافات ووحدانا ، وهناك واجهتهم نيران مشاة القوزاق فانقلبوا ثانية وهرعوا الى الطريق ولم يفلت من قبضة القوزاق الا جزء صغير من الجيش الأحمر يمم صوب كليموفكا .

وجعل القوزاق يعملون السيف بالجنود الحمر على الرابية بصمت مريع ، ثم استدارت خيالة القوزاق صوب كاركينسكايا وأعادتهم على أعقابهم كأوراق فى مهب الريح . وعند الجسر قُطع خط الرجعة على نحو من ثلاثين جنديا أحمر وحين لم يبق أمامهم رجاء فى النجاة ، أخذوا بالدفاع عن أنفسهم . كان لديهم مدفع رشاش واحتياطى كبير من العتاد ، فلم يكد مشاة المتمردين يخرجون من البساتين حتى شرع المدفع الرشاش

يلعلع بسرعة محمومة . فانبطح القوزاق وشرعوا يزحفون بحثا عن ملجأ وراء السقائف والأسيجة الحجرية . وشاهد غريغورى من نقطة المراقبة قوزاقه يجرون رشاشا خلال كاركينسكايا . وحين بلغوا أحد الأفنية عند الضواحى توقفوا ثم هرعوا الى داخل الفناء وبعد بضع دقائق شرع مدفعهم الرشاش يتأتئ من على سطح مخزن الحبوب . وشاهد غريغورى المدفعيين من خلال منظاره ، وكان أحدهم يرقد على السطح بساقين ممدودتين وراء درع المدفع ، والثانى يزحف صعد سلم خشبى وقد لف أحزمة العتاد حوله . أعانت بطارية القوزاق مشاتهم ، فركزت نيرانها على تجمعات الحمر . وما ان مرت خمس عشرة دقيقة حتى لاذ رشاش الحمر عند الجسر بالصمت بغتة ، فارتفع هتاف «هورا» ، وبدت أشباح القوزاق الفرسان تظهر وتختفى بين سيقان الصفصاف الجرداء . وانتهى كل شىء .

* * *

وبناء على أوامر غريغورى قام سكان كاركينسكايا وأرخيبوفكا بسحب المائة والسبعة والاربعين قتيلا من الجنود الحمر الى خندق غير عميق حفر خارج القرية تماما . وقد استولى القوزاق على ست عربات ذات عجلتين من عربات الذخيرة بخيلها ورشاش معطوب واثنين وأربعين عربة شحن بما فيها من مؤن . وقد خسروا أربعة قتلى ، وخمسة عشر جريحا .

وبعد هذه المعركة حظى القوزاق بأسبوع كامل من الراحة دونما قتال فى المنطقة المحيطة بكاركينسكايا . ثم دفعت القيادة الحمراء بقوات ضد فرقة المتمردين الثانية ، وبعد أن حملتها

على التقهقر ، استولت على عدد من القرى فى منطقة ميكولينسكايا . وصباح كل يوم كان صوت المدافع البعيدة يتناهى الى كاركينسكايا ، ولكن الأنباء الواردة عن سير القتال كانت تتأخر ، فلم تعط فكرة واضحة عن الوضع هناك .

وفى تلك الأيام أخذ غريغورى يسرف بالشراب فى محاولة لالهاء نفسه عن الخواطر المكربة التى راودته عن الأحداث الجارية من حوله وعن دوره البارز فيها . وكان المتمردون يعانون من نقص شديد فى الدقيق ، الأمر الذى اضطر القوزاق فى غالب الاحيان الى تناول القمح المسلوق ، اذ لم يكن فى وسع الطواحين أن تسد حاجة الجيوش . ولكن بالنظر لتوفر مقادير هائلة من القمح فان الفودكا المحلية لم تكن شحيحة ، فجعلت تتدفق بسيل لا ينضب . وتعددت المرات التى يدخل فيها القوزاق المعارك وهم سكارى . وذات مرة شنت سرية من خيالة القوزاق الهجوم وأفرادها كلهم نصف سكارى ، فهذبوا صوب مدفع رشاش للعدو ، فأبيدت السرية كلها تقريبا . وكان غريغورى يحصل على وفرة من الفودكا ، فقد امتاز بروخور زيكوف فى الحصول على الكحول . وبعد معركة كاركينسكايا جاء بثلاث قوارير من الفودكا ، تلبية لطلب غريغورى ، ثم دعا المغنين ، فمضى فى الشرب مع القوزاق حتى مطلع الفجر جذلا بشعور الانطلاق من أسار التحفظ متلمسا السلوى عن أفكاره . وفى الصباح عب كأسا ليتخلص من آثار سكره ، ثم كأسا آخرى . وفى المساء التالى طلب المغنين مرة أخرى ، ومن جديد راح ينعم فى صخب الأصوات والمرح البشرى ، فبعث كل ذلك فيه وهما من السعادة وحجب عنه قسوة الواقع .

وسرعان ما تحول كلفه بالشراب الى عادة مستحكمة .

فما ان يجلس الى المائدة صباحا حتى يستشعر رغبة عارمة لشرب الفودكا . كان يشرب كثيرا ، ولكن دون أن يفرط ، ويظل مالكا لشعوره حين يثمل الآخرون وينامون تحت الموائد وعلى الأرض ، ويتدثرون بمعاطفهم ويبقى هو صاحيا بالرغم من شحوب وجهه وشرود عينيه ، وكثيرا ما كان يشد راحتيه الى رأسه .

وبعد أن أمضى أربعة أيام فى منادمة متواصلة شرعت آثارها تظهر عليه : أزرق ما تحت عينيه وتورم وأمست نظراته صارمة لا حسّ فيها . وفى اليوم الخامس أشار بروخور زيكوف عليه وهو يبتسم ابتسامة اغراء :

— تعال معى هذا المساء الى امرأة رائعة أعرفها فى ليخوفيدوف . موافق ؟ لكن اياك أن تفوت الفرصة . انى أعرفها امرأة شهية كالبطيخة ، على الرغم من أننى لم أذق طعمها . ولكنها حادة الطبع متوحشة ، تلك الشيطانة . انك لن تنال منها شيئا فى أول مرة تسألها ، فلن تدعك تلمسها . بيد أنك لن تجد من يحسن صنع الفودكا مثلها . لديها أروع فودكا فى كل قرى التشير .

ثم ختم كلامه وكأنه لا يقصد شيئا :

— زوجها انسحب عبر الدونيتس .

انطلقوا الى ليخوفيدوف مساء ذلك اليوم . ورافق غريغورى اثنان من آمرى وحداته هما ريابتشيكوف ويرماكوف ، وأليكسى شامل ذو الذراع الواحدة ، وقائد الفرقة الرابعة ميدفيديف الذى جاء بزيارة للفرقة الأولى . وتقدمهم بروخور زيكوف على حصانه وحين بلغوا القرية جعل حصانه يمضى سيرا ، ثم استدار فى شارع فرعى وفتح بوابة صغيرة تؤدى الى ساحة لدرس الحبوب . وبلمسة من السوط قفز حصان غريغورى ليتخطى كومة كبيرة من

الثلج نصف الذائب ، ثم كبا لحظة واستعاد وضعه وهو يزنخر ويخب الى داخل الفناء . أما ريابتشكوف فقد ترجّل وقاد حصانه من الرسن . ومضوا فى أثر بروخور زهاء خمس دقائق عبر أكوام من التبن والقش ، ومن ثم خلال بستان من أشجار الكرز الجرد المخشخشة . وكان قدح الهلال الذهبى ينتصب على صفحة السماء الزرقاء الداكنة ، والنجوم تتألق ، وخيم من حولهم سكون مسحور ، لا يعكره سوى نباح كلب بعيد ووقع حوافر خيلهم . وأومضت نقطة من الضوء الأصفر على صفحة السماء القاتمة ، وطالعهم هيكل منزل واسع مسقوف بالقصب . وانحنى بروخور من على سرجه وفتح بوابة من الصفصاف ذات صرير . والتمعت صورة القمر فى بركة متجمدة عند الدرجات . فهشم حصان غريغورى حافة الجليد ثم توقف وهو يلهث ، فقفز غريغورى من على حصانه ولف الأعنة حول عمود السلم ودخل سقيفة الباب . وترجل القوزاق الآخرون وهم يهمهمون ويتحدثون وراءه .

تلمس سقاطة الباب ثم فتحه ودلف الى مطبخ فسيح . كانت ثمة امرأة قوزاقية شابة ، مكتنزة ولكنها أنيقة كطير الحجل ، لها سحنة سمراء وحاجبان فاحمان جميلان ، وقفت وظهرها الى الموقد تحوك جوربا . وكانت فتاة شقراء الشعر ، يناهز عمرها التاسعة ، نائمة فوق الموقد وقد نشرت احدى ذراعيها .

جلس غريغورى الى المائدة دون أن يخلع معطفه ، وقال :

— ألديك فودكا ؟

فأجابت المرأة دون أن تنظر الى غريغورى أو تتوقف عن الحياكة :

— ألا ترى أن من اللياقة أن تقول مساء الخير أولا ؟

— مساء الخير ، ان كان ذلك يروق لك . ألديك فودكا ؟

فرفعت حاجبيها وابتسمت له عيناها المستديرتان البندقيتان ، ثم أصاخت السمع الى وقع الخطوات فى سقيفة الباب .

— عندى شىء من الفودكا . ولكنكم أتيتم بعدد كبير لقضاء السهرة ، أليس كذلك ؟

— أجل ، الفرقة برمتها .

ودخل ريابتشيكوف وبدأ يرقص مقرفصا وهو يجر سيفه ويضرب ساقى جزمته بقبعته المصنوعة من جلد الخروف . وتزاحم القوزاق الآخرون فى المدخل . وجعل أحدهم ينقر لحنا راقصا سريعا بزوج من الملاعق الخشبية ، ثم كوموا معاطفهم فوق السرير وألقوا أسلحتهم على المصاطب . وخف بروخور لمساعدة المرأة فى اعداد المائدة ، ودخل أليكسى ذو الذراع الواحدة الى القبو ليجلب شيئا من الكرنب المخلل ثم سقط حدر الدرج ، وخرج يحمل هشيم الطبق المكسور وكومة من اللهانة الندية فى طرف سترته .

وما انتصف الليل حتى كانوا قد شربوا دلوين من الفودكا والتهموا مقادير لا حصر لها من الكرنب . ثم قرروا نحر خروف ، فذهب بروخور يلتمس واحدا فى زريبة الأغنام ، فبتر يرماكوف رأسه بضربة واحدة من سيفه . وأشعلت المرأة النار ووضعت فوقها قدرا مليئا بلحم الضأن لتطبخه . وعادت الملعقتان الخشبيتان من جديد تنقران لحنا راقصا ، وراح ريابتشوكوف يدور فى رقصته مشمرا عن ساقيه ، صافقا اياهما بيديه وهو يغنى بصوت صادح حاد ولكنه حلو .

وهدر يرماكوف قائلا : «أريد أن ألهو !» ولبث يمتحن متانة اطار النافذة بسيفه وكان غريغورى يحب يرماكوف لشجاعته النادرة وجرأته القوزاقية ، فضرب على المائدة بكوزه النحاسى وصاح :

— لا تكن سخيفا يا اخى !

فأعاد يرماكوف سيفه الى غمده باذعان وتناول قدحا من الفودكا بتعطش .

قال أليكسى ذو الذراع الواحدة ، وهو يجلس بجوار غريغورى :

— لا أخشى حتى الموت فى سهرة مثل هذه . ايه غريغورى بانتلايفتش ، انك فخر بلادنا ! لولاك لكنا الآن فى الدنيا الآخرة ! أنشرب معا كأسا آخرى ! . . املأ الكؤوس ، يا بروخور !

ولبثت الخيل غير المسرجة واقفة عند المعلف دونما عقال فكان القوزاق يخرجون اليها بالتناوب ليلقوا عليها النظر .

ولم يحس غريغورى أنه بدأ يثمل الا وقد أدركهم الفجر . فخيل له أن أصوات الآخرين تأتيه من مسافة بعيدة . فرفع عينيه الحمراوين بثقل باذلا جهده للسيطرة على نفسه .

فهدر يرماكوف ، وهو يعانق غريغورى :

— ان شارات الكتف الذهبية عادت تتحكم برقابنا من جديد ! ان بيدهم مقاليد الحكم كلها .

فسأله غريغورى منحيا عنه يديه :

— أى شارات ؟

— فى فيشنسكايا ، أو تعنى أنك لم تسمع بها ؟ زمام الأمر هناك فى يد أمير قفقاسى ! انه عقيد . سوف أقتله ! يا ميليخوف ! انى أضع حياتى عند قدميك : لا تتخل عنا ! شاع التذمر بين القوزاق . سر بنا الى فيشنسكايا فنقتلهم جميعا ونضرم النار بالمنطقة . نقتل كودينوف ، والعقيد ، والكل ! كفانا ما رأينا من حكمهم ! دعنا نقاتل الحمر والكاديت فى آن واحد . هذا ما أريد !

فقال غريغورى : — سوف نقتل العقيد ! تخلف فى

المنطقة عن قصد . . . يا اخى ! دعونا نرضخ لسلطة السوفييتات . اننا على خطأ . — وفجأة استعاد غريغورى رشده لحظة وابتسم ابتسامة شوهاء وأضاف : — لست الا مازحا . هيا اشرب ثمالة الناس ، يرماكوف .

فقال ميدفيديف بحدة :

— بماذا تمزح ، يا ميليخوف ؟ لا تمزح ، انها مسألة خطيرة . اننا نريد تغيير الحكم . سنطردهم جميعا ونضعك فى مكانهم . لقد تحدثت الى القوزاق بالأمر ، فأبدوا موافقتهم . سنقول لكودينوف وزمرته : «انقشعوا انكم لا تصلحون لنا !» فان ذهبوا عنا فمع السلامة . والا فسنرسل كتيبة الى فيشنسكايا ونكنسهم كنسا ، لعنة الله عليهم .

فأرعد غريغورى بغضب شديد : «اقلع عن هذا الكلام !» فهز ميدفيديف كتفيه ، وغادر المائدة ، وكف عن الشراب . وراح ريابتشيكوف يغنى بصوت نائح وهو ممدد فى ركن من الغرفة ورأسه الأشعث متدلٍ من المصطبة واحدى يديه تهرش الأرضية الوسخة :

تعال أرح رأسك ، يا فتاى المسكين ،
تعال أرح رأسك ، أيها الحبيب ،
رأسك هذا الثقيل ، رأسك هذا المسكين ،
رأسك الذى تهدل متعبا
دعه يسترح على هذا النحو ، أو ذاك
دعه يرقد على صدرى الأبيض .

وانضم أليكسى شامل بصوته الجهورى الأبح الى صداح ريابتشيكوف النائح الرقيق :

حين رقدت على صدرك
ندت حسراتى ثقيلة أسيانة
ثقيلة حسراتى ثقيلة أسيانة
وذات مرة ، قلت لك عازما :
وداعا يا حبى الراحل ، وداعا
وداعا ، ولتذهبى الى سقر

كانت ظلال الفجر تستحيل ليلكية خارج المنزل حين قادت المرأة غريغورى الى الغرفة الأمامية .

وقالت وهى تسند غريغورى بيد وتصد بالأخرى يرماكوف الذى كان يتبعهما بكوز من الفودكا :

— لقد أسكرتموه بما فيه الكفاية ! كفاك الآن ، أيها الشيطان ! ألا ترى أنه لم يعد يصلح لشىء ؟

فغمز يرماكوف ، وهو يترنح ويريق الفودكا من الكوز :

— اياك أن تضاجعيه الآن ، لا فائدة منه .

فانتهرته قائلة :

— ليس هذا من شأنك . لست أنت أبى .

فهأهأ يرماكوف : «خذى معك ملعقة !» ثم تهاوى فى نوبة من الضحك الثمل .

— يالك من شيطان ! شربت اكثر من اللازم وتقول ما لا يليق !

ودفعت غريغورى الى الغرفة ، وأرقدته على السرير ، ثم جلست وملء عينها الاشفاق والقرف تراقب وجهه الشاحب شحوب الأموات والنظرة المحدقة تشخص من عينين لا تطرفان . جلبت له قدحا من مشروب الكرز البارد ثم جلست على حافة السرير

وراحت تمسد رأسه ، وتبعث أصابعها خلال شعره ، حتى استسلم للنوم . ثم أعدت فراشها فوق الموقد الى جانب ابنتها ، لكن شامل أبى أن يدعها تنام فقد أرقد رأسه على ذراعيه وراح يزنخر كحصان فزع ثم أفاق على حين غرة وجعل يهدر بلحن من أغنية . ثم ألقى برأسه فوق ذراعيه من جديد ، وخلد للنوم بضع دقائق ، وما لبث أن انفجر يغنى ثانية وهو يجيل النظر فيما حوله كالمخبول .

٤٢

حين أفاق غريغورى صباح اليوم التالى تذكر كلمات يرماكوف وميدفيديف ، فلم يكن الشراب قد أسكره آنذاك تماما . ولم يجد مشقة كبيرة فى استعادة حديثهما حول اسقاط الحكومة ، فأدرك لتوه أن وليمة الشراب فى ليخوفيدوف قد أعدت بقصد أن يكسبوا تأييده للخطة . فقد كان القوزاق ذوو الميول اليسارية يحلمون بالانفصال التام عن أجزاء اقليم الدون الأخرى وتأليف نموذج خاص بهم من الحكم السوفييتى دون التعاون مع الشيوعيين ، فراحوا يكيدون لكودينوف الذى كان قد أعرب بكل صراحة عن رغبته فى الانسحاب الى الدونيتس وضم قواته الى الجيش الأبيض . وقد فاتهم أن يدركوا ما يترتب من نتائج وخيمة على النزاع فى داخل معسكر المتمردين ، فقد تيمم قوات الحمر ، اذا ما أعيدت على أعقابها فى منطقة الدونيتس ، وجهتها اليهم فتمحقهم ، هم وخصوماتهم . وقال غريغورى فى خلده وهو يقفز من على سريره بخفة : «ان هذا عبث صبيانى» . وحين ارتدى ملابسه استدعى يرماكوف وميدفيديف الى غرفته ثم أوصد

الباب من ورائهما وقال :

— انتبها الآن الىَّ أيها الصبيان ! أطردا كلام الأمس من رأسيكما ، وحذار من التذمر ، والا فستكون عاقبتكما وخيمة . ليست القضية قضية من يتولى القيادة ، انها ليست مسألة وجود كودينوف فى القيادة أم سواه ، فالمشكلة أننا فى مأزق حرج ، فنحن أشبه ببرميل داخل أطواقه ، وهذه الأطواق ستحطمنا ان عاجلا أو آجلا . فينبغى لنا أن نسير بكتائبنا لا الى فيشنسكايا بل شطر ميكولين وكراسنوكوتسكايا — وأضاف مشددا كلماته دون أن يحوّل عينيه عن وجه ميدفيديف الكئيب الذى لا يبدو عليه الاكتراث : — أجل ، هذه هى الحالة ، يا كوندرات . يحسن بك أن تكف عن اثارة المتاعب . فكر بالأمر مليا تر أننا ان شرعنا فى التخلص من قادتنا وتدبير حركات عصيان هلكنا لا محالة . علينا أن ننحاز اما الى البيض أو الى الحمر . فليس ثمة من سبيل وسط : سيسحقنا هذا الجانب أو ذاك .

فقال يرماكوف وهو يشيح بوجهه :

— لعلك لن تعمد الى نقل حديثنا الى أسماع الغير .

— لن أتخذ خطوة أخرى شريطة أن تكفوا عن اثارة القوزاق . ما شأن كودينوف ومستشاريه ؟ فليست بيدهم القوة كلها ما دمت أنا أتولى قيادة فرقة . انهم حفنة من الأغبياء كما أعرفهم ، وهم يسعون الى جرنا الى الكاديت وبوسع المرء أن يراهن على ذلك . ولكن الى أين يمكننا أن نسير ، على كل حال ؟ ليس ثمة من سبيل أمامنا ، فنحن مقيدون .

فأيده ميدفيديف قائلا باحجام : «هذا صحيح» وللمرة الأولى مذ دخل تلك الغرفة رفع عينيه الصغيرتين الحاقدتين الى وجه غريغورى .

وأمضى غريغورى يومين آخرين يعاقر الخمرة فى القرى الواقعة حول كاركينسكايا ، فينفق حياة خاوية فى المنادمة والسكر . وقد تشبع برائحة الفودكا حتى بلغت مرشحة سرجه . وعبثت يداه بنسوة وفتيات فقدن زهرة عفافهن ، تشاطره الواحدة منهن ساعة وجيزة من الغرام ، ولكنه يفيق صباح كل يوم وقد أتخمته حمى الغرام التى نالها من آخر نزوة وصحا من سكره ، فيقول لنفسه بعدم اكتراث : «لقد عشت وخبرت كل شىء فى أيامى . طارحت الغرام نسوة وفتيات كثيرات ، وجبت السهب على ظهر جوادى ، ونعمت بالأبوة ، وقتلت رجالا وواجهت المنية ، ونعمت بزرقة السماء . أى جديد يمكن للحياة أن تأتينى به ؟ لا شىء ! وبوسعى أن ألاقى الموت ! ذلك لن يكون أمرا رهيبا . وبوسعى أن أعبث فى الحرب دون أن أجازف بشىء ، شأن ثرى يلعب القمار . لن تكون خسارتى فادحة» .

وكانت أيام الطفولة تنساب خلال ذاكرته رائقة مثل يوم مشمس : أعشاش الزرازير ، وقدماه الحافيتان على التراب الحار ، والدون يعمه سكون مهيب فيعكس ضفافه التى تزخر بالشجر ، والوجوه الفتية لأصدقائه ، وأمه الغضة الممشوقة القوام . . . فيغطى غريغورى عينيه بيده . أصدقاء قدامى ، وجوه قديمة ، احداث صغيرة متشبثة بذاكرته لسبب ما ، أصوات طواها النسيان ، نتف من حديث ، قهقهات من الضحك . وتعرج به الذاكرة الى مرأى المنظر القديم ، فاذا به ينشر مداه أمام عينيه على نحو مفاجئ يبهر الأبصار ، فترى عيناه دروب الصيف تقطع السهب ، وعربة تجرها الثيران وأباه جالسا على عارضتها ، والأرض المحروثة ، والجذامات الذهبية للقمح المحصود ، ونثارا أسود من الغربان على الطريق . وكلما طاف خياله فى ذكريات الماضى الذى

لا مرد له تراءت له أكسينيا فيقول فى سريرته : «حبى ، حبى الذى لن أنساه !» ثم ينجر عن المرأة النائمة الى جنبه وقد تملكه الازدراء . وتنهد تنهيدة عميقة وهو ينتظر الفجر بصبر نافد ، وما ان توشك الشمس على رشق المشرق بظلال العليق والأبريز حتى يثب على قدميه ، ويغتسل ويمضى الى جواده .

٤٣

سرى التمرد سريان حريق يلتهم السهب ، ولكن الجبهات أحاطت مناطق المتمردين مثل حلقة من الفولاذ . وكان ظل القدر جاثما على صدور الناس كوسم الميسم . فقد كان القوزاق يلعبون بالموت ، وخاب فأل الكثيرين منهم فراح الفتية يقبلون على الحياة والغرام بكل جوارحهم ، والكبار يكرعون الفودكا حتى يصعب عليهم الوقوف ، ويلعبون الورق على النقود والرصاص (اذ كان الرصاص أثمن من النقود) ثم يرحلون الى أهليهم فى اجازة ، ليلقوا بنادقهم ولو دقيقة واحدة ، ويلتقطوا الفأس ، او يرمموا السياج أو يهيئوا المسلفة أو طوق الحصان لعمل الربيع ، مما يريح النفس . ويعود الكثيرون من الذين ذاقوا حياة السلم هذه الى كتائبهم وهم سكارى ، وحين يصحون من سكرهم ينطلقون فى الهجوم بشعور مرير ، فيتقدمون الى الرشاشات وجها لوجه ، أو ينطلقون فى غارات الليل وقد التهبوا جنونا ، فلا يحسون بالخيل من تحتهم ، فيأسرون الأسرى ويعبثون بهم بكل قسوة ووحشية ومن ثم يقضون عليهم بالسيوف شحا بالرصاص .

حل الربيع يزهو بجمال لم يعهد له مثيل . وكانت أيام نيسان مشرقة صافية كالبلور وعلى مدى السماء اللازوردى المنيع ما

انفكت أسراب من الاوز البرى والكراكى ذات الاصوات اللطيفة تعوم فتدرك الغمام فى هجرتها نحو الشمال . وكان البجع الذى خرج الى رقعة السهب القريبة من البركة يسطع على الخضرة الشاحبة كاللؤلؤ المنثور . ولم تكن الطيور لتكف عن تغريدها ونداتها فى الغياض المترامية على ضفاف النهر . وجعل الاوز يتنادى على الغدران الفائضة تأهبا للهجرة . ولم ينقطع حفيف الصفصاف الذى يعج بنشوة الغرام تبثها ذكور البط . وبدت أشجار الصفصاف خضرا بعراجينها ، وتفتّح الحور براعم دبقة فواحة . وكان السهب الأخضر غارقا فى سحر لا يوصف ، يغمره فوح الأرض السوداء العريانة والعشب الجديد .

ولعل خير ما فى حرب التمرد ان كل قوزاقى بقى على مقربة من قريته . فاذا ما انتابهم الملل من الذهاب فى مهام النقاط الأمامية ونصب الكمائن ، ومن السير على التلال وحدر الوديان فى مهام الدوريات ، فانهم يحصلون على اجازة من آمر سريتهم ، ويذهبون الى أهليهم ، ويرسلون أباءهم الذين دبت فيهم الشيخوخة والوهن ، أو أبناءهم اليافعين ليحلوا محلهم . فبقيت السرايا بكامل تعدادها على الدوام رغم تغير الوجوه . ولكن بعض القوزاق كانوا أشد مكرا . فما ان تجنح الشمس الى المغيب حتى تراهم يمضون هذبا من مأوى سريتهم ، فيقطعون عشرين أو ثلاثين فرسخا ، فيبلغون بيوتهم عشاء . فيقضون الليلة مع زوجاتهم أو مع خليلاتهم ، وحين يصيح الديك صيحته الثانية يسرجون خيلهم ويعودون الى سريتهم قبل أن تتلاشى المجرة فى السماء . وكان العديد من القوزاق المرحين مسرورين كل السرور لهذه الحرب التى يخوضونها على مقربة من بيوتهم . كانوا حين يتوجهون الى منازلهم وزوجاتهم يقولون لأنفسهم : «لا داعى للموت» .

وكانت القيادة تخشى أن يعم الهرب الجماعى حين يحل موسم العمل فى الحقل أيام الربيع . فقام كودينوف بزيارة خاصة لكل فرقة ، وأعلن بقسوة خارقة قائلا :

— لا يهمنى أن تسرح الرياح على حقولنا الخاوية ، ولا يهمنى ان خلت أرضنا من أى زرع ! ولكننى لن أسمح بمنح اجازة لأى قوزاقى . واذا ما قبض على أحد فى قريته دونما رخصة فسيعدم رميا بالرصاص .

٤٤

ساهم غريغورى مساهمة فعلية فى اشتباك آخر وقع فى أسفل كليموفكا . فقد اندلع اطلاق النار قبيل الظهر فى يوم من أيام نيسان حول المنازل الواقعة فى طرف القرية ، وبعد بضع دقائق دخلت صفوف الحمر الى القرية . وكان فى ميسرتهم بحارة ، وهم ملاحو سفينة ما من أسطول البلطيق ، يتقدمون الى أمام بحزم . فطردوا سرايا القوزاق فى القرية بهجوم جرىء ودفعوا بهم الى الوراء على امتداد أحد الوديان .

كان غريغورى يرقب القتال من على تل ، وحين أخذت المبادرة تنتقل الى يد الحمر لوح بقفازه الى بروخور زيكوف ليأتيه بحصانه . ثم وثب الى سرجه وانحدر يخب سريعا الى واد كان قد أبقى فيه سرية من الخيالة كاحتياط . وشق طريقه الى السرية خلل البساتين وعبر الأسيجة فألفى القوزاق مترجلين ينعمون بالراحة . وحين كان ما يزال على مبعدة منهم استل سيفه وصاح : «الى الجياد !» وفى غمضة عين اعتلى المائتا قوزاقى صهوات جيادهم . وتقدم آمر السرية ليستقبل غريغورى وسأله :

— هل تقرر أن نقوم بشن هجوم ؟

فأومضت عينا غريغورى :

— أجل ، لقد تأخرنا .

ثم جر عنان جواده وترجل ، واضطر الى تبديد دقائق عديدة ليحكم أحزمة سرجه ، وحصانه العرق الهائج يدور ويروغ رافضا أن يدع غريغورى يشد الأحزمة فحاول ان يعضه من جنبه ، وحين ثبت غريغورى سرجه باحكام وضع قدمه فى الركاب . ودون أن ينظر الى آمر السرية الذى كان ينصت الى اطلاق النار المتزايد بأعصاب متوترة ، صاح : «سأتولى أنا قيادة السرية» . ثم التفت الى الرجال :

— على هيئة رعائل الى طرف القرية ، سر !

وحين تعدوا القرية أمر السرية بالاصطفاف استعدادا للهجوم ، ثم جرّب ما اذا كان سيفه ينسل من غمده بيسر ، وتقدم السرية نحو خمسين خطوة ، ثم قادها هذبا شطر كليموفكا . وحين بلغ قمة المرتفع المطل على كليموفكا أوقف جواده لحظة وتفحص الموقف . كان المشاة والخيالة الحمر يتراكضون ويهذبون متراجعين أمام بصره ، فاستدار نصف استدارة لمواجهة سريته :

— استلوا سيوفكم ! الى الهجوم سر ! اتبعونى يا أولاد ! —

ثم استل سيفه من الغمد وكان أول الهاتفين «هورا !» فسرت فى أوصاله رعشة طفيفة معهودة ، فدفع بجواده هذبا شطر القرية . وجعلت الأعنة المشدودة تختلج فى يسراه ، وراح سيفه المرفوع فوق رأسه يفح فى مهب الريح .

كانت ثمة غيمة بيضاء هائلة ساقتها نسائم الربيع فحجبت الشمس دقيقة أو اثنتين ، وانسل ظل رمادى عبر المرتفع ببطء متظاهر ثم أدرك غريغورى . فحول عينيه من أكواخ كليموفكا

لحظة الى هذا الظل المنساب على الأرض الرطبة البنية ، ثم الى النور الأصفر الوهاج البهيج يلوذ بالفرار أمام الظل . وقد تملكته رغبة لاشعورية ، يستحيل وصفها ، للحاق بالنور الذى راح يجرى على الارض . فضرب جواده وأرسله يهذب بأقصى سرعته ، بعد بضع دقائق من هذب يائس اشرق رأس الجواد المشرئب برشقة من نور الشمس ، والتمع أديمه الأحمر فجأة بوهج ذهبى أخاذ . وفى تلك اللحظة لعلعت الطلقات من الشارع الذى أمامه فحملت الريح أصواتها الى أذنيه . ولم تمض ثانية حتى لم يسمع ، من خلال وقع سنابك جواده وازيز الرصاص وهدير الريح عبر أذنيه ، دوى السرية الهاذبة من ورائه . لكأن دوى هذا الحشد من الخيل الصاخب قد انداح من قرب أذنيه ، وكأنه يتلاشى فى الابعاد . وبدت لعلعة البنادق لاذنه أشبه بفرقعة الحطب فى نار المخيمات ، ومضى الرصاص يئز من حوله . فالتفت ينظر الى وراء بحيرة وفزع ، فشوّه الذهول والغضب قسمات وجهه . فقد دارت السرية بالخيل على أعقابها وعادت تهذب من حيث أتت ، وها هم يتخلون عنه . وكان آمر السرية وراءه على مسافة قصيرة واقفا فى ركابيه يلوح سيفه بارتباك وهو يبكى ويصرخ بصوت كسير أجش . لم يكن وراء غريغورى سوى قوزاقيين ، أما بروخور زيكوف فقد أدار حصانه ومضى يرقل الى آمر السرية . وأما الاخرون فقد تشتتوا وانطلقوا من حيث أتوا وهم يعيدون سيوفهم الى أغمادها ويعملون السياط بخيلهم .

فأوقف غريغورى جواده لحظة وجيزة محاولا استجلاء ما حدث وراءه ، وما دعا السرية تنقلب على أعقابها فجأة وتلوذ بالفرار ، قبل أن يسقط منها أى رجل . وفى تلك اللحظة عقد غريغورى عزمه : لن يعود على أعقابه ، لن يهرب ، بل سيمضى

قدما . ورأى أمامه سبعة بحارة حمر متهمكين حول رشاش محمول على عربة وراء سياج على نحو مائتى خطوة منه . كانوا يجاهدون لادارة الرشاش وتصويبه الى القوزاق ، الا أن الزقاق كان ضيقا . وقد فترت نيران البنادق وقل عدد الرصاص الذى كان يثر من فوق رأسه . فأدار جواده ليدخل الى الزقاق عبر حاجز متهدم . وما ان رفع عينيه عن الحاجز حتى شاهد البحارة أمامه على مسافة قصيرة بكل جلاء ، لكأنه يتطلع اليهم خلال منظار ، وكانوا يهرعون لحل شداد الجواد عن العربة ، ولاحت وجوههم مستديرة سمينة على نحو غريب لان قبعاتهم المسطحة ثبتت على رؤوسهم باحكام وهم بسترهم السوداء الملطخة بالطين وكان اثنان منهم يقطعون الاحزمة وثالث قد جثم فوق الرشاشة ، وكان الباقون بين راكع وواقف يطلقون النار على غريغورى من بنادقهم . وفيما دنا منهم يرقل على حصانه استطاع أن يرى أصابعهم تعالج الترابيس بشكل محموم وسمع الطلقات تدوى أمامه مباشرة . وكان الرمى من العجالة وأعقاب البنادق ترتفع الى المناكب بسرعة بحيث خالط غريغورى ، والعرق يتصبب منه ، يقين بهيج مباغت أنهم لن يصيبوه .

خشخش السياج من تحت حوافر جواده ثم خلفه وراءه . فرفع سيفه وسمّر عينيه فى أقرب بحار اليه . واعترته رجفة أخرى من الخوف لفحته كالبرق : «سيطلقون علىّ النار أفقيا . . . الى صدر الحصان مباشرة . . . سيلقى بى . . . فينتهى أمرى !» طلقتان صوبتا اليه مباشرة ، تلتهما صيحة : «سنأسره حيا !» ورأى أمامه وجها جريئا ذا جبين حاسر وشرائط قبعة بحرية عليها اسم سفينة بأحرف ذهبية باهتة . وانتصب غريغورى فى ركابه وأهوى بسيفه فأحس به ينغرز فى جسم البحار الهش اللين -

وأفلح بحار ثان جسيم فى ارسال رصاصة فى لحم كتف غريغورى الايسر قبل أن يخر تحت ضربة من سيف بروخور وقد انفلق رأسه شطرين . والتفت غريغورى على قعقعة ترباس بندقية : فاذا بالعين الصغيرة السوداء لماسورة بندقية تحدق فيه من وراء عربة المدفع الرشاش . وأزت الرصاصة فوق رأسه وهو يميل جانبا بشدة زحزحت السرج وجعلت حصانه الفزع يترنح مزنخرا ، ثم وثب حصانه عبر العمود الوسطى للعربة وقضى غريغورى على الرجل قبل أن يتسنى له الوقت لحشو بندقيته من جديد ، وما ان مضت لحظة (كان يتصورها دهرا حين كانت تعود به الذاكرة اليها بعدئذ) حتى كان قد أعمل سيفه فى أربعة بحارة ، وهمّ بخامس يجرى عند منعطف الزقاق ، غير مبال بصيحات بروخور الا أن آمر السرية انطلق بحصانه فاعترض طريق غريغورى وأمسك جواده من شكيمته :

— الى أين ذاهب ؟ سيقتلونك ! عندهم مدفع رشاش ثان خلف تلك السقيفة .

وهرع قوزاقيان آخران اليه مع بروخور الذى كان قد ترجل ، فأنزلوه من على جواده عنوة . وجعل يقاوم بين أيديهم ويصيح :

— أتركونى يا خنازير ! سأقتلهم . سأقتلهم جميعا .

فتضرع اليه بروخور زيكوف قائلا :

— غريغورى بانتلايفتش ! أيها الرفيق ميليخوف ! عد الى صوابك !

فرجاهم بصوت ذاو متغير : «أتركونى ، يا اخوان !» فخلوا عنه ، وهمس آمر السرية الى بروخور قائلا :

— ضعه على حصانه ، وعد به . أظنه مريضا .

كان آمر السرية على وشك الذهاب الى حصانه حين رمى

غريغورى قبعته على الأرض ووقف يترنح . وبغتة صر بأسنانه وشاهت قسمات وجهه على نحو فظيع ، وندت عنه أنة مريعة ، وشرع يفتح أزرار معطفه . واذ خطا آمر السرية عائدا اليه خر على وجهه حيث كان واقفا ، وصدره الحاسر ازاء الثلج . وراح يبكى ويختض مع بكائه ، وشرع يلعق الثلج الذى تحت السياج كالكلب . وفى لحظة عجيبة من الصفاء الذهنى حاول أن ينهض على قدميه . ولكن ذلك كان عبثا فأدار وجهه المتضور الملطخ بالدموع الى القوزاق الواقفين حوله ، وصرخ بصوت متكسر وحشى :

— من قتلت ؟

ولأول مرة فى حياته جعل يتلوى فى نوبة عصبية وهو يصرخ ويبصق زبدا من بين شفتيه :

— اخوانى ، انا لا أستحق غفرانا . . . أقتلونى . . . قطعونى بالسيف بحق الرب ! . . . أقضوا علىّ . . .

فهرع آمر السرية وضابط فصيل اليه وألقيا نفسيهما عليه وجرداه من حقيبة الميدان وحمائل سيفه ، وسدا فمه وشدا ساقيه الى الأرض ولكنه ظل ينافح من تحتهم فترة طويلة ، مبعثرا الثلج بساقيه اللتين كانتا تخبطان بارتعاص ، وظل يدق رأسه على الارض الثرة السوداء التى حفرتها سنابك الخيل ، على الأرض التى ولد عليها وعاش فيها نصيبه الكامل من الحياة المترعة بالمصائب والضنينة بالأفراح . لا ينمو على الارض غير العشب متقبلا بلا مبالاة ما يأتيه من نور الشمس وماء المطر ، ومقتاتا على أنساغه مانحة الحياة مطأطئا هامته فى مهب العواصف العاتية . ومن ثم يذرو حبه فى الريح ويموت باللامبالاة ذاتها ، فتستقبل سيقانه الذاوية شمس الخريف بترحاب . . .

فى اليوم التالى أوكل غريغورى قيادة الفرقة الى أحد أمراء الكتائب ، وانطلق الى فيشنسكايا بصحبة بروخور زيكوف . وحين تعديا كاركينسكايا شاهدا سربا كبيرا من الاوز البرى حاطا على بركة فى وهدة عميقة . فأشار بروخور الى الاوز بسوطه وابتسم :

— جميل أن نصطاد اوزة ، يا غريغورى بانتلايفتش . انها خير ما يؤكل مع شىء من الفودكا المحلية .

فقال غريغورى :

— سنقترب منها ، وأجرب بندقيتى . كنت ذات يوم هدافا لا بأس به .

انحدرا الى الوهدة ، وتوقف بروخور مع الجوادين فوق ناصية التل فى حين خلع غريغورى معطفه ، وأحكم سداد الأمان على بندقيته ، وراح يزحف فى شعب ضيق يغطيه دغل رمادى اللون خلّفه العام المنصرم . ظل يزحف وقتا طويلا ، لا يكاد يرفع رأسه ، لكأنه يستطلع نقطة أمامية للعدو كما فعل يوم أسر الحارس الألمانى على نهر ستوخود . وكان قميصه الخاكى الحائل يماثل لون الأرض البنية المخضوضرة ، وقد ستره العشب عن العينين الحادتين للفحل الحارس الذى كان واقفا على ساق واحدة عند حافة الماء . ظل غريغورى يزحف حتى غدا بوسعه أن يحسن مرماه ، ثم رفع نفسه قليلا . فأدار الفحل عنقه الرمادى الثعبانى وراح يجيل النظر فيما حوله باحتراس . وكان الاوز يعوم فوق الماء ويغوص ويجذف . وبلغ أذنه الصوت الخافت لثرثرته وخبطه على الماء . وفكر فى نفسه : «بوسعى أن أضبط الهدف عبر سدادة مرماى» ، ثم رفع البندقية الى كتفه وقد اشتد وجيب قلبه

ثم سدد مرماه الى الفحل .

وحالما أطلق الرصاصة هب الى قدميه وقد أصم اذنيه خفق الأجنحة وصياح الاوز . وطار الفحل الذى سدد اليه الرصاصة وراح يبذل جهدا مخبولا للتحليق . أما بقية الاوز فقد ارتفع فوق البركة مثل العنقود . وأطلق رصاصتين أخريين على غيمة الطيور ، ولبث يترقب ليعرف ما اذا اصاب اوزه ، ثم دار على عقبيه ورجع الى بروخور قانطا .

وصرخ بروخور اليه : «أنظر ! أنظر !» ووثب الى سرجه وانتصب عليه وهو يؤشر بسوطه الى الاوز المتلاشى فى المدى الأزرق .

التفت غريغورى فسرت فيه رعشة الفرح وأطربته نشوة الصياد المنتصر . فقد تخلفت اوزة عن السرب وجعلت تهبط بسرعة ، وجناحاها يرفان بوهن بين حين وآخر . وراح غريغورى يراقبها وهو واقف على رؤوس أصابعه واضعا يده فوق عينيه . وفجأة سقط الطائر كالحجر ، والتمع جناحاه فى ضوء الشمس ببياض يخلب الابصار .

فدنا بروخور من غريغورى طافحا بالبشر وألقى اليه عنان جواده وانطلق الاثنان على امتداد المنخفض . فألفيا الاوزة راقدة وقد مدت عنقها ونشرت جناحيها وكأنها تحاول احتضان الأرض القاسية . فمال غريغورى فى سرجه والتقط غنيمته .

سأله بروخور :

— أين أصبتها ؟

وتبين أن الرصاصة قد نفذت خلال منقار الطائر وهشمت العظم المحيط بمحجر العين . وقد لفظ أنفاسه وهو طائر ، فانتزعه الموت من السرب وأهوى به الى الأرض . فشده بروخور

الى قربوس سرجه ، ومضيا فى طريقهما .

عبرا الدون فى قارب ، تاركين جواديهما فى قرية بازكى .

وفى فيشنسكايا توقف غريغورى فى بيت قوزاقى من معارفه القدماء ، ورجاه أن يطبخ الاوزة فى الحال ، ثم أرسل بروخور فى طلب الفودكا . ولم يحاول أن يذهب الى الأركان . ولبثوا يشربون حتى العصر وأثناء الحديث شرع القوزاقى العجوز يبث شكواه ، اذ قال :

— الرئاسة هنا تتطاول ، يا غريغورى بانتلايفتش .

فسأله غريغورى قائلا :

— أى رئاسة ؟

— جماعتنا ، كودينوف والآخرون .

— ماذا يفعلون ؟

— انهم لا يرحمون الناس الذين هم من غير القوزاق . فهم يعتقلون أهل كل من التحق بالحمر . . . يعتقلون النساء والأطفال والشيوخ . لقد حبسوا حماتى بسبب ابنها . ولكن أى معنى فى هذا ؟ لنفرض جدلا أنك التحقت بالكاديت وذهبت معهم الى الدونيتس ، فاعتقل الحمر أباك ، بانتلاى ، أفيكون هذا من الانصاف فى شىء ؟ ها ؟

— طبعا لا .

— ولكن حكومتنا تقوم الآن باعتقالهم . حين جاء الحمر الى هنا لم يسيئوا الى أحد ، ولكن جماعتنا قد مسهم الجنون ، وليس بالامكان ردعهم .

فقام غريغورى ، وهو يترنح قليلا ، ثم تناول معطفه المعلق على عمود السرير . وكان به ثمل طفيف ، وصاح :

— بروخور ! هات سيفى ومسدسى !

— الى أين ذاهب ، يا غريغورى بانتلايفتش ؟

— ليس هذا من شأنك . افعل ما تؤمر به .

وعلق غريغورى سيفه ومسدسه ، وزرر معطفه ، وتحزم بالنطاق ، وذهب الى السجن القائم على الساحة مباشرة . فاعترض الحارس المسؤول طريقه عند البوابة وطلب منه بطاقة المرور .

— تنح جانبا ، انا آمرك !

— لا يمكننى أن أدع أحدا يدخل بدون بطاقة مرور .

وقبل أن يفلح غريغورى فى استلال سيفه من غمده ، هرب الحارس خلل الباب . فتبعه غريغورى الى الممر ويده ما تزال على مقبض سيفه . وصاح :

— أريد مدير السجن .

كان وجهه ممتقعا ، وحاجباه معقودين فوق أنفه المعقوف . فجاء اليه قوزاقى قمىء أعرج وهو سجان وأطل صبى كاتب برأسه من المكتب . وبعد لحظة ظهر المدير نعسان مغتاظا . وهدر قائلا : «أنت تعرف أنك لا تستطيع بدون بطاقة . . .» ولكنه حين عرف غريغورى وحدق فى وجهه تأتأ قائلا :

— هو أنت ، يا صاحب الـ . . . أيها الرفيق ميليخوف ؟ ماذا تريد ؟

— مفاتيح الزنزانات .

— الزنزانات ؟

— حسناً ، أينبغى لى أن أقولها عشر مرات ؟ أعطنى المفاتيح ، يا وغد .

وخطا غريغورى نحو الرجل ، فتقهقر هذا . الا أنه استطاع أن يجيب بثبات :

— لن أعطيك المفاتيح . ليس من حقك . . .

— حق ! — وصر غريغورى بأسنانه واستل سيفه . فرسم السيف الصافر بيده دائرة تحت سقف الممر الواطئ . ولاذ الكاتب والسجان بالفرار كعصفورين فزعين ، والتصق المدير بالحائط ، وقد غدا وجهه أشد بياضاً من الجبس ، وهس من بين أسنانه :

— خذها . . . ولكنى سأرفع عليك شكوى .

— سأعطيك سبباً جيداً للشكوى ! انتم اعتدتم على حياة المؤخرة بعيداً عن الجبهة أكثر من اللازم . يا لكم من رجال شجعان ، تعتقلون النساء والشيوخ ! سأهزكم كلكم هزاً : رح الى الجبهة ، أيها الخنزير ، والا فانى سأذبحك فى مكانك .

ثم أعاد غريغورى سيفه الى غمده ولطم المدير المرتعب بجمع يده وراح يسوقه بركبته وقبضته الى الباب الخارجى وهو يهدر :

— الى الجبهة ! هيا ! هيا ! اللعنة عليكم . . . يا قمل المؤخرة !

ثم دفع الرجل خارجاً وحين سمع ضوضاء فى باحة السجن الداخلية هرع الى هناك . كان ثلاثة سجانين واقفين عند مدخل المطبخ ، وأحدهم يمسك بندقية يابانية صدئة وهو يصيح بعجالة :

— السجن يتعرض لغارة . علينا أن نطرده ، ماذا تقول التعليمات القديمة ؟ ماذا تقول التعليمات القديمة ؟

فأخرج غريغورى مسدسه ، فهرع السجانون الى داخل المطبخ عجالى يسابق بعضهم بعضا .

هدر غريغورى : «أخرجوا كلكم واذهبوا الى بيوتكم !» وفتح أبواب الزنزانات المزدحمة وهو يهز قبضة من المفاتيح . وأطلق سراح كل المساجين ، وكانوا زهاء مائة شخص ، وأخرج بالقوة أولئك الذين كانوا يخافون الخروج ، وساقهم الى الشارع

ثم أوصد أبواب الزنزانات الخاوية !

وبدأ حشد من الناس يتجمع خارج بوابة السجن . وتدفق السجناء الذين أطلق سراحهم الى الساحة وخفوا الى بيوتهم . وجاء قوزاق الحرس من داخل مقر هيئة الاركان يتراكضون عبر الساحة الى السجن يصحبهم كودينوف وهو يتعثر .

وكان غريغورى آخر من غادر السجن الخاوى . وفيما كان يمر خلال الحشد أطلق سيلاً من السباب على جمهور من نسوة فضوليات علت ثرثرتهن . وسار ببطء ، محدودب الكتفين ، ليلقى كودينوف . واذ عرفه الحرس القوزاق الذين كانوا يهرولون عبر الساحة ، أدوا له التحية ، فصاح بهم :

— عودوا الى مقركم ، يا أولاد ! علام تتراكضون ؟ عادة سر !

— سمعنا أن هناك تمرداً فى السجن ، أيها الرفيق ميليخوف .

— جاء الينا صبى كاتب راكضاً وقال ان الرجل الاسمر يحطم الاقفال .

فرد عليهم : — كان ذلك انذارا كاذبا .

فعاد القوزاق أدراجهم يتضاحكون ويثرثرون . فأسرع كودينوف يتقدم الى غريغورى ، وهو يمسد شعره الطويل المتدلى من تحت قبعته . وصاح :

— مرحباً ، ميليخوف ! ما الأمر !

— سلامتك ، يا كودينوف ! اقتحمت سجنكم لتوى .

— على أى أساس ؟ ما لعبتك ؟

— أخرجتهم جميعاً . علام تحدق ؟ على أى أساس كنتم تعتقلون النساء والشيوخ ؟ ما هذه اللعبة التى تلعبونها ؟ احذر يا كودينوف !

— لا تتصرف على هواك . هذا تسلط .

— سأرسلك الى قبرك ! سأعود بكتيبتى من كاركينسكايا فى الحال ، وحينذاك سأريك ما هو التهور !

وفجأة أمسك غريغورى كودينوف من حزامه الجلدى القفقاسى ، وأخذ يهزه وهو يهمس بغيظ بارد :

— سأفتح الجبهة فى الحال ، ان كان ذلك يروق لك . سوف أخرج روحك من جسدك ها هنا ان أردت ذلك .

وصر على أسنانه ثم حل قبضته عن كودينوف الذى كان يبتسم بهدوء . وسأله : «علام تكشر ؟» .

فسوى كودينوف حزامه ، وأمسك بغريغورى من ذراعه قائلاً :

— تعال معى الى غرفتى . لماذا فار دمك ؟ ينبغى أن نرى كيف تبدو . . . كالشيطان بعينه ! كنا نتطلع الى مجيئك . أما عن السجن ، فليس هذا أمراً ذا بال . أطلقت سراحهم ، ولا بأس ، لا ضير فى ذلك . سأقول للاولاد ألا يتشددوا فى اعتقال النساء اللواتى يحارب أزواجهن فى صفوف الحمر . ولكن ما الذى يجعلك تقوض سلطاننا هنا ؟ آه ، يا غريغورى ، انك لفتى عنيد . كان يوسعك أن تأتى الينا وتقول : ينبغى اطلاق سراح السجناء ، أو ما الى ذلك . لكان بامكاننا آنذاك أن نراجع القوائم ونطلق سراح البعض منهم . ولكنك أطلقت سراحهم جميعاً . لقد أحسنا صنعاً بعزل المجرمين الخطرين عن البقية . فلو أنك أطلقت سراحهم . . . يا لك من رجل حاد الطبع !

وصفق على كتف غريغورى وضحك ، ثم أردف :

— حتى انت يمكن فى حال كهذه ان تقتل أى رجل يحاول أن يعترض عليك . وأسوأ من هذا أنك شرعت فى اثارة القوزاق . . .

فانتزع غريغورى ذراعه من قبضة كودينوف وتوقف خارج مقر هيئة الأركان :

— أصبحتم كلكم شجعانا هنا ، وراء أظهرنا . ملأتم السجون بالناس ! بوسعكم أن تظهروا قابلياتكم هناك فى الجبهة .

— أظهرتها فى أيامى ولست أسوأ منك . أنا الآن على الاستعداد لأن أفعل ذلك . تعال خذ مكانى ، وسأتولى أنا فرقتك .

— كلا ، شكراً .

— تلك هى المسألة تماماً .

— ولكننا نضيع وقتاً طويلاً هنا فى الحديث دونما طائل . انا ذاهب الى أهلى لاستراح بضعة ايام . لست فى حالة جيدة . جرحت فى كتفى .

— ماذا تشكو ؟

فابتسم غريغورى ساخراً :

— الحنين ليتأكلنى . قلبى مسحوق .

— لا ! ولكن دعك من المزاح ، ماذا به ؟ لدينا طبيب بين الأسرى هنا ، وقد يكون أستاذاً ، كان يرافق البحارة فى شوميلينسكايا . انه رجل مهيب الطلعة يضع عوينات سوداء . دعه يعاينك .

— ليذهب الى الشيطان .

— حسناً اذاً ، اذهب الى أهلك واسترح . لمن أوكلت قيادة الفرقة ؟

— لريابتشيكوف .

— ولكن انتظر لحظة . ما الداعى للعجلة ؟ أخبرنى بما يجرى فى الجبهة . بلغنى احد البارحة انك قتلت عدداً لا يحصى

من البحارة فى كليموفكا . أصحيح هذا ؟

— مع السلامة — وسار غريغورى مبتعداً ، ولكنه حين قطع بضع خطوات ، استدار نصف استدارة وصاح : «إن سمعت أنكم بدأتم فى الاعتقالات ثانية . . .»

— لا ، لا تقلق . . . تمتع براحة جيدة .

كان النهار ينسحب الى الغرب فى اثر الشمس . وتسللت ريح قارصة من الدون . وطار من فوق غريغورى سرب من البط البرى وقد علا حفيف أجنحتها . وفيما كان غريغورى يدخل فناء الدار بلغ أذنيه قصف المدافع من أعالى النهر .

فأسرج بروخور الجوادين بسرعة ، وسأل فيما كان يقودهما خارجاً :

— الى أين ؟ تتارسكى ؟

فأخذ غريغورى الأعنة ، وأومأ برأسه ايجاباً .

٤٦

كانت تتارسكى تحيا فى غياب القوزاق حياة خاوية ملؤها السأم . كان رجالها قد جندوا فى سرية مشاة وأرسلوا عبر الدون للالتحاق مؤقتاً باحدى كتائب الفرقة الخامسة .

كانت قطعات الحمر قد عززت فشنت من الشمال الشرقى هجوماً عنيفاً فاستولت على عدد من القرى وأخذت تتقدم صوب يلانسكايا . ولكن النصر حالف المتمردين فى الاشتباك العنيف الذى أعقب ذلك . وكان ذلك لأن كتيبتى يلانسكايا وبوكانوفسكايا المتقهقرتين أمام كتيبة موسكو التابعة للجيش الأحمر وسريتين من الخيالة قد وصلتهما امدادات قوية . وقد أرسلت كتيبة المتمردين

الرابعة التابعة للفرقة الاولى (التى ضمت سرية تتارسكى) وبطارية من ثلاثة مدافع ، وسريتين من الخيالة الاحتياط ، صعدا على امتداد الضفة اليسرى من الدون فيما حشدت امدادات قوية فى القرى التى تواجه يلانسكايا تقريباً . ونصبت بطارية على التل المطل على كريفسكايا . وكان أحد المدفعيين ، وهو قوزاقى من تلك القرية ، مشهوراً بدقة رمايته ، فسحق أحد مكامن الرشاشات الحمر بقذيفته الأولى ، وبقذيفتين أو ثلاث من قذائف المنثار ، وألحق الهزيمة بجنود الجيش الأحمر المتسترين فى أجمة من الصفصاف . فانتهت المعركة لصالح المتمردين وراحوا يتعقبون وحدات الحمر عبر نهر يلانكا ، وأرسلوا وراءهم احدى عشرة سرية من الخيالة فألحقت سرية من خيالة الحمر وأعملت فيها القتل والذبح على التل القريب من قرية زاتولوفسكى .

ومنذ تلك المعركة ظل مشاة تتارسكى يجرون الخطى على التلال الرملية الواقعة فى الجانب الأيسر من الدون . ونادراً ما تيسر لأى منهم أن يعود الى قريته باجازة . وحدث مرة واحدة فحسب فى عيد الفصح أن عاد نصف سرية تتارسكى المشاة الى القرية وكان بينهم اتفاقاً سرياً ، فأمضوا هناك يوماً ، وغيروا ملابسهم ، وتزودوا بشحم الخنزير ، والخبز المقسب ، وسواهما من المأكولات ، ثم عبروا الدون مثل جمع من الحجاج يحملون البنادق بدل العصى ، ومضوا يجرجرون الخطى شطر منطقة يلانسكايا. وقد وقفت زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم على التل المطل على تتارسكى يرقبنهم وهم يمضون فى مسيرتهم . وكانت النسوة يعولن حزناً ، فيمسحن عيونهن بأطراف عصاباتهن ومناديلهن ، ويتمخطن فى أذيال تنوراتهن الداخلية . وعلى امتداد الضفة الأخرى من الدون ، وفوق الكثبان الرملية مضى القوزاق يغذون السير : كريستونيا

وأنيكوشكا وبانتلاى بروكوفتش وستيبان أستاخوف وآخرون . وكانت الأكياس التى تضم زادهم مدلاة من حرباتهم المثبتة على البنادق ، والريح تحمل أناشيدهم ، حزينة كعطر النمّام البرى ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بفتور . ساروا حزانى ، بيد أن الشبع والنظافة كانا باديين عليهم . فقد سخنت زوجاتهم وأمهاتهم الماء عشية العيد وغسلن أجسامهم الكالحة من القذارة ، ومشطن القمل المترع بالدم من شعورهم . فلم لا يبقون بين أهليهم ينعمون بمسرات الحياة ؟ ولكن لا ، كان عليهم أن يرحلوا لملاقاة الموت . وقد رحلوا . كان بينهم صبيان فى السادسة عشرة والسابعة عشرة من العمر قد جندوا حديثاً فى صفوف المتمردين . فخلع هؤلاء صنادلهم وجزماتهم وساروا حفاة على الرمل الدافئ . كانوا فى غمرة فرح لا يدرون له سبباً ، وبوسعهم أن يتحدثوا بمرح ويشرعوا فى الغناء بأصواتهم الفتية الراعشة . كانوا يجدون فى الحرب طرافة كالتى يجدونها فى لعبة جديدة . وكانوا أثناء الأيام الأولى من القتال يرفعون رؤوسهم من على الأرض القاسية لينصتوا الى الرصاص يئز من فوقهم . وكان قوزاق الجبهة يزدرونهم ويلقبونهم بـ «الحلفاء الخضراء» فيما يعلمونهم حفر الخنادق والرمى وحمل تجهيزاتهم أثناء السير ، وكانوا يعلمونهم حتى فن تغلية قملهم ولف قماش أقدامهم بحيث لا يكادون يحسون بجزماتهم الثقيلة على أقدامهم . ولكن الصبى يجبل حول الحرب التى تحيط به عينا مستغربة كعين الطائر رافعاً رأسه ليتطلع من الخندق وقد ألهبه الفضول جاهداً ما وسعه أن يرى «الحمر» حتى تصيبه رصاصة جندى أحمر ، وهو فى غمرة هذا الفضول . فاذا ما كانت المنية نصيب هذا «الجندى» ذى السادسة عشرة تمدد ليرقد كطفل كبير بذراعيه الصبيانيتين البضتين ، وأذنيه الكبيرتين وتباشير

جوزة الحلق فى عنقه النحيف ، ومن ثم يحملونه الى قريته ليوارى فى القبر حيث يتعفن أسلافه . فتلقاه أمه وهى تعصر يديها وتنوح على جثمانه وتجز الشعر الأشيب من رأسها . وحين توارى الجثة ويبدأ الطين فى الجفاف على رابية القبر ، تحمل الأم الهرمة المحدودبة أحزانها التى لا ينطفئ أوارها الى الكنيسة ، وهناك تحيى ذكرى ولدها الذى «مات وارتحل» .

أما اذا لم تصبه الرصاصة بجرح مميت ، فان الصبى يبدأ حينذاك فى ادراك طبيعة الحرب التى لا ترحم فتختلج شفتاه وتلتويان ، فيصرخ «الجندى» بصوت طفولى : «آه ، أماه ، أماه !» وتسيل عبرات صغيرة من عينيه . ثم تخضه عربة الاسعاف خضاً على الحقول التى لم يمهد فيها طريق فيؤلم جرحه ، ويغسل مضمد السرية الجرح ويواسيه ضاحكاً وكأنه يواسى طفلاً : «كفاك ، يا فانيا ، لا تقل انك ستموت !» ولكن فانيا «الجندى» يمضى فى بكائه ، ويستأذن فى الذهاب الى أهله أو استدعاء أمه . واذا ما تماثل للشفاء وعاد الى سريته ، فانه حينذاك سيفهم الحرب كل الفهم . ولن يمضى أسبوع أو أسبوعان فى المعارك ، فى القتال بالحراب ، حتى تراه واقفاً أمام جندى أسير من الجيش الاحمر ، وقد باعد بين قدميه ، يبصق شأن أى رئيس عرفاء فظ ، وتسمعه يفح خلال أسنانه ليقول : «حسناً ، أيها الفلاح ، اذاً فقد وقعت فى الفخ ، أيها النغل ! كنت تريد الأرض اذا ؟ وتريد المساواة ؟ أحبك شعوبيا * ، هيا تكلم ، أيها الثعبان !» ولهفة منه لاظهار جرأته ، وبسالته القوزاقية» يرفع بندقيته ويقتل الرجل الذى عاش ومات

---

* يقصد «شيوعيا» . **المترجمون** .

على أرض الدون ، محارباً من أجل الحكم السوفييتى ، فى سبيل الشيوعية ، فى سبيل الغاء الحرب من على وجه البسيطة .

وفى موضع ما فى اقليم موسكو أو فى اقليم فياتكا ، فى قرية نائية من قرى روسيا السوفييتية الكبرى ، تتلقى أم اشعاراً بأن ولدها قد «استشهد فى حومة النضال ضد الحرس الأبيض ، فى سبيل تحرير الكادحين من نير الملاكين والرأسماليين» . وتعول ، والدموع تنساب على وجنتيها . ويتأكل الحزن المستعر قلب الام ، وفى كل يوم حتى مماتها ستذكر ذاك الذى حملته فى رحمها ، وولدته فى غمرة الدم وعذاب المرأة ، ذاك الذى سقط على يد عدو فى مكان ما فى أصقاع الدون الغريبة . . .

سار نصف سرية مشاة تتارسكى فوق الكثبان الرملية وخلال أشجار الصفصاف الوردى . كان الفتيان يسيرون فرحين لا تثقل كواهلهم الهموم ، أما الكبار فكانوا يرسلون الحسرات ويبكون دموعاً لا تراها العين . فقد آن أوان الحراثة ، والبذار ، فالأرض ما انفكت تناديهم ، تناديهم ليل نهار ، بينما يتأتى عليهم المضى الى القتال ، ومعاناة الضنى فى قرى غريبة من جراء البطالة المفروضة عليهم ، والخوف ، والفاقة ، والحنين . ذاك هو ما استدر العبرات من عيون الرجال الملتحين ، وما نشر الكآبة فوق رؤوسهم وهم سائرون . ويتذكر الجندى حقله المهجور وحيواناته وأدواته . فكل شىء يحتاج الى يد الرجل ، وكل شىء ينوح فى غيبة السيد المشرف . فما عسى المرأة فاعلة ؟ ستجف الأرض فلا ينبت الزرع ، وستلوح نذر المجاعة فى العام المقبل . فليس عبثاً أن يقال : حتى الشيخ أفضل من المرأة فى الحقل .

وهكذا سار الكبار على الرمل صامتين . ولم تدب فيهم الحياة الا حين أرسل أحد الفتيان رصاصة فى أعقاب أرنب برى .

فقرر الكهول معاقبة المخالف لتبذيره تلك الرصاصة المفيدة (اذ كانت قيادة المتمردين قد منعت ذلك منعاً باتاً) فانصب غضبهم على رأسه . واقترح بانتلاى بروكوفتش :

— يستحق اربعين جلدة .

— هذا فوق طاقته .

— فلن يستطيع بلوغ الجبهة بعد ذلك .

وهدر كريستونيا قائلاً :

— ست عشرة .

وقر قرارهم على الست عشرة ، فمددوا المذنب على الرمل وأنزلوا سرواله . وراح كريستونيا يترنم بلحن ما وهو يقتطع أغصاناً من صفصاف الهر تغطيها عراجين صفر منفوشة . وتولى أنيكوشكا الجلد فيما جلس الآخرون يدخنون من حوله . ثم استأنفوا مسيرتهم ، والمسكين من ورائهم يجرجر خطاه ويمسح دموعه ويشد حزامه .

وما ان بلغوا نهاية الأرض الرملية البور وخرجوا الى الأرض الصالحة للزراعة حتى بدأ الحديث الهادئ .

تنهد أحد الشيوخ وهو يشير الىّ رقعة من الأرض قد جفت تماماً :

— تلك هى الأرض الحبيبة فى انتظار سيدها ، وهو فى شغل شاغل عنها ، يجرى فى الفيافى والوديان لأمر لا يعلم كنهه الا الشيطان .

واذ مروا بحقول انحنى كل قوزاقى ، والتقط كتلة من التربة الجافة التى لفحتها الشمس وفتتها بين راحتيه ، وهو يكظم حسرة :

— الأرض تنتظر .

— انها تنتظر المحراث بكل لهفة .

— ثلاثة أيام أخر ويفوت أوان البذار هنا .

— الربيع مبكر فى صوبنا .

— مبكر ! ألا ترى الثلج ما يزال جاثماً فى الأخاديد !

وتوقفوا لينالوا استراحة الظهيرة . وقدم بانتلاى بروكوفتش الى الصبى المعاقب شيئاً من اللبن الراثب . وكان قد حمله فى كيس من الكتان شد الى نهاية ماسورة بندقيته ، والماء يقطر من الكيس طوال الطريق وقد عاب أنيكوشكا عليه قائلاً : «انك تترك وراءك مسرباً مثل ثور هرم ، يا بروكوفتش» . واذ كان بانتلاى بروكوفتش يقدم اللبن الى الصبى ، قال له :

— لا تحنق على من هم أكبر منك سناً ، أيها الأحمق الصغير . لقد جلدوك ، وهذا أمر تافه ، ان فتى مجلوداً خير من اثنين لم يجلدا .

— لو أنك ذقت طعمها ، أيها العم بانتلاى بروكوفتش ، لما تحدثت الىّ هذا الحديث .

— ذقت ما هو أمرّ من هذا ، يا ولدى . لقد ضربنى والدى ذات مرة بعريش عربة على ظهرى .

— بعريش عربة ؟ !

— نعم . لماذا تنظر الىّ ؟ عليك ان تأكل من لبنى . أين مقبض ملعقتك ؟ كسرته ، أليس كذلك ؟ يا لك من جرو ! انهم لم يجلدوك هذا الصباح بما فيه الكفاية .

وبعد أن تناولوا وجبة الغداء استراحوا فى هواء الربيع العاصف . وأغفوا بعض الوقت وظهورهم الى الشمس ، ثم راحوا يسيرون فى السهب ذى اللون البنى والرمادى ويطأون جذامات الزرع التى لم يقلبها المحراث . كانوا يرتدون قمصلات ، ومعاطف ، ومعاطف رعاة ، وفروات ، وكان لدى بعضهم جزمات ، أو صنادل وقد دسوا سراويلهم الفضفاضة فى جوارب بيض ، بينما

كان البعض حفاة تماماً . وكانت أكياس زادهم مدلاة من حرابهم المثبتة على بنادقهم .

لم تكن سيماء الجند بادية على رجال هذه السرية من الهاربين ، حتى أن القبرات التى كانت تغرد فى قبة السماء الزرقاء تحط على الحشيش بالقرب من أقدامهم .

• • •

ألفى غريغورى القرية خلواً من القوزاق . وفى صباح اليوم التالى لوصوله وضع ابنه ميشاتكا الذى بدأ يشتد عوده على حصانه وطلب اليه أن يورده من الدون ثم ذهب هو وناتاليا لزيارة حماته وغريشاكا العجوز .

فاستقبلته لوكينشنا بالدموع :

— غريشا ، يا بنى ! نحن لا محالة هالكون بدون ميروننا ، رحمة الله على روحه . المخازن طافحة بالحب ، ولكن ليس هناك من يبذره . لقد تيتمنا ، ولم يعد أحد يلتفت الينا ، اننا غرباء بين أهلينا ، منبوذون . . . أنظر كيف يحل الدمار والخراب فى بيتنا ، فليس لدينا من يقوم بالعمل .

كان البيت ، والحق يقال ، قد آل الى خراب سريع . فقد كسرت الماشية الأسيجة المحيطة بالأفنية ، وتأكلت مياه الربيع الجدار الطينى للزريبة فبدأ ينهار ، وأمست ساحة درس الحبوب بلا سياج . وبدا الحوش قذراً ينتشر الروث فى أرجائه ، وكان ثمة مكائن زراعية معطوبة يعلوها الصدأ ملقاة عند السقيفة . كانت أمارات الاهمال والسوس بادية فى كل مكان .

واذ راح غريغورى يجوب الفناء فكر فى نفسه قائلاً دون

اكتراث : «كل شىء سائر الى خراب فى غياب السيد» . وعاد الى المنزل فوجد ناتاليا تهمس لأمها . ولكن ما ان ظهر حتى خلدت الى الصمت وافترت عن ابتسامة ملق ، وقالت :

— كانت ماما تسألنى ، يا غريشا . . . أنت خارج الى الحقول غداً . لعلك تبذر لها شيئاً من الأرض .

فسأل غريغورى قائلاً :

— ولكن ما حاجتك الى بذار أى شىء ، يا أماه ؟ ان مخازنك طافحة بالقمح .

فصفقت لوكينشنا يديها وسألته قائلة :

— ولكن ، يا غريشا ، ماذا عن الأرض ؟ لقد حرث ميروننا الراحل رقعة كبيرة من الأرض .

— حسناً ، ما بالها ؟ ستحول • اذا بقينا على قيد الحياة فى الربيع المقبل فسنزرعها .

— ولكن كيف يمكن أن ندع الأرض تبور ؟

وحاول غريغورى أن يقنعها فقال :

— بوسعكم أن تبذروا عند انحسار سوح القتال .

على أن لوكينشنا لم تتزحزح عن مطلبها قيد أنملة . فغضبت عليه ، وفى آخر الأمر زمت شفتيها المرتجفتين ، وقالت :

— اذا لم يتيسر لك الوقت . . . يظهر أنك لا تود مساعدتنا .

— أوه ، حسناً ! اننى ذاهب غداً للبذار لنا ، وسوف أبذر شيئاً لكم . يكفى هذا . هل غريشاكا ما يزال حياً ؟

فتألقت أسارير لوكينشنا فى الحال وقالت :

— شكراً ، شكراً ، سأخبر أغريبينا أن تجلب البذور

• تترك دون زرع الى الموسم التالى . **المترجمون** .

اليكم هذا اليوم . الجد ؟ الرب لا يأخذه الى جواره . ما زال حيا ولكنه خرف بعض الشيء . انه يجلس فى البيت طول الوقت ويقرأ الكتاب المقدس طول الليل . انه بعض الأحيان يظل يتكلم ويتكلم دون أى معنى . . . يتحدث بلغة الكنائس . بوسعك أن تذهب لتراه ، انه فى الغرفة الأمامية .

وقالت ناتاليا وهى تبتسم خلال دموعها :

— مررت لتوى به فقال لى : أيتها السفيهة لماذا لا تأتين لزيارتى أبداً ؟ سأموت قريباً ، يا عزيزتى . سأدعو الله لك يا حفيدتى الصغيرة . اننى أحن الى التراب ، يا عزيزتى ، التراب يناديني . فقد آن الأوان !

ذهب غريغورى لرؤية الشيخ فملأت منخريه رائحة البخور والسناخة والعفن ، رائحة رجل هرم رث الهيئة . كان غريشاكا ما يزال يرتدى قمصلته العتيقة الرمادية بشرائط ياقتها الحمر ، وكان بنطاله فى هيئة حسنة وجورباه مرتوقين جيداً . فمنذ زواج ناتاليا آلت العناية بالشيخ الى حفيدته الثانية أغريبينا ، فراحت تعنى به عناية فيها من الحب والاهتمام ما كانت ناتاليا توليه اليه . كان ممسكاً بانجيل على ركبتيه . فرفع الى غريغورى نظره من تحت عويناته ، وفغر فاه ، وكشر عن أسنانه مبتسماً :

— ما زلت سالماً ، أيها الجندى ؟ اذا فقد حماك الرب من الرصاص . . . الحمد لله ! اجلس .

— اذاً فأنت ما تزال بصحة جيدة ، يا جدى ؟

— هاه ؟

— قلت أما تزال بصحة جيدة ؟

— انت فتى غريب ، غريب . كيف يمكن ان أكون بصحة جيدة فى عمرى هذا ؟ أكاد أبلغ المائة الآن . أجل ،

قرابة المائة . كأننى فى الامس فقط كنت أجول بخصلتى وأنا شاب معافى . وكأننى قد أفقت اليوم لأجد نفسى عفناً فى عفن . مرت الحياة مثل وميض البرق . ها قد مضت هذه السنون العديدة وتابوتى ملقى فى السقيفة ، ولكن يبدو أن الرب قد نسينى . انى أتضرع اليه أحياناً فأقول : رباه أدر عينك الروم الـىّ ، أنا عبدك غريشاكا . فأنا عبء على الأرض وهى عبء علىّ .

— أمامك عمر طويل ، أيها الشيخ . ان فمك مملوء بالأسنان .

— ماذا تقول ؟

— عندك أسنان كثيرة .

وغضب غريشاكا قائلاً :

— اسنان ! انك أحمق يا فتاى ! لن تستطيع أن تبقى على روحك بأسنانك حينما تهم الروح بمغادرة الجسد . اذاً فما زلت تقاتل يا ابله ؟

— أجل ، ما زلنا نقاتل .

— ويقاتل حفيدى ميتيا ايضاً . سيتعذب بما فيه الكفاية .

— سيتعذب حتماً .

— هذا ما قلته . ولكن من أجل ماذا تقاتلون ؟ أنتم أنفسكم لا تعرفون . كل شيء يجرى وفق الارادة الالهية . ما سبب مقتل ميرون ؟ لانه عصى الله ، فاثار الناس على الحكومة ، وما الحكومات الا من عند الله جميعاً . حتى وان كانت حكومة أعداء المسيح ، فهى من الله أيضاً ، قلت لميرون : «ميرون ، لا تقد الناس الى الغواية . لا تثرهم على الحكومة» . ولكنه قال : «كلا يا أبتى ، لا أستطيع احتمالها . علينا أن نثور ، علينا أن نحطم هذه الحكومة ، انها تسبب لنا الخراب . كنا

يوماً نعيش عيشة الرجال ، ولكن ها «نحن الآن أمسينا محضر شرذمة من الشحاذين» . وهكذا أذعن ميرون للغواية . من يشهر السيف يموت بالسيف . تلك حقيقة . يقول الناس انك نصبت جنرالاً وانك تتولى قيادة فرقة ، يا غريشا . أصحيح هذا ؟

— أجل .

— ولكن أين هى شارات الكتف ؟

— لا نستعملها الآن .

— لا تستعملونها الآن ! أى جنرال أنت ، اذاً ؟ فى الأيام الخوالى كان مرأى الجنرالات يسر الناظرين : كانوا ذوى صحة جيدة ، ضخام البطن ، مهيبى الطلعة . ولكن ها أنتذا . . . أنظر الى نفسك ! معطفك كله ملطخ بالوحل ، وليس عليك شارات كتف ، ولا قياطين بيض عبر صدرك ، انك تعج بالقمل ، لعمرى لقد أكلك القمل .

فانفجر غريغورى يهدر ضاحكاً . ولكن غريشاكا مضى فى كلامه بحماس :

— لا تضحك ، يا وغد ! انت تقود الرجال الى حتفهم ، أثرتهم على الحكومة . ارتكبتم اثماً كبيراً ، سوف يهلكونكم ويهلكوننا معكم . سيريكم الله مشيئته . ألم ينبئنا الانجيل بمتاعب عصرنا هذا ؟ اصغ الىّ وساقرأ لك شهادة النبى أرميا .

وجعل الشيخ يقلب صحف انجيله الصفر بأصابعه الشاحبة ، وشرع يقرأ ، وهو ينطق بكل مقطع على مهل * :

«أخبروا فى الشعوب واسمعوا وارفعوا راية . اسمعوا لا تخفوا .

---

* آثرنا نقل هذه الآيات بنصها من النسخة العربية للانجيل (العهد القديم) : سفر أرميا — اصحاح ٥٠ . **المترجمون** .

قولوا أخذت بابل . خزى بيل . انسحق مردوخ . خزيت أوثانها انسحقت أصنامها . لانه قد طلعت عليها أمة من الشمال هى تجعل أرضها خربة فلا يكون فيها ساكن . من انسان الى حيوان هربوا وذهبوا» . أتفهم ذلك ، يا غريشا ؟ سيأتون من الشمال ويزهقون أرواحكم ، أيها البابليون . واصغ الى هذا :

«فى تلك الايام وفى ذلك الزمان يقول الرب يأتى بنو اسرائيل هم وبنو يهوذا معاً يسيرون سيراً ويبكون ويطلبون الرب الههم» .

«كان شعبى خرافاً ضالة . قد أضلتهم رعاتهم . على الجبال أتاهوهم ساروا من جبل الى أكمة . نسوا مريضهم» .

وسأله غريغورى دون أن يفهم الا القليل من تلك اللغة القديمة :

— ولكن ما قصدك ؟ كيف لنا أن نفسر كل هذا ؟

— كذلك أنتم ، يا وغد ، ستهربون الى التلال يا مقلقى راحة الشعب . لستم رعاة للقوزاق ، بل انتم أسوأ من شياه قطيعكم البلهاء . انتم لا تعرفون ما تفعلون . اصغ الى هذا : «كل الذين وجدوهم أكلوهم» أرأيت ! ألا يلتهمكم القمل الآن ؟

واعترف غريغورى قائلاً : «لا مهرب من القمل» .

— وهكذا ينطبق القول عليكم تماماً . — ثم يمضى فى قوله : — «وقال مبغضوهم لا نذنب من أجل أنهم أخطأوا الى الرب مسكن البر ورجاء آبائهم الرب . أهربوا من وسط بابل واخرجوا من أرض الكلدانيين وكونوا مثل كراريز أمام الغنم» .

«لأنى ها أنذا أوقظ وأصعد على بابل جمهور شعوب عظيمة من أرض الشمال فيصطفون عليها . من هناك تؤخذ . نبالهم كبطل مهلك لا يرجع فارغا» .

«وتكون أرض الكلدانيين غنيمة . كل مغتنميها يشبعون يقول الرب : لأنكم قد فرحتم شمتم يا ناهبى ميراثى . . .»

فقاطعه غريغورى قائلاً : — أيها الجد غريشاكا ! هلا فسرت لى هذا كله بلغة بسيطة . فلست أفهم من كل هذا شيئاً .

ولكن الشيخ راح يلوك شفتيه ، ومحدقاً فيه بنظرة شاردة ، وأجاب :

— سأنتهى خلال دقيقة . اصغ ! «. . . وقفزتم كعجلة فى الكلاء وصهلتم كخيل . تخزى أمكم جداً . تخجل التى ولدتكم ، ها ، آخرة الشعوب برية وأرض كاشفة وقفر . بسبب سخط الرب لا تسكن بل تصير خربة بالتمام . كل مار ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها» .

فسأله غريغورى ثانية وقد أحس بشىء من الامتعاض :

— ولكن ما معنى كل ذلك ؟

فلم يجب الشيخ ، بل أغلق الانجيل ورقد على الاريكة . وفيما كان غريغورى يبارح الغرفة فكر فى نفسه قائلاً : «كل الناس على هذه الشاكلة . ففى شبابهم ينعمون بحياة سعيدة ، فيشربون ما يتيسر لهم من الفودكا ، ويأثمون شأن غيرهم . وفى شيخوختهم يشتد سعيهم لانقاذ أنفسهم من غضب الله على قدر طيشهم أيام الشباب . ها هو غريشاكا ، لا زالت لديه أسنان كأسنان الذئب . يقولون انه حين كان يعود الى القرية من الخدمة العسكرية كانت نساء القرية يبكين جميعاً بسببه ، فقد كن طوع بنانه كلهن ، النحيفة فيهن والسمينة . وها هو الآن . . . لو بلغت مثل عمره فلن أصير على شاكلته فلست أنا من عشاق الانجيل» .

وفيما كان غريغورى وناتاليا عائدين الى البيت من زيارتهما جعل يفكر بحديثه مع الشيخ ، و«نبوءات» الانجيل الغامضة المبهمة .

ومضت ناتاليا أيضاً هى الأخرى تسير دونما كلام . لقد أبدت لزوجها برودا غير مألوف منذ عودته هذه ، والظاهر أن حكايات عن سلوكه مع نساء منطقة كاركينسكايا قد طرقت أذنيها . ففى مساء اليوم الذى عاد فيه ، أعدت فراشه فى غرفة الاستقبال ، أما هى فقد نامت فوق الصندوق وغطت نفسها بفروة . ولم تنبس بكلمة لوم أو تتوجه اليه بأى سؤال . ولم يقل غريغورى هو الآخر شيئاً فى تلك الليلة شاعراً أن من الأفضل ألا يسألها عن السبب فى استقبالها له بفتور لم يعهده من قبل .

سارا فى الشارع المهجور صامتين ، واشتد بهما شعور البعد عن بعضهما . كانت ريح دافئة رؤوم تهب من الجنوب ، وتجمعت فى الغرب سحب بيض . وتناهى اليهما هدير رعد بعيد ، وتعطرت القرية بعطر الحياة المبارك تنشره البراعم المتفتحة والتربة الندية السوداء . وتسابقت أمواج بيض أعرافها على صفحة الدون الزرقاء حيث كانت الريح منعشة برطوبتها مرة برائحة الأوراق المتعفنة والأخشاب الندية . وكان البخار يتصاعد من الطرف الأدنى للأرض المحروثة وهى رقعة سوداء كالمخمل تقع على امتداد سفح التل ، وشرع ضباب يرتفع وينساب فوق التلال الواقعة على جانب الدون . وراحت قبرة تغرد فوق الطريق بنشوة عارمة ، وكانت الغربان البرية تصيء . ومن فوق هذه الأرض ، التى تطفح بعطاء سخى وطاقة موفورة تنبض بالحياة ، تعلقت شمس سامقة شموخ .

توقفت ناتاليا فى وسط القرية على مقربة من جسر صغير يعلو أخدوداً تضج فيه مياه الفيضان . وانحنت وكأنها تشد شريط حذائها ، ولكنها فى الواقع كانت تريد أن تخفى وجهها عن غريغورى حين سألته :

— لِمَ لا تتكلم ؟

— حسناً ، عم أتكلم ؟

— هناك مواضيع كثيرة للكلام . ربما أخبرتنى كيف كنت تسكر فى كاركينسكايا ، وكيف كنت تجرى وراء العاهرات . . .

— يبدو أنك تعرفين ذلك . . .

وأخرج غريغورى كيس تبغه وشرع يلف لنفسه سيكارة . وقد اشتعل مزيج البرسيم والتبغ المنزلى بأريج ذكى ، فأخذ نفساً أو نفسين ، ثم عاد يسألها :

— اذا فقد سمعت بالامر ؟ من أخبرك ؟

— بما أنى أستطيع التحدث فى الامر ، فلا شك أنى على معرفة به ، فالقرية برمتها تعرف ذلك ، لذا فهناك كثيرون يستطيع المرء أن يسمع منهم .

— حسنا ، اذا كنت تعرفين ، فما عساى أن أخبرك ؟

مضى يسير بخطى واسعة . وكان وقع قدميه وقدمى ناتاليا السريعتين يرن بوضوح فى سكون الربيع الرائق . ولبثت تسير برهة دونما كلام ، وهى تمسح دموعها . ثم خنقت نشيجها وسألته :

— اذا ، فقد عدت الى ألاعيبك القديمة ؟

— دعك من هذا ، يا ناتاليا .

— يا لك من كلب شره ! علام تعذبنى من جديد ؟

— عليك ألا تصغى كثيراً لأكاذيب الناس .

— ولكنك اعترفت الآن بها !

— ليتك تقللين من سماع احاديث الناس . انا ملوم بعض الشىء . . . ولكن اللوم يقع على الحياة نفسها ، يا ناتاليا . فالمرء يحيا على حافة قبره طوال الوقت ، وهو يحيد عن الطريق بعض الاحيان . . .

— ماذا عن أطفالك ؟ ألا تخجل من النظر فى وجوههم ؟

— هوه ! أخجل ! — وكشر غريغورى عن أسنانه مبتسماً وأضاف :

— نسيت معنى الخجل . كيف يمكن للمرء أن يشعر بالخجل وحياته برمتها قد تسربت ؟ ها هو يقتل الناس ، ولا يعرف جلية الأمر . . . ولكن كيف يمكن أن أصور لك الأمر . انت لن تفهمى ذلك . أنت تضطرمين بما فيك من قسوة المرأة ، فلا تفكرين قط بما ينخر قلبى ، ويستنزف دمى . . . ذلك ما جعلنى ألجأ الى الفودكا . قبل أيام اعترتنى نوبة عصبية . . . وتوقف وجيب قلبى لحظة بصورة تامة ، وسرى البرد فى أوصالى . . . — وادلهم وجهه وتعسرت عليه الكلمات . — انه أمر شاق ، وبسبب ذلك يعبث المرء لكى ينساه : عن طريق الفودكا أو النساء ! مهلاً ! دعينى أنتهى . ان شيئاً ما يتآكلنى طول الوقت . لقد سلكت الحياة بى منعطفاً خاطئاً ، وربما أكون خاطئاً فى ذلك أيضاً . . . ينبغى أن نتصالح مع الحمر ونهاجم الكاديت . ولكن كيف ؟ من الذى يقيم لنا صلة مع السوفييتات ؟ كيف لنا مداواة ما ارتكبناه بحق بعضنا البعض ؟ ان نصف القوزاق هم فى الجانب الآخر من الدونيتس ، أما من بقى منهم فقد استبد بهم الجنون فهم يمزقون الأرض من تحت أقدامهم . . . ان كل شىء ملتبس فى رأسى ، يا ناتاليا . حتى جدك ، غريشاكا قرأ علىّ الانجيل وقال اننا أخطأنا ، كان ينبغى ألا نثور . وقد لعن أباك .

— جدى فقد عقله ، وسيأتى دورك من بعده .

— لا يمكنك الا أن تفكرى على هذه الشاكلة ، ليس لديك ذكاء يريك ما هو أبعد من ذلك .

— آه ، لا حاجة بك الى أن تقنعنى . لقد أسأت الىّ ، واعترفت بذلك . وها أنت تحاول أن تتعذر بالحرب . انتم جميعاً على شاكلة واحدة . ألم أثل بسببك كفايتى من الأحزان ، أيها الشيطان ؟ من المؤسف أننى لم أنه حياتى فى تلك المرة . . .

— ليس لدينا ما نتحدث به . الأمر شاق عليك ، فابكى ، فالدموع تخفف من أحزان المرأة . أما أنا فلا أستطيع الآن أن أواسيك . لقد عبثت بدم الرجال كثيرا حتى لم تبق فى قلبى شفقة على أحد . . . لا أكاد آبه لطفلى ، ولا أعير نفسى بالاً ، الحرب أيبست كل عاطفتى ، غدوت قاسياً . . . أنظرى الى روحى تجديها سوداء كبئر خاوية . . .

كانا على وشك أن يبلغا البيت حين أخذ مطر راشق مدرار يهطل فأنام الغبار على الطريق ، وأحدث جلبة على السقوف ، وأشاع برداً منعشاً . فحل غريغورى أزرار معطفه وغطى ناتاليا الباكية واضعاً ذراعه حولها . وعلى هذا النحو دخلا الفناء ، وقد التصقا ، يجللهما معطف واحد .

وفى المساء أعد المحراث والبذارة فى الفناء . وأفلح سيمون على نحو ما فى تثبيت سكة على محراث آل ميليخوف العتيق ، وهو ابن الحداد ، البالغ خمس عشرة سنة من العمر ، والذى كان قد تعلم حرفة والده ، وبات الحداد الوحيد فى تتارسكى ، وغدا كل شىء جاهزاً للبذار . وقد اجتازت الثيران فصل الشتاء على خير ما يرام ، اذ أن بانتلاى بروكوفتش وفر لها تبناً كثيراً .

وفى صباح اليوم التالى أعد غريغورى كل شىء للخروج الى السهب . وكانت ايلينشنا ودونيا قد اوقدتا النار فى المساء لاعداد الطعام للحارث . كان غريغورى ينوى قضاء خمسة أيام فى العمل ، فيبذر لأهله ولحماته ، ويحرث حقلاً للبطيخ وعباد الشمس ،

ومن ثم يستدعى أباه من سرية المشاة لاتمام العمل .

تصاعد الدخان الليلكى من المدخنة كالحلزون . وراحت دونيا تركض فى أرجاء الفناء لتجمع الحطب للنار . وجعل غريغورى يتأمل خصرها الأهيف ، وثدييها النافرين ، وقال فى سريرة نفسه بحزن واسى : «ما أسرع ما شبت . العمر يمر كفرس عدّاء فى الأمس فقط كانت دونيا صبية يسيل مخاطها ، وتتراقص ضفائرها على ظهرها حين تركض ، وها هى أهل للزواج . وها أنا قد أخذ الشيب يوخط رأسى . غريشاكا الشيخ على حق حين قال العمر يمر كومض البرق . ما أقصر الزمن الذى يعيشه الانسان ، ومع ذلك يتحتم علينا اختزاله . . . ياه ، لئن جاءت المنية ، فلتأت بسرعة» .

أقبلت داريا عليه . لقد برأت من خسارة بيوتر بسرعة مذهلة . وكانت قد حزنت لفترة وجيزة ، فاصفر وجهها من الغم وبدا عليها الكبر . ولكن ما ان أخذت نسائم الربيع تهب والشمس تبعث الدفء فى الأرض ، حتى تلاشى حزنها مع الثلوج الذائبة . فاصطبغ خداها البيضويان من جديد بحمرة طفيفة ، وشاع الوميض فى عينيها ، وعاودتها مشيتها الطلقة المتبخترة . وعادت اليها عاداتها القديمة كذلك : فجعلت تزجج حاجبيها من جديد ، وتلمّع خديها بالدهان ، وعاودها كلفها بالدعابة ، ومغايظة ناتاليا بلسانها الفاجر ، وكانت بسمة أمل غامضة تلوح على شفتيها مراراً وتكراراً . لقد انتصر فيها عنفوان الحياة .

دنت من غريغورى وهى باسمة . وفاح من وجهها الوسيم عطر دهن الخيار .

فسألته قائلة : — أيمكننى مساعدتك ، يا غريشا ؟

— لا احتاج الى مساعدة .

— آه ، كم صرت خشناً نحوى ، أنا الأرملة ! انك لا تجود علىّ حتى بابتسامة .

— الاجدر بك ان تعينى ناتاليا ، هوذا ميشاتكا متسخ من اللعب بالطين .

— أهذا واجبى ؟ أنت تنجبهم وأنا أغسلهم لك ؟ كلا ، شكراً لك . ان ناتالياك ولود كالأرنبة . ستلد لك عشرة آخرين قبل أن تنضب . وحينذاك سينهكنى غسلهم جميعاً .

— كفى ، كفى ! هيا امضى من هنا !

— غريغورى بانتيلايفتش ، انت القوزاقى الوحيد الذى بقى فى القرية الآن . لا تطردنى ، دعنى أنظر الى عذاريك الأسودين الخلابين من بعيد على الأقل .

فضحك غريغورى وألقى شعره الى الخلف من على جبينه العرق :

— لا أدرى كيف استطاع بيوتر أن يعيش معك . . . أحسبك ستحصلين دوما على ما تسعين وراءه .

فردت عليه قائلة باعتزاز : «كن مطمئنا» ثم نظرت اليه بعينيها المحرقتين نصف المغمضتين ، والتفتت الى المنزل وهى تصطنع الفزع قائلة :

— ماذا لو خرجت ناتاليا الآن ! ما أشد غيرتها عليك ! هذا اليوم اثناء الغداء ألقيت عليك نظرة خاطفة فتغير وجهها تماماً . البارحة قالت لى فتيات القرية : أى قانون هذا ؟ لم يبق فى القرية قوزاق ، وها قد عاد غريغورى وهو لا بد بجانب زوجته لا يبارحها . كيف يتسنى لنا أن نعيش ؟ حتى ان كان جريحاً ، وحتى ان بقى نصفه ، فاننا سنجد متعتنا من ذلك النصف . قولى له ألا يسير فى القرية ليلاً ، والا فسيلقى منا الويل

فقلت لهن : لا ، يا فتياتى ، ان عزيزنا غريغورى لا يعبث الا فى القرى الأخرى ، أما حين يعود الى أهله فانه يتشبث بذيل تنورة ناتاليا . أصبح ولداً عفيفاً قبل حين . . .

فقال غريغورى ، وهو يضحك جذلاً :

— قحبة انت ! لسانك أشبه بمكنسة .

— ومن أنا . ولكن زوجتك الشرعية ناتاليا الطاهرة لم تسمح لك بالنوم فى فراشها البارحة ليلاً . لقد نلت جزاءك ، أيها الشيطان الرجيم ، ان ذلك يعلمك حسن السلوك !

— لا تتدخلى فى شؤون الآخرين ، يا داريا .

— أنا لا أتدخل ، كل ما أردت قوله ان ناتاليا هذه حمقاء ، يعود زوجها ، وهى تتعالى ، وتنام بمفردها على الصناديق مثل قطيرة بحجم الفلس . أما أنا فلن أحرم نفسى قوزاقياً اذا سنحت لى الفرصة ، فأبث الرعب حتى فى رجل شجاع مثلك . . .

ثم طقت بأسنانها ، وأطلقت ضحكة عالية ، ومضت شطر المنزل ، وقرطاها الذهبيان يومضان حين التفتت نحو غريغورى الذى كان يضحك محرجاً .

فقال غريغورى فى سريرته : «كنت محظوظا بموتك يا أخى بيوتر ، فداريا هذه ليست امرأة ، بل شيطانة . كانت ستدفع به الى هاوية القبر ان عاجلاً أم آجلاً» .

٤٧

أطفئت الأضواء الأخيرة فى قرية باخموتكين . كان ثمة جمد خفيف يلفع البرك بغطاء رقيق من الجليد . وفى موضع ما من حقل الحنطة المحصود خارج القرية كانت طيور الكراكى ،

التى تخلفت فى الطيران ، قد حطت تلتمس الراحة ، وحملت الريح الشمالية الشرقية لغوها الهادئ المتعب الى أسماع سكان القرية ، ليؤكد الصمت المخيم لليل نيسان . وادلهمت الظلال فى البساتين . وجأرت بقرة فى أحد الأفنية ، ثم سكتت . وتنادت طيور الشنقب بحنين وهى تطير خلل الظلام . وكان ثمة حفيف ينبعث من أجنحة لا تعد لسرب من البط مسرع صوب المدى الطلق للدون الفائض . . . وتناهت الى الأسماع أصوات من ضواحى القرية . وتوهجت سكاير فى العتمة ، وانبعثت زنخرة خيل وخشخشة الطين المتجمد تحت حوافرها . ومضت دورية خيالة خلال الشارع الرئيسى ، تتألف من سريتى اللواء السادس الخاص الذى اتخذ مقره فى القرية . ودلفوا الى فناء آخر بيت ، وهم يتحدثون ، وربطوا خيلهم الى زحافة متروكة واضعين لها شيئا من العلف . وشرع صوت خفيض أجش يردد أغنية خفيفة ، سرعان ما انضمت اليها أصوات عديدة أخرى واندفع الجميع فى جوقة مرحة منطلقة .

وانحدرت همهمة الكراكى ، واغنية القوزاق ، وخفق اجنحة البط الى القوزاق الموكل اليهم أمر الحراسة وراء الطاحونة الهوائية . كان الاستلقاء على التراب البارد المتجمد فى الليل شيئا فظيعا . ولم يكن يسمح للحرس بالتدخين ولا بالتحدث وبالسير على الاقدام ، حتى ولا بمحاولة اشاعة الدفء فى أنفسهم بشىء من المصارعة الودية . كانوا مضطجعين بين سيقان عباد الشمس المتخلف عن العام الماضى ، يحدقون فى عتمة السهب المتثائبة ، يتسمعون وآذانهم لصيقة بالأرض . وما كان لشىء أن يرى على مبعدة عشر خطوات ، وكانت الليلة النيسانية غنية بالحفيف والأصوات المريبة التى قد يكون أى منها صادرا عن جندى أحمر يزحف

باتجاههم . ومسح قوزاقى شاب بقفازه دمعة سببها تطلعه فى العتمة . وحسب أنه سمع صوت عسلوج يتكسر ولهاثا مكتوما على مبعدة قليلة منه . فلكز جاره الغافى الى جانبه فى وضع غير مريح . وغدت خشخشة الدغل والانفاس البطيئة أكثر وضوحا وما لبث الصوت أن علا فوق الشاب مباشرة . فرفع هامته على مرفقه وتبين بصعوبة وهو يحدق خلال الحرش قنفذا كبيرا يعدو فى أثر فأر ، وأنفه الى الأرض . واستشف القنفذ وجود عدو له قريب منه ، فرفع رأسه ، ورأى الرجل محدقا فيه . فتنهد القوزاقى بارتياح : «يا للشيطان ! كم أخافنى !» ودس القنفذ رأسه الى الداخل ، وغدا كرة شائكة بعضا من الوقت ، ثم انبسط ، شيئا فشيئا ، ومضى زاحفا ، وهو يرتطم بسيقان عباد الشمس ويدوس على نبات متسلق ذابل . وعاد الصمت ينسج شراكه من جديد ، وكانت الليلة أشبه بليالى حكايات الجن .

وفى القرية ، صاح الديك صيحته الثانية . وانجابت السحب من السماء ، وأطلت النجمات الأولى خلال حجاب خفيف من الضباب . ثم أزاحت الريح الضباب ، ورنت السماء الى الأرض بعدد لا يحصى من العيون الذهبية .

وفى تلك اللحظة استمع القوزاقى الشاب الى الصوت الجلى لحوافر حصان وخشخشة سيقان الاعشاب وصليل معدنى أمامه ، وبعد هنيهة ، الى صرير سرج . وسمعه القوزاق الآخرون كذلك ، فحطت الأصابع بسرعة على زناد البنادق . وبزغ شبح الفارس كما لو ارتسم على خلفية السماء . كان راكبا الهوينا صوب القرية .

— قف ! من هناك ؟ كلمة السر !

ووثب القوزاق على أتم استعداد لاطلاق النار . فتوقف الفارس ورفع يديه فوق رأسه ، وصاح :

— لا تطلقوا النار ، أيها الرفاق !

فصاح الضابط المسؤول عن النقطة الأمامية :

— ما هى كلمة السر ؟

— أيها الرفاق . . .

— ما هى كلمة السر ؟ يا رعيل . . .

— قف ! انا وحدى . أسلم نفسى .

— مهلا ، أيها الأولاد . لا تطلقوا النار ! سنأخذه حيا .

وجرى آمر الرعيل الى الفارس وامسك القوزاقى الشاب باعنة حصان الفارس . فعبر الرجل ساقه فوق السرج وترجل عن حصانه .

— من أنت ؟ أحمر ؟ أجل ، أيها الاخوان ، هى ذى النجمة على قبعته . أنت مقضى عليك . . .

فأجاب الفارس بهدوء :

— قدنى الى آمرك ، علىّ أن أوصل اليه خبرا على جانب كبير من الأهمية . انا فورونوفسكى ، آمر كتيبة سيردوبسكى ، وقد أتيت للتفاوض معه .

— الآمر ؟ . . اقتلوه ، أيها الاخوان !

— أيها الرفاق ، اقتلونى ان شئتم ، ولكن دعونى أخبر آمركم بما جئت من أجله . وأكرر أنه أمر على جانب كبير من الاهمية . خذوا سلاحى ان كنتم تخشون هربى .

وشرع يحل نطاق سيفه .

فأخذ آمر الرعيل مسدسه وسيفه . وأصدر أمره وهو يعتلى صهوة حصان الضابط : «فتشوه !»

وبعد التفتيش اقتاد آمر الرعيل وقوزاقى آخر الأسير الى القرية . فمضى هذا سيرا على الأقدام ، والحارس القوزاقى الى جانبه فى حين ركب آمر الرعيل حصانه خلفه ، وقد علت محياه

علامات الرضا . ساروا عدة دقائق صامتين . وتوقف الأسير من حين لآخر ليولع سكائر ، فاستثارت رائحة التبغ الجيد شراهة حارسه .

وسأله القوزاقى : «أعطنى واحدة !» فناوله الضابط علبة سكائره المليئة . فأخرج القوزاقى واحدة ودس العلبة فى جيبه هو . لم يعلق الآمر الأحمر بشىء ، ولكنه تساءل فيما كانا يقتادانه الى القرية :

— أين تأخذاننى ؟

— ستعرف عما قريب !

— لكن قل لى !

— الى آمر السرية .

— خذنى الى آمر اللواء ، بوغاتيريوف .

— لا يوجد رجل هنا بهذا الاسم .

— يوجد . فأنا أعرف أنه وصل البارحة الى باخموتكين بصحبة هيئة أركانه .

— لا علم لنا بذلك .

— أوه ، كفاكم هذا ، أيها الرفاق ! أنا أعلم بذلك ، وأنتم لا تعلمون ! ليس هذا سرا عسكريا ، خصوصا حينما يكون مكشوفا لدى أعدائكم !

— هيا ، واصل سيرك !

— أواصل سيرى . اذا كنت ستأخذنى الى بوغاتيريوف .

— صه ! لا يسمح لى بالتحدث الى الاسرى .

— ولكن يسمح لك أن تأخذ علبة سكائرى ؟

— هيا امض لا تحرك لسانك والا أخذت معطفك أيضا ، ان كنت سريع الغضب بهذا الشكل .

وجدوا آمر السرية نائما . فنهض يتثاءب داعكا عينيه دون أن يستطيع فى بداية الأمر استيعاب ما كان آمر الرعيل يخبره . وأخيرا قال :

— من قلت انك ؟ آمر كتيبة سيردوبسكى ؟ لعلك لا تكذب ؟ أين أوراقك ؟

وبعد بضع دقائق اقتاد الآمر الأحمر الى مقر آمر اللواء بوغاتيريوف ، وما ان سمع بوغاتيريوف بالأسير حتى قفز كمن مسه شىء . وأسرع يزرر بنطلونه ، وأشعل فانوسا وسأل الآمر الاحمر الواقف قرب الباب :

— أ أنت آمر كتيبة سيردوبسكى ؟

— نعم .

— اجلس .

— شكرا .

— كيف وقعت — كيف حدث أن وقعت فى الاسر ؟

— جئت طوعا . أريد أن أحدثك على انفراد . دع الآخرين يخرجون !

فلوح بوغاتيريوف بيده ، فغادر الغرفة آمر الرعيل ورب الدار الفاغر فاه . وجلس بوغاتيريوف الى المنضدة وليس عليه سوى قميص داخلى قذر ، وهو يدعك رأسه القاتم الحليق المكور كالبطيخ . وكان وجهه المجعد المنتفخ ينم عن فضول مكبوت . أما الضابط فورونوفسكى — وكان ذا قامة رشيقة قوية يرتدى معطفا انيقا تعلو كتفيه شرائط الضباط — فقد ابتسم من تحت شاربيه الأسودين . وقال :

— انا أتشرف بالحديث الى ضابط ، أليس كذلك ؟ أستميحك عذرا فى أن أقول كلمة أو كلمتين عن نفسى فى

البدء ، ومن ثم سأخبرك بالمهمة التى جئت من أجلها . انا نبيل بالولادة ، وكنت رئيسا ركنا فى خدمة القيصر . وقد قاتلت فى الجبهة خلال الحرب الالمانية . وفى عام ١٩١٨ ، أعادتنى الحكومة السوفييتية الى الخدمة وأنا الآن آمر كتيبة سيردوبسكى الحمراء . لقد لبثت أتحين الفرصة منذ زمن للقدوم اليكم — الى جانب الذين يحاربون البلاشفة .

— لقد تأخرت طويلا فى انتظارك هذا ، أيها الرئيس !

— أدرى ، لكننى أردت أن أمحو جريرتى ازاء روسيا ليس عن طريق قدومى اليكم بنفسى وحسب (فقد كان هذا فى مقدورى منذ أجل طويل) ولكن عن طريق اصطحاب وحدة من رجال الجيش الأحمر ، أكثر من يركن اليهم من الرجال ، طبعا ، الذين خدعهم الشيوعيون وجروهم الى حرب الاقتتال ما بين الاخوة .

واذ ألقى فورونوفسكى نظرة الى بوغاتيريوف ولاحظ ابتسامته المتشككة ، احمر وجهه كفتاة ، واستطرد مسرعا :

— طبيعى أن تشعر بشىء من عدم الثقة بى وبكلماتى . ولو كنت فى مكانك لشعرت بالشىء نفسه . دعنى أثبت لك بحقائق لا تدحض . . .

ورفع طرف معطفه وأخرج مطواة من جيب سرواله شق بها حاشية معطفه وأخرج بعض أوراق مصفرة وتصويرا صغيرا . فتفحص بوغاتيريوف الأوراق بامعان . كانت احداها تشهد بأن حاملها هو الملازم الاول فورونوفسكى من كتيبة لوبوميرسكى الـ ١١٧ ، وانه ذاهب الى بيته لاجازة مدتها اسبوعان بعد المعالجة فى مستشفى وكانت تحمل الورقة توقيع وختم رئيس الاطباء فى مستشفى ميدان . وأعطت الوثائق الأخرى والتصوير دليلا ثابتا على صحة أقوال فورونوفسكى .

ثم تساءل بوغاتيريوف :

— حسنا ، وما هو الأمر التالى ؟

— جئت لاعلمكم بأننى ومساعدى ، الملازم الاول السابق فولكوف ، كنا نعمل بين رجال الجيش الأحمر الذين هم تحت امرتنا ، وأن مجموع القوة الكاملة لكتيبة سيردوبسكى ، باستثناء الشيوعيين طبعا ، على استعداد للانتقال الى جانبكم فى أية لحظة . ويتألف الرجال كلهم تقريبا من فلاحى مقاطعتى ساراتوف وسامارا . انهم على استعداد لمحاربة البلاشفة . وليس لنا الا أن نتوصل الى اتفاق حول شروط استسلام الكتيبة . وفى الوقت الحاضر تعسكر الكتيبة فى أوست–خوبرسكايا . ويبلغ عددها حوالى ألف ومائتين من حاملى الحراب ، وهناك خلية شيوعية عدد أفرادها ثمانية وثلاثون ، يضاف لهم فصيل ينتظم نحو ثلاثين رجلا من شيوعيى المنطقة . لقد استولينا على البطارية التابعة للكتيبه ، ولكن يحتمل أن يتعين علينا ابادة رجال البطارية حيث أن أغلبهم شيوعيون . ان رجال الجيش الأحمر التابعين لى فى حالة من الهياج بسبب الاستيلاء على الطعام فى مناطقهم . وقد عملنا على استغلال هذا الظرف لاستمالتهم الى جانب القوزاق . لكنهم يخشون أن يتعرضوا الى التنكيل اذا ما استسلموا . وهكذا ، يصبح لزاما علىّ أن أصل الى تفاهم معكم حول هذه النقطة وان كانت مسألة تفصيلية .

— أى تنكيل يمكن أن يتعرضوا له ؟

— القتل أو السلب . . .

— كلا ، لن نسمح بذلك .

— ثمة شىء آخر : يصر الجنود على أن تظل كتيبة سيردوبسكى على حالها وأن يسمح لها بمقاتلة البلاشفة كوحدة عسكرية مستقلة

جنبا الى جنب معكم .

— لا أستطيع أن أقول لك . . .

— فاهم . عليك أن تتصل بقيادتك العليا ثم تعلمنا بالنتيجة .

— أجل ، علىّ أن أعلم هيئة الاركان فى فيشنسكايا .

— معذرة ، غير أن وقتى قصير جدا ، واذا تأخرت عودتى فقد يلاحظ قوميسار الكتيبة غيابى . أخال أننا نستطيع أن نصل الى اتفاق حول شروط الاستسلام . دعنى أكون على علم بقراركم فى أقرب وقت ممكن . فقد تنقل الكتيبة الى جبهة الدونيتس ، أو قد تصل امدادات ، وآنذاك . . .

— سأبعث مراسلا الى فيشنسكايا فى الحال .

— هناك شىء آخر . مر قوزاقك باعادة سلاحى لى . انهم لم ينزعوا سلاحى فحسب — وتوقف وابتسم فى حرج — لكنهم أخذوا علبة سكائرى ! هذه بالطبع قضية تفصيلية ، لكن للعلبة قيمة بالنسبة لى لانها تذكار عائلى موروث . . .

— سيعاد كل شىء لك . كيف يتسنى لنا أن نعلمك برد فيشنسكايا ؟

— فى غضون يومين ستأتيك امرأة الى باخموتكين قادمة من أوست–خوبرسكايا . أما كلمة السر فلتكن «اتحاد» . باستطاعتك أن تخبرها . شفاها ، طبعا . . .

* * *

وما هى الا نصف ساعة حتى انطلق مراسل قوزاقى على حصانه الى فيشنسكايا .

وفى اليوم التالى وصل الى باخموتكين مراسل كودينوف

الشخصى . ومضى راكبا حتى بلغ مقر آمر اللواء ودلف الى الكوخ دون أن يتوقف لربط حصانه ، وسلم بوغاتيريوف اضمامة مكتوب عليها : «مستعجل وسرى» . فمزق بوغاتيريوف الظرف باستعجال وقرأ الخطاب مكتوبا بخط يد كودينوف الممدود :

بعد تحية . النبأ مشجع . أخولك التفاوض مع كتيبة سيردوبسكى وجعلهم يستسلمون مهما كان الثمن . وأقترح أن تتنازل لمطالبهم ونعد بأننا سنقبل الكتيبة بمجموعها وأننا لن نتزع حتى سلاحها عنها ، بشرط ، وهذا الشرط لا يمكن التخلى عنه ، أن يأسروا ويسلموا قوميسار الكتيبة والشيوعيين ، وعلى الاخص شيوعيى فيشنسكايا ، ويلانسكايا ، وأوست-خوبرسكايا . كذلك يجب أن يستحوذوا على البطارية ، وقافلة الامتعة وعدة الكتيبة . تعجل الامر قدر ما تستطيع . وحينما تكون الكتيبة على استعداد للمجىء ، جمّع ما فى مستطاعك من القوات ، وطوقهم بهدوء ، وانزع عنهم السلاح فى الحال . واذا حاولوا المقاومة ، افنهم عن آخرهم . تصرف بحذر ، ولكن بشدة . وما ان ينزع عنهم السلاح ، سق الكتيبة برمتها الى فيشنسكايا على امتداد الضفة اليمنى للدون ، كى يكونوا بعيدين عن الجبهة وملزمين بالمسير خلال السهب الطلق . وحينئذ لن يكون بمقدورهم أن يلوذوا بالفرار اذا ما بدلوا رأيهم . سقهم عبر القرى الواقعة على جانب الدون وارسل فى اثرهم سربتى خيالة كحرس . سوف نوزعهم مئتى وثلاثا على السرايا المختلفة وسنرى كيف سيحاربون الحمر . وبعد ذلك ، ان أفلحنا فى الانضمام الى رجالنا فى الدونيتس ، فلهم أن يفعلوا ما يشاءون بهم — لن آبه ان شنقوهم عن آخرهم . انى مسرور بنجاحك . أبقنى على علم يوميا بواسطة مراسل .

كودينوف

وكان فى الحاشية مكتوبا ما يلى :

اذا سلمت كتيبة سيردوبسكى شيوعيينا المحليين ، سقهم تحت حراسة قوية الى فيشنسكايا خلال القرى الواقعة على جانب الدون . ولكن ابعث بكتيبة سيردوبسكى اولا . واختر لحراسة الشيوعيين من القوزاق أكثر من

تستطيع الاعتماد عليهم (المندفعين والكهول) ، وقل لهم أن يخبروا القرويين سلفا بقدومهم . فلا داعى لأن نلوث أيدينا بهم ، فستضربهم النساء بالعصى اذا استطاع الحرس أن يدبر القضية بشكل لائق . ان هذه ستكون أفضل سياسة بالنسبة لنا . فلو رميناهم بالرصاص لسرت الشائعة الى الحمر بأننا نعدم الاسرى . فمن الأسهل أن نسيب الناس عليهم ، أن نطلق غضب الناس مثل الكلب السلوقى . دع الناس يقضون عليهم ، دون قيل أو قال !

٤٨

فى الثانى عشر من نيسان كانت كتيبة موسكو الاولى تتكبد خسائر فادحة فى القتال مع المتمردين فى منطقة يلانسكايا .

ومضت صفوف الحمر تشق طريقها الى قرية أنتونوفسكى وهى لا تعرف عن المنطقة شيئا . كانت مساكن القوزاق تقوم متباعدة عن بعضها على جزر صغيرة قوامها تربة صلصالية ، بيد أن الشوارع والأزقة التى انتشر عليها الدغل كانت تنتهى بأرض مستنقعية لا يمكن اجتيازها فى حين كانت القرية برمتها غارقة فى أجمة الحور . وكان نهر اليلانكا ينساب حول القرية ، وهو نهر صغير ضحل ذو قاع طينية زلقة .

وجرب مشاة كتيبة موسكو الاولى تمشيط القرية فى تشكيلة مفتوحة ، ولكن ما ان اجتازوا المساكن الاولى وبلغوا أجمة الحور حتى اكتشفوا استحالة اجتياز الاجمة على النحو الذى قصدوه . ارفض آمر الفوج الثانى — وهو لتوانى عنيد — أن يستمع الى وجهة نظر رئيس عرفائه ، الذى كان قد استطاع لتوه أن يجر حصانه من مستنقع عميق ، فأصدر أمره بالتقدم وكان أول من تحرك الى الأمام على الارض الخادعة المترجرجة . ومضى رجال الجيش الاحمر المترددون يتبعونه حاملين رشاشاتهم . وحينما كانوا

قد قطعوا ما يقرب من المائة خطوة وهم يغوصون فى الوحل حتى ركبهم ، انطلقت صيحة من الجناح الايمن انحدرت على امتداد الصفوف : «حذار ! فالقوزاق يحيطون بنا !»

كانت سريتان من المتمردين قد أحاطتا بالفوج فعلا وشرعتا تهاجمانهم من الخلف . وفقد الفوجان الاول والثانى فى أجمة الحور ثلث مجموع أفرادهما ، وأخذا يتراجعان .

وفى غمار القتال جرح ايفان اليكسييفتش فى ساقه بواحدة من رصاص القوزاق المحلى . فحمله ميشا كوشيفوى خارج المعركة وأجبر سائق عربة عتاد ، وهو يهدده بحربته ، على استعمال العربة لنقله .

ردت الكتيبة على أعقابها حتى قرية يلانسكايا . وكان لذلك الاندحار نتائج وخيمة على التقدم الكلى لمفارز الحمر فى تلك المنطقة ، اذ اضطرت بعض المفارز الى التراجع عشرين فرسخا شمالا وثم عبر نهر خوبر قبل تحرك الجليد بيوم واحد وقد غرق عدد كبير من الجياد فتقدمت فصائل المتمردين كسيل عارم متفوقة عدة مرات على قوات الحمر من حيث عدد الافراد .

وجدت كتيبة موسكو الاولى نفسها منعزلة بسبب من انكسار الثلج عند مدخل نهر خوبر وعبرت الدون الى الضفة اليمنى وتوقفت عند أوست–خوبرسكايا تنتظر الامدادات . وما ان انقضت مدة قصيرة على وصولهم حتى انضمت اليهم كتيبة سيردوبسكى . وكان رجال سيردوبسكى يختلفون اختلافا بينا عن كتيبة موسكو الاولى . لقد كان عمال موسكو وتولا ونيجنى–نوفغورود ، الذين كانوا يؤلفون عصب كتيبة موسكو وقوتها الصدامية ، يقاتلون بضراوة وعناد ، وطالما التحموا مع العدو يداً بيد ، وهم لا ينون يفقدون من رجالهم ما بين قتيل وجريح . وحتى بعد اندحارهم فى

قرية أنتونوفسكى ، فانهم تراجعوا دون أن يخسروا عربة عتاد واحدة . لكن الذى حدث لسرية من كتيبة سيردوبسكى فى معركتها الاولى فى قرية ياغودينسكى هو أنها تشتت تحت وطأة الهجوم الذى شنته خيالة المتمردين . فما ان لمحوا القوزاق المغيرين فوق خيولهم حتى فروا من خنادقهم ، وكان محتملا أن يبادوا عن آخرهم لو لم تكن الرشاشات بيد الشيوعيين الذين ردوا الهجوم بعاصف من نيرانها .

كان رجال كتيبة سيردوبسكى قد جندوا بصورة مستعجلة فى مدينة سيردوبسك ، من مقاطعة ساراتوف ، وجلهم فلاحون كهول أميون وكان عدد كبير منهم قد انتزعوا من عوائل الكولاك الغنية الأمر الذى لا يساهم فى رفع الروح القتالية . وكان رجال قيادتهم فى الغالب ضباطا سابقين فى الجيش القيصرى ، أما القوميسار الاحمر فكان بلا حول أو قوة ولم تكن له سيطرة على الجنود ، وتحت بصر جماعة الحزب الشيوعى أنفسهم الذين غشيت عيونهم عن كل شىء ، كان ضابط القيادة فورونوفسكى وخونة آخرون يعملون على اثارة جنودهم بصورة حاذقة ، ويزرعون فى نفوسهم الشك فى امكانية القضاء على التمرد ، ويهيئونهم للاستسلام للقوزاق .

كان شتوكمان وايفان وميشا قد نقلوا الى كتيبة سيردوبسكى واستقروا فى كوخ واحد مع ثلاثة من رجال سيردوبسكى . ولاحظ شتوكمان بقلق روح الجفاء التى بدت على رفقائه الجدد ، وانتهى — بعد أن نشب بينهم خصام حاد — الى أن ثمة خطرا يهدد الكتيبة . وحدث ذات مساء أن دخل اثنان من رجال سيردوبسكى الى الكوخ ، ومن غير أن ينطقا بكلمة تحية قال أحدهما وهو ينظر مبتسما بوقاحة الى شتوكمان وايفان الكسييفتش المستلقى على السرير :

— اذا فهذا هو المآل الذى أوصلنا اليه القتال ! انهم يستحوذون على حنطة عوائلنا فى قرانا ، وهنا يتعين علينا أن نحارب من أجل ما لا ندرك كنهه .

فسأله شتوكمان بحدة :

— ألا تعرف ما الذى تحارب من أجله ؟

— كلا ، لا نعرف . فالقوزاق فلاحون مثلنا تماما . نحن نعرف سبب تمردهم . أى ، نعم ، نعرف ذلك !

واذا بشتوكمان يفقد زمام نفسه المعهود ، وصاح :

— وهل تعرف أية لغة تتفوه بها الآن ، أيها الخنزير ؟ انها لغة الحرس الابيض !

— اقتصد بـ«خنزيرك» هذه ، والا لقنتـــك درسا ! أسمعتموه ، أيها الاولاد ؟

فتدخل رجل ثان ، قمىء وشديد كزكيبة من الطحين :

— اهدأ ، اهدأ يا طويل اللحية ! لقد رأينا أمثالك من قبل . أتحسب أن مجرد كونك شيوعيا يمكنك من اسكاتنا متى ما شئت ؟ كن على حذر والا اقتلعنا نزواتك !

واجتاز الكوخ صوب شتوكمان وذراعاه القصيرتان القويتان الى ظهره ، وعيناه تومضان متوعدتين .

فقال شتوكمان لاهثا وهو يدفع الرجل عنه :

— ما هذا ؟ أتراكم جميعا خدعتم بآراء الحرس الأبيض ؟

وترنح الرجل الى الوراء وكان على وشك أن يمسك ذراع شتوكمان غير أن الرجل الذى كان أول المتكلمين أوقفه :

— لا تزعج نفسك به .

— أنتم تتحدثون كالمرتدين . سنحاكمكم خونة للحكومة السوفييتية .

فأجاب أحد رجال سيردوبسكى :

— لا أخالك ستقدم كل الكتيبة الى المحكمة . ان الشيوعيين يحصلون على السكر والسكائر أمّا نحن فلا نحصل على شىء .

فصاح ايفان اليكسيفتش ، وهو يستوى على السرير :

— هذا افتراء ! نحن نحصل على مثل ما تحصلون عليه .

ومن غير ما كلام لبس شتوكمان معطفه وخرج . ولم يحاولوا ايقافه ، غير أنهم هزأوا منه حينما مر بهم . ووجد قوميسار الكتيبة فى مقر هيئة الاركان . فناداه الى غرفة ثانية وأسرّ له بشجاره مع رجال سيردوبسكى واقترح اعتقالهم . فاستمع اليه القوميسار وهو يحك لحيته ويسوى بتردد نظارتيه ذاتى الاطار القرنى .

— سوف ندعو الى اجتماع الشيوعيين غدا لبحث الموقف . لكننى لا أرى من الممكن أن نعتقلهم فى الحال الحاضر .

فتساءل شتوكمان محتدا :

— ولم لا ؟

— طيب ، أترى ، أيها الرفيق شتوكمان ، لقد لاحظت بنفسى أن ثمة شيئا ليس على ما يرام فى الكتيبة . لعل هناك منظمة معادية للثورة تعمل فى صفوف كتيبتنا ، غير أننى لا أستطيع أن أستجلى سر هذه المنظمة . لكن أغلبية الكتيبة واقعة تحت نفوذها . فالفلاحون لا ينصاعون الا لأهوائهم ، فما عسانا نفعل ؟ لقد أحطت هيئة أركان الفرقة علما بحقيقة الموقف واقترحت عليهم أن يسحبوا الكتيبة ويعيدوا تشكيلها من جديد .

— لماذا تحسب أن من المستحيل اعتقال عملاء الحرس الأبيض الآن وتقديمهم الى المحكمة الثورية للفرقة ؟ ان كلامهم ذاك لهو الخيانة بعينها !

— أدرى ، ولكننى لو فعلت ذلك فقد ينتهى الى تطرف غير مرغوب فيه ، وحتى الى عصيان .

— ولكنك ما دمت قد لاحظت موقف الاغلبية فلماذا لم تعلم الشعبة السياسية فى حينها ؟

— قلت لك اننى قد أعلمتهم . ولكنهم بطيئون فى الرد . ما ان تسحب الكتيبة حتى تنزل العقاب بكل أولئك الذين خرقوا النظام ، وعلى الاخص هؤلاء الذين ما فتئوا يرددون ما أخبرتنى به . — وأضاف متجهما : — لدى شكوك حول فورونوفسكى ورئيس هيئة الأركان ، فولكوف . وبعد اجتماع الشيوعيين غدا ، سأمضى الى أوست–مدفديتسكايا لبحث الموقف مع الشعبة السياسية . علينا أن نتخذ اجراءات سريعة لنضع يدنا على موطن الخطر . ولهذا يتعين علىّ أن أسألك أن تظل محادثتنا هذه فى طى الكتمان .

— ولكن لِمَ لا تدعو الى اجتماع المنظمة فى الحال ؟ ان الوقت لن ينتظرنا ، أيها الرفيق !

— أعرف ذلك ، ولكن هذا ليس ممكنا الآن . فغالبية الشيوعيين موجودون فى النقاط الامامية . لقد نسبتهم لهذه المهمة عن عمد لأننى أعتقد أن من المجازفة أن نثق بأية عناصر لا حزبية فى وضع مثل هذا . أضف الى ذلك أن البطارية ، التى يتألف رجالها من الشيوعيين بصورة رئيسية ، لن تصل الا الليلة . لقد استدعيتها بسبب هذه الأخطار التى تتهدد الكتيبة . . .

عاد شتوكمان من الاركان الى كوخه وأسرّ الى ايفان وميشا بفحوى حديثه مع القوميسار .

وسأل شتوكمان ايفان اليكسييفتش :

— ألا تستطيع السير الآن ؟

— بلى ، على أننى أعرج . كنت أخشى أن ينفتح الجرح ، ولكن اذا كان لا بد من ذلك ، فسأفعل .

وبعد أن مضى الآخرون الى أسرتهم ، قعد شتوكمان ليكتب تقريرا مفصلا عن الحالة فى الكتيبة ، وعند منتصف الليل أيقظ ميشا . وقال وهو يدس الخطاب الذى كتبه فى قمصلة كوشيفوى :

— خذ حصانا من أى مكان حالا وامض الى أوست–مدفديتسكايا بهذا الخطاب . وينبغى عليك أن تسلمه الى الشعبة السياسية للفرقة الرابعة عشرة ، مهما كان الثمن ، حتى لو كلفك ذلك حياتك . كم من الوقت سيستغرق ذلك ؟ أين ستجد حصانا ؟

فجمجم ميشا بين أسنانه وهو يحتذى جزمته اليابسة الصلبة :

— سوف أسرق حصانا من الدورية الخيالة ، وسأبلغ أوست–مدفديتسكايا فى غضون ساعتين على الاغلب . فالخيل هنا بائسة والا بلغتها فى اقل من ذلك . لقد كنت راعى خيل ذات يوم . وأنا أعرف كيف أجعل حصانا ينطلق حضرا .

وأخذ الخطاب ودسه فى جيب معطفه . فسأله شتوكمان مستغربا :

— لِمَ تضعه هناك ؟

فردّ ميشا :

— يسهل علىّ التصرف به اذا ما أسرت .

فشرع شتوكمان يقول :

— صح ، ولكن . . .

— لو أسرونى ، فسوف أستطيع أن أبلعه وأزدرده .

— يا للفتى الشجاع !

وابتسم شتوكمان قليلا ، ثم عانق ميشا ، وكأنه يتوجس

سوءا ، وقبله بشفتين باردتين مرتعشتين . وقال : «هيا ، انطلق !»

فخرج ميشا ، وحل واحدا من أفضل خيل الدورية دون أن يكتشف أمره ، ومضى عليه بحذر خلال القرية ، مارا بالنقطة الامامية ، وسابته على زناد قربينة الخيالة الجديدة . ولم يعلق بندقيته على كتفه الا بعد أن خرج الى الطريق العام وانطلق ليستنزف سرعة حصانه الساراتوفى الصغير .

٤٩

عند الفجر ، شرع مطر خفيف يسقط . وأعولت الريح وانحدرت من الشرق سحب رعدية ثقيلة . وما ان أطل الصباح حتى نهض رجال سيردوبسكى المقيمون مع شتوكمان وخرجوا . وبعد نصف ساعة فتح باب الكوخ شيوعى من يلانسكايا يدعى تولكاتشيف ملحق بكتيبة سيردوبسكى مثل شتوكمان ورفاقه ، وصاح وهو يلهث :

ـــ شتوكمان ، كوشيفوى ، أنتما هنا ؟ هيا أخرجا !

فصاح شتوكمان وهو يلتقط معطفه ويرتديه باستعجال :

ـــ ما الامر ؟ أدخل هنا !

فتمتم تولكاتشيف فيما تبع شتوكمان :

ـــ هناك اضطراب فى الكتيبة . حاول المشاة أن يجردوا البطارية من سلاحها أثناء مرورها قبل قليل . شرعوا يطلقون النار ، لكن المدفعيين صدوا الهجوم ، وانتزعوا مغالق المدافع ، وعبروا النهر الى الجانب الآخر بالزوارق .

فاستحثه ايفان اليكسيفتش ، وهو يحتذى جزمته محمحما :

ـــ وما هو الموقف الآن ؟

ـــ هناك اجتماع قائم الآن عند الكنيسة . . . الكتيبة بكاملها .

فأمر شتوكمان ايفان اليكسيفتش : «ارتد ملابسك ! بسرعة !» وامسك تولكاتشيف من كمه وسأله : «أين القوميسار ؟ أين بقية الشيوعيين ؟»

ـــ لا أدرى . لاذ البعض بالفرار ، لكننى جئت اليك . احتلوا دائرة البرق ، ولم يعد مسموحا لأى امرىء بالدخول . يجب أن نهرب ، ولكن كيف ؟

وهوى الرجل بقنوط على صندوق ، ويداه بين ركبتيه .

وفى تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام فى سقيفة الباب واندفع الى داخل الكوخ ستة من رجال سيردوبسكى . كانت وجوههم محتقنة وقد بدت ضارية بما تضمر من شر . وصرخوا :

ـــ على جميع الشيوعيين أن يذهبوا الى الاجتماع ! أسرعوا !

فتبادل شتوكمان النظر مع ايفان وزم شفتيه ، وأجاب : «اننا قادمون» .

فقال أحد الرجال : «أتركوا سلاحكم هنا . فلستم ذاهبين الى معركة» . غير أن شتوكمان علق بندقيته على كتفه كأنه لم يسمع ، وكان أول من خرج من الكوخ .

كان ثمة ألف ومائة حنجرة تهدر فى الساحة . ولم يظهر أى من أهل المنطقة ، اذ سرت شائعات قوية تفيد أن الكتيبة منضم الى المتمردين وأن قتالا قد ينشب فى الشوارع مع الشيوعيين . ومضى شتوكمان صوب الجمع ، وعيناه تبحثان عن أعضاء قادة الكتيبة . ومر به القوميسار ، وقد أمسك بذراعيه رجلان من الجيش الأحمر فيما كان ثالث يدفعه من الخلف . ودفع القوميسار ، وقد شحب وجهه ، خلال الجميع ، وبعد

برهة رآه شتوكمان يرتقى طاولة فى وسط الغوغاء . تلفت شتوكمان حوله : كان ايفان اليكسييفتش وراءه يتكىء على بندقيته ، والى جانبه كان الرجال الذين جاءوا يستدعونه الى الاجتماع .

— يا رفاق الجيش الاحمر !

وبدت كلمات القوميسار خافتة وسط هدير الأصوات .

— ان عقد الاجتماعات فى وقت كهذا ، حينما يكون العدو قريبا جدا . . . أيها الرفاق . . .

ولم يسمح له بالاستمرار اذ راحت قبعات الجيش الأحمر الرمادية والحراب الزرق الناتئة كالشوك ، تميد حول الطاولة ، وكأن الريح تهزها ، وامتدت القبضات نحوه ، وجلجلت صيحات جافة فظة مثل طلقات المسدس :

— اذا فنحن الآن رفاق . ها ؟

— اخلع عنك هذى السترة الجلدية !

— لقد خدعنا !

— من تريدنا أن نقاتل ؟ !

— أقتلوه ! أطعنوه بالحراب ! لقد عانينا الكفاية من قمسرته .

ورأى شتوكمان رجلا من الجيش الاحمر ، كهلا ، ضخم الجرم يرتقى الطاولة ويمسك بلحية القوميسار الصغيرة . فتأرجحت الطاولة ، وهوى الرجل والقوميسار معا على الايدى الممدودة للرجال المتدافعين حولهما . وماجت كتلة رمادية من المعاطف بالقرب من الطاولة ، وضاعت صيحة القوميسار اليائسة فى رعيد الاصوات العنيف .

وشرع شتوكمان على الفور يشق طريقه الى وسط الجمع ، وهو ينحى الرجال عن طريقه بعنف مندفعا نحو المكان الذى القى

القوميسار الخطاب منه ولم يحاول أحد أيقافه ، لكن القبضات وأخامص البنادق كانت تهوى على ظهره ورأسه ، وانتزعت البندقية عن كتفه وقبعته القوزاقية عن رأسه .

وزعق رجل من الجيش الاحمر حينما داس شتوكمان على قدمه بشدة : «افتح عينيك حيث تسير ، أيها الشيطان !»

وعند الطاولة المقلوبة كان ضابط رعيل يسد الطريق أمامه . وكانت قبعته المصنوعة من جلد الحمل قد انداحت الى مؤخرة رأسه ، ووجهه يتصبب عرقا وقد استحال لونه أحمر كالقرميد . وعيناه تدوران فى محجريهما والشرر يتطاير منهما . وكان معطفه غير مزرر . وزأر الرجل : «أين تراك موليا ، تدفع الناس ؟»

فصرخ شتوكمان بصوت أجش ، مقيما الطاولة على أرجلها : «أريد أن أتكلم ! أفسح المجال لجندى نفر أن يقول كلمة !»

فلم يتردد بعض الواقفين فى اعانته على ارتقاء الطاولة . لكن الجلبة لم تخفت فى الساحة ، فصاح شتوكمان بأعلى صوته :

— سكوت !

وهمدت الضوضاء قليلا بعد برهة من الوقت ، وجعل شتوكمان يصرخ بصوت مبحوح ، وهو يكظم نوبة من السعال :

— يا رفاق الجيش الاحمر ! عار عليكم ! انكم تخونون حكومة الشعب فى أحرج اللحظات . تخور عزائمكم فى اللحظة التى ينبغى عليكم أن تنزلوا على العدو بقبضتكم القوية ضربة تنفذ الى قلبه . انكم تعقدون الاجتماعات فى الوقت الذى تناضل فيه بلاد السوفييتات من أجل وجودها الذى يتهدده طوق حديدى من الأعداء . انكم على أبواب خيانة مكشوفة . وما هو السبب ؟ لقد خدعكم أمراؤكم الخونة لصالح الجنرالات القوزاق . ان هؤلاء الضباط السابقين قد اخلوا بثقة الحكومة السوفييتية بهم ،

وانهم — اذ يستغلون جهلكم — يرسمون الخطط لتسليم الكتيبة الى القوزاق . ثوبوا الى رشدكم ! فبتسخير سواعدكم يريدونكم أن تسهموا فى القضاء على حكومة العمال والفلاحين .

فصفق آمر السرية الثانية ، وهو ضابط قيصرى سابق ، بندقيته الى كتفه ، غير أن شتوكمان لحظ حركته فصرخ فيه :

— اياك أن تجرأ ! سوف يتسع لك الوقت لذلك ! اننى أطالب بأن تصغوا الى جندى شيوعى . لقد وهبنا ، نحن الشيوعيين ، كل حياتنا . . . — وارتفع صوت شتوكمان الى درجة مفزعة من التوتر ، وكان وجهه شاحبا مشوها . . . — كل دمائنا ، قطرة اثر قطرة ، فى خدمة الطبقة العاملة والفلاحين المضطهدين . لقد اعتدنا على مواجهة الموت وجها لوجه . فى مقدورك أن تقتلنى . . .

فارتفعت صيحات متضاربة :

— لقد سمعنا ما فيه الكفاية !

— لا نريد ان تخدعونا اكثر من ذلك !

— دعوه يكمل !

— سكوت !

— . . . اقتلنى ، لكننى أكرر القول : ثوبوا الى رشدكم ، فليس الوقت وقت اجتماعات الآن ، بل عليكم أن تمضوا لضرب البيض .

وأجال عينيه المضيقتين فوق جمع الجنود شبه الصامتين ولاحظ فورونوفسكى ، آمر الكتيبة ، واقفا على مبعدة قليلة يبتسم بافتعال ويهمس الى جندى من الجيش الاحمر الى جانبه .

فصاح شتوكمان ، مادا يده ومؤشرا نحو فورونوفسكى :

— ان آمر كتيبتكم . . .

غير أن الآمر وضع يده على فمه وأسرّ بشىء الى الرجل الواقف الى جانبه ، وقبل أن يستطيع شتوكمان اتمام جملته ضجت اطلاقة ثقيلة الرجع خلال الهواء الرطب فى ذلك اليوم النيسانى المطير . فضم شتوكمان قبضته الى صدره وهوى على ركبتيه ، وغاب عن الانظار رأسه الحاسر الاشيب . لكنه ما لبث أن وثب على قدميه من جديد ووقف مترنحا .

فصاح ايفان اذ رأى شتوكمان يقوم : «أوسيب دافيدوفتش !» وشرع ينافح لشق طريقه اليه غير أن الذين كانوا حوله أمسكوا به من مرفقيه وحمحموا :

— صه ! سلم بندقيتك ، يا خنزير !

ونزعوا سلاحه . وفتشوا جيوبه وأبعدوه عن الساحة . ثم انقضوا على الشيوعيين الاخرين فى الحال ونزعوا سلاحهم أيضا . وسمعت من شارع جانبى بالقرب من حانوت تاجر خمس أو ست رصاصات صرعت شيوعيا من حملة الرشاشات رفض أن يسلم رشاشته من طراز لويس .

وفى تلك الأثناء استقام شتوكمان مترنحا على الطاولة ، وهو يحس باختناق فظيع . وقد علا وجهه بياض الموت ، بينما كانت شفتاه تزبدان دما ورديا . وأفلح فى الاخير أن يصيح ، مستنفدا آخر ما لديه من عزم وقوة :

— لقد خدعوكم . أولاء الخونة . . . انهم يسعون الى الحصول على العفو عنهم وعلى مناصب عالية فى الجيش . . . غير أن الشيوعية سوف تحيا . . . أيها الرفاق . . . ثـــوبـوا . . . الى . . . رشدكم . . .

ومن جديد أسند الجندى الواقف الى جانب فورونوفسكى بندقيته الى كتفه . فجعلت الرصاصة الثانية شتوكمان يخر من

على الطاولة على رأسه تحت أقدام الجنود . وقفز الى الطاولة جندى من كتيبة سيردوبسكى ، ذو وجه مجدور وفم رفيع قبيح ، وجأر :

— استمعنا الى الكثير من الوعود الخلابة ، أيها الرفاق ، ولكن كلها لم تكن سوى كلام فارغ ووعيد . والآن ، يموت هذا الخطيب اللبيب ميتة الكلاب . الموت للشيوعيين ، لأعداء الفلاحين الكادحين ! أقول ان عيوننا قد تفتحت ، واننا نعرف من هم أعداؤنا . أتذكرون ما قالوه لنا فى قرانا ؟ قالوا ستكون هناك مساواة ، اخاء ما بين الشعوب . هذا ما قاله لنا الشيوعيون . . وما الذى وجدناه بالفعل ؟ اللصوصية ، أيها الاخوان ! لقد بعث لى أبى برسالة مليئة بالشكاوى ، يقول فيها انهم ينهبون ويسرقون فى وضح النهار . أخذوا كل الحنطة من أبى ، وطاحونته أيضا . ولكن ماذا يقول مرسومهم ؟ انه يقول : كل شىء للفلاح العامل . ألم يحصل أبى على طاحونته بعرق جبينه ؟ اذن أسألكم بالله : أيمكن أن يكون هذا شيئا آخر غير اللصوصية من جانب الشيوعيين ؟ حطموهم ، مزقوهم اربا اربا !

ولم يستطع المتكلم أن يتم حديثه : فقد قدمت من الغرب سريتان من خيالة القوزاق تجريان هذبا داخل القرية ، وعلى المنحدر الجنوبى للتلال الواقعة على جانب الدون هبط مشاة القوزاق وعلى رأسهم بوغاتيريوف ، آمر اللواء الخاص للمتمردين ، فمضى الى الساحة تحف به هيئة أركان وتحرسه نصف سرية .

وبدأ المطر الشديد يسقط وسمع صوت الرعد العميق فى مكان ما على جانب الدون الاخر .

شرعت كتيبة سيردوبسكى بالاصطفاف صفين على عجل . وما كادت جماعة بوغاتيريوف تلوح من بعد حتى صرخ آمر

الكتيبة ، فورونوفسكى ، بنبرة آمرة لم يسمع رجال الجيش الأحمر لها مثيلا فى صرامتها :

— كتيبة ! استـ . . . ـعد !

٥٠

أمضى غريغورى ميليخوف خمسة أيام فى تتارسكى ، فبذر عددا من الحقول بالحنطة ، له ولعائلة حماته . ثم ، ما ان عاد أبوه من كتيبته ، وقد استبد به الحنين الى الأهل وتفشى القمل فى جسمه ، حتى استعد هو للعودة الى فرقته . وكان كودينوف قد أخبره سرا بالمفاوضات الجارية مع قيادة كتيبة سيردوبسكى ، وطلب منه العودة الى الجبهة بأسرع ما يمكن وتولى قيادة الفرقة .

وفى ظهيرة اليوم الذى قرر غريغورى أن يغادر فيه تتارسكى الى كارغينسكايا ، قاد حصانه الى الدون ليورده . وبينما كان ينزل الى الماء الذى قد فاض حتى حوافى البساتين ، رأى أكسينيا . وخيل اليه أنها كانت تتلكأ عن قصد فى امتياح الماء ، مائلة دلويها بتمهل ، وكأنها تنتظر نزوله . فتعجل خطاه ، واذ كان يتقدم منها عبرت ذهنه ذكريات حزينة ، متوهجة كلمع البرق . . .

وما ان سمعت خطاه حتى استدارت ، وبدت على وجهها دهشة مفتعلة دونما شك . غير أن فرحها باللقاء وألمها القديم فضحا افتعالها . فابتسمت ، ابتسامة بائسة ساهمة ، لا تليق بوجهها الأنوف ، حتى لقد ارتج قلب غريغورى حبا وشفقة . فأوقف حصانه ، وقد وخزه الشوق وأذلته الذكرى ، وقال :

— صباح الخير ، أيتها العزيزة أكسينيا .

— صباح النور .

كان صوت أكسينيا مزيجا غريبا من الدهشة والحب والمرارة .

— منذ زمان لم نتحادث .

— منذ زمان .

— نسيت حتى رنة صوتك . .

— انت سريع النسيان .

— صحيح ؟

ودفع غريغورى عنه الحصان الذى كان يلتصق به . وأحنت أكسينيا رأسها وحاولت أن تعلق دلوها بطرف النير ، لكنها لم تستطع . ولبثا واقفين لا يريمان برهة من الزمن . ووقت كالسهم بطة برية فوق رأسيهما . ومضت الأمواج ترتطم بالضفة ، وهى تلعق التربة الطباشيرية بنهم . وعلى الجانب الآخر كانت الأمواج بيضاء الصدور تسرى خلال الغابة التى فاض عليها النهر . وكانت الريح مفعمة بالرذاذ وعطر الدون الريحانى ، وهى تغذ الهبوب فى طريقها صوب مراميه البعيدة فى طغيان عارم .

حول غريغورى عينيه عن أكسينيا الى النهر . كانت أشجار الحور قائمة فى الماء بجذوعها الرمادية الشاحبة ، تؤرجح فروعها الجرد ، وأشجار الصفصاف ، تزينها أزهار البكر ، مطلة فوق النهر مثل غيمات خضر ناعمة . ثم سأل غريغورى ، وقد شاب صوته شىء من البرم والمرارة :

— حسنا ، أليس لنا ما نتحدث به ؟ فيم سكوتك ؟

لكن أكسينيا كانت قد استعادت رباطة جأشها ، فأجابت دون أن يرف عصب فى وجهها :

— يبدو أننا قلنا كل ما كان لدينا . . .

— حقا ؟

— نعم ، كما يجب . لا تزهر الشجرة الا مرة كل عام .

— وهل ترين أن شجرتنا انقضى وقت ازدهارها ؟

— وماذا ترى انت ؟

— انه لشىء غريب ، نوعا ما . . .

وترك غريغورى حصانه يمضى الى الماء ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وهو يرنو الى أكسينيا :

— غير أننى لا أستطيع أن أنتزعك من قلبى ، يا أكسينيا . ها ان لى أطفالا يكبرون ، وبدأ الشيب يدب فى رأسى ، وكم من السنين باعدت بيننا ، مثل هوة سحيقة ! لكننى لم أزل أفكر بك . وما فتئت أراك فى نومى وأهواك . وفى بعض الأحيان ، وحين أفكر بك ، أشرع فى استعادة ذكريات حياتنا معا عند ليستنتسكى . لكم أحببنا بعضنا ! . . وحين أنظر أحيانا الى ماضى حياتى تبدو لى مثل جيب خاو قُلِب على بطانته . . .

— وأنا كذلك . لكن علىّ أن أذهب الآن . . . فنحن واقفان نتحدث أكثر من اللازم . . .

وبعزم رفعت الدلوين ، ووضعت يديها الملفوحتين على النير ، وكانت على وشك أن ترقى المنحدر ، غير أنها أدارت وجهها على حين غرة صوب غريغورى ، واكتست وجنتاها توردا فتيا بديعا :

— كان هنا تماما ، عند هذا الموضع بالضبط ، حيث ولد حبنا ، يا غريغورى . أتذكر ؟ كان ذلك يوم رحل القوزاق الى معسكر التدريب .

قالت ذلك مبتسمة ، وانبعثت فى صوتها نغمة جذلى . .

— أذكره كله !

وعاد غريغورى بحصانه الى الفناء ثم الى المعلف . وخرج

بانتلاى بروكوفتش من السقيفة ، وكان قد بقى فى البيت ليودع غريغورى ، وسأله :

— حسنا ، هل سترحل عما قريب ؟ أتريد أن أطعم حصانك ؟

فنظر غريغورى الى أبيه ساهما وتساءل :

— أرحل الى أين ؟

— ماذا ، الى كارغينسكايا بالطبع .

— لست راحلا اليوم .

— ماذا تقول ؟

— غيرت رأيى .

ولعق غريغورى شفتيه اليابستين وحوّل عينيه صوب السماء :

— الغيوم تتصاعد ويبدو أنها ستمطر . ليس هناك ما يدعونى لأن أعرض نفسى للبلل .

فقال العجوز موافقا : «هذا صحيح» وان كان لم يصدق غريغورى ، لأنه كان فى زريبة الماشية وراء المنزل قبل بضع دقائق وشاهد غريغورى يتحدث الى أكسينيا . فقال فى سريرته بقلق : «ها هو يعود الى حيله القديمة . آمل ألا يجلب المتاعب لناتاليا من جديد ، عليه اللعنة ، لا شك أنه يشابهنى ، هذا الكلب !» وتوقف عن صنع العريش للعربة وشخص الى ظهر ابنه المبتعد ، وحين نبش ذاكرته مستعيدا شبابه هو ، شبابه المبكر ، قر قراره : «انه صورة منى ، هذا الشيطان ! لكنه فاق أباه العجوز فى هذا الميدان ، لسوف أجلده بدلا من أن أدعه يلعب برأس أكسينيا من جديد ويجلب المتاعب الى العائلة ! ولكن أنى لى ذلك ؟»

فى سابق الأيام ، كان اذا ظفر بغريغورى يتحدث الى أكسينيا ،

لم يتردد فى ضربه على ظهره بأيما شىء وقع فى يده . لكنه اليوم لم ينبس ببنت شفة حتى أنه لم يكشف عن معرفته السبب الحقيقى الذى حدا بغريغورى أن يبدل رأيه فجأة . اذ أن غريغورى لم يعد «غريشا» ، ذلك القوزاقى الفتى الطائش ، بل قائد فرقة ، جنرالا تحت أمرته آلاف من القوزاق ، وان لم يكن يحمل شارات على كتفه . فكيف يتسنى له ، هو بانتلاى بروكوفتش الذى لم ترق رتبته الى أعلى من رتبة عريف ، أن يعارض جنرالا ، وان كان ابنه ؟ فلن يسمح له شعوره بالضبط والنظام حتى مجرد التفكير بأتيان ذلك ، ولهذا شعر أن يديه مقيدتان ، وأحس بشىء من الغربة عن غريغورى . وحتى حينما صاح غريغورى عليه بخشونة أثناء الحراثة البارحة : «فيم وقوفك هناك فاغرا فاك ؟ أمسك بذاك المحراث !» رضخ للأمر ولم ينبس بجواب . ولقد بدا فى الآونة الأخيرة أنهما قد تبادلا مقاميهما . فغدا غريغورى يصيح بأبيه المسن وراح بانتلاى بروكوفتش يرضخ الى نبرة الأوامر الخشنة ، وهو يعظل هنا وهناك على ساقه العرجاء ابتغاء لمرضاة غريغورى .

وفكر : «يقول انه يخاف المطر ! بينما لم تكن هناك أية اشارة للمطر ، والريح شرقية وليس ثمة الا غمامة صغيرة واحدة تمرق عبر السماء ! أيجب علىّ أن أخبر ناتاليا ؟» واذا أشاعت الفكرة الراحة فى نفسه ، همّ بالذهاب الى الدار . لكنه أعاد النظر فى الأمر ، فعاد الى عمله ، وقد خشى ما قد يعقب ذلك من عراك . . .

ما ان وصلت أكسينيا الى الدار وأفرغت دلويها حتى مضت الى المرآة ووقفت تحدق قلقة فى وجهها الذى كان يزحف اليه الكبر وان ظل جميلا . كان لا يزال محافظا على مجونه وسحر

غوايته ، على أن خريف الحياة كان قد شرع بالقاء ألوان كابية على وجنتيها ، وكانت ثمة صفرة تحف بجفنيها ، وخصلات شائبة قد اشتبكت فى شعرها ، وقد غامت عيناها من كلال أسيان . ووقفت تحدق فى صورتها ، ثم استدارت وألقت بنفسها على السرير ، تذرف دموعا غزيرة ، حلوة تسرّى عن الآلام مما لم تعرف لها مثيلا منذ أجل بعيد .

فى الشتاء تعول الرياح القارصة فوق منحدرات الدون القاتمة ، فتكتسى عصفا ابيض من الثلج من الحوافى الجرد ، وتكومه اكواما ، وتعجنه عجنا قويا . فيتعلق ذلك الجلمود الجبار من الثلج فوق الصقع ، متلألئا فى ضوء الشمس ، ازرق فى السحر ، بنفسجيا شاحبا فى الصباح ، ورديا فى الفجر . ويظل متعلقا ، يبعث الرهبة بصمته ، حتى يتآكله الذوبان من تحته ، او ينوء بثقله فتقذفه عصفة من الريح . وآنذاك ، يهوى الى اسفل فى زئير مكتوم ، ساحقا ادغال الشوك القميئة ، مكسرا كرز الطير المتعلق بالمنحدر باستحياء ، جارا فى طريقه حاشية من مثار الثلج ، مزبدا ومتوثبا صوب السماء . . .

ولم يكن حب اكسينيا الذى تراكم عبر عدد من السنين ، مثل تلك الثلوج ، ليحتاج الى اكثر من دفعة صغيرة . فكان لقاؤها مع غريغورى كافيا وكذلك تحيته الرقيقة : «صباح الخير ، ايتها العزيزة اكسينيا» . ولكن ماذا عنه هو ؟ الم يكن عزيزا عليها ؟ الم تكن مشغولة البال به كل هذه السنين ، ترجع اليه كل يوم ، كل ساعة ، خلل ذكريات لا تمحى ؟ كانت افكارها تحوم حول غريغورى دائما ، مع كل خاطرة تدور فى ذهنها وكل خطوة تقوم بها . كذلك الحصان المعصوب يسير ويسير حول مدار الناعور الذى لا ينتهى . . .

لبثت راقدة على السرير الى ان حل المساء ، فنهضت واغتسلت ، ومشطت شعرها ، وشرعت ترتدى ملابسها بسرعة محمومة ، كأنها فتاة على وشك ان تزف الى عريسها المقبل . ارتدت قميصا نظيفا ، وتنورة صوفية ذات لون بنفسجى احمر ، وحطت عصابة على رأسها ، والقت نظرة على نفسها فى المرآة ، ثم انفلتت خارجة .

كانت الظلال تحوم فوق تنارسكى رمادية بلون الحمام . وكان البط البرى يتنادى بلهفة فوق المروج المغمورة بمياه الفيضان . وكان القمر الشاحب الواهن يرتفع وراء اشجار الحور على جانب الدون ، بينما استلقى عبر النهر شريط متموج من نوره . وكانت القطعان قد عادت من السهب قبل ان يتلاشى الضوء ، والبقرات تخور فى افنيتها ، وهى لما تشبع بعد من الحشيش الغض . لم تتوقف اكسينيا لحلب بقرتها ، بل ساقت العجل ابيض الانف خارج الاسطبل وتركته يمضى الى امه . فانقض العجل بنهم على الضرع الرقيق ، ملوحا بذيله ، وساقاه الخلفيتان متوترتان متباعدتان .

كانت داريا قد فرغت من الحلب ، وكانت تحمل السطل والمصفاة عائدة الى الدار حينما سمعت صوتا يناديها من ناحية السياج :

— داريا !

— من انت ؟

— انا اكسينيا . . . تعالى الى كوخى لحظة .

— ما الذى تريدينه منى ؟

— انا بحاجة ماسة اليك . تعالى ، بحب المسيح .

— سأصفى هذا الحليب ثم آتيك .

— سأكون فى انتظارك فى القناء .

وبعد بضع دقائق خرجت داريا فوجدت اكسينيا تنتظرها عند بوابة آل استاخوف . وكانت تنبعث من داريا رائحة الحليب الطازج وزريبة البقر ، واصابتها الدهشة لمرأى اكسينيا متزينة بملابس العيد .

— انهيت اعمالك مبكرا هذا المساء ، يا جارة !

— اشغالى قليلة فى غياب ستيبان . ليس هناك سوى بقرة واحدة . . . ولا اكاد اطبخ . . . الا قليلا ومن حين الى حين ، وهذا كل شىء .

— ماذا اردت منى ؟

— تعالى الى الداخل بعض الوقت . لدى ما اطلبه منك .

وكان صوت اكسينيا يرتجف . فتبعتها داريا الى المطبخ ، وهى تكاد تحزر سبب الحديث . وما ان دخلت حتى مضت اكسينيا الى صندوقها دون ان تشعل ضوءا ، فنبشت فيه ، ثم امسكت بيد داريا بيديها اليابستين اللاهبتين ، وادخلت خاتما فى اصبعها باستعجال .

فقالت داريا مستغربة :

— ما هذا ؟ أهو خاتم حقا ؟ لا اظنك تقصدين اعطاءه لى ؟

— بلى ، انه لك . . . تذكارا . . .

فاستفهمت داريا بنبرة جدية وهى تمضى الى النافذة لتتفحص الخاتم فى اصبعها تحت نور القمر الباهت :

— أهو من ذهب ؟

— نعم ، من ذهب . خليه لديك .

— حسنا ، شكرا لك . ما الذى تريدينى ان افعل لاجل ذلك ؟

— اطلبى من غريغورى . . . ان يأتى الي . . .

فابتسمت داريا ابتسامة عليم بالامور :

— اللعبة القديمة من جديد ؟

فجفلت اكسينيا وتوهجت حتى طفرت الدموع الى عينيها :

— لا ، لا ! اوه ، ما الذى يجول فى ذهنك ! اريد ان اكلمه حول ستيبان . فقد يستطيع ان يحصل له على اجازة .

واحتجت داريا بخبث :

— ولكن لِـمَ لم تأتى لزيارتنا ؟ كان يمكن ان تتحدثى اليه هناك لو كان لديك امر معه .

— لا ، لا ! فقد تظن ناتاليا . . . احراج . . .

— حسنا ، سأدعوه . لست بخيلة به .

* * *

كان غريغورى يتناول عشاءه . وكان قد فرغ من ملعقته وراح يمسح شاربه بيده . واذ شعر بقدم تلامس قدمه تحت المائدة ، رفع نظره . فرأى داريا تغمز له غمزة لا تكاد ترى . فحدث نفسه باهتياج : «ان كانت تستهدف جرى لاحتل مكان بيوتر ، وتحدثنى بأى شىء من هذا القبيل ، فسأضربها بالسوط . لسوف آخذها الى ساحة درس الحبوب ، واعقد تنورتها حول رأسها ، وألهبها بالسوط كالكلبة !» . غير انه قام عن المائدة ، واشعل سيكارة ومضى على مهل الى سقيفة الباب . فخرجت داريا وراءه على الفور . وحين مرت به همست فى اذنيه قائلة :

— آه ، أيها الخنزير ! اذهب . . . انها تريدك .

فتساءل غريغورى وهو يشهق بالسؤال :

— من ؟

— هى !

وبعد ذلك بساعة ، حينما نامت ناتاليا والأطفال ، خرج غريغورى ، ومعطفه مزرر باحكام عليه ، مع أكسينيا من بوابة فناء آل أستاخوف . لبثا لحظة واقفين بصمت فى الشارع الجانبى المعتم ثم مضيا ، يلفهما الصمت ذاته ، نحو السهب الذى كان يلوح لهما بسكونه ، وظلمته ، وعطر حشيشه الغض المسكر . وشد غريغورى أكسينيا اليه وهو يلفها بطيات معطفه ، فأحس بها ترتجف ، بينما كان قلبها يدق عنيفا بطيئا تحت قميصها . . .

٥١

قبل رحيل غريغورى فى اليوم التالى ، جرى نقاش بينه وناتاليا اذ انتحت به جانبا وسألته همسا :

— أين ذهبت الليلة الماضية ؟ ولِـمَ تأخرت فى العودة الى هذا الحد ؟

— هل تأخرت حقا ؟

— حسنا ، ألم يكن كذلك ؟ لقد استيقظت وسمعت الصيحة الأولى للديك ، ولم تكن قد عدت بعد . . .

— كان كودينوف هنا . وكان علىّ أن أراه للبحث فى بعض القضايا العسكرية . وهذا شىء لا تستوعبه عقول النساء ، كعقلك .

— ولكن لم لم يأت لقضاء الليلة هنا ؟

— كان يستعجل الوصول الى فيشنسكايا .

— وأين يبيت ؟

— عند آل أبونشتشيكوف . اذ له قرابة بعيدة معهم . أو شىء من هذا القبيل .

ولم تثر ناتاليا أى سؤال آخر ، وبدت شبه مقتنعة ، لكن عينيها لم تكشف عن حقيقة أفكارها ، ولم يكن فى مقدور غريغورى أن يتأكد ان كانت قد صدقته أم لا .

تناول فطورا سريعا فيما خرج بانتلاى بروكوفتش ليسرج حصانه . وهمست الينشنا وهى ترسم علامة الصليب وتقبله :

— لا تنس الله ، لا تنس الله ، يا بنى . بلغ سمعنا أنك قتلت جماعة من البحارة . . . يا الهى ! فكر بما أنت فاعل يا ولدى ! أنظر ، أى أطفال لطاف لديك ، لربما كان لأولئك الذين قتلتهم أطفال كذلك . حينما كنت صبيا ، لكم كنت رقيقا ، أما الآن فانك دائم العبوس ولا بد أن قلبك كقلب ذئب . اصغ لما تقوله لك أمك ، يا بنى ، ليست حياتك محفوظة بطلسم ، وقد يكون هناك سيف صارم ينتظر عنقك أيضا . . .

فابتسم غريغورى بفتور ، وقبّل يد أمه اليابسة ، ومضى نحو ناتاليا . فعانقته ببرود وأشاحت عنه . لكنه لم يلحظ أية دموع ، ولا شىء غير المرارة والغيظ المكتوم فى عينيها . ثم ودع أطفاله وخرج . . .

وحين كان يضع قدمه فى الركاب ويمسك بعرف الحصان الكث ، قال يحدث نفسه : «حسنا ، ها ان الحياة تأخذ منحى جديدا ، غير أن قلبى لا يزال باردا وخاويا . . . وحتى أكسينيا لا تستطيع أن تملأه اليوم . . .»

ومن غير أن يلتفت ليلقى نظرة على عائلته المتجمعة حول البوابة ، مضى على حصانه متمهلا حدر الشارع . واذ مر بكوخ

أستاخوف نظر من زاوية عينه الى النوافذ فرأى أكسينيا عند النافذة الأخيرة للغرفة الأمامية . فابتسمت ولوحت له بمنديل مطرز ، ثم دعكته فجأة فى يدها وضغطته على شفتيها وعلى عينيها اللتين كان السواد يحف بهما بعد ليلة لم تنم خلالها . . .

مضى صاعدا التل فى خبب سريع . وعند القمة رأى فارسين وعربة يتحركان ببطء على طريق الحقل باتجاهه . وتبين فيهما أنتيب ، ابن الكذوب ، وقوزاقيا شابا أسمر من الطرف الآخر للقرية . فحدث نفسه وهو يرى الى عربة الثيران : «يجلبان قوزاقا ميتين الى أهليهم» . وحين تقدم من القوزاقيين سألهما :

— من هم ؟

— أليكسى شامل وايفان توميلين وباكوف .

— مقتولين ؟

— نعم .

— متى ؟

— أمس ، عند الغروب .

— هل البطارية سليمة ؟

— نعم . الحمر باغتوهم فى مقرهم . أما أليكسى هذا فقد نال حتفه صدفة .

فنزع غريغورى قبعته وترجل عن حصانه . فأوقفت السائقة المسنة الثيران . كان القوزاق القتلى ممدودين جنبا الى جنب فى قاع العربة ، يتوسطهم أليكسى شامل . وحين تقدم غريغورى ، تناهت الى أنفه رائحة التفسخ الكريهة . كان قميص أليكسى الأزرق العتيق مفتوحا ، وقد طوى كمه الخالى تحت رأسه المشجوج ، وكان جذمور ذراعه المقطوعة ملفوفا بخرقة قذرة ومسجى على صدره . وقد تسمرت على أسنانه البيض ابتسامة وحشية خالدة ، لكن

عينيه الجامدتين كانتا تحملقان بهدوء وتأمل بادى الأسى فى السماء الزرقاء ، وفى السحب الطافية فوق السهب . . .

لم يكن بمقدور امرىء أن يميز وجه توميلين . وفى الواقع ، لم يكن هناك وجه ، بل كتلة حمراء لا شكل لها شطرت بضربة سيف مائلة . أما باكوف فقد كان أصفر كالزعفران ، ويكاد رأسه أن يكون مقطوعا برمته عن الرقبة . وكانت عظمة الترقوة البيضاء المقطوعة بارزة من ياقة قميصه غير المزررة ، وامتد على جبينه جرح رصاصة أسود . والظاهر أن أحد رجال الجيش الأحمر قد أخذته الشفقة ازاء حشرجات الموت المنبعثة من القوزاقى المصاب فأطلق عليه النار بصورة تكاد تكون أفقية ، اذ كان وجهه محروقا ومبقعا بآثار البارود الأسود .

اقترح غريغورى قائلا : «حسنا ، يا اخوان ، فلنتذكر أصدقاءنا القتلى وندخن من أجل أن ترقد أرواحهم فى سلام» . ثم تنحى جانبا وأرخى حزم السرج عن حصانه ، وأسقط الشكيمة من فمه ، وعقد الأعنة بقادمته اليسرى ثم تركه يرعى على الكلأ الحريرى الأخضر . فترجل أنتيب والقوزاقى الآخر عن حصانيهما ، وقيداهما ، ثم تركاهما يسرحان . واستلقى القوزاق وشرعوا يدخنون . وتساءل غريغورى وهو يلقى نظرة على الثيران كتة الشعر وهى تتدافع على الحشيش :

— كيف قتل شامل ؟

— كان الذنب ذنبه .

— كيف ؟

— حسنا ، كان الامر كالاتى . ظهر أمس خرجنا لاداء واجبنا فى مهمة دورية . كنا أربعة عشر ، ومعنا شامل . مضى على حصانه جذلا ، فلم يكن والحالة هذه ليشعر بنذير السوء .

وراح يهز جذمور ذراعه هنا وهناك ، ويلقى الاعنة على قربوس سرجه ويقول : «متى سيرجع عزيزنا غريغورى بانتلايفتش الينا ؟ بودى أن أشرب معه من جديد وأغنى معه أغنية أخرى» . أجل ، ظل يغنى طوال الطريق . وانحدرنا الى الوهدة وقال العريف : «حسنا ، لا أثر للحمر هنا ، يا اولاد . برأيى انهم لم يغادروا القرية بعد . ليس الفلاح الروسى بالذى يستيقظ مبكرا ، اظنهم ما يزالون يحشون أنفسهم بالدجاج الاوكرانى . فلنسترح قليلا ، فخيلنا تتصبب عرقا» وهكذا ترجلنا واضطجعنا فوق الحشيش فى وهدة ناضبة ، وأبقينا حارسا على التل . رأيت أليكسى يرخى أحزمة سرج حصانه ، فقلت له : «يحسن بك ألا ترخى هذه الاحزمة ، فقد نضطر الى الرحيل بسرعة . وحينذاك كيف سيتسنى لك شدها من جديد بيدك الواحدة ؟» لكنه ردّ علىّ : «سأتدبرها أسرع منك . لا تحاول أن تعلمنى ، يا نبات الحلفاء الأخضر» فأرخى الاحزمة وأسقط الشكيمة من فم حصانه ، فتمددنا هناك ندخن ونتحادث ونغفو . غير أن حارسنا كان مستلقيا تحت شجيرة ، فغفا هو الآخر . وعلى حين غرة سمعت زنخرة حصان على مبعدة ما . لم أكن أرغب فى الحركة ، لكننى نهضت مع ذلك ومضيت الى قمة التل . وهناك كان الحمر على خيولهم يجرون باتجاهنا وفى المقدمة قائدهم على حصان رائع ومعهم رشاش فعدوت هابطا الى الوهدة وصحت : «الحمر قادمون ، الى الخيل !» ورآنى الحمر أيضا وتناهى الينا صوت آمرهم يصدر أمرا . فامتطينا الخيول فاستل عريفنا سيفه وأرادنا أن نهجم ، لكننا لم نكن غير أربعة عشر ، وهم نصف سرية ، ولديهم مدفع رشاش أيضا . فانطلقنا خببا ، ولم يكن فى مقدورهم أن يستخدموا رشاشهم لموقعنا الذى لم يكن مناسبا بالنسبة لهم ، وهكذا بدأوا يطاردوننا .

على أن خيلنا كانت أفضل من خيلهم ، فابتعدنا مسافة لا بأس بها عنهم ، ثم ترجلنا عن خيلنا وبدأنا نطلق النار عليهم . وفى تلك اللحظة بالذات لاحظت أن شامل لم يكن معنا . فحين هرعنا لركوب خيلنا ، عدا هو الى حصانه ، واستطاع أن يضع يده السليمة على قربوس السرج وقدماً فى الركاب ، ولكن فيما كان يحاول الركوب انزلق السرج تحت بطن الحصان ولم يفلح فى ركوب الحصان وبقى وحيدا يواجه الحمر . وعلى نحو ما استطاع الحصان أن يتخلص منهم فجاء يجرى وراءنا والسرج يتأرجح تحته ، وصار مذعورا بحيث لم يسمح لاحد ان يقترب منه فهو يخور كالوحش . وهكذا اودى شامل بنفسه . فلو لم يكن قد أرخى أحزمة السرج لكان اليوم حيا يرزق .

سرت ابتسامة تحت شاربى القوزاقى فختم قصته :

— كان شامل يغنى فى الايام الاخيرة اغنية تقول ان الدب قتل بقرة وصاحبها وهذا ما حدث فى الواقع . لقد قتلوه بشكل لا يتعرف به المرء على وجهه . ظلوا يشطبونه حتى صار الدم يتدفق منه ، ولو كنت هناك لحسبت أن ثورا هائجا قد ذبح فى ذلك المكان . وبعد أن رددنا الحمر على أعقابهم ، مررنا بالوهدة والتقطناه .

وتساءلت المرأة التى كانت تقود العربة وقد نفد صبرها ، وهى تزيح جانبا العصابة التى كانت تقى وجهها من الشمس :

— حسنا ، هل سنواصل المسير ؟

— لا تستعجلى ، يا امرأة . سنمضى بعد لحظة .

— كيف تتوقع منى ألا أستعجل ! ان هذه الجثث الميتة تبعث رائحة نتنة تمكن أن تطرحك أرضا !

فقال أنتيب متفكرا :

— ولماذا لا تكون رائحتها قوية ؟ لقد أكلوا كفايتهم من اللحم ونهشوا كفايتهم من النساء فى حياتهم .. فالرجال على شاكلتهم تنبعث منهم رائحة نتنة دائما حينما يموتون . يقال ان القديسين وحدهم هم الذين لا يفوحون بعطر ذكى ، ولكنكم لو سألتمونى لقلت انها حزمة من الأكاذيب . فمهما بلغت قداسته فانه سيظل يفوح برائحة نتنة كالبلوعة ما ان يبدأ فى التعفن . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . فهم جميعا يهضمون طعامهم فى مصارينهم ، والله اعطاهم من المصارين مثل أى انسان آخر .

غير أن القوزاقى الآخر انتابه الغضب لأمر ما فصاح به :

— أى جحيم تتحدث عنه ؟ قديسون ! لنواصل السير .

ثم ودع غريغورى القوزاق ومضى الى العربة ليلقى نظرة أخيرة على أبناء قريته الموتى . ولم يلاحظ الا حينذاك أنهم كانوا ، ثلاثتهم ، حفاة ، بينما وضعت ثلاثة أزواج من الجزم عند أقدامهم .

فتساءل :

— من خلع جزمهم ؟

— قوزاقنا فعلوا ذلك ، يا غريغورى بانتلاييفتش . كانت جزمهم جميعا جيدة ، فارتأت السرية أن من الأفضل خلعها واعطاءها لمن جزمهم عتيقة . وطبيعى أن للرجال الموتى عوائلهم . ولكن اولادهم يلبسون حتى الجزم العتيقة . ذلك ما قاله أنيكوشكا . قال : «الموتى لا يمكن أن يمشوا أو يركبوا . أعطونى جزمة أليكسى ، فان لها زوجا جيدا من النعل . والا فسأموت من البرد قبل أن أحصل على زوج واحد من الحمر !» وهكذا خلعناها ووضعنا بدلها ثلاثة أزواج عتيقة .

استحث غريغورى حصانه على الخبب ، وبينما كان يبتعد

سمع القوزاقيين يتجادلان حول ما اذا كان قد ظهر قديس من بين القوزاق فى يوم ما .

هبط الى الوهدة ثم اجتاز طريق الهتمان ورأى كيف وصلت العربة والفارسان القرية ببطء بعد ان نزلوا من المنحدر .

ولبث محافظا على سرعته طوال الطريق تقريبا الى كارغينسكايا . كان النسيم الرقيف ينفش عرف الحصان . وكانت السناجب البرية الطويلة ذات اللون البنى تعدو عبر الطريق ، وهى تصفر هلعة . وكان صفيرها الحاد المنذر منسجما على نحو غريب مع الصمت العميق المخيم على السهب . وكانت طيور الحبارى تطير على علو منخفض فوق التلال القائمة على جانب الطريق . وارتفع أحدها نحو السمت وكأنه يسبح فى الفضاء اللازوردى ، متوهجا كالثلج فى ضوء الشمس ، وجناحاه يخفقان بسرعة ، ورقبته المطوقة بريش مخملى تشرئب أثناء طيرانه السريع . وارتفع ، ثم خر هابطا ، وجناحاه يشتد خفقانهما . وحين اقترب من الأرض راح جناحاه يخفقان ازاء مهاد خضر من الحشائش ، وذلك للمرة الأخيرة قبل أن يختفى ، وقد احتواه بحر من الخضرة .

كان نداء ذكور الحبارى الملهوف العارم يُسمع فى كل مكان . وفى موضع ما ، وعلى مبعدة بضع خطوات من الطريق ، رأى غريغورى دائرة كاملة من الأرض هرستها ذكور الحبارى المتصارعة على أنثى الطير . لم تبق حشيشة فى الدائرة ، ولم يكن فيها غير الغبار الرمادى الرقيق عليها آثار سيقان الطيور وعلى حواشى الدائرة تنتصب عيدان جافة من الشيح والنجيل ، وريش قوادم وذيل عالق بها مهتزا فى مهب الريح . وعلى مسافة ليست بعيدة من ذلك الموضع جفلت أنثى حبارى فى عشها ، وحين لم تجرؤ على الطيران راحت تركض مسرعة على ساقيها الصغيرتين ،

وظهرها محدودب كظهر امرأة عجوز ، متجهة صوب الحشيش ، ثم اختفت .

كانت ثمة حياة عارمة ، نابضة غير مرئية تتفتح فى السهب ، وقد بعث الربيع فيها الخصب والعطاء . كان العشب يتنامى بغزارة ، وكانت الطيور والحيوانات تتناسل فى مضاجعها الخفية فى السهب ، واكتست الحقول بكساء منفوش رائع من نبتات صغيرة لا حصر لها . وليس ثمة غير النجيل المتخلف من العام الماضى ، يتشبث بالأرض باصرار اتقاء الموت ، وقد تكاثف باكتئاب على منحدرات روابى الدفن التى انتصبت كالحرس فوق السهب . بيد أن الهواء النشيط المنعش كان يجتث ذلك النجيل بلا اكتراث من جذوره ويقذف به ، وهو يطارده من هنا ومن هناك فوق السهب النابض بالحياة .

بلغ غريغورى كارغينسكايا قبيل المغرب . وفى الصباح التالى تسلم قيادة الفرقة . وبعد أن ألقى نظرة على آخر التقارير الواردة من هيئة الأركان فى فيشنسكايا ، وتشاور مع رئيس هيئة الأركان ، قر رأيه على القيام بعملية تعرض . اذ كانت الكتائب تعانى نقصا خطيرا فى العتاد ، وصار لزاما الحصول عليه عن طريق الهجوم ، والاستيلاء عليه من الحمر ، وكان هذا هو السبب الرئيسى للقرار الذى اتخذه غريغورى .

وقرب المساء سحبت الى كارغينسكايا كتيبة مشاة وثلاث كتائب من الفرسان . واستقر الرأى على أخذ ستة من المدافع الرشاشة فقط من أصل اثنين وعشرين مما كان موجودا فى الفرقة ، اذ لم تكن ثمة أحزمة عتاد للرشاشات الأخرى .

وشرعت قوات القوزاق بشن هجوم التعرض فى الصباح التالى . فاستلم غريغورى بنفسه قيادة كتيبة الخيالة الثالثة ،

وأرسل دوريات راكبة أمامه ، وقاد الكتيبة مسرعا صوب الجنوب حيث أفادت التقارير أن كتيبتين من الجيش الأحمر قد حشدتا هناك استعدادا للهجوم على القوزاق .

وما ان ابتعد زهاء فرستين عن كارغينسكايا حتى لحق به ساع يحمل خطابا من كودينوف . وكان الخطاب كما يلى :

لقد استسلمت كتيبة سيردوبسكى لنا . وقد نزع السلاح عن جميع جنودها . وحاول عشرون منهم المقاومة فقتلوا واستولينا على أربعة مدافع ميدان (بيد أن المدفعيين الشيوعيين الملاعين قد هربوا بالمغالق) اضافة الى مائتى قذيفة وتسعة مدافع رشاشة . وتجرى عندنا الآن احتفالات كبيرة بهذه المناسبة . اننا سنوزع الجنود الحمر على السرايا ونجعلهم يقاتلون أبناء جلدتهم . هناك شىء واحد كدت أنساه . لقد أسر اثنان من أبناء قريتك الشيوعيين ، هما ايفان كوتلياروف وميخائيل كوشيفوى ، اضافة الى عدد كبير من شيوعى بلانسكايا . انهم يساقون الآن فى الطريق مشيا على الأقدام الى فيشنسكايا حيث سنقضى عليهم . كيف هى الأمور لديك ؟ ان كنت بحاجة الى خراطيش ، فأخبر الساعى سنبعث اليك خمسمائة .

كودينوف

فصاح غريغورى : «مراسل !» فهرع اليه بروخور زيكوف على حصانه فى الحال ، واذ لاحظ التعبير المرسوم على وجه غريغورى ، استبد به الذعر حتى أنه رفع يده بالتحية .

فصاح غريغورى فيه :

— ريابتشيكوف ! أين ريابتشيكوف ؟

— فى نهاية الرتل .

— اذهب وايت به هنا حالا .

فمضى زيكوف هذيا ، وما هى الا برهة حتى جاء ريابتشيكوف الى غريغورى خببا . كان وجهه ذو العذارين الأشقرين

قد ترك الطقس عليه أثره فبات جلده يتقشر ، وقد حرقت شمس الربيع شاربيه وحاجبيه حتى استحال لونها أحمر كلون الثعلب وكان يبتسم وينفث دخان سيكارة كبيرة وهو يتقدم . وكان حصانه الكميت الداكن ، السمين القوى على الرغم من حلول الربيع ، يخب بمرح خفيف جذل ، ونطاق صدره يتلامع .

وتساءل اذ لاحظ الساعى الى جانب غريغورى :

— أهى رسالة من فيشنسكايا ؟

فأجاب غريغورى باقتضاب :

— نعم . استلم قيادة الكتيبة والفرقة . انا راحل .

— حسنا ، لا بأس . ولكن فيم الاستعجال ؟ ماذا جاء فى الرسالة ؟ ومن الذى كتبها ؟ كودينوف ؟

— استسلمت كتيبة سيردوبسكى فى أوست–خوبرسكايا .

— بديع ! اذا ما زلنا أحياء نرزق ! أذاهب أنت فى الحال ؟

— فى الحال .

— حسنا ، ليكن الله معك ! وحينما تعود ستجدنا قد تقدمنا مسافة طيبة .

فألهب غريغورى حصانه بعنف . «يجب أن أرى ميشا وايفان على قيد الحياة . . . فقد أستطيع أن أعرف قاتل بيوتر . . . وأخلص ايفان وميشا من الموت . . . يجب أن أنقذهما . . . صحيح أن هناك دما مهدورا بيننا ، لكن هناك صداقتنا القديمة أيضا» هكذا كان يفكر وهو ينحدر من التل عدوا .

ما ان دخلت السرايا المتمردة أوست–خوبرسكايا وأحاطت بكتيبة سيردوبسكى ، حتى مضى آمر اللواء بوغاتيريوف يصحبه فورونوفسكى وفولكوف لعقد مؤتمر للمداولة . فعقد المؤتمر فى بيت أحد التجار الواقع على مقربة من الساحة ، ولم يدم الا زمنا وجيزا . فحيا بوغاتيريوف فورونوفسكى دون أن يلقى سوطه ، وقال :

— كل شىء جرى على نحو بديع ! سوف تثبت هذه المأثرة فى سجل خدماتك . ولكن لِـمَ لم تستطع الاستيلاء على المدافع ؟

فأجاب فورونوفسكى :

— صدفة ، مجرد صدفة ، أيها الآمر . كان كل المدفعيين تقريبا من الشيوعيين ، وقد أبدوا مقاومة يائسة حينما حاولنا تجريدهم من السلاح . فقتلوا اثنين من رجالنا وهربوا بمغالق المدافع .

— يا لسوء الحظ !

وألقى بوغاتيريوف قبعته على الطاولة — فبان بوضوح على القبعة الأثر الذى خلفته شارة الضباط التى انتزعت منها مؤخرا — وابتسم ابتسامة فاترة وهو يمسح وجهه العرق الأحمر ورأسه الحليق بمنديل قذر :

— حسنا ، ان كل شىء على ما يرام ! اذهب وتكلم الى جنودك . . . أخبرهم بأن عليهم تسليم جميع أسلحتهم .

فارتج فورونوفسكى لنبرة الضابط القوزاقى الآمرة ، وسأل متلعثما :

— جميع أسلحتهم ؟

— لن أقول مرتين . قلت «جميع» وأعنى «جميع» .

— لكننا اتفقنا على ألا تجرد الكتيبة من سلاحها . لا شك أننى أدرك أن المدافع والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية . . . وكل ما هو من ذلك النوع من المعدات ، يجب أن نسلمه دون قيد أو شرط . أما بشأن المعدات التى تعود لرجال الجيش الأحمر . . .

فزمجر بوغاتيريوف وضرب ساقه بسوطه :

— ليس هناك جيش أحمر الآن ! انهم ليسوا رجال الجيش الأحمر الآن بل جنود فى طريقهم للدفاع عن أراضى الدون . . . فاهم ؟ واذا لم يرضخوا ، فاننا سنجد طرقا كفيلة بجعلهم يرضخون . اننا لن نلعب الختيلة * . لقد زرعتم قذارتكم فى أرضنا ، وها انكم الآن تريدون فرض الشروط . لا يمكن أن تكون بيننا أية شروط . فاهم ؟

وأحس فولكوف ، رئيس هيئة أركان كتيبة سيردوبسكى ، بالاستياء من كلمات بوغاتيريوف . فتساءل بحدة ، وهو يمرر أصابعه على أزرار ياقة قميصه الاطلسى الاسود وينفش الخصل الكثة لناصية شعره السوداء الغزيرة :

— اذا ، فأنتم تعتبروننا أسرى ؟ أهذا هو موقفكم ؟

فقاطعه بوغاتيريوف ، وهو يفصح بسلوكه بشكل جلى أن الضابطين واقعان تحت رحمته تماما :

— لم أقل ذلك ، ولا داعى لازعاجى بافتراضاتكما .

وسادت الغرفة لحظة صمت . وكان ينبعث من الساحة هدير مكتوم . فراح فورونوفسكى يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، مفرقعا

---

* من كلمة «ختل» اى اختفى . لعبة الطماية ، وبالعامية المصرية لعبة الاستغماية . **المترجمون** .

مفاصل أصابعه ، ثم زرر قمصلته والتفت الى بوغاتيريوف وعيناه ترقان بعصبية :

— ان فى لهجتك اهانة لنا ، وهى لا تليق بك ، كضابط روسى ، وأقول هذا لك وجها لوجه . ولسوف نعرف ، ما دمت قد تحديتنا . . . سنعرف كيف نتصرف . أيها الرائد فولكوف ، انا آمرك بالذهاب الى الساحة واخبار الضباط ألا يسلموا أسلحتهم الى القوزاق بأى حال من الأحوال . وأصدر أمرا الى الكتيبة أن تكون فى حالة استعداد . سوف أنهى حديثى بعد قليل مع هذا . . . هذا السيد بوغاتيريوف ، ثم آتى الى الساحة .

فتلوى وجه بوغاتيريوف غضبا ، وفتح فاه ليتكلم . غير أنه توقف ، اذ أدرك أنه قد نطق بأكثر مما ينبغى ، وغيّر لهجته فى الحال . فصفق قبعته على رأسه وهو لا يزال يعبث بسوطه ، وقال برقة وأدب غير متوقعين :

— أيها السيدان ، انكما لم تفهمانى جيدا . لا شك أننى لم أنشأ على ثقافة خاصة ، ولم أذهب الى الكلية العسكرية أبدا ، ولهذا فقد لا أكون قد عبرت عما أريد بشكل لائق . ولكننا جميعا فى جانب واحد . ويجب ألا يكون بيننا أى شعور بالاستياء . فكل ما أردت قوله هو أن رجال الجيش الأحمر ينبغى أن يجردوا من سلاحهم على الفور ، وعلى الأخص أولئك الذين لا ثقة لنا ، أو لكم ، بهم . وهذا كل ما قلت .

— فى مثل هذه الحالة ، كان عليك أن تتحدث بوضوح أكثر ، أيها الآمر . يجب أن تتفق معنا ان لهجتك المتحدية ، وسلوكك كله . . .

وهز فورونوفسكى كتفيه واستطرد بلهجة أهدأ ، وان ظلت نبرة برمة تشوب صوته :

— كان من رأينا نحن أن ينزع السلاح عن العناصر المترددة وغير المؤتمنة وتسلم لكم لتتصرفوا بهم كما تشاؤون . . .

— نعم ، هذا ما قلته .

— حسنا ، اذا ، قلت اننا صممنا على تجريدهم من السلاح بأنفسنا . أما جماعتنا من الصداميين ، فاننا سنحتفظ بهم كوحدة . سنحتفظ بهم بأى ثمن . أنا نفسى او مساعدى فولكوف ، الذى سمحت لنفسك أن ترفع الكلفة معه ، فسوف نتولى قيادة الوحدة وسنمحو عن أنفسنا بكل شرف عار الاشتراك فى صفوف الجيش الاحمر . وعليك أن تمنحنا هذه الفرصة .

— كم سيكون عدد المشاة فى جماعتكم ؟

— نحو مائتين .

فوافق بوغاتيريوف على مضض : «حسنا ، لا بأس» . ثم قام ، وفتح الباب وصاح حدر الممر على صاحبة البيت . وحينما ظهرت عند الباب امرأة متقدمة فى السن تضع حول رأسها شالا ، أمرها أن تأتى اليه بشىء من اللبن . .

— اعذرنى ، ارجوك . لا يوجد لدينا لبن .

فقال متهكما :

— أظنك كنت تقدمين اللبن للحمر ، اما لنا فلا ؟

وأعقب ذلك صمت مقلق . ثم قطعه فولكوف اذ تساءل :

— هل لى أن أذهب ؟

فأجاب فورونوفسكى وهو يتنهد :

— نعم ، اذهب واصدر أمرا بنزع السلاح عن أولئك الذين أدرجنا أسماءهم فى القائمة .

لم يكن ما حدا بالرئيس الركن فورونوفسكى أن يقول : «سنعرف كيف نتصرف» الا شعوره بالاهانة التى وجهت الى كرامته

كضابط . فقد أدرك تماما أن اللعبة قد تمت وأن طريق التراجع قد انقطع . وكانت الأنباء قد بلغته بأن قوات أرسلت من مقر الجيش لنزع السلاح عن كتيبة سيردوبسكى المتمردة وأنها كانت فى طريقها قادمة من أوست–مدفديتسا وسوف تصل فى غضون بضع ساعات . على أن بوغاتيريوف هو الآخر أدرك أن فورونوفسكى كان ضابطا يعتمد عليه ولا يخشى منه أى ضرر ، ولم تكن لديه أية فرصة للتراجع ، ولهذا وافق على مسؤوليته الخاصة على تشكيل وحدة مقاتلة مستقلة من القسم الذى يعتمد عليه من الكتيبة . وعلى هذا الأساس انتهى المؤتمر .

وفى الوقت نفسه ، كان القوزاق قد شرعوا ينزعون سلاح الكتيبة بنشاط وجد ، دون أن ينتظروا نتائج المؤتمر . وراحت عيون وأيدى القوزاق الشرهة تنقب فى عربات أمتعة الكتيبة ، وتستولى لا على العتاد فحسب ، ولكن على الجزم الجيدة ، ولفافات السيقان ، والبطانيات ، والسراويل والطعام . وازاء هذا التطبيق للعدالة القوزاقية حاول زهاء العشرين من رجال سيردوبسكى أن يقاوموا فهمز أحدهم أخمص بندقيته فى قوزاقى اخذ منه كيس النقود ، وصاح : «أيها اللص ! ما الذى تأخذه ؟ أرجعه والا ستنال حربة تنفذ فيك» .

فتلقى الاسناد من رفاقه وارتفعت صيحات حانقة :

— يا رفاق ، الى السلاح !

— لقد خدعونا .

— لا تسلموا بنادقكم !

ونشبت معركة بالأيدى ، ثم حشر رجال الجيش الأحمر المتمردون ازاء جدار ، حيث قضى عليهم خيالة القوزاق فى بضع دقائق .

وحين وصل فولكوف استؤنف نزع السلاح بسرعة أشد . وصف رجال سيردوبسكى صفوفا ، وأخذوا يكومون على الأرض بنادقهم وقنابلهم اليدوية ومعدات تلفون الميدان ، وصناديق الخراطيش وأحزمة المدافع الرشاشة .

ثم تهادى بوغاتيريوف الى الساحة على حصانه خببا . وصاح من فوق حصانه الهائج أمام رجال سيردوبسكى وهو يرفع سوطه فوق رأسه على نحو متوعد :

— اصغوا الىّ ! من اليوم فصاعدا ، سوف تقاتلون الشيوعيين الملاعين وجنودهم . وسيشمل العفو كل من يمضى معنا ، أما أولئك الذين يحاولون التملص فسينالون ذلك الجزاء ! — وأشار بسوطه الى الجثث ، التى لم يبق عليها سوى الملابس الداخلية . وقد جثمت تحت الجدار فى كومة بيضاء لا شكل لها .

وهدرت همهمة خفيضة خلال صفوف رجال الجيش الأحمر ، دون أن يرفع أحدهم صوته بالاحتجاج أو يخرج من الصفوف .

كان القوزاق — مشاة وفرسانا — يحيطون بالساحة فى حلقة محكمة ، وعلى مقربة من سور الكنيسة صوبت مدافع سيردوبسكى الرشاشة باتجاه مراتب سيردوبسكى نفسها ، وقد قرفص خلفها رماة رشاشات القوزاق على أتم استعداد لاطلاق النار .

وفى غضون ساعة من الزمن ، قام فورونوفسكى وفولكوف بانتقاء الرجال الذين يعتمد عليهم من بقية الكتيبة . كان عددهم ١٩٤ . وقد سميت الوحدة الجديدة «فوج الثوار الخاص الأول» وخرجت فى اليوم نفسه الى خط الجبهة . وقد سرت شائعة آنذاك بأن الكتيبة الثانية والثلاثين للجيش الأحمر ، تحت قيادة ميشكا بلينوف الشهير كانت تتقدم ساحقة كل ما يصادفها .

ولقد أرسلت سرية من احدى قرى منطقة أوست–خوبرسكايا لملاقاتها فأبيدت هذه السرية عن بكرة أبيها . وقد كان بوغاتيريوف عازما على اختبار عناصر القتال فى الفوج الجديد عن طريق اقحامه فى معركة ضد بلينوف .

أما بقية كتيبة سيردوبسكى البالغ عددهم زهاء ثمانمائة رجل فقد سيقوا على امتداد ضفاف الدون الى فيشنسكايا . هذا ما امره كودينوف فى رسالة موجهة الى بوغاتيريف . وكان فى حراستهم ثلاثة سرايا من القوزاق ، مجهزة بمدافع سيردوبسكى الرشاشة .

وقبل أن يغادر بوغاتيريوف أوست–خوبرسكايا حضر قداسا دينيا ، ثم غادر الكنيسة ولم يكن القس قد أتم دعاءه بالنصر «للمحاربين القوزاق المحبين للمسيح» . وحينما امتطى حصانه نادى على أحد أمراء السرايا المتمردة عليها ان تبقى فى اوست–خوبرسكايا وأصدر اليه التعليمات هامسا فى اذنه :

— أحرسوا أولئك الشيوعيين كما تحرسون مستودعا للبارود . وفى الغد سوقوهم الى فيشنسكايا تحت حراسة موثوقة . وأرسلوا السعاة اليوم الى القرى لاخبار الناس عن هوية القادمين . انهم سينزلون عقابهم بهم .

وغادر القرية .

٥٣

حوالى منتصف النهار ، ذات يوم من أيام نيسان ، ظهرت طائرة فوق قرية سينكين فى مقاطعة فيشنسكايا . فهرع الأطفال والنساء والشيوخ خارج أكواخهم وقد استلب هدير المحرك العميق

لبهم ، وراحوا يشرئبون بأعناقهم ويضعون راحاتهم على عيونهم وهم يحملقون نحو الطائرة التى راحت تحوم دائرة كالصقر فى السماء المضببة فوقهم . وصار هدير المحرك أعلى وأقوى فيما كانت الطائرة تهبط على مهل ، باحثة عن موضع مستو للهبوط فى المرعى خارج القرية .

وصاح جد عجوز ذو خيال خصب وقد استبد به الفزع : «سيلقون علينا القنابل فى الحال ! حذار !» فتناثر الحشد المتجمع فى ركن الشارع كقطرات الماء . وراحت النساء تجرجر أطفالهن الزاعقين ، والشيوخ يتواثبون كالماعز فوق الأسيجة ويلوذون بالبساتين . ولم تبق فى الركن الا امرأة عجوز واحدة . وما كان لها أن تتخلف عن الهرب ، بيد أنها انكفأت على الأرض ، اما لأن ساقيها خانتاها فى غمرة الرعب أو أنها تعثرت فوق أجمة . وحيث انكفأت بقيت راقدة وهى تدفر بساقيها الهزيلتين بلا حياء وتنادى بصوت واهن :

— آه ، أنقذونى ! الموت ، الموت !

ولم يستدر أحد لينقذ المرأة العجوز . ومرت الطائرة فوق مخزن الغلال مباشرة ، بهديرها الفظيع ، فحجب ظل جناحيها نور النهار ثانية من الوقت عن عينى العجوز المرتعبة . وفى تلك اللحظة ، حين أضحت نصف ميتة من الخوف ، لا تسمع ولا تحس بشىء حولها أو تحتها ، بالت على نفسها كالطفل . وكان من الطبيعى أن يستبد بها الرعب حتى أنها لم تلحظ أن الطائرة قد حطت على المرعى ، وأن رجلين يرتديان قمصلتين جلديتين سوداوين ظهرا من قمرة الطيار . واستدارا بتردد صوب القرية وهما يجيلان النظر حولهما حذرين .

بيد أن زوجها ، الذى كان قد اختبأ فى البستان ، كان

عجوزا شجاعا ، وبالرغم من أن قلبه كان يخفق بشدة كقلب عصفور فى فخ ، فقد كانت لديه من الشجاعة ما جعله يلبث ليراقب ما حدث . وكان هو الذى شخص فى أحد الرجلين ضابطا ، هو بيوتر بوغاتيريوف ، ابن رفيق له فى الكتيبة . وكان بيوتر ، وهو قريب غريغورى بوغاتيريوف ، آمر لواء المتمردين الخاص ، قد تراجع مع البيض الى الدونيتس . ولكن مما لا شك فيه أنه كان هو نفسه ، بيوتر بوغاتيريوف .

وحدّق العجوز متفرسا بعض الوقت ، وهو يقرفص كالأرنب ويداه متدليتان أمامه . وأخيرا قام على قدميه ليرى ما اذا كانت ساقاه ستحملانه ، وقد اقتنع أنه كان بيوتر بوغاتيريوف فعلا ، بيوتر أزرق العينين نفسه الذى كان قد زارهم فى العام السابق بذقنه غير الحليق . وحملته ساقاه بشكل بديع ، ولم يرتجف الا قليلا . وهكذا بزغ العجوز ببطء من البستان .

ولم يذهب الى زوجته العجوز ، التى كانت لا تزال راقدة فى التراب ، بل سار مباشرة صوب بيوتر ورفيقه ، وهو ينزع قبعته القوزاقية . فعرفه بيوتر بوغاتيريوف ، وحياه بتلويح من يده وابتسامة .

فتساءل العجوز :

— قل لى ، ألست بيوتر بوغاتيريوف حقا ؟

— بلى ، هو أنا ، أيها الجد !

— اذن ، فقد أنعم الله علىّ برؤية الماكنة الطيارة فى شيخوختى ! لقد بثت فينا الرعب حقا .

— لا يوجد حمر فى المقاطعة ، أليس كذلك ، أيها الجد ؟

— كلا ، يا بنى . ردوا الى مكان ما عبر التشير فى المناطق الأوكرانية .

— وهل نهض قوزاق قريتنا سينكين أيضا ؟

— لقد نهضوا بالفعل ، ولكن عددا كبيرا منهم رقدوا من جديد .

— وكيف هذا ؟

— اقصد قتلوا .

— آه ! وعائلتى ، وأبى . . . هل هم بخير ؟

— كلهم بخير وأحياء يرزقون ، ولكن ، هل أتيت من الدونيتس ؟ هل رأيت ابنى تيخون هناك ؟

— نعم ، لقد جئت اليك بتحية منه . حسنا ، أيها الجد ، كن حارسا على الطائرة كيلا يعبث بها الأولاد . انا ذاهب الى البيت — والتفت الى الرجل الآخر وقال : — هيا بنا .

وانطلق بيوتر وصاحبه الى القرية . وبدأ القرويون المذعورون يظهرون من البساتين ومن المآوى والسراديب ومن كل جحر وشق يخطر على البال . ومضوا يحيطون بالطائرة التى كانت ما تزال تنفث رائحة النفط والزيت . وكان جناحاها قد اخترقهما رصاص ومنثار فى مواضع عدة . وكانت تقف صامتة حارة كحصان مجهد .

هرول العجوز الذى كان أول من شخص بيوتر بوغاتيريوف نحو الزقاق الذى سقطت فيه زوجته ، ليزف اليها أخبار ابنهما . ولكنه لم يعثر لها على أثر . اذ كانت قد لملمت نفسها وهرعت الى الكوخ لتغير ملابسها . فمضى العجوز الى الكوخ ، وحين وجدها صاح : «بيوتر بوغاتيريوف عاد الى القرية . حمل الينا تحية من تيخون» . ثم لاحظ أن زوجته العجوز كانت تغير ملابسها ، ومن غير أن يدرك لذلك سببا ، فار الغضب فيه فزأر فيها : «لماذا ترتدين أحسن الحلل ، أيتها العجوز الهرمة ؟ لن يلتفت اليك أى انسان ، ايتها الشيطانة الفانية !»

وسرعان ما تجمع كهول القرية فى بيت والد بيوتر بوغاتيريوف . وراح كل منهم ينزع قبعته عند العتبة ، ويرسم علامة الصليب أمام الايقونات ، ويجلس بوقار على المصطبة متكئا على عكازته . ومضى بيوتر بوغاتيريوف يقص عليهم ، وهو يرتشف من قدح لبنا باردا ، كيف أنه طار الى المنطقة بناء على تعليمات من حكومة الدون فى نوفوتشيركاسك ، بغية اقامة اتصال مع القوزاق المتمردين ومد يد المعونة اليهم فى نضالهم ضد الحمر ، بتجهيزهم بالعتاد والضباط بواسطة الجو . وأخبرهم بأنه لن يمضى وقت طويل حتى يقوم جيش الدونيتس بهجوم تعرضى على امتداد جبهته ثم يلتحق بجيش المتمردين . ولام الشيوخ على ضعف تأثيرهم فى القوزاق الشباب الذين تركوا الجبهة وسمحوا للحمر أن يطأوا أرض الدون ، وأنهى كلامه بالقول :

— ولكن ما دمتم قد أعدتم النظر فى ذلك وطردتم الحكومة السوفييتية الى خارج المنطقة ، فان حكومة الدون ستغفر لكم كل شىء .

فقال له أحد الشيوخ مترددا :

— ولكن حتى الآن ، يا بيوتر غريغوريتش ، ما تزال لنا حكومة سوفييتية ، ولكن ليس فيها شيوعيون ، ولا يحمل علمنا ألوانه الثلاثة ، انما هو أحمر وأبيض .

وأضاف آخر :

— وشبابنا ، الخنازير ، لا يزالون ينادى أحدهم الآخر بكلمة «رفيق» حينما يتحادثون .

فابتسم بوغاتيريوف تحت شاربه ، وأجاب وهو يضيق عينيه الزرقاوين بصورة مرحة :

— حكومتكم السوفييتية أشبه بالجليد فى الربيع . لا تلقى الشمس عليها بعض الدفء حتى تذوب وتتلاشى . أما

أولئك الذين نظموا عملية الفرار من الجبهة ، فاننا سنجلدهم جميعا فور عودتنا من الدونيتس !

فهدر الشيوخ مستحسنين فرحين :

— لا فض فوك ، أجلدوهم ، هؤلاء الشياطين ! أجلدوهم حتى يتزف الدم منهم ! أجلدوهم على الملأ !

• • •

وقرب حلول المساء ، هرع قائد المتمردين ، كودينوف ، وضابط ركنه ، ايليا سافونوف ، الى سينكين فى مركبة تجرها ثلاثة جياد ، وكان ساع قد أحاطهما علما بوصول الطائرة . فهرعا الى كوخ بوغاتيريوف وقد استبد بهما الفرح بالنبأ ، حتى أنهما لم يتوقفا لتنظيف جزمتيهما ومعطفيهما من الوحل .

٥٤

سار الشيوعيون الخمسة والعشرون الذين غدرت بهم كتيبة سيردوبسكى الى خارج أوست–خوبرسكايا ، تحت حراسة مشددة . لم يخطر ببالهم أن يحاولوا الفرار . وكان ايفان أليكسيفتش يحدق فى الوجوه المتحجرة للحرس القوزاق وفى نظراته حقد وتوفز ، وهو يحجل وسط الجماعة ، ويحدث نفسه : «هذه خاتمة المطاف . اذا لم نحاكم ، قضى علينا» .

كانت أغلبية الحرس القوزاق من الكهول الملتحين . وكان يقودهم شيخ من شيعة «المؤمنين القدامى» ، وهو عريف سابق فى كتيبة الأتمان . وما ان ترك الأسرى أوست–خوبرسكايا حتى أصدر أوامره ألا يتحدثوا أو يدخنوا أو يسألوا شيئا .

وصرخ بهم ، وهو يرفع مسدسه :

— أتلوا صلواتكم ، يا خدم أعداء المسيح . أنتم ذاهبون الى حتفكم ، فلا حاجة بكم لاقتراف الخطايا فى ساعاتكم الأخيرة . لقد نسيتم الرب ، وبعتم أنفسكم الى الشيطان الرجيم . وسمتم أنفسكم بسمة الأعداء !

لم يكن بين الأسرى سوى شيوعيين اثنين من كتيبة سيردوبسكى . أما الباقون ، خلا ايفان ، فقد كانوا من منطقة يلانسكايا ، وهم فتية طوال أشداء كانوا قد انضموا الى الحزب الشيوعى حينما بلغت القوات السوفييتية منطقتهم ، وعملوا فى الميليشيا أو كرؤساء للجان الثورية فى القرى ، ثم هربوا الى أوست–خوبرسكايا للانضمام الى الجيش الأحمر حينما اندلع التمرد . وكانوا كلهم تقريبا من الحرفيين فى زمن السلم : نجارين ، صانعى براميل ، بنائين ، أسكافيين وخياطين . ولم يبد على أى منهم أن له أكثر من خمسة وثلاثين ربيعا ، وكان أصغرهم سنا فى العشرين من عمره . وبدا الاختلاف الكبير واضحا بينهم ، وهم الأشداء الوسيمون ذوو الأذرع التى فتلها العمل البدنى ، وبين قوزاق الحراسة الكهول ذوى الظهور المحدودبة .

همس أحد شيوعيى يلانسكايا وكان يسير الى جانب ايفان :

— هل سيحاكموننا ؟ ماذا تظن ؟

— ليس ذلك محتملا جدا .

— سوف يقتلوننا ؟

— هذا ما أتوقعه .

— لكنهم لا يعدمون أسراهم بالرصاص . هذا ما قاله القوزاق . ألا تذكر ؟

وخيم على ايفان اليكسيفتش الصمت ، لكن شرارة من الامل اضيئت فى داخله . فقال فى سريرته : «هذا صحيح .

لن يجرؤوا على اعدامنا بالرصاص . فقد كان شعارهم «يسقط نظام الكومونات ، والاعدام والسلب» . ويشاع انهم لم يذهبوا الى ابعد من القاء الاسرى فى السجن . شىء من الجلد ، ثم السجن . حسنا ، فما هذا بالشىء الذى يخيف . سوف نبقى فى السجن حتى يحل الشتاء ثم ما ان يتجمد الدون حتى يكون اصحابنا قد طردوا البيض ، فيطلقوننا من الاسر» .

توهج الامل مثل الشرارة ، وتلاشى مثل الشرارة ايضا . «كلا ، سيقتلوننا ، انهم متوحشون كالابالسة . وداعا ، ايتها الحياة ! آه ، نحن لم نسر على النهج الصحيح ! لقد كان علينا ان نقاتلهم ولا تأخذنا بهم رحمة . كان يجب علينا الا نبقيهم احياء ، بل وجب ان نشطرهم بسيوفنا حتى اقدامهم» . ولمّ قبضتيه وهز كتفيه فى سورة غضب يائس ، وسرعان ما انكفأ واوشك ان يسقط على الارض اذ هوت على رأسه ضربة من الخلف .

وارعد العريف المسؤول عن الركب وهو على حصانه قريبا منه : «فيم تلم قبضتيك ، يا خنزير ؟» ولفح ايفان بسوطه ، فتخلفت ندبة عبر وجهه تمتد من الصدغ الى الذقن .

فتساءل احد رجال يلانسكايا بابتسامة متوسلة وصوت راعش : «من تراك تضرب ؟ اضربنى انا ، يا اب ! انه جريح ، فلماذا تضربه ؟» وخطا خارج الجمع ووقف قدام ايفان باستكانة . فهدر العريف : «سيكون لك ما يكفيك كذلك ! اشبعوهم ضربا ، ايها القوزاق ! اضربوا الشيوعيين !»

وهوى السوط بضراوة على قميص الرجل الخفيف حتى ان خرق القماش انكمشت كما تنكمش الاوراق فى النار ، وانفجر الدم القاتم من الجرح مبللا القميص . وراح العريف ، وهو يلهث

غيظا ، يستحث الاسرى بحصانه وشرع يعمل بسوطه بلا وازع . . .

وهوى السوط كرة اخرى على ايفان أليكسيفتش . فتوهجت نيران قرمزية فى عينيه ، ومادت الارض تحت قدميه ، وبدت الغابة الخضراء تتأرجح على الضفة المقابلة . فأمسك بالركاب وحاول ان يجر العريف من سرجه ، بيد ان ضربة من نصل السيف أطاحت به ارضا على رأسه . فامتلأ فمه بتراب جاف خانق ، وراح الدم اللافح يتدفق من أنفه وأذنيه .

وظل الحرس يضربونهم ضربا موجعا فترة طويلة من الوقت ، وقد كوموهم حتى غدوا مثل قطيع من الغنم . وتناهت الى اذن ايفان اليكسيفتش ، وهو ملقى على الارض ، وكأنه فى حلم ، صيحات ووقع اقدام حاد من حوله وزنخرة الخيل الهائجة . وسقطت على رأسه الحاسر كتلة من زبد الحصان الدافئ ، وانبعثت من موضع ما ، قريب جدا ، فوقه مباشرة ، جهشة تشنجية فظيعة وصرخة :

— ايها الخنازير ! لعنة الله عليكم ! تضربون رجالا عزلا ! يا . . .

وداس الحصان على ساق ايفان اليكسيفتش المجروحة ، وضغطت اطراف الحدوات العمياء فى لحم سمانة ساقه ، وأحس بخبطة سريعة من الضربات فوقه . وما هى الا لحظة حتى تكوم الى جانبه جسد ثقيل مبلل ، يفوح منه العرق ورائحة الدم المالحة ، وتسمع ايفان الى الدم يبقبق من بلعوم الرجل كما يبقبق سائل يسكب من قنينة . . .

وحينما اتم القوزاق اشباعهم ضربا ، ساقوهم حدر النهر وجعلوهم يغسلون جراحهم . ومضى ايفان يغسل جراحه ورضوضه المحرقة ، فتوغل فى الماء حتى بلغ ركبتيه ، وضم كفيه كالقدح

وراح يشرب الماء بلهفة ، مخافة ان تفوته فرصة ارواء الظمأ الذى كان يخز بلعومه .

وبينما كانوا يتقدمون من القرية الاولى ، سبقهم احد القوزاق وهو يركب حصانا شد الربيع من عوده والتمع جلده بالعرق ، وانطلق فى عدو سريع . ومضى داخل القرية ، واذ لم يكد الأسرى يمرون بأول فناء ، حتى تدفق عليهم جمع من الناس مسلح بالمذارى والمعازق والعصي والعتلات . وما ان رأى ايفان والآخرون القوزاق والنساء حتى أدركوا ان تلك كانت الطريقة التى سيلاقون فيها حتفهم .

فصاح احد الشيوعيين : «ليودع احدنا الآخر ، ايها الرفاق !»

لقد بدا كل ما حدث ، بعد عملية الضرب الاولى تلك ، حوادث وقعت فى كابوس مريع . فقد سيقوا ثلاثين فرسخا خلال قرية تلو قرية ، يستقبلهم فى كل منها جمع يسومهم العذاب . كان الشيوخ والنساء والاطفال الكبار يضربونهم ، ويبصقون على وجوههم المتورمة والملطخة بالدماء ، ويقذفونهم بالحجارة وكتل الطين المتيبس ويقذفون الرماد والتراب فى عيونهم ، وكانت النساء فظاظا بشكل خاص ، فلجأن الى اكثر وسائل التعذيب دهاء وقسوة . وحين دنت خاتمة المطاف لم يكن يسيرا تشخيص الرجال الخمسة والعشرين على انهم كائنات بشرية ، فقد كانت اجسامهم ووجوههم مشوهة على نحو وحشى ، وكان يغطيهم دم قاتم متلبد يخالطه الوحل .

كان كل واحد من الخمسة والعشرين يسعى ، فى البدء ، الى الابتعاد ما أمكنه عن حرسهم ، لتجنب الضربات . وحاول كل منهم ان يندفع الى الوسط ، وكانت النتيجة ان تكوموا فى كتلة قوية من الاجساد . بيد ان القوزاق لجأوا الى تفريقهم على

الدوام وأجبروهم على المسير فى تشكيلة اكثر اتساعا . ففقد الرجال كل أمل فى اقل حماية من الضربات وراحوا يغذون السير على نحو غير منظم ، لا تعتمل فيهم غير رغبة مؤلمة واحدة : ان يلزموا انفسهم بمواصلة السير وعدم الوقوع . فلو وقعوا لما استطاعوا النهوض من جديد . وكان كل منهم يغطى وجهه ، فى البدء ، بيديه ، ويرفع كفيه بضعف الى عينيه حينما كانت الاسنان الحديدية للمذارى او اطراف العصي المفلطحة تلوح امامه . غير انهم اضحوا فى الاخير لا يأبهون لأيما شىء ابدا . فقد كانوا بادئ الامر ، يرفعون ابتهالات تطلب الرحمة ممزوجة بالانات واللعنات وزئير ألم لا يطاق كزئير حيوان يائس . ولكن ما ان انتصف النهار حتى مضوا صامتين ، الا واحدا منهم ، وهو شاب من يلانسكايا ، كان اصغرهم سنا جميعا ، وهو مهذار الكتيبة ومحبوبها ، فقد كان يئن كلما هوت ضربة على رأسه . وراح ينط ، وجسمه يتشنج بمجموعه ، وهو يجرجر ساقا غدت حطاما اثر ضربة بعمود هوت عليها .

غدا ايفان اليكسييفتش أقوى معنويا بعد اغتساله فى الدون ، وحينما رأى القوزاق والنساء يجرون ناحيته ، ودع الرفاق القريبين منه بعجالة وقال بصوت خفيض :

— حسنا ، ايها الاخوة ، لقد عرفنا كيف نحارب . والآن ، ينبغى علينا ان نعرف كيف نموت بشرف . هناك شىء واحد يجب ان نتذكره حتى النفس الاخير ، فكرة واحدة تظل عزاء لنا . قد يحطموننا بعصيهم ، غير انهم لا يستطيعون القضاء على السلطة السوفييتية بعصا . ايها الشيوعيون ! ايها الاخوة ! موتوا شجعانا ، حتى لا يستطيع العدو ان يضحك منا !

وفى قرية بوبروفسكى لم يصبح بمقدور احد الأسرى ،

كان قد ضربه الشيوخ بقساوة ومهارة ، ان يتحمل اكثر مما تحمل . فاطلق صرخة بصوت طفولي موحش ، وفتح ياقة قميصه ، واظهر للنساء والقوزاق صليبا صغيرا قاتما معلقا بخيط حول عنقه :

— ايها الرفاق ، انني لم انضم الى الحزب الا مؤخرا . . . لتأخذكم الرحمة بي ! انا اؤمن بالله . لدي طفلان صغيران . . . اشفقوا عليّ ! ان لكم اطفالا كذلك . . .

— اى رفاق نحن لك ؟ امسك لسانك !

فلهث عجوز افطس الانف صائحا به وهو ضربه مرتين ضربا شديدا :

— تذكرت طفليك ، ايها الخنزير الشرير ! ها قد عدت الى صوابك الآن اذا ، أليس كذلك ، أخرجت صليبك ؟ لكنك حين قتلت قوزاقنا ، حين وضعتهم نصب الحائط ، لم تكن تفكر بربك آنذاك ؟

ومن غير ان ينتظر الرد ، لوح بقبضته وهوى بها على رأس الرجل .

لم يكن لاى شيء مما رأته عينا ايفان اليكسيفتش او سمعته اذناه ان يترك اى اثر فيه او يستحوذ على اهتمامه حتى لبرهة وجيزة من الوقت . كان قلبه كمن قُدَّ من حجر ، ولم يع ما حوله الا مرة واحدة فقط . دخلوا قرية ذات ظهر ، تلاحقهم الشتائم والضربات ، ومضوا يجاهدون حذر الشارع . وعلى حين غرة ، لاحظ ايفان ، وهو يلقي نظرة الى احد الجوانب ، طفلا له من العمر زهاء السبع سنوات يتشبث بتنورة امه ، والدموع تنساب مدرارا من عينيه وهو يصرخ :

— ماماتى ! لا تضربيه ! آه ، لا تضربيه . . . انني مقهور عليه . . . انني خائف . . . انه غارق في الدم .

فصرخت الامرأة بغتة ، وكانت على وشك ان تنزل عصاها على احد الأسرى . وألقت سلاحها ، ولاذت فرارا بزقاق جانبي وهي تمسك بولدها بيدها . فجاشت نفس ايفان من شفقة الطفل ودموعه . فأحس بالدموع تترقرق في عينيه هو وتملّح شفتيه المتشققتين . ونشج عندما تذكر ولده الصغير وزوجته ، ومن خلال الذكرى المفاجئة تولدت فيه رغبة عارمة في الا يموت على مرأى منهما . . . من الخير ان يموت قبل ذلك . . .

ومضوا يجاهدون في سيرهم ، لا يكادون يقوون على جر أرجلهم ، وهم يترنحون من شدة الانهاك والألم . وكان ثمة بئر في السهب وراء القرية ، فتوسلوا الى العريف المسؤول ان يسمح لهم بالشرب .

فصاح العريف : «لا حاجة بكم للشرب . لقد تأخرنا . هيا !» على ان واحدا من الحرس نطق بلسانهم قائلا :

— لا تكن بهذه القسوة ، يا اكيم سازونوفتش ! هم بشر مثلنا .

— بشر ؟ ليس الشيوعيون ببشر . ولا تحاول انت ان تعلّمني ! أأنا المسؤول ام انت ؟

فأجاب القوزاقي العجوز : «ثمة مسؤولون كثار من امثالك . امضوا ، يا اولاد ، واشربوا !» وترجل عن حصانه ، واستقى من البئر جرة مليئة بالماء . فأحاط به الأسرى في الحال ، وقد التمعت عيونهم الخابية المهروسة ، وامتد خمسة وعشرون زوجا من الايدي للامساك بالجرة . وهمسوا بأصوات مبحوحة :

— اعطني شيئا من الماء يا جدي !

— جرعة واحدة على الاقل !

— ايها الرفاق ! كل بدوره !

فلبث العجوز مترددا دون ان يدرى من يسقي اولا . ثم مرت ثانية لا تنصرم ، صب الماء بعدها فى جابية الشرب المدفونة ، وتنحى جانبا وهو يصيح :

— هاكم . هل انتم قطيع من الماشية ؟ كل بدوره !

وانسكب الماء فوق القعر العفن الدبق الاخضر للجابية . فقذف الأسرى انفسهم ناحيتها . واستقى العجوز احدى عشرة جرة ، واحدة اثر اخرى ، حتى ملأ الجابية ، وقد انعقد حاجباه شفقة بهم .

فجثا ايفان اليكسيفتش على ركبتيه ليشرب . وحينما اطفأ ظمأه ، رفع رأسه ، ورأت عيناه ، بوضوح غريب يكاد يعمى ، الغطاء الابيض بلون الجمد للتراب الطباشيرى على الطريق المحاذى للدون ، وزرقة التلال النائية ، ورأتا فوقها ، فوق الدون ذى الناصية البيضاء والانسياب الرشيق ، وفى قبة السماء اللازوردية المنيعة ، غيمة صغيرة . كانت تمضى طافية على جناح من ريح مثل شراع ابيض ، تيمم صوب الشمال ، وقد انعكست صورتها البيضاء على منحنى للنهر ، بعيد .

٥٥

فى مؤتمر سري عقدته القيادة العليا للقوات المتمردة اتُخذ قرار بطلب المساعدة من حكومة الدون والاتمان بوكايفسكى . وصدرت التعليمات لكودينوف ان يحرر رسالة يعلن فيها عن توبة المتمردين وندمهم لدخولهم فى مفاوضات مع الحمر وتركهم الجبهة فى نهاية عام ١٩١٨ . فقطع كودينوف فى هذه الرسالة وعدا نيابة عن قوزاق الدون الاعلى المتمردين بان القتال ضد

البلاشفة سيستمر بضراوة حتى النصر النهائى وطلب ان يزود بضباط اركان وخراطيش بواسطة الجو عبر جبهة القتال .

بقى بيوتر بوكاتيريوف مع المتمردين ، اما الطيار فقد عاد الى نوفوتشيركاسك حاملا رسالة كودينوف . ومنذ ذلك الحين اقيم اتصال وثيق بين حكومة الدون والقوات المتمردة . وجعلت طائرات صنعت فى فرنسا تحلق كل يوم تقريبا من وراء الدونيتز ، جالبة ضباطا وخراطيش وكميات قليلة من قذائف مدافع الميدان الخفيفة . وكان الطيارون يحملون ايضا رسائل من قوزاق الدون الاعلى الذين تراجعوا مع جيش الدون ، ويعودون برسائل جوابية من عوائلهم .

وراح الجنرال سيدورين ، قائد جيش الدون الابيض ، يبعث الى كودينوف بخطط العمليات والتعليمات والتقارير والمعلومات الخاصة بفرق الجيش الاحمر التى كانت تنقل الى جبهة المتمردين ، وفق متطلبات الوضع فى جبهة الدونيتز واعتباراته الستراتيجية . ولم يطلع كودينوف الا نخبة قليلة من رجاله على الاتصالات القائمة بينه وسيدورين ، ملقيا على الامر ستارا من السرية يحجبه عن جميع الآخرين .

٥٦

بلغ الأسرى تتارسكى فى حوالى الساعة الخامسة . كان ضوء الغسق الوجيز وشيكا ، وكانت الشمس تغور وراء الافق ، وقرصها المتوهج متكئا على حافة كتلة ممزقة زرقاء رمادية من الغيوم فى الغرب .

وكان قوزاق سرية مشاة تتارسكى بين جالس وواقف فى

ظل مخزن حبوب القرية الكبير . وكانوا يومذاك ينقلون الى الضفة اليمنى للدون لمساعدة سرايا يلانسكايا التى كانت تواجه مشقة فى الصمود امام ضغط الحمر ، وحين كانوا فى طريقهم الى موقعهم الجديد عرجت السرية برمتها الى القرية ليروا عوائلهم وليجددوا مؤونتهم من الزاد .

وكانوا على وشك ان يستأنفوا مسيرتهم فى الحال ، بيد انهم سمعوا ان الشيوعيين الاسرى كانوا يساقون صوب فيشنسكايا وان ميشا كوشيفوى وايفان اليكسييفتش كانا من بينهم ، وانهم بالغون تتارسكى عما قريب . ولذلك قرروا ان ينتظروهم . وكان القوزاق الذين قُتل اقرباؤهم مع بيوتر ميليخوف فى المعركة خارج تتارسكى مصرين بشكل خاص على رؤية كوشيفوى وايفـــان اليكسييفتش .

جلسوا ووقفوا يتبادلون احاديث فاترة فيما بينهم ، وقد اسندت بنادقهم الى حائط المخزن ، يدخنون ويمضغون بذور عباد الشمس ، وقد احاطت بهم النساء والشيوخ والاطفال . كانت القرية عن آخرها فى الشارع . وكان الاطفال قابعين على سطوح الاكواخ يرقبون قدوم الأسرى .

وأخيرا انطلق صياح صبى :

— ها هم قادمون !

فأسرع الجنود ينهضون ، وعج الناس وضجوا ، وكانت ثمة اصوات اقدام مسرعة فيما كان الصبية يركضون لملاقاة الاسرى . واطلقت ارملة اليكسى شامل ، والاسى لا يزال غضا فى قلبها ، صرخة جنونية .

وقال احد الشيوخ :

— اعداؤنا قادمون !

فصاحت اصوات اخرى :

— إقتلوا الابالسة !

— لقد قتلوا رجالنا !

— لسوف نصفى الحساب مع كوشيفوى وصاحبه .

وكانت داريا ميليخوفا واقفة مع زوجة انيكوشكا . وكانت اول من شخّص ايفان اليكسييفتش من بين رهط الاسرى وهم يتقدمون .

وهدر العريف بصوته فوق عويل الصيحات وصراخ النساء والنحيب : «لقد جئناكم بواحد من قريتكم . تعالوا وتفرجوا عليه ، ابن القحبة هذا ! امنحوه قبلة مسيحية !» ومد يده واشار الى ايفان اليكسييفتش .

— ولكن اين الآخر ؟ اين ميشا كوشيفوى ؟

وشق انتيب طريقه خلال الجمع ، وهو ينزع بندقيته عن كتفه .

فاجاب العريف ماسحا العرق من وجهه بمنديل احمر وهو يترجل عن حصانه بكلال :

— ليس معنا الا واحد من رجالكم ، فلم يكن هناك آخرون ! ولكن كلا منكم سيحصل على نتفة منه اذا مزقتموه اربا !

وعلا صراخ النساء وعويلهن الى اقصى حد يستطعنه . وشقت داريا طريقها صوب الركب فرأت ايفان اليكسييفتش وقد استحال وجهه اسود مزرقا بالرضوض والدماء وهو يقف على مبعدة بضع خطوات امامها . وكان رأسه المتورم على نحو مريع بشعره المغطى بقشرة الدم المتيبس يبدو مثل سطل مقلوب . وكان اديم وجهه يخفق مزقا ، وكان قد وضع على الكتلة من

مزيج الدم والشعر فوق فروة رأسه قفازين صوفيين اراد بهما ان يقى الجرح المفتوح من الشمس المحرقة والذباب . وكان القفازان قد التصقا بالجرح ، وهكذا بقيا على رأسه .

اجال بصره حوله وقد بدا عليه سيماء الطريد ، باحثا فى الجمع عن زوجته وولده الصغير ، وان كان يتوجس خيفة من العثور عليهما . كان يريد ان يطلب من شخص ما ، اى شخص ، ان يتعد بهما ان كانا حاضرين هناك . فقد ادرك انه لن يذهب الى ابعد من تتارسكى ، ان حتفه هنا ، ولم يرد ان تشهد عائلته موته . وكان ينتظر موته بفراغ صبر متعاظم . واذ كان فى وقفته تلك ، متهدل الكتفين ، شرع يدير رأسه ببطء ومشقة ، وعيناه تجولان فى الوجوه المألوفة لاهل قريته . فلم يستشف فى اى وجه اثرا من شفقة او تعاطف . لقد كانوا كلهم ، قوزاقا وقوزاقيات ، يخزرونه بعيون يتطاير منها الشرر .

وكان قميصه الخاكى التالف ، الذى تصلب من الدماء ، يخشخش مع كل حركة منه . وكان ثمة دم على بنطاله ، بنطال الجيش الاحمر المبطن ، وعلى قدميه العاريتين المعقدتين .

زرعت داريا نفسها امامه . ولبثت تحدق فى وجهه ، وهى تلهث كراهية وألما وتتلظى بهاجس معذب من ان شيئا فظيعا ينبغى ان يتم هنا ، فى هذا المكان ، غير انها لم تستطع ان تتبين ان كان قد رآها وشخّصها ام لا .

وبذات التعبير القلق المتوفز ، مضى ايفان اليكسيفتش فى الجمع نظرة عينه باستمرار (اذ صُمَّت العين الاخرى برضة) . وعلى حين غرة استقرت نظرته على داريا ، فارتج الى الامام مترنحا ، كما لو كان قد اعطى مخدرا قويا . وكان رأسه يميد لكثرة ما فقد من الدم ، واوشك ان يقع مغشيا عليه . بيد

ان حالة التخبط التى بدا كل شىء خلالها غير حقيقى واستحال فيها الضياء الى عتمة ، أشاعت فيه القلق وجعلته يبذل اقصى ما فى حوزته من ارادة ليظل واقفا على قدميه . فرأى داريا وشخّصها وخطا الى الامام مترنحا . وحوّم شىء يشبه الابتسام من بعيد على شفتيه المشوهتين . فبعث شبح الابتسامة تلك القلق فى داريا وجعل قلبها يجب بسرعة وعنف ، وكأنه قد صعد الى بلعومها .

فتقدمت الى ايفان اليكسيفتش مباشرة ، وهى تلهث بشدة ووجهها يزداد شحوبا ، أكثر فأكثر .

وتساءلت : «كيف حالك يا ابن العم ؟» . وأفلحت نبرة صوتها الرنانة المتهيجة وترنيمة كلماتها الغريبة فى اسكات هدير الحشد . وكان جوابه لا حياة فيه وان كان ثابتا ، وجاء مسموعا وسط ذلك السكون :

— وكيف حالك ، يا ابنة العم داريا ؟

— أخبرنا ، يا ابن العم العزيز ، كيف قتلت . . . —

واختنقت داريا وشدت قبضتها الى صدرها ، ثم مرت لحظة لم تقو فيها على المضى . لكن همستها ، اذ استأنفت كلامها ، بلغت الأسماع حتى فى آخر الجمع : — . . . ابن عمك ، زوجى .

— كلا ، يا ابنة العم ، لم أقتله .

فعلا صوتها متحشرجا :

— لم تقتله ؟ ألم تكن أنت وميشا كوشيفوى من قتل قوزاقنا ؟

— كلا ، يا ابنة العم . . . نحن . . . أنا لم أقتله .

فرفعت داريا صوتها :

— اذن ، من الذى أزهق روحه ؟ من ؟ قل لى من .

— كتيبة زامورسكى . . .

— أنت ! أنت قتلته . . . القوزاق قالوا انهم شاهدوك على التل . كنت تمتطى حصانا أبيض . أتنكر ذلك ، يا وغد ؟

— كنت فى تلك المعركة . . .

وارتفعت يد ايفان اليكسيفتش اليسرى ببطء الى رأسه وجعلت تعدل وضع القفازين اللصيقين بالجرح . وحينما استطرد فى كلامه ، كانت ثمة نغمة تردد واضحة فى صوته :

— كنت فى تلك المعركة ، على أننى لم أكن من قتل زوجك ، بل كان ميخائيل كوشيفوى . أرداه بالرصاص . ان هدر دم ابن العم بيوتر لم يكن على يدي .

فزعقت أرملة ياكوف بصوت نفاذ من بين الجمع :

— اذن ، من قتلت من أبناء قريتنا ، يا عدو ؟ أطفال من تركتهم يتامى فى هذه الدنيا ؟

فشرعت النساء يبكين بكاء هستيريا ، مضاعفات ما كان فى الجو من توتر .

قالت داريا ، بعد تلك الحادثة ، انها لا تستطيع أن تتذكر كيف ومن أين جاءت غدارة خيالة بيديها . لا بد أن أحدا قد أعطاها اياها . ولكن حينما تعالت أصوات النساء ، هجست شيئا غريبا فى يديها ، وبدون أن تنظر اليه عرفت انها غدارة . فأمسكت بها ، فى البدء ، من ماسورتها مستهدفة أن تضرب ايفان بأخمصها . غير أن سدادة الرمى راحت تخز راحتها وخزا مؤلما فرفعت أصابعها ، وأدارت الغدارة ، ثم ركزتها على كتفها ، وصوبتها كذلك باتجاه الناحية اليسرى من صدر ايفان .

فرأت القوزاق الواقفين وراءه يجرون الى الجانبين ، كاشفين عن جدار مخزن الحبوب . وطرقت سمعها صيحات : «أنت مجنونة ! سوف تصيبيننا ! قفى ، لا ترمى !» . واذ كان يستحثها الترقب الوحشى للجمع ، والرغبة فى الثأر لموت زوجها ، والى حد ما المجد الزائف الذى ولّده فيها اكتشاف نفسها فجأة أنها متميزة عن باقى النساء ، وادراكها أن القوزاق كانوا يشخصون اليها فى ذهول وحتى فى خوف وهم ينتظرون خطوتها التالية ، وأنها بسبب من ذلك ملزمة باتيان شىء ما غريب ، خارق ، قمين ببث الرعب فيهم جميعا . . . واذ استحثتها كل تلك المشاعر فى آن واحد ، اندفعت بسرعة مخيفة اتجاه شىء كان قد تقرر فى اعماق وعيها ، شىء ما كان بمقدورها ان تعمل فكرها فيه وما كانت حتى لتفعل ذلك ، فترددت ، وهى تتلمس موضع الزناد بحذر . ثم ، فجأة وعلى غير ان توقعت هى نفسها ، سحبته الى الوراء بقوة .

كاد رجع الغدارة ان يزعزعها من موضع قدميها ، واصم الطلق اذنيها . بيد انها رأت ، خلال شقى عينيها المضيقتين ، وجه ايفان اليكسيفتش تتبدل قسماته بشكل فجائى ، فظيع لا يمحى من الذاكرة ، ورأته ينشر يديه ثم يضمهما وكأنه على وشك ان يقفز الى الماء من علو شاهق ، ثم يهوى على رأسه ، ويرتج رأسه كمن اصابته حمى ، وجسده يرتعش ، واصابع يديه المبسوطتين تنشب فى الارض .

فأسقطت داريا الغدارة ، وهى لما تزل غير مدركة ما فعلته بوضوح ، وادارت ظهرها للرجل المطروح ، وبحركة بدت بساطتها المطلقة امرا غير طبيعى ، سوت عصابة رأسها ودست شعرها المشعث تحتها .

فقال احد القوزاق وهو يفسح لها المجال باحترام غريب :

«انه لا يزال يتنفس !»

ومن غير ان تستوعب ما كان يقال او عما كان الكلام ، تلفتت حولها واستمعت الى انين عميق متقطع بدا انه ينبعث لا من بلعوم انسان ولكن من اعماق قلبه . واستحال الانين الى حشرجة الموت . ولم تدرك الا آنئذ ان الانين كان ينبعث من ايفان اليكسيفتش ، الذى لقي حتفه على يديها . واستجثت خطاها بسرعة وخفة حذاء جدار المخزن متجهة صوب الساحة . ولم تلتفت لتتابعها الا عيون قليلة ، اذ كان اهتمام الجمع قد تحول الى انتيب ابن الكذوب ، الذى هرع الى ايفان اليكسيفتش مسرعا على اصابع قدميه وكأنه فى ساحة الاستعراض ، وهو يخفى حربة وراء ظهره لسبب ما . وبحركات موزونة متأنية ، قرفص على عقبيه ، وسدد نصل حربته الى صدر ايفان ، وقال بهدوء : — حسنا ، مت الآن يا كوتلياروف ! — وبكل ما لديه من قوة ضغط على مقبض الحربة .

كان موت ايفان مؤلما وبطيئا . كانت الحياة تصدف عن مغادرة جسده الصحيح القوى . وكان ، حتى بعد الطعنة الثالثة للحربة ، لا يزال يفغر فاه وتنبعث «آه — آه — آه» متحشرجة كليلة من بين اسنانه المدماة .

وقال عريف الركب وهو يدفع انتيب بعيدا : «انت يا هذا ، رح الى الشيطان !» . ورفع العريف مسدسه وسدده نحو ايفان بحركة اعتيادية .

كانت طلقته بمثابة الاشارة للقوزاق ليقذفوا بانفسهم على الاسرى . فتشتت الرجال المطاردون وتبعثروا باضطراب ، واختلط صوت اطلاقات البنادق الحاد المقتضب بالصرخات . . .

• • •

دلف غريغورى ميليخوف مسرعا على حصانه الى تتارسكى فى اقل من ساعة بعد ذلك . وكان قد انهك حصانه حتى الموت ، الى ان انكفأ على الطريق بين قريتين . فحمل غريغورى سرجه الى اقرب قرية ، واستعار حصانا بائسا . بيد انه وصل متأخرا . فقد كانت سرية تتارسكى قد اختفت وراء التل فى طريقها صوب حدود منطقة اوست–خوبرسكايا ، حيث كان المتمردون يقاتلون وحدات من الخيالة الحمراء ، وكانت القرية ساكنة مهجورة ، والليل ينشر غطاءه القاتم على التلال المحيطة وما وراء الدون واشجار الحور والصفصاف . . .

مضى غريغورى على الحصان الى فنائه ، فترجل ودخل الى الدار . لم يكن ثمة ضياء فى المطبخ . وكان البعوض يطن فى الظلال المعتمة ، والايقونات ترسل بصيصا خافتا فى الركن . فصاح غريغورى ، وهو يتنسم رائحة البيت المألوفة التى تشيع فى النفس الاضطراب :

— هل من احد فى الدار ؟ اماه ؟ دونيا ؟

وانبعث صوت دونيا من الغرفة الامامية : «غريغورى ، أهذا انت ؟» وتناهى الى سمعه صوت انصفاق اقدام عارية ، وظهر شبح اخته الابيض عند الباب وهى تعقد مشد تنورتها الداخلية باستعجال .

فسألها : «فيم ذهابك الى الفراش مبكرا ؟ اين امى ؟»

وغرقت دونيا فى الصمت ، وتسمع غريغورى اليها تتنفس بسرعة واضطراب .

— ماذا حدث ؟ كم من الوقت مضى على وصول الاسرى هنا ؟

— لقد قتلوهم .

— ماذا ؟

— قتلهم القوزاق ، آه ، غريشا ! داريا ، هذى الغراب الشرير . . . — ورنت فى صوت دونيا دموع مغضبة — . . . لقد قتلت ايفان اليكسيفتش بنفسها . . . بالرصاص . . .

فصاح غريغورى مذعورا وهو يمسك باخته من ياقة قميصها : «ما هذا الذى تهذرين ؟» وتلألأت الدموع فى عينى دونيا ، فادرك غريغورى من الذعر المتجمد فى بؤبؤيهما ان اذنيه لم تخدعاه .

— وميخائيل كوشيفوى ؟ وشتوكمان ؟

— لم يكونا بين الاسرى .

وقصت عليه بايجاز وبصوت كسير مصرع الاسرى الحمر وما فعلته داريا . وانتهت الى القول :

— وخافت ماما من قضاء الليلة معها فى البيت نفسه ، فذهبت لتنام عند بعض الجيران . وعادت داريا ثملة . . . ثملة كالوحش . وهى نائمة الآن .

— اين ؟

— فى مخزن الحبوب .

فاستدار غريغورى وخرج ، ومشى عبر الفناء وفتح باب المخزن بقوة . كانت داريا نائمة على الارض وقد جرت تنورتها الى اعلى بلا حياء لتتلفع بها . وكان ذراعاها النحيفان مبسوطين ، وخدها الايمن يتألق بالرضاب ، وانبعثت من فمها المفتوح رائحة الفودكا المنزلية ، قوية نفاذة . وكانت تتنفس انفاسا ثقيلة مجهدة ، ورأسها محنى بشكل قبيح ، وقد التصق خدها الايسر بالارض .

لم تعتمل فى نفس غريغورى الرغبة الوحشية فى استعمال

سيفه قدر اعتمالها تلك اللحظة . فانتصب فوق داريا بضع لحظات ، يئن ويترنح ، ويصر على أسنانه ويحدق فى الجسد المتمدد عند قدميه بمقت واحتقار طاغيين . ثم خطا خطوة الى الامام وحط عقب جزمته ذا النعل الحديدى على وجهها وعلى حاجبيها الأسودين المقوسين ودمدم بصوت أبح :

— أيتها الأفعى السامة !

فند عن داريا أنين سكر ودمدمت بشىء . فأمسك غريغورى رأسه بين يديه وجرى الى الفناء .

انطلق على حصانه الى الجبهة فى الليلة ذاتها ، حتى أنه لم يلبث ليرى أمه .

٥٧

كان الجيشان الأحمران الثامن والتاسع لا يزالان يحاولان القيام بعملية تعرّض فى بعض القطاعات ، بعد أن أخفقا فى القضاء على مقاومة جيش الدون وعبور الدونيتس قبل فيضان الربيع . الا أن أغلب هذه المحاولات آلت الى الفشل وانتقلت المبادرة الى قيادة جيش الدون .

والى أواسط شهر أيار لم تحدث أية تغييرات محسوسة على الموقف فى الجبهة الجنوبية . واعتمادا على خطة وضعها القائد السابق لجيش الدون ، الجنرال دنيسوف ، ورئيس هيئة أركانه ، الجنرال بولياكوف ، أوشكت عملية تحشيد ما يسمى بالقوة الضاربة على الانتهاء فى منطقة كامنسكايا ، هذه القوة التى تنتظم خيرة الكتائب المدربة لجيش الدون الفتى . وصار تعداد تلك القوة الضاربة ينوف على ستة عشر ألفا من حاملى الحراب

والسيوف ، وكانت مجهزة بأربعة وعشرين مدفع ميدان ومائة وخمسين رشاشا .

كانت خطة الجنرال بولياكوف أن تضرب القوة ، بالتعاون مع وحدات أخرى ، باتجاه ماكيفكا ، وتهزم فرقة الجيش الأحمر الثانية عشرة ، ثم تتخطى القوات الحمر الأخرى فى المنطقة لتنفذ الى منطقة الدون الأعلى ، حيث تنضم الى جيش المتمردين وتدخل فيما بعد الى منطقة خوبر لكى «تشفى» أولئك القوزاق الذين سرت اليهم عدوى البلشفية .

وعلى الدونيتس أتخذت استعدادات ضخمة لعملية النفاذ . وأنيطت قيادة القوة الضاربة بالجنرال سكريتيف . وبدأ النجاح يحالف جيش الدون . وكان قائده الجديد ، الجنرال سيدورين الذى خلف دنيسوف (ربيب كراسنوف) ، والأتمان الذى أعيد انتخابه ، الجنرال أفريكان بوغايفسكى ، ينتهجان سياسة التعاون مع الحلفاء الغربيين . وكانا يعدّان ، بالتعاون مع ممثلى البعثات العسكرية البريطانية والفرنسية ، خططا بعيدة المدى للزحف على موسكو وتصفية البلشفية فى جميع أنحاء الأرض الروسية .

ووصلت الى الموانئ الواقعة على شاطئ البحر الأسود بواخر تحمل الأسلحة . ولم تأت البواخر عابرة المحيط بالطائرات البريطانية والفرنسية والدبابات والمدافع والرشاشات والغدارات ، فحسب ، بل جاءت بقوافل من البغال وتجهيزات غذائية وملابس لم تعد ذات قيمة بعد ابرام الصلح مع ألمانيا . وامتلأت مخازن البضائع فى نوفوروسيسك ببالات من القمصلات الخاكى البريطانية حيث يشب الأسد البريطانى على أزرارها النحاسية . وضاقت المخازن بالطحين والسكر والشوكولاتة والمشروبات الروحية الأميركية . واذ ذهلت أوروبا الرأسمالية ازاء العنفوان العنيد للبلاشفة ، راحت

تصب القذائف والخراطيش فى جنوبى روسيا ، تلك القذائف والخراطيش نفسها التى لم يتسن للقوات المتحالفة أن تستخدمها ضد الالمان . لقد هبت الرجعية العالمية لتجهز على روسيا السوفييتية النازفة الممزقة . . . أما الخبراء العسكريون البريطانيون والفرنسيون الذين كانوا قد قدموا الى الدون والكوبان ليعلّموا الضباط القوزاق وضباط «جيش المتطوعين» فن قيادة الدبابات واستعمال المدافع البريطانية ، فقد باتوا يتطلعون الى دخول موسكو ظافرين . . .

على أن أحداثا وقعت فى ذلك الوقت فى الدونيتس آلت الى نجاح عملية التعرض التى شنها الجيش الأحمر عام ١٩١٩ .

ليس ثمة شك فى أن السبب الاساسى فى اخفاق الجيش الاحمر فى مواصلة هجوم التعرض كان تمرد القوزاق فى الدون الأعلى ، حيث ظلوا ثلاثة أشهر ينهشون مؤخرة الجيش الأحمر كالسرطان ، ويضطرونه الى اجراء تنقلات دائمية للقطعات ، ويعرقلون وصول الامدادات والاحتياطات الى الجبهة وصار اجلاء المرضى والجرحى أمرا شاقا . فمن الجيشين الأحمرين الثامن والتاسع وحدهما سحب زهاء عشرين ألف جندى للقضاء على الحركة .

أما المجلس العسكرى الثورى ، الذى لم يكن على علم تام بالمدى الحقيقى للحركة ، فقد كان بطيئا فى اتخاذ الاجراءات الفعالة اللازمة للقضاء عليها . وفى البدء ، لم يرسل لسحقها سوى مفارز صغيرة متفرقة (حتى أن مدرسة اللجنة التنفيذية المركزية ، مثلا ، بعثت بمائتى رجل فقط) ، ووحدات أخرى غير كاملة الاعداد . كان الامر أشبه ما يكون بمكافحة النار بأقداح من الماء . وكانت وحدات الجيش الأحمر المتفرقة المحيطة بمنطقة التمرد ، التى ناهز قطرها على المائة وعشرين فرستا ،

تعمل مستقلة عن بعضها ، دون أية خطة عامة للعمل ، وبالرغم من ازدياد القوات المحاربة ضد المتمردين الى خمسة وعشرين ألف محارب فلم يتم الوصول الى أية نتائج فعالة .

فقذفت الى الميدان أربع عشرة سرية من المشاة وعشرات من مفارز الحماية ، واحدة بعد أخرى ، بغية حصر التمرد فى موضعه . ووصلت مفارز من طلاب المدارس العسكرية من تامبوف وفورونيج وريازان . ولم يحدث الا بعد أن اشتد عود التمرد ، وتسلح المتمردون بالرشاشات ومدفعية الميدان التى استولوا عليها ، أن أسهم الجيشان الأحمران الثامن والتاسع بفرقه لكل منهما لتشكيل حملة تعززها حضائر من المدفعية والرشاشات . وكانت النتيجة أن تكبد المتمردون خسائر فادحة ، الا أنه لم يقض عليهم .

وسرت شرارة من لهيب الدون الأعلى الى منطقة خوبر . وحاولت بضع جماعات قليلة من القوزاق أن تنتفض تحت قيادة بعض الضباط . وفى ناحية أوريوبنسكايا لملم عقيد يدعى أليموف عددا لا بأس به من القوزاق والضباط الذين كانوا مختبئين . وقد كان من المقرر أن يبدأ التمرد ليلة الأول من أيار ، بيد أن المؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب . فألقي القبض على أليموف وعدد من شركائه وأصدرت عليهم محكمة ثورية الحكم بالاعدام رميا بالرصاص . واذ جردت الحركة من قيادتها ، خبت نارها فأخفقت عناصر الثورة المعادية فى منطقة خوبر فى الانضمام الى متمردى الدون الأعلى .

وفى الأيام الأولى من أيار نزلت من القطار مفرزة حمراء فى محطة تشيرتكوفو ، حيث وضعت عدة وحدات للمناوشة من الجيش الاحمر احتياطا . وكانت تشيرتكوفو احدى المحطات الأخيرة الواقعة على سكة الحديد الجنوبية — الشرقية التى تمتد

مباشرة بحذاء القطاع الغربى لجبهة التمرد . وكان القوزاق من مناطق شتى فى ذلك الجزء يقومون فى ذلك الوقت بتجميع قوة كبيرة من الفرسان على حدود منطقة كازانسكايا ويخوضون معارك يائسة مع القوات الحمر التى اتخذت آنئذ موقف المهاجم .

سرت شائعة بين رجال الجيش الاحمر فى المحطة أن القوزاق قد أحاطوا بتشيرتكوفو وأنهم على وشك أن يشنوا هجوما . وعلى الرغم من أن المحطة لم تكن لتبعد عن الجبهة بأقل من أربعين فرستا وأن هناك وحدات من الجيش الأحمر أمامية كانت ستبعث بانذار لو كانت هناك حركة نفاذ ، الا أن الهرج والمرج دب فى المحطة . كانت ثمة ململة فى صفوف الجيش الأحمر . ونعق صوت آمر من موضع ما وراء الكنيسة قائلا : «الى السلاح !» . فاندفع الرجال على نحو هائج فى الشوارع .

ثم تبين أن ذلك كان انذارا لا أساس له . اذ أخطأ أحدهم فى تشخيص سرية من رجال الجيش الأحمر كانت تقترب منهم وحسبها من القوزاق . ومضت المفرزة الحمراء وكتيبتا المناوشة تسير باتجاه قصبة كازانسكايا .

وفى اليوم التالى لاقت كتيبة كرونستادت ، التى وصلت مؤخرا ، حتفها عن بكرة أبيها تقريبا ، على يد القوات القوزاقية .

فحين انصرم اليوم الأول من القتال شن القوزاق غارة ليلية . وكانت كتيبة كرونستادت تقضى الليلة فى السهب ، تحرسها ربايا * ونقاط أمامية ، مفضلين ذلك على المجازفة باحتلال القرية التى هجرها المتمردون . وعند منتصف الليل أحاطت بالكتيبة عدة سرايا من الخيالة القوزاق وفتحوا عليها نارا حامية ،

---

* ربايا ، مفردها ربيئة ، وهى الطليعة فى الجيش . **المترجمون** .

مستخدمين مقارع خشبية كبيرة كان أحدهم قد اخترعها لارهاب العدو . وقد استخدمت هذه المقارع فى الليل بدلا من الرشاشات ولم يكن بالامكان تمييز الصوت الذى تحدثه عن صوت الرشاشات الخفيفة .

وحينما سمع رجال الكتيبة المحاصرون فى الظلمة الحالكة ذلك الصرير الهادر لـ «رشاشات» القوزاق ، والاطلاقات القوية لنقاطهم الامامية ، وصياح القوزاق وارعاد الخيالة المتقدمين ، هرعوا صوب الدون ، وعلى الرغم من أنهم أفلحوا فى شق طريقهم الى النهر ، غير أنهم فوجئوا بغارة شنها عليهم الخيالة . ولم يفلح فى الهرب من الكتيبة كلها سوى بضعة رجال استطاعوا أن يسبحوا عبر الدون المائج بفيضان الربيع .

وفى شهر أيار ، نقلت تعزيزات حمر أكثر فأكثر من الدونيتس الى جبهة التمرد . واشتركت فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون فى القتال ، فكان أن لمس غريغورى ميليخوف آنذاك لأول مرة مدى ما فى الهجوم الحقيقى من قوة . وراحت فرقة الكوبان هذه تكيل الضربات فى صفوف فرقته الأولى بلا هوادة ، فاضطر غريغورى للتخلى عن قرية بعد أخرى فيما كان يتراجع ناحية الدون . وعلى مقربة من كارغينسكايا ، عند ضفاف نهر تشير صمد مدة يوم . غير أنه تعرض لضغط قوات متفوقة وما لبث أن اضطر ليس الى التراجع حسب بل الى طلب الامدادات .

فأمده كوندرات مدفيديف ، قائد الفرقة الثالثة ، بثمانى سرايا من الخيالة ، وكان قوزاق مدفيديف مجهزين تجهيزا ممتازا ، اذ كان لجميعهم عتاد كثير وكانت جزمهم وبزاتهم ، التى استلبوها من الاسرى الحمر ، فى حالة حسنة . وعلى الرغم من شدة الحر فان العديد منهم كانوا يختالون هنا وهناك بقمصلاتهم الجلدية

وكان لكل واحد منهم تقريبا مسدس أو ناظور . واستطاعوا بعض الوقت أن يقاوموا هجوم القراع لفرقة الكوبان الثالثة والثلاثين ، فعزم غريغورى على أن يستغل الفرصة ليذهب الى فيشنسكايا للمشاورة ، نزولا عند طلبات كودينوف الملحاحة .

٥٨

بلغ فيشنسكايا فى الصباح الباكر .

كان ماء الدون الفائض قد شرع بالانحسار ، وأفعم الهواء بالرائحة الدبقة الحلوة لأشجار الحور . وعلى امتداد النهر كانت أوراق السنديان اللدنة غامقة الخضرة ترسل حفيفا حالما . وكانت المرتفعات الترابية الجرد تنضح بالبخار ، وأخذت تظهر عليها حشائش نحيفة ، شوكية خضر . وما فتئت الأخاديد تتلألأ بالماء الراكد . وطيور الأنس تهدر ، والبعوض يطن فى الهواء الوخم رغم أن الشمس كانت قد ارتفعت .

وفى المقر ، كانت ثمة آلة كاتبة تطرقع ، والغرف مزدحمة ومختنقة بدخان التبغ .

وجد غريغورى كودينوف جالسا وقد ارتسم على وجهه الجد والاستغراق ، وانكب على مهمة غريبة . وحين دلف غريغورى الى الغرفة بهدوء ، لم يرفع كودينوف نظره ، بل استمر فى نتف سيقان ذبابة زمردية كبيرة . نتف ساقا ، ثم صخم راحته اليابسة الضخمة على الذبابة ووضعها لصق أذنه ، متسمعا الى الطنين المتراوح فى طبقته بين العالى والخفيض ، لتلك الحشرة السجينة .

ثم لاحظ غريغورى على حين غرة ، فقذف بالذبابة تحت المنضدة بحركة نافرة مغضبة ، ومسح راحته بسرواله ، ومال

بكلال على ظهر كرسيه اللامع . وقال :

— اجلس ، يا غريغورى بانتلاييتش .

— كيف حالك ، أيها القائد ؟

— حسن . حسن بقدر ما هو متوقع . كيف تسير الامور عندكم ؟ اذن هم يدفعونكم الى الوراء .

— على امتداد خط الجبهة كلها .

— هل أوقفتهم عند نهر تشير ؟

— بعض الوقت . لكن امدادات مدفيديف أنقذت الموقف .

— هذا هو الموقف ، يا ميليخوف . — وأخذ كودينوف الجلد الرمادى لنطاقه القفقاسى بين يديه ، وتنهد وهو يحدق باهتمام متفحصا فضة الأبزيم المسودة : — حسب تقديراتنا ، فان مستقبل الحال سائر نحو الأسوأ . ان شيئا ما يحدث فى الدونيتس . فاما أن يكون أصحابنا هناك قد شرعوا يكتسحون صفوف الحمر فيدفعونهم الى الوراء باتجاهنا ، أو أن الحمر قد أدركوا أننا السبب فى كل متاعبهم الحالية فراحوا يحاولون أن يطبقوا علينا الكماشة .

— وما هى أخبار «الكاديت» ؟ ماذا أرسلوا من تقارير فى الطائرة الأخيرة ؟

— لا شىء ذا بال . انهم لا يخبرونك أو يخبرونى بخططهم يا صاحبى . فسيدورين رجل ذو دهاء . انهم يحاولون النفاذ خلال جبهة الحمر لمد يد المساعدة لنا . لقد وعدونا بالمساعدة ، غير أن المساعدة لا تأتى دائما . فليس النفاذ خلال الجبهة بالأمر اليسير . لقد جربت ذلك بنفسى فى الأيام الخوالى . وكيف يتسنى لنا أن نعرف مدى قوة الحمر فى الدونيتس ؟ فمن الجائز أن يكونوا قد أخذوا بضعة فيالق من جبهة كولتشاك وجاءوا

بها الى هنا . اننا فى ظلام ، وليس بمقدورنا أن نرى أبعد من أنوفنا .

فتساءل غريغورى متثائبا : «حسنا ، ما الذى أردت أن تحدثنى به ؟ ماذا عن هذا المؤتمر الذى استدعيتنى من أجله ؟» فلم يكن غريغورى معنيا بشكل خاص بنتيجة الحركة . اذ لم تعد القضية تقلقه ، كما يبدو . لقد ظلت أفكاره تحوم يوما بعد يوم حول القضية القديمة ذاتها ، كما يجر حصان دواسة حول ساحة درس الحبوب ، الى أن قال فى سريرته ، كمن يهز كتفيه دونما اكتراث : «لن يقوم سلام بيننا وبين السوفييتات ، فهذا شىء أكيد . لقد سفكوا من دمنا الكثير ، وسفكنا الكثير من دمهم . أما حكومة الكاديت ، فرغم أنها تزجينا بمعسول الكلام ، فانهم سينتفون ريشنا فيما بعد . اللعنة ، فلتأت النهاية مهما كان لونها» .

ونشر كودينوف خارطة ، وهو لا يزال يتحاشى عينى غريغورى ، وقال :

— عقدنا مؤتمرا هنا فى غيابك وتوصلنا الى قرار . . .

فقاطعه غريغورى ، وهو يتذكر مجلس الحرب الذى كان قد انعقد فى هذه الغرفة ذاتها فى الشتاء ، حينما كان العقيد القفقاسى حاضرا : «مع من عقدت المؤتمر ؟ مع الأمير ؟»

فتجهم وجه كودينوف وقتم . ثم أجاب :

— انه لم يعد من بين الأحياء .

فتساءل غريغورى وقد اعتراه اهتمام مفاجئ :

— وكيف كان ذلك ؟

— ألم أخبرك ؟ الرفيق جورجيدزه قتل .

— أوه ، صار لك . . . «رفيقا» . . . كان رفيقا منذ أن

اخذ يرتدى فروة . غير أننا لو كنا قد وجدنا قوانا مع الكاديت — لا سمح الله — ولو أنه كان لا يزال حيا ، لدهن شاربه فى الحال ، ولما عاد يمد اليك يده للمصافحة ، بل يمد اصبعه الصغير فقط ! هكذا !

ومد غريغورى اصبعه الوسخ الخشن والتمعت أسنانه بضحكة .

لكن كودينوف ظل عابسا ، وعبّرت نظرته ونبرة صوته عن الاستياء الواضح والضيق والغضب المكبوت ، ثم زمجر قائلا :

— ليس ثمة ما يدعو للضحك . لا تضحك لمقتل انسان آخر .

فأحس غريغورى بالوخز ، الا أنه أجاب ضاحكا :

— ليس لى من رحمة أترحم بها على روح ذاك العقيد الابيض الوجه الابيض اليدين . . .

— مات قتيلا .

— فى معركة ؟

— من الصعب القول . . . انها قصة غريبة وليس من اليسير تلمس الحقيقة فيها . ذلك أنه كان ملحقا بقافلة نقل بناء على أوامرى . ويبدو أنه لم يكن على وفاق تام مع القوزاق . وحدث أن كان هناك قتال يدور قريبا من دوباريفكا ، وكانت القافلة التى يركب معها على مبعدة فرستين تقريبا وراء خط النار . كان جالسا فى احدى العربات ، وأصابته رصاصة طائشة فى وجهه تماما . هكذا قال القوزاق . حتى أنه لم يتحرك أبدا . . . لا بد أن القوزاق هم الذين قتلوه ، أولئك الخنازير !

— حسنا فعلوا !

— كفاك مثل هذا الكلام . ألا تستطيع أن تكف عن

خلق المتاعب .

— لا تغضب . كنت أمزح .

— عليك أن تحتفظ بمزاحك السخيف لنفسك فى المستقبل . ان مثلك مثل الثور ، فأنت تلوث علفك بنفسك . اذن ، فأنت ترى أنه يجب قتل الضباط ! أتراك ترفع من جديد شعار «تسقط شارات الضباط» ها ؟ ألم يحن الوقت لتثوب الى رشدك ، يا غريغورى ؟ اذا شئت أن تتصنع العرج ، فاعرج على الساق نفسها ، على الاقل .

— امض فى قصتك .

— ليس لدى المزيد مما يقال . خمنت أن القوزاق قتلوه ، فخرجت اليهم وتبادلت معهم حديثا صريحا فقلت : «اذا ، لقد عدتم الى حيلكم القديمة من جديد . أليس من سبق الأوان أن تشرعوا بقتل ضباطكم ؟ لقد استبدت بكم نوبة من هذا القبيل فى الخريف الماضى ، ولكن ما ان أجلسكم الحمر على الخازوق ، حتى وجدتم أنفسكم فى حاجة الى الضباط وجئتم تجرجرون أذيالكم الينا متوسلين أن تكونوا تحت قيادتنا . وها هى الآن القصة نفسها تعاد من جديد» . وألقيت عليهم درسا طيبا . ومن الطبيعى أنهم أنكروا قتله ، بيد أننى استطعت أن أتبين من أعينهم أنهم كاذبون . ولكن ما عساك تفعل بهم ؟ بامكانك أن تتبول على وجوههم وسيقسمون بأن ذلك ندى نازل من عند الله . — ودعك كودينوف النطاق بيده وانتفخت أوداجه غضبا : — لقد قتلوا رجلا ذكيا ، وها اننى الآن — وقد أمسيت بدونه — كمن فقد يده اليمنى . من ذا الذى سيرسم لنا الخطط الآن ومع من نتشاور ؟ فى مقدورنا أن نتحدث الى ما لا نهاية ، ولكن ما ان نجابه مسألة استراتيجية حتى تجد أننا خواء الوفاض .

انني أشعر بالامتنان لوصول بيوتر بوغاتيريوف ، والا لما كان في وسعي أن أجد رجلا واحدا أتبادل معه الكلام . أوه ، حسنا ، لا عليك . فلنبدأ عملنا . اذا لم يستطع أصحابنا أن ينفذوا خلال جبهة الدونيتس فلن يصبح بمقدورنا الصمود في مواقعنا . ولذا قر عزمنا ، كما سبق أن ذكرت ، على الزج بكل الجيش ، بآلافه الثلاثين ، في محاولة لشق طريقنا . فاذا أرجعتم على أعقابكم ، انسحبوا نحو الدون . وسنقوم نحن باخلاء الضفة اليمنى من أوست–خوبرسكايا حتى كازانسكايا ، وحفر الخنادق على امتداد الدون ، والدفاع عن أنفسنا . . .

وقاطعته طرقة حادة على الباب ، فصاح : «أدخل» . فدخل آمر اللواء السادس الخاص ، غريغوري بوغاتيريوف ، كان وجهه الاحمر الصارم يتلألأ بالعرق وحاجباه النحاسيان الذاويان قد انعقدا غضبا . وبدون أن ينزع قبعته جلس الى المنضدة .

فتساءل كودينوف وهو يشخص الى بوغاتيريوف بابتسام مكتوم : «ما الذي جئت من أجله ؟»

فقال بوغاتيريوف : «أعطنا خراطيش !»

— أعطيناك شيئا منها . كم تريد أكثر ؟ أتحسب أن لدي معملا للخراطيش هنا ؟

— وماذا أعطيتنا ؟ خرطوشة لكل رجل ! انهم يصلوننا بنيران رشاشاتهم ، وكل ما نستطيع فعله هو أن نحني ظهورنا ونخفي انفسنا . أتدعو هذه حربا ؟

فقال كودينوف : «انتظر لحظة ، يا بوغاتيريوف ، فاننا نبحث أمورا هامة» . وأضاف حينما نهض بوغاتيريوف يهم بالخروج : «ولكن لا تذهب . فليست لدينا أسرار نحجبها عنك» . واستدار الى غريغوري : «حسنا ، اذا يا ميليخوف . فاذا لم نستطع

أن نقاوم حتى على هذه الضفة ، فسنحاول أن نشق الحصار . سوف نخلف كل من ليس في الجيش ، نخلف كل أمتعتنا ، ونضع المشاة في عربات ، ونأخذ ثلاث بطاريات معنا ، ونسير صوب الدونيتس . اننا نريد أن تكون فرقتك في المقدمة . لعلك لن تعارض ؟

— الأمر سيان لدي . ولكن ماذا عن عوائلنا ؟ ففتياتنا ، ونساؤنا ، وشيوخنا ، سنفقدهم جميعا .

— ما عسانا . . . من الخير أن يستسلموا هم على أن تدور الدائرة علينا جميعا .

وتهدل فم كودينوف من طرفيه . وران عليه الصمت زمنا . ثم أخرج جريدة من طاولته .

— اليك خبرا آخر . قدم القائد العام قدم ليقود القطعات بنفسه . ويقال انه في ميليروفو أو كانتيميروفكا الآن . انتظر حتى يبلغ موضعنا !

فتساءل غريغوري :

— أجاد أنت ؟

— نعم . هاك ، اقرأ هذه . أرسلت الي من كازانسكايا . احدى دورياتنا ظفرت باثنين من المراسلين الحمر . فقتلوهما ، بطبيعة الحال ، وعثروا لدى أحدهما — وهو رجل يبدو متقدما في السن ، كما قيل ، ولربما كان قوميسارا — عثروا على هذه الصحيفة «الطريق» مؤرخة في الثاني عشر من هذا الشهر . انهم يقدمون وصفا بديعا عنا !

وناول كودينوف غريغوري الصحيفة البالية . فنظر غريغوري الى السطر العريض الذي خط بقلم لا يمحى أثره ، وشرع يقرأ :

تمرد فى المؤخرة

لقد انقضت بضعة اسابيع على قيام تمرد فى جزء من أرض قوزاق الدون . ان هذه الحركة التى أوحى بها عملاء دينكين — الضباط المعادون للثورة — قد وجدت الاسناد من كولاك القوزاق ، وقد جر الكولاك وراءهم عددا كبيرا من القوزاق الوسط . وانه لمن المحتمل جدا أن يكون القوزاق قد تعرضوا ، فى بعض الحالات ، الى مظالم على يد بعض الأفراد من ممثلى الحكومة السوفييتية . ولقد استغل هذه الحالات عملاء دينكين استغلالا ماهرا لاشعال نار التمرد . ان رجال «الحرس الأبيض» الذين تخلفوا فى منطقة التمرد يتظاهرون أنهم يتبنون نظام السوفييتات بغية اكتساب ثقة القوزاق الوسط . وبهذه الطريقة تظافرت مخططات الثورة المعادية ، ومصالح الكولاك وجهل جماهير القوزاق معا للقيام بتمرد جنونى اجرامى فى مؤخرة جيوشنا العاملة فى الجبهة الجنوبية . ان حركة تمرد فى مؤخرة الجيش مثلها مثل دملة فى كتف العامل . فلاجل أن نحارب بجدارة ، وندافع عن الوطن السوفييتى ونقضى على زمر دينيكين من سادة الأرض ، يجب أن نضمن مؤخرة لجيشنا تعتمد على التحالف الودى ، السلمى والوثيق بين العمال والفلاحين . وعلى هذا الأساس فان أخطر مهمة تواجهنا هى تطهير الدون من التمرد والمتمردين .

لقد أصدرت الحكومة السوفييتية المركزية أوامرها القاضية بانجاز هذه المهمة بأقصر وقت ممكن . ولقد وصلت تعزيزات كبيرة ولا تزال تصل لمساندة الحملة التى تحارب هذا التمرد المعادى للثورة . ويجرى الآن ارسال خيرة المنظمين الحزبيين ليعالجوا هذه المهمة الملحة .

يجب أن يوضع حد للتمرد . ويجب على رجال جيشنا الأحمر أن يدركوا بجلاء أن متمردى مناطق فيشنسكايا ويلنسكايا وبوكانوفسكايا هم شركاء مباشرون لجنرالى «الحرس الأبيض» دينيكين وكولتشاك . وكلما أتيح للحركة أن تستمر مدة أطول ، زادت الخسائر من كلا الجانبين . وليس بالامكان حقن الدماء الا عن طريق واحد : تسديد ضربة سريعة ، قوية قاصمة .

يجب أن يوضع حد للتمرد . ويجب أن تفجر الدملة على كتفنا

وتكوى بحديد حار . وآنذاك ستصبح يد الجبهة الجنوبية طليقة لكى تهوى بضربة مميتة على العدو .

قرأ غريغورى المقالة وابتسم باكتئاب . لقد أفعمته مرارة وحنقا ، فقال فى نفسه : «يجعلون منى شريكا لدينيكين ، هكذا بجرة قلم» .

— حسنا ، مقال بديع ، أليس كذلك ؟ انهم يريدون أن يعالجونا بالحديد الحار . سنرى من هو الذى سيقوم بعملية الكى ! أليس كذلك ، يا ميليخوف ؟

وبينما كان كودينوف ينتظر ردا من غريغورى استدار الى بوغاتيريوف :

— تقول انك بحاجة الى خراطيش ؟ ستحصل عليها ! ثلاثون لكل خيال ، لجميع اللواء . أهذا كاف ؟ اذهب الى المخازن واسحبها ، وسيحرر ضابط الاعاشة اصدارا بذلك . ولكن عليكم أن تلجأوا الى سيوفكم أكثر ، يا بوغاتيريوف ، أضف الى أن الدهاء شىء حسن !

فابتسم بوغاتيريوف مبتهجا وقال : «شعرة من جلد خنزير !» . ثم ودعهم على عجل وغادر الغرفة .

وحينما أتم غريغورى عمل الترتيبات الخاصة بالتراجع المرتقب نحو الدون ، مع كودينوف ، استدار هاما بالخروج . غير أنه سأل كودينوف قبل أن يمضى :

— هب أننى جئت بكل الفرقة الى بازكى ، فهل هناك ما سنعبر النهر عليه الى فيشنسكايا ؟

— أية فكرة ! من المؤكد أن بمقدور الخيالة أن يعبروا الدون سباحة على خيلهم . لعمرى من سمع بخيالة يحملون على شىء عبر نهر ؟

— ولكن ليس لدي العديد من أهل القرى الواقعة على جانبي الدون ، كما لا يخفى عليك . أضف الى أن القوزاق القادمين من نهر تشير ليسوا ماهرين فى السباحة . فقد قضوا كل حياتهم فى السهب ، وأين يسبحون هناك ؟

— سيعبرون مع الخيول . فعلوا ذلك فى المناورات وفى الحرب الألمانية .

— اننى أتحدث عن المشاة .

— هناك المعبر . وسنهيء لهم زوارق ، فلا تخش شيئا .

— سيقدم المدنيون معنا ، أيضا .

— أعرف ذلك .

— عليك أن تهيء وسائل العبور للجميع ، والا فسأزهق روحك حينما أصل . ليس بالامر الهين أن نخلّف المدنيين على الجانب الخطر من النهر .

— طيب ، سأهتم بذلك ، سأهتم بذلك .

— وماذا عن المدافع ؟

— دمر مدافع الهاون ، ولكن أجلب مدافع الميدان الى هنا . سوف نهيء قوارب كبيرة تتسع لنقل البطاريات الى هذا الجانب .

ثم غادر غريغورى المقر وهو واقع تحت تأثير المقالة التى كان قد قرأها لتوه .

«انهم يدعوننا شركاء دينيكين . . . ومن نحن اذن ؟ هذا هو واقعنا بالضبط ، فلِمَ نجانب الحقيقة . . .» . وتذكر شيئا كان باكوف قد قاله يوم كان حيا . اذ حدث ذات مساء فى كاركينسكايا أن كان فى طريقه الى قريته فعرج على مقر المدفعية القائم فى الساحة . وحينما كان ينظف جزمته عند المدخل ،

سمع باكوف يجادل شخصا ما : «أنت تقول اننا مستقلون الآن ؟ ولن نكون فى خدمة أية حكومة بعد اليوم ، ها ؟ باه ! ان لديك بطيخة متعفنة بين كتفيك بدلا من رأس . واذا شئت أن تعرف ، فاعلم بأننا لسنا أفضل حالا من كلب ضال . فاذا اقترف كلب خطأ وهرب ، فأين عساه يذهب ؟ انه يخاف أن يمضى مع الذئاب ، ويخاف أن يعود الى سيده خشية ما سيناله من ضرب . انه مثلنا تماما . تذكر كلماتى : لن يمضى وقت طويل حتى ندب عائدين الى «الكاديت» وأذيلنا بين سيقاننا ، متوسلين اليهم أن يصفحوا عنا . تذكر كلماتى ، وهذا ما سنفعله !»

راح غريغورى ، منذ المعركة التى كان قد قتل فيها البحارة ، يعيش فى حالة من الخدر واللامبالاة . وصار يحنى رأسه بقنوط ، دونما ابتسام . ولأجل من الوقت لبث الألم والحزن لمصرع ايفان اليكسييفتش يؤرقه . ثم مر هذا أيضا ، وانقضى . وكان الشيء الوحيد الذى بقى لديه فى حياته (أو هكذا بدا له الأمر) هو عاطفته المشبوبة نحو أكسينيا ، التى عادت اليه من جديد بزخم لا يثنى . لقد كانت هى وحدها التى تومىء اليه أن يوافيها ، كما تومىء نار مضرب خفاقة بعيدة للمسافر على السهب خلال العتمة المتجمدة لليلة خريفية .

والآن ، وحين كان عائدا من المقر انعطف ذهنه صوب اكسينيا : «اننا سنحاول فك الحصار عنا ، فما مصيرها هى ؟» ومن غير ما تردد استقر عزمه : «ستبقى ناتاليا مع الأطفال ومع أمى ، لكننى سآخذ أكسينيا معى . سأعد لها حصانا ، وتستطيع أن تركب مع أركانى» .

عبر الدون الى بازكى . وما ان بلغ مقره ، حتى مزق ورقة من دفتر ملاحظاته وكتب :

«أكسينيا . قد يتعين علينا أن نتقهقر الى الجانب الايسر للدون . فاذا صار الأمر كذلك ، أتركى كل شىء واذهبى الى فيشنسكايا . ابحثى عنى هناك ، فستذهبين معى» .

ثم طوى الورقة وختمها بصمغ الكرز ، وأعطاها لبروخور زيكوف ، وقال له وهو متجهم ، يحاول أن يحجب حرجه بصرامة لا مبرر لها :

— اركب حصانك الى تتارسكى واعط هذه الورقة لاكسينيا أستاخوفا . احرص على ألا يراك أحد من أهلى وأنت تعطيها الورقة . ومن الأفضل أن تأخذها اليها ليلا . لا تنتظر ردا . وبعد ذلك تستطيع أن تتمتع باجازة يومين . هيا انطلق .

فاستدار بروخور يهم بالذهاب الى حصانه ، غير أن غريغورى نادى عليه :

— وعرج على بيتى واخبر والدتى أو ناتاليا ، بأن من الخير لهم أن يرسلوا بالملابس وكل ما له قيمة الى هذا الجانب من الدون . ويحسن بهم أن يدفنوا الحبوب ، ولكن يستحسن أن تساق الماشية الى هذا الجانب .

٥٩

بدأت القوات المتمردة بالتراجع على امتداد الجبهة كلها فى الثانى والعشرين من أيار . كانوا يتقهقرون وهم يحاربون ويتنازعون حول كل بوصة من الأرض . وكان سكان القرى يهربون أمامهم صوب الدون وقد استبد بهم الذعر ، فراح الشيوخ والنساء يسرجون كل ما لديهم من حيوانات الجر ، ويحملون عرباتهم بالصناديق ، والأوانى والأدوات والحبوب والأطفال . وقاموا بتوزيع قطعان القرية

على أصحابها ، فراح هؤلاء يسوقون بقراتهم وأغنامهم على امتداد الطريق . وانحدرت قوافل كبيرة من اللاجئين الى القرى الواقعة على جانب الدون ، متقدمين الجيش . وكان المشاة قد تلقوا أمرا من مقر القيادة يقضى بالشروع فى انسحابهم قبل ذلك بيوم . ففى الحادى والعشرين من أيار قام قوزاق تتارسكى المشاة مع مفرزة قوامها رجال من فيشنسكايا من غير القوزاق ، بمغادرة مواقعهم فى منطقة أوست–خوبرسكايا وقاموا بمسيرة اضطرارية قطعوا خلالها أكثر من ثلاثين فرسخا الى قرية ريبنى المجاورة لفيشنسكايا .

وفى صباح الثانى والعشرين كانت السماء ملفعة بضباب رقيق ، ولم تكن العين لترى غيمة واحدة فى المدى خلا غيمة صغيرة ذات لون وردى باهر ظهرت قبيل الشروق فى الجنوب . وبدا جانبها المواجه للشرق وكأنه يتزف دما . ثم ارتفعت الشمس فوق التلال الرملية على الجانب الأيسر من النهر ، فاختفت الغيمة عن الأنظار . وعلى المروج أضحى صياح طيور الصفرد أكثر وضوحا ، وظهرت على حين غرة نعاج الماء ذوات الأجنحة المدببة مثل ندف زرق فوق الجوانب الضحلة للنهر ، ثم حومت صعدا فى الجو حاملة فى مناقيرها الكاسرة سمكا متلألئا كفضة .

وحينما انتصف النهار غدا الجو حارا على نحو لم يعتده الناس فى شهر أيار . وصار الهواء خانقا رطبا كما لو كان المطر وشيكا . ومنذ بكرة الفجر كانت عربات اللاجئين تدب على امتداد الضفة اليمنى للدون ميممة صوب فيشنسكايا . وطوّف على النهر صوت عجلات العربات ، وزنخرة الخيل ، وخوار الثيران والاصوات البشرية .

وفى الثانى والعشرين من ايار كان رجال مفرزة فيشنسكايا

غير القوزاق لا يزالون فى ريبنى . وفى حوالى الساعة العاشرة صباحا تلقوا أمرا بالمضى الى قرية كروموك الواقعة على طريق هتمان العام ، واقامة ربايا ثمة للقبض على كل القوزاق الذين تصلح أعمارهم للخدمة العسكرية ممن كانوا يحاولون بلوغ فيشنسكايا .

بلغت كروموك موجة عربات اللاجئين المتوجهة الى فيشنسكايا . كانت النساء تسوق الماشية ، وقد علاهن الغبار وحال لونهن قاتما من لفح الشمس ، فيما كان الخيالة يمضون على جانب الطريق . وكانت أصوات صرير العجلات وزنخرة الخيل والخراف ، وخوار الأبقار وصراخ الأطفال وأنين المصابين بالتيفـــوس الذين حملوا أيضا للهرب ، تمزق الصمت المطبق على القرية وبساتين الكرز . كان ذلك الهدير الذى اختلطت فيه آلاف الأصوات من الغرابة حتى أنه أبح الكلاب من كثرة النباح ، فأقلعت عن ملاحقة كل عابر ، ولم تعد تصطحب العربات الماضية فى طريقها مسافة فرست أو نحوه ، كما تفعل فى الظروف الاعتيادية .

أمضى بروخور زيكوف يومين فى قريته ، فسلم أكسينيا رسالة غريغورى ، وأخبر ايلينشنا وناتاليا بتعليماته ، ثم غادر القرية قاصدا فيشنسكايا فى الثانى والعشرين من أيار . وتوقع أن يجد سريته فى بازكى ، الا أن رمى المدافع الثقيل بدا قادما من موضع ما وراء نهر تشير . فلم يشعر بروخور بأية رغبة قوية تدفعه للمضى الى حيث يتأجج أوار معركة حامية ، واستقر رأيه على التوجه الى بازكى وانتظار وصول غريغورى والفرقة الأولى اليها .

فمضى الى كروموك على حصانه متمهلا فى طريق هتمان العام ، تكاد خطى حصانه لا تعدو سرعة المشى الاعتيادى ، حتى لقد سبقته عربات اللاجئين . ثم لحق بهيئة أركان كتيبة شُكلت مؤخرا فى أوست–خوبرسكايا ، وانضم اليها . كانت

هيئة الأركان مسافرة فى مركبات خفيفة ذوات نوابض وفى عربتين صغيرتين تجرى وراءها ستة من الخيل مسرجة وكانت احدى العربتين الصغيرتين تحمل وثائق وجهاز تلفون ، وفى الأخرى قوزاقى كهل جريح ورجل معقوف أنفه وقد استبد به اعياء شديد يغطى رأسه بقبعة من فرو الكاراكول ، رمادية مما يستعملها الضباط . وكان جليا أنه يمر بفترة الابلال من التيفوس . وكان متمددا وقد تلفع بمعطف سميك حتى ذقنه ، بيد أنه كان لا ينى يطلب من أحدهم أن يلف قدميه بشىء دافئ ، وراح يتفجر غضبا ويطلق اللعنات وهو يمسح العرق من جبينه بيده الهزيلة .

—أيها الخنزير ! الريح تتسرب من تحت قدمى ! بوليكارب ، غطنى ببساط . يوم كنت قويا صحيحا ، كان الكل يلجأ الي ، أما الآن . . . — وراحت عيناه تجولان بتلك القساوة الهائلة لرجل عانى من مرض خطر .

فترجل الرجل الذى دعاه بوليكارب وهرع الى العربة ، وقال :

— على هذه الحال يمكن ان تصاب بنزلة برد ، يا صاموئيلو ايفانوفيتش .

— قلت لك غطنى !

فصدع بوليكارب للأمر ، ثم تخلف عن العربة .

فسأله بروخور مشيرا الى المريض بعينيه :

— من يكون هذا ؟

فأجاب القوزاقى :

— ضابط من أوست–مدفديتسكايا . كان ملحقا بهيئة أركاننا .

كان ثمة حشد مائج من اللاجئين القادمين من قرى أوست–خوبرسكايا ينسحب مع هيئة الأركان . فنادى بروخور على قوزاقى

عجوز جالس فى عربة وضعت عليها كومة عالية من النفائس المنزلية المختلفة :

— أنت يا هذا ، بحق الشيطان أين تظن أنكم ذاهبون ؟

فرد الرجل :

— نحن ذاهبون الى فيشنسكايا .

— وهل أرسلوا فى طلبكم ؟

— لم يرسل أحد فى طلبنا ، ولكن من يريد أن يلقى نفسه فى الموت ؟ حينما يطل الذعر فى عينيك ستنطلق على حصانك بالسرعة اللازمة .

فسأله بروخور :

— سألتك لماذا تذهبون الى فيشنسكايا . كان بمقدوركم أن تعبروا النهر عند يلنسكايا ولم يكن الأمر ليأخذ منكم وقتا طويلا .

— وبأى شىء نعبر ؟ الناس تقول لا يوجد معبر هناك .

— وكيف ستعبرون فى فيشنسكايا ؟ وهل سيخلفون القطعات وراءكم ريثما يأخذونكم وعرباتكم ؟ انكم تهيمون مثل قطيع من الخراف ، لا يعلم الا الشيطان الى أين ولماذا ! ولماذا تصطحبون كل تلك معكم ؟ — وأشار بروخور بسوطه حانقا الى الصرر الموضوعة على العربة .

— معنا ملابسنا ، وأطواق الخيل وطحين وما شاكل ذلك مما نحتاجه فى الحقل . لم يكن بمستطاعنا أن نخلّفها وراءنا ، فلئن عدنا سنجد كوخنا قاعا صفصفا . يا بنى ، حينما تكون قد لملمت حوائجك بالدموع والعرق ، فليس من اليسير أن تخلّفها وراءك ، ولو كان فى مقدورى ، لحزمت كوخى أيضا ، حتى لا يستحوذ عليه الحمر ، فلتحل بهم الهيضة !

— وذاك الجرن الكبير هناك ، فيم تجرجره معك ؟ وتلك الكراسى ؟ ليس الحمر بحاجة اليها !

— لم نقدر أن نخلفها وراءنا . لانهم سيكسرونها ويحرقونها . كلا ، لن أدعهم يغتنون على حسابى . لقد نظفت كوخى عن آخره !

ولوّح العجوز بسوطه على الخيل السمينة ، ثم التفت وأشار بالسوط الى عربة تجرها الثيران خلفه ، وأضاف قائلا :

— أترى تلك الفتاة المتلفعة هناك ، تسوق الثيران ؟ انها ابنتى . معها خنزيرة ونسل من الخنازير الصغار فى تلك العربة . لعلنا ضايقناها حينما قيدناها ووضعناها فى العربة ولذا ولدتهم الخنزيرة خلال الليل وهى راقدة فى العربة . أتستطيع أن تتسمع الى الصغار يقبعون ؟ كلا ، لن أدع الحمر يسمنون على حسابى ، عسى أن يأخذ الطاعون أرواحهم !

فقال بروخور وهو يحدق حانقا فى وجه العجوز العريض العرق :

— اياك أن تقف فى طريقى حينما تصل المعبر ، أيها الجد ! والا فسيُلقى بك وبخنازيرك وبكل ما تملك فى الدون .

فتساءل العجوز بذهول مطبق :

— لماذا ؟

فصاح بروخور ، الهادئ فى عادته :

— لأن الناس يموتون ، ويفقدون كل ما يملكون ، وأنت ، أنت أيها الشيطان العجوز ، تجرجر معك كل شىء مثل الجعل . اننى لا أطيق آكلى الروث من أمثالك .

فحمحم العجوز مغضبا ، وهو يشيح بوجهه :

— هيا . اذهب وابعد عنى ! اى قادة لنا ، مستعدون

لقذف أمتعة الناس الآخرين فى الدون . كلمته باحترام وهو . . . لماذا ، ان لى أنا ولدا ، برتبة عريف ، يصد الحمر مع سريته . . . اذهب ، رجاء ! لا تضع عينك على أموال الآخرين لو كنت أنت قد اغتنيت بعض الشىء لما صرت حسودا هكذا .

مضى بروخور يخب . وارتفع على حين غرة خلفه زعيق خنزير صغير طغى على الأصوات الأخرى ، نافذا الى طبلتى أذنيه . وقبع الخنزير الكبير فى اضطراب .

فصاح الضابط الملقى فى العربة ، مقطبا يوشك أن يبكى :

— ما هذا بحق الشيطان ؟ من أين جاء هذا الخنزير ؟ بوليكارب ! . .

فأنبأه بوليكارب قائلا :

— انه خنزير سقط من عربة ، وداست العجلة على ساقه .

— قل لصاحبه أن يقطع بلعومه . قل له يوجد مرضى هنا . . . يكفينا ما نحن فيه دون خنازير تزعق فى آذاننا ! أسرع !

ورأى بروخور ، الذى كان قد حاذى العربة الصغيرة ، الضابط متسمعا الى الزعيق وقد انعقد حاجباه ، وهو يحاول عبثا أن يغطى أذنيه بقبعته . ثم قدم بوليكارب من جديد .

— انه لا يريد أن يقتله ، يا صاموئيلو ايفانوفيتش . يقول ان حالته ستتحسن ، والا فانهم سيذبحونه هذا المساء .

فشحب لون الضابط ، وجاهد ليستقيم ، ثم جلس مدليا ساقيه من على جانب العربة .

وصاح :

— أين مسدسى ؟ أوقف الحصان ! أين صاحب ذلك الخنزير ؟ سأريه ! فى أية عربة هو ؟

فاضطر العجوز القوزاقى البخيل الى ذبح الخنزير .

فابتعد بروخور ضاحكا ، وسرعان ما سبق صف جديد طويل من عربات أوست–خوبرسكايا . كانت تربو على المائتين ، فامتدت مع ماشيتها وخرافها مسافة فرست تقريبا على الطريق . اما الفرسان فكان عددهم زهاء الاربعين . فقال بروخور فى نفسه : «سنشاهد ألعابا نارية عند المعبر !»

انطلقت امرأة من مقدمة الصف تركب كميتا بديعا ، نحو بروخور . وحين تقدمت صوبه أوقفت حصانها . كانت تجلس على سرج كثير الزركشة ، وكانت الأحزمة التحتانية والمقعد تلمع بجلد زاه لم يكد يصيبه خدش ما ، والشكيمة والاجزاء المعدنية تتلألأ بالفضة . وكانت المرأة تجلس على السرج على نحو يدل على الخبرة والدراية ، وقد أمسكت بالأعنة بشكل صحيح فى يدها القوية السمراء ، الا أن الحصان العسكرى القوى كان بادى النفور من سيدته . فأجال عينيه ، وقوّس رقبته وكشر عن صف أصفر من الأسنان محاولا أن يعض ركبة المرأة الجميلة التى بدت من تحت تنورتها .

كانت ملثمة الى عينيها بعصابة رأس نظيفة زرقاء . وسألت بروخور وهى تميطها عن شفتيها :

— ربما مررت بعربات تحمل جرحى ، أليس كذلك ؟

— مررت بالعديد من العربات ، ولكن ماذا فى ذلك ؟

فأجابت المرأة وهى تمط الكلمات :

— لم أستطع أن أعثر على زوجى . لقد جرح فى ساقه ، وهو ينقل الآن فى مستشفى ميدان من أوست–خوبرسكايا . ولكن يبدو أن الجرح قد تقيّح فأخبرنى أن أجلب له حصانه . هوذا الحصان — ولسعت المرأة رقبة الحصان العرقة بسوطها . — أسرجته وركبته الى أوست–خوبرسكايا ، لم أستطع أن أجد المستشفى .

سرت وسرت ، دون أن أستطيع العثور عليه .

كان بروخور يتسمع بسرور الى الجرس الخفيض المرنان لصوت المرأة القوزاقية . وهو ينظر باعجاب الى وجهها الوسيم الملىء ، فقال مستغربا :

— اية حاجة لك للبحث عن زوجك يا امرأة ؟ دعيه يذهب مع مستشفى الميدان ! ان أى رجل يمكن أن يتزوج حسناء مثلك ، صداقها جواد كهذا . انا مستعد للمغامرة شخصيا !

فابتسمت المرأة على مضض ، ثم انحنت لتغطى ركبتها بطرف تنورتها . وتساءلت : «قل لى ، بلا مسخرات ، هل مررت بمستشفى ميدان ؟»

فأجاب بروخور متنهدا ، وهو يشير الى صف العربات الممتد وراءه على مبعدة قليلة : «سوف تجدين مرضى وجرحى فى ذلك الجمع هناك» .

فلوحت المرأة بسوطها ، وأدارت حصانها بحدة ومضت تخب مبتعدة .

كانت العربات تغذ سيرها ببطء والثيران تلوح بذيولها متكاسلة لتهش عنها ذباب الخيل الطنان . كان الجو حارا والهواء خانقا عكيكا يحمل نذير الرعد ، حتى أن الأوراق الصغيرة لعباد الشمس القمىء النامى على قارعة الطريق كانت ذاوية ذابلة .

ومن جديد حاذى بروخور صفا من العربات . وأذهله أن يجد عددا كبيرا من القوزاق الشباب معهم . . . رجال اما فقدوا سراياهم أو هربوا منها ، فانضموا الى عوائلهم ، وصاروا يمضون معهم نحو معبر النهر . وكان بعضهم قد ربطوا خيلهم العسكرية وراء العربات وكانوا متمددين يحادثون زوجاتهم أو يعنون بأطفالهم . وكان آخرون ممتطين صهوات خيلهم ، وقد تسلحوا تسليحا كاملا

بسيوفهم وبنادقهم ، فقال بروخور لنفسه وهو يحدق بهم : «لقد تركوا وحداتهم وهم يسعون الى مصيرهم» .

أفعم الهواء برائحة عرق الحيوانات ، والخشب والأوانى المنزلية وزيت العربات الذى لفحته الشمس . ومضت الثيران تتقدم بتباطؤ وفتور ، وقد تدلت من ألسنتها الهادلة خيوط من اللعاب تمتد الى التراب . وكانت العربات التى تجرها الخيل تتحرك على الوتيرة ذاتها دون أن تبدى أية محاولة لاجتياز الآخرين . وكانت المجموعة بكاملها تمضى بسرعة لا تزيد على ثلاثة فرسنات أو أربعة فى الساعة . ثم سُمعت رمية مدفع على حين غرة من بعيد من جهة الجنوب ، فاذا بالحياة تنبعث فى الموكب على الفور . فانعطفت العربات التى يجرها حصان أو حصانان خارج الصف ، واستحثت الخيل على الخبب ، وشرعت السياط تفح والصرخات تتعالى . وراحت أغصان الصفصاف تهس على ظهور الثيران ، والعجلات تفرقع على نحو أسرع . وانطلق الجميع وقد استبد بهم الذهول ، يستحثون خطاهم . وارتفعت من الطريق سحابات من الغبار أمواجا كثيفة ، ثم طوقت عائدة لتحط على سيقان القمح والأعشاب .

كان حصان بروخور يجر العنان نحو العشب ، مدليا خطمه الى أسفل ينتزع حزما من البرسيم واللفت والخردل البرى . ولكن ، ما ان دوت الرمية ، حتى غرز بروخور مهمازيه فى خاصرتى الحصان ، فانطلق طوعا يخب ببطء ، وكأنه أدرك أن ذلك الوقت لم يكن وقت الرعى .

اشتد القصف فتذبذب صوت راعد فى الهواء العكيك .

— يا سيدنا المسيح !

ورسمت امرأة شابة تركب فى عربة حمل اشارة الصليب على

نفسها ، وانتزعت حلمة ثديها البنية المتلامعة باللبن من فم طفلها ، وحشرت ثديها المكتنز الأصفر فى قميصها .

وصاح عجوز ، يمشى الى جانب ثيرانه ، على بروخور :

— أهم رجالنا الذين يطلقون النار ، أم لا ، أيها الجندى ؟

— انهم الحمر ، أيها الجد . فليس فى مدافعنا أية قذائف .

— يا مليكة السماء ، أنقذيهم !

وأسقط العجوز الأعنة من يده ، ورفع قبعته القوزاقية المتآكلة ، ورسم اشارة الصليب وهو يدير وجهه ناحية الشرق .

ومن الجنوب ارتفعت غيمة سوداء نائئة من وراء حافة مستطيلة بعيدان الذرة الصفراء المتأخرة فى النمو . وانتشرت حتى غمرت من الأفق نصفه ، حاجبة السماء بستار مضبب . فصاح أحدهم :

— أنظروا ، هناك حريق كبير !

وارتفعت أصوات تتساءل فوق قرقعة عجلات العربات :

— ماذا يمكن أن يكون ؟

— أين الحريق ؟

— بمحاذاة نهر تشير .

— انهم الحمر يحرقون القرى على امتداد تشير .

— لا سمح الله ! . .

— يا لها من غيمة دخان هائلة !

— لا بد أن أكثر من قرية واحدة تضطرم فيها النار .

— ايفان ، قل لمن فى المقدمة أن يسرعوا !

وراحت رقعة الغيمة السوداء تتسع أكثر فأكثر على صفحة السماء . وصار هدير رمى المدافع يتعالى بشكل مستديم . وفى غضون نصف ساعة جعلت الريح الجنوبية تحمل الى طريق هتمان العام الرائحة الحريفة المرعبة للقرى المحترقة على ضفة نهر تشير .

يمر الطريق المؤدى الى كروموك ، فى موضع منه ، بسياج ذو بلاط من الحجر الرمادى ، ثم ينعطف بحدة صوب الدون ، منحدرا فى أخدود غير عميق ألقى عبره جسر خشبى . وكان قعر الأخدود أيام الجفاف ، يتلألأ برمله الأصفر وحصبائه ثرة الالوان ، أما بعد هطول أمطار الصيف فقد كانت السيول الغرينية لمياه المطر تنحدر بهياج على التل ، فيتكون جدول يجرى فى الأخدود ، غاسلا الصخور ومتدحرجا فوقها ، وهو يهدر فى طريقه الى الدون . وفى مثل تلك الأيام تغمر المياه الجسر ، ولكن ليس لمدة طويلة . فبعد أن تبلغ مياه التل الهائجة ذروتها ، وتحطم الجدران وتقتلع الأسيجة وعواميدها ، تعود فتنحسر ، فتتلألأ الحصباء من جديد فى قعر الأخدود ، وتفوح منها رائحة الكلس والطين الطرى الذى جرفته السيول من المنحدرات .

كان جانبا الأخدود تغطيهما أشجار كثيفة من الصفصاف والحور ، حتى أن فيئها يظل باردا حتى فى أشد أيام الصيف حرارة . وفى ذلك الفيء تنعمت الربيئة المؤلفة من مفرزة فيشنسكايا غير القوزاقية . وعسكرت عند الجسر برجالها الأحد عشر ، وقد زودوا بتعليمات لاعتقال جميع القوزاق الذين يبلغون من العمر ما يؤهلهم للخدمة العسكرية ، ممن كانوا يحاولون بلوغ فيشنسكايا . والى أن ظهرت من بعيد أولى عربات اللاجئين لبث الرجال مستلقين تحت الجسر يلعبون الورق ويدخنون ، وراح بعضهم يخلع قميصه وسرواله وينظفهما من قمل الجنود الشره . وحصل اثنان منهم على سماح من ضابطهما فذهبا الى الدون ليسبحا .

غير أن استراحتهم كانت قصيرة الأجل ، اذ سرعان ما بدأ

اللاجئون يتدفقون حدر الجسر فيضا لا ينقطع ، وفجأة غدا الموضع الظليل الوسنان الصغير يعج بالناس والجلبة والحرارة ، وكأن العربات كانت تحدر معها عكة السهب من التلال الواقعة على جانب الدون .

وقف آمر الربيئة عند الجسر ويده على بيت مسدسه ، وهو ضابط صف طويل نحيف ذو لحية قصيرة واذنان كبيرتان بارزتان كاذني صبي . وسمح لعدد من العربات بالمرور دون أن يعترضها ، غير أنه حين لاحظ قوزاقيا شابا ، له من العمر زهاء الخمس والعشرين سنة ، يقود عربة مع الآخرين ، أصدر اليه أمرا صارما بالوقوف .

فعبس القوزاقي وشد على الأعنة . فمضى الآمر الى العربة وسأله : «من أية كتيبة أنت ؟» .

— وما شأنك أنت ؟

— سألتك من أى كتيبة أنت . حسنا ؟

— انا من سرية روبزنى . ومن أنت ؟

— انزل !

— أريد أن أعرف من أنت .

— قلت لك ، انزل .

واحمر وجه الآمر حتى أذنيه . وفتح زر بيت مسدسه ، وأخرجه ، ثم نقله الى يده اليسرى . فدس القوزاقي الشاب الأعنة فى يدى زوجته ونط من العربة . . .

فاستجوبه الآمر قائلا :

— ما السبب فى أنك لست مع كتيبتك ؟ وأين كنت ذاهبا ؟

— كنت مريضا . وانا ذاهب الآن الى بازكى مع عائلتى .

— ألديك وثيقة تثبت أنك فى اجازة مرضية ؟

— من اين اتى بوثيقة ؟ لم يكن فى السرية طبيب .

— اذن أنت لم تحصل على وثيقة ! — ثم نادى على أحد رجاله — كاربنكو ! خذ هذا الرجل الى المدرسة .

فتساءل القوزاقي :

— من تكونون ، بحق الشيطان ؟

— سوف نريك من نحن !

— علي أن أرجع الى سريتى . لا يحق لك أن تمنعنى .

— سنرسلك بأنفسنا . ألديك سلاح ؟

— بندقية .

— أخرجها فورا والا حفرت ثقبا فيك . قوزاقى شاب مثلك وتختبىء تحت تنورة زوجتك الداخلية ! أيتعين علينا أن ندافع عنك ؟ .

ثم قال بازدراء عبر كتفه وهو يشيح بوجهه : «وغد !»

فأخرج القوزاقي بندقيته من تحت بساط . ولما لم يستسغ تقبيل زوجته على مرأى من الآخرين أخذ بيدها ، وتمتم لها بشيء ، ثم مضى مخفورا صوب المدرسة .

وعادت العربات المتزاحمة فى الطريق الضيق تسير من جديد على الجسر بجلبة مرعدة .

وفى غضون ساعة من الزمن كانت الربيئة قد اعتقلت زهاء خمسين هاربا . حاول بعضهم أن يقاوم ، وعلى الأخص قوزاقى كهل ذو شارب طويل ومظهر جندى شجاع . فحينما أمره الآمر بالنزول من عربته ، لفح حصانيه بسوطه ، الا أن اثنين من الحرس أمسكا بالحيوانين من لجاميهما وأوقفاهما عند الطرف الأبعد من الجسر . ومن غير أن يعمل القوزاقي ذهنه نتش بندقية أميركية من نوع ونتشستر من تحت غطاء المشمع وحطها الى كتفه ، صائحا :

— تنحيا عن الطريق والا قتلتكما ، عليكما اللعنة !

فقال له أحد الحارسين :

— انزل ، انزل ! لقد تلقينا أوامر باطلاق النار على كل من يخرج عن الطاعة . سنرميك .

— يا فلاحون ! بالأمس كنتم أنفسكم حمرا ، واليوم تصدرون الأوامر الى القوزاق . . . يا ذوى الجلود الزنخة ! تنحيا عن الطريق والا رميتكما . . .

فوثب أحد الحارسين على عجلة أمامية ، وبعد صراع قصير انتزع البندقية من يد الرجل . فتقوس القوزاقى كالقطة ، ودس يده تحت الغطاء المشمع ، وسحب حساما من غمده ، وحين جثا على ركبتيه استطاع أن يبلغ جانب العربة ، الا أنه أخطأ رأس الحارس بقليل فيما ابتعد هذا قافزا .

فصرخت زوجة القوزاقى الباكية ذات الوجه الهزيل فى زوجها الهائج : «تيموفى ، كف عن ذلك ! تيموفى ! آه ! لا تفعل هذا . . . لا تقاوم ، انهم سيقتلونك !»

غير أنه انتصب بملء قامته فى العربة ، ولوح بالحسام المشع بلون فى زرقة الفولاذ فوق رأسه ، مبعدا عنه الحارسين ، وهو يقذفهما بسباب مبحوح ويجول بعينيه . وأرعد صائحا : «ابتعدا والا مزقتكما !» ووجهه يرتجف غضبا ، وتحت شاربيه ازبد لعابه ، وبياضا عينيه المزرقان يحول لونهما أحمر قانيا كالدم .

واستطاعا أخيرا أن يجرداه من سلاحه بشق النفس ، ثم طرحاه أرضا وقيداه . وحينما فتشا العربة عثرا على تفسير بسيط لمقاومته العنود . اذ كانت ثمة جرة كبيرة تحت الغطاء المشمع مليئة بالفودكا المنزلية القوية .

وكان الطريق فى تلك الأثناء قد اكتظ بالعربات والبهائم .

وقد ازدحمت العربات بحيث صار لزاما على اللاجئين أن يحلوا الخيل والثيران ويجرّوا العربات بأيديهم حذر الجسر . وراحت الثيران والخيل المزنخرة بعنف ، وقد أهاجها ذباب الخيل ، تعث عرائش العربات بضراوة وتتزاحم متدافعة صوب حاجزى الجسر . وضج الجسر باللعنات وصفير السياط ونحيب النساء . أما العربات التى كانت فى المؤخرة فقد استدارت الى الخلف وصعدت الى الطريق العام من جديد لتيمم صوب الدون عند بازكى .

ارسل الهاربون المعتقلون الى بازكى تحت الحراسة ، غير أن الحراس لم يستطيعوا أن يسيطروا عليهم اذ كان الهاربون جميعهم مسلحين . فما ان عبروا الجسر حتى احتدمت معركة بين الحراس والأسرى . وبعد مضى وقت قصير عاد الحراس الى النقطة الأمامية ، بينما مضى الهاربون بأنفسهم الى فيشنسكايا فى تشكيلة عسكرية .

حتى أن بروخور نفسه أوقف فى كروموك . فأبرز أمر المرور الذى كان غريغورى قد زوّده به ، فسُمح له بالمرور دون اعتراض .

وبلغ بازكى الواقعة مقابل فيشنسكايا فى المساء المبكر . كانت آلاف من عربات اللاجئين تسد كافة الشوارع والأزقة الجانبية وتنتشر على ضفة الدون مسافة فرسخين تقريبا . وكان ثمة أكثر من خمسين ألفا من الناس منتشرين داخل الغابات ينتظرون نقلهم الى الجانب الآخر .

كانت البطاريات ، وهيئات أركان الكتائب ، والمعدات العسكرية تنقل على المعبر عبر النهر . أما المشاة فكانوا ينقلون فى زوارق ذوات مجاذيف ، حيث كانت عشرات منها تنقط صفحة الدون . وكانت حشود من الكائنات البشرية تمور متزاحمة حول المرسى . وكان هدير المدفعية لا يزال ينبعث من نهر تشير ، وقد اشتدت رائحة

الحريق الحريفة .

شرعت أولى مفارز الخيالة التى كانت تحمى التقهقر بالوصول عند منتصف الليل ، وكان مقررا أن تعبر النهر حالما يطل الفجر . الا أن أية أنباء لم تصل عن خيالة الفرقة الأولى ، فقرر بروخور أن يلبث فى بازكى منتظرا وصول سريته . شق طريقه بجهد وهو يقود حصانه بالاعنة عبر العربات الواقفة عند سياج مستشفى بازكى فربط حصانه الى عربة لاجئ ومضى يبحث عن معارف بين الزحام .

ومن بعيد لاحظ أكسينيا أستاخوفا نازلة الى النهر ، وقد ضغطت الى صدرها صرة صغيرة وألقت على كتفيها سترة صوفية . فأثار جمالها الخارق اهتمام بعض المشاة عند جانب النهر ، مما جعلهم ينادون عليها بسفاهة ، وشعت أسنانهم ببريق أبيض وسط وجوههم المغبرة العرقى حينما انفجروا فى هدير من الضحك المتشوق . وتجرأ قوزاقى طويل أشقر الشعر ، كان نطاق قمصلته سائبا ، على وضع ذراعه حولها من الخلف ، وضغط شفتيه على رقبتها قاتمة الجلد . غير أنها دفعت الرجل بخشونة وهى تقول شيئا ما وتكشر عن أسنانها . فهدرت جماعة الجنود ، ونزع القوزاقى قبعته ، وهو يتوسل بصوت أجش : «قبلة صغيرة واحدة لا غير !»

فأسرعت أكسينيا خطاها ومضت ، وقد علت شفتيها الممتلئتين ابتسامة مزدرية . لم ينادها بروخور بل راح يبحث بين الجمع عن آخرين من أهالى قريته . وبينما كان يشق طريقه ببـــطء خلال الزحام طرقت سمعه أصوات وضحكات ثملة ، وسرعان ما وجد ثلاثة شيوخ جالسين على مرشحة حصان تحت عربة . كانت لدى أحدهم جرة من الفودكا المنزلية وضعها بين ساقيه ، وكان هؤلاء الشيوخ المرحون يتناوبون على شرب الفودكا بكوز نحاسى

اتخذوه من طلقة فارغة ، ويمضغون شيئا من السمك المجفف . فتوقف بروخور الجائع ازاء فواح الشراب القوى ورائحة السمك المالحة .

فدعاه أحد الرجال : «أيها الجندى ، تعال واشرب جرعة معنا !» ولم يجد بروخور فى ذلك ضيرا ، فجلس ورسم علامة الصليب ، وتقبل بابتسام كوزا من المشروب نفاذ الرائحة من يد العجوز المضياف .

وهدر عجوز آخر ، بدا أنفه وشفته العليا متهشمين :

— اشرب ما دمت حيا ! هاك ، خذ عضة من هذا الأبرميس * . لا تشمخ بأنفك على معشر الشيوخ ، يا فتى . ان الحكمة تأتى من الشيوخ . فما زال عليكم ، أيها الأولاد ، أن تتعلموا منا كيف تعيشون وكيف تشربون الفودكا .

فشرب بروخور وهو يلقى نظرات وجلى على العجوز عديم الأنف . ولم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال ، بين كوزه الثانى والثالث :

— كيف فقدت أنفك ، يا اب ؟ فى المجون ؟

— كلا ، يا بنى . أصابنى الزكام . كنت أعانى دائما من الزكام منذ صباى . هذا هو السبب !

فاعترف بروخور :

— وأنا اسأت الظن بك . كنت اتصور أن داء عفنا ما قد خلف أثره الأسود على أنفك . ولم أكن أود أن أمس أيا من هذه الترهات .

واذ طمأنه تفسير العجوز ، ضغط شفتيه الى الكوز وأفرغه حتى القعر دونما وجل .

وجأر صاحب الفودكا ، وهو رجل عجوز قوى :

---

* نوع من السمك . **المترجمون** .

— حياتى انتهت ! فلِمَ لا أشرب ؟ جلبت معى مائتى بود من الحبوب ، ولكن اضطررت الى ترك ألف بود ورائى . سقت خمسة أزواج من الثيران الى هذا الموضع ، ولكن علي الآن أن أخلفها ورائى أيضا ، لأننى لا أستطيع أن أنقلها عبر النهر . سأفقد كل ما لملمته فى حياتى . لنتطلق فى الغناء ! هيا ، أيها الأصدقاء !

واستحال لون وجهه قرمزيا وامتلأت عيناه بالدموع . فقال العجوز المجدوع الانف يناقشه :

— لا تصرخ ، يا تروفيم ايفانيتش ! فان بقينا على قيد الحياة ، فسنستعيد ثراءنا من جديد .

فرفع القوزاقى العجوز صوته أكثر من السابق ، وتجعد وجهه وهو يبكى :

— كيف يمكن أن أمنع نفسى من الصراخ ؟ سأفقد كل حبوبى . ستموت كل ثيرانى . سيحرق الحمر دارى عن آخرها . ابنى قتل فى الخريف ، فكيف لى أن أمنع نفسى من الصراخ ؟ لمن كسبت حقلى وأملاكى معا ؟ فى الأيام الخوالى ، كانت لدي عشرة قمصان تتعفن بالعرق على ظهرى خلال الصيف ، وها انا الآن أمسيت عريان حافيا . هيا اشربوا !

وبينما كانوا يتحدثون ، أتى بروخور على أبرميسة كاملة ، وكرع سبعة كيزان من الفودكا ، وصار من السكر بحيث وجد مشقة كبيرة فى النهوض على قدميه ، حينما أراد أن يتركهم .

فعرض صاحب الفودكا عليه قائلا :

— أيها الجندى ، أيها المدافع عنا ، سأمنحك شيئا من الحبوب لحصانك ان شئت ذلك . كم تريد ؟

فتمتم بروخور غير مكترث لكل ما حوله :

— سآخذ ملء زكيبة .

فصب العجوز ملء زكيبة من أحسن الشوفان وساعده على وضعها على كتفيه . ثم سأل بروخور وهو يحتضنه ويذرف دموعا منفعلة : «ولكن أعد الزكيبة الي . لا تنس ، بحب المسيح !»

فرفض بروخور بعناد وطيش لسبب ما :

— لن أعيد الزكيبة . أقول لك اننى لن أعيدها وأنا أعنى أننى لن أعيدها .

وابتعد عن العربة مترنحا . وكانت الزكيبة تستحثه على المضى وهى تتأرجح على ظهره ، وقد بدا لبروخور وكأنه يسير على أرض زلقة بالجمد ، اذ كانت قدماه تتزحلقان وساقاه تهتزان كسيقان حصان غير منعل يخطو فوق الجليد . وبعد بضع خطوات مترنحة ، توقف ليتذكر ما اذا كان مرتديا قبعته أم لا . وتشمم حصان ، مربوط الى عربة ، زكيبة الشوفان ، فشد نفسه نحوها وقضم احدى زواياها . فانهمرت الحبوب خلل الثقب بوقع ناعم موصول . واذ وجد بروخور حمله أقل ثقلا من السابق ، انطلق من جديد .

وكان من الممكن أن يفلح فى حمل بقية الشوفان الى حصانه الا أن ثورا ضخما كان يمر بجانبه رفسه فجأة بحوافره . وما كان للثور أن يدع أى امرىء يقربه ، وهو الذى كان قد لقى الأمرين من السياط وذباب الخيل ، فاستبد به الهياج بفعل الحرارة والوقوف المستديم . فطار بروخور ، وهو الذى لم يكن أول ضحية لهياج الثور ذلك النهار ، وارتطم رأسه بمدار عجلة ، وارتمى نائما فى الحال .

استيقظ وشيك انتصاف الليل . كانت ثمة غيوم رمادية غامقة تتدفق عبر السماء فوقه متجهة ناحية الغرب . ومن حين لآخر كان القمر الفتى يطل هنيهة خلال شق بين الغيوم ، ثم تتلفع السماء بالسحب ، وبدا على الريح أنها تزداد برودة . كانت الخيالة تمر

قريبة جدا من العربة التى استلقى الى جانبها بروخور . وكانت الأرض تئن تحت عدد لا يحصى من الحوافر المنعلة . وحين تشممت البهائم المطر ، راحت تزنخر . وكانت أغمدة السيوف تجلجل على الركائب ، والوهج الباهت للسكاثر يتألق لحظة ويختفى . وتناهت رائحة عرق الخيل والرائحة الحريفة للعدة الجلدية الى منخرى بروخور . وكان قد اعتاد على تحسس هذه الرائحة الغريبة للخيالة كما يحس بأى جزء من بدنه ، مثله فى ذلك كمثل جميع القوزاق العاملين فى الخدمة العسكرية . لقد حمل القوزاق هذه الرائحة معهم على جميع الطرق من بروسيا وبوكوفينا الى سهوب الدون ، ولقد غدت هذه الوخامة الدائمة للخيالة عزيزة وأليفة عليه مثل رائحة بيته هو . فرفع منخراه المفلطحان ورفع رأسه الثقيل ، وهتف متسائلا :

— من أية كتيبة أنتم ، يا أولاد ؟

فرد عليه صوت مستخف خلل العتمة :

— خيالة .

— نعم . ولكننى سألت من أية كتيبة ؟

فأجابه الصوت ذاته :

— كتيبة بتلورا *.

فسبه بروخور : «يا خنزير !» وانتظر لحظة ثم كرر السؤال : «من أية كتيبة أنتم ، أيها الرفاق ؟»

فجاءه الجواب :

— بوكوفسكى .

وحاول بروخور أن يقوم على قدميه ، الا أن الدم هجم الى

---

* أحد رؤوس التمرد فى الحرب الأهلية . **المترجمون** .

رأسه وصعد الغثيان الى بلعومه ، فاضطجع ، وغيبه النوم من جديد . وقبيل الصباح هبت برودة رطبة من ناحية النهر . وتناهى الى سمعه وهو نائم صوت يتساءل من فوقه :

— لم يمت ؟

فيرد رجل آخر عند أذن بروخور تماما :

— جسمه حار . . . وثمل !

فقال الأول :

— جره عن الطريق ! انه منكفىء كجثة ميت . خله يذوق طعم رمحك !

فمنح الرجل الثانى بروخور نصف الواعى نخسة مؤلمة برمحه فى أضلاعه ، وأمسكت بساقيه يدان وسحبتاه الى جانب الطريق .

وأرعد صوت صارم :

— تحلون هذه العربات ، وجدتم الوقت المناسب لتناموا ! ها هم الحمر فى أعقابنا تماما ، ورجالنا ينامون وكأنهم فى بيوتهم ! نحوا العربات عن الطريق ، فستمر البطارية من هنا عما قريب . أسرعوا ! تسدون الطريق ! . . يا لكم من تنابلة !

وبدأ اللاجئون النائمون فوق وتحت العربات يتململون . ووثب بروخور على قدميه . لم يكن لديه سيف ولا بندقية ، وكان قد ضيع جزمته اليمنى منذ نوبة سكره فى المساء السابق . وكان يجول ببصره بارتباك فيما حوله وهمّ بالبحث عن أشيائه تحت عربة ، الا أن سواق ومدفعيى بطارية قادمة قلبوا العربة على رأسها بطيش ، بما عليها من صناديق ، وما هى الا لحظة حتى كانوا قد فتحوا طريقا لمدافعهم .

وهرع السواق الى خيلهم . وارتعشت السيور الجلدية العريضة وتوترت . وراحت العجلات الضخمة لمدافع الميدان تئن على عثرات

الطريق . وتعلق مدار عجلة من عربة عتاد بمحور عربة حمل فكسر .

وصاح العجوز المجدوع الانف الذى كان قد استضاف بروخور ، من عربته : «أنتم تلوذون بالفرار من الجبهة ! لعمرى انكم جنود أخيار ، عليكم اللعنة !»

ومضى جنود البطارية يمرون صامتين ، يغذون السير ليعبروا النهر . وعلى ضوء الغبش الباكر ظل بروخور يبحث وقتا طويلا عن بندقيته وحصانه ، الا أنه لم يعثر على أى منهما . وعند النهر خلع جزمته الأخرى وقذف بها فى الماء ، ثم بلل رأسه مرة وأخرى محاولا تخفيف وطأة الألم الذى كان يضغط على رأسه بأطواق حديدية لا تحتمل .

وشرعت الخيالة تعبر النهر عند شروق الشمس . فساق القوزاق خيلهم حدر الدون فوق الموضع الذى ينعطف فيه شرقا فى زاوية قائمة . وكان آمر السرية ، وهو رجل ذو أنف معقوف وسيماء قاسية ولحية زنجبيلية كثة ، يشبه الى حد غريب خنزيرا بريا متوحشا . وكانت ذراعه اليسرى معلقة بمشدة وسخة ملطخة بالدم ، بينما كانت يمناه تعمل بالسوط بلا كلل .

وصاح على القوزاق ، فيما كانوا يحاولون ادخال الخيل الى الماء ، فتكشفت أسنانه بيضا كأنياب الكلب ، من بين عذاريه الاحمرين : «لا تدعوا خيلكم تشرب ! . . استحثوها على المضى ! ماذا يا أبناء . . . ال . . . ! أتخافون الماء أم ماذا ؟ خذه الى الماء ! . . انه ليس مصنوعا من السكر ، فلن يذوب !»

وتزاحمت الخيل معا محجمة عن النزول الى الماء القارس ، فجعل القوزاق يصيحون ويسوقونها بسياطهم . وبدأ حصان أدهم ذو غرة عريضة فى جبينه ، يسبح ، كان واضحا أنه قد خبر السباحة من قبل . وراحت الأمواج تنحدر فوق ثفره المنحدر ، وانحسر ذيله

الكث جانبا ، فيما انتصب رأسه وعنقه خارج الماء . فتبعته الخيل الأخرى ، وهى تزنخر حين تخبط فى الماء . ثم تبعها القوزاق فى ست جنائب ، وقد وقف رجل على مقدمة كل جنيبة وبيده حبل ذو أنشوطة على أهبة الاستعداد لأى طارئ .

وصاح آمر السرية ، وهو يفرقع بسوطه قبل أن ينزله على ساق جزمته المغفرة بالكلس : «لا تذهبوا أمامها ! سوقوها مع التيار . لا تدعوه يجرفها بعيدا» .

وبدأ التيار السريع يجرف الخيل معه . واستطاع الحصان الأدهم بسهولة أن يسبق الآخرين بمسافة ، وكان أول من ظهر على الشاطىء الرملى للضفة اليسرى . وفى تلك اللحظة أطلت الشمس فوق الأغصان الكثيفة لشجرة حور ، وسقطت حزمة وردية من الضياء على الحصان الأدهم ، فتوهج شعره ، وقد تلألأ بالبلل ، وهجا قاتما .

زعق آمر البطارية ، الذى كان يحكى الخنزير شكلا ، بصوت أجش : «اعتن بالمهرة . ساعدها ، ان عليها عنانا . أجذف ، ألا تستطيع ! اجذف !»

وبلغت جميع الخيل الضفة الأخرى دون أية حادثة . وقد كان القوزاق فى انتظارها ، يفرزون الخيل حالما تحط على اليابسة ويضعون عليها الأعنة . ومن الجانب الآخر شرع الرجال يرسلون الأسرجة فى قوارب عبر النهر .

سأل بروخور قوزاقيا كان يأخذ سرجا الى قارب :

— أين شبت النار أمس ؟

— على امتداد نهر تشير .

— هل أضرمتها قذيفة مدفع ؟

— اللعنة على القذيفة ! الحمر يضرمون النار عن عمد . . .

فتساءل بروخور بدهشة :

— هل يعمدون الى حرق كل شيء ؟

— لا ، لا يفعلون ذلك . . . يحرقون بيوت الأغنياء . البيوت ذات السقوف الحديدية والمآوى الجيدة .

وبعد الاستفسار عن فرقته ، عاد الى عربات اللاجئين . وكان الدخان الحريف لنيران المضارب التى أضرم فيها الحطب والأسيجة المنتزعة والجل ، يتصاعد فى كل مكان مع مهب النسيم . وانهمكت النساء فى اعداد الفطور . وكانت قد وصلت أثناء الليل عدة آلاف أخر من اللاجئين القادمين من مناطق السهوب على الضفة اليمنى للدون . وارتفع حول النيران طنين الأصوات . وتناهت الى سمع بروخور نتف من الأحاديث :

— متى ستحين لنا فرصة للعبور ؟

— عسى الله أن لا يدعنا نعبر . فسوف ألقى حبوبى فى الدون ولا أدع الحمر يحصلون عليها .

— أرأيت عدد الناس المحيطين بالمعبر . . . مثل سرب من الذباب !

— ولكن كيف بمقدورنا أن نترك صناديقنا على الشاطىء . يا آلهي !

— بعد كل التعب والشقاء الذى تكبدناه من أجلها . . . يا سيدنا المسيح !

— آه لو عبرنا النهر عند قريتنا .

— نعم ، أى شيطان جاء بنا الى موضع فيشنسكايا هذا ؟

— يقال ان كالينوف أوكول قد حرقت عن آخرها .

— حسبت أننا سنعبر على المعبر .

— أتظن حقا أنهم سيصفحون عنا ؟

— عندهم أوامر بانزال السيف بكل قوزاقى يتجاوز عمره السادسة .

— سيظفرون بنا هنا . وما عسانا نفعل آنذاك ؟

— سيكون ثمة الكثير من اللحم الفج آنئذ !

والى جانب عربة مزينة زينة بهيجة وقف عجوز أشيب ، أتمان قرية كما يبدو من هيئته وتعاليه ، يخطب :

— سألته : «يعنى لازم أن يموت الناس على شاطئ النهر ؟ متى سيتسنى لنا العبور الى الجانب الآخر ؟ سيمزقنا الحمر عن بكرة أبينا» . فقال معاليه : «لا تخف ، أيها الجد ! سوف نحافظ على مواقعنا وندافع عنها حتى يكون جميع الناس قد عبروا . سنهلك ولكننا لن ندع زوجاتنا وأطفالنا وآباءنا يقاسون الأمرين» .

كان جمع النساء والشيوخ المتحلّقين حوله يصغون اليه باهتمام زائد ، وارتفع منهم خليط شامل من الأصوات حينما توقف العجوز هنيهة ليجر نفسه :

— فلِمَ عبرت البطارية اذن ؟

— كادوا يسحقوننا بحوافرهم فى عجالة عبورهم .

— وها قد وصلت الخيالة .

— يقولون ان غريغورى ميليخوف قد ترك الجبهة .

— من سيدافع عنا الآن ؟ الجنود كانوا السباقين فى العبور ، وخلفوا الأهالى وراءهم .

— كل واحد يلوذ بجلده .

— الجميع يخونوننا .

— يجب أن نبعث للحمر بشيوخنا مع الخبز والملح ، فقد تأخذهم الشفقة بنا ولا يعاقبوننا .

وانعطف فارس عند زاوية الشارع ازاء البناية الطابوقية الكبيرة للمستشفى . وكانت بندقيته معلقة على قربوس جلده ، ويتأرجح رمح الى جانبه .

فصاحت عجوز فرحة : «لعمرى ، هو ذا ولدى ميكيشكا !» وجرت نحوه ، تشق طريقها بين الخيل والعربات وتتوثب فوق العرائش . فأمسكوا بالخيال من ركابه وأوقفوه . فرفع فوق رأسه رزمة رمادية مختومة وصاح :

— أحمل بريدا الى رئيس الأركان ! دعونى أمر !

فصاحت العجوز متأثرة ، وخصلات شعرها الأشيب مسدولة على وجهها اللامع : «ميكيشكا ، يا صغيرى العزيز !» ثم سألته بابتسامة مرتعشة ، وهى تضغط بجسمها على جنب الحصان :

— هل مررت بقريتنا ؟

— نعم ، الحمر فيها الآن . . .

— وبيتنا . . .

— بيتنا لا يزال قائما . الا أن بيت فيدوت حرق عن آخره . سرت النار الى سقيفتنا كذلك ، الا أن الحمر أخمدوها بأنفسهم . أما فتيسكا فقد لاذت بالفرار وأخبرتنا أن ضابطهم أمرهم ألا يحرقوا أيا من بيوت القوزاق الفقراء ، بل جميع الدور التى تعود للبرجوازيين .

فرسمت المرأة اشارة الصليب وقالت :

— حسنا ، الحمد لله ! ليحفظهم المسيح !

فتدخل عجوز صارم مغضبا :

— ما الذى تقولين ، يا امرأة ؟ أضرموا النار فى بيت جارك وأنت تجأرين بـ«الحمد لله !»

فردت المرأة بسرعة وحيوية :

— ليتخطفه الشيطان ! جارى يستطيع بيسر أن يبنى له بيتا جديدا ، ولكن ماذا كنت سأفعل لو أضرمت النار فى دارنا ؟ لفيدوت جرة مدفونة ملأى بالذهب ، أما أنا فكنت أعمل طيلة حياتى أجيرة لدى الآخرين .

ومال الخيال من سرجه قائلا :

— دعينى أذهب ، يا أمى ! علي أن أسرع بهذه الرزمة .

سارت المرأة الى جانب الحصان بعضا من الوقت تقبل يد الخيال ، ثم قفلت راكضة الى العربة ، بينما مضى هو يصيح بصوت جهورى فتى :

— افسحوا الطريق ! لدي رزمة للقائد العام . افسحوا الطريق !

وراح الحصان يتواثب ويجانب ، فأفسح الجمع له الطريق على مضض . وبدا على الخيال أنه كان يتحرك ببطء ، بيد أنه سرعان ما اختفى وراء العربات ، وراء ظهور الثيران والخيل ، ولم يبن غير رمحه المتأرجح فوق الجمع الحاشد وهو يشق طريقه صوب النهر .

٦١

وفى بحر النهار نُقلت الى الجانب الآخر للنهر جميع القوة المتمردة واللاجئون كذلك . وكان آخر العابرين سرايا خيالة كتيبة فيشنسكايا التابعة للفرقة الأولى التى يقودها غريغورى ميليخوف . وكان غريغورى واثنتا عشرة سرية مختارة قد استطاعوا الصمود أمام ضغط الحمر ، وذلك حتى المساء ، وفى حوالى الساعة الخامسة ، ولدى استلامه اشعارا من كودينوف بأن الجيش واللاجئين قد عبروا النهر جميعا ، أصدر أمره بالتراجع .

وبموجب خطة المتمردين كان على السرايا المسحوبة من القرى الواقعة على الضفة اليمنى أن تعبر وتلازم ضفة النهر ، كل سرية مقابل قريتها . وعند انتصاف النهار وصلت التقارير الى القائد العام

تفيد أن أغلبها قد اتخذت مواقعها .

وحيثما كانت هناك فجوات واسعة بين القرى ، نسبت هيئة الأركان فيها سرايا تتألف من قوزاق مناطق السهوب ، أما بقية هذه السرايا فقد أبقيت فى مؤخرة خط النار احتياطا . وهكذا امتدت جبهة المتمردين على الضفة اليسرى للدون الى أكثر من مائة فرست ، من أقصى قرى منطقة كازانسكايا فى الغرب حتى مصب الخوبر .

ما ان عبر القوزاق النهر حتى شرعوا بالتهيؤ لحرب الخنادق ، فراحوا يحفرون الخنادق على عجل ، ويقطعون وينشرون أشجار الحور والصفصاف والبلوط ، ويشيدون الحفائر وأوكار الرشاشات . وجرى الاستيلاء على جميع الزكائب الفارغة من اللاجئين ، فملئت رملا ، ونظمت استحكامات أمام صف الخنادق الطويل .

وعند المساء كان حفر الخنادق قد تم فى كل مكان . وأخفيت وراء فيشنسكايا البطاريتان الأولى والثالثة فى غابات صنوبر . ولم يكن لدى المدافع الثمانية سوى خمس قذائف فقط . وقد نفدت الخراطيش كذلك تقريبا . فأرسل كودينوف سعاة يحملون تعليمات مشددة تمنع أى اطلاق بالبنادق وتأمر كل سرية بانتقاء واحد أو اثنين من خيرة رماتها وتجهزهم بكميات كافية من الرصاص ، بحيث يصبح باستطاعتهم أن يقتنصوا أى حامل رشاشة أحمر أو آخرين يظهرون فى شوارع القرى الواقعة على الجانب الأيمن . أما بقية القوزاق فلم يسمح لهم باطلاق النار الا اذا حاول الحمر عبور النهر .

كان الوقت غسقا حين خرج غريغورى ليفتش مواقع فرقته ، ثم عاد ليقضى الليلة فى فيشنسكايا .

وفى تلك الليلة مُنعت جميع الأضواء والنيران فى فيشنسكايا والمروج المحيطة بها . فسبحت الضفاف بضباب بنفسجى . وفى

بكرة الصباح التالى ظهرت أولى الدوريات الحمر على تلال بازكى وسرعان ما غدوا يظهرون ويختفون على جميع التلال الواقعة على الضفة اليمنى من أوست–خوبرسكايا الى كازانسكايا . ثم اختفت الدوريات وخيَّم فوق المنحدرات صمت ثقيل موات الى أن انتصف النهار .

فى طريق هتمان العام كانت الريح تثير اعمدة الغبار . والدخان الأرجوانى الحالك للقرى المحترقة ظل يتصاعد فى جهة الجنوب . وجعلت سحب ، كانت الريح قد فرقتها ، تتجمع من جديد ، وراح برق شاحب يحوم فوق الأرض . وبدا كأن هزيما من الرعد يمزق كتل السحب المتعلقة ، وطفق مطر قوى ينزل مدرارا . فراحت الريح ترسله أمواجا راقصة فوق القمم الكلسية للتلال القائمة على جانب الدون ، وفوق عباد الشمس الذاوى من الحرارة الشديدة ، وفوق الحنطة العطشى . فأنعش المطر الأوراق الصغيرة المغبَّرة ، وتلألأت براعم الربيع طرية ، وأقام عباد الشمس المدوّر رؤوسه المسودة من جديد ، وارتفع من الحدائق الفواح الحلو للبطيخ الناضج ، وتصاعد البخار من الأرض الملفوحة فيما كانت تطفئ ظمأها . . .

وبعد الظهر عادت الدوريات الحمر تظهر كرة أخرى فوق التلال التى امتدت سلسلة على الضفة اليمنى للدون الى بحر آزوف .

ومن التلال كان بالمستطاع رؤية الضفة الرملية المستوية للجانب الأيسر لعشرات الفرسخات تتشعب عليها الحواف الخضر للجداول . انحدرت دوريات الحمر بحذر الى داخل القرى . وراح المشاة يتدفقون وراءهم حذر التلال . وكانت البطاريات الحمر ترتقى أكمات الحراسة ، حيث كان خفراء بولوفتسى وعصابات البدو يقفون فى سالف الأيام يترقبون ظهور الأعداء .

فتحت بطارية النار على فيشنسكايا . فانفجرت القذيفة الأولى

فى الساحة ، وسرعان ما امتلأ الهواء بنتف ومادية صغيرة من الدخان الذى انبعث من انفجار القذائف وسحب المتثار البيض بلون اللبن . ثم فتحت ثلاث بطاريات أخرى النار على فيشنسكايا وعلى خنادق القوزاق الممتدة على النهر . وشرعت الرشاشات تثرثر غضبى .

كان ثمة رشاشان من طراز هوتشكيس يطلقان قذائفهما فى دفقات قصيرة الأمد . بينما ظل مدفع من طراز مكسيم يصب حممه صبا مستديما كضربات طبل من حديد ، بعد أن حدد المدى الذى كان المشاة المتمردون يتحركون فيه على الضفة المقابلة . وهدرت العربات صعدا الى الأكمات ، وحفرت الخنادق فى المنحدرات التى يغطيها الشوك . وقرقعت عربات خفيفة وأخرى ذوات عجلتين على الطريق العام ، مثيرة سحبا من الغبار طويلة متموجة .

غدا هزيم المدفعية يسمع الآن على امتداد الجبهة كلها . وظلت بطاريات الحمر تصلى الضفة المقابلة بنار حامية من التلال الستراتيجية حتى موهن متأخر من المساء . وكانت الحقول الندية بالخنادق التى يحتلها المتمردون صامتة على امتداد خط النار . وكانت خيل فرسان القوزاق قد أخفيت على ضفاف النهر يغطيها القصب والبردى والأسل ، حيث لا تزعجها الذباب والحرارة الشديدة . وكانت الأشجار وأغصان الصفصاف العالية تحجبها حجبا تاما عن أعين الراصدين الحمر .

لم تكن العين لتقع على أى امرىء على امتداد المروج الخضر ، خلا أشباحا صغيرة ، من حين لآخر ، للاجئين يهرعون بعيدا عن الدون . وكان رماة الرشاشات الحمر يطلقون وراءهم بضع طلقات ، وعلى أزيز الرصاص يقذف اللاجئون المذعورون بأنفسهم على الأرض . فيلبثون مستلقين بين الحشائش الكثيفة حتى الغسق ، وآنذاك فقط

ينطلقون راكضين صوب الغابات ، دون أن يلقوا نظرة الى الخلف ، مسرعين باتجاه الشمال ، الى المتاهة المضيافة لأشجار الحور الرومى والبتولا .

* * *

ظلت فيشنسكايا مدة يومين عرضة لقصف المدفعية الشديد المتواصل . فلم يخرج السكان من سراديبهم . ولم تدب الحياة فى الشوارع التى نخرتها القذائف الا ليلا .

انتهت هيئة الأركان العامة للمتمردين الى الاستنتاج بأن مثل ذلك القصف الثقيل لم يكن سوى تمهيد لمحاولة عبور النهر ، وكانوا يتوجسون خيفة من احتمال عبور الحمر للنهر مقابل فيشنسكايا مستهدفين الاستيلاء على الموضع ودق أسفين خلال خط الجبهة الطويل ، فيشطرونه شطرين ، ثم يقضون على قوات التمرد قضاء تاما بشن هجمات جانبية . وبناء على أمر من كودينوف رُكزت فى فيشنسكايا أكثر من عشرين رشاشة مزودة بكميات احتياطية كبيرة من الذخيرة . وصدرت التعليمات الى آمرى البطارية ألا يطلقوا قذائفهم المتبقية الا اذا حاول الحمر العبور . أما المعبر وجميع الزوارق فقد سُحبت الى موضع من الماء الراكد على مبعدة من فيشنسكايا ووضعت عليها حراسة قوية .

أما بالنسبة لغريغورى ميليخوف فقد بدت مخاوف قيادة هيئة الأركان لا أساس لها . فعبَّر عن رأيه بقوة فى اجتماع للمجلس العام للحرب . وتساءل :

ـــ أتحسبون أن هناك أى احتمال بعبورهم الى فيشنسكايا ؟ انظروا : ان الضفة فى هذا الجانب جرداء كالدف ، رملية ملساء ،

وليس على جانب الدون نفسه شجرة او دغل . فمن تبلغ به الحماقة حتى يعبر من هناك ؟ فعلى شاطئ اجرد كهذا ستقوم الرشاشات بحصدهم عن آخرهم . لا يأخذن بك الظن ، يا كودينوف ، بان قادة الحمر اغبى منا . اذ ان لدى بعضهم رؤساء على اكتافهم افضل مما لدينا . كلا ، لن يحاولوا الاستيلاء على فيشنسكايا . فالاحتمال اقوى فى انهم سيحاولون العبور اما حيث يكون النهر ضحلا ، حيث توجد مخاضات عبر الضفاف الرملية ، او حيث توجد ارض مغطاة بالغابات ودق الشجر . يجب علينا ان نضع حراسة مشددة فوق مثل هذه المواقع : وخصوصا فى الليل . يجب ان نحذّر القوزاق الا يند عنهم صوت او رائحة ، يكشف عن مكانهم ، ولنجلب الاحتياطى لكى يكون لدينا شىء ما نقاتل به اذا حلت المتاعب .

فسأله واحد منهم :

— تقول انهم لن يحاولوا الاستيلاء على فيشنسكايا ؟ فلماذا يقصفونها بهذا الشكل ، اذن ؟

فاجاب غريغورى :

— الاحسن ان تسألهم عن ذلك ! اتراهم يقذفون فيشنسكا فقط ؟ ماذا عن كازانسكايا ويرنسكايا ؟ كل ما فى الامر ان لديه بضع قذائف اكثر مما لدينا . اما مدفعيتنا اللعينة نحن فليس لديها سوى خمس قذائف ، ولهذه القذائف اغلفة من البلوط !

فانفجر كودينوف ضاحكا ، وقال :

— اصاب الثور فى عينه !

فقال آمر البطارية الثالثة غضبا :

— لا جدوى فى مثل هذا النقد الآن . علينا ان نتكلم بشكل جدى . . .

فتجهم كودينوف وعبث بنطاقه :

— استمر فى كلامك ، من الذى يمنعك ؟ الاوامر صدرت اليكم مرة تلو المرة الا تبددوا قذائفكم ، بل تحتفظون بها للظروف الحرجة . لكنكم على العكس ، رحتم تطلقون النار على كل ما يلوح امام نظركم ، حتى على عرباتهم . ولهذا فليس من حقك ان تستاء من النقد . ان موقفكم مدعاة للضحك تماما كما قال ميليخوف .

اقتنع كودينوف بحجج غريغورى ، ودعم باصرار اقتراحه الرامى الى وضع حراسة قوية فى جميع الاماكن الصالحة للعبور وتجميع القوات الاحتياطية فى مكان قريب . كما اتخذ قرار بنقل عدة رشاشات الى السرايا الواقعة فى الاماكن التى يحتمل العبور منها .

حل اليوم التالى فأكد ما توقعه غريغورى من ان الحمر لن يحاولوا العبور قبالة فيشنسكايا وانما سينتقون موضعا اكثر ملاءمة لذلك . ففى الصباح بعث آمر السرية المعسكرة مقابل كروموك بتقرير يفيد بان الحمر كانوا يستعدون لعبور النهر . اذ ان الحرس ظلوا يتسمعون طوال الليل الى اصوات حركة تنبعث من الجانب الآخر للنهر . وقد يجيء بالواح خشبية الى كروموك على عربات لا تحصى ، وبعد ذلك مباشرة تناهت الى مسامع القوزاق عبر النهر اصوات المناشير وضربات المطارق والفؤوس . وبدا كأن الحمر يقومون بصنع شىء ما وخيل للقوزاق بادئ الامر انهم كانوا يصنعون جسرا عائما ، فمضى قوزاقيان جريئان مسافة نصف فرست صعدا على امتداد الشاطئ ، ثم خلعا ملابسهما وغطيا رأسيهما باغصان صغيرة وانحدرا طافيين مع التيار . وحين مرا على مقربة من الضفة سمعا رجالا من الجيش الاحمر يتحدثون داخل مترسة رشاشة غير انهما لم يجدا شيئا فى الماء ، فتبين ان الحمر لم يكونوا يشيدون جسرا .

ظلت النقطة الامامية تراقب ضفة العدو فى يقظة متزايدة . وحينما اطل الفجر لم يتمكن الراصدون ، الذين لم تتخلَّ اعينهم عن النواظير لحظة ، من رؤية اى شيء زمنا من الوقت ، الى ان تبيَّن احدهم ، وكان يعتبر افضل رامٍ فى الكتيبة ، شبحا خلال العتمة المتضائلة لجندى احمر يقود حصانين مسرجين حذر الدون .

فهمس القوزاقى لرفيقه : «ان احدهم يمضى حذر الدون» . ونحَّى ناظوره جانبا .

خاض الحصانان فى النهر وشرعا يردان .

فلوى القوزاقى الحمالة الطويلة لبندقيته حول مرفقه الايسر ، ورفع ، واتخذ هدفه بعناية وتأن .

ازت الاطلاقة ، فانقلب احد الحصانين على جنبه ، وانطلق الاخر هاربا صعد المرتقى . فانحنى الجندى الاحمر ليحل السرج عن الحصان الميت ، الا ان القوزاقى اطلق ناره من جديد ، ثم ارسل ضحكة ناعمة حينما رأى الجندى الاحمر يشد قامته بحدة ويحاول ان يعدو مبتعدا عن النهر ، ثم يهوى فجأة على وجهه ولا يقوم بعدها .

ما ان وصل التقرير عن استعدادات الحمر حتى اسرج غريغورى حصانه وانطلق عليه الى الموقع . فاتخذ طريقا ملتويا خلل الغابات غير انه قرر ان يقطع الفرسخين الباقيين جريا سريعا عبر المرج المكشوف ، معرضا نفسه لاحتمال اطلاق النار عليه من جانب الحمر . واذ اراح حصانه بضع دقائق ، اختار لسانا اخضر من اشجار الصفصاف ، ناتئا عن ارض الغابات الواقعة على جانب الدون من الناحية الاخرى للمرج ، ثم رفع سوطه . فهوت الضربة اللاسعة على كفل الحصان ، فنصب الحيوان اذنيه وانطلق كالطير صوب اشجار الصفصاف . ولم يكد غريغورى يطوى مسافة قليلة

عبر المرج حتى شرعت رشاشة تلعلع من الجانب الاخر للنهر . وراحت الرصاصات تتطاير من فوقه تصفر كالفئران البرية فقال فى نفسه : «عالية جدا» ، وهو يهز العنان ويلصق وجنته بعرف الحصان . وبدا حامل الرشاشة الاحمر وكأنه قد خمن ما دار فى ذهن غريغورى ، فخفض مرمى رشاشته ، وصارت الرصاصات تتواثب وتتقافز تحت حافرى الحصان الاماميتين ، ناثرة الوحل من الارض التى كانت لا تزال بليلة بماء الفيضان الربيعى .

قام غريغورى على ركابيه وكاد ان يتمدد تماما على رقبة الحصان الممدودة ، وكان لسان غابة الصفصاف الاخضر ينطلق باتجاهه . وحينما طوى نصف المسافة ارعد مدفع ميدان من التل المقابل . فجعل الهدير غريغورى يتأرجح على سرجه . ولم يكد الازيز المولول للمنثار يتلاشى من اذنيه ، ولا استقامت العيدان التى قوسها ضغط الهواء الشديد ، من جديد ، حتى انطلق المدفع يرعد كرة اخرى . وبدا الهدير الضاج كأنه يبلغ اشد قوته ، ثم توقف فجأة طرفة العين . وفى طرفة العين تلك ، ارتفعت امام عينيه غيمة سوداء ، واهتزت الارض اثر ضربة قاصمة ، وقذفت قادمتا الحصان فى مكان ما فى الفضاء . . .

افاق غريغورى اثناء سقوطه . انكفأ على رأسه ، خابطا الارض بشدة حتى ان سرواله انشق عند ركبتيه ، وانقطعت السيور . كان النسف الهائل للانفجار قد قذفه مسافة ما عن حصانه ، وحينما هوى انزلق على الحشيش ، حتى احترقت يداه ووجنته .

قام على قدميه وقد بهرته السقطة . وانهمرت كالمطر ، من عل ، كتل ونثار من التراب والحشيش . وكان حصانه منطرحا على مبعدة عشرين خطوة تقريبا من الحفرة التى احدثتها القذيفة . كان رأسه بلا حراك ، غير ان سيقانه وكفله العرقان وذيله ، كانت ترتعش ارتعاشا عصبيا رتيبا .

كانت الرشاشة قد لاذت بالصمت . ولم يكن ثمة صوت مدة خمس دقائق من الزمن خلا صوت طيور السماك تطلق النذير بين عيدان القصب . فمضى غريغورى الى حصانه ، وهو ينافح للتغلب على دوخته . كانت ساقاه ترتجفان ، واحس بهما ثقيلتين على نحو غريب ، كما لو كان قد جلس جلسة غير مريحة زمنا طويلا . ازاح السرج عن الحصان ، وما كاد يبلغ القصب التالف بفعل القذيفة فى اقرب حرش اليه ، حتى شرعت الرشاشة تتأتئ من جديد . الا انه لم يستطع ان يتسمع الى ازيز الرصاص المتطاير ، فلا بد انهم كانوا يصوبون نارهم نحو هدف جديد . ثم وصل بسلام الى قبو آمر السرية بعد ساعة .

افاد آمر السرية قائلا لغريغورى :

— توقفوا عن الطرق الآن . لكنهم سيستأنفون ذلك هذه الليلة . لعلك سترسل الينا ببعض الخراطيش ، فليس فى حوزتنا سوى مشبكين لكل رجل .

— سوف تصلكم الخراطيش هذا المساء . لا تتوقفوا لحظة عن مراقبة الصوب الاخر .

— اننا نراقب على ما يرام ! ونحن نفكر بالطلب الى البعض ان يتطوعوا ليعبروا النهر هذه الليلة سباحة بغية اكتشاف ما يصنعون .

فتساءل غريغورى :

— لِمَ لم ترسلوا احدا الليلة الماضية ؟

— ارسلنا بالفعل رجلين ، بيد انهما خشيا من الذهاب الى داخل القرية . سبحا بمحاذاة الضفة ، الا انهما لم يذهبا الى ابعد من ذلك . ومن تستطيع ان تجده راغبا فى الذهاب الآن ؟ انها مغامرة خطرة : ما ان تبلغ احدى نقاطهم الامامية حتى تلقى حتفك . وليس القوزاق بالمغامرين الاشداء حينما يكونون على مقربة

من قراهم . كانوا اثناء الحرب ضد الالمان ، مستعدين للمغامرة بأى شىء سعيا للحصول على الاوسمة ، اما الآن فان عليك ان تتوسل اليهم لقبول واجب الخفارة . اضف الى ذلك ان النساء صرن يسببن لنا المتاعب . جئن الى هنا وعثرن على ازواجهن ، وها هن يقضين الليل فى الخنادق . ولست بمستطيع اجلاءهن من هنا . حاولت ان اطردهن البارحة ، فتوعدنى القوزاق . قالوا لى : «ليكن سلوكك اعقل قليلا ، والا صفينا الحساب معك !»

ثم مضى غريغورى من قبو الآمر الى الخنادق المتعرجة خلال الغابة على مبعدة خمسين خطوة تقريبا من الضفة الى الدون . كانت ثمة اجمة من اشجار البلوط والحور تحجب الرابية الصفراء لصدر الاستحكامات عن اعين العدو . وكانت خنادق المواصلات تصل ما بين الخط الامامى والمخابئ التى كان القوزاق يخلدون الى الراحة فيها . وكانت ثمة خارج الحفائر ، اكوام رمادية من جلود السمك المجفف وعظام لحم الغنم وقشور عباد الشمس وبقايا طعام اخرى ، وتدلت من الاغصان جوارب وسراويل داخلية من الكتان ولفافات ارجل وقمصان نوم وتنورات نسائية ، لم يمض وقت طويل على غسلها .

انبثق رأس حاسر لامرأة شابة ناعسة العينين من اول حفيرة . فدعكت عينيها واجالت نظرها فى غريغورى دون اكتراث ، ثم اختفت كالفأر البرى داخل الفجوة السوداء للجحر . وكان صوت غناء خافت ينبعث من الحفيرة الثانية حيث امتزج صوت نسائى صاف ، مكتوم غير عال ، باصوات الرجال . وكانت ثمة امرأة كهلة انيقة الملبس تجلس خارج منفذ الحفيرة الثالثة وقد ارتاح فى حضنها رأس شاب لقوزاقى نائم . وبينما كان هذا مرتاحا فى غفوته ، راحت هى تفلي رأسه بهمة وتقصع القمل الاسود على

مشط خشبى ، او تهش الذباب الذى كان يحط على وجه «شائبها» . ولو لم تكن هناك تلك اللعلعة الغاضبة لرشاشة الجانب الاخر للدون وذاك القصف الخافت للقذائف القادم من اعلى المجرى ، لظن المرء انهم جماعة من جامعى القش يستريحون فى الغابة ، اذ ما اشد الدعة التى بدت على سرية المتمردين .

لم يحدث ابدا خلال سنى الحرب الخمس ان رأى غريغورى خطا اماميا عجيبا كهذا . فمضى يمشى امام الحفائر ، لا يستطيع ان يكتم ابتسامته ، وهو يلتقى على الدوام بنساء يسهرن على راحة ازواجهن : يرتقين الملابس ، ويغسلن الاغطية ، ويهيئن الطعام ، وينظفن الاوعية والاوانى .

وحينما عاد غريغورى الى حفيرة آمر السرية قال له :

— هل انتم مرتاحون جدا هنا ؟

فتبسم الرجل واجاب :

— على احسن ما يرام .

فتجهم غريغورى قائلا :

— لعل راحتكم اكثر من اللزوم ! أبعد النساء من هنا فى الحال . أهذا المكان حوشك الخاص او سوق قرية ؟ سيعبر الحمر النهر عما قريب ، ولن تستطيعوا حتى سماعهم ! ستكونون منهمكين باللهاث فوق نسوتكم . أطردهن جميعا من هنا حالما يحل الغسق . سوف آتى فى الغد ، فان وقع نظرى على امرأة هنا فسوف اطيح برأسك انت قبل كل شىء .

فقال الرجل موافقا :

— انك على حق بيّن . فانا من ناحيتى ضد وجود النساء هنا ، ولكن ما عساك تفعل مع القوزاق ؟ لقد زال الضبط من الوجود . ارادت النساء ان يزرن ازواجهن . وها قد مضت علينا

ثلاثة اشهر ونحن نقاتل . . .

واحمر وجهه على حين غرة ، وجلس على فراشه القش ليخفي ازار امرأة احمر ، ثم اشاح بوجهه عن غريغورى وارسل نظرة متوعدة الى حيث كانت العينان البنيتان المبتسمتان لزوجته تختلسان النظر من وراء ستارة من الخيش كانت تحجب ركنا من القبو .

٦٢

حينما وصلت اكسينيا الى فيشنسكايا ، مضت لتنزل عند خالة لها تسكن فى ضاحية البلدة على مقربة من الكنيسة الجديدة . وامضت نهارها الاول بكامله تبحث عن غريغورى ، بيد انه لم يكن قد وصل فيشنسكايا بعد . وطوال اليوم التالى ظل الرصاص يئز والقذائف تنفجر فى الشوارع ، فلم تستطع ان تستجمع عزما كافيا لمغادرة المسكن .

وقالت لنفسها غضبى ، وهى تعض على شفتيها المليئتين حيوية وان كانتا ذابلتين ، وقد استلقت على صندوق غرفة الاستقبال : «قال لى تعالى الى فيشنسكايا ، ووعدنى اننا سنعيش معا ، وها هو الآن قد اختفى الى حيث لا يعلم الا الشيطان !» اما خالتها فقد جلست الى النافذة تحوك جوربا وترسم اشارة الصليب بعد كل طلقة . وراحت تنبح حينما تناثر زجاج النافذة مجلجلا على الارض :

— آه ، سيدنا المسيح ! انه لامر فظيع ! فيم عساهم يقتتلون ؟ اية عداوة يضمر أحدهما للآخر ؟

فتوسلت اليها اكسينيا :

— خالتى ! تعالى بعيدا عن النافذة ، فقد يصيبك شىء .

الا ان العجوز حملقت فيها بنظرة ساخرة من وراء نظارتيها ،

واجابت غاضبة :

— ما اشد غباءك ، يا اكسينيا ! هل انا عدو لهم ؟ ما الذى يدفعهم لاطلاق النار علي انا ؟

— قد تقتلين مصادفة . فهم لا يرون اين تستقر طلقاتهم .

— اذن ، يقتلوننى لانهم لا يرون ، ها ؟ يطلقون النار على الرجال . فالرجال اعداؤهم . اما انا فعجوز وارملة . فما يريدون من اطلاق النار علي ؟ اعتقد انهم يعرفون على من يطلقون نار بنادقهم ومدافعهم .

وعند الظهر مر غريغورى منطلقا فى الشارع ، وقد انحنى كثيرا فوق رقبة حصانه . فرأته اكسينيا من النافذة ، وهرعت خارجة الى السقيفة التى يعلوها النبات المتسلق ، وهى تصرخ : «غريشا !» الا ان غريغورى كان قد اختفى تماما وراء زاوية الشارع ، مخلفا مثارا من النقع يتطامن بهدوء على الطريق . وكان من العبث محاولة الركض وراءه . فلبثت على الدرجات تذرف دموعا غضبى .

وسألتها خالتها :

— ألم يكن ستيبان ذاك الذى مرَّ منطلقا على حصانه ؟ لماذا هرعت الى الخارج كالمجنونة ؟

فردت اكسينيا خلل دموعها :

— كان واحدا من ابناء قريتنا .

فتساءلت العجوز الفضولية :

— ولكن لِمَ تبكين ؟

— ولماذا تريدين ان تعرفى ؟ ليس هذا من شأنك .

— اوه ، ليس هذا من شأنى ؟ طيب ، كان الذى مرَّ منطلقا حبيبا من احبائك ؟ والا فما كنت ستبكين مثل هذا البكاء جزافا . انا لم اعش كل هذه السنين عبثا .

وقبيل المساء دلف بروخور زيكوف الى الكوخ . كانت اكسينيا آنذاك فى حجرة الاستقبال ، وعلى صوت بروخور جرت الى الخارج وهى تصيح جذلة : «بروخور !»

فقال بروخور :

— حسنا ، يا فتاة ، لقد جعلتنى اقوم بمهمة بحث وتنقيب محترمة . انهكت قدمى بحثا عنك . انه مجنون كل الجنون ! النار فى كل مكان ، وكل روح حى يخبئ نفسه ، اما هو فان كل ما يقوله : «جدها والا ستجد لك قبرا !»

فامسكت اكسينيا ببروخور من كم قميصه وجذبته الى سقيفة الباب ، وتساءلت : «اين هو ذلك الشيطان ؟»

— همم ! لقد عاد من الخط الامامى سيرا على قدميه . قتلوا الحصان من تحته . فعاد مسعورا كما تتهيج كلبة مقيدة . وتساءل : «هل وجدتها ؟» فاجبته : «اين لى ان اجدها ؟ انا لا استطيع ان اخلقها لك» . فقال : «لا يمكن لامرأة ان تضيع كما تضيع الابرة !» يا لزئيره علي ! انه ذئب فى جلد انسان . ولكن ، هيا بنا !

وما هى الا لحظة حتى كانت اكسينيا قد حزمت صرتها الصغيرة وودعت خالتها على عجل . فتساءلت العجوز :

— هل ارسل ستيبان فى طلبك ؟

— نعم يا خالتى .

— حسنا ، بلغيه حبى . ولِمَ لم يأت بنفسه ؟ كان بمقدوره ان يشرب شيئا من اللبن ويأكل تلك الزلابية المتخلفة . . .

جرت اكسينيا خارج البيت دون ان تستمع الى كلمات خالتها الوداعية . وراحت تركض فى الشارع مسرعة حتى شحب لونها ، واضحت انفاسها لهاثا سريعا . وصار لزاما على بروخور آخر الامر ان

يرجو منها تخفيف سرعتها . فقال :

— اسمعى ! كان من عادتى انا ايضا ان اجرى وراء الفتيات فى صباى ، ولكننى لم اكن على هذه الدرجة من الاستعجال التى انت عليها . ألا تستطيعين صبرا ؟ هل هناك حريق ، ام ماذا؟ لقد انقطع نفسى . الا تستطيعين التصرف مثل الناس الاخرين . . .

وقال فى نفسه : «ها هما يجتمعان ثانية . . . حسنا ، لن يستطيع الشيطان نفسه ان يفرقهما الآن ! سوف ينعمان بالهناء ، ولكن ماذا عنى انا الذى توجَّب ان امضى باحثا عنها ، هذه القحبة ، تحت النار . . . عسى الا تتوصل ناتاليا الى معرفة ذلك ابدا ، والا مزقتنى اربا . اننى اعرف سلالتها ، فليس آل كورشونوف ممن يستهان بهم . لو لم افقد بندقيتى وحصانى فى لحظة تهالك على المشروب ، لما مضيت متسكعا هنا وهناك بحثا عنها . اى نعم ، فليلعننى الله لو فعلت ذلك ! ليتدبرا أمريهما بنفسيهما من الآن فصاعدا !»

كانت ثمة شمعة تحترق مرسلة دخانا داخل كوخ احكم غلق نوافذه . وكان غريغورى جالسا الى طاولة ، وقد فرغ توا من تنظيف بندقيته وشرع يحك ماسورة غدارته حين صر الباب فاذا باكسينيا ماثلة على العتبة. كان جبينها الشاحب الضيق مبتلا بالعرق ، وعيناها المتسعتان الغضباوان تضطرمان بلهيب من العواطف الجياشة فى وجهها الممتقع مما جعل قلب غريغورى ، وهو ينظر اليها ، يرتعش غبطة .

فقالت ، وهى تلهث بشدة : «أرسلت تطلبنى الى هنا . . . ثم ابتلعتك الارض» . فلم يكن ثمة فى الوجود فى تلك اللحظة سوى غريغورى ، مثلما كان ذات مرة منذ زمن بعيد ، فى ايام غرامهما الاولى . ومن جديد ، امحت الدنيا من الوجود حينما غاب

غريغورى ، وعادت فبعثت كرة اخرى حين غدا قريبا اليها . ودون ان تكترث لوجود بروخور ، ارتمت على غريغورى ، ولفت نفسها حوله ، مثل الكروم البرية ، وراحت تقبل وجنتى حبيبها غير الحليقتين ، وتطبع قبلات صغيرة على انفه ، وجبينه ، وعينيه ، وشفتيه ، وهى تهمس همسات متقطعة وتنتحب وتنشج :

— اوه ، كم تعذبت . . . اواه ، لكم عانيت ، يا حبيبى الاعز يا غريشا ، يا مهجة قلبى ، يا حياتى !

فتمتم غريغورى محرجا : «حسنا ، كفى ! ألا ترين اننا الآن . . . كفى . . . اكسينيا ، حسبك !» وأشاح بوجهه ، متجنبا عينى بروخور ، ثم اقعدها على المصطبة ، وازاح الشال عن رأسها ، وجعل يمسد شعرها المضطرب . وشرع يقول : «انك . . .»

— انا كما كنت دائما ، اما انت . . .

— كفى ، انت والله . . . انت لمجنونة !

فألقت بذراعيها حول كتفيه ، وجعلت تضحك خلل دموعها ، وهى تهمس مسرعة :

— كيف ، كيف فعلت ذلك ! ترسل اليَّ ، فآتيك على قدمى ، بعد ان تركت كل شىء ، ثم لا اجلتك هنا . لمحتك تنطلق على حصانك ، فهرعت اخرج وراءك ، وناديتك ، ولكنك غبت فى المنعطف . كان محتملا ان يقتلوك ، فلا اكون قد اكتحلت بنظرة اخيرة منك .

وقالت له اشياء اخرى ، اشياء كانت من الرقة والانوثة والحماقة ما تعز عن الوصف ، وهى تمسد كتفيه المهدلين طوال الوقت ، وتحدق فى عينيه بعينيها الوالهتين . كانت نظرتها تنم عن بؤس وهيام ، وعن يأس مرير فى الوقت نفسه ، مثل عينى حيوان مطارد ، حتى غدا غريغورى يشعر بالالم والحرج اذا ما

التقى نظره بها . فاسبل اهدابه ، وابتسم غصبا ، واخلد الى الصمت ، فيما راح تورد وجنتيها يزداد احمرارا ، اكثر فاكثر ، وبدا بؤبؤا عينيها وكأن ضبابة زرقاء معتمة تغشاهما .

خرج بروخور دون ان يستودعهما ، وحين صار فى السقيفة ، بصق ثم داس على البصقة بقدمه . «يا للمجنون !» قال ذلك بقسوة فيما هبط درجات العتبة وصفق البوابة بعنف ليعبّر عن شعوره هذا .

٦٣

ظلا يومين يعيشان فى حلم من الاحلام ، يصلان الليل بالنهار ، لا يعيان ما يدور حولهما . وكان يحدث ان يستيقظ غريغورى احيانا غب اغفاءة قصيرة خدرة ، فيلقى عينى اكسينيا مسمرتين عليه فى ضوء الغبش وكأنها كانت تستظهر ملامحه استظهارا . وكانت تستلقى عادة على مرفقها وقد اسندت خدها براحة يدها ، وهى تحدق فيه تكاد لا يطرف لها جفن . فيسألها غريغورى :

— لماذا تحدقين ؟

— اريد ان اشبع نظرى منك ، سيقتلونك . قلبى يحدثنى بذلك .

فيبتسم غريغورى ويقول : «حسنا ، ما دام قلبك يحدثك بذلك ، حدقى فيّ ما شئت !»

وفى اليوم الثالث ، خرج من الكوخ للمرة الاولى منذ وصولها ، كان كودينوف قد ارسل اليه المراسل تلو المراسل يطلب منه الحضور الى اجتماع يعقد فى مقره ، بيد انه كان يعيدهم اليه قائلا انهم

يستطيعون عقد الاجتماع دونه . وكان بروخور قد حصل على حصان جديد له من الاركان ، ثم مضى الى الخنادق ليلا وعاد بسرجه من هناك .

وحين رأت اكسينيا غريغورى يهم بالخروج سألته فزعة : «اين انت ذاهب ؟»

فاجاب : «أريد ان اذهب الى تتارسكى لأرى كيف يدافع رجالنا عن القرية وماذا حل بعائلتى» .

— هل مشتاق لاطفالك ؟ — واحست برعدة تتمشى فى اوصالها فلفت كتفيها الاسمرين بشال .

— نعم .

فراحت تتوسل اليه : «لا تذهب ، اتوسل اليك» . واخذت عيناها تومضان وميضا محموما فى محجريهما المعتمين . «هل عائلتك اغلى لديك منى ؟ ها ؟ انت موزّع العواطف . لِمَ لا تأخذنى معك ايضا ، وسنسوي ، انا وناتاليا ، امر وجودنا معا بشكل من الاشكال . . . حسنا ، اذهب ! ولكن اياك ان ترجع الي ! لن اقبل بعد الآن ! فانا لا اريد ان اعامل بهذه الطريقة . لا اريد !»

لكن غريغورى خرج الى الفناء دون ان ينبس بشىء ، وامتطى حصانه .

• • •

كانت سرية مشاة تتارسكى متراخية الهمة فى حفر خنادقها . وكان كريستونيا يرعد قائلا :

— ما اكثر ما يبصقون من هراء سخيف . اين المفروض فينا ان نكون ، فى الجبهة الالمانية ؟ لا تحفروا عميقا ، يا اولاد ،

لا اعمق من ركبكم . كيف يتوقعون ان نحفر اعمق من ذلك فى هذه الارض الصلدة ؟ لن يستطيع المرء ان يهشمها بمعول ، فكيف بمسحاة !

وبناء على نصيحته ، فقد حفروا فى التل الوعر شديد الانحدار على الضفة اليسرى خنادق لا تصلح لغير الاستلقاء فيها ، واقاموا حفائر فى الغابة .

وآنذاك اعلن انيكوشكا الذى لا يكل له عزم : «ها نحن الآن اشبه بالسناجب البرية ! سنعيش فى جحور الارانب ونقتات على الاعشاب . وداعا للكعك والقشطة ، وداعا ايها اللحم وانت ايتها الشعرية . ما رأيكم بقضمة من البرسيم ؟»

لم يكن رجال تنارسكى يواجهون من ضغط الحمر الا النزر اليسير . فلم تكن ثمة بطاريات موجهة صوب القرية . ولم يكن يحدث الا ان يلعلع ، بين الحين والحين ، مدفع رشاش من الضفة اليمنى ، حين يطل راصد برأسه من الخندق ، ثم يخيم بعد ذلك سكون طويل آخر .

كانت خنادق الجيش الاحمر مقامة على التل . وكان اولئك ايضا لا يطلقون نارهم الا لماما ، ولم يكن رجال الجيش الاحمر يزورون القرية الا ليلا ، ولمدة قصيرة .

* * *

بلغ غريغورى ارض المروج التابعة لقريته عصرا . كان كل شىء هناك مألوفا لديه ، وعملت كل شجرة على اثارة الذكريات فى نفسه . . . انحدر الطريق عبر «ممر العذراء» ، حيث اعتاد القوزاق فى عيد القديس يطرس من كل عام ان يشربوا الفودكا بعد تقسيم

ارض المروج بينهم . ومر بغابة اليكسى ، التى تمتد داخل ارض المروج ، كما يمتد رأس من الارض فى البحر . لقد حدث منذ اجل بعيد ان هاجمت الذئاب فى هذه الغابة بقرة تعود لقوزاقى من تنارسكى يدعى اليكسى . وها قد مر امد طويل مذ مات اليكسى ، وامحت ذاكرته كما تمحى الكتابة من على شاهدة القبر ، ونسى الاقارب والجيران لقبه ، لكن الغابة التى اعطيت اسمه ما تزال تمد نحو السماء بالتيجان غامقة الخضرة لاشجار البلوط والدردار . هنا ، كان قوزاق تنارسكى يأتون لقطع الأشجار للانتفاع منها فى بعض الشؤون المنزلية ، ولكن ما ان يحل الربيع حتى تبرز براعم فتية ناشطة حول الجذامات القديمة ، وتمر سنة أو سنتان تنمو خلالها نموا لا تستشفه الحواس ، ومن جديد تعود غابة أليكسى فتنشر فى الصيف أغصانها الخضر ، وتكتسى فى الخريف دثارا ذهبيا من أوراق البلوط التى عضها الصقيع بنابه .

وفى الصيف ، كانت شجيرات العليق الشائكة تمتد كثيفة فوق الأرض الرطبة ، وتنشغل طيور العقعق ونقار الخشب ذات الريش الزاهى ببناء أعشاشها فى أعالى أشجار الدردار الفلينية العجوز . وفى فصل الخريف ، حين يشتد الهواء ويفعم برائحة ثمر البلوط وأوراقه المتساقطة ، تأتى طيور الحجل المهاجرة فتزور الغابة الصغيرة ، أما فى الشتاء فليس ثمة الا آثار الأقدام المستديرة للثعالب وقد امتدت بخيطها المرصع فوق دثار الثلج الأبيض . وكان غريغورى كثير التردد على غابة أليكسى ينصب الأفخاخ للثعالب .

مضى غريغورى على حصانه تحت فىء الأغصان البارد يسير على الممر القديم ، وقد علته الأعشاب الآن . واجتاز «ممر العذراء» ، ثم يمم صوب «المنحدر الأسود» ، والذكريات تلعب فى رأسه كالخمرة المسكرة . كانت ثمة ثلاث أشجار حور يولى شطرها . ،

يوم كان صبيا ، ابتغاء صيد صغار البط البرى ، وازاء «البركة المدورة» كان يصطاد السمك بالخيط من الفجر حتى الغسق . وعلى مسافة أبعد قليلا ، كانت هناك أجمة قديمة وحيدة من أشجار التوت الثلجى ، كان بالمستطاع رؤيتها من فناء ميليخوف ، وفى كل خريف كان من عادة غريغورى أن يقف على درجات عتبة داره ليمتع ناظريه بمرأى تلك الأجمة . فكانت تبدو من بعيد وكأنها تمور بلهيب قرمزى . وكان أخوه الراحل بيوتر كلفا أشد الكلف بالمربيات المصنوعة من توتها المر .

أجال غريغورى بصره ، بقلب يشوبه غم هادئ ، فى مرابع طفولته . وراح حصانه يمشى الهوينا ، وهو يذود عنه ذباب الخيل والبعوض بذيله فى ارتخاء . وكانت الأحراش تحنى هاماتها برفق أمام النسيم الهاب ، وأرض المروج تموج بظلال متناثرة .

ومضى الى الخنادق التى تشغلها سرية مشاة تتارسكى ثم أرسل كريستونيا الى أبيه . ترجل غريغورى واعطى لانيكوشكا عنان حصانه ورأى من بعيد اباه العجوز يعرج مسرعا ، وحين صار على مقربة من غريغورى هتف له : «تحياتنا ، أيها القائد !» .

— مرحبا ، يا أبى !

— جئت لزيارتنا ؟

— بالكاد انتزعت نفسى . حسنا ، كيف حال الأهل ؟ أين أمى وناتاليا ؟

فلوّح بانتلاى بروكوفتش بيده وتجعد وجهه . وانحدرت دمعة على خده الأسمر .

فتساءل غريغورى بحدة وقد انتابه القلق :

— ماذا ؟ ما الأمر ؟ ما الذى حدث ؟

— لم يعبروا النهر . . .

— لماذا ؟

— ناتاليا طريحة الفراش منذ يومين . . . التيفوس ، كما يبدو ، ولم تود العجوز أن تتركها . ولكن ، لا تفزع ، يا بنى ، فانها بخير .

— وطفلاى ؟ ميشا ؟ بوليا ؟

— انهما هناك أيضا . لكن دونيا عبرت النهر . كانت تخشى البقاء هناك . . . فتاة وحيدة ، كما تعلم . راحت مع زوجة أنيكوشكا . لقد زرت البيت مرتين حتى الآن . عبرت النهر سرا خلال الليل فى قارب وزرتهم . حالة ناتاليا فى غاية السوء ، ولكن صحة الطفلين على ما يرام ، والحمد لله ! لقد فقدت ناتاليا الوعى . كانت حرارتها مرتفعة جدا حتى لقد تيبس الدم على شفتيها .

فصاح غريغورى غضبا :

— لِمَ لم تجلبهم الى هذا الجانب ؟

فساور العجوز الحنق ، حتى بدا الاستياء واللوم واضحين فى صوته الراعش حين اجابه :

— وماذا كنت تفعل ، أنت ؟ ألم يكن فى مقدورك أن تأتى الى هنا لانتشالهم ؟

فنب غريغورى محتجا بانفعال شديد :

— تحت قيادتى فرقة بأكملها . كان علي أن أدبر أمر عبورها .

— لقد بلغت مسامعنا نزواتك فى فيشنسكايا . ولا يبدو أنك عدت بحاجة الى عائلتك . . . آه ، يا غريغورى ، ان لم تكن مستعدا للتفكير بشؤون أهلك ، فما عليك الا أن تولى مزيدا من تفكيرك صوب الخالق . انى لم أعبر النهر فى هذه المنطقة ، ولو فعلت ، فهل تظن أننى سأتركهم ؟ كان رعيلى فى يلانسكايا ، وحين وصلنا هنا كان الحمر قد دخلوا تتارسكى .

فقال غريغورى وقد بح صوته وخفت :

— ما كنت أفعله فى فيشنسكايا لا يعنيك فى شىء ! ولا تحاول أن . . .

فذهل العجوز ، وأجاب : «اننى لم أقصد أى شىء !» وراح يحدق فى رهط القوزاق المتجمعين على مبعدة يسيرة ، وقد انتابه الحرج ، وقال : «اخفض صوتك ، فبمقدور هؤلاء أن يسمعوك !» ثم خفض صوته هو حتى بات كالهمس ، وأردف : «انك لم تعد طفلا صغيرا ، ويحسن بك أن تدرك ذلك جيدا . ومهما يكن ، فلا تقلق على أهلك . فستستعيد ناتاليا صحتها ، ان شاء الله ، كما أن الحمر لا يسببون لهم أية متاعب . صحيح أنهم قتلوا عجلنا ، ولكن هذا ليس بالمهم . كانوا رؤوفين بأهلنا ولم يمسوهم بسوء . لا شك أنهم استولوا على كميات كبيرة من الحبوب ، ولكن لا حرب بلا خسائر» .

— أترانا نستطيع أن نعبر بهم النهر الآن ؟

— لا اظن ، واين سنأخذ ناتاليا ، فى حالتها هذه ؟ ذلك سينطوى على خطر كبير . ثم ان العجوز تقوم بالسهر على كل شىء ، وانا شخصيا لم اعد قلقا عليهما مثلما كنت فى السابق . أتعلم ، لقد اندلعت النيران فى القرية .

— ومن احترق بيته ؟

— احترقت ساحة القرية عن آخرها وكذلك دور جميع التجار الكبار . واضرمت النار فى بيت كورشونوف دون ان تبقى منه شيئا . كانت لوكينيشنا قد هربت قبل وصول الحمر ، ولكن غريشاكا العجوز ظل فى الدار ليعنى بامور الحقل . وروت امك انه قال لها : «لن اتزحزح خطوة ولن ادع اعداء المسيح يقتربون منى ، فهم يخشون علامة الصليب» . وانت تذكر كيف كان عقله يزداد خرفا يوما بعد

يوم . لكن الحمر لم يخافوا من صليبه ، فحرقوا الدار ومرافق الحقل عن آخرها ، ولم يسمع احد بما حل بغريشاكا . ومهما يكن من امر ، فقد كان اوان اجله قد حل . الم يصنع لنفسه تابوتا منذ عشرين سنة ، ومع ذلك ظل حيا طوال هذا الوقت . . . ان الذى يقوم باضرام النيران فى القرية هو صديقك ، عليه اللعنة !

— من تعنى ؟

— ميشا كوشيفوى ، لعنة الله عليه !

— لا يمكن ان يكون هو !

— انه هو بعينه ، وحق الله ! عرّج على بيتنا ليستفهم عنك ، واخبر امك انك ستكون اول من يعقد الحبل على رقبته حالما يعبر الحمر الى الجانب الآخر . وقال لها : «سيشنق على اعلى بلوط ، ولن ادنس سيفى بدمه» . كذلك سأل عنى : «واين ولى الآخر ، بحق الشيطان ؟ كان عليه ان يرقد فى بيته فوق الموقد !» وقال : «ان امسكت ببانتلاى العجوز ، فلن الجأ الى ضربه ضربة مميتة ، بل ساظل الفحه بالسوط حتى انتزع روحه» . أرأيت اى شيطان قد تكشف عنه ! انه يطوف فى ارجاء القرية يضرم النار فى دور التجار والقسس وهو يقول : «سأحرق كل منطقة فيشنسكايا انتقاما لمقتل ايفان اليكسييفتش وشتوكمان» اى نعم ، هذا ما يقوله .

ولبث غريغورى يتحدث مع ابيه نصف ساعة بعد ذلك ، ثم مضى الى حصانه . وعلى الرغم من ان العجوز لم يشر مرة اخرى الى موضوع اكسينيا ، فان غريغورى لم يبارحه شعوره بالاكتئاب . فحدث نفسه قائلا : «ما دام ابى يدرى ، فلا بد ان الجميع سمعوا بالامر كذلك . من ترى اخبرهم ؟ من عساه رآنا معا غير بروخور ؟ لا شك ان ستيبان لا يدرى ، ام تراه يدرى هو الآخر ؟» وصرّ على اسنانه وقد احس بالخزى والغيظ من نفسه . . .

مضى الى القوزاق وتبادل معهم حديثا قصيرا . وكان انيكوشكا لا يزال يمزح ويطالب ببعض الدلاء من الفودكا للسرية . فقال ضاحكا وهو يضرب باظافره على بلعومه ليظهر ظمأه : «لا تأبهوا للخراطيش ان ارسلتم لنا الفودكا !»

ونفح غريغورى كريستونيا وابناء قريته الآخرين شيئا من التبغ الذى جلبه معه ، ولم ير ستيبان استاخوف الا حينما كان يهم بامتطاء صهوة حصانه ، فتقدم منه ستيبان متمهلا وتبادل معه التحية لكن دون ان يمد اليه يده .

كانت تلك هى المرة الاولى التى يرى فيها ستيبان منذ اندلاع التمرد ، فحدق فيه قلقا متفحصا ، وساءل نفسه : أتراه يدرى ؟ لكن وجه ستيبان الوسيم لم يشبه ايما اضطراب ، بل كان جذل المحيا ، فتنفس غريغورى الصعداء .

٦٤

قضى غريغورى اليومين التاليين فى تفقد قطاع الجبهة الذى تسيطر عليه فرقته الاولى . وحين عاد الى فيشنسكايا وجد ان القيادة العامة للاركان قد نقلت مقرها الى قرية تشورنى التى تقع على مبعدة يسيرة من فيشنسكايا . وبعد ان اراح حصانه بعض الوقت واورده انطلق مباشرة الى تشورنى .

استقبله كودينوف بسرور ، وهو يتفرس فيه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة متحدية :

— حسنا ، يا غريغورى بانتلايتش ، حدثنا بما رأيت .

فأجاب غريغورى :

— رأيت قوزاقا ورأيت الحمر عبر النهر .

— اذن ، فلم تر الشىء الكثير ! جاءتنا ثلاث طائرات الى هنا تحمل خراطيش ورسائل .

فتساءل غريغورى :

— وماذا يقول صديقك الجنرال سيدورين فى رسالته ؟

فاستطرد كودينوف بالنبرة الممراحة ذاتها :

— تعنى ، صديقى القديم سيدورين ! انه يطلب منا ان نصمد هنا بكل ما لدينا من قوة كى لا ندع الحمر يعبرون النهر ، ويقول ان «جيش الدون» على وشك ان يشن هجوما حاسما .

فعلق غريغورى هازئا :

— كلام جميل !

تغيرت لهجة كودينوف وصارت صارمة :

— انهم سيقومون بعملية انقاذ . انا لم اخبر احدا غيرك بذلك ، وهو امر فى منتهى السرية . ففى غضون اسبوع ، سيكونون قد نفذوا خلال جبهة الجيش الاحمر الثامن . ويجب علينا ان نصمد !

— اننا صامدون .

— الحمر يعدون العدة فى كروموك لعبور النهر .

فتساءل غريغورى دهشا :

— الا يزالون يضربون بمطارقهم ؟

— بلى . . . ولكن اين كنت طوال هذا الوقت ؟ ربما كنت مختفيا فى فيشنسكايا ، أليس كذلك ؟ كنت اول من امس انقب عنك فى كل مكان . ثم عاد احد سعاتى وافاد بانك لم تكن فى مقرك ، وان امرأة جميلة خرجت من هناك والدموع تترقرق فى عينيها وقالت انك خرجت على جوادك الى مكان ما . فلم استطع كبح نفسى عن التساؤل فيما اذا كنت تسلى نفسك بفتاة وتختفى

عن الانظار فى مكان ما .

فقطب غريغورى ، اذ انه لم يتقبل مزاح كودينوف بسعة صدر ، ورد بجفاء :

— عليك الا تصغى الى الاكاذيب وان تختار سعاة ذوى السة قصار ! فان ارسلت رجالا لهم السنة طوال كهذا فلسوف اقصرها لهم بسيفى .

فانفجر كودينوف هادرا بالضحك وصفق ظهر غريغورى بيده ، وقال :

— الا تستطيع ان تتحمل مزحة ؟ على اية حال ، لدي امور اكثر اهمية اريد ان اتباحث معك حولها . علينا ان نأسر واحدا من الحمر ليقدم لنا المعلومات عن الوضع . هذا اولا . ثم نريد ان نرسل سريتين من سرايا الخيالة عبر النهر من موضع ما فى هذا الجانب من كازانسكايا ، ليغيروا على الحمر . وقد يكون فى مستطاعهم العبور حتى من كروموك ، فيبثون الرعب فيهم . ما رأيك ؟

فأجاب غريغورى بعد برهة من الصمت :

— فكرة لا بأس بها .

فسأل كودينوف :

— وهل ستقود السريتين بنفسك ؟

— ولم لا ؟

— لاننا نريد قائدا محاربا لهذه المهمة . نريد آمرا محنكا ، فليست المهمة بالامر اليسير . ولو عهدت عملية العبور هذه الى يد غير ماهرة فقد لا يعود اى من الرجال حيا .

واذ نفخت كلمات كودينوف الزهو فى نفس غريغورى ، وافق على قيادة الهجوم بلا تردد : «سأقوم بالمهمة دونما ريب» .

فنهض كودينوف من مقعده ، وجعل يتحدث بحماس ، وهو

يتخطى جيئة وذهابا على ألواح الارضية الخشبية ، فينبعث منها صرير ، وقال :

— هذه هى الاسس التى كنا نبنى خططنا وتفكيرنا عليها . ليس من الضرورى ان تتوغل هذه القوة حتى مؤخرة العدو ، انما واجبها هو ان تمضى بمحاذاة الدون فتخض اعصاب العدو خضة مناسبة فى قريتين او ثلاث ، وتستولى على بعض الخراطيش والقذائف ، وتأسر بضعة منهم ، ومن ثم تكر عائدة من الطريق نفسها . هذا ، ويجب ان تتم المهمة كلها اثناء الليل ، حتى يكون بمستطاعكم العودة الى مكان المخاضة فى النهر عند الفجر . الا توافقنى على ذلك ؟ حسنا ، فكر فى الامر مليا ، وانتق غدا القوزاق الذين تريد ان تأخذهم معك ، ثم انطلقوا . لقد اجمعنا على ان ليس هناك من يصلح لهذه المهمة غيرك . واذا انجزتها بنجاح ، فان جيش الدون لن ينسى ذلك ابدا . وسوف اكتب عن ذلك تقريرا الى الجنرال نفسه حالما يلتئم شمل قواتنا بقوات اصدقائنا . ولسوف ادرج كافة خدماتك ومآثرك مما سيؤدى الى ترقيتك . . .

ثم توقف فجأة حين لاحظ وجه غريغورى يكفهر غضبا ، بعد ان كان هادئا طوال الوقت .

— من تظننى اكون عندك ؟ . . — قال غريغورى ذلك وهو يضع يديه بسرعة وراء ظهره وينهض من مقعده . — أتحسب اننى اذهب بهذه المهمة سعيا وراء الترقية ؟ أتحسب ان باستطاعتك ان تستأجرنى ؟ تلوح لى بالترفيع ؟ اننى . . .

— مهلا لحظة !

— انا ابصق على ترقيتك هذه !

— مهلا ! اسأت فهمى تماما !

— فهمتك كل الفهم ! — وغص غريغورى بالكلام ، فجلس

على المقعد من جديد . — ابحث لك عن شخص آخر . لن اقود اى قوزاق عبر الدون !

— غضبك من غير ما داع .

— لن اتولى القيادة ، وكفى .

— حسنا ، انا لا اقسرك على ذلك او اتوسل اليك . اذا اردت ان تقود ، قُد ، واذا لم تشأ ، فالامر متروك لك . وضعنا الحالى فى منتهى الخطورة ، ولهذا قررنا الا ندعهم يمضون فى استعداداتهم للعبور ، اذا كان الامر فى مقدورنا . اما عن ترقيتك ، فاننى كنت امازحك بها . انت لا تستطيع ان تتحمل اية مزحة . وقبلها كنت امازحك حول تلك المرأة ، فثارت ثائرتك ايضا . كنت لا اقصد سوى استثارتك . فانا اعرف انك نصف بلشفى تكره المناصب الرفيعة . ومع ذلك فقد اخذت الامر بمنتهى الجد ! كنت اغيظك ممازحا ، لا لشىء الا لكى اراك تثور .

ثم ضحك كودينوف ضحكة لا تكلف فيها حتى ان غريغورى حسب ، لحظة ، انه ربما كان يمزح فعلا فى اقواله تلك . لكنه رد عليه بعناد :

— مهما يكن من أمر ، فلن اتولى قيادة المهمة . لقد غيرت رأيـى .

فجعل كودينوف يعبث بطرف نطاقه من غير ما اكتراث . ثم قال بعد فترة طويلة من الصمت :

— حسنا ، لا يهم ذلك ، سواء كنت قد غيرت رأيك او اصابك الخوف من المهمة . انما المهم فى الامر هو ان موقفك هذا سيفسد علينا خططنا . وان كنا ، بلا ريب ، سنجد شخصا آخر بدلا منك . فلست انت الشجاع الوحيد بين القوزاق . ولكن احكم بنفسك بمدى خطورة الموقف الذى نحن فيه . لقد ارسل

الي كوندرات مدفيديف نشرة اخرى اليوم . تقول ان الحمر قد وصلتهم تعزيزات كبيرة . هاك ، اقرأها انت بنفسك والا فلا احسبك ستصدقنى . . .

واخرج من حقيبة الميدان طبقة مصفرة من الورق تعلوها بقع قاتمة من اثر الدم ، ثم اعطاها الى غريغورى :

— لقد عثروا عليها عند قوميسار سرية امنية او شىء من هذا القبيل . وكان لاتفيا . ظل هذا النغل يقاوم الى آخر خرطوشة لديه ، ثم قذف بنفسه ، وهو رافع حربته ، على رعيل كامل من القوزاق . كان كوندرات هو الذى صرعه . ان للعدو رجالا شجعانا ايضا ، وهم اولئك الذين يؤمنون بعقيدتهم . وقد وجدوا لديه نشرة التعليمات هذه

امر الى قوات الحملة

٨ رقم ١٠٠

بوكوتشار ٢٥ ايار ١٩١٩

يتلى امام جميع السرايا ، وسرايا الخيالة ، والبطاريات

لقد دنت نهاية تمرد الدون المكلل بالعار !

لقد ازفت الساعة . وأتخذت كافة الاستعدادات اللازمة . فقد حشدت قوات كافية لمحق الخونة . وأزفت الساعة لتصفية الحساب مع اشباه «هابيل» الذين مضى عليهم اكثر من شهرين وهم يسددون الطعنات الى ظهور جيوشنا المحاربة فى الجبهة الجنوبية . ولقد ظل عمال وفلاحو روسيا كلها يرقبون عصابات القوزاق هذه وهى تمد يد العون ، تحت راية حمراء زائفة ، الى مالكى الارض «المائة السود» ، دينيكين وكولتشاك .

أيها الجنود ، أيها القادة ، يا قوميسارية الحملة التأديبية : لقد تم انجاز الاستعدادات . والآن ، ومع الايذان بالهجوم : انطلقوا الى الأمام !

ان أوكار الخونة والمارقين الأدنياء يجب أن تدك ، وأشباه هابيل يجب أن يقضى عليهم . ولا تأخذن بكم الرحمة بالمناطق التى تبدى مقاومة

فى وجهكم ! ولا رحمة الا بأولئك الذين يلقون سلاحهم طوعا وينضمون الى جانبنا ! أما الضالعون بركاب دينيكين وكولتشاك ، فجابهوهم بالرصاص والفولاذ والنار ! أيها الرفاق الجنود ، ان روسيا السوفييتية تضع أملها فيكم . عليكم أن تطهروا الدون من وصمة الخيانة السوداء فى أيام معدودات . لقد أزفت الساعة !

الى الأمام ، هبوا هبة رجل واحد !

٦٥

فى التاسع عشر من أيار أصدر رئيس هيئة أركان لواء الحملة التابع للجيش الأحمر التاسع أمرا بأن يحمـــــل ميشا كوشيفوى رسالة مستعجلة الى مقر قيادة الكتيبة الثانية والثلاثين ، التى كان من المقرر أن تكون فى قرية كورباتوفسكى .

فبلغ كوشيفوى القرية فى مساء اليوم نفسه ، غير أنه لم يعثر على مقر الكتيبة فيها . كانت القرية تغص بقوافل الأمتعة التابعة لوحدة أخرى ، وكانت تمضى قادمة من الدونيتس ومتجهة صوب أوست–مدفيديتسا ، ترافقها سريتان من المشاة للحماية .

فلبث ميشا يتجول فى القرية زهاء الساعتين لمعرفة محل وجود مقر الكتيبة الثانية والثلاثين . وأخيرا أخبره فارس من الجيش الأحمر أن مقرها فى قرية يفلانتييفسكى ، فى منطقة بوكافسكايا .

وبعد أن أطعم ميشا جواده ، مضى الى يفلانتييفسكى ، غير أنه لم يعثر على مقر الكتيبة هناك أيضا . وفى طريق عودته الى كورباتوفسكى بعد منتصف الليل صادف فى السهب دورية من الجيش الأحمر . وحينما كان لا يزال على مبعدة منهم ، تناهت اليه صيحة أحدهم : «من هناك ؟»

— صديق .

فجاء صوت أوكرانى أبح : «جسنا ، فلنر أى صديق أنت . . .» وتقدم منه ضابط يعتمر قبعة فرائية بيضاء ويرتدى سترة زرقاء غامقة . «من أية وحدة أنت ؟»

— لواء الحملة التابع للجيش التاسع .

— أتحمل هوية رسمية ؟

فأبرز ميشا أوراقه . وبينما كان آمر الدورية يتفحصها تحت ضوء القمر ، مضى يستجوب ميشا مرتابا :

— ومن هو آمر لوائكم ؟

— الرفيق لوزوفسكى .

— وأين هو لواؤكم الآن ؟

— عبر الدون . من أى كتيبة أنت ، أيها الرفيق ؟ الثانية والثلاثون ؟

— كلا . نحن فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون . ولكن ، من أين جئت ؟

— من يفلانتييفسكى .

— وأين وجهتك ؟

— كورباتوفسكى .

— أوهو ! هناك قوزاق الآن .

فقال ميشا دهشا :

— أهذا صحيح ؟

— صدقنى ، ان فيها قوزاقا الآن . . . قوزاقا متمردين . لقد جئنا من هناك توا .

فتساءل ميشا بقنوط :

— فكيف يمكننى أن أصل الى بوبروفسكى اذن ؟

— ذلك من شأنك .

ثم ضرب الآمر جواده الأدهم بسوطه ، ومضى عن ميشا ، غير أنه ما لبث أن استدار على سرجه وهتف له : «خير لك أن تأتى معنا والا ظفر بك القناصة» .

فانضم ميشا الى الدورية بسرور . ومضى معها تلك الليلة حتى بلغوا قرية كروجيلين ، حيث مقر كتيبة تاغانروغ ٢٩٤ ، فسلّم الرسالة الى آمر الكتيبة ، وبعد أن شرح له السبب فى عدم استطاعته تسليم الرسالة الى الجهة المعنية ، سأله أن يسمح له بالبقاء فى الكتيبة مع دورية راكبة .

كانت فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون ، المؤلفة حديثا ، قد سحبت من المنطقة القريبة من أستراخان الى منطقة فورونيج . وقد قذف بأحد ألويتها ، الذى ينتظم كتائب تاغانروغ وديربنت وفاسيلوفسكى ، الى المعركة للقضاء على التمرد القوزاقى . وكان هذا اللواء هو الذى انقض على فرقة غريغورى ميليخوف الأولى وأجبرها على عبور الدون .

استأنف اللواء زحفه ، على امتداد الضفة اليمنى للدون ، متجها صوب منطقة أوست–خوبرسكايا ، مستوليا على قرى نهر تشير بجناحه الأيمن ، ولم يتوقف ليعود الا بعد أن أمضى قرابة أسبوعين فى المنطقة .

وأسهم ميشا فى المعارك التى دارت للاستيلاء على كارغينسكايا وعدد من القرى الواقعة على نهر تشير . وفى صباح السابع والعشرين من أيار ، صف آمر سريته رجاله فى جانب الطريق ، وتلا عليهم أمرا كان قد استلمه توا . وبعد ذلك ظلت هذه الكلمات عالقة فى ذهن ميشا كوشيفوى : «ان أوكار الخونة والمارقين الأدنياء يجب أن تدك ، وأشباه هابيل يجب أن يقضى عليهم . . .» وكذلك : «أما الضالعون بركاب دينيكين وكولتشاك ، فجابهوهم بالرصاص

والفولاذ والنار !»

فمنذ اليوم الذى علم فيه ميشا باغتيال شتوكمان وبلغته شائعات مقتل ايفان أليكسييفتش وشيوعيى بلانسكايا ، تملكه شعور طاغ بالكراهية للقوزاق . ولم يعد يفكر ، أو يصغى الى نداء الرحمة الخافت المنبعث من قلبه ، اذا ما وقع قوزاقى متمرد فى يديه . فلم يبد رأفة بأى منهم ، بل كان يتوجه بالسؤال الى الأسير بعينين زرقاوين باردتين كالثلج : «أشبعت من مقاتلة الحكومة السوفييتية ؟» ثم يهوى بالسيف على الرجل بقسوة دون أن ينتظر منه ردا على السؤال أو يلقى نظرة على وجهه المصعوق . ولم يقتصر على قتل الأسرى ، ولكنه كان يسلط ألسن النار القرمزية من شعلة احراق على أفاريز السقوف فى بيوت القرى التى هجرها المتمردون ، فاذا ما اندفعت الأبقار والثيران عبر الأسيجة وقد تملكها الذعر وانطلقت تخور فى الشارع ، أطلق عليها النار فأرداها قتيلة .

وأعلنها حربا شعواء ماحقة على بطر القوزاق وغدرهم ، وعلى نمط حياتهم الجامد الراكد الذى لم يعكر صفوه شىء ، قرونا طوالا ، فى بيوت القوزاق المنيعة . فكان مصرع شتوكمان وايفان اليكسييفتش بمثابة الوقود لكراهيته ، ثم جاءت كلمات الامر القصيرة الواضحة فكانت تجسيدا دقيقا لمشاعره العمياء . ففى اليوم الذى تلى الامر على سريته قام هو وثلاثة رفاق آخرين باضرام النار فى مائة وخمسين دارا فى كارغينسكايا وحدها . وكان قد عثر على شىء من النفط الأبيض فى مخزن أحد التجار ، فدار به الى الساحة وقد أمسك بعلبة من عود الثقاب بيده . فخلف وراءه خطا من الدخان الحريف واللهيب يندلع من دور القسس والتجار زاهية الطلاء ومن بيوت أغنياء القوزاق ، مرابض أولئك الذين : «دفع تآمرهم بجماهير القوزاق الجاهلة الى التمرد» .

كانت الدوريات الراكبة أول من يدخل القرى المهجورة ، فكان كوشيفوى يأتى على حرق بيوت الأغنياء قبل أن يصل المشاة . وكانت الرغبة العارمة تعتمل فى صدره للوصول الى تتارسكى بأى ثمن ليأخذ ثأر ايفان وشيوعيى بلانسكايا من أهل قريته . وكان يحدث نفسه بأنه سيضرم النار فى نصف القرية على الأقل ! وكان قد أعد فى ذهنه قائمة بالدور التى يجب احراقها اذا ما بلغ تتارسكى فعلا . فاذا لم يقدَّر لكتيبته أن تمر بها ، فقد عقد العزم على التسلل اليها ليلا من غير ما اذن .

وكانت ثمة دوافع اخرى ، علاوة على رغبته فى الانتقام ، تستحثه للذهاب الى تتارسكى ثانية . ففى غضون العامين الماضيين كان يلتقى بدونيا ميليخوفا كلما وجد نفسه فى القرية ، فتنامت لديهما عاطفة حب لم يفصحا عنه . لقد كانت أصابع دونيا السمر هى التى خاطت له كيس تبغه الملون المطرز ، وكانت هى التى أعطته سرا زوجا من القفازات المصنوعة من شعر الماعز الناعم ليحمى بهما يديه من قر الشتاء ، وكان منديلها المطرز الصغير هو الذى يحتفظ به ويرعاه بحنان فى الجيب العلوى لقميصلته العسكرية . فكان هذا المنديل الصغير — الذى كانت طياته لا تزال تحتفظ ، رغم مرور أشهر ثلاثة ، بعبق جسد الفتاة ، الذى يحاكى عبق التبن — عزيزا على قلبه الى حد يعز عن الوصف . وكان كلما أخرجه من جيبه ، يستعيد بانفعال ذكرى شجرة حور جردها الصقيع الأبيض قائمة الى جانب بئر ، وثلج خفيف ينث من سماء مدلهمة ، وشفتى دونيا الراعشتين وألق الثلج البلورى يحوم على أهداب عينيها .

تهيأ لزيارة قريته واتخذ استعدادات حصيفة لها ، فانتزع بساطا ملونا من حائط فى بيت أحد تجار كارغينسكايا ، وشده تحت مرشحة حصانه . كما عثر على سروال يكاد يكون جديدا فى

صندوق أحد القوزاق ، وقص ستة شالات نسائية فجعل منها ثلاثة أزواج من لفافات الساق ، ودس زوجا من القفازات الصوفية فى حقيبته ليرتديها قبيل رحيله الى تتارسكى .

فمنذ القدم ، كانت العادة أن يرتدى الجندى أفضل ما لديه لدى عودته الى أهله . وكان ميشا ما يزال أسير هذه العادة القوزاقية ، رغم كونه جنديا فى الجيش الأحمر ، فعمل كل ما فى وسعه لمراعاة هذا التقليد القديم .

كان حصانه أشهب بديعا استولى عليه من قوزاقى صرعه أثناء احدى المعارك . وكان ، بمنظره المهيب وسرعته ، مدعاة للزهو ، لكن سرج ميشا لم يكن ليليق بذلك الحصان ، فقد كان جلده مخدشا وممزقا ، وأجزاؤه المعدنية صدئة . ولم تكن الشكائم واللجام بأفضل منه حالا ، فصار لزاما عليه أن يعمل شيئا ما لاضفاء مظهر أفضل عليها . ثم أسعفه الحظ حين خطرت فى ذهنه فكرة رائعة . ففى احدى القرى عثر على سرير حديدى ذى صفائح من معدن النيكل ملقى خارج أحد بيوت التجار ، وكانت تعلو قوائمه الأربع مصاريع معدنية ملمعة ينعكس عليها ضياء الشمس . ولم تمض لحظة حتى حل ميشا هذه المصاريع من السرير ، ثم ربطها بخيوط حريرية ، اثنين الى حلقات اللجام ، واثنين الى سير العنان فوق جبين الحصان . فجعلت المصاريع تتوهج كشمس الظهيرة الناصعة فوق رأس الحصان ، حتى انبهر الحصان من شدة الألق وراح يتعثر فى سيره . لكن ميشا لم ينتزعها ، رغم أن نظر الحيوان كان يعانى منها وعينيه تدمعان بسببها .

مضت الكتيبة فى طريقها بمحاذاة الدون متجهة صوب فيشنسكايا . ولهذا لم يجد ميشا صعوبة كبيرة فى الحصول على إذن من آمر دوريته بالسماح له بزيارة أهله ليوم واحد . ولم يكتف

آمره باعطائه الاذن ، بل أضاف الى ذلك شيئا آخر . قال سائلا ميشا :

— أنت متزوج ؟

— لا .

— لديك عشيقة ، ها ؟

— لدي ماذا ؟

— أعنى حبيبة !

— حبيبتى فتاة محترمة .

— وهل لديك ساعة وسلسلة ؟

— كلا ، يا رفيق .

فعلق الآمر على ذلك بقوله : «شيء مؤسف ! !» ، كان قد اشترك فى الحرب الألمانية ، فكان يدرك أى عار تجلب على الجندى عودته الى قريته صفر اليدين من الأسلاب . فنزع من صدره هو ساعة وسلسلة كبيرة ، وقدمهما الى ميشا قائلا :

— انت محارب شجاع ! هاك ، ارتد هاتين أثناء وجودك فى القرية وابهر بهما عيون الفتيات . كنت أنا شابا ذات يوم أيضا . وأفسدت عددا لا بأس من الفتيات وأسعدت العديد من النساء فى زمانى . ولهذا فأنا أتفهم مثل هذه الأمور . قل لمن يسألك ان هذه السلسلة مصنوعة من الذهب الأميركى الجديد . واذا أحرجك أحد بخصوص ختم الصائغ ، الطمه على وجهه ! فهذا هو الشيء الوحيد الذى ينبغى فعله مع قليلى الحياء ، ولا خير فى هدر الكلام معهم . حدث لى أن كان البعض من هؤلاء الكتاب أو مستخدمى المخازن يأتوننى أمام الناس ويحاولون أن ينتزعوا النشوة منى : «آها ، أنظروا الى سلسلة الساعة المدلاة على كرشه . يحاول أن يتظاهر بأنها من الذهب الحقيقى . . . هيا ، أرنا الختم !»

لكنهم لم يعاودوا سؤالى مرة أخرى . «تريد أن ترى الختم ، ها ؟ سنرى ، هوذا ما تريد !»

ولمَّ آمر ميشا الممراح قبضته الهائلة وأطلقها الى أمام بقوة كاسحة .

علَّق ميشا الساعة والسلسلة ، وحلق ذقنه على الضوء المنبعث من نار المعسكر ، ثم أسرج حصانه وانطلق . وما ان انبلج الفجر حتى كان يدخل تتارسكى خببا .

لم يبد على القرية أنها تغيرت : كانت القبة الصغيرة للكنيسة المبنية بالطابوق لا تزال ترفع الى السماء صليبها المذهب الباهت ، وبيوت القسس والتجار لا تزال قابعة متراصة فى مواضعها حول الساحة ، وشجرة الحور لا تزال تتمتم باللغة الاليفة القديمة فوق كوخ ميشا المتهدم . ولم يكن ثمة ما هو غريب ومدهش سوى ذلك السكون العميق العالق فوق الشوارع مثل نسيج العنكبوت . كانت صفاقات الشبابيك محكمة الغلق ، وكانت ثمة ابواب مغلقة بالاقفال ، غير ان الكثرة الباقية منها كانت مفتوحة على مصاريعها . لكأن الوباء قد اجتاح القرية بخطاه الثقيلة فاخلى الافنية والشوارع من الاحياء ولم يخلِّف وراءه سوى الفراغ والخراب . ولم تكن الاذن لتلتقط اية نأمة بشرية ، او خوار بقرة او صيحة ديك . ولم تكن هناك سوى العصافير تثرثر تحت افاريز المآوى او على الاجمات .

مضى ميشا مباشرة الى بيته . لكن احدا من عائلته لم يخرج لاستقباله . كان الباب المؤدى الى السقيفة مُشرعا ، وكانت ثمة لفافات ساق عتيقة عند العتبة ، وضمادة داكنة اللون من اثر الدماء ، وريش ورؤوس دجاج تهافت الذباب عليها وقد شرع التفسخ يدب فيها . وكان واضحا ان رجالا من الجيش الاحمر كانوا قد تناولوا وجبتهم من الغذاء فى الكوخ قبل بضعة ايام ، كانت الارض

مغطاة بنثار من حطام اقداح مكسرة ، وعظام دجاج سلخ اللحم عنه سلخا ، واعقاب سكائر ، وجرائد ممزقة . فمضى ميشا الى الغرفة الامامية . كان كل شيء هناك على مثل حاله فى سالف الايام ، غير انه لاحظ ان صفاقة من الباب الارضى المؤدى الى القبو ، حيث كانت امه تخزن البطيخ فى الخريف ، كانت تبدو وكأنها موارية قليلا .

كان من عادة ام ميشا ان تحتفظ بالتفاح المجفف داخل القبو لكيلا يجده الاطفال . واذ تذكر ميشا ذلك مضى الى الباب الارضى ، وهو يقول فى سريرته : «لا ريب ان امى كانت تتوقع مجيئى ، فلا بد انها خبأت لى شيئا فى القبو» . فاستل سيفه ، ورفع الباب بمقدمته ، فاذا برائحة الرطوبة والعفن تتصاعد من القبو . جثا على ركبتيه ، وراح يحدق فى الظلمة حتى استطاع اخيرا ان يميز قنينة من الفودكا ، ومقلاة فيها بضع بيضات مقلية ، وقطعة من الخبز قضمت نصفها الفئران ، وقدحا يغطيه كوز خشبى ، وكان كل ذلك موضوعا على غطاء مائدة مفروش . اذا ، فلقد كانت امه العجوز تتوقع مجيئه حقا ! فقد اعدت له ما هو قمين بضيف معزز . فخفق قلبه بالحب والبهجة ، فيما مضى فى تنقيبه داخل القبو . كل هذه الاشياء مستها منذ ايام يدا امه الحريصتان . وعثر على زكيبة من الجنقاص معقودة بعارضة ارضية . فانزلها ووجد فيها ملابسه الداخلية العتيقة ، ولكن بعد ان رُتقت بدقة وغسلت وكويت .

كانت الفئران قد افسدت الطعام كله ، ولم ينج منها سوى اللبن والفودكا . فشرب الفودكا ، وأكل اللبن الذى زادت لذته بعد انجماده ، واخذ الملابس الداخلية ، ثم زحف صعدا .

اما امه ، فاغلب الظن انها هربت عبر الدون . وقال لنفسه : «لقد خشيت البقاء فى القرية ، وحسنا فعلت بذهابها ، والا لقتلها

القوزاق . وعلى اية حال ، فلا بد انهم اساءوا معاملتها بسببى» . ثم خرج من الكوخ ، وحلّ حصانه ، بيد انه قرر الا يذهب الى دار آل ميليخوف رأسا ، فموقعه يشرف على الدون تماما ، وقد يصيبه هدّاف جيد من الجانب الآخر للنهر فيرديه قتيلا . فعقد العزم على الذهاب الى دار آل كورشونوف ، ثم العودة الى الساحة عند الغسق ليضرم النار فى دور موخوف والتجار الآخرين والقسس ، تحت جنح الظلام .

فمضى على حصانه متواريا وراء الاقنية حتى بلغ فناء كورشونوف الفسيح ، فولج اليه عبر البوابة المفتوحة ثم ربط حصانه ، وكان على وشك ان يدخل الى البيت حينما ظهر على عتبته غريشاكا العجوز . كان رأسه الابيض يهتز وعيناه الذاويتان مغمضتين تقريبا لفرط ضعفهما ، وكانت قمصلته القوزاقية العتيقة ، بشاراتها الحمر على الياقة المدهنة ، مزررة باعتناء ، غير ان بنطاله كان شديد الارتخاء ، فصار لزاما على العجوز ان يمسك به بيديه .

فهتف ميشا من موقفه عند درجات العتبة وهو يلوح بسوطه : «كيف حالك ، ايها الجد ؟» لكن العجوز لم يجب بشيء ، بل كان الغيظ والكراهية يخالطان نظرته الصارمة .

فرفع ميشا صوته : «كيف حالك ؟»

فاجاب غريشاكا على مضض : «الحمد لله !» ، وما فتىء يحدج ميشا بنظرته الغاضبة . فلبث ميشا واقفا بهدوء وقد باعد ما بين ساقيه ، وهو يعابث سوطه ويزم ، عابسا ، شفتيه المليئتين الشبيهتين بشفاه الفتيات . ثم سأل غريشاكا قائلا :

— لماذا لم تتراجع مع الآخرين عبر الدون ، يا جد غريشاكا ؟

فتساءل العجوز :

— ومن انت ؟

— ميشا كوشيفوى .

— ابن اكيم ؟ الذى كان يشتغل عندنا ؟

— اى ، نعم .

— اذن ، فانت يا ابن الحلال ؟ سموك ميشا يوم العماد ، أليس كذلك ؟ طلعت ابن حلال نجيب حقا ! تماما مثل ابيك . كان دائما يحاول الحصول على شىء لقاء لا شىء ، وها انت ذا صورة طبق الاصل منه ، ها ؟

فنزع ميشا قفازا من احدى يديه ، وازداد عبوسا .

— ليس من شأنك من اكون وماذا ادعى . سألتك ، لماذا لم تعبر الدون ؟

— كل ما فى الامر اننى لم اشأ ان افعل ذلك ، فلم افعل . ولكن ما الذى تسعى وراءه ؟ هل بعت نفسك لخدمة اعداء المسيح ؟ تحمل نجمة حمراء على قبعتك ؟ آه يا ابن القحبة ، انت عدو لقوزاقنا اذن ؟ عدو لاهل قريتك ؟

وتقدم هابطا الدرجات مترنحا . وكان واضحا انه لم يكن يحصل على طعام كاف منذ لاذت عائلة كورشونوف بالفرار عبر الدون . فتقدم من ميشا وهو على هذا الحال ، مهملا ، سقيما ، اشعث ، وجعل يتفرس فيه بنظرة ملؤها الغضب والذهول .

فأجابه ميشا : «نعم ، انا احاربهم . ولن يمضى وقت طويل حتى نضيق عليهم الخناق» .

— آه ، ولكن ماذا يقول الكتاب المقدس فى ذلك ؟ بالكيل الذى تكيلون ، يكال لكم .

فقال ميشا بفظاظة :

— لا حاجة بك الى الاستشهاد بالكتابات المقدسة للتنديد

بى ، يا شيخ ! لم آت الى هنا لمثل هذا . اخرج من الدار حالا .

— ماذا تريد ؟

— لا يهمك ما اريد ! قلت لك ، اخرج !

— لن اترك بيتى ! انا اعرف ماذا ستفعل . انت خادم اعداء المسيح ، فهذه علامتهم على قبعتك . ها قد حدث كل شىء ، كما تنبأ الانجيل . سيقف الابن ضد ابيه ، والاخ ضد اخيه . . .

— لا تحاول خداعى . القضية اليوم ليست قضية اخوة ، بل هى واضحة كالحساب . لقد عمل ابى لديكم حتى يوم مماته ، وانا عملت لديكم قبل الحرب مزهقا روحى خدمة لكم ، وها قد حان الوقت لتصفية الحساب معكم . انقشع عن الدار ، فسأضرم النار فيها . لقد قضيتم عمركم فى دار مرفهة ، اما الآن فبامكانكم ان تعيشوا حيث كان علينا ان نعيش ، فى اكواخ القش . أتفهم ما اقول ، ايها العجوز ؟

— اى ، افهم . حل اوان هذا ، ايضا . لقد جاء فى كتاب النبى اشعيا : جثثهم سوف تتبدد ، وستفوح من اجداثهم الجيفة ، وستذوب الجبال بدمائهم .

فقال ميشا بغضب مرير :

— لا وقت لى ابدده معك ! الا تنقشع عن الدار ؟

— كلا ، ايها العدو .

فقال ميشا وهو ينزع بندقيته على عجل :

— ما كان لهذه الحرب والقلاقل ان تستمر لولا امثالك من المعاندين . اشباهك هم الذين يجلبون المتاعب للنـــاس ، ويحرضونهم على معاداة الثورة . . .

وعلى اثر الاطلاقة خر غريشاكا على رأسه ، وانبعثت منه تمتمة

واضحة وهو ملقى على الارض :

— هذه ليست مشيئتى . . . لكن مشيئتك تتحقق . يا الهى ، خذ عبدك الى جوارك . . .

وند عنه زخير ، ونز الدم ما بين عذاريه الابيضين .

فرد عليه ميشا : «انه سيأخذ روحك ! كان عليه ان ينتزعك من الدنيا منذ وقت طويل ، ايها الشيطان العجوز !» واحس ميشا بالنفور والتقزز ، فاجتاز جثة العجوز من جانبها وهرع صاعدا درجات العتبة .

وسرعان ما شب لهب ودى فى الاوراق والاغصان اليابسة التى كانت الريح قد حملتها الى السقيفة ، وسرت النار فى الحال الى العوارض الخشبية الفاصلة ما بين المخزن والسقيفة . فتصاعد الدخان الى السقوف وانثنى الى داخل الغرف . فخرج كوشيفوى . وحين فرغ من اضرام النار فى المأوى ومخزن الحبوب ، كانت ألسنة اللهيب فى الدار قد نفذت الى الخارج وصارت تلعق عوارض صفاقات الشبابيك المصنوعة من خشب الصنوبر ، وتمد ذؤاباتها نحو السقف .

وفى حرش ليس ببعيد خلد ميشا الى النوم مستظلا بفىء الكروم البرية والادغال الشوكية ، الى ان حل الغسق . اما حصانه المقيد فقد تركه يسرح باسترخاء قريبا منه . ومع اقتراب المساء استبد بالحصان العطش فجعل يصهل حتى ايقظ سيده . فنهض ميشا واورد حصانه من بئر البستان ، ثم اسرجه ومضى عليه فى الشارع . كان الدخان الحريف لا يزال ينبعث من الادوات المحروقة فى فناء كورشونوف ، ولم يبق من الدار الا اسسه الصخرية العالية وموقده شبه المحطم رافعا مدخنته السخماء الى السماء .

فيمم ميشا وجهته صوب فناء آل ميليخوف مباشرة ، وبينما

كان يدخل عبر البوابة الفى ايلينشنا تجمع قطع الخشب الصغيرة فى صدريتها . فنادى عليها بصوت رقيق : «مرحبا ، يا خالتى !» واذ رأته ، امتلكها ذعر رهيب حتى انها لم تستطع ان تنبس بشىء ردا على تحيته ، بل ارخت ذراعيها فانهمرت قطع الخشب من صدريتها .

— كيف حالك ، يا خالتى ؟

فردت ايلينشنا بنبرة متقطعة : «الحمد لله ! . . الحمد لله !»

— سليمة معافاة ؟

— سليمة ، ولكن لا تسل عن عافيتى .

فسألها ، بينما هو يترجل عن حصانه ويمضى اليها :

— وأين هم قوزاقك ؟

— فى الجانب الآخر من الدون . . .

— ينتظرون وصول «الكاديت» ؟

— أنا لا أهتم الا بشؤون النساء . . . فلست أفقه حرفا من هذه الأمور . . .

— وهل يفدوكيا بانتلاييفنا * فى الدار ؟

— رحلت هى الأخرى عبر الدون .

فصاح ميشا بصوت مرتعش : «وما الذى جعلهم ، بحق الشيطان ، يذهبون كلهم !» ثم اخشوشن صوته غضبا :

— دعينى أقل لك شيئا ، يا خالتى : لقد تكشف ابنك غريغورى عن عدو لدود للحكومة السوفييتية . وحينما نعبر الى الضفة الاخرى ، فان رقبته ستكون أول رقبة يلتف حولها الحبل . أما بانتلاى بروكوفتش فما كان عليه أن يهرب . انه عجوز وأعرج ،

---

* وهو الاسم الكامل لدونيا . **المترجمون** .

كان من الخير له أن يبقى فى بيته . . .

فسألته ايلينشنا بقسوة ، وقد شرعت تلم الخشب وتضعه فى صدريتها من جديد : «أيبقى لينتظر موته ؟»

— الموت بعيد عنه . كان من المحتمل أن ينال شيئا من الجلد . وما كان لأحد أن يقتله . ومع ذلك ، فأنا لم أجئ للتحدث حول هذا الموضوع .

ثم عدّل من وضع سلسلة الساعة على صدره ، وأردف قائلا وهو يخفض بصره :

— الواقع أننى جئت لزيارة يفدوكيا بانتلاييفنا . اننى شديد الأسف لعبورها هى الأخرى الى الجانب الآخر للدون . لكننى أريد أن أقول لك شيئا ، باعتبارك امها : اننى أريدها من أمد طويل ، ولكننا هذه الأيام لا نجد متسعا من الوقت للاهتمام بأمور النساء ، فنحن منهمكون بالقضاء على الثورة المعادية ، وها نحن نمحقها محقا لا مجال فيه للرحمة . وحالما نفرغ منها وتقام السلطة السوفييتية فى كل مكان ، فسأرسل اليك آنئذ من يطلب يد ابنتك يفدوكيا .

— ليس هذا وقتا مناسبا للتباحث بمثل هذه الأمور .

فأجاب ميشا عابسا ، وقد انعقد جبينه مقطبا :

— بل هو الوقت المناسب ! انه ليس مناسبا لعقد الخطبة ، ولكن لابأس فى التحدث بالأمر . لست حرا فى التصرف بوقتى . فأنا اليوم هنا ، وقد يرسلوننى غدا عبر الدون . ولهذا فأنا أحذرك . ليس لك أن تعطى يفدوكيا الى أى رجل آخر ، والا فالويل لك . أما اذا جاءتك رسالة من كتيبتى تعلمك بمقتلى ، فلك أن تزوجيها شخصا آخر . أما الآن فاياك أن تفعلى ذلك ، فكلانا يحب الآخر . أنا لم أجلب اليها أية هدايا ، فليس هناك مكان يستطيع المرء

شراءها منه ، ولكن اذا رغبتِ بأى شىء مما تحتويه بيوت التجار البورجوازيين ، فلا عليك الا أن تقولى ، فسأذهب فى الحال وآتيك به . . .

— لا سمح الله ! أنا لم أمس ممتلكات الآخرين حتى الآن .

— حسنا ، كما تشائين . بلّغى دونيا أعمق تحياتى ان رأيتها قبلى ، والآن ، الى اللقاء ، يا خالتى . لا تنسى ما قلته لك .

فمضت ايلينشنا الى داخل البيت دون أن ترد عليه ، وامتطى ميشا حصانه ومضى به صوب الساحة .

فألفاها تعج بجنود الجيش الأحمر الذين هبطوا اليها من التل لقضاء الليلة . وكانت أصواتهم العالية تتعالى فى الشوارع . واستوقف ثلاثة منهم ميشا ليتفحصوا أوراقه الرسمية ، وكانوا يحملون مدفعا رشاشا خفيفا الى نقطة أمامية تقع على جانب الدون . والى جانب دار سيمون تشوكن التقى بأربعة آخرين . كان اثنان منهم يدفعان عربة يدوية ذات عجلتين محملة بالشوفان ، فيما كان الاثنان الآخران يقدمان العون لزوجة سيمون المسلولة فى حمل ماكنة خياطة وزكيبة من الطحين . فعرفت المرأة ميشا وحيته . فتساءل ميشا : «ماذا عندكم ؟» .

فرد عليه الجندى الأحمر بلهجة فتية : «اننا نحاول أن نسدى لهذه المرأة العاملة بعض العون . اننا نقدّم لها ماكنة خياطة وشيئا من الطحين يعودان الى أحد البورجوازيين» .

ثم أضرم ميشا النار فى سبع دور تعود الى التاجر موخوف وتجار آخرين ، والى القسين ، والى ثلاثة قوزاق اغنياء ، كانوا كلهم قد هربوا الى جبهة الدونيتس . ولم يغادر القرية الا آنئذ ، فمضى على

صهوة حصانه صعد التل ، ثم استدار . كان اللهب الأحمر يتصاعد من تتارسكى تحته ذؤابات هائلة من الشرر ، صوب السماء السوداء ، وصورة النيران تتراقص على مياه الدون الدفوق وكانت الريح تدفع باللهب ناحية الغرب ، فتنثنى ثم تغور لتأتى على البنايات بلا كلل .

كان ثمة نسيم عليل يهب قادما من السهوب الشرقية ينشر اللهب ويحمل على أجنحته شررا قادحا أسود نحو البعيد . . .

محتويات

الجزء السادس